روايات  الهلال

إمرأة من روما

البرتو مورافيا

www.library4arab.com/vb

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

العدد ٥٠٢ اكتوبر ١٩٩٠
ربيع اول ١٤١١ هـ
No. 502 Oc. 1990

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرون جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم أرسال عملات نقدية بالبريد .

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب . ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس : FAX 3625469

أسعار البيع للعدد فئة ٤٠٠ قرش

لبنان ٢٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٥٠٠ فلسا ، الكويت ١٥٠٠ فلسا ، العراق ٢ دينار ، السعودية ١٥ ريال .

اشترك فى روايات الهلال

الكويت : السيد عبد العال بسيونى زغلول الصفاة ـ ص . ب رقم 13079٢١٨٣٣ - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من روايات الهلال اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

الغلاف بريشة الفنانة
سميحـــة حسنيـــــن

إمرأة من روما

بقلم

البرتو مورافيا

ترجمة

زغلول فهمى

www.library4arab.com/vb

دار الهلال

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية
LA ROMANA
تأليف
ALBERTO MORAVIA

نشرت هذه الرواية لاول مرة فى روايات الهلال فى أغسطس وسبتمبر ١٩٧١ ونعيد نشرها اليوم كاملة بمناسبة رحيل مؤلفها البرتومورافيا فى الشهر الماضى .

www.library4arab.com/vb

مقدمة المؤلف

قد يعترض بعض قراء « امرأة في روما » بأن امرأة بسيطة غير متعلمة من عامة الشعب لن تكون قادرة على سرد قصة حياتها بالاسلوب الادبى السليم الذى أعرتها أياه • وفى الواقع فان هذه هى المشكلة التى واجهتنى منذ البداية • اذ فتح أمامى طريقان لسرد الترجمة الذاتية الخيالية لتلك الشخصية التى شئت أن أصورها ـ فاما أن اتخذ أسلوبا واقعيا تصويريا مستخدما فى الحديث يمثل امرأة تنتمى الى طبقة آدريانا وتحترف مهنتها وهى لهجة خشنة فقيرة لا يمكن التعبير بها الا عن مشاعر وأحداث معدودة محدودة أو أن أجعـــل شخصياتى تتحدث بأسلوبى المعهود كما فعلت فى جميع كتبى الاخرى• فاخترت الطريق الثانى لســـببين أولهما أننى لم أجد ضرورة لتغيير أسلوبى بسبب تغيير شخصياتى وثانيهما أن لغة الادب أصدق دائما وأقدر على التعبير بطريقة شاعرية من لغة الحديث • ولا يمكننى أن أنكر أن النساء من صنف آدريانا لا يتحدثن عادة كما تتحدث آدريانا ولا يعبرن عن المشاعر والافكار التى تعبر عنها • ومع ذلك فانى لم أنسب اليها سوى تلك المشاعر والافكار التى يمكن أن يعبر عنها من كن على شاكلة آدريانا آذا ما وهبن القدرة اللغوية والعقلية اللازمة لذلك • وبعبارة أخرى فعلى الرغم من اختلاف القدرة العقلية ومدى المعرفة عند الناس فلديهم جميعا عالمهم الاخلاقى الخاص بكامله حتى من كان منهم فى أشد حالات البؤس والتعاسة • وقد اقتصرت فى محاولتى هذه على تصوير عالم آدريانا الاخلاقى وذلك بأن أديت لها نفس الخدمة التى يؤديها الكتبة العموميون عنـــدما يترجمون عن عواطف الخادمات الاميات التى تفتقر الى الصياغة والتعبير الدقيق ويقومون بتدوينها •

القسم الأول

الفصل الأول

كنت وأنا فى السادسة عشرة من عمرى قطعة من الجمال الحق ــ فقد ضاق وجهى البيضاوى عند الصدغين وازداد عرضه أسفلهما بقليل . واتسعت عيناى الرقيقتان المستطيلتان . كما صنع أنفى خطا مستقيما مع جبهتى . أما فمى فكان واسعا ذا شفتين جميلتين حمراوين ممتلئتين ــ وكنت عندما أضحك أكشف عن ثغر نضيد ناصع البياض . وقد اعتادت أمى أن تشبهنى بمريم العذراء . كما لفت نظرى ماكان بينى وبين نجمة سينمائية ذاع صيتها حينذاك من تشابه . فبدأت أحاكيها فى طريقة تصفيف شعرها . وكذلك زعمت أمى أن قوامى كان يبز فى رشاقته جمال وجهى مائة مرة وأن قدى المشوق لم يكن له نظير فى روما بأسرها . ولكننى فى تلك الايام لم أكن أعبأ بقوامى بل كان اعتقادى أن الوجه الجميل هو كل مايهم . أما اليوم فيجب أن أعترف بأن أمى كانت على حق . فقد استقامت ساقاى القويتان وتقوس ردفاى واستطال ظهرى وضمر خصرى وعرض منكباى . كما برز بطنى قليلا وهكذا كان دواما . أما سرتى فلشد ما عمق تجويفها في بدني حتى كادت تختفي . ولكن أمي كانت تزعم أن هذا مزيد من الجمال لان بطن المرأة فى نظرها ينبغى أن يكون بارزا الى حد ما لا مستويا كما هو سائد الآن . كذلك استوى صدرى ناهدا ممتلئا ولكن في قوة ولدونة حتى أنه لم تكن بي حاجة الى ارتداء مشد للصدر . وكانت أمى كلما شكوت اليها من أن صدرى أكبر حجما مما ينبغي ترد بأنه جميل حقا وبأن صدور النساء منعدمة في هذه الايام . وكنت عندما أتجرد من ملابسى أبدو طويلة القامة فى تناسب جميل أشبه بالتمثال . هكذا قالوا لى فيما بعد . أما وأنا فى كامل هندامى فكنت أبدو فتاة صغيرة جميلة ولا يخطر ببال أحد أنى على هذه الصورة فى تكوينى الجسمانى . وقد أخبرنى الفنان الذى وقفت له لاول مرة ان ذلك يرجع الى ماكان بين أجزاء جسمى المختلفة من تناسق وتناسب .

وقد اكتشفت لى أمى ذلك الرسام ، اذ أنها كانت تعمل نموذجا قبل زواجها واشتغالها بحياكة القمصان ، فلما كلفها أحد الفنانين

ذات يوم بأن تحيك له بعض القمصان تذكرت مهنتها القديمة واقترحت عليه أن أقف له ليرسمنى وعندما ذهبت الى مرسمه لاول مرة أصرت أمي على اصطحابى اليه رغم احتجاجى بأننى أستطيع وحدى الذهاب اليه دون عناء . ولم يعترنى الخجل لاضطرارى لاول مرة فى حياتى الى التجرد من ملابسى أمام رجل بقدر ما اعترانى لما توقعت أن تقوله أمي كيما تقنعه باستخدامى . وفى الواقع فانها بعد أن فرغت من معاونتى على خلع ملابسى من فوق رأسى أوقفتنى عارية فى وسط الغرفة ثم راحت تخاطب الفنان فى حماسة قائلة : « ما عليك الا أن تتأملها . ياله من صدر ! ويالهما من ردفين ! أنظر الى ساقيها ! أين يمكنك أن تجد مثل هاتين الساقين وهذين الردفين وهذا الصدر ؟ » وبينما كانت تفوه بتلك العبارات ظلت تتحسس جسدى تماما كما يتحسس الباعة الحيوانات فى السوق لاقناع الراغبين بشرائها .
وراح الرسام يضحك فتولانى الخجل . ولما كان الوقت شتاء فلشد ما أحسست بالبرد . ولكننى أدركت أن أمى لم تكن تتكلم على هذه الصورة بدافع من الحقد بل كانت فخورا بجمالى لانها أمى ولاننى ان كنت على شيء من الجمال فانى مدينة لها به . كما بدا لى أن الفنان أدرك شعورها وأنه لم يكن له من باعث على الضحك سوى الود الصادق فشعرت بالطمأنينة . وما ان تغلبت على خجلى حتى سرت على أطراف أصابعى الى الموقد طلبا للدفء . كان من الواضح أن ذلك الفنان يناهز الاربعين من العمر وهو رجل بدين ذو أسلوب مرح سمح . وأحسست أن نظرته الى خلت من الرغبة وكأنه ينظر الى شيء جامد فأطمأن اليه قلبى . ولما توثقت بعد ذلك عرى المعرفة بيننا صار يعاملنى دائما فى رقة واحترام معاملته لكائن بشرى ولم أعد فى نظره جمادا فحسب . وقد انجذبت اليه فى الحال بل كان من الممكن أن أقع فى حبه بدافع من العرفان فحسب لا لشيء الا لرفقه بى وحدبه على . ولكنه لم يطلق العنان لشهواته قط . بل كان يسلك نحوى سلوك الفنان لا الرجل . ولم تتجاوز العلاقة بيننا قط ماكانت عليه من البعد والنظافة يوم وقفت له ليرسمنى لاول مرة .
وعندما انتهت أمي من اطراء مفاتنى اتجه الفنان دون أن ينبس ببنت شفة الى كومة من الاوراق كانت مكدسة على أحد المقاعد ففحصها ثم سحب من بينها صورة مطبوعة ملونة وعرضها على أمى قائلا فى صوت خافت « هاهى ابنتك » فابتعدت عن الموقد لأنظر الى الصورة المطبوعة . فاذا بها لامرأة عارية ترقد على فراش مكسو

بأغطية فاخرة . ومن خلف الفراش تدلى ستار من المخمل كان يدف في ثناياه طفلان مجنحان أشبه بملاكين صغيرين . وكانت تلك المرأة تشبهني الى حد كبير . غير أن أغطية الفراش الفاخرة والخواتم التى تحيط بها اصابعها قد أظهرت فى وضوح على الرغم من عريها أنها كانت بلا ريب ملكة أو شخصية هامة فى حين أنني لم أعد أن أكون فتاة عادية . ولم تفهم أمي شيئا فى أول الامر بل حملقت فى الصورة فى دهشة وفزع . وفجأة بدا عليها أنها ترى وجه الشبه بيننا . فهتفت قائلة فى انفعال : « ما أشبهها بهذه ! انها ابنتى ادريانا بعينها ! أترى كم كنت على حق ؟ ومن تكون هذه المراة ؟ »

فأجابها الفنان مبتسما :

ــ« دانيه » (١)

ــ « ومن هى دانيه ؟ »

ــ « دانيه ــ الهة وثنية » .

فارتبكت أمي قليلا اذ أنها كانت تتوقع أن تسمع اسم شخص حقيقي . ولكى تخفى ارتباكها أخذت توضح لى أننى يجب أن أستجيب لرغبات الفنان فأرقد كما ترقد المرأة فى الصورة مثلا أو أقف أو أجلس وألا احرك ساكنا طوال الوقت الذى يعمل فيه . فقال ضاحكا : ان خبرة أمي بهذا العمل تفوق خبرته هو . ومالبثت أمي أن بدات تتكلم عن نفسها عندما كانت تعمل نموذجا واشتهرت بأنها من أجمل النماذج فى روما بأسرها وعما ألحقته بنفســها من أذى بزواجها وتخليها عن عملها . وفى تلك الاثناء كان الفنان قد أرقدنى على أريكة فى نهاية المرسم حيث جعلنى أتخذ وضعا معينا مسويا ذراعى وساقى على الصورة التى يريدها . ولكنه فعل ذلك فى رقة وهو شارد الذهن مستغرق فى التفكير . ولم يكد يلمسنى بيديه كما لو كان قد رآنى بالفعل فى ذلك الوضع الذى شاء أن يرسمنى فيه . وعلى الرغم من ثرثرة أمي المستمرة بدأ يضع الخطوط الاولى على لوحة بيضاء نصبت فوق حامل . ثم لاحظت أمي أنه لم يكن ينصت اليها لاستغراقه فى رسم صورتى .

فسألته قائلة ــ « وكم تنقد ابنتى فى الساعة ؟ »

فحدد الرسام مبلغا معينا دون أن يرفع عينيه عن اللوحة . فالتقطت أمي ملابسى التى كنت قد رتبتها على المقعد وقذفتنى بها قائلة :

ــ « هيا ! ارتدى ملابسك ــ يحسن بنا أن ننصرف »

(١) Danae : انها أم برسيوس فى أساطير الاغريق وقد زارها زيوس فى صورة مرشة من الذهب .

فسألها الفنان فى دهشة متوقفا عن عمله قائلا ـ « والآن ماذا دهاك ؟ »
فأجابته أمى متظاهرة بأنها فى عجلة شديدة من أمرها قائلة ـ « لاشيء . هيا بنا يا آدريانا ـ فثمة أمور كثيرة علينا أن ننجزها » .
فقال الرسام ـ « ولكن . أنصتى . ان شئت الاتفاق فلتقدمى عرضا ـ مامعنى هذا كله ؟ »
ثم بدأت أمى فى تمثيل مشهد رهيب وهى تصيح بأعلى صوتها متهمة اياه بالجنون اذا ماخيل له أنه يستطيع رسمى بذلك الاجر الضئيل كما قالت له انني لست نموذجا منبوذا من تلك النماذج الهرمة وأننى فى السادسة عشرة من عمرى وأن هذه أول مرة أقف فيها أمام رسام . وكانت أمى كلما أرادت شيئا أخذت فى الصياح وتظاهرت بالغضب الشديد . ولكنها فى الواقع لم تكن غاضبة مطلقا بل كانت خلف ذلك المظهر هادئة كالزيت كا أعلم من خبرتى التامة بها . ومع ذلك فانها لاتفتأ تصيح كنساء السوق عندمايعرض عليهن المشترى فى مقابل سلعهن ثمنا بخسا للغاية . وكانت تصيح فى معظم الاحيان مع المهذبين من الناس لعلمها بأن آدابهم الحسنة لن تفتأ تجعلهم يذعنون لها .
وفى الواقع فان الفنان قد استسلم فى النهاية .ولم تفارقه ابتسامته طوال الوقت الذى ظلت أمى تتشاجر فيه ولكنه كان من وقت لآخر يأتى اشارة باحدى يديه وكأنه يريد أن يقول شيئا . وأخيرا توقفت أمى لتلتقط انفاسها فعاد يسألها عن الاجر الذى تريده . ولكنها لم تشأ أن تصرح بذلك على الفور . بل صاحت بغتة قائلة : « أريد أن أعلم كم دفع الرسام الذى رسم تلك الصورة التى عرضتها على لنموذجه ! »
فضحك الفنان قائلا : « وماعلاقة ذلك بما نحن فيه ؟ تلك أيام أخر ـ فربما أعطاها قفازا أو زجاجة من النبيذ » .
وبدا الارتباك على أمى كما عراها من قبل عندما أخبرها بأن الصورة للالهة دانيه . كان الفنان يتلهى قليلا فى هدوء بحديثها فى غير حقد بالطبع ولكنها لم تدرك ذلك فعاودت الصياح متهمة اياه بالشح ومفاخرة بجمالى . ثم تظاهرت فجأة بالهدوء وأخبرته بالاجر الذى تريده . فجادلها الفنان قليلا ولكنهما اتفقا أخيرا على مبلغ يقارب الاجر الذى طلبته أمى . واتجه الفنان الى منضدة فتح احد أدراجها ونقدها الاجر . فتناولت النقود وقد بدت عليها الفرحة الشديدة ثم

فارقتنا بعد تزويدى ببعض الملاحظات . فأغلق الفنان الباب ثم عاد الى لوحته وهو يخاطبنى قائلا :

ـ « أتنصيح أمك دائما ؟ »

فأجبته قائلة : « ـ انها تحبنى » .

فقال فى هدوء وهو يباشر عمله ـ « يخيل الى أن حبها للمال يفوق كل ماعداه » .

فأجبته فى حماسة قائلة ـ « لا . لا . هذا غير صحيح . فحبها لى لا يعدله حب آخر ولكن ما يؤسفها اننى ولدت فقـــيرة فهى تريدنى أن أكسب أجرا مرتفعا » .

لقد تحريت الدقة فى سرد كل ماحدث مع الفنان أولا لاننى يومئذ بدأت العمل مع أننى احترفت بعد ذلك مهنة أخرى وثانيا لان سلوك أمى فى تلك المناسبة يوضح شخصيتها وطبيعة حبها لى .

وما ان انتهت ساعة مثولى أمام الفنان حتى ذهبت لاقابل أمى فى أحد محال اللبن حيث أوصتنى بالمرور عليها . وسألتنى عما حدث وجعلتنى أروى لها كل مادار بينى وبين الفنان الصموت أثناء جلوسى له . وأخيرا نصحتنى بالحذر الشديد فربما لم تكن لذلك الفنان نوايا دنيئة ولكن الكثيرين منهم كانوا يستخدمون النماذج بقصـــد اتخاذهن خليلات . فكان على أن أصد محاولاتهم بكافة الوســائل . وقالت مفسرة رأيها : « انهم جميعا مفلسون ولا تتوقعى أن تحصلى منهم على شىء . اذ يمكنك بجمالك أن تطمحى الى ماهو أسمى من ذلك بكثير . أسمى بكثير » .

وكانت هذه أول مرة تحدثنى فيها أمى على هذه الصورة . وكانت تتكلم بلهجة حاسمة كمن يتحدث فى شى كان قد فكر فيه بعض الوقت .

فسألتها فى دهشة قائلة ـ « ماذا تعنين ؟ »

فأجابت قائلة فى شىء من الغموض ـ « هؤلاء القوم كثيرو الكلام ولكنهم مفلسون فى حين أن فتاة جميلة مثلك ينبغى أن ترافق السادة»

ـ « أية سادة ؟ انى لا أعرف أحدا منهم ! »

فنظرت الى قائلة فى مزيد من الغموض : « بمكنك فى الوقت الحاضر أن تكونى نموذجا وبعد ذلك سنرى ... فكل درجة تؤدى الى أخرى ! »

ولكن نظرتها الطامعة المتأملة التى ارتسمت على وجهها بعثت فى نفسى الذعر . فلم أعد أسألها عن شىء فى تلك المناسبة .

ولكننى على أية حال لم أكن فى حاجة الى نصيحة امي لانني كنت رغم حداثة سني غاية في الجد . فقد التقيت بآخرين بعد تنائي بذلك الفنان وما لبث أن ذاع صيتي بين الفنانين . ويجب أن أعترف بأنهم يمتازون عادة باللباقة والاحترام رغم أن بعضهم كان يكشف عن عواطفه نحوى . ولكننى صددتهم جميعا فى جفاء شديد حتى أننى لم ألبث أن عرفت بينهم بالعفة التى لايمكن أن تمس . وقد سبق أن قلت ان معظم الفنانين كانوا يعاملوننى باحترام فى أغلب الاحيان . ولعل السبب فى ذلك أنهم كانوا لايهدفون الى مضاجعتى بل الى رسمى وتصويرى . وكانوا طوال ادائهم هذا العمل لايروننى بعينى الرجل بل بعينى الفنان كما لو كنت مقعدا أو أى شيء آخر . فقد الفوا النماذج وكان جسدى العارى رغم شبابه الفض ونضوجه التام لايؤثر فيهم الا بقدر مايتأثر الطبيب . ولكن أصدقاء الفنانين كثيرا ماكانوا يوقعوننى فى الحيرة والارتباك فقد كان من عادتهم الدخول الى المرسم والتحدث الى الفنان . ولكننى مالبثت أن لاحظت أنهم كانوا رغم تظاهرهم بعدم الاكتراث قدر امكانهم يعجزون عن تحويل أبصارهم بعيدا عنى . وكان بعضهم لايعرف الحياء فقد اعتادوا أن يتجولوا فى أرجاء المرسم ليتمكنوا من مشاهدتى من جميع الزوايا . وكانت تلك النظرات فضلا عن تلميحات أمى المقنعة تثير فى نفسى احساسا بالدلال وتشعرنى بجمالى وبالمزايا التى يمكننى أن أستمدها منه . وأخيرا وجدتنى لم أتعود صفاقتهم فحسب بل ماكادت تمضى فترة وجيزة حتى صرت لا أتمالك نفسى من الشعور بالفرح كلما رأيت انفعال الزوار ومن الشعور بالخيبة كلما رأيتهم معرضين عنى غير مبالين بى . وهكذا قادتنى خيلائى على غير وعى منى الى الاعتقاد بأننى أستطيع وقتما أشاء تحسين مركزى باستغلال جمالى تماما كما قالت أمى .

ومع ذلك فقد كان الزواج حينذاك هو هدفى الرئيسى . اذ ان حواسى كانت لاتزال نائمة . وكان الرجال الذين يراقبوننى اثناء وقوفى للرسامين لا يثيرون فى نفسى سوى الزهو والكبرياء . وكنت أعطى أمى كل ما اكسبه من نقود . كما كنت فى الوقت الذى لا اقف فيه للرسامين الازمها فى المنزل حيث أعاونها على قص القمصان وحياكتها — ذلك العمل الذى كان مصدر رزقنا الوحيد منذ وفاة والدى العامل بالسكة الحديد . وكنا نسكن شقة صغيرة فى الطابق الثانى من مبنى خفيض ممتد أقيم خصيصا لعمال السكة الحديد قبل ذلك بخمسين عاما . وكان المنزل يقع فى أحد الشوارع الواسعة

التى تجمع بين مظهر الريف والمدينة ، تظلله أشجار الدلب على صورة بهيجة ويقوم على أحد جانبيه صف من المنازل المماثلة لمنزلنا . وكانت جميعها متشابهة تتألف من طابقين وواجهة طوبية علوية من طلاء المصيص فى كل منها اثنتا عشرة نافذة ست منها لكل طابق ولكل منزل باب رئيسي . أما فى الجانب الاخر فقد امتدت أسوار المدينة من برج الى برج وكانت حينذاك سليمة تغطيها الخضرة . وعلى مسافة غير بعيدة من منزلنا ثمة بوابة كانت تقوم فى تلك الاسوار وتمتد من الداخل بالقرب منها مساحة مسورة من الارض تضم متنزها للتسلية . « لونابارك » — كانت أضواؤه وموسيقاه تبعثان الحياة فى أشهر الصيف . وكنت عندما أمد بصرى من خلال نافذتى فى نظرة جانبية أرى حبال الزينة التى تتدلى منها المصابيح الملونة وسطوح الاكشاك المختلفة المزينة بالاعلام وزحام الناس حول المدخل الذى تظلله أغصان الدلب . وكانت أنغام الموسيقى التى طالما سهرت الليل أصغى اليها تبلغ سمعى فى وضوح تام . وقد فتحت عيناى على سعتهما فيما يشبه الحلم فتبدو لاذنى على الاقل كأنها منبعثة من عالم بعيد المنال بينما يقوى فى نفسى ذلك الشعور ظلام الغرفة وضيقها . فكان يخيل لى أن جميع سكان المدينة قد تجمعوا فى لونابارك وأنه لم يتخلف منهم سواى . وكنت أتوق الى مغادرة الفراش والانضمام اليهم ولكنى أظل ساكنة فى مكانى لا أتحرك . أما الموسيقى التى لاتنقطع ضوضاؤها طوال الليل فكانت تجعلنى أحس بخسارة معينة تكفيرا عن ذنب لم أدر حتى أننى اقترفته . بل كنت أحيانا انخرط فى البكاء وأنا أنصت الى تلك الموسيقى . فلشد ما حز فى نفسى أن أبقى وحيدة . وكنت حينذاك سريعة التأثر الى حد كبير، وسرعان ماتفيض عيناى بالدموع لأتفه الاسباب : لجفوة من صديقة — أو ملامة من أمى — أو لمشهد مؤثر فى السينما . ولعلنى كنت لا أحس بالحرمان من عالم تسوده السعادة لو لم تحرم على أمى فى طفولتى الاقتراب من اللونابارك أو التمتع بأية وسيلة أخرى من وسائل اللهو . ولكن ترملها وفقرها وعداءها على الاخص لكل وسائل الترفيه التى حرمها منها القدر — كان ذلك كان يجعلها تأبى السماح لى بالذهاب الى اللونابارك أو الى مكان آخر للتسلية الا بعد مضى وقت طويل عندما اكتمل نضوجى وتكونت شخصيتى فعلا . ولعل هذا هو مرجع ذلك الظن الذى لازمنى طوال حياتى بأننى مبعدة على صورة ما عن عالم السعادة المشرق المرح وهو ظن لاسبيل الى التخلص منه حتى ولو

علمت حقا أني سعيدة .

سبق أن قلت إنني حينذاك لم أكن أفكر إلا فى الزواج ويمكننى كذلك أن أذكر كيف نشأت تلك الفكرة فى ذهنى . كان الشارع الريفى الذى يقع فيه منزلنا يؤدى على مسافة غير بعيدة الى حى انتر تراء حيث يقوم عدد من البيوت الصغيرة المحاطة بالحدائق بدلا من بيوت عمال السكة الحديد الممتدة الخفيضة التى تبدو كعديد من العربات القديمة الغبراء المستهلكة . لم تكن بيوتا فاخرة ــ فقد كان يسكنها الكتبة وبعض أصحاب المحال ــ ولكنها بمقارنتها بمنزلنا الحقير كانت توحى الى بحياة أيسر وأبهج . فقد كان كل منها أولا يختلف عن الآخر . وثانيا لم تكن كلها مشققه ملوثه عاريه من الملاط فى بعض أجزائها ــ ذلك المظهر الذى جعل منزلنا ومنازل أخرى شبيهة بهتبدو وكأن سكانها قد أهملوها زمنا طويلا لا لسبب الا لعدم مبالاتهم بها . وأخيرا فان الحدائق الصغيرة المزهرة المحيطة بها كانت توحى بالحب الغيور المنزوى بعيدا عن فوضى الطريق وهرجه ومرجه ــ فى حين أن مسكنى كان على النقيض من ذلك تقتحمه فوضى الطريق فى كل جزء منه : ردهة المدخل الفسيحة الشبيهة بمخزن السلع والدرج الواسع العارى القذر بل حتى الغرف التى كان أثاثها المتداعى يذكر المرء بمحال « الخردة » حيث تعرض على الارصفة تلك القطع نفسها للبيع .

وفى احدى أماسى الصيف بينما كنت أسير مع أمى فى الطريق رأيت من خلال نافذة احدى هذه الفيللات مشهدا عائليا ترك فى نفسى تأثيرا عميقا اذ بدا أنه يتفق من كل الوجوه مع الفكرة التى كونتها عن الحياة الطبيعية المهذبة . رأيت غرفة صغيرة نظيفة يكسو جدرانها الورق المزهر وكان بها « بوفيه » ومصباح أوسط يتدلى فوق المائدة المعدة لتناول الطعام . ومن حول المائدة جلس خمسة أشخاص او ستة بينهم ثلاثة أطفال تتراوح أعمارهم فيما أظن بين الثامنة والعاشرة . وقد توسط المائدة وعاء كبير للحساء أخذت تقدم منه الام وهى واقفة . وقد يبدو غريبا أن يلفت نظرى أكثر من اى شىء آخر ذلك المصباح الاوسط او الاحرى ذلك التعبير الذى اتسم به كل شىء فى الضوء وكان هادئا طبيعيا على صورة خارجة عن المألوف . وقد حدثت نفسى فيما بعد وأنا أقلب ذلك المشهد فى ذهنى قائلة فى تأكيد انه ينبغى أن أجعل هدفى فى الحياة سكنى منزل كهذا فى يوم من الايام وتكوين أسرة كهذه وأن أعيش فى مثل هذا الضوء الذى بدا لى أنه

يكشف عن وجود عواطف ثابتة باقية لا حصر لها . لعل الكثيرين من الناس يعتقدون أن مطامحي كانت متواضعة الغاية . ولكن من يرى آنذاك يجب أن يؤخذ في الاعتبار . ولما كنت قد ولدت في أحد منازل عمال السكة الحديد فقد كان تأثير تلك الفيــللا الصغيرة على ذهني كتأثير المنازل الفخمة الفاخرة المقامة في الاحياء المترفة من المدينة على سكان تلك الفيللا أنفسهم . فما أراه نعيما يراه غيري جحيما .

ولكن أمي كانت قد وضعت خططا محكمة لمستقبلي . ومالبثت أن أدركت أنها تحول تماما دون تنفيذ تلك الاماني التي لثهـــد ما تعلق بها قلبي . فكان يخيل لها أنني يمكنني بجــمالي أن أهدف الى النجاح أيا كان نوعه الا أن أصير امرأة متزوجة لها أسرة شأن الناس جميعـــا . كنا نعيش في فقر مدقع وبدا لها أن جمـــالي هو رأسمالنا الوحيد الذي كان في متناول يدنا ولذا فانه لم يكن يخصني انا وحدي فحسب بل يخصها هي أيضا لا لسبب الا لانها أنجبتني كما قلت من قبل ... وكان على أن أستغل ذلك الرأسمال كما قضت هي لتحسين مركزنا دون اعتبار للمظاهر . ولعل المشروع كله كان مرجعه الافتقار الى الخيال . فكان أول ماتبادر الى ذهنها ونحن في مثل مركزنا أن تحول جمالي الى رأسمال . ثم توقفت أمي فجأة عند هذه الفكرة ولم تعبأ بالنظر فيما وراءها .

ولكن لشد ما قصر ادراكي حينذاك عن فهم خطط أمي وطبيعتها . ومع ذلك فاني لم أجسر قط فيما بعد عندما استبانت لي خططها تماما على سؤالها عما أدى بها الى مثل ما كانت عليه من فاقة وهي زوجــة عامل في السكة الحديد رغم اعتناقها تلك الآراء . ولكنني أدركت من تلميحات مختلفة لأمي أنني كنت السبب في فشلها لانها رزقت بي على غير رغبة منها وعلى غير انتظار اى أن أمي بمعنى آخر قد حملت بي عرضا ولم تجسر على الحيلولة دون مولدي (كما كان ينبغي لها أن تفعل على حد قولها) . فاضطرت الى الزواج من والدي وقبول كافة النتائج المترتبة على ذلكـ وغالبا ماكانت تقول لي ــ « لقد حطمت حياتي » عندما تشير الى مولدي . وهي عبارة كانت في وقت من الاوقات تسيء الي وتستغلق على مداركي . ولكنني فيما بعد أدركت معناها تماما . وهي تعني مايلي « لولاك لما تزوجت ذلك الرجل ولكانت لدى الآن سيارتي الخاصة » . وكان من الواضح وهي تفكر في حياتها الخاصة بهذه الطريقة الا تريد لابنتها التي لشد ما فاقتها جمـــالا أن ترتكب نفس الخطـأ وتلقى نفس المصير . واليوم

لايمكنني حقا وأنا أرى الاشياء من بعد معين أن أحمل نفسي على اتهامها بالخطأ . فالاسرة في نظرها كانت تعني الفقر والعبودية وبعض المتع القليلة النادرة التي تنتهي فجأة بوفاة الزوج . ولهذا كان من الطبيعي أن تعد الحياة العائلية المهذبة كارثة كبرى فكانت لي دائما بالمرصاد حتى لايجذبني ذلك السراب الذي قادها الى الهاوية .

ولشد ما كانت أمي مشغوفة بي على طريقتها الخاصة . فما ان بدأت أتردد على المرسم مثلا حتى حاكت لي ثوبين احدهما يتألف من قطعتين : سترة وازار والآخر ثوب كامل . ولكنني في الواقع كنت افضل بعض الملابس الداخلية وذلك لخجلي من خشونة ثيابي التي أعرضها على الانظار ومن رثاثتها واتساخها في أحيان كثيرة كلما اضطررت الى التجرد منها أمام الناس . ولكن أمي كانت تزعم أنني حتى لو لبست خلقا بالية فذلك لا أهمية له ما دام المظهر لائقا . وقد اختارت لي قطعتين من قماش رخيص ذي ألوان فاقعة ورسوم تلفت الانظار وقصت بنفسها الثوبين . ولكنها لما كانت صانعة قمصان ولم تصنع ثيابا قط من قبل فقد حاكتهما بطريقة خاطئة . فكان الثوب فيما أذكر خبخابا من الامام يكشف عن نهدي مما كان يضطرني دائما الى رفعه الى أعلى بمشبك صغير . أما سترة الثوب الاخر فكانت قصيرة ضيقة للغاية مما جعلها تضغط على صدري وردفي . كما قصر الكمان عن رسغي . وكان الازار من الناحية الاخرى فضفاضا للغاية مما جعله يتغضن من الامام في ثنايا . ولكنهما كانا في نظري ثوبين فاخرين لانني كنت حتى ذلك الحين ارتدي ما هو أسوأ من ذلك كالصداري والازر الصغيرة القصيرة التي تكشف عن فخذي والوشح الهزيلة الضئيلة . كما ابتاعت لي أمي زوجين من الجوارب الحريرية الطويلة . وكنت دائما من قبل ارتدي الجوارب القصيرة فتتعرى ركبتاي . فامتلأت بهذه الهدايا زهوا وغبطة . ولم أمل قط النظر اليها أو التفكير فيها . بل كنت أسير في الطرقات يراودني احساس بالذات ناصبة قامتي كما لو كنت أرتدي ثوبا لا يقدر بثمن من صنع احدى الحائكات العصريات لا ذلك الخلق التعس .

وكانت امي لا تفتأ تفكر في مستقبلي فما ابتغت أن ضاقت بمهنتي كنموذج لاعتقادها أن مكاسبها كانت نزيرة للغاية . كما أن الفنانين وأصدقاءهم كانوا فقراء معدمين ولم يكن ثمة امل في التعرف في مراسمهم الى شخصيات نافعة . وفجأة خطر لامي أن تجعل مني راقصة . وكانت ذخيرتها من المشروعات الطامحة لا تنضب قط في حين

انني كنت لا أفكر الا في حياة وادعة مع زوج وأطفال . وتشبثت بفكرة الرقص عندما طلب اليها أحد موسيقى فرق الرقص المسرحي وكان يقدم متنوعات بين الافلام أن تحيك له بعض القمصان . لم يخطر لها أن مهنة الرقص ستكون مجزية فى حد ذاتها ولكنها « درجة تؤدى الى أخرى » كما كانت تقول فى كثير من الاحيان . فان مجرد ظهورى على المسرح سوف يتيح لى الفرصة فى لقاء أحد السادة .

وذات يوم أخبرتنى أمى أنها تحدثت الى ذلك المنتج وشجعها على احضارى لمقابلته . فذهبنا ذات صباح الى الفندق حيث كان يقيم مع الفرقة بأسرها . وكان الفندق كما أذكر قصرا منيفا قديما بالقرب من المحطة . ورغم أن الوقت كان قرابة الظهر فان دهاليز الفندق جميعها كانت لا تزال غارقة فى الظلام . وقد افعم جو المكان بانطباع يحبس الانفاس هو أن النزلاء فى مائة غرفة كانوا لا يزالون ينشدون النوم ويتوددون اليه . وأخذنا طريقنا مجتازين عدة دهاليز حتى بلغنا فى النهاية غرفة انتظار معتمة كان يتدرب فى ضوئها الخافت ثلاث فتيات وموسيقى وكأنهم على خشبة المسرح . وقد وضع البيان فى احدى زوايا الغرفة بالقرب من النافذة الزجاجية المعتمة لدورة المياه . وتكدست فى الزاوية المقابلة كومة من الاوراق القذرة . وكان الموسيقى وهو رجل متهدم مسن يعزف من الذاكرة و كأنه يفكر فى شىء آخر أو غاف وسنان . أما الراقصات الثلاث فكن صغيرات السن وقد خلعن ستراتهن ووقفن فى أزرهن عاريات الاذرع والنهود . وقد احاطت كل منهن خصر زميلتها بذراعها وكن عندما يعزف الموسيقى لحنا يتقدمن ثلاثتهن نحو كومة الاوراق القذرة وقد رفعن أرجلهن الى أعلى ثم يلوحن بها ذات اليمين وذات اليسار . وأخيرا يدرن ظهورهن بينما تهز كل منهن أردافها فى حركات مثيرة شد ما كانت تتنافى مع تلك الخلفية القذرة المعتمة . وقد توقف قلبى عن الخفقان وانا اراقبهن فى حركتهن الايقاعية وهن يضربن الارض بأقدامهن ضربات ثقيلة كئيبة. كنت اعلم جيدا اننى على الرغم من ساقى الطويلتين المفتولتين لم أكن موهوبة نحو الرقص فقد سبق لى أن تلقيت دروسا بمدرسة فى حينا مع صديقتين لى . فما لبثت كلتاهما بعد الدروس القليلة الاولى أن تعلمت الخطو الموقع والرفس بساقيها وهز أردافها كراقصة خبيرة . بينما لم أستطع أنا الا ان اجر نفسى هنا وهناك وكأن قوامى من الخصر حتى قدمى قد صنع من الرصاص . وبدا لى أن تكوينى الجسمانى ليس كغيرى من الفتيات فقد كان به ثمة ثقل ضخم لم تستطع حتى الموسيقى

أن تبدده . وفضلا عن ذلك ففي المرات القليلة التي رقصت فيها كنت كلما التفت ذراع حول خصرى أحس بنوع من الاستسلام المسترخى حتى أننى لم أكن أحرك ساقى بقدر ما كنت أجرهما . وكذلك قال لى الفنان : « كان ينبغى يا أدريانا أن تولدى منذ أربعة قرون ! فقد كانت النساء وقتذاك على شاكلتك . أما اليوم فالنحافه هى مقياس الجمال . فأنت كالسمكه فى خارج الماء . ولن تمضى أربعة اعوام أو خمسة حتى تصيرى جونو (١) . » ومع ذلك فقد أخطأ التقدير ،لاننى اليوم وبعد مضى خمس سنوات لم يزد وزنى عن ذى قبل . ولكنه كان محقا فى أننى لم أخلق لذلك العصر الذى تسود فيه النحافة بين النساء . وكنت أشعر بالتعاسة لثقل حركتى كما كنت على استعداد للتضحية بأى شىء فى سبيل الفوز بالنحافة والقدرة على الرقص كغيرى من الفتيات . ولكننى رغم قلة طعامى كنت دائما قوية البنية ممتلئة الجسم كالتمثال . وكنت عندما أرقص أعجز تماما عن اللحاق بالايقاع السريع المهتز للموسيقى العصرية .

وقد صارحت أمى بكل ذلك لاننى كنت أعلم أن مقابلتى بمنتج عرض المتنوعات لن نؤوب منها الا بالفشل وكانت فكرة الخيبة تبعث فى نفسى المذلة . ولكن أمى بدأت على الفور فى الصياح زاعمة أننى أجمل بكثير من كل هؤلاء الفتيات التعسات اللاتى يستعرضن أنفسهن على المسرح وأن المنتج ينبغى أن يشكر السماء لو أتيح له أن يضمنى الى فرقته وما الى ذلك . وكانت أمى لا تدرى شيئا عن الجمال العصرى بل كانت تؤمن فى صدق بأن المرأة كلما نهد صدرها فى امتلاء واستدار ردفاها ازدادت بلا ريب فتنة وجمالا .

كان المخرج ينتظر فى غرفة تفضى اليها حجرة الانتظار ولعله من خلال الباب المفتوح كان يراقب راقصاته أثناء تدريبهن . كان يجلس فى متكأ عند طرف الفراش الاشعث الذى تعلوه صينية فقد كان موشكا على الانتهاء من تناول افطاره . كان رجلا مسنا بدينا ولكن أناقة ملبسه المفرطة ودهان رأسه ونظافته التى لا تشوبها شائبة كل ذلك أحدث تأثيرا غريبا بانعكاسه على ملاء الفراش المقلوبة فى ذلك الضوء الخافت الذى يشيع فى الغرفة الخانقة . وكانت بشرته الحمراء تبدو لى كأنها مطلية . وذلك لان حمرة وجنتيه الوردية كانت تبدو من تحتها بقع مرضية قاتمة غير مستوية . وكان يضع منظارا على

---

(١) Juno : ربة الزواج فى أساطير الرومان كما كانت زوجة جوبيتر وملكة الآلهة .

احدى عينيه وهو لا يفتأ يزفر ويلهث كاشفا عن أسنان ناصعة البياض ولعلها زائفة . كان شديد الاناقة في ملبسه كما قلت فما زلت أذكر رباط عنقه (بابيونه) الذى حاكى فى لونه ورسمه ذلك المنديل الذى دسه في جيب سترته العلوى. كان يجلس وقد برز كرشه الى الامام. وما ان انتهى من تناول طعامه حتى مسح فاه وقال فى لهجة ساخطة ملول : « هيا اكشفي عن ساقيك » .

فرددت أمى قائلة فى قلق « اكشفي للسيد عن ساقيك » .

وكان الخجل قد زايلنى بعد عملى فى المراسم فرفعت ثوبى الى أعلى وكشفت له عن ساقى ثم وقفت ساكنة ممسكة بثوبى وقد تعرى ساقاى وهما رائعتان طويلتان مستقيمتان ولكن فخذى فوق الركبة تماما تأخذان فى الامتلاء والاستدارة فى قوة ومتانة مع ازدياد سمكهما تدريجيا حتى الردفين . وهز المخرج رأسه وهو ينظر الى قائلا :

ــ « كم تبلغين من العمر ؟ »

فأسرعت أمى باجابته قائلة ــ « لقد أتمت الثامنة عشرة فى شهر أغسطس الماضى » .

فنهض فى صمت وهو يلهث قليلا ثم اتجه الى حاك كان يتوسط كومة من الاوراق والملابس فوق احدى المناضد فملأه واختار فى عناية احدى الاسطوانات ووضعها على الحاكى قائلا ــ « والان حاولى أن ترقصى على هذه الموسيقى ــ ولكن دون أن تسترى ساقيك » .

فقالت أمى ــ « انها لم تتلق فى الرقص سوى بضعة دروس .

لقد أدركت أمى أن هذه هى اللحظة الحاسمة . فساورها الخوف من النتيجة لعلمها بمدى ارتباكى وثقل حركتى .

ولكن المخرج أشار اليها بالصمت وأدار الاسطوانة ثم دعانى باشارة أخرى للبدء فى الرقص . فامتثلت لامره رافعة ازارى . وفى الواقع فانى لم أزد على تحريك ساقى أولا الى اليسار ثم الى اليمين فى شىء من البطء والتثاقل . وكنت أدرى أننى لاأساير الايقاع . وكان لا يزال واقفا بجانب الحاكى متكئا بمرفقيه على المنضدة وهو ينظر فى اتجاهى . فاذا به يقف الحاكى فجأة ويذهب ليعاود جلسته فى المتكأ مشيرا بيده الى الباب اشارة لا يخطئها النظر .

فسألته أمى قائلة فى قلق وقد تهيأت فعلا للحرب ــ « ألا يجدى هذا ؟ »

فأجابها قائلا دون أن ينظر اليها وهو يتحسس جيوبه بحثا عن

علبة السجائر

ـ لا · كلا · هذا لا يجدى »

كنت أعلم أن أمى عندما تتخلل صوتها نبرة معينة تكون قد اعتزمت أثارة شجار ولذا فقد جذبتها من ذراعها · ولكنها تملصت منى ورددت قولها بصوت أعلى مركزة عينيها اللامعتين على المخرج قائلة ـ « هذا لا يجدى هه ؟ ولماذا ـ ان كان لى أن أسأل ؟ »

وعندئذ كان المخرج الذى عثر على علبة سجائره يبحث عن الثقاب ـ وكانت كل حركة تكلفه جهدا كبيرا لبدانته ·

فأجابها قائلا فى هدوء وهو يلهث ـ « هذا لايجدى · لانها تفتقر الى ملكة الرقص · ولانها لا تملك القوام المناسب لهذا العمل » ·

وحدث ما كنت أخشاه · فقد انطلقت أمى تصيح بحججها المعهودة بأعلى صوت قائلة ـ اننى قطعة من الجمال الحق وأن وجهى يحاكى وجه السيدة مريم العذراء · وأن ما عليه الا أن يتأمل صدرى وردفى وساقى ! ظل الرجل فى مكانه هادئا تماما ثم أشعل سيجارته وأخذ يدخن وهو يراقبها منتظرا أن تنتهى من صياحها ·

ثم قال بلهجته الملول الحزينة ـ « لعل ابنتك تصلح لان تكون مرضعة ناجحة بعد عام أو اثنين ـ ولكنها لن تكون راقصة » ·

كان لا يدرى مدى ما يمكن أن تصل اليه أمى من درجات الحنق الجنونى · فتولته الدهشة على صورة جعلته يخرج سيجارته من فمه ويقف أمامها فاغرا فاه· كان يريد أن يتكلم ولكنها لم تمكنه من ذلك· كانت أمى نحيلة لاهثة مما يتعذر معه الوقوف على مصدر كل هذه الضوضاء وقد فاهت بعدد من الاساءات لشخصه وللراقصات اللاتى رأيناهن فى الدهليز · وأخيرا اختطفت بعض قطع من حرير القمصان التى كان قد عهد بها اليها وقذفته بها صائحة : « اختر من شئت لصنع هذه القمصان ···· وربما صنعتها لك راقصاتك ··· أما أنا فلن ألمسها ولو أعطيتنى ذهب العالم بأسره ! » ولشد ما تولاه الارتباك لهذه النهاية غير المتوقعة فوقف فى مكانه مذهولا مشلول اللسان وقد التف جسمه بقماش القمصان · وكنت فى تلك الاثناء لا أبرح جانب أمى من كمها وقد أوشكت على البكاء من شدة الخجل والمذلة · وأخيرا انقادت لى فغادرنا الغرفة وتركنا المخرج ليخلص نفسه من قطع الحرير ·

وفى اليوم التالى رويت للفنان الذى أصبح أمين سرى الى حد ما كل ما حدث · فضحك كثيرا من العبارة التى قالها المخرج عن

امكانياتي كمرضعة • ثم علق قائلا ـ « يالك من مسكينة يا آدريانا !
ـ فطالما قلت لك ذلك من قبل ! فما كان ينبغي أن تولدي في عصرنا المعاصر • بل منذ أربعة قرون • فما يعاب اليوم كان يعد ميزة وقتذاك والعكس بالعكس • والمخرج محق تماما من وجهة نظره • فهو يعلم أن الجمهور يريد فتيات شقراوات نحيفات ذوات نهود صغيرة واعجاز دقيقة ووجوه صغيرة ماكرة مثيرة • أما أنت فانك سمراء ممتلئة تماما في غير بدانة ذات صدر ناهد ممتلىء ـ وكذلك عجزك ! ـ ووجهك حلو رقيق • ماذا يسعك أن تفعلي في ذلك ؟ انك بغيتي المنشوده بالضبط ! استمري في عملك كنموذج ••• وذات يوم ستتزوجين وتنجبين عددا كبيرا من الاطفال السمر الممتلئين مثلك ذوي وجوه رقيقة » •

فقلت في تأكيد ـ « هذا هو ما أنشده بالضبط » •

فأجابني قائلا ـ « حسنا ! والان اتكئي قليلا على أحد جنبيك •• هكذا •••• » لشد ما كان ذلك الفنان مغرما بي على طريقته الخاصة ولعله كان يمدني ببعض نصائحه المفيدة التي كان يمكنني بها ان أتجنب أحداثا كثيرة لو انه بقي في روما وظللت آتمنه على أسراري• ولكنه كان لايفتا يشكو من اعراض الجمهور عن صوره • وأخيرا انتهز فرصة اقامة معرض في ميلان ورحل الى هناك ليستقر فيها دواما ـ وظللت أعمل نموذجا طبقا لنصيحته • ولكن الفنانين الاخرين كانوا لا يتصفون بمثل ما اتصف به من رقة وعطف ولم أشعر بميل للتحدث اليهم عن حياتي ـ التي كانت قبل كل شيء حياة خيالية من نسيج الاحلام والاماني والآمال فقد خلت وقتذاك من كل شيء •

الفصل الثانى

وهكذا واصلت عملى كنموذج رغم تذمر أمى التى كانت ترى أن مكاسبى منه ضئيلة للغاية . وكانت أمى وقتذاك لا يكاد يفـــارقها السخط والتبرم . وكنت أعلم ــ رغم تكتمها ــ أننى مصـــدر ذلك السخط بصفة أساسية . فانها كانت تتوقع كما قلت من قبل أن يحقق لى جمالى نجاحا وثراء يفوقان الخيال . أما عملى كنموذج فلم يكن سوى خطوة أولى ومن بعدها خطوة تؤدى الى أخرى كما تعودت أن تقول . فلما رات أننى لم أزد على أن أكون نموذجا ولا شىء غير ذلك احست نحوى بالمرارة والسخط وكأنى بافتقـــارى الى الطموح قـــد خدعتها وأضعت عليها مكسبا معينا . ولكنها بالطبع لم تترجم قط عن خواطرها فى ألفاظ بل كانت تلميحاتها ووقاحتها وتنهداتها وعبوسها وكل ما بقي من حركاتها التمثيلية الشفافة تعبر عن خواطرها . فكان ذلك نوعا من الابتزاز الذى لا نهاية له . وادركت لماذا ينتهى الامر بكثير من الفتيات اللاتي لا تبرح أمهاتهن الطموحات ينغصن حياتهن على هذه الصـــورة وقـــد خاب فيهن رجاؤهن الى الهـــرب من البيت والاستسلام لاول رجل يصادفنه فى الطريق لا لشىء الا للتخلص من الوضع الذى لا يطاق . وكان من الطبيعي أن تنحو أمى بسلوكها هذا النحو لانها تحبنى ولكنه حب من ذلك النوع الذى تحس به ربة الدار نحو دجاجة كثيرة البيض ــ فاذا ما توقفت عن وضع البيض أخذت تفحصها وتزنها بيدها وتقدر ما اذا كان من الاجدر أن تلوى عنقها .

ما أكثر صبرنا وجهلنا ونحن صغار ! فقد كنت وقتذاك أعيش حياة تعسة ولكننى فى الواقع لم ألحظ ذلك قط . فقد تعودت أن أعطى أمى كل ما كنت اكتسبه من نقود بالوقوف فى المراسم ساعات طويلة شاقة مملة . وفيما بقي من الوقت حين لا يدعوني وقوفى للرسم الى أن أكون عارية متصلبة متأملة كنت أجلس حانية الظهر على ماكينة الخياطة لا أرفع عن الابرة بصرى وذلك لمعاونة أمى فى عملها . كنت أواصل الحياكة حتى ساعة متأخرة من الليل ثم أستيقظ فى الصباح عند مطلع النهار لبعد هذه المراسم عن منزلنا ولان الجلسات كانت تبدأ فى ساعة مبكرة للغاية . ولكننى كنت قبل ذهابى الى العمل أرتب

فراشي وأعاون أمي فى تنظيف الشقة . وكنت فى الواقع طيعة صبورا لا أعرف الكلل وفى نفس الوقت هادئة مرحة معتدلة المزاج . أما الحسد والمرارة والغيرة فلم يكن لهـــا مكان فى قلبى بل كانت نفسى ممتلئة بالعرفان الرقيق الذى لشد ما يزهر تلقائيا فى سن الشباب ولا يعرف له سبب . كما لم الحظ قط قذارة شقتنا .

وكنا نؤدى عملنا فى غرفة فسيحة عارية تتوسطها منضدة كبيرة لا تفتأ تكسوها قصاصات وفضلات من الاقمشة بينما تتـــدلى بعض الاشياء الاخرى التافهة من مسامير دقت فى الجدران القاتمةحيث كان الجير الابيض فى سبيله الى الزوال . كما صفت بالغرفة بضعة مقاعد محطمة من الخيزران . ثم كانت هناك غرفة النوم التى تعودت أن آوى اليها مع أمى حيث أنام فى فراشها العريض الذى تعلوه فى السقف مباشرة رقعة كبيرة من البلل . فقد كان المطر يتساقط علينا من تلك البقعة عندما يسوء الجو . وكذلك كان هناك مطبخ صغير معتم تكدست فيه الصحاف والطاسات التى لم توفق أمى قط بسبب كسلها الى غسلها كما ينبغى . ولم الحظ مطلقـــا كم كانت حياتى تضحيـــة فى الحقيقة بلا لهو أو حب أو عطف حتى انى عندما أفكر فى صباى وأتذكر وداعتى وسذاجتى لاأتمالك نفسى من الشعور بالاسى فى حدة وعجز ـ كذلك الشعور الذى يراودك عندما تقرأ فى كتاب عن الكوارث التى المت بشخص خلاب وتتمنى لو أمكنك أن تبعدها عنه ولكنك تعلم أن ذلك ليس فى امكانك . غير أن هذه هى الحال ! فالناس يضيقون بالوداعة والسذاجة ولعل هذا ليس أبسط أسرار الحياة ـ ان السجايا الحميدة التى تجود علينا بها الطبيعة فى سخاء شديد لاتؤدى فى الواقع الا الى زيادة ما نعانيه من شقاء .

كان يخيل لى آنذاك أن ظمئى الى الزواج والى اقامة حياة عائلية سوف يرتوى يوما ما . وكان من عادتى كل صباح أن أستقل الترام من الساحة التى لا تبعد كثيرا عن منزلنا حيث لفت نظرى بين عدد من المبانى المقامة حديثا مبنى ممتد خفيض ملاصق لاسوار المدينة كان يستخدم « كجراج » . وفى ذلك الموعد دائما كنت أرى شابا يحدجنى بنظرات جادة للغاية وهو يغسل سيارته أو ينظفها . وكان وجهه شـــاحبا نحيلا رائع القسـمات ذا أنف دقيق مســـتقيم وعينين سوداوين وفم جميل للغاية وأسنان بيضاء . ولشد ما كان يشبـــه نجما سينمائيا أمريكيا ذاع صيته حينذاك مما لفت نظري اليه حتى خلته فى الواقع شيئا آخر عما كان عليه فى الحقيقة لاناقة ملبســـه

ومظهره الذى ينبىء بحظه الوافر من التعليم وسلوكه المهذب ــ كما خيل لى أن السيارة لابد أن تكون ملكا له وأنه فى سعة من العيش وأنه احد السادة الذين طالما تحدثت عنهم أمى . وقد استهوانى مظهره الى حد ما . ولكننى لم اكن أفكر فيه الا عندما اراه . ثم لاتلبث صورته بعد ذلك أن تفارق ذاكرتى وأنا فى طريقى الى المراسم . ومع ذلك فلابد أننى على غير وعى منى قد فتنت بطلعته فحسب . اذ أننى ذات صباح بينما كنت أنتظر الترام سمعت شخصا يحاول فى وضوح أن يجذب انتباهى بصوت أشبه بدعاء الناس للقط فاستدرت نحوه وعندما رأيته يشير الى من السيارة لم اتردد مطلقا بل اتجهت نحوه فى انقياد أعمى أثار دهشتى . وما ان فتح الباب حتى لاحظت أثناء دخولى السيارة ان يده الممدودة الى النافذة المفتوحة كانت غليظة خشنة ذات أظافر سوداء مهشمة وبنصر ملوثة من أثر النيكوتين كأيدى العمال اليدويين . ولكننى لم أنبس بكلمة بل ركبت السيارة على الرغم من ذلك . فسألنى وهو يغلق الباب قائلا ــ « أين تريديننى أن أصحبك ؟ »

فذكرت له عنوان المرسم . ولاحظت صوته الهادىء ، كما خيل لى أنه لطيف الى حد ما رغم أننى لم أتمالك نفسى من أن أحس بشىء من الزيف والتكلف فى سلوكه ..

فأجاب قائلا ــ « حسنا . فلنقم بجولة بالسيارة . فالوقت مبكر ثم أصحبك بعد ذلك الى حيث شئت . » وتحركت السيارة .

وغادرنا الحى الذى كنت أسكنه مجتازين الطريق المحاذى لاسوار المدينة ثم اخترقنا طريقا واسعا تحف به المخازن والاكواخ الصغيرة من الجانبين . واخيرا بلغنا الريف حيث اخذ يقود السيارة كالمخبول فى ممر جانبى بين صفين من أشجار الدلب . وكان يقول لى من وقت لآخر دون أن يلتفت الى « نحن نسير الان بسرعة ثمانين كيلومترا فى الساعة والان تسعين كيلومترا ثم مائة ثم مائة وعشرين ثم مائة وثلاثين » . لقد اراد ان يبهرنى بسرعة السيارة ولكن قلقى كان مرجعه بصفة خاصة أننى مضطرة الى الذهاب للوقوف أمام الرسامين وخشيت ان يطرأ خلل على السيارة لسبب او آخر ونحن فى وسط الريف . وفجأة وقف السيارة وأسكت المحرك ثم استدار نحوى قائلا :

ــ « كم تبلغين من العمر ؟ »

فأجبته قائلة « الثامنة عشرة » .

ـ « ثمانية عشر عاما ـ خلتك أكبر من ذلك » .
كان يتكلم فى الواقع بصوت متكلف لايفتأ يخفت بين الحين والحين لتأكيد كلمة ما وكأنه يحدث نفسه او يسر بشيء الى .
ـ ما اسمك ؟
ـ آدريانا . وأنت ما اسمك ؟
ـ جينو .
فسألته قائلة ـ وما عملك ؟
فأسرع باجابتى قائلا :
ـ من رجال الاعمال .
ـ وهل هذه سيارتك ؟
فنظر الى السيارة بنوع من الاحتقار قائلا ـ « نعم . سيارتى » .
فقلت له فى صراحة ـ أنا لا أصدقك . »
فردد قولى فى لهجة ساخرة مدهوشة دون أن يحرك ساكنا قائلا ـ « الا تصدقيننى ؟ حسنا . حسنا . حسنا . حسنا ـ ولم لا ؟ »
ـ « بل أنت السائق » .
فزادت دهشته الساخرة وضوحا .
ـ « والآن حقا ما اغرب ماتقولين ! حسبك أن تتخيلى هذا الان حقا .. السائق ! وماذا بالله أوحى اليك بذلك ؟
ـ « يداك » .
فنظر الى يديه دون أن يحمر وجهه غضبا أو يتولاه الارتباك . ثم قال :
ـ « الا يمكننى أن أخفى شيئا عن سيدتى الصغيرة ؟ انك لفتاة ذكية . حسنا ـ أنا السائق . هل يرضيك ذلك ؟ »
فأجبته فى حدة قائلة :
ـ « لا . لا يرضينى . وأرجو أن تعود بى الى المدينة فى الحال » .
ـ « لماذا ؟ أأغضبك منى أنى ادعيت أننى من رجال الاعمال ؟ »
وكنت غاضبة منه حقا فى تلك اللحظة دون أن أدرى لذلك سببا . فقد بدا الأمر وكأننى لم أتمالك نفسى من ذلك .
ـ « نفى حديثنا فى هذا الموضوع ـ وعد بى » .
ـ «انها دعابة فحسب . ولم لا ؟ أنكف حتى عن المزاح ؟ »
ـ « لايروقنى هذا النوع من المزاح . »
ـ « ما أحد طبعك ! كنت احدث نفسى قائلا « لعل هذه السيدة

الصغيرة من الاميرات ــ فاذا ما اكتشفت أنى سائق مسكين فحسب فلن ترمقنى حتى بنظرة ــ ولذا فسأقول لها انى من رجال الاعمال »
كانت هذه الكلمات على جانب كبير من الفطنة واللباقة لانها أرضت كبريائي وكشفت لى فى نفس الوقت عن مشاعره نحوى . وعلى أية حال فان أسلوبه الجذاب فى التعبير قد استمالنى تماما .
فأجبته قائلة :
ــ « أنا لست من الاميرات ــ ولكننى أعمل نموذجا كما تعمل انت سائقا لكسب القوت » .
ــ « نموذجا ؟ ماذا تعنين ؟ »
ــ « أذهب الى مراسم الفنانين حيث اتجرد من ملابسى ليرسموا صورى » .
فسألنى بحدة ــ « أليست لك أم ؟ »
ــ « بالطبع . لماذا ؟ »
ــ « وهل تسمح لك أمك بالتجرد من ملابسك أمام الرجال ؟ »
لم يخطر ببالى قط أن فى مهنتى مايدعو الى الخجل . وليس ثمة مايدعو الى ذلك فى الواقع . ولكننى سررت لما أبداه من شعور . فقد أظهر لى انه ذو احساس خلقي جاد . وكما قلت من قبل فانى كنت عطشى الى الطريق الطبيعى فى الحياة . وقد تكهن بدهائه ــ ولست أدرى حتى الآن كيف أمكنه ذلك ــ بما ينبغى أن يقوله وما لاينبغى . ولم أتمالك نفسى من الاعتقاد انه لو كان فى مكانه اى رجل آخر لسخر منى أو كشف عن نوع من الفلمة المسيئة لتصورى عارية . وهكذا فقد تغير على غير وعى منى ذلك الانطباع الاول الذى أحدثه كذبه فى نفسى وخيل لى أنه شخص صادق مهذب على الرغم من كل شىء بل هو بالضبط ذلك الرجل الذى تخيلته فى أحلامى زوجا لى .
فأجبته فى بساطة قائلة ــ « ان أمى هى التى اوجدت لى هذا العمل » .
ــ « اذن فمعنى هذا أنها لاتحبك » .
فاحتججت قائلة ــ « كلا . انه لايعنى ذلك . فلاشك انها تحبنى ــ ولكنها هى نفسها كانت تعمل نموذجا فى صباها . والواقع أنه لا عيب فى ذلك . فمثلى كثيرات يؤدين هذا العمل وهن فى نفس الوقت فتيات مهذبات » .
فهز رأسه فى غير اقتناع ثم قال واضعا يده على يدى ــ « اتعلمين

انى سعيد بلقائك ــ سعيد حقا » .
فقلت فى صراحة ــ « وأنا كذلك » .
عندئذ أحسست بميل نحوه . وكدت أتوقع منه أن يقبلنى .
فلاشك أنه لو فعل لما احتججت عليه . ولكنه بدلا من ذلك قال لى
فى صوت حازم كمن يحمينى :
ــ « لو كان من حقى أن أتدخل لما صرت نموذجا قط » .
وراودنى احساس بأنى ضحية وغشينى نحوه شعور بالعرفان .
ثم واصل حديثه قائلا ــ « ففتاة مثلك ينبغى أن تبقى فى منزلها وتعمل
ان شاءت عملا مهذبا لاتعرض فيه شرفها للضياع ــ ان فتاة مثلك
ينبغى أن تتزوج ويكون لها بيتها الخــاص وأطفالها وأن تبقى مع
زوجها . »
كانت هذه بالضبط هى طريقتى فى التفكير ولا يمكننى أن أعبر عن
مدى سعادتى عندما وجدته يفكر أو بدا لى أنه يفكر بنفس طريقتى .
قلت ــ « انك محق فى ذلك ــ ولكنك مع هذا يجب ألا تسىء الظن
بأمى . فقد أرادت أن تجعل منى نموذجا لانها تحبنى » .
فأجاب قائلا فى حزم تحدوه شفقة غاضبة ــ « ذلك أمر لايقره
أحد » .
ــ « نعم . لاشك أنها تحبنى ــ ولكن تفكيرها يقصر عن ادراك
أشياء معينة » .
وظللنا نتحدث على هذه الصورة ونحن جالسان خلف حاجز الريح
فى السيارة المغلقة . وأذكر أننا كنا فى شهر مايو وكان النسيم عليلا
وظلال أشجار الدلب على مدى البصر تتلاعب على ســطح الطريق .
وقد خلا المكان الا من سيارة تمرق من وقت لآخر بسرعة فائقة كما
اقفر من حولنا الريف الاخضر المشمس . واخيرا نظر الى ســــاعته
وقال انه عائد بى الى المدينة . ولم يزد طوال هذا الوقت على أن
لمس يدى مرة واحدة . وكنت أتوقع منه على الاقل أن يحاول تقبيلى
فخالجنى مزيج من الخيبة والسرور لحصافته وفطنته . أحسست
بالخيبة لاننى أعجبت به ولم أتمالك نفسى فى الواقع من الحملقة فى
شفتيه الرقيقتين الحمراوين . وسررت لانه عزز رأيى فيه وهو أنه
شاب يتسم تفكيره بالجدية تماما كما تمنيته أن يكون .
وصحبنى الى المرسم حيث أخبرنى أنه منذ ذلك اليوم فصاعدا
لن يبرح يصحبنى فى السيارة كلما وجدنى على محطة الترام فى ميعاد
معين اذ انه عندئذ لايجد مايفعله . فقبلت دعوته بسرور ومرت يومئذ

ساعات وقوفى الطويلة على جناح السرعة . فقد بدا لى أننى وجدت لحياتى هدفا . كما سرنى امكانى التفكير فيه دون استياء أو ندم كشخص لم أنجذب اليه شكلا فحسب بل توفرت لديه السجايا الخلقية التى كنت أعدها جوهرية .

لم أذكر لأمى شيئا عنه . فقد خشيت الا تسمح لى بالتورط فى علاقة مع رجل فقير لايملك سوى مستقبل متواضع . وفى الصباح التالى جاء ليصحبنى حسب وعده . ولكنه يومئذ حملنى مباشرة الى المرسم . أما فى الايام التالية فكان يصحبنى أحيانا للنزهة عندما يكون الجو صحوا جميلا فى طرقات المدينة الواسعة أو فى الشوارع التى يخف فيها الزحام فى ضواحى المدينة فيمكنه أن يتحدث الى فى راحة وطمأنينة . ولكنه كان فى حديثه دائما يتسم بالحزم والجد ويتميز أسلوبه بالاحترام الشديد المتعمد ليأسر به قلبى – ولشد ما كنت عاطفية حينذاك حتى أن كل مايتصل بالخير والفضيلة والخلق الكريم والحب العائلى كان يحرك مشاعرى على صورة غريبة الى حد البكاء فتفيض عيناى لأتفه الاسباب بالدموع التى تبعث فى نفسى شعورا غامرا مسكرا بالعزاء والثقة والتعاطف .وهكذا تدريجيا صرت أومن بكماله المطلق . بل كنت فى الواقع أسائل نفسى أحيانا « ماذا فيه من عيوب ؟» كان شابا وسيما ذكيا أمينا جادا فى تفكيره . وفى الواقع فانه ماكان يمكن أن يقال ان به عيبا واحدا . وكانت تلك الخواطر تثير فى نفسى الدهشة لاننا لانصادف الكمال فى حياتنا كل يوم . وكاد يساورنى الخوف . فرحت أسائل نفسى قائلة اى رجل هذا الذى لا عيب فيه ولا مأخذ عليه مهما اختبرته ؟ وحقيقة الأمر أننى كنت على غير وعى منى قد وقعت أسيرة هواه ونحن نعلم جميعا أن الحب مرآة يبدو فيها الوحش ذا سحر وفتنة .

وقد بلغ من هيامى به انه عندما قبلنى لاول مرة فى الطريق حيث دار بيننا أول حديث لنا أحسست بالارتياح وكأننى انتقلت بطريقة طبيعية للغاية من مرحلة الرغبة الناضجة الى مرحلة اشباعها لاول مرة . ومع ذلك فان الدفعة التلقائية الفلابة التى ضمت شفاهنا فى تلك القبلة بثت فى نفسى بعض الخوف لاننى أدركت أن أفعالى لم تعد تتوقف على ارادتى بل على تلك القـوة الجبارة اللذيذة التى كانت تدفعنى نحوه فى الحاح شديد . ولكنه بث فى نفسى الطمأنينة التامة عندما أخبرنى لحظة افتراقنا أنه ينبغى علينا منذ ذلك الوقت فصاعدا أن نعد كلينا خطيبين . ولم يسعنى حينئذ أيضا الا أن ارى أنه قد

قرأ أعمق خواطرى وفاه بنفس الالفاظ التى كنت أبغى سماعها . وهكذا لم يلبث أن تلاشى فى الحال ذلك القلق الذى بعثته فى نفسى قبلتى الاولى . وظللت طوال مابقى من الوقت الذى أمضيناه هناك على جانب الطريق أقبله دون تحفظ يراودنى شعور بالاستسلام الحلال المطلق العنيف .

وما أكثر مامنحت وتلقيت من القبل منذ ذلك الوقت ويعلم الله اننى مامنحتها أو تلقيتها الا كقطعة النقود القديمة التى تداولتها أيد كثيرة تعطيها وتأخذها أى دون مشاركة وجدانية او جسمانية ولكننى لن أنسى ماحييت تلك القبلة الاولى لما اتسمت به من عنف يوشك أن يكون مؤلما وقد بدا لى أننى لم أكن أعبر بها عن حبى لجينو فحسب بل عن حال من الترقب يدوم حياة بأسرها . وأذكر أننى احسست وكأن العالم أجمع يدور من حولى وأن السماء من تحتى والارض من فوقى . وفى الواقع فانى كنت أتكىء قليلا الى الخلف وفمه على فمى حتى يطول عناقه . واحسست بشىء بارد حى يضغط على أسنانى حتى اذا ما انفرجت شعرت بلسانه الذى طالما دغدغ أذنى بحلو حديثه وهو يلج فمى الآن فى صمت ليكشف لى عن لذة أخرى لم تخطر لى على بال . لم أكن أدرى أن التقبيل يمكن أن يطول على هذه الصورة . وما لبثت أنفاسى أن انبهرت ، وقد عرتنى شبه نشوة حتى أننى اضطررت فى النهاية عندما انفصل كلانا عن الآخر الى الاتكاء قليلا الى الخلف على ظهر المقعد وقد أغمضت عيناى وغشى عقلى ضباب وكأننى على وشك الاغماء . وهكذا اكتشفت أن فى الدنيا متعا أخرى تضاف الى حياة المرء فى كنف أسرته فى سلام . ولكنى فى حالتى لم أحلم أن تستأثر تلك المتع بحياتى مستبعدة غيرها من المتع الطبيعية التى كنت أصبو اليها حتى ذلك الحين . وما ان قطع جينو على نفسه عهدا بخطبتى حتى تأكدت من أنه سيتاح لى فى المستقبل أن أتذوق مباهج المتعتين معا بلا خطيئة أو ندم .

ولشد ما كنت مقتنعة بصحة سلوكى وشرعيته حتى أننى فى ذلك المساء نفسه كاشفت أمى بكل شىء ولعلنى تعرضت فى ذلك لرعشة وفرحة شديدتين . وجدتها جالسة الى ماكينة الخياطة بجانب النافذة فى ذلك الضوء الباهر الذى يرميه المصباح العارى من الغطاء قلت وقد التهبت وجنتاى بحمرة الخجل — « انى مخطوبة يا أماه . »

فرأيت وجهها كله يلتوى فى تعبير عن الضيق والاستياء وكأن

نضيضا من الماء المثلج أخذ يتقاطر منزلقا على ظهرها .

قالت ــ « لمن ؟ »
قلت ــ « لشاب قابلته أخيرا » .
قالت ــ « وما عمله ؟ »
قلت ــ « سائق » .
أردت أن أواصل حديثى ولكننى لم أجد الوقت لذلك . فقد وقفت ماكينتها وقفزت من متعدها ــ ثم أمسكت بى من شعرى قائلة « هل قلت انك مخطوبة ؟ ... دون أن تخبرينى بشىء ــ ولسائق ! آه يا الهى ! يا الهى ! ... سألقى حتفى على يديك ! » وكانت فى أثناء ذلك تحاول أن تضربنى ولكننى لم أفتأ أحتمى منها بيدى ما استطعت الى ذلك سبيلا . وأخيرا تخلصت من قبضتها ولكنها تبعتنى ــ فانطلقت أركض حول المائدة فى وسط الغرفة ولكنها ظلت تطاردنى وهى تصيح فى يأس . ولشد ما أفزعنى وجهها النحيل وقد اندفع الى الخارج نحوى يعلوه تعبير ينطق بالغضب الاليم . صاحت قائلة : « سأقتلك . سأقتلك هذه المرة . » وبدا لى ان غضبها كان يزداد تأججا وتهديدها يزداد واقعية كلما صاحت قائلة « سأقتلك . » ظللت عند طرف المائدة أرقب كل حركة من حركاتها لاننى كنت أعلم أنها لا ضابط لها مطلقا عندما تعتريها هذه النوبات وأنها خليقة حقا بأن تقذفنى بأول شىء يقع تحت يدها ولو أردتنى قتيلا . وبالفعل فقد بدأت فجأة تلوح بمقص الخياطة الكبير وماكدت أمرق جانبا كالسهم حتى مر بى المقص وارتطم بالحائط . وقد فزعت هى نفسها لذلك وجلست فجأة الى المائدة محتقنة وجهها براحتيها وانفجرت فى نوبة من البكاء العصبى الخانق وقد تجلى فيه الغضب أكثر مما تجلى فيه الاسى والاسف .
وقالت بين شهقاتها ــ « ما أكثر ما أعددت لك من الخطط . فقد أردت لك بكل مالك من جمال أن تنعمى بالثــراء ــ فاذا بك الآن تخطبين لفتى مفلس » .
فقاطعتها فى وجل قائلة ــ « انه ليس مفلسا ! »
فهتفت قائلة وهى تهز كتفيها ــ « سائق ! سائق ! ــ انك عاثرة
www.library4arab.com/vb
الحظ وسوف ينتهى بك المطاف كما انتهى بى » . قالت هذه الكلمات فى بطء وكأنها تتذوق كل مافيها من مرارة . ثم أضافت قائلة بعد لحظة ــ « فانه سيتزوجك وتصبحين خادمته ثم خادمة لاطفالك ــ وتلك هى خاتمة المطاف » .

فقلت مطلعة اياها على احدى خطط جينو ـ « سنتزوج عندما يتجمع لديه من المال مايكفي لشراء سيارته الخاصة » .
فصاحت فجأة وهى ترفع وجهها الملوث بالدموع قائلة ـ « بضعة آمال ! ولكن لاتحضريه الى هنا ـ لا تحضريه الى هنا ـ فأنا لا أريد ان أراه . افعلى ماشئت . والتقى به حيثما أردت ـ ولكن لاتحضريه الى هنا . »

وفى ذلك المســـاء أويت الى فراشى دون عشاء يغمرنى الحزن والتعاسة . ولكننى قلت لنفسى ان أمى ماسلكت هذا السبيل الا لانها تحبنى وقد وضعت لمستقبلى جميع الخطط التى انقلبت بخطبتى راسا على عقب . وفيما بعد حتى عندما عرفت كنه تلك الخطط لم أستطع فى الحقيقة أن ألومها . فانها لم تنعم بشىء ســوى المرارة والعناء والفقر فى مقابل حياتها الشاقة الشريفة . فكيف يمكن أن نعجب لأملها فى حياة مختلفة تماما لابنتها ؟ ولعله ينبغى أن أقول أنها لم تكن خططا معدة بقدر ماكانت أحلاما غامضة وامضة يمــكن أن يتشبث بها المرء دون أن يشعر بكثير من الندم لتألقها وغموضها . ولكن هذا هو رأيى الشخصى فحسب . ولعل أمى بدلا من ذلك قد استقر رأيها حقا بسبب ما أصاب ضميرها من تبلد طوال حياتها على ان تضعنى يوما فى ذلك الطريق الذى قدر لى على أية حال أن أسلكه فيما بعد على مسئوليتى الخاصة ـ وأنا لاأقول هذا بدافع من الحقد على أمى بل لان ادراكى مازال حتى الآن قاصرا عن أستيعاب ما كان يدور بخلدها حينذاك . وقد علمتنى التجربة أن أشد الأشياء تناقضا يمكن أن تخطر على الذهن وتخالج الوجدان فى لحظة واحدة بعينها دون أن نلاحظ تناقضها أو نؤثر احداها على الاخرى .

لقد اقسمت انها لاتبغى رؤيته واحترمت رغبتها بعض الوقت . ولكن بدا لى أن جينو بعد أن منحنى قبله القليلة الاولى كان يتوق الى الصراحة فى كل شىء والى اظهار كل شىء على متن السفينة على حد تعبيره . ولم يفتأ يلح على فى كل يوم اننى يجب ان اقدمه الى أمى . ولم أجسر على مصــارحته بأنها تأبى ان تعرفه لاحتقــارها عمله . فحاولت تأجيل اللقاء متلمسة مختلف المعاذير . واخيرا ادرك جينو اننى اخفى عنه شيئا فشدد الحاحه على حتى اضطرنى الى مصارحته بالحقيقة .

قلت ـ « ان أمى لاترغب فى التعرف اليك لانها تزعم أن قرينى كان ينبغى ان يكون سيدا مهذبا لا سائقا » .

كنا فى السيارة فى الطريق الريفى المعهود . فنظر الى فى حزن ثم أطلق تنهيدة . ولشد ما كنت مفتونة به حتى أننى لم ألحظ مدى ما كان فى أساه من زيف وبهتان .

ثم هتف قائلا فى حدة ــ « هذه هى نتيجة الفقر . »

وصمت بعض الوقت .

وأخيرا سألته قائلة ــ « أتبالى بذلك ؟ »

فأجاب قائلا وهو يهز رأسه ــ « أنى أشعر بالتحقير . فلو أن رجلا آخر فى مكانى لما طلب لقاءها البتة بل لما ذكر الخطبه قط ــ هذا هو جزاؤنا لقاء محاولتنا أن نسلك سواء السبيل . »

قلت ــ « ولماذا تنزعج ؟ فأنا أحبك ــ وهذا هو كل مايهمك » .

ــ « كان يجب أن أذهب اليها محملا بالنقود ولكن دون أن أحدثها عن الخطبة بالطبع ! وعندئذ كان يسر أمك أن ترحب بى . »

لم أجسر على معارضته لاننى كنت أعلم أن مايقوله حقيقة لا ريب فيها .

ولم ألبث أن قلت ــ « أتعــرف ماذا نفعل ؟ ســأصحبك يوما ونفاجئها . وعندئذ ستضطر الى لقائك ــ فلا يمكنها أن تغمض عينيها . »

وحددنا يوما لذلك . وفى المساء صحبت جينو الى غرفة الجلوس كما اتفقنا . وكانت أمى قد انتهت فى التو من عملها وأخذت تنظف طرف المائدة لتضع المفرش .

قلت وأنا أقوده الى الداخل ــ « هاهوذا جينو يا أماه » .

كنت أتوقع شــــجارا وقد حذرت جينو من ذلك . ولكن أمى لدهشتى قالت باختصار وهى تنظر اليه نظرة جانبية ــ « يسعدنى لقاؤك . » ثم غادرت الغرفة .

قلت لجينو ــ « سترى أن كل شىء سيسير على ما يرام . » ثم اقتربت منه رافعة وجهى اليه ثم قلت ــ « أعطنى قبلة » .

فأجاب فى صوت خفيض وهو يدفعنى بعيدا ــ « كلا . كلا . والا كانت أمك على حق فى اساءتها الظن بى . »

كان يعرف دائما كيف يتخير الالفاظ الرقيقة التى تناسب كل مقام ولا يفتأ ينوه بها فى اللحظة المناسبة . ولم يسعنى الا أن أعترف بينى وبين نفسى بأنه كان على حق . وعادت أمى دون أن تنظر الى جينو :

ــ « ليس هناك من الطعام سوى مايكفى شخصينا ــ فانك فى الحقيقة لم تخبرينى ــ انى ذاهبة لكى ... »

ولم تتم عبارتها . فقد تقدم جينو وقاطعها قائلا ــ « يا الهى ! انى لم أحضر الى هنا لأدعو نفسى للعشاء . بل لأدعوكما كلتيكما أنت وآدريانا للعشاء فى الخارج » .

كان يتكلم فى أدب كشخص متعلم . ولكن أمى لم تألف هذا الاسلوب فى مخاطبتها ولم تألف أن يدعوها أحد للخروج . فترددت لحظة ووقفت تنظر الى ثم قالت :

ــ « أما فيما يخصنى فان شاءت آدريانا أن ... »

فاقترحت قائلة ــ « فلنذهب الى حانة النبيذ القريبة من هنا . »

فأجاب جينو قائلا ــ « حيثما شئت » .

وقالت أمى انها يجب أن تذهب لتخلع وزرتها فمكثنا وحدنا . كانت الفرحة الساذجة ملء جوانحى فقد شعرت أننى فزت فى معركة هامة فى حين أنها لم تعد أن تكون مهزلة واننى الشخص الوحيد الذى لم يشارك فيها . فاتجهت الى جينو وقبلته باندفاع تلقائى قبل أن يتمكن من صدى عنه . وكانت تلك القبلة تعبيرا عن ارتياحى من كل ذلك القلق الذى طالما أمضنى وأزعجنى وعن اقتناعى بأن الطريق الى الزواج صار ممهدا منذ ذلك الوقت فصاعدا وعن عرفانى لجينو بسبب موقفه المهذب من أمى . لم تكن فى نفسى غاية خفية بل كنت مخلصة الاخلاص كله فى حبى لجينو وعطفى على أمى . كنت ساذجة مخلصة واثقة بالناس شأن كل فتاة فى الثامنة عشرة من عمرها قبل أن تزول الغشاوة عن عينيها فتذوى نضارتها . ولم أتعلم الا بعد زمن طويل أن القلة القليلة من الناس يعجبون بهذا اللون من الصراحة أو يتأثرون به لانها تبدو مثيرة للسخرية فى نظر معظمهم بل تثير فى نفوسهم الرغبة فى الايذاء قبل كل شىء .

وذهبنا ثلاثتنا الى الحانة الواقعة على ناصية الطريق وراء أسوار المدينة تماما . وعندما جلسنا لم يعد جينو يعيرنى انتباها بل أسلم نفسه لأمى كلية يحدوه فى ذلك غرض واضح هو استمالتها اليه . ولشد ما بدت لى رغبته فى التودد الى أمى صائبة محققة ، فلم أعبأ كثيرا بأغلظ أساليب الملق والمداهنة التى راح يبذلها لها . فكان يدعوها « سنيورا » (١) وهى صيغة فى الخطاب لم تتعهدها أمى قط وانه حرص على تكرارها ما أمكنه ذلك سواء فى مستهل عباراته أو فى وسطها وكأنها قرار موسيقي . كما كان يخاطبها قائلا بطريقة عارضة تماما : « انك فطنة للغاية وستفهمين ... » أو يقول لها « لقد مرت

---

(١) : لقب ايطالى بمعنى سيدة

بك التجارب وليس ثمة ما يدعو فى الحقيقة الى مصارحتك ببعض الاشياء .. » او يقول لها مرة أخرى فى مزيد من الايجاز : « وبما اوتيت من ذكاء .. » بل استطاع ان يقول لها انها كانت بلا ريب تفوقنى جمالا وهى فى مثل سنى . فسألته قائلة فى شيء من الضيق : « وكيف يمكنك ان تعرف هذا ؟ » فأجابنى فى لهجه غامضة متملقة قائلا « هذا واضح لكل ذى عينين ... فثمة أشياء أوضح من أن تقال . » وكانت أمى المسكينة تحملق فيه وقد برزت عيناها من رأسها وهو يداهنها على هذه الصورة وقد تألق وجهها للغاية بينما هجعت لتهويده جميع شبهاتها ووساوسها . ثم أراها تارة أخرى وهى تحرك شفتيها مرددة فى صمت ما أمطرها به من مجاملات تعافها النفس . كان واضحا أنها تخاطب على تلك الصورة لاول مرة فى حياتها . وبدا قلبها الظامىء قادرا على تشرب كلماته الى الابد . أما عن نفسي فقد بدا لى كما قلت من قبل أن تلك الاكاذيب كانت لاتكشف الا عن احترامه المحب لأمى وتقديره الرقيق لى . وهكذا لم يعد أمامى الا أن أضيف لمسة أخرى للصورة التى تمثل نواحى الكمال فى جينو وقد حملت بأكثر مما تطيق .

وفى أثناء ذلك دخلت جماعة من الشبان وجلسوا الى مائدة قريبة منا . وكان أحدهم يبدو مخمورا الى حد ما ولم يفتأ يحملق فى ثم رمانى بعبارة نابية ولكنها تنطوى فى نفس الوقت على المديح والاطراء . وسمعه جينو فنهض على الفور واتجه نحو الشاب .

وهتف قائلا ــ « هلا سمحت بترديد ماقلت !؟ »

فسأله الشاب قائلا وكان واضحا أنه مخمور ــ « وما شأنك بهذا بحق الجحيم ؟ »

فقال جينو رافعا صوته ــ « هذه السيدة وهذه الفتاة جالستان معى . ومادامتا معى فشأنهما هو شأنى . هل فهمت الأن ما اعنى ؟ »

فأجاب الشاب فى شى من الوجل ــ « فهمت . هدىء من روعك ... لا تؤاخذنى . لا تؤاخذنى ... » وبدا لى ان الآخرين كانوا ينظرون فى عداء الى جينو ولكنهم لم يجسروا على الانحياز لصديقهم الذى ملأ قدحا من النبيذ وقدمه الى جينو متظاهرا بمزيد من السكر فرفضه الاخير بحركة من يده . فصاح الشاب المخمور قائلا « الا تشرب ؟ الا تحب النبيذ ؟ انك مخطىء ... فهو نبيذ جيد . وسأشربه أنا نفسى . ثم أفرغ القدح فى جوفه فى جرعة واحدة . فحملق فيه جينو لحظة متجهما ثم عاد الينا .

قال وهو يجلس مسويا سترته بحركات عصبية ـ « قوم لا خلاق لهم » .

فقالت أمي وقد أشبع غرورها الى حد كبير ـ « ما كان ينبغي أن تكترث لهم صبية أرذال » .

ولكن جينو شد ما ادارت رأسه تلك الفرصة لاستعراض شهامته . فأجابها قائلا « وكيف كان يمكنني أن أفعل غير ذلك ؟ فلو أنني كنت مع امرأة من أولئك ... وأنت تفهمين من أعني ياسنيورا اذن لاختلف الامر ... لاختلف الامر تماما مع أنه ... ولكنني لما كنت مع سيدتين محترمتين في محل عام ـ في مطعم ... وعلى أية حال فقد أدرك الشاب أنني جاد وامسك عن الكلام في الحال » .

وقد استمال أمي تماما بذلك الحادث . كما استمالها بما كان يقدمه اليها من شراب وجدت فيه نشوة تعادل نشوة المداهنة والملق . ولكنها رغم استسلامها لسحر جينو لم تفتأ تغذي في نفسها مشاعرها السيئة قبل خطبتنا كما يحدث في أغلب الاحيان لمن يفرط فيالشراب . وانتهزت أول فرصة لتوضح له أنها على الرغم من كل شيء لم تنس ماحدث .

وسنحت لها الفرصة أثناء حديث دار عن مهنتي كنموذج . ولم اعد أذكر كيف حدث أني تكلمت عن فنان جديد كنت اقف له في ذلك الصباح .

فقاطعني جينو قائلا ـ « ربما كنت سخيفا أو رجعيا أو ماشئت ولكنني في الحقيقة لايمكنني أن أستسيغ تجرد آدريانا من ملابسها كل يوم أمام هؤلاء الفنانين » .

فسألته أمي قائلة في صوت أجشأنذرني ـ لخبرتي بها ـ بالعاصفة التي كانت تعتمل في نفسها ـ « ولم لا ؟ »

ـ « لانه باختصار أمر لا أخلاقي » .

ولن أذكر هنا اجابة أمي بكاملها لانها امتلأت بالسباب والعبارات النابية التي كانت لاتفتأ تستخدمها كلما أفرطت في الشراب أو استبد بها الغضب . ولكن اجابتها حتى مع تخفيف لهجتها كانت تعكس آراءها ومشاعرها حول الموضوع .

بدات تصيح قائلة بأعلى صوتها الى حد جعل جميع الجالسين الى الموائد الاخرى يتوقفون عن تناول طعامهم ويستديرون نحـونا ـ « لا اخلاقي . اليس كذلك ؟ لا اخلاقي ـ ولكنني أحب أن أعرف ما الذي تعده أخلاقيا ؟ ربما كان من الاخلاق أن تكدح طوال النهار

حتى توهى أصابعها فتغسل الثياب وتحيكها وتطهو الطعام وتكوى الملابس وتكنس الارض وتزيل ماتراكم عليها من القـذارة ثم يأتي زوجها بعد ذلك فى المساء منهوك القوى فيأوى الى فراشه حالما ينتهى من تناول طعامه ثم يدير لها ظهره ويستغرق فى النوم ؟ أهذا هو ماتسميه أخلاقيا ؟ أمن الاخلاق أن تضحى بنفسـها فلا يتسع لها الوقت لالتقاط أنفاسها ثم تطعن فى السن ويذوى جمالها وتموت ؟ أتريد أن تعرف رأيى ؟ اعتقد اننا لانعيش سوى مرة واحدة وعندما نموت ينتهى كل شيء ثم نذهب نحن وأخلاقنا الى الشيطان . ولاشك أن آدريانا لديها كل الحق فى ظهورها عارية اذا مانقدها الناس أجرا لقاء ذلك . بل انها تحسن عملا لو .. » ثم أعقبت ذلك سلسلة من العبارات النابية التى جعلتنى أتلوى من الخجل لانها صاحت بهـا جميعا بنفس الصوت النفاذ الذى قالت به بقية كلامها ـ ثم أردفت قائلة وكأنها قد خطرت لها فكرة لاحقة ـ « ولو أنها فعلت ذلك لما رفعت اصبعا لأمنعها عنه . ليس هذا فحسب بل لعاونتها عليه ـ نعم أعاونها عليه ـ مادام الناس ينقدونها أجرها بالطبع » .

فقال جينو دون أن يبدو عليه أثر للانزعاج ـ « انى واثق انك لن تستطيعى حقا اقناع نفسك بذلك » .

« ألا أستطيع ؟ هذا هو ما تزعمه أنت ! ماذا يخيل لك بحق الشيطان ؟ اتحسبنى فرحة بخطبة آدريانا لتافه مثلك ـ سائق !؟ الا اكون أسـعد حالا ألف مرة لو انطلقت آدريانا تبيـع الهوى فى الشوارع ؟ أيخيل لك أنه يعجبنى أن تصير آدريانا ـ بكل جمالها الذى يمكن أن يدر عليها الآلاف ـ خادمة لك مابقى من حياتها ؟ انك مخطىء ـ بل مخطىء تماما » .

وواصلت صياحها حتى أننى أحسست بالخجل الشديد عندما رأيت الناس جميعا يولوننا انتباههم ولكن جينو كما سبق أن قلت لم يرتبك قط . بل انتهز اللحظة التى اضطرت فيها امى للتوقف عن الكلام لتلتقط انفاسها وهى مبهورة مجهدة فتناول زجاجة النبيد ثم ملأ قدحها قائلا : اتشربين مزيدا من النبيذ ؟ »

ولم يسع امى السكينة الآن تتذكره وقبلت القدح الذى قدمه اليها . وعندما رآنا الناس نشرب معا وكأن شيئا لم يحدث على الرغم من ذلك الانفجار العنيف واصلوا احاديثهم الخاصة .

قال جينو ـ « ان آدريانا بـكل جمالها ينبغى أن تحيـا حياة مخدومتى » .

فسألته قائلة فى حماسة لرغبتى فى ابعاد الحديث عنى ـ « أى نوع من الحياة؟ »

فقال فى صوت مزهو أحمق وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه ثراء مخدوميه ـ « فى الصباح تستيقظ فى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة . فيحمل اليها طعام الافطار فى الفراش على صينية من الفضة وفى أوان فضية ثقيلة . ثم تأخذ حماما . ولكن الخادمة أولا تضع بعض الاملاح فى الماء لتزكو رائحته . وعند الظهر أصحبها فى السيارة الى حيث تتناول قدحا من شراب « الفرموت » أو الى حيث تبتاع بعض الحاجيات . ثم تعود الى المنزل فتتناول غداءها وتضطجع قليلا . وبعد ذلك تقضى ساعتين فى ارتداء ملابسها . ينبغى أن ترى كم تملك من الثياب ! ملء خزائن ! ثم تخرج للزيارة فى سيارتها أو تمكث فى المنزل لاستقبال الزوار . وعندما يلتئم شملهم يلعبون الورق ويشربون الخمر ويسمعون الموسيقى . انهم قوم ذوو ثراء عريض ولا ريب أن مخدومتى تملك من المجوهرات وحدها ماقيمته عدة ملايين » .

كان من اليسير تشتيت أفكار أمى كما هى الحال مع الطفل الصغير الذى يصلح مزاجه شىء تافه . فقد نسيت الآن كل شىء عنى وعن قسوة مصيرى وراحت تحملق فى تلك الصورة ذات البهاء والرونق الفخم .

فرددت قائلة فى نهم ـ « ملايين ! وهل هى حسناء ؟ »

فقال جينو الذى كان يدخن غليونه ويتفل ذرة من التبغ فى احتقار ـ « حسنا ! انها دميمة حقا ـ فهى نحيلة تبدو كساحرة عجوز » .

واستمرا يتحدثان عن ثروة مخدومة جينو أو بالاحرى لم يفتأ جينو يتغنى بامتداح ثروتها وكأنها ثروته الخاصة . ولكن أمى لم يكد يثار فضولها لحظة حتى عاودها تبرمها وانقباضها ولم تنطق بكلمة أخرى طوال المساء . لعلها خجلت من انفجارها . ولعلها شعرت بالحسد ازاء ذلك الثراء كله فأخذت تفكر باستياء فى خطبتى لرجل فقير .

وفى اليوم التالى سألت جينو فى وجل عما ان كانت أمى قد اساءت اليه . فأجابنى بأنه رغم عدم مشاركته آراءها فقد فهمها جيدا لأنها كانت من وحى حياة تعسة أذلها الحرمان . وقال انه ينبغى أن يرثى لها . كما قال انه كان من الواضح على أية حال انها لم تتكلم على تلك الصورة الا لانها تحبنى . وكان ذلك هو رأيى ايضا فشعرت بالامتنان لجينو لفهمه اياها جيدا ـ وقد خشيت أن يكون انفجار أمى قد أفسد علينا

كل شيء . ولم يملأني ترفق جينو في الحكم عليها بالعرفان فحسب بل كان سجية جديدة أضيفت الى قائمة نواحي الكمال في شخصيته . ولو كنت أكثر تبصرا بالامور وأكثر خبرة لادركت أنه لا يمكن ان يهدف الى خلق مثل هذا الاحساس بالكمال سوى الخداع المرسوم المدبر وحده وأن الاخلاص الحقيقي يخلق صورة بها أخطاء كثيرة الى جانب بعض السجايا الحميدة .

وحقيقة الامر أننى أصبحت الان اجد نفسى بالقياس الى جينو فى حال من النقص الدائم . وبدا لى أننى لم أكد أعطيه شيئا فى مقابل صبره وحسن ادراكه . ولعل احساسى بأنى تلقيت كثيرا من المعروف وبأنى مطالبة برد الصنيع يفسر عدم مقاومتى اياه عندما ازدادت مداعباته جراة ـ تلك المقاومة التى كان يمكننى أن أبديها من قبل . ولكننى يجب أيضا أن أعترف كما سبق أن اعترفت عندما قبلنى لاول مرة انى أحسست بنفسى مدفوعة للاستسلام له بقوة لشد ما كانت جبارة ولكنها كانت فى نفس الوقت لذيذة للغاية . انها قوة قريبة من سلطان النوم الذى يغرينا احيانا بالاغفاء عن طريق حلم يتراءى لنا فيه أننا ما زلنا مستيقظين بغية قهر ارادتنا التى تقاومه . وهكذا نستسلم لسلطانه لاقتناعنا بأننا ما زلنا نقاومه .

وانى لاذكر على وجه الدقة جميع مراحل اغوائى . اما احساسى فكان مزيجا من المتعة والندم لما كنت اشعر به ازاء كل خطوة خطاها جينو فى سبيل اغوائى من رغبة وصدود فى نفس الوقت . كما كانت كل خطوة تتخذ تدريجيا بطريقة مدبرة مرسومة فى غير ما عجلة أو نفاد صبر كما لو كان قائدا عسكريا يغزو بلدا لا عاشقا استثارت فيه الرغبة حماسته الشديدة وهو يستكشف جسدى المستسلم من شفتى حتى فخذى . ومع ذلك فانى لا اقصد أن ألمح أن جينو لم يقع أسير هواى حقيقة فيما بعد عندما حلت بالفعل محل تخطيطه وتدبيره رغبة عميقة لا تعرف الشبع حتى ولو لم تكن حيا .

وكان حتى ذلك الوقت قانعا بتقبيل فمى وعنقى أثناء نزهتنا بالسيارة ولكنه ذات صباح بينما كان يقبلنى أحسست بأصابعه تعبث بأزرار سترتى ثم راودنى احساس بالبرد . وما ان نظرت من فوق كتفه تجاه المرآة المثبتة فوق حاجز الريح حتى رأيت أحد نهدى عاريا ـ واعترانى الخجل ولكنى لم أشأ أن أستر نفسى مرة أخرى . فما كان من جينو عندما خمن سبب ارتباكى الا أن بادر بضم طرفى سترتى على صدرى مرة أخرى ووثق أزرارها جميعا بنفسه. وشعرت بالامتنان

لحركته تلك . ولكننى فيما بعد عندما عدت الى المنزل وفكرت فيما حدث استثارنى ذلك وانجذبت اليه . وفى اليـوم التالى كـرر نفس الحركة وعندئذ احسست بمزيد من اللذة وقليل من الخجل . ومنذ ذلك الحين ألفت ذلك المظهر من مظاهر رغبته . وأعتقد أنه لو امتنع عن تكرار تلك الحركة لساورنى الخوف من أنه لم يعد يحبنى بنفس القدر .

وفى أثناء ذلك راح يسرف فى الحديث عن حياتنا بعد الزواج ٠ كما أخذ يتحدث عن أسرته التى كانت تقيم فى الريف وتنعم بحياة لا بأس بها لانها كانت تملك بضع مساحات من الارض ٠ وأعتقد أنه فى النهاية شأن معظم الكذابين صار يصدق أكاذيبه بالفعل ولا شك أن مشاعره نحوى كانت قوية للغاية ولعلها أيضا كانت تزداد اخلاصا كلما توثقت العلاقة بيننا يوما بعـد يوم . أما عن نفسى فكان حـديثه يهود قلقى ويبث فى نفسى احساسا بالسعادة المطلقة الساذجة التى لم أعد أعرفها قط فى حياتى منذ ذلك الحين ٠ فقد وجدت من أهوى ويهوانى وخيل لى أننى لن ألبث أن أتزوج وحسبت أن ذلك منتهى آمالى .

وأدركت أمى فى الحال أن نزهتنا الصباحية لم تكن بريئة تمـاما وأفهمتنى أنها تعلم ذلك بمثل ما يلى من العبارات : « لست أدرى ماذا تفعلان أنت وجينو عندما تخرجان للنزهة فى تلك السيارة كما أننى لا أريد أن أعلم ٠٠ » أو : « أنت وجينو تعتزمان شرا٠ لاوفقكما الله . » وما الى ذلك . ولكنه لم يسعنى عندئذ الا أن الحظ أن تعنيفها اياى بدا لطيفا هينا على صورة مدهشة . فانها لم تبد مسلمة بما بينى وبين جينو من حب فحسب بل راغبة فيه فى قرارة نفسها . وانى الان واثقة بأنها كانت تتحين الفرصة لفسخ خطبتى ٠

الفصل الثالث

وذات يوم من أيام الاحاد أخبرنى جينو أن مخدوميه قد رحلا الى الريف وان الخادمات قد ذهبن جميعا فى اجازة الى قراهن وان الفيللا تركت فى عهدته هو والبستانى . فهل أبغى القاء نظرة عليها ؟ ولما كان قد تحدث عنها مرارا وتكرارا بعبارات متالقة جعلتنى أتوق الى زيارتها فقد قبلت دعوته فى سرور . ولكننى فى نفس اللحظة التى قبلت فيها الدعوة أحسست فى أعماق نفسى باثارة مشتاقة جعلتنى أدرك أن رغبتى فى مشاهدة الفيللا لم تكن سوى ذريعة وأن الدافع الحقيقى وراء زيارتى كان شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف . ومع ذلك فقد تظاهرت أمام نفسى وأمام جينو بتصديق ذريعتى كما نفعل دائما عندما تهفو نفوسنا الى شيء ما ونحاول فى نفس الوقت أن نمتنع عنه .

ولكننى حذرته قائلة وأنا أركب السيارة :

ـ « انى أعلم أنه ما كان ينبغى أن أذهب . ولكننا لن نمكث طويلا . أليس كذلك ؟ »

أحسست أنى أقول تلك الكلمات بطريقة مثيرة ولكنها كانت فى نفس الوقت مذعورة الى حد ما .

فقال جينو ليطمئننى :

ـ « ما يكفى من الوقت لمشاهدة المنزل فحسب ـ ثم نذهب بعد ذلك الى السينما » .

وكانت الفيللا تقع فوق منحدر فى شارع صغير بين عدد من الفيللات الاخرى فى حى جديد تبدو عليه مظاهر الثراء . كان يوما هادئا وكانت جميع تلك الفيللات المخططة على جانب التل قريبا من صفحة السماء الزرقاء بواجهاتها الطوبية الحمراء أو الحجرية البيضـــــاء وممراتها المزدانة بالتماثيل ومراصد الشمس فيها وشرفاتها و « فراندانها » المزدهية بالعتر واشجارها السامقة المورقة فى الحدائق التى تفصل احداها عن الاخرى ـ كل هذه الاشياء كانت تبعث فى نفسى احساسا بالتجديد والاكتشاف وكأنى استشرف عالما تطيب فيه الحياة ويسوده مزيد من الحرية والجمال . ولم يسعنى الا أن أذكر ذلك الحى الذى كنت أقطنه ـ والطريق المحاذى لاسوار المدينة ومنازل عمال السكة

الحديد — فقلت لجينو — « لقد أخطأت بمجيئى الى هنا » .
فسألني قائلا فى فتور :
— « لماذا ؟ فاننا لن نمكث طويلا — لا تنزعجى » .
فأجبته قائلة :
— « انك لا تفهم ما أعنيه ! لقد أخطأت لانني فيما بعد سأخجل من منزلى ومن الحى الذى أقطنه » :
فقال بارتياح :
— « أنت محقة فىذلك . ولكن ماذا يسعك أن تفعلى ؟ كان ينبغى أن تولدى من ذوات الملايين — فأصحاب الملايين وحدهم يقيمون هنا » .
فتح بوابة الفيللا ثم قادنى فى ممر مغطى بالحصباء بين صفين من الشجيرات المشذبة على شكل دوائر ومكعبات . ودخلنا الفيللا من باب بلورى فاذا بنا فى بهو عار لامع ذى أرضية من الرخام على شكل مربعات سوداء وبيضاء كانت مصقولة كالمرآة . ومن هنا دلفنا الى بهو اخر أكبر منه كان فسيحا مضيئا يؤدى الى غرف الطابق الارضى . وفى طرف البهو كان هناك درج أبيض يؤدى الى الطابق العلوى . ولشد ما تولانى الذعر من منظر ذلك البهو حتى أننى أخذت أمشى على أطرافه أصابعى . وما ان لاحظ جينو ذلك حتى قال لى ضاحكا انه يمكننى أن أحدث ما شئت من ضوضاء اذ أن المنزل ليس به أحد .
ثم أرانى غرفة الاستقبال وهى مكان فسيح به كثير من المرايا وأطقم المتكآت والارائك . أما غرفة الطعام التى كانت تصغرها بقليل فقد زودت بمائدة بيضاوية ومقاعد و « بوفيه » صنعت جميعها من خشب جميل أسود مصقول . وقد ملئت غرفة المفارش بخزائن بيضاء مصقولة داخل الجدران . وفى غرفة جلوس أخرى صغيرة أقيم (١) « بار » داخل كوة فى الحائط — « بار » حقيقى ذو رفوف لزجاجات الخمر وماكينة لصنع القهوة مكسوة بالنيكل ومنضدة من الزنك . وكان ذلك الركن أشبه بمعبد صغير وخاصة بسبب مدخله الخفيض ذى اللون الذهبى الذى كان يعزله عن بقية الغرفة . وسألت جينو أين كانوا يطهون طعامهم فأخبرنى ان المطبخ وغرف الخدم كانت فى « البدروم » . وكانت هذه أول مرة فى حياتى أدخل فيها منزلا من هذا النوع فلم أتمالك نفسى من لمس الاشياء بأصابعى وكأنى لا أستطيع أن أصدق عينى . كان كل شىء يبدو جديدا فى نظرى وقد صنع من مواد ثمينة — كالزجاج والخشب والرخام والمعادن والمنسوجات . ولم

(١) Bar كلمة انجليزية بمعنى مشرب الخمر

يسعنى الا أن أقارن بين تلك الجدران وذلك الاثاث وبين ما في منزلي من أرضيات قذرة وجدران علاها السواد وأثاث واه متداع . وقلت لنفسى ان أمي كانت محقة عندما قالت ان المال هو كل ما يهم في هذه الدنيا . وخيل لى أن من يعيش بين كل هذه الاشياء الجميلة لا يسعه بحال الا أن يكون هو نفسه جميلا خيرا . فأهل هذه الدار لا يمكنهم بحال أن يسكروا أو يتشاتموا أو يتصايحوا أو يتضاربوا أو يرتكبوا شيئا مما رأيته فى منزلى وفى منازل أخرى شبيهة به .

وفى تلك الاثناء كان جينو للمرة المائة يشرح لى فى كبرياء خارجة عن المألوف أسلوب الحياة في مكان كهذا وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه كل هذا الترف والثراء قائلا — « انهم يتناولون طعامهم فى صحاف من الخزف ولكنهم يملكون صحافا فضية للفاكهة والحلوى . أما السكاكين والشوك فكلها من الفضة . وهم يتناولون خمسة ألوان مختلفة من الاطعمة ويحتسون ثلاثة أنواع من النبيذ . وفى المساء ترتدى سيدة الدار ثوبا مفتوح الصدر كما يرتدى السيد حلة سوداء للعشاء . وعندما يفرغون من تناول العشاء تقدم خادمة المائدة على صينية من الفضة سبعة أنواع من السجائر وكلها أصناف أجنبية بالطبع . ثم يغادرون غرفة الطعام الى حيث يتناولون القهوة و « الليكير » بأنواعه التى تقدم اليهم على تلك المائدة الصغيرة هناك ذات العجلات .. ولا يخلو المنزل مطلقا من الضيوف .. ويبلغ عددهم أحيانا اثنين وأحيانا أربعة ... وتملك السيدة بضع ماسات كبيرة هكذا ! وقلادة عجيبة من اللؤلؤ ... فلابد أنها تملك من المجوهرات ما قيمته بضعة ملايين ! »

فقاطعته قائلة فى تبرم :

— « لقد قلت لى ذلك من قبل » .

ولكنه لشد ما كان متحمسا حتى انه لم يلحظ ضيقى وتبرمى . ثم أردف قائلا :

— « والسيدة لا تهبط مطلقا الى « البدروم » — بل تصدر أوامرها بالتليفون . أما المطبخ فكل ما فيه يدار بالكهرباء . و المطبخ هنا أنظف من غرف النوم عند معظم الناس . ولكن ليس المطبخ فحسب ! بل ان كلاب السيدة أكثر نظافة وأسعد حالا من أناس كثيرين » كان يتحدث فى اعجاب بمخدوميه واحتقار للفقراء . ولشد ما شعرت بالفقر تارة بسبب تلك المقارنات التى لم أفتأ أعقدها بين ذلك المنزل ومنزلى وتارة بسبب كلامه .

ثم صعدنا الدرج الى الطابق العلوى . وكان جينو يحيط خصرى

بذراعه ويضمني اليه بقوة • ولسبب لا أدريه كان يخالجنى شعور باني سيدة الدار واني صاعدة مع زوجي الى الطابق العلوي فى طريقي لقضاء الليل معه في الفراش عقب حفل استقبال أو عشاء • فقال جينو وكأنه قد تكهن بما يدور في خلدى (وكان يمتاز دائما بسرعة البديهة) ـ « والآن دعينا نذهب للنوم معا ـ وغدا سيحملون الينا القهوة فى الفراش • » فأخذت اضحك ولكن كاد يراودنى الامـل فى أن يتحقق ذلك •

وكنت يومئذ مرتدية أفخر ثيابى للخروج مع جينو وكذلك اجمل ما عندى من الاحذية والسترات والجوارب الحريرية • وأذكر أن ثوبي كان يتألف من قطعتين : سترة سوداء وازار ذى مربعات سوداء وبيضاء • ولم يكن قماش الثوب بالغ السوء ولكن الخياطة التى قصته ـ وكانت تقيم في حينا ـ لم تكن تفوق امي خبرة بكثير • فقد صنعت لى ازارا قصيرا للغاية كان من الخلف يقصر عنه من الامام حتى أنه على الرغم من تغطيته ركبتى كان يكشف من خلف عن فخذى اللتين تعرضتا للانظار • أما السترة فقد جعلتها ضيقة للغاية ذات طيتين عريضتين وكمين ضيقين للغاية كانا يؤلمان ابطى • فأحسست وكأنها ستنشق عن بدنى وقد برز صدرى الى الخارج كما لو كانت السترة تنقصها قطعة • وأما قميصى فكان بسيطا للغاية صنع من قماش أحمر رخيص وقد خلا تماما من التطريز كما بدا من خلاله شعارى القطني الداخلي الابيض وكان أجمل ما أملك • وقد صنع حذائى الاســود اللامع من جلد جيد ولكن شكله كان قديم الطــراز • وكنت عارية الرأس فتهدل شعرى الكستنانى المموج على كتفى • ولشد ما كنت مزهوة بثوبي الذى أرتديه لاول مرة • وخيل لى أننى آية فى الاناقة ولم أتمالك نفسى من الاعتقاد أن كل من فى الطريق كان يستدير نحوى ليتأملنى • ولكننى ما كدت أدخل مخدع مخدومة جينو وأرى فراشها الوثير الضخم بغطائه الحريرى المطرز وملائه الكتانية المطرزة وكل هذه الستائر الهفهافة التى كانت تنسدل فى رفق ويسر فوق رأس الفراش .وما كدت أرى صورتى منعكسة ثلاث مرات فى المرآة الثلاثية القائمة فوق خوان الزينة فى طرف الحجرة حتى أدركت أننى أشبه فى ملبسى فلاحة الحقول • واذا بزهوى بما أرتديه من ثياب يصبح مثيرا للسخرية والرثاء • وخيل لى أننى لن أســـتطيع ادعاء السعادة مرة أخرى ما لم أرتد ثيابا جميلة وأسكن منزلا كهذا وكادت تراودنى الرغبة فى البكاء فجلست علي الفراش تنتابنى الحيرة ولا

أنبس ببنت شفة •

وسألنى جينو قائلا وهو يجلس الى جانبى ممسكا بيدى ـ « ماذا دهاك ؟ »

فقلت ـ « لا شيء • كنت أتأمل ابنة عم لى أعرفها من الريف • »

فسألنى قائلا فى دهشة ـ « من هى ؟ »

فقلت مشيرة الى المرآة التي أمكننى أن أرى فيها صورتى جالسة على الفراش بجانب جينو •

ـ « ها هى ذى » والواقع أننا كنا نبدو كهمجيين أشعرين دخلا خطأ منزلا متمدينا ولكننى كنت أبشع منه منظرا •

وعندئذ أدرك جينو ذلك الشعور بالكآبة والحسد والغيرة الذى كان يعذبنى •

فقال لى وهو يحيطنى بذراعيه ـ « لا تنظرى الى صورتك فى تلك المرآة • » كان يخشى على خططه أن تفسد ولم يدر أنه ما من شيء يمكن أن يلائم خططه أكثر من احساسي الحالى بالمهـــانة والتحقير • وتبادلنا قبلة أحيت فى نفسى الشجاعة لاننى أحسست بأن هنـــاك من أحبه ويحبنى قبل كل شيء •

ولكن ما لبث أن عاودنى احساسى بالحسد وشعورى بالفقر ممـــا بعث فى نفسى اليأس الشديد عندما أرانى غرفة الحمــــام وكانت فسيحة فى حجم غرفة عادية بقرميدها الابيض اللامع وحوضها المثبت فى الحائط تعلوه صنابيره المكسوة بالنيكل وكذلك عندما فتح احدى الخزائن وأرانى ثياب مخدومته وقد ضاق بها المكان • وفجأة استبدت بى الرغبة عن التفكير فى تلك الاشياء • وأردت عن وعى أن أصير خليلة جينو لاول مرة وذلك أولا لكى أنسى حـــالتى وثانيا لـــكى أقنع نفسى بحريتى أنا أيضا وبقدرتى على أن أفعل ما أشاء على الرغم من ذلك الاحساس بالعبودية الذى كنت أرزح تحت عبئه • فلم يكن فى امكانى أن أرتدى ملابس جميلة أو أقتنى منزلا كهذا ولكننى كنت أستطيع على الاقل أن أمارس الحب كما يمارسه الاغنياء وربما تفوقت عليهم فى ذلك •

فسألت جينـــو قائلة ـــ « لماذا ترينى كل هذه الملابس ؟ ففيم تهمنى ؟ »

فأجابنى قائلا فى شيء من الارتباك ـ « خلتك تشتاقين الى رؤيتها • »

فقلت ـ « لا يهمنى مرآها مطلقا • انها جميلة ولكننى لم أحضر الى هنا لارى ملابس سيدتك • »

ورأيت عينيه تتألقان وأنا أتكلم ٠

ثم أردفت قائلة فى عدم اكتراث – « أفضل أن أرى غرفتك » فأجابنى قائلا فى حماس – « انها فى البدروم ، هل نهبط اليها ؟ »

فتأملته لحظة فى صمت ثم سألته قائلة فى لهجـــة صريحة لم أعهدها فى نفسى وكانت بغيضة الى قلبى :

– « لماذا تدعى البلاهة معى ؟ »

فبدأ يتكلم فى قلق وقد استولت عليه الدهشة قائلا – « ولكننى »

فقلت – « انك أعلم منى باننا لم نأت الى هنا لمشاهدة المنزل أو للاعجاب بثياب مخدومتك بل لنأوى الى غرفتك حيث نمارس الحب – حسنا اذن فلنفعل ذلك دون مزيد من المواربة ٠ »

وبهذه الطريقة اذا بى بعد مشاهدتى المنزل أتبدل فى لحظة واحدة فأصير فتاة أخرى غير تلك الفتاة الخجول الساذجة التى دخلت الفيللا٠ ولشد ما دهشت لذلك التغيير حتى اننى كدت ألا أتعرف على نفسى ٠ فغادرنا الغرفة وبدأنا نهبط الدرج – وقد أحاط جينو خصرى بذراعه ثم أخذ يقبلنى عند كل درجة – ولا أحسب أحدا هبط درجا قط بمثل هذا البطء ٠ وعندما بلغنا الطابق الارضى فتح جينو بابا خفيا فى الحائط ثم قادنى وهو لا يزال يقبلنى ممسكا بى من خصرى عبر الدرج الخلفى المؤدى الى البدروم ٠ كان الوقت مساء والظلام سائدا فى « البدروم » ٠ وهناك بلغنا غرفة جينو فى نهاية دهليز طويل دون أن نشعل الاضواء وقد تخاصرنا بينما لم يزل فمه يعلو فمى ٠ ثم فتح الباب ودخلنا وسمعته وهو يغلقه خلفنا ٠ وقفنا هناك فى الظلام بعض الوقت ملتحمين فى قبلة ٠ وكانت قبلة لا نهائية فكلما شئت أن أتوقف عادو هو التقبيل وكلما شـاء أن يتوقف وجدتنى مستمرة فيه ٠ ثم دفعنى جينو تجاه الفراش فتهاويت عليه ٠

ولم يفتأ جينو يهمس فى أذنى بلغو عذب لذيذ وعبارات قصيرة مشجعة فى لهجة مثيرة للغاية هادفا فى وضوح الى أن يوقعنى فى الحـــيرة ويمنعنى فى الوقت نفسه من ملاحظته فى تلك الاثناء وهو يحاول تجريدى من ملابسى ٠ ولكن ذلك لم تكن له ثمة ضرورة اولا لاننى كنت قد عزمت أمرى على أن أهبه نفسى وثانيا لاننى كرهت كل تلك الملابس التى لشد ما كنت احبها من قبل وتاقت نفسى الى التخلص منها ٠ فقد خيل لى أننى – فى عريى – سأكون فى جمال مخدومة جينو ان لم أفقها جمالا هى وجميع من فى العالم من نساء ثريات ٠

وعلى أية حال فقد كان جسدى الان فى انتظار تلك اللحظة منذ شهور وأحسست به وهو يختلج على الرغم منى فى ضجر ورغبة مكبوتة كحيوان مكبل بالقيود يتضور جوعا ثم أطلق سراحه أخيراً بعد صيام طويل وقدم اليه الطعام •

لهذا السبب بدت لى عملية المضاجعة طبيعية للغاية • ولم يشب لذتى الجسدية أى شعور بأننى أرتكب عملا غير مألوف • بل على العكس فقد بدا لى أننى أصنع أشياء سبق لى أن مارستها • ولكننى لم أدر أين ومتى ولعلنى مارستها فى عالم آخر تماما كما تبدو لنا أحيانا بعض المناظر الطبيعية مألوفة فى حين أننا نراها فى الواقع لاول مرة فى حياتنا • ولكن ذلك لم يمنعنى من مضاجعة جينو فى عنف وضراوة فلم افتأ أقبله وأعضه وأهصره بين ذراعى حتى ليكاد يختنق ، كما بدا هو وقد هاجت حماسته حميا التملك نفسها • فتضاجعنا فى عناق عنيف فى تلك الغرفة الصغيرة المظلمة الثاوية أسفل طابقين من المنزل الصامت الخاوى ولم نفتأ نستحث جسدينا بطرق لا حصر لها كغريمين يصطرعان من أجل الحياة بينما يحاول كل منا أن يلحق الاذى بالاخر ما أمكنه ذلك •

ولكن ما أن هدأت رغبتنا واضطجعنا على الفراش جنبا الى جنب وقد عرانا التعب والخمول حتى ساورنى خوف شديد من أن جينو الآن وقد امتلكنى فلن يبغى الزواج بى بعد ذلك • فبدأت أحدثه عن المنزل الذى سنقيم فيه بعد الزفاف ••

ولشد ما تأثرت نفسيا بفيللا مخدومة جينو حتى صرت الآن مقتنعة تماما بأن السعادة لا يمكن أن توجد الا بين أشياء نظيفة جميلة • كما أدركت أننا لن نستطيع أن نمتلك منزلا كهذا أو حتى غرفة واحدة فيه • ولكننى مع ذلك أصررت على محاولة تذليل تلك الصعوبة بأن أوضحت له أن المسكن حتى ولو كان شقة متواضعة يمكن أن يبدو فاخرا اذا ما لمع كالمرآة • فقد بعث فى ذهنى بريق الفيللا أكثر من رفاهيتها خليطا مضطربا من الخواطر • فحاولت أن أقنع جينو بأن النظافة يمكن أن تضفى جمالا حتى على الاشياء القبيحة • ولكننى فى الحقيقة كنت أبغى اقناع نفسى بذلك لاننى كنت فى يأس من فقرى وكنت أعلم أن زواجى بجينو هو السبيل الوحيد للخلاص منه •

قلت ـ « يمكن أن يكون البيت جميلا حتى ولو كان يتألف من غرفتين فقط ! اذا ما عنى بهما كما يجب وغسلت أرضيتهما كل يوم ونفض الغبار عن أثاثهما وجلى النحاس وروعى التنسيق والترتيب فى كل

شيء فوضعت الصحاف فى مكانها المخصص لها ومنافض الغبار فى أماكنها الملائمة والملابس والاحذية كل فى مكانه المناسب . أهم شيء هو الكنس باتقان وغسل الارضيات وتنظيف كل شيء يوميا . كما يجب ألا يتخذ من المنزل الذى أسكنه أنا وأمي مقياسا لحكمه ـ فأمي لا تراعي النظام وعلى أية حال فهذه المسكينة ليس لديها الوقت لذلك أما منزلنا فسوف يلمع كالمرآة . ويمكنني أن أتعهد لك بذلك . »

فقال جينو ـ « نعم . نعم . فالنظافة تأتى فى المقام الاول . أتدرين ماذا تفعل مخدومتي عندما تجد ذرة من التراب فى أحـــد الاركان ؟ تنادى الخادمة المختصة وتجعلها تجثو على الارض وتلتقطها بيديها ـ كما تفعلين مع الكلاب عندما تترك قذرها فى المنزل . وهى محقة فى ذلك تماما . »

قلت ـ « انى واثقة أن منزلى سيكون أنظف وأجمل من ذلك . وسترى . »

فقال مشاكسا ـ « ولكنك ستكونين نموذجا للفنانين ولن تعبأى بالمنزل مطلقا . »

فأجبته قائلة فى حدة ـ « نموذجا ! لن اكون نموذجا بعد ذلك .. بل سأبقى فى المنزل طوال النهار أرعى لك نظافته ونظامه وأطهو لك طعامك .. ان أمي تزعم أن هذا معناه أنني سأكون خادمتك .. ولكنك اذا أحببت شخصا فانه لما يسرك أن تكون خادما له . »

وهكذا ظللنا نتحدث زمنا طويلا فزايلني خوفي رويدا رويدا وحلت محله ثقتي المعهودة في الناس بسحرها وبراءتها . كيف يمكنني أن أرتاب فيه ؟ فان جينو لم يوافقني على كل خططي فحسب بل أخذ يناقش معي تفاصيلها ويعدل فيها ويضيف اليها من عنده . وأعتقد أنني سبق أن قلت انه حينذاك كان بلا ريب مخلصا الى حد ما . ولما كان كذابا فقد انتهى به الامر الى تصديق أكاذيبه .

وبعد ثرثرة استمرت ساعتين أو ما يقرب من ذلك استغرقت فى اغفاءة كما أعتقد أن جينو أيضا استغرق فى النوم . ثم ايقظنا شعاع من ضوء القمر تسلل الينا من خلال نافذة البدروم فأضاء الفراش وكذلك جسدينا الراقدين هناك . وقال جينو اننا بلا ريب فى ساعة متأخرة للغاية . وفى الواقع فان المنبه الموضوع على المنضدة المجاورة للفراش كان يشير الى ما بعد منتصف الليل بدقائق . فهتفت قائلة وأنا أقفز من الفراش مبتدئة فى ارتداء ملابسى ـ « ترى ماذا تفعل بى أمي ؟! »

— « لماذا ؟ »

— « لانى لم أتأخر قط فى الخروج الى مثل هذه الساعة — بل انى لا أخرج مطلقا فى المساء • »

فقال جينو وهو ينهض ايضا — « يمكنك أن تقولى لها اننا خرجنا للنزهة فى السيارة • فأصابها خلل ونحن فى وسط الريف • »

— « انها لن تصدقنى • »

أسرعنا بالخروج من الفيللا وصحبنى جينو فى السيارة الى المنزل• كنت واثقة بأن أمى لن تصدق قصة السيارة وما أصابها من عطب• ولكننى لم أتخيل أنها ستهتدى ببديهتها الى ما وقع بالضبط بينى وبين جينو — وكان معى مفتاحا الباب الامامى وباب الشقة • فدخلت الدار ثم ركضت صاعدة مرحلتى الدرج وفتحت باب الشقة ، وكنت آمل أن تكون أمى قد أوت الى فراشها وقوى أملى عندما وجدت المنزل غارقا فى ظلام دامس • فأخذت أمشى على أطراف أصابعى تجـــاه غرفة النوم دون أن أشعل الضوء عندما أحسست فجأة بيد تقبض على شعرى فى عنف • وجذبتنى أمى فى الظلام فقد كانت يدها هى التى أمسكت بى وسحبتنى الى غرفة الجلوس حيث ألقت بى على الاريكة وأخذت تضربنى بقبضتيها وقـد عصف بها الغضب دون أن تنبس قط بكلمة واحدة • فحاولت الدفاع عن نفسى بذراعى ولـــكن أمى كانت لا تفتأ تجد طريقها الى وجهى من تحت ذراعى موجهة اليه لكماتها القاسية وكأنه كان يمكنها أن تتبين ما كنت أفعله • وأخيرا حل بها التعب وأحسست بها وهى تجلس بجانبى على الاريكة لاهثة فى عنف ثم نهضت وذهبت لتضىء المصباح فى وسط الغرفة وعادت لتجلس الى جانبى وقد وضعت يديها على ردفيها محملقة فى • ولشد ما أحسست بالخجل والارتباك وهى تراقبنى • فحاولت ان أجـــذب ازارى الى أسفل وأن أصلح من هندامى بعد ما أصابنى فى ذلك العراك •

قالت بصوتها المعهود — « أراهن أنك كنت تمارسين الحب مع جينو • »

وأردت أن أقول نعم هذا صحيح ولكننى خشيت أن تعاود ضربى • والآن وقد انتشر الضوء فقد كان خوفى من احكام ضرباتها أكثر من خوفى من الالم فى حد ذاته • اذ كنت أكره أن أسير بكدمة فى عينى وخاصة أمام جينو •

فأجبتها قائلة — « كلا لم نفعل — بل طرأ خلل على السيارة أثناء

نزهتناً فتعطلنا في الطريق • »

ـ « وأنا أقول انكما كنتما تمارسان الحب • »

ـ « لم نفعل »

ـ « بل فعلتما ـ اذهبى وانظرى الى صورتك فى المرآة فوجهك أخضر اللون ! »

ـ « انى متعبة ـ ولكننا لم نكن نمارس الحب • »

ـ « بل كنتما تفعلان • »

ـ « لم نفعل • »

وقد أدهشنى وأزعجنى الى حد ما أنها كانت أثناء اصرارها على هذه الصورة لا تكشف عن غضب بل عن فضول قوى راجح للغاية • وبعبارة أخرى فقد أرادت أمى أن تعرف ما اذا كنت قد أسلمت نفسى لجينو لا لتنزل بى العقاب أو لتنحى على باللائمة بل لغرض خفى فى نفسها كان لابد لها أن تعلم • ولكننى أدركت ذلك بعد فوات الاوان• ومع أننى كنت الآن واثقة من أنها لن تضربنى مرة أخرى فقد واصلت انكارى فى عناد • وفجأة خطت أمى الى الامام وهمت بأن تمسك بى من ذراعى • فرفعت يدى لاتقى بها الضرب ولكنها لم تزد على أن قالت :

ـ « لن ألمسك ـ فلا تخافى • هيا معى • »

لم أفهم أين كانت تريد أن تصحبنى • ولكن لما كان الذعر قد أطار صوابى فقد امتثلت لها على الرغم منى • فقادتنى الى خارج الشقة وهى لا تزال ممسكة بذراعى ثم جعلتنى أهبط الدرج ورافقتنى الى الطريق الذى كان مقفراً فى ذلك الوقت من الليل • وأدركت على الفور أن أمى كانت تعجل بى على الافريز تجاه الضوء الاحمر الصغير المشتعل خارج الصيدلية حيث كان مقر الاسعاف • وعندما بلغنا عتبة الصيدلية بذلت محاولة أخيرة لمقاومتها وثبت قدمى فى الارض ولكنها دفعتنى الى الامام فدخلت منهارة أكاد أسقط على ركبتى • وكانت الصيدلية خالية الا من الصيدلى وطبيب شاب •

فقالت أمى للطبيب ـ « هذه ابنتي وأريدك أن تفحصها • »

فأدخلنا الطبيب فى الغرفة الخلفية حيث كان هناك مضجع الفحص •

وسألها الطبيب قائلا ـ « خبرينى ماذا حدث ـ ولماذا ينبغى أن أفحصها ؟ »

فصاحت أمى قائلة ـ « كانت تضاجع خطيبها • تلك البغى

الصغيرة . وتدعى أنها لم تفعل . أريدك أن تفحصها وتصارحني بالحقيقة . »

فوجد الطبيب الامر مسليا وارتعشت شفتاه وهو يبتسم قائلا - « ولكن هذا ليس تشخيصا لمرض - بل هي حالة من شأن اخصائي - »

فأجابته أمي قائلة وهي لا تفتأ تصيح بأعلى صوتها - « سمها ما شئت . ولكنني أريدك أن تفحصها - ألست طبيبا ؟ أليس من واجبك أن تفحص من يطلبون اليك ذلك ؟ »

فالتفت نحوى قائلا - « هدئي من روعك - ما اسمك ؟ »

فأجبته قائلة - « آدريانا . »

كنت أشعر بالخجل ولكن في غير عمق . فقد اشـــتهرت أمي في الحي كله بمشاجراتها كما اشتهرت أنا بهدوء طبعي .

ثم واصل الطبيب حديثه قائلا وقد بدأ لي انه أحس بارتباكي فأخذ يحاول تجنب اجراء الفحص - « ولنفرض أنها فعلت ؟ فأي ضرر في ذلك ؟ فهما سيتزوجان فيما بعد وينتهي كل شيء على ما يرام . »

- « ليس هذا من شأنك . »

فردد الطبيب قائلا بلهجة محببة - « هدئي من روعك ! هدئي من روعك ! » ثم التفت نحوى قائلا - « أنت ترين أن أمك ترغب فعلا في ذلك - اذن فلتخلعي ملابسك . فلن يستغرق فحصك لحظة واحدة . ثم يمكنك الانصراف . »

فاستجمعت شجاعتي كلها وقلت - « حسنا . اذن فقد مارست الحب . فلنعد الى المنزل يا أماه . »

فقالت بلهجة آمرة - « كلا يا عزيزتي ! فلابد من فحصك . »

فتركت ازاري يسقط على الارض مستسلمة وتمددت على المضجع ففحصني الطبيب . ثم قال لامي - « كنت على حق . فقد فعلت . والان أراضية أنت ؟ »

فسألته أمي قائلة وهي تخرج كيس نقودها - « كم تريد ؟ » وفي تلك الاثناء كنت قد انزلقت عن الفراش وارتديت ملابسي من جديد . ولكن الطبيب رفض أن يأخذ أجرا .

سألني قائلا - « أتحبين خطيبك ؟ »

فأجبت - « بالطبع . »

- « ومتى تتزوجين ؟ »

فصاحت أمى قائلة ـ « انه لن يتزوجها • » ولكننى أجبته فى هدوء قائلة ـ « قريبا ـ عندما نعد أوراقنا • »

الا أن عينى كانتا تبيضان بالثقة الساذجة مما جعل الطبيب يضحك فى كثير من السماحة ثم ربت على خدى فى رفق ودفعنا الى الخارج •

وتوقعت أن تمطرنى أمى بالاهانات حالما نبلغ المنزل بل ربما عاودت ضربى • ولكنها بدلا من ذلك اذا بها تشعل موقد الغاز فى صمت وتعد لى شيئا من الطعـــام • فوضعت طاســـة على المـــوقد ثم دخلت غرفة الجلوس حيث ازالت القصاصات المعهودة عن طـــرف المائدة وهيأت لى مكانا • وكنت جالسة على الاريكة التى شجبتنى اليها من شعرى قبل ذلك بفترة وجيزة ورحت أراقبها فى صمت • ولشد ما انتابتنى الدهشة لا لانها لم تؤنبنى فحسب بل لان وجهها كله كان ينعكس عليه رضا واضح متدفق على صورة غريبة • وعندما انتهت من اعداد المائدة عادت الى المطبخ ثم ما لبثت أن جاءت تحمل صحفة فى يدها قائلة :

ـ « والآن اطعمى • »

وكنت فى الواقع أتضور جوعا • فنهضت وذهبت لاجلس فى شىء من الارتباك على المقعد الـــذى كانت تحتنى أمى للجلوس عليه • وكانت الصحفة تحتوى على قطعة من اللحم وبيضتين وهو عشاء غير مألوف •

فقلت ـ « هذا أكثر مما ينبغى • »

فأجابتنى قائلة ـ « كلى ـ فهذا مفيد لك ـ انك فى حاجة الى الطعام • »

ولشد ما كان اعتدال مزاجها خارجا عن المألوف • ربما كان فيه شىء من الخبث ولكنه لم يكن معاديا البتة • ثم أردفت قائلة بعد فترة وجيزة ولكن لهجتها أوشكت أن تخلو من المرارة والحقد :

ـ « لم يفكر جينو فى اعطائك شيئا من الطعام • هه ؟ »

فأجبتها قائلة ـ « لقد استغرقنا فى النوم. وبعد ذلك فاتنا الوقت. »

لم تنبس ببنت شفة بل وقفت تراقبنى أثناء تناول الطعام • ثم مضت لتتناول طعامها وحدها فى المطبخ • فقد مضى زمن طويل الآن

منذ أن توقفت أمى تماما عن تناول طعامها معى على نفس المائدة • وكان طعامها دائما يقل عن طعامى فاما أن تأكل فضلاتى أو طعاماآخر

يقل جودة عن طعامى . فقد كنت فى نظرها شـــيئا رقيقا ثمينا بل مخلوقا ينبغى أن يعامل بكل رعاية فليس لها فى الدنيا سواه . والآن لم تعد تدهشنى منذ بعض الوقت عبوديتها لى فى تملق واعجاب .
ولكن رضاها الهادىء حينذاك بعث فى نفسى احساسا بالقلق لم أسترح اليه .

قلت بعد فترة وجيزة — « انك غاضبة منى لاننا مارسنا الحب — ولكنه وعدنى بالزواج . فلن نلبث أن نتزوج . »

فأجابتنى قائلة على الفور — « لست غاضبة منك . ولكن الغضب قد استبد بى حينذاك لاننى ظللت أنتظرك طوال المساء وكنت منزعجة — ولكن دعك من هذا الآن — واطعمى . »

غير ان لهجتها المراوغة والمطمئنة فى خـــداع التى يســـتخدمها الناس فى مخاطبة الاطفال عندما يمتنعون عن اجابة اسئلتهم بعثت فى نفسى مزيدا من الشك .

فألححت قائلة — « لم ؟ ألا تصدقين أنه سيتزوجنى ؟ »

— « نعم . نعم . أصدق . ولكن أستمرى فى طعامك . كلى . »

— « كلا . أنت لا تصدقين . »

— « بل أصدق . لا تنزعجى . كلى . »

فقلت وقد دفعتنى لهجتها الى السخط — « لن آكل بعد ذلك حتى تصارحينى بالحقيقة — لماذا يبدو عليك كل هذا السرور ؟ »

— أنا لست مسرورة . »

ثم التقطت الصحفة الفارغة وحملتها الى المطبخ . فانتظرت حتى عادت ثم رددت قائلة

— « هل أنت فرحة ؟ »

فتأملتنى فى صمت فترة طويلة ثم أجابتنى قائلة بلهجة جـادة منذرة « نعم . انى فرحة . »

— « لماذا ؟ »

— « لانى الآن على ثقة تامة من أن جينو لن يتزوجك . ولسوف ينبذك . »

— « ولكن لماذا لا يتزوجنى ؟ فلابد من سبب »

— « لن يتزوجك ولسوف يهجرك — انه سيلهو بك قليلا ولكنه لافلاسه لن يعطيك شيئا . ثم يهجرك بعد ذلك . »

— « أهذا هو ما يفرحك على هذه الصورة ؟ »

— « بالطبع ! لاننى الآن على ثقة تامة من أنكما لن تتزوجا . »

فهتفت قائلة فى استياء وسخط ـ « ولكن فيم يهمك هذا ؟ »

فقالت فجأة ـ « لو انه يبغى الزواج بك لما ضاجعك . لقد ظللت مخطوبة لابيك مدة عامين ولم يزد على تقبيلى مرة أو اثنتين وذلك قبل زواجى ببضعة شهور ـ سيقضى معك وقتا طيبـــا ثم يهجرك ويمكنك أن تتأكدى من ذلك ! وأنا فرحة لهذا لانه لو تزوجك لكان فى ذلك دمارك . »

لم يسعنى الا ان أعترف بينى وبين نفسى بأن أمى محقة فى بعض ما تقول فاغرورقت عيناى بالدموع .

قلت ـ « انى أعرف الحقيقة . فأنت تأبين تمــــاما أن تكون لى اسرة . وتفضلين أن أحذو فى حياتى حذو آنجلينا ! » وكانت انجلينا فتاة فى حينا احترفت البغاء علنا بعد أن فسخت خطبتها مرتين أو ثلاثا .

فأجابتنى فى خشونة قائلة ـ « اريدك ان تكونى ميسورة الحال. » ثم التقطت الصحاف وحملتها الى المطبخ لتغسلها . وعندما خلوت الى نفسى بدات أفكر فى كلماتها فى شىء من الامعان . وقارنت بينهــا وبين وعود جينو وسلوكه فلم اشعر أن أمى يمكن بحال أن تكون على حق . ولكنها بلبلت أفكارى بيقينها ونظرتها الهــــادئة المرحة التى تتطلع بها الى المستقبل . وكانت فى أثناء ذلك تغسل الصحاف فى المطبخ ثم سمعتها وهى تضعها على منضدة المطبـــــخ ثم تأوى الى مخدعها . وبعد فترة وجيزة ذهبت لانضم اليها فى الفراش يراودنى شعور بالكآبة والتعب .

وفى اليوم التالى تساءلت عما اذا كان ينبغى أن أطلع جينو على وساوس أمى . ولكننى بعد تردد كثير قررت ألا أفعل . وفى الواقع فلشد ما كنت أخشى أن يتركنى جينو كما نوهت أمى حتى أننى لم أجرؤ على مصارحته برأيها خوفا من أن أضع الفكرة فى رأسه . وأدركت لاول مرة أن المرأة باستسلامها للرجل تضع مصيــرها بين يديه ولا تجد بعد ذلك الوسيلة التى ترغمه بها على التصرف طبقــا لرغبتها . ولكننى كنت لا أزال مقتنعة بأن جينو لن يحنث بوعده. وما ان قابلته حتى عززسلوكه من اقتناعى .

لاشك أننى كنت أتطلع باشتياق الى أحضان عناقه الكثــــيرة ومداعباته ولكننى كنت أخشى الا يذكر الزواج أو يتحدث عنه بطريقة غامضة فحسب . ولكنه بدلا من ذلك اذا به يخبرنى حالما وقفت السيارة فى الطريق المعهود أنه حدد موعدا للزفاف فى مدى خمسة

أشهر لا يتأخر عنه يوما واحدا • ولشد ما سرني ذلك حتى أنني لم أتمالك نفسي من الانفجار قائلة وكأن آراء أمي هي آرائي — « أتدري ماذا خيل لي ؟ أنك ستهجرني بعد ما حدث أمس • »

فقال نعلو وجهه نظرة مستاءة — « ماذا بالله — ! أتحسبينني وغدا ؟ »

— « كلا • ولكنني أعلم أن هذا سلوك الكثيرين • »

ولكنه واصل حديثه مركزا على اجابتي قائلا — « أتعلمين أن ظنك فى كان يمكن ان يسيئنى • ماذا تحسبيننى ؟ أهكذا تحبيننى ؟ »

فقلت فى سذاجة — « لا شك انى احبك • ولكننى خشيت ألا تحبنى بعد ذلك — »

— « وهل أظهرت لك فى أية صورة من الصور حتى الآن أننى لا أحبك ؟ »

— « كلا — ولكنك لا يمكن أن تتكهن • »

فقال فجأة — « أصغى الى • لقد اثرت غضبى الى حد أننى سأصحبك رأسا الى المرسم • » ثم هم بتحريك السيارة فى الحال

فانتابنى الرعب وألقيت بذراعى حول عنقه متوسلة اليه ألا يفعل ذلك قائلة — « كلا يا جينو ماذا دهاك ؟ كنت أتكلم فحسب — ولتنس ما حدث • »

— « عندما ترددين أشياء معينة فمعنى ذلك أنك تؤمنين بها • ولو آمنت بها فمعنى ذلك أنك لا تحبيننى ••»

— « ولكننى أحبك بلا شك • »

فقال متهكما — « أما أنا فلا أحبك • ولم أزد على العبث بك كما تقولين منتويا هجرك — ومن الغريب أنك لم تلحظى ذلك حتى الآن •»

فهتفت منفجرة فى البكاء قائلة — « ولكن لماذا تحدثنى بهذه الطريقة يا جينو ؟ ماذا فعلت لك ؟ »

فقال محركا السيارة — « لا شيء • ولكننى سأصحبك الآن الى المرسم • »

وانطلقت السيارة بينما جلس جينو الى عجلة القيادة منتصب القامة تبدو عليه سيماء الجد • فانهرت تماما ورحت أبكى وأنا أراقب الاشجار وعلامات الطريق وهى تمضى مسرعة أمام النافذة ورأيت فى الافق فيما وراء الحقول اشباح المنازل الاولى فى المدينة • وتخيلت كيف ستفرح أمى لشجارنا لو علمت به واكتشفت أن جينو قد هجرنى كما تنبأت • فدفعنى اليأس الى أن أفتح باب السيارة وأتكىء

الى الخارج صائحة ـ « أما أن تقف السيارة أو ألقى بنفسي منها ! »
فنظر الى وأبطأ من سرعة السيارة الى أن أوقفها تماما في منعطف جانبي خلف تل صغير تعلوه بعض الانقاض • ثم أسكت المحرك وجذب الفرملة واستدار نحوى قائلا في ضجر :
ـ « حسنا • هات ما عندك ـ هيا ـ »
ولما كنت أعتقد أنه ينوى هجرى حقا فقد بدأت أتكلم في انفعال وحماسة مما يثير اليوم في نفسي السخرية والتأثر عندما استعيده في ذاكرتي • فقد أوضحت له مبلغ حبي له بل بلغ بي الامر أن قلت انه لا يعنيني زواجنا ما دمت أستطيع أن أكون عشيقة له • فأنصت الى بوجه حزين وهو لا يفتأ يهز رأسه مرددا بين الحين والحين ـ « كلا • كلا ـ فلا جدوى اليوم ـ ولعل نفسي تصفو غدا • » ولكنني عندما قلت انه يكفيني أن أكون عشيقة له أجابني قائلا في حزم : ـ « كلا • فلابد من الزواج والا لا شيء • » وظللنا نتجادل بعض الوقت على هذه الصورة بينما كان بمنطقه المعوج كثيرا ما يدفعني الى اليأس ويجعلني أبكي من جديد • ثم بدا لى أنه أخذ يغير من موقفه العنيد رويدا رويدا • وأخيرا بعد أن قبلته وعانقته عبثا بدا لى أنني أحرزت نصرا عظيما عندما أقنعته بترك المقعد الامامي للسيارة ومضاجعتي على المقعد الخلفي في وضع غير مريح كان أسرع مما ينبغي بالنسبة لى ومرهقا للغاية • وذلك لشدة رغبتي في ارضائه • وكان يجب أن أدرك أنني بسلوكي على هذه الصورة لم أحرز نصرا بأى معنى من المعاني بل على العكس كنت أمكن له من السيطرة على لانني أظهرت له استعدادى لان أهبه نفسي لا لانني أحبه فحسب بل بغية استرضائه واقناعه عندما تخونني الحجة ـ وهذا هو بالضبط ما تفعله النساء جميعا عندما يقعن في الحب دون أن يثقن من تبادله • ولكن سلوكه الرائع الذى اوحى به مكره قد أعمى بصيرتي تماما • فكان لا يفتأ يفعل ويقول نفس الاشياء التي ينبغي عليه أن يفعلها ويقولها • ولم أدر لقلة خبرتي أن مثل هذا الكمال لم يكن يتصف به ذلك الرجل الماثل أمامي بلحمه ودمه بقدر ما كانت تتصف به شخصية العاشق التقليدية التي أحملها في ذهني •
ولكن موعد الزفاف كان قد تحدد وبدأت أركز ذهني في الحال على الاستعداد له • فاستقر رأيي بالاتفاق مع جينو على أن نقيم أولا مع أمي • فقد كانت الشقة تحوى غرفة رابعة بالاضافة الى غرفة الجلوس والمطبخ وغرفة النوم ولكن أمي لم تؤثثها قط لافتقارها الى

بال • وكنا نحتفظ فيها بحطام المهملات التي لا جدوى منها • ويمكنكم أن تتخيلوا حطام المهملات فى منزل كمنزلنا الذى يبدو كل ما فيه حطاما لا جدوى منه • وبعد مناقشة الموضوع الى ما لا نهاية وضعنا حداً أدنى لاحتياجاتنا — فاننا سنؤثث هذه الغرفة الوحيدة وأعد لنفسى شيئا من جهاز العرس • وكنت أعلم أن أمى رغم فقرنا الشديد قد ادخرت شيئا وأنها انما كافحت لتجمع المال وتدخره من أجلى لكى نكون على أهبة الاستعداد كما قالت لمواجهة أى طارىء • أما عن كنه هذا الطارىء بالضبط فذلك أمر لم يمكن تحديده فى جلاء قط • ولكنه بالطبع لم يكن زواجى من رجل فقير ذى مستقبل غير مستقر • فذهبت الى أمى قائلة :

— « أليس هذا المال الذى ادخرته من أجلى ؟ »

— « نعم • »

— « حسنا اذن فلتعطينى أياه الان اذا كنت تريدين لى السعادة لكى نؤثث الغرفة التى يمكننا أنا وجينو أن نقيم فيها — فان كنت حقا قد ادخرته من أجلى فقد آن الاوان لانفاقه • »

وكنت أتوقع منها أن تجادلنى وتناقشنى ثم ترفض فى النهاية رفضا صريحا • ولكن أمى بدلا من ذلك رحبت بالاقتراح فى حماسة مبدية مرة أخرى نفس الهدوء المتهكم الذى لشد ما بلبل خواطرى فى ذلك المساء الذى ذهبت فيه أنا وجينو الى الفيللا •

ولم تزد على أن سألتنى قائلة — « وهل سيسهم هو بشىء فى ذلك ؟ »

فكذبت قائلة — « نعم بالطبع • لقد صرح بذلك فعلا — ولكننى أيضا يجب أن أسهم بشىء • »

كانت تحيك القمصان بالقرب من النافذة فتوقفت عن عملها لكى تحدثنى قالت — « أدخلى غرفتى وافتحى الدرج العلوى فى الخزانة حيث تجدين صندوقا من « الكرتون » يحوى دفتر الادخار وكذلك ما أملكه من قطع الذهب • خذى الدفتر والذهب جميعا • ففى وسعك أن تستحوذى عليهما • »

أما قطع الذهب فلم تكن كبيرة القيمة — وهى تتألف من خاتم وقرطين وسلسلة صغيرة • ولكن ذلك الكنز الصغير المخبأ فى خلق بال والذى لم يكن يلمح الا فى ظروف غير عادية كان يثير خيالى منذ طفولتى • فاحتضنت أمى باندفاع تلقائى ولكنها دفعتنى بعيدا عنها لا فى خشونة بل فى برود قائلة :

— « حذار — فالابرة فى يدى — وربما وخزتك • »

ولكننى لم أسعد بذلك • فلم يكن يكفينى أنى حصلت على ما أريد. وأكثر •

بل كنت أريد أيضا أن تشاركنى أمى سعادتى • فقلت — « أماه • ان كنت تفعلين ذلك لارضائى فحسب فأنا لا أريده • »

فأجابتنى وهى تعود الى عملها قائلة — « طبعا أنا لا أفعل ذلك لارضائك • »

فسألتها قائلة فى رقة — « أنت لا تصدقين حقا أننى ســـــأتزوج جينو • أليس كذلك ؟ »

— « لم أصدق هذا قط • واليوم أكذبه أكثر من أى وقت مضى •»

— « اذن فلماذا تعطينى النقود لتأثيث الغرفة ؟ »

— « ليس هذا تبديدا للمال • فستبقى الاثاثات والبياضات ملكا لك على الدوام — فاما المال أو السلع وكلاهما شىء واحد • »

— « ألا تأتين معى لزيارة المحال واختيار ما نريد من أشياء ؟ »

فصاحت قائلة — « يا الهى ! انا لا أريد أن يكون لى شأن بهذا كله ! فافعلى ما شئت واذهبى حيثما شئت وانتقى ما شئت — فأنا لا أريد أن أعرف شيئا • »

كانت فى الحقيقة لا تقبل التفاهم مطلقا فى موضوع زواجى • وأدركت أن عدم قابليتها للتفاهم لم تكن ترجع الى رأيها فى أخلاق جينو من ناحية أساليبه ووسائله بقدر ما كانت ترجع الى طريقتها فى النظر الى الحياة • كان موقفها خاليا تماما من كل حقد بل كان لا يعدو أن يكون ثورة مطلقة على كل الاراء التى تواضع عليها الناس • فالنساء الاخريات يتمنين فى شوق لو تزوجت بناتهن • أما أمى فكانت تتمنى بنفس الشوق ألا أفعل • وقد مضى الان زمن طويل على موقفها هذا •

وهكذا كان هناك نوع من التحدى الصامت بينى وبين أمى • فقد كانت تبغى أن يفشل زواجى وأن أقتنع ببراعة خططها • وكنت أبغى أن يتم الزواج وأن تقتنع أمى بصحة نظرتى للامور • وعلى ذلك فقد تشبثت فى مزيد من الحماسة بالامل فى الزواج • وكنت كمن يراهن فى يأس بحياته كلها على ورقة واحدة • ولم افتأ أحس فى مرارة بأن أمى كانت تراقب جهودى وتتمنى فشلها بينها وبين نفسها •

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن سلوك جينو الذى لا تشوبه شائبة لم يطرأ عليه خلل قط ولا حتى أثناء استعداداتنا للزفاف • وقد سبق

أن قلت لامى ان جينو أسهم بنصيب فى النفقات ولكننى لم أصدقها

القول لانه حتى ذلك الحين لم يكن قد لجأ قط الى مثل هذا الامر
فعندما عرض على جينو دون أن أطلب اليه مبلغا صغيرا من المال
لمساعدتى تولتنى الدهشة وفرحت فى نفس الوقت فرحا شديدا •
وقد اعتذر لى عن ضآلة المبلغ بقوله انه لا يمكنه أن يعطى المزيد
لاضطراره فى معظم الاحيان الى ارسال نقود الى اسرته • واليوم
عندما أفكر فى عرضه لا يمكننى أن أجد تفسيرا آخر لذلك سوى
إعتزازه الشديد بتفانيه فى الدور الذى قرر أن يلعبه • ولعل منشأ
هذا التفانى أنه كان نادما على خداعه اياى وآسفا لعجزه عن الزواج
بى وهو ما كان يريده فعلا حينذاك • فأسرعت الى أمى ظافرة أخبرها
بعرض جينو • فلم تزد على ان علقت قائلة انه مبلغ ضئيل للغاية ــ
ولكنه لم يكن ضئيلا الى الحد الذى يظهره بمظهر الفقير المعوز بل
كان فيه ما يكفى لذر الرماد فى عينى •

ولشد ما كنت سعيدة فى تلك الفترة من حياتى • فقد تعودت
ان التقى بجينو كل يوم • وكنا نمارس الحب حيثما أمكننا ذلك ــ
على المقعد الخلفى للسيارة أو أثناء وقوفنا فى ركن مظلم فى أحد
الشوارع المقفرة أو فى أحد حقول الريف أو فى الفيللا مرة أخرى
فى غرفة جينو • وذات ليلة بعد أن صحبنى الى المنزل مارسنا الحب
على بسطة فى الظلام مفترشين الارض خارج الباب الامامى لمنزلنا •
ومرة أخرى مارسنا الحب فى السينما متعانقين فى المقاعد الخلفية
الى اليمين أسفل غرفة العرض تماما • وكان يستهوينى أن أندس
فى زحام الترام والاماكن العامة وهو واقف الى جوارى لان الناس
كانوا يدفعوننى نحوه فانتهز الفرصة لاضغط بجسدى على جسده •
وكنت لا أفتأ أحس بالرغبة فى أن أضغط يده أو أعبث بشعره أو
أدغدغه بطريقة ما أينما كنا حتى فى حضور آخرين وأنا أكاد أخدع
نفسى بأن حركتى لن تلفت الانظار كما نفعل دائما عندما نستسلم
لعاطفة غلابة لا يمكن مقاومتها • وكانت عملية المضاجعة تبهجنى •
ولعل تعلقى بها فى حد ذاتها كان أقوى من تعلقى بجينو لاننى كنت

أحس بنفسى مدفوعة اليها لا بمشاعرى نحو جينو فحسب بل كذلك
باللذة التى كنت أجدها فيها • ولم يخطر على بالى بالطبع أنه يمكننى
أن أجد مثل هذه اللذة مع أى رجل آخر عدا جينو • ولكننى أدركت
بطريقة غامضة أن ما كنت أبثه فى مداعباتى من حماسة ومهـــارة
وعاطفة لم يكن مرجعه ما بينى وبين جينو من حب فحسب بل كانت

حركاتى تتميز بطابع خاص وكأننى أوتيت موهبة المضاجعة التى كانت ستكشف عن نفسها ان عاجلا او آجلا حتى بغير جينو • ولكن فكرة الزواج كانت تحتل المقام الاول • ولكى أدخر بعض النقود أخذت أساعد أمى بكل قواى وكثيرا ما كنت أسهر الى ساعة متأخرة من الليل • وكنت فى أثناء النهار حين أفرغ من الوقوف فى المراسم أطوف بالمحال فى صحبة جينو لاختيار أثاثنا واقمشة جهازى • وكنت لا أملك سوى مبلغ صغير ولهذا السبب بعينه كنت أبحث فى مزيد من العناية ومزيد من التدبير والتفكير • فكنت اطلب الى الباعة أن يعرضوا على الاشياء التى أعلم اننى لا أستطيع شراءها ، وأقلبها بين يدى فى تمهل مناقشة قيمتها ومساومة فى سعرها • ثم أتظاهر بعد ذلك بعدم الرضا أو أعدهم بالعودة ثم أغادر المحل دون أن أشترى شيئا • وقد أثبتت لى تلك الحملات الجنونية التى كنت أشنها على المحال وذلك الفحص المرهق للسلع التى لا يمكننى شراؤها صدق ما كانت تقوله أمى دون أن تدرك ذلك ـ من أنه لا سبيل الى السعادة بدون المال • وكانت تلك هى المرة الثانية التى أرى فيها بعد زيارتى للفيللا ما يمكن أن يكون عليه نعيم الثراء • ولما كنت أحس بأننى مبعدة عنه لغير ما ذنب جنيته فلم أتمالك نفسى من الشعور بالمرارة والسخط الى حد ما • ولكننى حاولت عن طريق المضاجعة كما فعلت فى الفيللا أن أنسى ذلك الظلم • وكانت المضاجعة هى متعتى الوحيدة التى تشعرنى بالمساواة مع كثير من النساء الاخريات اللائى يفقننى ثراء وحظا فى الحياة •

وأخيرا بعد كثير من المناقشات والحملقة فى المحال استقر رأيى على مشترواتى التى لشد ما كانت متواضعة • كما ابتعت طقما من الاثاث حديث الطراز بالتقسيط التجارى وذلك لعدم وجود ما يكفى من النقود لدفع ثمنه فورا ـ وكان يتألف من فراش عريض وخزانة للملابس ذات أدراج ركبت عليها مرآة ومناضد صغيرة توضع بجانب الفراش ومقاعد وصوان للملابس • وكانت كلها أشياء عادية رخيصة خشنة الصنع ولكن أحدا لا يمكن أن يصدق مدى الحب الذى شعرت به فورا نحو تلك القطع الهزيلة من الاثاث • وطليت جدران الغرفة باللون الابيض ودهنت الابواب والنوافذ بالورنيش ونظفت أرضية الغرفة مما لصق بها من القذارة حتى صارت غرفتنا أشبه بجزيرة نظيفة فى وسط البحر القذر المحيط بنا • ولا شك أن اليوم الذى نقل فيه الاثاث الى المنزل كان أسعد يوم فى حياتى • فلم أكد

اصدق أن مثل هذه الغرفة النظيفة المرتبة المضيئة التى تفوح منها رائحة الخشب والورنيش كانت غرفتى الخاصة . وقد امتزج عـــدم التصديق بشعور لا نهائى من الرضا . فكنت أحيانا عندما أتأكد من غفلة أمى أدلف الى داخل غرفتى حيث أجلس على الحشية العارية وأمكث ساعات بطولها متأملة ما حولى . وكنت أحملق كالتمثال فى تلك القطع الهزيلة من الاثاث وكأننى لا أستطيع أن أصدق أنهـــا حقيقة وأخشى أن تتلاشى فى الهواء فى أية لحظة تاركة الغرفة خاوية . أو أنهض من مكانى وأنفض عنها الغبار وأزيد من صقلها . وأعتقد أننى لو أطلقت العنان لمشاعرى حقا لقبلتها . وكانت النافذة العارية من الستائر تطل على فناء فسيح قذر تحيط به منازل أخرى خفيضة ممتدة كمنزلنا . وكان المنظر أشبه بفناء فى سجن أو مستشفى ولكننى لما كنت منتشية فاننى لم أعد أعيره انتباها . بل أحسست بسعادة وكأن الغرفة تطل على حديقة جميلة مملوءة بالاشـــــجار . وأخذت أتخيل الحياة التى سنحياها أنا وجينو هناك - وكيف سننام ونتضاجع . وكانت فى ذهنى أشياء أخرى كنت أعتزم شراءها حالما يمكننى ذلك - آنية للزهور ومصباح ومنفضة للسجائر توضع فى ركن الغرفة أو حلية أخرى . ولم يكن يؤسفنى سوى أننى لا أستطيع الحصول على حمام ذى قرميد أبيض لامع وصنابير كذلك الذى رأيته فى الفيللا أو على الاقل حمام جديد نظيف . وكنت مصممة على أن تكون غرفتى آية فى الترتيب والنظافة فقد اقنعتنى زيارتى الى الفيللا بأن الحياة المرفهة تبدأ بالترتيب والنظافة .

الفصل الرابع

وحوالى ذلك الوقت بينما كنت لا أزال أواصل جلساتى فى المراسم تعرفت فى مكان ما الى فتاة أخرى تعمل نموذجا وكانت تدعى جيزيلا فنشأت بيننا صداقة . كانت فتاة طويلة القامة قوية البنية ذات بشرة ناصعة البياض وشعر أسود مجعد وعينين زرقاوين غائرتين وفم أحمر واسع . وكانت طباعها على النقيض من طباعى . فكانت سريعة الانفعال حقودا لاذعة ولكنها فى نفس الوقت ذات تفكير عملى تنشد الكسب المادى . ولعل هذه الاختلافات نفسها هى التى ربطت بيننا ووثقت عرى الصداقة . وكنت لا أعلم أن لها عملا آخر بالاضافة الى عملها كنموذج ولكنها كانت ترتدى ثيابا تفوق طاقتى بكثير . ولم تخف عنى أنها كانت تتلقى الهدايا والنقود من رجل قدمته الى على أنه خطيبها . وأذكر أننى كنت أغبطها سترتها السوداء التى اكتست ياقتها وطرفا كميها بفراء آستراخان . وكثيرا ما كانت ترتديها فى ذلك الشتاء . أما خطيبها فكان يدعى ريكاردو وهو شاب طويل القامة هادىء الطبع ممتلىء الجسم ذو وجه ناعم كالبيضة خلته حينذاك وسيما للغاية . وكان ذا شعر لامع دائم التنسيق غارق فى الدهانات وهو لا يفتأ يرتدى حللا جديدة . وكان أبوه يملك محلا لملابس الرجال الداخلية وأربطة العنق . كما كان بسيطا الى حد البلاهة وديعا مرحا ولعله كان شابا مهذبا للغاية . كان هو وجيزيلا عاشقين ولكننى لا أعتقد أنه كان بينهما حديث عن الزواج كما كان بينى وبين جينو . ولكن جيزيلا كانت مثلى تهدف الى الزواج دون أن تعلق عليه كثيرا من الآمال . أما ريكاردو فانى واثقة أن فكرة زواجه بجيزيلا لم تخطر له قط على بال . وقد صممت جيزيلا التى كانت رغم حماقتها الشديدة تفوقنى خبرة بكثير على أن ترعانى وتردنى الى طريق الحكمة والصواب فى كثير من الامور . وباختصار فقد كانت تعتنق نفس الاراء والافكار التى تعتنقها أمى فى الحياة والسعادة . ومع ذلك فان تلك الاراء كانت تعبر عنها أمى بلهجة عدوانية مريرة لانها كانت ثمرة حياة مليئة بالشدائد وخيبة الرجاء فى حين أن

اعتناق جيزيلا تلك الاراء كان يرجع الى بلادتها واكتفائها الذاتى العنيد • ومن الممكن أن نقول ان أمى كانت تقنع بالتعبير عن ارائها نظريا وكان تقريرها لمبادئها يفوق تطبيقها العملى أهمية فى نظرها • أما جيزيلا التى كانت تفكر دائما بهذه الطريقة ولم تكن تحلم بأن هناك من يمكن أن يفكر بطريقة مختلفة فقد تولتها الدهشة لاننى لا أحذو حذوها • ولم تتحول دهشتها الى غضب وغيرة الا عندما أظهرت استنكارى لاعمالها لاننى فى الحقيقة لم أتمالك نفسى من ذلك • فقد اكتشفت فجأة اننى لا أرفض حمايتها ونصيحتها فحسب بل لعلى كنت فى مركز يسمح لى بانتقادها من ذروة أمانى الغريرة النزيهة • وعندئذ فقط ولعلها لم تكن تعى ما تفعل بدأت تخطط للحيلولة بينى وبين الحكم عليها وذلك عن طريق ارغامى على أن أحذو حذوها فى أقرب وقت ممكن •

وفى أثناء ذلك كانت لا تفتأ تتهمنى بالحمق لاحتفاظى بطهارتى وتدعى أنه كان يشينها ان ترانى على تلك الصورة من سوء الهندام أعانى مثل هذه الحياة الشاقة فى حين أنه يمكننى اذا شئت بفضل جمالى أن أغير مركزى تغييرا كاملا • وأخيرا أخبرتها بعلاقتى بجينو لاننى خجلت من اعتقادها أننى لا أعرف شيئا عن الرجال • ولكننى أخطرتها بأننا كنا خطيبين وأننا لن نلبث أن نتزوج • فسألتنى فى الحال عن عمل جينو وما ان سمعت أنه سائق حتى عبس وجهها • ولكنها مع ذلك طلبت الى أن أقدمه اليها •

كانت جيزيلا خير صديقة لى وكان جينو خطيبى • واليوم يمكننى أن أحكم عليهما حكما نزيها بعيدا عن الهوى • ولكن بصيرتى حينذاك لشد ما عميت عن حقيقتهما • فقد كنت أعتقد بالفعل أن جينو بلغ حد الكمال • أما جيزيلا فربما أدركت أن لها بعض الاخطاء ولكننى كنت أعتقد أنها فى مقابل ذلك ذات قلب عامر بالحب • وأنها لشد ما كانت شغوفة بى • وعندما علمت ببراءتى كنت لا أرجع قلقها على مستقبلى الى حقدها على ورغبتها فى افسادى بل الى طيبة قلبها الخاطئة الضللة • وهكذا فقد قدمت كلا منهما الى الاخر فى شىء من التوجس والخوف • وكنت آمل بسذاجتى أن يصيرا صديقين • وقد تم اللقاء فى أحد محال اللبن • وظلت جيزيلا طوال الوقت ملازمة الصمت الحذر • ولكن موقفها العدائى كان واضحا • وبدا لى فى أول الامر أن جينو كان يحاول جاهدا أن يسحر جيزيلا بشخصيته لانه كعادته

بدأ يتحدث عن الحياة مركزا على ثراء مخدوميه وكأنه كان يأمل أن يبهرها بهذه الاوصاف ويخفي فقر حياته . ولكن جيزيلا أبت أن تلين وظلت محتفظة بموقفها العدائي . ثم علقت قائلة ولست أذكر تماما السبب الذى دعاها الى ذلك — « انه لمن حسن حظك أنك عثرت على آدريانا . »

فسألها جينو قائلا فى دهشة — « لماذا ؟ »

فقالت — « لان الساقة عادة يرافقون الخادمات . »

فرأيت جينو وقد تغير لونه . ولكنه لم يكن ليؤخذ على غرة . فأجابها قائلا فى بطء خافضا صوته كمن يفكر فى حقيقة ظاهرة كانت قد فاتته ملاحظتها حتى تلك الآونة — « انك محقة تماما . فقد تزوج السائق الذى سبقنى فى الواقع بالطاهية — طبعا — لم لا ؟ وكان ينبغى أن أحذو حذوه — فالساقة يتزوجون الخادمات والخـــادمات يتزوجن الساقة . لم لم يخطر ذلك على بالى بحـــق الســـماء ؟ » ثم أضاف قائلا بعدم اكتراث — « ومع ذلك فقد كنت أفضل أن تكون آدريانا خادمة على أن تكون نموذجا . » ثم أردف قائلا وهو يرفع يده وكأنه يريد أن يتجنب أى اعتراض يمكن ان تبديه جيزيلا — « ولا أقصد — لا أقصد أن ذلك بسبب المهنة نفسها — مـــع أننى أصارحك بأنه لا يمكننى استساغة تجردها من ثيابها أمام الرجال — بل لسبب رئيسى هو أنها مضطرة بحكم اشتغالها بهذه المهنة أن تتعرف الى قوم وتتخذ صديقات ممن .. « ثم هز رأسه وصعر وجهه. وبعد ذلك قدم اليها علبة سجائره قائلا — « أتدخنين ؟؟ »

ولم تدر جيزيلا كيف ترد عليه فى الحال بل اكتفت بأن رفضت السيجارة . ثم نظرت الى ساعتها قائلة — « علينـــــا أن نذهب يا آدريانا فقد تأخر الوقت . » وكان الوقت قد تأخر بنا فى الواقع . فغادرنا محل اللبن بعد أن ودعنا جينو . وما ان خرجنا الى الطريق حتى قالت لى جيزيلا : — « انك ترتكبين عملا جنونيا للغاية . فأنا لا يمكننى مطلقا أن أتزوج رجلا كهذا . »

فسألتها قائلة فى قلق — « ألم يعجبك ؟ »

« كلا مطلقا . فقد قلت لى أولا انه طويل القامة ولكنه يكاد يكون أقصر منك — ثم هو غير طبيعى بالمرة . كما أنه يتكلم بطريقة خيالية غريبة تظهر لك على بعد ميل أنه لا يقول ما يعتقده حقا . ثم ما كل هذه المظاهر والحركات المصطنعة التى يضفيها على نفسه وهو لا يعدو أن يكون سائقا !؟ »

فاحتججت قائلة ـ « ولكننى أحبه ! »

فأجابت قائلة فى هدوء ـ « حسنا ، ولكنه لا يحبك ـ ولسوف يهجرك يوما ما ، »

ولقد بوغت بهذه النبوءة ، فلشد ما كانت لهجتها مؤكدة ولشد ما حاكت نبوءات أمى ، واليوم يمكننى أن أقول أن جيزيلا بغض النظر عن سوء نيتها قد استشفت شخصيه جينو فى ساعه واحدة أكثر مما فعلته أنا فى عدة شهور ، أما جينـــو فقد ساء رأيه أيضـــا فى جيزيلا ولكننى يجب أن أعترف أنه تبين لى فيما بعد أن رأيه لم يجانب الصواب ، والحقيقة أن شغفى بكليهما فضلا عن قلة خبرتى قد أعمى بصيرتى ، وما أصدق القول بأن سوء الظن هو الـــرأى الصائب فى معظم الاحيان ،

قال جينو ـ « ان جيزيلا هذه هى ما نسميه نحن فى بلدنا بفتاة الطريق ، »

فبدت على الدهشة وأردف موضحا ـ « عاهر تجوب الشوارع ، فآدابها وأخلاقها تدل على ذلك ـ كما أنها مغترة لحسن هندامها ـ ولكن أنى لها أن تدفع ثمن ثيابها ؟ »

ـ « ان خطيبها يهديها اياها ، »

ـ أراهن أن لها خطيبا مختلفا فى كل ليلة ٠٠ والآن أنصتى الى ، فاما أنا أو هى ، »

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « أعنى أنه يمكنك أن تفعلى ما شئت ـ ولكنك اذا لم ترغبى فى مقاطعتها فلتخرجينى من حسابك ، فاما أنا أو هى ، »

وحاولت أن أثنيه عن عزمه ولكننى فشلت ، فلابد أن جيزيلا قد جرحت كبرياءه باحتقارها اياه ، ولكن لا ريب أن سخطه المبغض عليها كان فيه شىء من الاخلاص للدور الذى يؤديه كخطيب لى ـ ذلك الاخـــــلاص الذى أوحى اليه بالاســــــهام فى تكاليف تأثيث المنزل ، كان رائعا كعهده دائما فى التعبير عن عواطف لا يشـــــعر بها ، اذ أنه لم يفتأ يردد قائلا فى صلابة ـ لا ٠٠ ان خطيبتى لاينبغى أن تكون لها صلة بالساقطات . » وأخيرا وعدته أن أقطع كل صلة بجيزيلا خشية أن ينهار صرح الزواج مع أننى كنت أعلم فى قرارة قلبى أنه لا يمكننى بحال الوفاء بوعدى لاننى أنا وجيزيلا كنا نعمل معا فى نفس الوقت وفى نفس المرسم ،

ومنذ ذلك اليوم ظللت أراها دون علم جينو . وكانت جيزيلا

فى كل لقاء لا تفتأ تنتهز كل فرصة للتعريض بخطبتنا بألفـــاظ نفيض تهكما واستنكارا . ولقد بلغت بى ســـذاجتى أننى كنت أطلعها على كل مايخص علاقتى بجينو من أشياء تافهة صغيرة . فكانت بالتالى تستغل تلك الاسرار فى الاساءة الى وفى القاء ضوء من الهزء والسـخرية على حيـاتى الحـاضرة والمسـتقبلة — أما صديقها ريكاردو الذى بدا انه لا يميز بينى وبين جيزيلا وكان يعد كلتينا فريسة سهلة كفتاتين غير جديرتين بالاحترام — فقد كرس نفسه عن طيب خاطر للمشاركة فى لعبة جيزيلا فشدد من نكير قسوتها وسخريتها . ولكنه كان يفعل ذلك فى حماقة وحسن نية لانه كما سبق أن قلت لم يكن فى الحقيقة ذكيا ولا شريرا . وكانت خطبتى فى نظره لاتعدو أن تكون مادة دعابة — أو تسلية . أمـا جيزيلا التى كانت لا تفتأ تجد فى عفنى تعنيفا مستمرا لها والتى شاءت أن تجعلنى أحذو حذوها حتى تسلبنى بذلك كل حق فى ادانتها فكانت تهاجمنى فى حقد واصرار محاولة بكل طريقة ممكنة أن تعذبنى وتحقر من شأنى .

وكانت تركز هجومها على أضعف نقطة فى وهى ملابسى فكانت تقول — « لشد مايخجلنى حقا أن أسير معك اليوم . » أو تقول — « ان ريكاردو لا يسمح لى مطلقا بالخروج فى مثل هذه الخلق التى ترتدينها .. أليس كذلك يا ريكاردو ؟ فهذه الاشـــياء تكشف عن الحب ياعزيزتى ! » وكنت من الســذاجة بحيث أستجيب فورا لهذا الاغراء الذى يوقعنى فى الفخ . فأخرج عن طـورى وانبرى للدفاع عن جينو وكذلك عن ملابسى ولكن باقتناع أقل . وكنت لا أفتأ أخرج من المعركة أسوأ حالا وقد احمر وجهى واغرورقت عيناى بالدموع . وذات يوم قال ريكاردو وقد أخذته الشفقة على «اليوم سأعطى هدية لادريانا . تعالى يا آدريانا . فانى أريد أن أعطيك حقيبة يد . ولكن جيزيلا عارضته فى عنف قائلة — «كلا يا ريكاردو ! لاتعطها شيئا ! فلديها جينو وليأت لها بالهدايا . » فأذعن لهـــا ريكاردو فى الحال وقد دفعته طيبة قلبه الى ذلك الاقتراح ولكنـه لم يخطر بباله مدى ماكانت ستحدثه هديته فى نفسى من سرور . وفى ذلك المساء دفعتنى كبريائى الجريحة الى ابتياع حقيبة بنقودى الخاصة . وفى اليوم التالى قابلتهما وتحت ذراعى حقيبتى الجديدة زاعمة لهما أنها هدية من جينو . وكان ذلك هو النصر الوحيـــد الذى أحرزته فى كل مادار بيننا من مشادات تثير الرثاء . وقـــد

كلفنى ذلك النصر غاليا لانها كانت حقيبة جميلة للغاية فدفعت فى مقابلها ثمنا باهظا .

وعندما خيل اليها انها بقوة تهكمها وتحقيرها ووعظها اياى قد حطمت مقاومتى بصورة كافية اقتربت منى قائلة ان لديها اقتراحا ثم اردفت تقول ـ « ولكن دعينى أرو لك القصة بأكملها . ولتتخلى عن عنادك المعهود حتى تسمعى ما عندى . »

فقلت ـ « الى به . »

فبدأت حديثها قائلة ـ « انت تعلمين اننى أحبك . فأنت بمثابة أختى . ان لديك من الجمال مايجعلك تملكين كل ماتبتغين . ولا أحب أن أراك فى مثل هذه الملابس المخجلة التى تبدين فيها وكأنك من أطفال الشوارع المشردين . والان أنصتى . » ثم توقفت عن الحديث وراحت تحملق فى بكل جد وحزم وأردفت قائلة فى صوت خفيض ـ « هناك سيد مهذب ـ سيد حقيقى ـ رقيق دمث للغاية وقع بصره عليك فأبدى بك اهتماما . وهو متزوج ولكن أسرته تقيم فى الريف . كما انه شخصية هامة فى الشرطة . فان شئت أن تتعرفى اليه أمكننى أن أقدمك . وهو شخص غاية فى الرقة وغاية فى الجد . ويمكنك أن تتأكدى تماما من أن أحدا لن يعرف شيئا عن علاقتك به . وعلى أية حال فانه قلما يفرغ من عمله ولن تلتقى به أكثر من مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . كما أنه لايعترض ان شئت على استمرار علاقتك بجينو ـ ولا يبالى بزواجك به ولكنه فى مقابل ذلك سيكفل لك حياة أيسر من تلك التى تعيشينها الان . فما رأيك ؟ »

فقلت فى صراحة ـ « شكرا جزيلا له . ولكننى لا أستطيع قبول اقتراحه . »

فسألتنى قائلة وكانت دهشتها صادقة ـ « لم لا ؟ »

ـ « لاننى لا أستطيع . فأنا احب جينو ولو قبلت ذلك لما أمكننى أن أواجهه . »

ـ « دعك من هذا ! حتى لو أكدت لك أن جينو لن يعرف شيئا عن هذه العلاقة ! »

ـ « هذا هو السبب بالضبط . »

فتمالت وكأنها تحدث نفسها ـ « انى لا أكاد أتخيل عرضا كهذا ـ ماذا أقول له ؟ أنك ستفكرين فى الأمر ؟ »

ـ « كلا . كلا ... بل قولى له انه لايمكننى قبوله . »

فقالت جيزيلا وقد خاب أملها ــ « انك حمقاء . فالحظ يواتيك ولكنك ترفسينه . »

وقالت لى اشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ولكننى كنت أجيب عنها بنفس الطريقة . وأخيرا انصرفت وهى أشد ماتكون سخطا على

لقد رفضت العرض جزافا دون روية أو تفكير فيما كان ينطوى عليه حتى اذا ما خلوت الى نفسى كان يراودنى شعور بالندم . لعل جيزيلا كانت محقة فى أن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على كل الاشياء التى كنت فى حاجة ماسة اليها . ولكننى طردت الفكرة من ذهنى فى الحال وتشبثت فى مزيد من القـــوة بفكرة الزواج وبالحياة المنتظمة التى عاهدت نفسى عليها حتى ولو كانت متواضعة. ولقد أرغمتنى تلك التضحية التى كان من الواضح اننى قمت بهـــا الآن على أن أتزوج بكل وسيلة ممكنة بل زاد الامر الحاحا عما كان عليه من قبل .

ولكننى لم أتمالك نفسى من الشـــعور بالزهو فأطلعت أمى على عرض جيزيلا . وخيل لى أننى بذلك أبعث فى نفسها فرحة مزدوجة. فقد كنت أعلم انها فخور بجمالى وأنها ما زالت متمسكة بآرائها . فكان ذلك العرض يرضى كبرياءها ويعزز آراءها . ولكننى دهشت لحالة الاضطراب التى عرتها على أثر سماعها قصتى . فقد لمعت عيناها ببريق جشع وتضرج وجهها كله بحمرة الفرح .

وأخيرا سألتنى قائلة ــ « من هو ؟ »

فأجبتها قائلة ــ « سيد مهذب . » ولكننى خجلت من مصارحتها بأنه يعمل فى الشرطة .

ــ « أقالت أنه واسع الثراء ؟ »

ــ « نعم . من الواضح أنه يكسب كثيرا . »

ولكنها لم تجرؤ على مصارحتى برأيها الذى كان واضحا وهـــو أننى أخطأت برفضى ذلك العرض .

ــ «لقد رآك وأبدى بك اهتماما ؟ فلم لا تدعينها تقدمه اليك ؟»

ــ « وما الفرض من ذلك اذا كنت لا اريده ؟ »

ــ « للاسف انه متزوج »

ــ « ولكننى ماكنت لاقابله حتى لو لم يكن كذلك . »

فقالت أمى ــ « ثمة طرق كثيرة لممارســـة الامور . فهو غنى ومعجب بك . وكل خطوة تؤدى الى أخرى ــ وفى أمكانه مساعدتك دون أن يطلب شيئا فى مقابل ذلك . »

فأجبتها قائلة ـ « لا ـ لا . فهؤلاء الناس لايعطون شيئا بدون مقـــابل . »

ـ « هذا أمر لايمكنك التكهن به مطلقا . »

فرددت قائلة ـ « لا . لا . »

فقالت أمى وهى تهز رأسها ـ « لا أهمية لذلك . ولكن جيزيلا فتاة رقيقة حقا ولا شك أنها تحبك . فان أية فتاة أخرى ما كانت لتذكر لك هذا العرض بسبب غيرتها . وهكذا ترين أنها صديقة بحق لم تعد جيزيلا تتكلم عن صديقها السيد المهذب بعد رفض اقتراحها بل لقد امتنعت لدهشتى عن مشاكستى بصدد خطبتى . وظللت التقى بها خلسة هى وريكاردو . ولكننى ذكرت اسمها لجينو أكثر من مرة آملة أن أصــــــلح ذات البين لاننى لم أكن أحب تلك الاتصالات الخفية . ولكنه لم يدعنى قط أكمل ما كنت اقوله ولم يزد على ترديد عبارات الكراهية وكان يقسم أن ينتهى كل شيء بيننا لو اكتشف فى اية لحظة أننى ألقاها . وكان يعنى ما يقول . وخيل لى أنه ما كان ليشعر بالأسف لو وجد عذرا لفسخ الخطبــة . وكاشفت أمى بكراهية جينو لجيزيلا فقالت دون حقد تقريبا :

ـ « انه لا يريدك أن تلتقى بها خشية ان تقارنى بين ما ترتدينه من خلق بالية وبين ما يهديه اياها خطيبها من ثياب . »

ـ « كلا . بل هو يزعم أن جيزيلا عاهر . »

ـ « انه هو العاهر ! ليته يكتشف أنك تقابلين جيزيلا ويفســـخ الخطبة حقا . » فتولانى الرعب وهتفت قائلة ـ « ولكنك لن تخبريه بشيء يا أماه . ! »

فأسرعت باجابتى قائلة فى شيء من المرارة ـ « كلا . كلا . فهذا شأنك . ولا صلة لى به مطلقا . »

فقلت بانفعال ـ « لو أخبرته فلن ترى وجهى بعد ذلك . »

وحل صيف سانت مارتن(١) وكان الجو فى تلك الايام صحوا معتدلا . وذات يوم أخبرتنى جيزيلا انها قد اعتزمت بالاتفـــــاق مع ريكاردو وصديق له القيام برحلة فى السيارة وانهم فكروا فى اصطحابى معهم لحاجتهم الى امرأة اخرى يكتمل بها العقد . فسرنى قبول تلك الدعوة لأننى حينذاك كنت لا ألقى الحث من أى نوع من البهجة الأخف

(١) Saint Martin. أسقف مدينة تور فى القرن الرابع الميلادى . وقد ولد فى ١١ نوفمبر . والمقصود بصيف سانت مارتن هو ذلك الفصل الجميل من السنة حوالى ذلك التاريخ .

بها من تعاسة حياتي . وزعمت لجينو أنني مضطرة للوقوف بضع ساعات اضافية . وفي الصباح ذهبت في ساعة مبكرة الى مكان اللقاء المتفق عليه على الجانب الآخر من جسر ميلفيو حيث كانت السيارة في انتظاري وعندما اقتربت منها لزم ريكاردو وجيزيلا مكانيهما في مقدمة السيارة. أما صديق ريكاردو فقد وثب الى خارج السيارة وجاء للقائي . كان شابا متوسط القامة أصلع الرأس ذا وجه شاحب وعينين نجلاوين سوداوين وأنف أقنى وفم واسع ارتفعت زاويتاه الى اعلى كمن يبتسم . كما كان أنيق الملبس ولكن في هدوء على صورة تختلف تماما عن أناقة ريكاردو . فكان يرتدي سترة رمادية قاتمة وسراويل رمادية زاهية الى حد ما وياقة منشاة ورباط عنق أسود به مشبك لؤلؤي . وكان صوته رقيقا وكذلك بدت عيناه اللتان كانتا في نفس الوقت حزينتين انجابت عنهما غشاوة الوهم . كان مؤدبا للغاية بل يبلغ في ذلك حد الكلفة . وقدمته الى جيزيلا باسم استفانو آستاريتا فأيقنت على الفور أنه لابد أن يكون ذلك السيد المهذب الذي حملت الى اقتراحه المنطوي على الشهامة . ولكنني لم يؤسفني لقاؤه لان اقتراحه في الواقع لم يكن مسيئا بل كان من وجهه نظر معينة يرضي كبريائي . فمددت له يدي وقبلها في تعبد غريب وفي قوة تكاد تؤلمني . وما ان ركبت السيارة وجلس بجانبي حتى انطلقت بنا .

وبينما كانت السيارة تسرع بنا في الطريق المشمس العاري بين الحقول الجافة اليابسة لم نكد نتبادل الحديث . كنت سعيدة بركوبي السيارة وسعيدة بالرحلة وسعيدة بالهواء الطلق الذي كان يداعب وجنتي ولم امل قط منظر الريف . كانت تلك هي المرة الثانية أو الثالثة في حياتي التي أقوم فيها برحلة بالسيارة وكاد يساورني الخوف من أن يفوتني شيء . فكنت أفتح عيني محاولة أن أرى اكبر عدد ممكن من الاشياء : أكوام الدريس وبيوت المزارع والاشجار والحقول والتلال والغابات دون أن أنسى طوال الوقت أن شهورا ولعل أعواما تمر قبل أن أتمكن من القيام برحلة أخرى كهذه وأنه ينبغي أن احفظ كل التفاصيل عن ظهر قلب حتى تعيها ذاكرتي كاملة كلما أردت استعادتها . ولكن آستاريتا الذي كان يجلس متصلبا على مسافة صغيرة مني بدا أنه لا يرى شيئا سواي . فإن نظرته الحزينة المشتاقة لم تفارق قط وجهي وقوامي . وكنت أحس وكأن نظرته اصبع لا تفتأ تلمسني هنا وهناك . ولا أزعم ان هذا الاهتمام كان

يضايقنى ولكنه بلا شك لم يقصد أن يحيرنى . فاحسست بنفسى شيئا فشيئا مرغمة على أن أعيره بعض انتباهى وأن أتحدث اليه . كان يجلس واضعا يديه على ركبتيه وكان يضع فى أحدى يديه خاتم الزواج وخاتما ماسيا آخر .

فهتفت قائلة فى ارتباك ـ « ما أجمل هذا الخاتم ! »

فخفض عينيه وتأمل الخاتم دون أن يحرك يده قائلا ـ « انه خاتم والدى . لقد نزعته من اصبعه عند وفاته . »

فقلت وكأنى أعتذر ـ « آه ! » ثم أضفت قائلة وأنا أشير الى خاتم الزواج « هل أنت متزوج ؟ . »

فأجابنى قائلا فى رضا حزين ـ « بالطبع ـ فلى زوجة ـ وأطفال ـ وكل شىء . »

فسألته قائلة فى حياء ـ « وهل زوجتك جميلة ؟ »

فأجابنى قائلا دون أن يبتسم فى صوت لشد ما كان خفيضـــا مشددا وكأنه يقرر حقيقة هامة ـ « انها ليست فى مثل جمالك . »

ثم حاول بيده التى تحمل الخاتم أن يمسك بيدى ولكننى سحبتها بعيدا فى الحال .

ثم سألته بغير قصد قائلة ـ « وهل تقيم معها ؟ »

فأجابنى قائلا ـ « كلا . . انها تقيم فى ـ » ثم ذكر اسم مدينة ريفية بعيدة، « بينما أقيم أناهنا ـ وحيدا ـ وآمل أن تأتى لزيارتى . »

فتظاهرت بأننى لم أسمع ما قاله فى لهجة حزينة توشك أن تكون تشنجية .

وسألته قائلة ـ « لماذا ؟ الا تحب الاقامة مع زوجتك ؟ »

فقال عابسا ـ « نحن منفصلان بحكم القانون . فعندما تزوجت لم اكن اتجاوز سن اليفاعة . وكان ذلك الزواج من تدبير أمى . فأنت تعلمين كيف يدبرون هذه الامور . فتاة من أسرة طيبة تملك مهرا كبيرا . ويحدد الابوان كل شىء ثم يتعين الزواج على الابناء ـ أقيم مع زوجتى ؟ أتقيمين انت مع امرأة كهذه ؟ » ثم اخرج حافظته من جيبه وفتحها وناولنى صورة . فرأيت طفلين أسمرين شـــاحبين يبدوان كتوأمين وقد ارتديا ملابس بيضاء . كما رأيت امرأة ضئيلة سمراء شاحبة تقاربت عيناها كعينى البومة وارتسم على وجههـــا تعبير خبيث كانت تقف خلفهما واضعة يديها على كتفيهما . فأعدتها اليه ودسها فى حافظته .

وتنهد قائلا ـ « احب أن أقيم معك . »

فقلت فى ارتباك ازاء موقفه الملح الذى لا يتغير - « انت لا تعرفنى مطلقا • »

- « بل أعرفك تمام المعرفة ! - فقد ظللت أتعقبك شهرا كاملا • واعرف عنك كل شيء • »

كان يجلس على مسافة قصيرة منى وهو يخاطبنى باحترام. ولكن مشاعره لشد ما كانت عميقة طوال حديثه حتى أن مقلتيـــــه كادتا تدوران فى محجريهما .

قلت - « انى مخطوبة • »

فقال فى صوت مختنق - « لقد أخبرتنى جيزيلا بذلك . ولاتدعينا نتحدث عن خطيبك • ففيم يهمنا ؟ » ثم اتى بيده حـــــــركة سريعة مهتزة تدل على عدم اكتراثه المصطنع •

فأجبته قائلة - « انه يهمنى كثيرا • »

فنظر الى قائلا - « ما شد اعجابى بك ! »

- « لقد لاحظت ذلك . »

فردد قائلا - « ما أشد اعجابى بك ! ولعلك لا تدرين مداه • »

كان يتحدث كمن فقد صوابه • ولكن جلوسه بعيدا عنى وامتناعه عن محاولة الامساك بيدى مرة أخرى بعثا فى نفسى الطمأنينة • فقلت

- « لاضير من اعجابك بى »

- « وهل أنت معجبة بى ؟ »

- « كلا . »

فقال لاويا قسماته فى تصعيرة - « انا ثرى • لدى من المال ما يكفل لك السعادة - فان جئت لزيارتى لما أسفت لذلك . »

فأجبته قائلة فى هدوء وفى شيء من الرقة - « لا حاجـــــة بى الى مالك . »

فبدا أنه لم يسمعنى •

ثم قال وهو يتأملنى - « ما أجملك ! »

- « شكرا لك • »

- « عيناك جميلتان »

- « أتظن ذلك ؟ »

- « نعم - وكذلك فمك • انى أبغى تقبيله • »

- « لماذا تقول لى هذه الاشياء ؟ »

- « أبغى تقبيلك كلك - كل جزءفيك . »

فاحتججت قائلة - « لماذا تحدثنى على هذه الصورة ؟ أنت مخطىء •

فأنا مخطوبة وسأتزوج بعد شهرين . »

فقال — « أرجو أن تصفحى عنى . فلشد ما يمتعنى أن أقول هذه الاشياء — هبى أننى لا أخاطبك . »

وسألت قائلة بغية تغيير الموضوع — « هل فيتريو الآن على مسافة بعيدة ؟ »

— « لقد أوشكنا على الوصول اليها . وسوف نتناول وجبة فى فيتريو . عدبنى بالجلوس الى جانبى عند الفداء »

فأخذت أضحك لان الحاحه الشديد كان يرضى كبريائى الى حد بعيد . ثم قلت — « وهو كذلك . »

فأردف قائلا — « اجلسى بجانبى كما تفعلين الآن . اذ يكفينى عطرك . »

— « انى لا اضع عطرا . »

فقال — « سأهديك قليلا منه . »

وكنا الآن قد بلغنا فيتريو فخفت سرعة السيارة ونحن ندخل المدينة . وقد لزم ريكاردو وجيزيلا الصمت طوال الرحلة وهما جالسان أمامنا . ولكن ما ان بدأت السيارة تشق طريقها فى بطء خلال الشارع الرئيسى المزدحم حتى استدارت جيزيلا نحونا قائلة :

— « كيف حالكما ؟ أتعتقدان أننى لم أركما ؟ »

فلم ينبس آستاريتا بشىء . واحتججت قائلة — « لا يمكن ان تكونى قد رأيت شيئا . فاننا لم نزد على تبادل الحديث . »

فقالت — « دعك من هذا ! » ولشد ما أدهشنى سلوك جيزيلا كما ضايقنى الى حد ما التزام آستاريتا الصمت الملح .

فبدأت أتكلم قائلة — « ولكننى أؤكد لك — »

فردت قائلة — « دعك من هذا ! ولا داعى للخوف — فلن نشى بك الى جينو . »

وفى أثناء ذلك كنا قد بلغنا الساحة فغادرنا السيارة وأخذنا نسير فى الطريق الرئيسى وسط زحام الناس الذين ارتدوا أبهى ملابس يوم الاحد تحت شمس اكتوبر اللطيفة المشرقة . ولم يفارق آستاريتا مكانه بجانبى لحظة واحدة . وكانت لاتزال عليه سيماء الجد بل الحزن فى الواقع وقد ارتفع رأسه فى تصلب فوق ياقته العالية بينما وضع احدى يديه فى جيبه وتدلت الاخرى الى جانبه . وكان يبدو وكأنه حارسى لا رفيقى . أما جيزيلا فكانت على العكس من ذلك لاتفتأ تضاحك ريكاردو وتمازحه بينما استدار كثير من الناس ليحملقوا

فينا • ثم دخلنا محـــلا للحلوى حيث تناولنا شراب « الفيرموت » ونحن وقوف الى « البار » وفجأة لاحظت آستاريتا وهو يتمتم بشيء مهددا متوعدا فسألته عما به • فقال فى انفعال ـ « ثمة أبله هنـاك بالقرب من الباب يحملق فيك . »

فاستدرت ورأيت شابا أشقر نحيلا واقفا عند مدخل المقهى ينظر الى . فقلت فى مرح ـ « ولم لا ؟ فلنفرض انه يتأملنى فعلا ؟ »

ـ « لن يلبث هذا أن يدفعنى للتوجه اليه وضربه فى وجهه . »

فقلت فى شيء من الضيق ـ انك لو فعلت لما نظرت فى وجهك مرة اخرى ولما قلت لك كلمة واحدة بعد ذلك • فليس من حقك ان تتدخل ـ ولا شأن لك مطلقا بى • »

فلم ينبس بكلمة بل اتجه الى الخزينة ليدفع ثمن المشروبات . ثم غادرنا المقهى وواصلنا سيرنا فى الطـــريق الرئيسى حيث أبهجتنى الشمس والضوضاء وحركة الزحام ووجوه أهل الريف المتوردة التى تفيض صحة . وعندما بلغنا ساحة صغيرة منعزلة فى نهـــاية أحد الشوارع المتقاطعة مع الطريق الرئيسى قلت فجأة ـ « أنظروا هناك! ـ لو كنت أملك منزلا صغيرا كهذا لفرحت بالاقامة هنا . » ثم أشرت الى منزل صغير بسيط يتألف من طابقين أمام احدى الكنائس .

فقالت جيزيلا ـ « حاشا لله ! تخيلى الحياة فى الريف وخاصـة فى فيتريو ! لن أقبل ذلك حتى لو غمرت بالذهب . »

وعلق ريكاردو قائلا ـ « انك لن تلبثى أن تملى الحياة فيهـا يا آدريانا . فاذا ما الف المرء الحياة فى مدينة كبيرة تعذر عليه أن يستقر فى الريف . »

فقلت ـ « انك مخطىء تماما . فانه لمما يسرنى أن أقيم هنا مـع رجل يحبنى ـ فى شقة تتألف من اربع غرف صغيرة نظيفـــة ومظلة وأربع نوافذ ـ فلن ابغى شيئا اكثر من ذلك • »

ولشد ما كنت مخلصة فيما قلت لاننى تخيلت نفسى مقيمة مع جينو فى ذلك البيت الصغير فى فيتريو • ثم قلت مستديرة نحـــو آستاريتا ـ « ما رأيك ؟ »

فأجابنى قائلا فى صوت خفيض محملا الا يسمعه احد غيرى ـ « انى أقبل الاقامة معك • »

فقالت جيزيلا ـ « ان مشكلتك يا آدريانا هو انك لا تطمحين الى هدف أسمى • ومن يطلب القليل من الحياة لا يحصل على شيء • »

فاعترضت قائلة ـ « ولكننى لا أبغى شيئا • »

فقال ريكاردو ـ « انك تبغين الزواج بجينو »

ـ « نعم . فذلك هو ما أبغيه حقا . »

والآن كان الوقت قد تأخر وأخذ الطريق الرئيسي يقفر من الناس عندما دخلنا المطعم . وكانت غرفة الطابق الارضى قد ازدحم معظمها بالفلاحين فى أبهى ملابس يوم الاحد وقد جاءوا متسوقين الى فيتريو . فرفعت جيزيلا أنفها الى أعلى قائلة ان الرائحة العفنة المنبعثة من الغرفة خليقة بأن تذهب الانفاس وسألت المدير عما اذا كان يمكننـا أن نصعد الى الطابق الثانى لتناول الطعام . فوافق على ذلك وقادنا الى غرفة ضيقة ممتدة بها نافذة واحدة تطل على شارع جانبى . ففتح المصراعين الخشبيين واغلق النافذة ثم وضع مفرشا على المائدة الخشبية التى كانت تشغل معظم الغرفة . واذكر أن الجدران كانت مكسوة بورق الحائط الذى كان باهتا وممزقا فى بعض الاماكن يعلوه زخرف من الزهور والطيور . ولم يكن هناك بالاضـافة الى المائدة سوى خزانة صغيرة ذات واجهة زجاجية ملئت بالصحاف .

وفى أثناء ذلك كانت جيزيلا تجوب أرجاء الغرفة فاحصة كل شيء كما تطلعت من خلال النافذة المطلة على الشارع الجانبى . واخـيرا دفعت بابا كان من الواضح أنه يفضى الى غرفة أخرى وما ان اختلست النظر الى الداخـل حتى استدارت نحو صاحب المحل وسألته عن كنه تلك الغرفة بلهجة تدل على عدم اكتراثها المتكلف .

فقال ـ « انها غرفة للنوم . فان شاء احدكم ان يسـتريح قليلا بعد الغداء . »

فقال ريكاردو بضحكته السخيفة ـ « اننا سنأخذ قسـطا من الراحة يا جيزيلا . أليس كذلك ؟ » ولكن جيزيلا تظاهرت بأنهـا لم تسمع شيئا . وبعد أن اختلست النظر الى داخل الغـرفة مرة أخرى جذبت الباب بعناية ولكنها لم تغلقه تماما .

وقد ابهجتنى غرفة الطعام الصغيرة المريحة حتى اننى لم أعد أفكر فى الباب الموارب وفى نظرة التفاهم التى خيل لى أن جيزيلا وآستاريتا قد تبادلاها . فجلسنا الى المائدة وجلس آستاريتا الى جانبى كما وعدته ولكنه بدا وكأنه لم يلحظ ذلك . فلشد ما كان مستغرقا فى التفكير حتى أنه لم يستطع الكلام . وبعد فترة وجيزة عاد صاحب المحل حاملا فواتح الشهية والنبيذ . ولشد ما كنت جائعة فانكببت على الطعام على صورة أضحكت الآخـرين منى . فانتهـزت جيزيلا الفرصة للبدء فى مشاكساتها المعهودة بصدد زواجى قائلة :

ـ « هيا اصعمى . فلن تتناولى مع جينو كل هذا الطعام ولا مثل هذا الصنف الجيد . »

فسألتها قائلة ـ « ولماذا ؟ فان جينو سيكسب لنا النقود . »

ـ « أتراهنين أنك ستأكلين الفول كل يوم ! ؟ »

ضحك ريكاردو قائلا ـ « وما عيب الفـــول ؟ بل انى فى الواقع سأطلب قليلا منه فى الحال . »

فأردفت جيزيلا قائلة ـ « انت حمقاء يا آدريانا . انك فى حاجة الى رجل موسر . رجل مهـــذب يحسن التصرف ويرعاك ولا يرغمك على التخلى عما تحتاجين اليه من أشياء ويمكنك من ابراز جمالك . فاذا بك بدلا من ذلك ترتبين أمور حياتك مع جينو . »

فلزمت الصمت العنيد حانية رأسى على صحفتى بينمـــا لم افتأ اتناول طعامى . فضحك ريكاردو قائلا ـ « لو اننى فى مكان آدريانا لما تخليت عن شيء . لا عن جينو ما دامت تحبه الى هذا الحد ولا عن ذلك الشخص الحاد فى نواياه بل لأرتبطت بكليهما ـ وربما لم يعترض جينو على ذلك الوضع . »

فأسرعت قائلة ـ « بل يعترض . كما أنه لو علم بذهابى معـــكم اليوم فى هذه الرحلة لفسخ الخطبة . »

فسألتنى جيزيلا قائلة فى ازدراء ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لانه لا يريدنى أن اراك . »

فقالت جيزيلا فى غضب شديد ـ « يا له من فاشـــل قذر مفلس جاهل ! انى أود أن أثبت ذلك .. أن أذهب اليه قائلة : ان آدريانا ما زالت تلقانى . ولقد أمضت معى النهار كله اليوم . فلتفسخ خطبتها الان ! »

فتوسلت اليها فى ذعر قائلة ـ « كلا . ارجوك ! لا تفعلى هذا ـ »

ـ « هذا هو خير ما يمكن أن يحدث لك . »

فتوسلت اليها مرة أخرى قائلة ـ « ربما . ولكن لا تفعلى هذا . ان كنت تحبينني فلا تفعلى هذا . »

لم ينبس آستاريتا بشيء اثناء ذلك الحوار ولم يكد يتناول لقمة . بل ظل طوال الوقت مركزا عينيه على فى تعبير يائس حافل بالمعانى مغالى فيه حتى انه لشد ما أوقعنى فى الحيرة والارتباك . ولقد اردت أن أطلب اليه الا يحملق فى على تلك الصورة ولكننى خشيت سخرية جيزيلا وريكاردو . ولنفس السبب لم أجرؤ على الاحتجاج عندما انتهز آستاريتا الفرصة ليضغط على يدى اليسرى التى كنت

أضعها على المقعد أثناء جلوسنا فأرغمنى على تناول طعامى بيد واحدة فقط . ولكنه كان ينبغى على أن أحتج لأن جيزيلا انفجرت فجأة ضاحكة وهى تقول ـ « ما أشد اخلاصها لجينو فيما تقول ! اما الافعال ـ ! أتحسبيننى لا أراك أنت وآستاريتا متماسكين بالايدى تحت المائدة ؟ »

فتضرج وجهى بحمرة الخجل وقد انتابنى الارتباك وحاولت أن أخلص يدى ولكن آستاريتا ظل قابضا عليها بقوة .

فقال ريكاردو ـ « دعيهما وشأنهما . فماذا يضيرنا من ذلك ؟ اذا كانا يتماسكان بالايدى فلنخذ حذوهما . »

فقالت جيزيلا ـ « هذه دعابة . فأنا لا أبالى . بل انه ليسرنى ذلك . »

وعندما فرغنا من تناول المكرونة ظللنا ننتظر اللون التالى . وفى اثناء ذلك لم يفتأ ريكاردو وجيزيلا يتضاحكان ويتمازحان ويتساقيان كما ظلا يسقياننى . وكان نبيذا أحمر جيدا وقويا للغاية لم يلبث أن صعد الى رأسى . ولقد أعجبت بمذاقه الدافىء اللاذع . ولم أشعر مطلقا بالسكر وأنا فى تلك الحال من النشوة بل أحسست بالقدرة على مواصلة الشراب الى ما لا نهاية . وظل آستاريتا ممسكا بيدى وقد ارتسم على وجهه الجد والإستغراق . ولم أعد الان أعترض على ذلك قائلة لنفسى أنه يمكنه على الاقل أن يمسك بيدى رغم كل شىء . وكانت هناك صورة زيتية معلقة على الباب تمثل رجلا وامرأة يرتديان زيا مضى على عهده خمسون عاما وكانا يتعانقان بطريقة مرتبكة مصطنعة فى شرفة تكسوها الورود . فلمحتها جيزيلا وقالت انها لا تستطيع أن تتخيل كيف يمكنهما التقبيل وهما فى ذلك الوضع . ثم قالت لريكاردو ـ« دعنا نحاول . فلنر ان كنا نستطيع محاكاتهما . »

فوقف ريكاردو ضاحكا واتخذ موقف الرجل الماثل فى الصورة الزيتية بينما اتكأت جيزيلا على المائدة وهى ضاحكة أيضا متخذة موقف المرأة الماثلة فى الصورة وهى تتكىء على جانب الشرفة المغطى بالورود . وقد استطاعا بعد مجهود جبار أن يضما شفاههما معا ولكنهما فى نفس اللحظة تقريبا فقدا توازنهما وسقطا معا على المائدة .

ثم قالت جيزيلا وقد أثارها المزاح ـ « والآن جاء دوركما ! »

فسألت مذعورة ـ « لماذا ؟ وما شأنى بهذا ؟ »

« هيا . فلا بد أن تحاولى . »

وأحسست بآستاريتا يحيط خصرى بذراعه فحاولت أن أتملص

منه قائلة « انى لا أبغى ذلك » •• فقالت جيزيلا ـ « اف • يا لك من مفسدة للهو ! ما هى الا دعابة • »

كان ريكاردر يضحك حاثا آستاريتا على تقبيلى قائلا ـ « اذا لم تقبلها يا آستاريتا فلن أرى وجهك بعد اليوم • » ولكن استاريتا كان جادا يكاد يفزعنى • فمن الواضح ان الامر فى نظره كان أكثر من دعابة •

فقلت مشيحة بوجهى بعيدة عنه ـ « دعنى وشأنى • »

فنظر الى ثم رمق جيزيلا وفى عينيه تساؤل كمن يتوقع أن تحثه. فهتفت جيزيلا قائلة : ـ « هيا يا آستاريتا ! » كانت تبدو أشد منه حماسة على صورة أمكنتنى فى غموض أن أتكهن بقسوتها وخلوها من الرحمة •

فشدد آستاريتا من احاطته بخصرى وهو يجذبنى نحوه • وان لم يعد الامر دعابة فقد أراد أن يقبلنى مهما كان الثمن . وحاولت أن أتخلص من قبضته دون أن أنبس بكلمة ولكنه كان قويا للغاية • وكلما دفعته بيدى بعيدا عنى زاد احساسى باقتراب وجهه من وجهى رويدا رويدا . ومع ذلك فقد كان من المحتمل الا يتمكن من تقبيلى لولا تدخل جيزيلا التى خفت لمساعدته فقد نهضت فجأة وهى تطلق صيحة النصر وجاءت راكضة من خلف ظهرى حيث أمسكت بذراعى وجذبتهمـــ الى الوراء • وكنت لا أراها ولكننى احسست بتصميمها العنيد من الطريقة التى غرزت بها أظافرها فى بدنى ومن نبرآت صوتها الذى لم يفتأ يردد قائلا بنغمة منفعلة قاسية مهتزة تتخلله انفجارات من الضحك ـ « أسرع • اسرع يا آستاريتا ! فها قد حانت فرصتك ! » والان كان آستاريتا قد أطبق على . فحاولت جهد طاقتى أن أشيح بوجهى بعيدا عنه . وهذا هو كل ما كان يسعنى أن أفعل . ولـكنه بيد واحدة أمسك بذقنى وأدار وجهى نحوه بقوة ثم قبل فمى قبلة عنيفة طويلة •

فقالت جيزيلا بلهجــــة المنتصر ـ « ها قد تم ما كنت أبغى ! » ثم عادت لتجلس فى مكانها فرحة مسرورة •

واطلق آستاريتا سراحى . فقلت وأنا أشعر بالضيق والاستياء ـ لن أخرج معكم مرة أخرى •

فقال ريكاردو ساخرا منى ـ « ما هذا يا آدريانا ؟! كل ذلك أجل قبلة واحدة ! »

ثم صاحت جيزيلا قائلة فى نشوة ـ « لقد اكتسى وجه آستاريتا بأحمر الشفاه ! ماذا يقول جينو لو دخل علينا الان ؟ »

وكان فم آستاريتا ملوثا حقا بأحمر الشفاه • فبدا لى مضحكا وقد ارتسم عبر وجهه الحزين الشاحب خط قرمزى • قالت جيزيلا ـ « هيا فلتتصافيا ـ ولتمسحى له أحمر الشفاه بمنديلك • والا فماذا يظن بنا النادل عندما يأتى ؟ »

وكان على أن أصلح ما فسد فبللت طرف منديلى بلسانى وأخذت أمسح تدريجيا أحمر الشفاه عن وجه آستاريتا الحزين . ولكننى أخطأت باظهارى مدى هدوئى وعدم اضطرابى لاننى لم أكد أبعد منديلى حتى أحاط خصرى بذراعه فى الحال • فقلت ـ « دعنى أذهب . »

« ماذا بك يا آدريانا ؟! »

فقالت جيزيلا ـ « وأى فرق هناك ان كان ذلك يعجبه ولا يضرك فى شىء ؟ وعلى أية حال فقد قبلك • فلتدعيه يفعل ما يشاء • »

فأذعنت مرة أخرى ومكثنا متجاورين وقد وضع ذراعه حول خصرى بينما جلست أنا هناك على مضض متصلبة . وجاء النادل حاملا اللون الثانى من الطعام . وأخذ سخطى يزايلنى شيئا فشيئا أثناء تناولى الطعام رغم أن استاريتا كان يضمنى اليه بقوة . ولشد ماكان الطعام سائغا فشربت كل ماكانت تصبه لى جيزيلا من نبيذ دون أن ألحظ ذلك . وبعد أن انتهينا من تناول اللون الثانى أكلنا الفاكهة والحلوى الفاخرة • ولم أكن فى حياتى قد ألفت مثل هذه الاشياء ولذلك فانى لم استطع الاعتراض عندما قدم الى آستاريتا نصيبه من الحلوى والتهمته ايضا • ثم بدأت جيزيلا تستميل ريكاردو بشتى الطرق وكانت هى أيضا قد جرعت كمية كبيرة من النبيذ فأخذت تضع له فصوص اليوسفى فى فمه وتمنحه قبلة مع كل فص . وأحسست بالنشوة على صورة محببة . ولم تعد تضايقنى ذراع آستاريتا المحيطة بخصرى . ثم نهضت جيزيلا وكانت فى كل لحظة تزداد قلقا واضطرابا وذهبت لتجلس على ركبة ريكاردو . فلم أتمالك نفسى من الضحك عندما سمعت ريكاردو وهو يتظاهر بالصياح فى ألم وكأنه يرزح تحت ثقل جيزيلا • واذا بآستاريتا الذى كان قانعا بوضع ذراعه حول خصرى ولم تبدر منه حركة حتى تلك اللحظة يأخذ فى تقبيل عنقى وصدرى ووجنتى وهو لاهث الانفاس . وعندئذ لم أحتج أولا لاننى كنت فى حال من النشوة لا تسمح لى

بمقاومته وثانيا لانه بدا لى وكأنه يقبل شخصا آخر . فلم اكد أشاركه فيما يفعل بل ظللت ساكنة متصلبة كالتمثال . وقد خيل لى وانا على تلك الحال من النشوة انى واقفة خارج نفسى فى احدى زوايا الغرفة أشاهد فى غير اكتراث رغبة آستاريتا العارمه وكأننى لا أعدو أن اكون مشاهدة دفعها الفضول . ولكن الاخرين حسبوا عـــدم اكتراثى حبا فصاحت جيزيلا قائلة ـ « أحسنت صنعا يا ادريانا ـ فهذه هى الطريقة ! »

واردت أن أجيب ولكننى عدلت عن ذلك لسبب لا أدريه ثم قلت بصوت واضح مدو وأنا أرفع قدحى مملوءا بالنبيذ ـ « لقد سكرت!» وفى جرعة واحدة أفرغت القدح فى جوفى . وأعتقد أن الاخرين صفقوا لى . ولكن آستاريتا توقف عن تقبيلى ثم تمتم قائـــلا لى وقد ركز عينيه على : ـ « فلنمض الى الغرفة الاخرى »

فتابعت عينيه ورأيت أنه كان ينظر الى باب الغرفة المجاورة وكان مواربا . فخيل لى أنه لابد أن يكون مخمورا أيضا . فأومأت برأسى معبرة عن رفضى ولكن فى رقة تكاد تبلغ حد الغزل .

فردد قائلا كما يفعل النائم ـ « فلنمض الى الغرفة المجاورة »

ولاحظت أن جيزيلا وريكاردو قد توقفـا عن الضـحك والثرثرة واخذا يراقبان حديثنا .

وقالت جيزيلا ـ « هيا ! وماذا فى ذلك ؟! ماذا تنتظران ؟ »

فأفقت من سكرى فى الحال . فلاشك انى كنت مخمورة ولكننى لم أبلغ الحد الذى يجعلنى غافلة عما يتهددنى من خطر . وقلت ـ « انى لا ابغى ذلك . » ثم نهضت واقفة .

فنهض آستاريتا أيضا ثم قبض على احـدى ذراعى وحاول أن يجذبنى نحو الباب . أما الآخران فأخذا يحثانه من جديد قائلين ـ « هيا يا آستاريتا ! »

وكان آستاريتا قد سحبنى قرب الباب رغم مقاومتى اياه . ثم تخلصت منه بحركة مفاجئة وركضت نحو الباب المؤدى الى الدرج . ولكن جيزيلا كانت أسرع منى اليه وصاحت قائلة : ـ « لا ياعزيزتى . لن تفعلى ذلك ! » فقد قفزت من فوق ركبتى ريكاردو وجـرت لتوصد الباب قبل أن اتمكن من الوصول اليه ثم أخذت المفتاح .

رددت قائلة فى رعب وأنا واقفة بجانب المائدة ـ « انى لا ابغى ذلك . »

فسألنى ريكاردو قائلا ـ « وفيم يمكن أن يضيرك ذلك ؟ »

وقالت جيزيلا فى خشونة وهى تدفعنى نحو استاريتا ـ يالك من بلهاء! ما كل هذه الضجة؟ ـ هيا إمضى الآن .
ادركت ان جيزيلا رغم قسوتها واصرارها لم تكن تفهم ما هى فاعلة ـ فلا بد ان الخطة التى وضعتهامن أجلى كانت تبدو لها غاية فى الذكاء والترفيه على صوره تبعث على السرور . كما أدهشنى ابتهاج ريكاردو وعدم اكتراثه وكنت اعهده رحيما رقيقا غير خليق بارتكاب ما يراه خبيثا .
ورددت قائلة ـ « انى لا أبغى ذلك . »
فسألنى ريكاردو قائلا ـ « لم لا ؟ فليس فى ذلك من أذى . »
ولم تفتأ جيزيلا تدفعنى فى حماس وانفعال قائلة :
ـ « لم أكن أتخيل أنك على هذا القدر من الغباوة . هيا ياآدريانا . ماذا تنتظرين ؟ »
وظل استاريتا حتى تلك اللحظة صامتا لا ينطق بكلمة بل كان يقف ساكنا بالقرب من باب غرفة النوم محملقا فى . ثم رأيته يفتح فاه كمن يريد أن يتكلم . فقال فى صوت بطىء مختنق وكأن الالفاظ ذات معدن لزج مما يتعذر معه أن ينطق بها ـ « هيا والا ابلغت جينو أنك خرجت معنا اليوم وسمحت لى بمضاجعتك . »
وأدركت فى الحال أنه بلا ريب سوف ينفذ وعيده . فالالفاظ نفسها يمكن الشك فيها . أما نغمة الصوت فقلما يخطئها السامع . فما من شك فى أنه كان ينوى أن يخبر جينو وكان ذلك يعنى نهاية حياتى قبل أن أبدأها فعلا . واليوم عندما أفكر فيما حدث أعتقد أنه كان يمكننى أن أقاومه . فلو اننى صرخت أو قاومته بعنف لاقنعته بأن تهديده اياى كان كانتقامه منى لا تأثير له على . ولكن ربما كان ذلك لا يجدينى لان رغبته فى كانت أقوى من نفورى . عندئذ بالطبع أحسست اننى غلبت على أمرى تماما ولم يتجه تفكيرى الى مقاومته بقدر مااتجه الى تجنب الفضيحة . فوجدت نفسى متورطة فى ذلك الموقف دون أدنى استعداد له بينما امتلأ ذهنى للمستقبل بالخطط التى لشد ما كنت ارغب فى تنفيذها . وفى اعتقادى ان ماوقع لى وقتذاك بمثل هذه الطريقة الفظة لابد ان يحدث لكل من له مثل مطامحى البريئة المتواضعة المشروعة . فالعالم يقبض علينا من خلال مطامحنا ثم يرغمنا ان عاجلا أو آجلا على دفع ثمن مؤلم باهظ ـ ذلك الثمن الذى لا يأمل أن يعفى منه سوى طريدى المجتمع وأولئك الذين نفضوا أيديهم من كل شىء .

ولكننى فى نفس اللحظة ألتى ارتضيت فيها مصيرى خالجنى احساس بالالم حاد مضىء • فثمة وميض من البصيرة بدا وكأنه يضىء لى طريق المستقبل بأسره فيكشفه واضحا مستقيما أمام عينى — ذلك الطريق الذى لشد ما كان يبدو مظلما ملتويا . وقد ظهر لى فى تلك اللحظة ما سأفقده فى مقابل صمت آستاريتا ، فاغرورقت عينـــاى بالدموع وبدات أبكى واضعة ذراعى على وجهى . وأدركت أن بكائى لم يكن تمردا أو عصيانا بل استسلاما مطلقا . وفى الواقع فان ساقى كانتا تحملاننى نحو آستاريتا بينما تنهمر الدموع من عينى • ودفعتنى جيزيلا من ذراعى مرددة — « فيم البكاء ؟ انه ليخيل لكل من يراك أنك تفعلين ذلك لاول مرة ! » فسمعت ريكاردو وهو يضـــحك . واحسست بعينى آستاريتا دون أن أراه وهما مسلطتان على أثنـــاء سيرى نحوه فى بطء والدموع تنهمر من عينى • ثم أحسست به وهو يحيط خصرى بذراعه ويغلق باب ألغرفة من خلفى •

ولم اشأ أن أرى شيئا بل لقد بدا لى أن احساسى يفـــوق قدرتى على الاحتمال . ولهذا فقد ظللت واضعة ذراعى على عينى فى عنـــاد رغم محاولة آستاريتا أن يجذبهما بعيدا • وأنى اعتقد أنه شاء أن يحذو حذو العشاق جميعا فى مثل هذه المناسبات أى أن يستميلنى الى رغباته شيئا فشيئا وعلى غير وعى منى تقريبا . ولكن اصرارى على عدم رفع ذراعى عن وجهى ارغمه على أن يكون أكثر عجلة ووحشية مما يريد . وهكذا فبعد أن أجلسنى على حافة الفراش وحاول عبثا أن يستميلنى بقبلاته وعناقه دفعنى الى الخلف على الوســـائد وألقى بنفسه على . وكان جسدى كله من الخصر حتى قدمى ثقيلا جامدا كالرصاص الى حد أننى أعتقد أنه مامن مضاجعة قبلت قط من جانب امرأة بمثل ما كانت عليه من سلبية واستسلام ولكننى ما لبثت أن توقفت عن البكاء • وما ان رقد على صدرى لاهث الانفاس حتى أبعدت ذراعى عن وجهى ورحت أحملق فى الظلام •

وانى أعتقد عن اقتناع أن آستاريتا حينذاك كان يحبنى بقـــدر مايمكن أن يحب رجل امرأة حبا يزيد بكثير عما يظهره لى جينو — فانى أذكر أنه لم يتمالك نفسه من أن يمر بيده مرارا وتكرارا على جبهتى ووجنتى بحركة عاطفية تشنجية مرتجفا من أعلى رأسه الى أخمص قدميه وهو لا يفتأ يتمتم بكلمات الحب • ولكن عينى ظلتا مفتوحتين على سعتهما وقد جفت فيهما الدموع كما شاع فى راسى الآن بعد أن انجابت عنه أبخرة النبيذ صـــفاء ثلجى دوام • وتركت

آستاريتا يدغدغني ويحدثني بينما لم أفتأ أتابع خواطرى الخاصة . فتراءت لى مرة أخرى غرفة نومى كما رتبتها وبها أثاثها الجديد الذى لم أنته بعد من دفع ثمنه فأحسست بلون من العزاء المرير . وقلت لنفسى انه لايمكن الآن أن يحول شيء بيني وبين الزواج أو بينى وبين الحياة التى أبغيها • ولكننى فى نفس الوقت احسست بروحى وقد تغيرت تغيرا كاملا فقد حل محل آمالى الفضة الساذجة فى وقت ما يقين جديد وتصميم أكيد • وفجأة احسست اننى أقــوى بكثير مما كنت رغم أنها قوة حزينة خالية من الحب .

وأخيرا قلت متحدثة لاول مرة منذ دخولنا غرفة النوم ـ « لقد حان الوقت للعودة الى الغرفة الاخرى • »

فسألنى فى الحال قائلا فى صوت خفيض ـ « هل أنت غاضبة منى؟»

ـ « كلا . »

ـ « أتكرهيننى ؟ »

ـ « كلا . »

فتمتم قائلا ـ « لشد ما احبك . » وفى عاصفة من الحماس بدأ مرة أخرى يغطى وجهى وعنقى بقبل عاطفية سريعة . فتركته يفعل ما يشاء ثم قلت ـ « نعم . ولكننا يجب أن نذهب . »

فأجابنى قائلا ـ « انك على حق • » ثم ابتعد عنى فجأة وأخذ يرتدى ملابسه فيما اظن . فأصلحت من هندامى بقدر امـكانى ثم نهضت وأضأت المصباح المعلق فوق الفراش • وفى ذلك الضوء الاصفر بدت الغرفة تماما كما أوحت بها رائحتها الخانقة المعطـرة باللافندر : فكان سقفها خفيضا طليت عروقه الخشبية بالجــير واكتست جدران الغرفة بورق فرنسى الصنع وكان الاثاث قديمـا ثقيلا . وفى احدى زوايا الغرفة كانت هناك مفسلة تعلوها رخــامة وضع عليها ابريقان وحوضان وقد نقش عليها جميعا باللونين الاخضر والاحمر زخرف من الزهور • كما وضعت مرآة كبيرة فى آطار ذهبى • فاتجهت الى المغسلة حيث صببت قليلا من الماء فى الحوض ثم غمست فيه طرف المنشفة ومسحت على شفتى المكدومتين بقبل آســتاريتا وعلى عينى اللتين مازالتا محمرتين من أثر البكاء . وانعكست على سطح المرآة اللامع المخدوش صورة مؤلمة لى فتأملتها لحظة كالمسحورة وقد امتلأ قلبى بالشفقة والعجب • ثم استجمعت شجاعتى ونسقت شعرى بيدى بقدر امكانى واستدرت نحو آستاريتا وكان ينتظرنى عند الباب • وما ان رأى أننى على اســتعداد للخــــروج حتى فتحه

متجنبا عيني ومديرا ظهره نحوى . فاطفأت الضوء وتبعته الى الخارج وقوبلنا بتحية مرحة من جيزيلا وريكاردو اللذين كانا كما تركناهما يواصلان جلستهما بنفس الطريقة المتهججة غير العابئة . لقد عجزت من قبل عن فهم مدى اضطرابى كما عجزت الآن تماما عن ادراك ماكنت فيه من صفاء .

وصاحت جيزيلا قائلة ـ « ما أبرعك في ادعاء البراءة ! فأنت لا تبغين ذلك . لا تبغين ذلك ولكنك فيما أرى سرعان ما أنجزت المهمة بمهارة فائقة . وعلى أية حال فلا بأس ان شئت من أن أتحمل وزرك ... ولكن الامر لم يكن يستحق أن تثيرى حوله كل هذه الضجة »

فنظرت اليها وقد بدا لى من الظلم الصارخ أن تكون هى التى حثتني على الاذعان بل ان تكون هى التى أمسكت بذراعي حتى يتيسر لآستاريتا أن يقبلنى ثم تلومنى الآن لرضاى .

فعلق ريكاردو قائلا بمنطقه الفظ ـ « انك لست منطقية فى تفكيرك ياجيزيلا . فأنت تحثينها فى أول الامر ـ ثم تبدين الآن وكأنك تأخذين عليها مافعلت . »

فأجابت جيزيلا قائلة فى قسوة ـ « بالطبع . فلشد ما يعظم خطؤها لو أنها لم تبغ ذلك . فأنا عن نفسى لا يستطيع شىء فى الوجود ولا حتى القوة أن يخضعنى اذا لم تكن لدى الرغبة . » ثم أضافت قائلة وهى تنظر الى فى نفور وسخط ـ « ولكنها كانت تبغى ذلك . تبغى ذلك . وكيف ! ـ لقد شاهدتهما فى السيارة ونحن فى الطريق الى فيتربو . لذلك ما كان ينبغى أن تثير كل هذه الضجة . هذا هو رأيى . »

فلم أنبس بكلمة لاعجابى الشديد الذى كاد يذهلنى بخلوص قسوتها اللاواعية التى لا تعرف الشفقة . واقترب منى آستاريتا محاولا فى ارتباك أن يمسك يدى . ولكننى أبعدته عنى وذهبت لاجلس عند طرف المائدة . فهتف ريكاردو قائلا ـ « أنظروا الى آستاريتا ! فهو يبدو وكأنه عائد لتوه من تشييع جنازة ! »

وفى الواقع فان آستاريتا بكل ماكان يرتسم على وجهه من كآبة ومهابة بدا وكأنه يفهمنى أكثر من الآخرين . اذ قال ـ « انكما تسخران من كل شىء »

فصاحت جيزيلا قائلة ـ « أتظن أننا يجب أن نجهش بالبكاء . والآن عليكما أن تجلسا عاطلين فى انتظارنا كما فعلنا . فقد جاء دورنا والآن . هيا ياريكاردو ! »

فقال ريكاردو وهو ينهض ليتبعها ـ « خذا حذركما » . ومن

الواضح أنه كان مخمورا ولم يكن يدرى هو نفسه ماذا ينبغى أن نحذر — « هيا بنا هيا ! »

ثم غادرا الغرفة ومكثنا وحدنا أنا وآستاريتا . وكان كل منا يجلس الى احد طرفى المائدة . وقد تسلل شعاع من الشمس خلال النافذة فسطع على الاوانى الخزفية المبعثرة وقشر الفاكهة وأقداح النبيذ التى لم يفرغ الا نصفها والشوك والسكاكين القذرة . أما تعبير آستاريتا فقد ظل حزينا مغتما رغم أن الشمس كانت تسطع مباشرة فى وجهه . ولم تزل تبدو فى عينيه (بعد أن هدأت رغبته) نظرة الحماس العاطفى الممض التى كانت تتجلى فى عينيه عند بدء تعارفنا . وعندئذ أحسست بالاسف له رغم ما الحقه بى من أذى . فقد أدركت انه كان تعسا قبل أن ينال منى مأربه ولكن تعاسته الآن بعد أن تم كل شيء لم تنقص عن ذى قبل . فقد كان يعانى من قبل لرغبته فى وصار يعانى الان لاننى لم أبادله الحب . ولكن الشفقة هي ألد عدو للحب . فلو أننى كرهته لراوده الامل فى أن أحبه يوما ما . ولكننى لم أشعر نحوه بالكراهية . ولما كنت أحس بالاسف له كما قلت فقد تأكدت من أننى لن أشعر نحوه بشيء سوى النفور البارد العزوف .

وجلسنا هناك فترة طويلة فى الغرفة المشمسة فى انتظار عودة جيزيلا وريكاردو . ولم يتوقف آستاريتا لحظة عن التدخين وهو لا يفتأ يتأملنى بنظرة صريحة من خلال سحب الدخان التى أحاطت به كمن يريد أن يقول شيئا ولكنه لا يجرؤ عليه . كنت أجلس الى المائدة جلسة جانبية عاقدة ساقى وقد خلا قلبى الا من الرغبة فى الهرب . كنت لا أشعر بالتعب أو الخجل من نفسى . بل كان كل ما أبغيه هو أن أخلو الى نفسى وأفكر فيما حدث فى أناة وتريث . وكان حنينى الى الهرب تتخلله من وقت لآخر أشياء سخيفة كنت لا افتأ ألاحظها — كاللؤلؤة المثبتة فى مشبك رباط عنق آستاريتا وزخرف الورق الذى يكسو الحائط وذبابة كانت تدور حول حافة أحد الاقداح وقطرة صغيرة من صلص الطماطم لوثت قميصى أثناء تناولى الطعام . فضقت بنفسى لعدم قدرتى على التفكير فيما هو اهم من ذلك ولكننى أفقت بعض الشيء من تفاهة خواطرى عندما سألنى آستاريتا بعد فترة صمت طويلة متغلبا على خجله قائلا فى صوت مخنوق — « فيم تفكرين ؟ » فتريثت لحظة ثم قلت فى بساطة — « لقد قصف أحد أظافرى ولا أستطيع أن أتذكر متى أو كيف حدث ذلك . » ولقد

صدقته القول . ولكنه رماني بنظرة مريرة غير مصدقة . ومنذ تلك اللحظة لم يحاول قط أن يتحدث الى .

واخيرا عاد ريكاردو وجيزيلا في الوقت المناسب وقد بدا عليهما شي من الارهاق ولكن مرحهما وهدوءهما لم يتغيرا عن ذى قبـل . وقد أدهشهما ماكنا فيه من صمت ورزانة . ولكن الوقت الآن كان قد تأخر كما عراهما شيء من الهدوء على أثر المضاجعة التى لشـد ما اختلف تأثيرها عليهما . فقد صارت جيزيلا اكثر عطفا على ولم تعد تظهر اضطرابها وقسوتها اللذين كشفت عنهما قبل ضربة آستاريتا المنذرة المهددة وبعدها . وكدت أعتقد أن تهديده اياى قد اضفى على علاقتها المملة بريكاردو لونا جديدا من الاثارة الجنسية فأحاطت خصرى بذراعها أثناء هبوطنا الدرج الى الطابق الارضى وهمست فى أذنى قائلة ـ « لماذا يبدو عليك كل هذا الانزعاج ؟ اذا كنت قلقة بصدد جينو فلا داعى لذلك ـ فأنا وريكاردو لن نذكر شيئا لاحد »

فكذبت قائلة ـ « انى متعبة . » فأنا لا أستطيع العبوس كما أن احاطتها خصرى بذراعها كانت خليقة بأن تزيل استيائى .

وأجابت قائلة ـ « وكذلك أنا . فانى لم أفتأ أواجه الريح طوال الطريق الى هنا . » ثم مالبثت أن قالت أثناء وقوفنا على عتبة باب المطعم بينما اتجه الرجلان صوب السيارة .

ـ « انك لست غاضبة منى بسبب ماحدث ؟ »

فأجبت قائلة ـ « كلا مطلقا . فما شأنك بذلك ؟ » لقد شـاءت أيضا أن تتأكد من اننى لست غاضبة منها بعد أن أرضت قدر امكانها بخطتها الصغيرة التى حاكتها لى شتى نزواتها . وأحسست انى صرت أفهمها أكثر مما ينبغى . ولهذا كنت أتوق الى تبديد وساوسها جميعا والى اظهار العطف نحوها خشية أن تغضب لو أدركت أننى أفهمها . فأستدرت نحوها وقبلتها على وجنتيها قائلة ـ « ولماذا أغضب منك ؟ فانك كنت دائما تقولين لى اننى يجب أن أتخلى عن جينو واتخذ من آستاريتا عشيقا . »

فأمنت علي قولى مؤكدة ـ « هذه هى الحقيقة . ومازلت ارى ذلك . ولكننى أخشى انك لن تصفحى عنى »

لقد بدا عليها القلق . كما كنت ـ خشية أن تكتشف حقيقة شعورى ـ أكثر منها قلقا وكأنه قد انتقل الى عن طريق عدوى غريبة

فأجبتها قائلة فى بساطة ـ « من الواضح أنك لا تعرفيننى على حقيقتى . فأنا أعلم أنك تريديننى أن أترك جينو وذلك لانك تحبيننى

وتأسفين لانى لا أسعى جهدى الى ما فيه مصلحتى . » ثم أضفت أكذوبة الأخرى قائلة ــ « بل يمكننى أن أقول انك ربما كنت على حق . »

فبدا عليها الاطمئنان . وامسكت بى من ذراعى قائلة فى لهجة حوار ولكنها كانت فى نفس الوقت بطيئة مؤتمنة ــ « يجب أن تفهمى ما أعنيه . فانه لمما يناسبك أن تتخذى من آستاريتا أو أى شخص آخر عشيقا لك .. عدا جينو ! فليتك تعلمين كم يكدرنى ان أرى حسناء مثلك تبدد جمالها ! سلى ريكاردو . فانى لا أفتأ أحدثه عنك طوال النهار . » وصارت الآن تتحدث الى دون ارتباك كما اعتادت أن تفعل . ولقد حرصت على أن أوافقها على كل ما تقول . وهكذا بلغنا السيارة حيث اتخذنا نفس الاماكن التى جئنا فيها . وعندئذ تحركت بنا .

ولم ينطق أحدنا بكلمة أثناء رحلة العودة . فقد ظل آستاريتا يحملق فى ولكن نظرته لم تكن تكشف عن رغبته بقدر ماكشفت عما يحس به من مهانة . ولم تعد الآن تسبب لى ارتباكا فلم تراودنى الرغبة فى التحدث اليه وملاطفته كما راودتنى عند مجيئى . بل أخذت أستنشق الهواء الذى لم يفتأ يهب على وجهى من النافذة المفتوحة . ولم أبرح أحصى بطريقة آلية علامات الطريق التى تقيس المسافة من روما . ولكننى فى لحظة معينة أحسست بيد استاريتا وهى تحتك بيدى ولاحظت أنه كان يحاول أن يدس فيها شيئا ــ لعله قصاصة من الورق . وخيل لى أنه لما كان يجبن عن مخاطبتى فقد خط لى رسالة، ولكننى عندما خفضت بصرى وجدت أنهاورقة مالية طويت مرتين . وكان ينظر الى فى ثبات وهو يحاول أن يضم أصابعى على الورقة . وددت لحظة لو القيت بها فى وجهه . ولكن خطر لى فى نفس الوقت أن مثل هذا السلوك لشد ما يكون سطحيا ومن وحى التقليد وليس نتيجة اندفاع ذاتى عميق نابع من القلب . ولشد ماحيرنى احساسى آنذاك ــ ذلك الاحساس الذى لم يعاودنى قط بهذه الصورة الواضحة العنيفة أيا كانت الطريقة أو المناسبة التى تلقيت فيها نقودا من الرجال فقد أحسست وكأنى مشتركة فى جريمة أو فى مؤامرة جنسية احساسا لم تستطع قبله واحضانه كلها اثارته فى نفسى عندما احتوتنا

غرفة النوم فى المطعم . أحسست بالرضوخ الذى لا مفر منه مما كشف لى فى ومضة عن ناحية من نواحى طبيعتى كنت اجهلها حتى الآن . كنت أعلم بلا شك اننى يجب أن ارفض النقود ولكننى أحسست فى نفس الوقت بالرغبة فى قبولها لا طمعا فيها بل ايثارا لتلك اللذة

الجديدة التى أتاحتها هبته لى .

ولكننى رغم استقرار رأيى على قبولها أتيت حركة توهم بأنى اعتزم ردها اليه . وكانت حركتى تلك بدافع من غريزتى ولا يشوبها ظل من التفكير أو التدبير .. فأصر آستاريتا على أن يعطينى اياها وهو لا يزال يحملق فى عينى فنقلت الورقة خلسة من يدى اليمنى الى يدى اليسرى وشعرت بالاثارة على صورة غريبه وقد التهب وجهى بالدم واضطربت أنفاسى . ولو أستطاع آستاريتا أن يتكهن بمشاعرى فى تلك اللحظة فلربما خيل له أننى أحبه . ولكن ذلك كان أبعد ما يكون عن الحقيقة . أما ذهنى فلم يكن يشغله سوى النقود والطريقة التى اكتسبت بها والطريقة التى أعطيت بها .. ثم أحسست بآستاريتا وهو يمسك بيدى فتركته يقبلها ثم سحبتها بعيدا .

وما ان عدنا الى المدينة حتى افترقنا ونحن أشبه بالهاربين كأن كلا منا كان يعلم أنه ارتكب جريمة ولا هدف له سوى الهرب والاختفاء . وفى الواقع فان شيئا أقرب مايكون الى الجريمة قد شاركنا جميعا فى ارتكابه يومذاك ــ ريكاردو بحماقته وجيزيلا بحسدها وآستاريتا بشهوته وأما أنا فبجهلى وقلة خبرتى . وقد ضربت لى جيزيلاموعدا للذهاب الى المرسم فى اليوم التالى وتمنى لى ريكاردو ليلة طيبة ولم يسع آستاريتا الا أن يضغط على يدى فى صمت وهو لايزال جادا حزينا كعهده دائما . ولقد صحبونى حتى باب الدار .

وعلى الرغم مما كان ينتابنى من ارهاق وندم فانى أذكر أننى لم أتمالك نفسى من الشعور بالزهو عند هبوطى من السيارة الفاخرة عند باب منزلى على مرأى من جيراننا أفراد أسرة عامل السكة الحديد الذين كانوا يتطلعون من خلال النافذة .

ومضيت الى شقتنا حيث احتبست فى غرفتى الخاصة . ثم بادرت بفحص النقود فوجدت أنها ليست ورقة واحدة بل ثلاث ورقات من فئة الالف ليرة . وكدت أشعر لحظة بالسعادة وأنا جالسة على حافة الفراش . فان النقود لم تكن تكفى لسداد مابقى من أقساط الاثاث فحسب بل لشراء بعض الاشياء الاخرى التى كنت أحتاج اليها . ولما لم يكن قد توفر لدى قط من قبل مثل هذا المبلغ الكبير من المال فانى لم أتمالك نفسى من تحسس الاوراق بأصابعى والحملقة فيها . وكان مرآها بسبب فقرى لايبعث الفرحة فى نفسى فحسب بل يكاد ألا يكون مصدقا . وكان على أن أتأمل تلك الاوراق باشتياق كما فعلت من قبل مع قطع الاثاث لكى أقنع نفسى بأنها تخصنى حقا .

الفصل الخامس

لقد محا لومى العميق خلال الليل الطويل ـ او هكذا خيل لى ـ ذكرى مغامرتى فى فيتريو فاستيقظت فى اليوم التالى وقد استعدت هدوئى موطنة النفس على المثابرة على بذل كل ما فى وسعى لكى أحيا حياة عائلية طبيعية . ولم تشر جيزيلا التى قابلتها فى الصباح أيما اشارة الى الرحلة اما ندما على ما فعلت أو من وحى كياسة حكيمة . فشعرت نحوها بالامتنان . ولكن القلق أخذ يساورنى بصدد لقائى التالى بجينو . فعلى الرغم من ثقتى ببراءتى التامة كنت أعلم أننى سأضطر الى الكذب عليه فأحسست بالسخط لاضطرارى الى ذلك كما أننى لم أكن واثقة من قدرتى على الكذب لاننى لم أفعل ذلك من قبل بل لشد ماكنت صريحة معه حتى الآن . لاشك اننى أخفيت عنه مداومتى على الاتصال بجيزيلا ولكن دوافعى فى تلك الحال كانت بريئة للغاية حتى أننى لم أعد ذلك كذبا بل الاحرى انه كان ملاذا ألجأتنى اليه كراهيته غير المعقولة لجيزيلا .

ولقد استبد بى القلق الى حد أننى ما كدت ألقاه يومذاك حتى وجدت صعوبة فى الامتناع عن البكاء وعن مصارحته بما حدث راجية الصفح . فلشد ما اثقلت كاهلى قصة الرحلة الى فيتريو بأكملها وكنت أتوق الى التخلص من عبئها بالتحدث عنها . فلو أن جينو كان شخصا آخر كائنا من كان وكنت أعلم أنه أقل غيرة لحدثته عنها دون شك ولزاد حبنا فى رأيى عما كان عليه فى أى وقت ولاحسست باعزازه اياى وارتباطى به برباط أقوى من الحب نفسه . وكنا فى السيارة كعادتنا فى الطريق الريفى المعهود فى ساعة مبكرة من الصباح . ولقد لاحظ قلقى وسألنى عما بى .

فحدثت نفسى قائلة ـ « والآن سأروى له القصة بأسرها ـ حتى لو طردنى من السيارة واضطررت أن أعود الى المدينة سيرا على الاقدام ، ولكن شجاعتى خانتنى فسألته بدلا من ذلك ان كان يحبنى .

فأجابنى قائلا ـ ياله من سؤال ! »

فأردفت قائلة وقد فاضت عيناى بالدموع ـ « وهل ستحبنى دائما ؟ »

ـ « دائما » .
ـ « وهل سنتزوج قريبا ؟ »
فبدا عليه السخط الاحاحى ، وهتف قائلا :
ـ « عجبا . قد يتبادر الى ذهنى أنك لا تثقين بى ـ الم نتواعد على الزواج فى عيد الفصح ؟ »
ـ « نعم » .
ـ « ألم اعطك نقودا لتأثيث المنزل ؟ »
ـ « نعم . »
ـ « حسنا اذن ـ فهل انا ممن يفون بالوعد أو لا ؟ انا لا أقول شيئا الا فعلته · أراهن أن أمك هى التى لا تفتأ تحرضك على ذلك »
فأنكرت ذلك مذعورة ـ « كلا . فان أمى لا شأن لها بذلك ! أنصت الى . وهل سنعيش معا ؟ »
ـ « بالطبع . »
ـ « ونتمتع بالسعادة ؟ »
ـ « ان ذلك يتوقف علينا » .
ثم عدت أسأله مرة أخرى قائلة وقد عجزت عن طرد خواطرى المتلاحقة التى لم يفتأ يصورها لى قلقى ـ « وهل سنعيش معا ؟ »
ـ « يا الهى ! لقد سألتنى هذا السؤال من قبل وأجبتك عنه »·
فقلت ـ « آسفة . ولكن ذلك لا يكاد يبدو لى ممكنا فى بعض الاحيان »
ولما لم أعد قادرة على التحكم فى نفسى فقد بدأت أبكى · فتولته الدهشة لبكائى كما انتابه القلق ولكنه قلق ملىء بالندم كما كان واضحا ، ذلك الندم الذى لم تتكشف لى أسبابه الا بعد وقت طويل·
فقال ـ « والان كفى ! ففيم البكاء ؟ »

وفى الواقع فان بكائى كان مرجعه احساسى بالمرارة والالم · لعجزى عن مصارحته بما حدث ومن ثم أخلص ضميرى من عبء الندم· كما كنت أبكى لشعورى بالمهانة عندما يخطر لى أننى لست كفئا له أو لكل من يتصف بمثل سموه وكماله · وأخيرا قلت فى مشقة ـ « انك على حق · فأنا فتاة حمقاء» .
ـ « انا لا أبغى ان أقول ذلك ـ ولكننى لا أرى داعيا لبكائك » .
وظل العبء يثقل كاهلى · فذهبت الى الكنيسة للاعتراف بعد فراقنا فى ذلك المساء نفسه ·وكنت قد انقطعت عن الاعتراف منذ عام تقريبا . ولكننى كنت أعلم طوال الوقت انه يمكننى الذهاب فى أية

لحظة وكان ذلك يكفيني . فمنذ أن قبلت جينو لاول مـرة أقلعت عن الذهاب للاعتراف اذ أدركت أن علاقتي بجينو كانت تعـد خطيئة فى نظر الكنيسة . ولكننى لما كنت أعلم أن الزواج مصـيرنا فانى لم أشعر قط بتأنيب الضمير بل عقدت النية على الاستغفار قبل الزفاف مرة واحدة والى الابد .

ذهبت الى كنيسة صغيرة فى قلب المدينة وكان بابها يقع بين مدخل احدى دور السينما وواجهة محل لبيع الملابس الصوفية الداخلية . وكاد الظلام يكون دامسا فى داخل الكنيسة عـدا المذبح الرئيسى ومصلى جانبى خصص للسيدة مريم العذراء . وكانت كنيسة صغيرة قذرة مهملة تباعدت مقاعدها الخيزرانية هنا وهنـاك على نفس الصورة غير المنظمة التى تركها فيها المصـلون عند انصرافهم مما ذكرنى لا بقداس بل باجتماع ممل ما ان يهرب منه المرء حتى يتنفس الصعداء

وقد كشف ضوء خافت كان يسقط من الكوى الصغيرة فى قبة الكنيسة عن الغبار المتراكم على الارضية المرصوفة والشقوق البيضاء فى الطلاء الاصفر المرقش الذى يكسو الاعمدة شبه الرخامية . كما كانت لوحات النذور الفضية العديدة المتزاحمة على الجدران فى صورة قلـوب ملتهبة تترك فى النفس تأثـيرا تافها كئيبا . ولـكن ثمة رائحة بخور قديم كانت منتشرة فى جو الكنيسة بثت فى قلبى الشجاعة . فقد كنت فى صباى أستنشق تلك الرائحة نفسـها مما أثار فى نفسى ذكريات كانت كلها بريئة محببة . اذ بدا لى اننى فى مكان مألوف . ومع أننى لم أزر تلك الكنيسة قط من قبل فقد أحسست وكأننى كنت لا أفتأ أتردد عليها طوال حياتى .

ولكننى شئت قبل الاعتراف أن أذهب الى المصلى الجانبى حيث لاحظت تمثالا للعذراء وكنت منذ مولدى مكرسة بالفعل للسـيدة مريم العذراء . وكانت أمى لا تفتأ تزعم أننى أشبهها فى قسـمات وجهى المنتظمة وعينى السوداوين النجلاوين الرقيقتـين . وكنت لا أبرح أحب العذراء لانها تحمل طفلا بين ذراعيها ولان طفلها الذى صار رجلا وقتل ، ولانها لتشبه ما عانت عندما رأته معلقـا على

الصليب وهى التى حملته واحبته كما تحب اية أم ابنها . وطالما دار بخلدى أن السيدة العذراء التى تعددت أحزانها هى وحـدها التى يمكنها أن تفهم أحزانى حتى أننى فى طفولتى كنت أصلى لها وحدها اعتقادا منى بانه لا يمكن أن يفهمنى سواها . وفضلا عن ذلك فقد

كنت أحب العذراء للفارق الكبير بينها وبين أمي فى صفاتها وهدوئها وثيابها الفاخرة وعينيها اللتين تنظران الى فى حب عميق . فكانت تبدو لى كأنها أمى الحقيقية لا تلك الام التى تنفق وقتها فى زجرى وتعنيفى ولا تبرح تبدو منهوكة القوى رثة الهندام

فركعت أمامها مخفية وجهي بين يدى حانية رأسى ثم تلوت صلاة طويلة لها شخصيا ضارعة اليها أن تغفر لى ما فعلت ومتوسلة اليها أن تحمينى وكذلك أمي وچينو . ثم تذكرت أنه ينبغى على ألا أحمل ضغينة لاحد فسألت العذراء أن تحمى جيزيلا التى خانتنى بسبب حسدها وريكاردو الذى شد من أزرها بسبب حماقته كما توسلت اليها أن تحمي آستاريتا . بل ان صلاتى من أجل استاريتا كانت أطول من صلاتى من أجل الاخرين لا لسبب الا لشدة حفيظتي عليه فأردت محوها من نفسى لكى أحبه كما كنت أحب الاخرين وأصفح عنه وانسى ما الحقه بى من اذى . ولشد ما أحسست بالتأثر العميق فى النهاية حتى اغرورقت عيناى بالدموع . ورفعت بصرى الى تمثال العذراء فوق المذبح فكانت دموعى أشبه بالحجاب على عينى مما جعل التمثال يبدو غامضا مرتعشا وكأننى أراه من خلال الماء . وبدت الشموع التى تتلألأ حول التمثال كعديد من النقاط الذهبية الصغيرة التى تسر الناظرين ولكنها فى الوقت نفسه تكدرهم كالنجوم التى تهفو نفوسنا أحيانا الى لمسها ولكننا نعلم أنها بعيدة المنال . وهكذا مكثت بعض الوقت أتأمل العذراء وانا لا أكاد أراها . ثم أخذت الدموع المريرة تتقاطر فى بطء من عينى ثم تنحدر على وجهى وهى تدغدغنى . ورأيت العذراء تنظر الى حاملة طفلها بين ذراعيها وقد أضيء وجهها بلهيب الشموع . وبدت أنها تنظر الى فى عطف وحنان . فشكرتها من أعماق قلبى وما ان نهضت واقفة حتى احسست بالطمأنينة وقد عادت الى . ثم ذهبت لأعترف

وكانت كراسى الاعتراف جميعا خالية . ولكننى بينما كنت أتجول فى الكنيسة باحثة عن قس رأيت شخصا يخرج من باب صغير الى يسار المذبح الرئيسى ويمر أمام الهيكل حيث يجثو فى خشوع راسما علامة الصليب ثم يشق طريقه الى الجانب الاخر من الكنيسة . وكان راهبا ولكننى لم أعرف رتبته الكهنوتية . فاستجمعت شجاعتى وناديته فى صوت خفيض . فاستدار وأقبل نحوى فى الحال . وعندما أقترب منى رأيت أنه صغير السن الى حد ما طويل القامة تبدو عليه القوة والنشاط ذو بشرة وردية تنبىء ملامحه بالنضارة والرجولة

وكان ذا لحية شقراء نحيلة وعينين زرقاوين وجبهة بيضاء عريضة . فلم يسعنى الا أن أتطلع وجلا وتسليما الى صورة خارجة عن المألوف مما يندر أن تراه داخل الكنيسة أو خارجها وفرحت لاننى سأعترف على يدبه . وما كدت أخبره بما أريد فى صوت خفيف حتى أشار الى بأن أتبعه وقادنى الى أحد كراسى الاعتراف

دخل المقصورة وذهبت لأجثو أمام السياج . فاذا بصفحة صغيرة مطلية بالميناء تحمل اسم الأب ايليا كانت مثبتة على كرسى الاعتراف . فسرنى ذلك الاسم والهمنى بالايمان والثقة . وعندما جثوت على ركبتى تلا صلاة قصيرة ثم سألنى عن آخر اعتراف لى وكم مضى عليه من الزمن

فقلت ـ « حوالى عام » .

ـ « هذه مدة طويلة . بل أطول مما ينبغى . لماذا ؟ »

ولاحظت أن لغته الايطالية لم تكن سليمة تماما . فكان يلثغ فى حرف الراء كما يفعل الفرنسيون . وتبين لى من خطأ أو اثنين وقع فيهما أثناء محاولته نطق كلمات أجنبية بلهجة ايطالية انه هو نفسه فرنسى. فسرنى انه أجنبى ولكننى فى الحقيقة ما كان يمكننى أن أذكر السبب فى ذلك . ولعل هذا لاننا عندما نوشك على القيام بعمل نعده مهما تبدو لنا كل صغيرة خارجة عن المألوف علامة على الفأل الحسن

وأوضحت له أن القصة التى سأرويها له ستكشف عن السبب فى عدم اعترافى طوال تلك المدة . فسألنى بعد فترة صمت وجيزة عما لدى من أقوال . فبدأت أحدثه باندفاع وثقة عن علاقتى بجينو وصداقتى بجيزيلا ورحلتى الى فيتريو وتهديد آستاريتا .وحتى فى أثناء حديثى لم أستطع أن أتمالك نفسى من التساؤل عن تأثير قصتى عليه . فقد كان يختلف عن معظم القساوسة ودفعنى مظهره غير المألوف كرجل دنيوى الى التفكير فى الاسباب التى أدت به الى الرهبنة يحدونى فى ذلك حب الاستطلاع . ولعله يبدو غريبا أن يتشتت ذهنى الى حد التساؤل عن معرفى بعد صلاتى للعذراء وما أثارته فى نفسى من عاطفة خارجة عن المألوف . ولكننى أنا نفسى لا أرى تناقضا بين عاطفتى وحب استطلاعى . فكلاهما ينبع من أعماق قلبى حيث يختلط التعبد بالدلال والاسى بالشهوة اختلاطا معقدا لا سبيل الى تحليله

ولكننى حتى وأنا أفكر فيه بالطريقة التى وصفتها أخذت أشعر بالارتياح رويدا رويدا كما انتابنى الحماس لمصارحته بالمزيد والاعتراف له بكل شىء مما خفف عنى . فأحسست بالسمو والخلاص من ذلك

الشعور الثقيل بالالم الذى كان يثقل كاهلى حتى تلك اللحظة كالزهرة التي يصورها الذبول من شدة الحرارة ثم تنعشها في النهاية أولى قطرات مطر . وكنت في أول الأمر اتكلم في صعوبة وتردد ثم بدأت كلماتي تتدفق فى مزيد من الطلاقة . وفى النهاية أخذت أتحدث فى اخلاص قوى تحدونى آمال متزايدة . ولم أغفل شيئا مما حـدث ولا حتى النقود التى أعطانيها استاريتا وما أثارته هبته فى نفسى من مشاعر والمنافع التى كنت أنوى استغلالها فيها . وأنصت الى دون تعليق وما ان انتهيت من فصتى حتى قال ــ « انك لكى تتجنبى شيئا خلته ضارا بك الا وهو فسخ الخطبة قبلت أن تلحقى بنفسك ضررا أكبر الى مالا نهاية »

فوافقت قائلة وأنا أرتجف فرحة بأنامله الحساسة وهى تسبـر قلبى ــ « نعم . انى أعلم ذلك »

ثم واصل كلامه قائلا وكأنه يحدث نفسه ــ « ولكن خطبتك فى الواقع لا شأن لها بما حدث ــ فانك عندما رضخت لذلك الرجـل استسلمت لشعور بالطمع » .

ــ « نعم . نعم ! »

ــ « حسنا . كان الأجدر ان يفسخ الزواج على أن تفعلى مافعلت »

ــ « نعم . هذا هو اعتقادى الان . »

ــ « ولكن ذلك لا يكفى ــ فانك الآن ستتزوجين .ولكن لم يكلفك ذلك ؟ فلن يمكنك بعد ذلك أن تكونى زوجة صالحة »

كان يضربنى فى الصميم بقسوة ألفاظه التى لا تعرف اللين . فهتفت قائلة فى ألم ــ « كلا . ليس الامر كذلك ! بل انه يبدو لى وكأن شيئا لم يحدث ــ فأنا واثقة بأننى سأكون زوجة صالحة ! »

لاريب أنه أعجب باخلاصى فى الرد . فصمت بعض الوقت ثم أردف يقول فى مزيد من الرقة ــ « هل أنت مخلصة فى توبتك ؟ »

فأجبته قائلة باندفاع ــ « نعم . انى مخلصة حقا . » وخطر لى فجاة أنه ربما ارغمنى على رد النقود لآرستاريتا . ورغم ان فكرة ردها اليه لم تكن مستحبة مقدما فقد خيل لى مع ذلك اننى كنت أمتثل لأمره فرحة مسرورة، وذلك لصدوره من شخص أحبه استطاع أن يسيطر على بطريقة غريبة . ولكنه دون ان يذكر النقود واصل حديثه قائلا بصوته البارد البعيد الذى أضفت عليه لهجته الاجنبيـة نغما عاليا لشد ماكان دفيئا على صورة غريبة ــ « والان ينبغى أن تتزوجى فى أقرب فرصة ممكنة ــ كمـا ينبغى أن تضعى الامور فى

نصابها ــ فيجب عليك أن تفهمى خطيبك أنه لايمكنك أن تستمرى معه بالوضع الراهن » .

ــ « لقد قلت له ذلك بالفعل » .

ــ « وماذا كان جوابه ؟ »

ولم أتمالك نفسى من الابتسام عندما خطر لى أنه بكل جماله ووسامته يسألنى مثل هذا السؤال من أعماق مقصورة الاعتراف .

فأجبته قائلة فى مشقة ــ « انه يقول اننا سنتزوج فى عيد الفصح »

فرد قائلا بعد لحظة من التفكير ــ «يحسن بكما أن تتزوجا فى الحال. فعيد الفصح مازال بعيدا » . وبدا لى حينئذ أنه لم يكن يتكلم ككاهن بل كرجل دنيوى مهذب أمله قليلا أن يضطر الى الاهتمام بشئونى .

ــ « لا يمكننا التبكير عن الموعد المحدد . فعلى أن أعد جهازى . وعليه أن يذهب الى أسرته ليخبرها بالنبأ »

فاستمر قائلا ــ « على أية حال يجب أن يتزوجك فى أقرب فرصة ممكنة . وعليك أن تقلعى عن كل علاقة جنسية بخطيبك حتى يوم الزفاف . فهذا اثم خطير . أتفهميننى ؟ »

ــ « نعم . سأفعل . »

فردد قائلا فى شك ــ « أتفعلين ؟ .عليك أن تقاومى الاغراء بالصلاة على أية حال. حاولى أن تصلى .

ــ « نعم ساصلى » .

ثم أردف قائلا ــ « أما عن الرجل الآخر فلا ينبغى أن تريه مهما كانت الاسباب . ولن يشــــق عليك ذلك مادمت لا تحبينه . واذا أصر على رؤيتك وجاء لمقابلتك فعليك أن تطرديه »

فقلت له اننى سأفعل . وبعد أن أسدى الى نصـــائح أخــرى كثيرة بصوته البارد البعيد الذى لشد ما اغرانى مع ذلك بالانصات اليه لما فيه من لكنة أجنبية وما يوحى به من علم صاحبه أمرنى أن أتلو كل يوم عددا من الصلوات تكفيرا عن ذنوبى. ثم منحنى الغفران. ولكنه قبل أن يأمرنى بالانصراف جعلنى أتلو معه « أبانا الذى فى السموات .. » فوافقت على ذلك فى سرور لاننى كنت آسفة لرحيلى ولم تشبع أذناى بعد من صوته

قال ــ « أبانا الذى فى السموات »

فرددت قائلة ــ « أبانا الذى فى السموات »

ــ « ليتقدس اسمك »

ـ « ليتقدس أسمك »
ـ « ليأت ملكوتك »
ـ « ليأت ملكوتك »
ـ « ولتكن مشيئتك على الارض كما هى فى السماء »
ـ « ولتكن مشيئتك على الأرض كما هى فى السماء »
ـ « اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
ـ « اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
ـ « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمسيئين الينا »
ـ « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمسيئين الينا »
ـ « ولا تدخلنا فى تجربة بل نجنا من الشرير »
ـ « ولا تدخلنا فى تجربة بل نجنا من الشرير »
ـ « آمين » .
ـ « آمين » .

لقد ذكرت الصلاة كلمة كلمة لكى أستعيد مشاعرى عندما تلوتها معه . فقد احسست وكأنى عدت فتاة صغيرة بينما يقودنى هو من يدى متنقلا من عبارة الى أخرى . ومع ذلك ففى تلك الاثناء كنت أفكر فى النقود التى اعطانيها آستاريتا وكدت أشعر بخيبة الامل لانه لم يأمرنى بردها . فقد كنت أود حقا ان يأمرنى بذلك لاننى كنت أريد أن أقدم له دليلا محسوسا على طاعتي وتوبتى كما كنت أريد أن أفعل له شيئا يكون بمثابة تضحية حقيقية . وما ان انتهت الصلاة حتى نهضت وخرج هو من مقصورة الاعتراف وهم بالذهاب دون أن ينظر الى ودون أن يحيينى مودعا الا بايماءة تكاد الا تلحظها العين . فاذا بى على الرغم منى تقريبا أجذبه من كمه دون أن أدرى ماذا أنا فاعلة . فتوقف عن المسير ونظر الى بعينيه الصافيتين الهادئتين اللتين لاتنبئان عن شيء

فخيل لى أنه أكثر وسامة منه فى أى وقت مضى . ومرت بذهنى مئات الخواطر المجنونة . وتصورت أنه لشد ما كان ممكنا أن أقع أسيرة هواه . وتساءلت عن الطريقة التى أستطيع بها أن أعبر لهعن اعجابى به . ولكن ضميرى فى نفس الوقت كان ينذرنى أننى فى كنيسة وأنه كان كاهنا ومعرفى . كانت نفسى فى دوامة من كل تلك الخواطر والصور التى استحوذت على فى وقت واحد فعجزت لحظة عن النطق فسألنى بعد أن انتظر فترة معقولة قائلا ـ « هل هناك ما تريدين مصارحتى به غير ذلك ؟ »

فسألته قائلة — « أردت أن أعلم ما اذا كان ينبغى أن أرد لذلك الرجل نقوده ؟ »

فرمانى بنظرة سريعة بدت أنها تنفذ الى أعماق روحى . كانت نظرة حادة مباشرة للغاية . ثم ما لبث أن أجابنى قائلا — « هل أنت فى حاجة ماسة اليها ؟ »

— « نعم » .

— « حسنا . اذن — فلا حاجـــة بك الى ردها — وعلى اية حال فلتفعلى ما يمليه عليك ضميرك »

قال ذلك بلهجة غريبة وكأنه يريد أن يلمح الى انتهـــاء مقابلتنا فتلعثم لسانى بالشكر دون أن أبتسم محملقة فى عينيه وأنا افعل ذلك . لقد فقدت صوابى حقا فى تلك اللحظة وكدت أتمنى لو أظهر لى اهتمامه باشارة أو كلمة . لا شك أنه أدرك معنى نظرتى . فارتسم على وجهه تعبير طفيف ينبىء بالدهشة لم يلبث ان اختفى . ثم ودعنى باشارة صغيرة من يده وانصرف مديرا لى ظهره وتركنى واقفة بجانب كرسى الاعتراف فى حال من الارتباك والاضطراب الشديدين .

لم أخبر أمى بشىء عن اعترافى كما لم أخبرها بشىء عن رحـــلة فيتريو . وكنت أعلم أن لها آراء راسخة فى الكهنة والدين . كانت ترى أنها أشياء جميلة ومع ذلك فان الاغنياء يظلون أغنياء والفقراء يظلون فقراء . وكانت تقول — « يمكنك أن ترى أن الاغنياء يجيـــدون الصلاة خيرا منا » وكانت آراؤها فى الدين تشبه اراءها فى الاسرة والزواج . فقد كانت هى نفسها فيما مضى متمسكة بتعاليم الدين وكانت تختلف الى الكنيسة ولكن كل شىء مع ذلك ساء حاله بالنسبة لها . ففقدت ايمانها بهذه الاشياء . وقد قلت لها ذات مرة اننـــا سنلقى ثوابنا فى الاخرة فاستشاطت غضبا قائلة انها تريد أن تلقى جزاءها فى هذا العالم — الان — فى الحال وانها ان لم تلقه فمعنى ذلك أن الامر كله سلسلة من الاكاذيب . ومع هذا فقد ربتنى تربية دينية كما سبق أن قلت لانها هى نفسها كانت دينـــة فى وقت من الاوقات . ولكن ما مر بها من محن فى الاعوام الاخيرة قد ملأ قلبهـــا بالمرارة وجعلها تغير رايها

وفى الصباح التالى عندما ركبت السيارة أخبرنى جينو أن مخدوميه يتاهبون للرحيل وانه يمكننا أن نلتقى فى الفيللا بضعة أيام . فطربت لذلك فى أول الامر لاننى كنت أهوى المضاجعة وأهواها مع جينو كما أعتقد أننى سبق أن أوضحت

ولكننى فجأة تذكرت وعدى للكاهن
فقلت ــ « لا يمكننى ذلك »
ــ « لم لا ؟ »
ــ « محال أن ــ »
فقال فى صبر وهو يتنهد ــ « حسنا اذن فغدا ــ »
ــ « كلا . ولا حتى غدا ــ بل لن نعود الى ذلك مرة أخرى » .
فردد كلامى قائلا فى صوت خفيض وهو يتظاهر بالدهشة ــ « لن نعود ! اذن فهذا هو الوضع الآن . أليس كذلك ؟ لن نعود ! يمكنك على الاقل أن توضحى السبب »
وكان وجهه ينطق بالريبة الغيور . فأسرعت قائلة ــ « انى أحبك يا جينو .. وما أحببتك قط كما أحبك الان ــ بل لاننى أحبك قررت أننا يجب ألا نعود الى مثل هــذا مرة أخـــرى حتى نتزوج ــ أعنى الا نمارس الحب »
فقال فى احتقار ــ « انى افهم الان كل شىء ! فأنت تخشين ألا أبغى الزواج بك » .
ــ « كلا . بل انى واثقة من زواجك بى . ولو كان ذلك هو اعتقادى لما كنت الان أعد كل شىء ولما انفقت نقود أمى التى ظلت تدخرها طوال حياتها » .
فقال ــ « يالها من قصة تلك التى تنسجينها حول نقود أمك ! »
وعندئذ لشد ما صار بغيضا حتى أننى لم أكد أستطيع التعرف عليه .
ثم سألنى قائلا ــ « اذن فلماذا ؟ »
ــ « لقد ذهبت للاعتـــراف ونهانى القس عن مضاجعتـــك حتى نتزوج »
فأتى حركة تعبر عن خيبة أمله وأفلت منه لفظ بدا لى كالتجديف ثم قال ــ « وما شأن هذا الكاهن حتى يدس أنفه فى أمورنا ؟ »
فآثرت الصمت .
فألح قائلا ــ « لم لا تقولين شيئا ؟ »
ــ « ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك »
لاريب أن التصميم المطلق كان يبدو على محياى اذ أنه عدل عن رأيه فجأة قائلا ــ « حسنا ــ لك ما تطلبين ــ أتريدين أن أصحبك الى المدينة ؟ »
ــ « ان شئت . »
ولا يفوتنى أن أقول اننى لم أعهده قط بغيضا قاسيا معى الا فى تلك

المقابلة . اما في اليوم التالي فقد بدا لي مستسلما وقد عاودته عطفه المعهود واهتمامه الشديد المهذب ـ فاستمر لقاؤنا كل يوم كما كان من قبل غير أننا لم نعد نمارس الحب بل كنا نكتفى بتبادل الحديث وكنت من وقت لآخر امنحه قبلة رغم انه صار يعد احجامه عن تقبيلي مسألة كرامة . ولم أشعر أن تقبيله خطيئة حقا لاننا كنا قبل كل شيء خطيبين ولن نلبث أن نتزوج . واليوم عندما أذكر تلك الفترة يخيل لى أن جينو سرعان ما انساق الى قبول دوره الجديد كخطيب مهذب يحترم خطيبته على أمل أن تفتر العلاقة بيننا رويدا ثم نقترب من القطيعة شيئا فشيئا على غير وعى منى تقريبا . فأنتم تسمعون دائما عن فتيات ينتهى بهن المطاف ـ دون أن يعين ـ الى الوحدة من جديد بعد خطبة طويلة مضنية ولا يلحقهن من أذى سوى انقضاء زهرة شبابهن . فعندما صارحته بوصية القس هيأت له دون ان أدرى مطلقا الذريعة التى لعله كان ينشدها لتفتر العلاقة بيننا . اذ انه بلا ريب ما كان ليجد الشجاعة فى نفسه قط لضعف شخصيته وأنانيته كما أن رغبته فى التخلص منى كانت أضعف من اللذة التى يجدها فى علاقتنا . ولكن تدخل المعرف أتاح له الفرصة فى تقديم حل ريائى يبدو منزها عن الغرض

فاذا به بعد فترة وجيزة يقلل من مرات لقائنا فلم نعد نتقابل سوى مرة واحدة كل يومين ثم لاحظت أن نزهنا فى السيارة كانت لا تفتأ فى كل مرة تقصر عن سابقتها . وكان لا يفتأ يزداد شرودا كلما تحدثت اليه عن خطط زواجنا ولكن الشك لم يخامرنى قط رغم احساسى الغامض بتغير موقفه فقد كانت كلها أمورا تافهة كنفثات الدخان . وظل جينو كما عهدته يسلك نحوى سلوكه الرقيق العطوف . وذات يوم قال لى وفى عينيه نظرة اعتذار انه سيضطر لاسباب عائلية الى تأجيل موعد زواجنا الى مابعد الصيف .

وعندما لاحظ أننى لم أعلق بشيء على ماقال ولم أزد على أن نظرت امامى وقد علا وجهى تعبير مرير لا ينم عن شيء أضاف قائلا ـ « هل أغضبك ذلك كثيرا ؟ »

فقلت مستجمعة شجاعتى ـ « لا ـ لا . فهذا لايهم ـ فليس فى وسعنا أن نفعل شيئا . ولكن ذلك سيتيح لى الفرصة لاعداد جهازى »

ـ « أنت تكذبين . فلشد ما يزعجك ذلك . » وكانت رغبته فى أن أغضب لتأجيل زفافنا أمرا غريبا .

ـ « كلا . »

ـ « حسنا اذن فان كان ذلك لا يزعجك فمعنى هذا أنك لا تحبيننى حقا ولعلك فى أعماق قلبك لا تبالين اذا لم يتم زواجنا على الاطلاق »

فهتفت قائلة فى ذعر ـ « لا تقل هذا ! فشد ما يروعنى قولك . بل انى لا أحب أن أفكر فيه . »

وحينئذ لم أفهم ذلك التعبّير الذى مرق عبر وجهه . فقد شاء فى الواقع أن يختبر حبى فوجد أنه مازال قويا للغاية مما بث الرعب فى قلبه .

وعلى الرغم من أن تأجيل زواجى لم يكن سببا كافيا لاثارة شكوكى فانه دعم اعتقاد أمى وجيزيلا وكانتا مقتنعتين به منذ البـداية . ولم تعلق أمى بشىء مطلقا على ذلك النبأ . فهكذا كان أسلوبها فى بعض الاحيان (وهو مسلك غريب ممن أوتى مثل طبيعتها العنيفة المندفعة) ولكنها ذات مساء بينما كانت كعادتها تقدم الى عشائى وقد وقفت صامتة ترقب ماقد أحتاج اليه قالت لى ردا على اشارة ماصدرت منى بخصوص الزواج .

ـ « أتعرفين ماذا كانوا فى أيامى يسمون من كانت على شاكلتك ـ اى الفتاة التى تظل تنتظر الزواج ولا تتزوج قط . »

فشحب لونى وأحسست بالهزال قائلة ـ « ماذا ؟ »

فقالت أمى فى هدوء ـ « فتاة على الرف . فهو يظل يضعك على الرف كاللحم الذى لم يؤكل بعد . ولكن اللحم يفسد أحيانا اذا ماترك ثم يلقى به بعد ذلك . »

فاستبد بى الغضب وقلت ـ « هذا افتراء ! فاننا نؤجله لاول مره ولبضعة شهور فقط . والحقيقة أنك غاضبة أشـــد الغضب على جينو لانه سائق وليس سيدا مهذبا . »

ـ « أنا لست غاضبة على أحد . »

ـ « بل هى الحقيقة ـ ولانك اضطررت الى انفاق نقودك على تأثيث الغرفة من أجلنا ولكن لا حاجة بك الى القلق ـ »

ـ « ياابنتى العزيزة ـ لقد صعد الحب الى رأسك ! »

ـ « أقول لك لاتقلقى ـ فانه سوف يسدد بقية الاقساط جميعا . ولسوف نعطيك كل ما أنفقت . أنظرى . » وتولانى الحماس ففتحت حقيبتى وأخرجت لها الاوراق المالية التى أعطانيها أستاريتا . ثم أردفت قائلة ـ « هذه نقوده وقد أعطانيها . ولسوف يعطينى المزيد . ولشد ما استبد بى الجنون حتى اننى كدت أصدق أكاذيبى .

فحملقت فى النقود فاغرة فاها واكتست نظرتها بالخيبة والاسى

فأحسست بتانيب الضمير . فانى لم أعاملها بمثل هذه الاساءة زمنا طويلا . كما أدركت أننى ضنت اشترى الكتب وأن جينو فى الواقع لم يعطنى النقود مطلقا . فلم تنبس ببنت شفة بل نظفت المائدة وحملت الصحاف ثم غادرت الغرفة . وبعد لحظة من التفكير الغاضب نهضت وتبعتها . فرأيتها من ظهرها وقد وقفت منتصبة أمام الصنبور تغسل الصحاف التى أخذت تضعها واحدة بعد الاخرى على رخامة الحوض حانية رأسها وكتفيها قليلا . فغشيتنى موجة من الرثاء لها . واندفعت نحوها ملقية بذراعى حول عنقها وأنا أتوسل اليها قائلة ـ « اغفرى لى مافلت . انى لا أعتقد ذلك حقا ـ ولكنك لشد ماتغضبيننى عندما تتحدثين عن جينو . »

فأجابت متظاهرة بمقاومتى للتخلص من عناقى ـ « اتركينى ـ دعينى وشأنى . »

فصفقت ثانية فى حماس ـ « ولكنك يجب أن تفهمى ! فاما أن أقتل نفسى اذا لم يتزوجنى جينو أو أبيع الهوى فى الشوارع . »

أما جيزيلا فقد حذت حذو أمى الى حد كبير عندما تلقت نبأ تأجيل زواجى فقد كنا فى غرفتها المؤثثة عندما أخبرتها بذلك وكنت جالسة فى كامل هندامى على حافة الفراش بينما كانت هى فى قميص النوم تمشط شعرها أمام خوان الزينة . فتركتنى انهى قصتى دون تعليق ثم قالت فى هدوء وانتصار ـ «أرأيت أننى كنت على حق ؟»

ـ « لماذا ؟ »

ـ « فهو محجم عن الزواج ولن يتزوج بك البتة . فزواجك الان لن يتم فى عيد الفصح بل فى عيد القديسين ـ ثم يؤجل بعد ذلك الى عيد الميلاد ـ وذات يوم تختمر الفكرة أخيرا فى ذهنك وتبادرين أنت بالتخلى عنه . »

فانتابنى الغضب وأحسست بالتعاسة لحديثها . ولكننى كنت قد أطلقت العنان لنفسى مع أمى وعلى أية حال فقد كنت أعلم أننى لو صارحتها برأيى لكان على أن أفقد صداقتى بجيزيلا وكنت لا أرغب فى ذلك لانها كانت صديقتى الوحيدة قبل كل شىء . كان ينبغى أن أفصح عن رأيى وهو أنها لم تكن تريد أن أتزوج لانها تعلم أن ريكاردو لن يتزوجها . كانت هذه هى الحقيقة التى لا يمكن أن تقال لما تنطوى عليه من حقد شديد وكنت أرى انه ليس من العدل أن أسىء اليها لمجرد استسلامها على الرغم منها لمشاعر الحسد والغيرة عندما تتحدث عن جينو . فاكتفيت بأن قلت ـ

« فلنكف عن الحديث فى هذا الموضوع • فان زواجى من عـــدمه أمر لا يهمك فى الحقيقة ــ كما أنه مما يسيئنى أن نتحدث عنه • »

فاذا بها فجأة تترك مكانها أمام خوان الزينة ثم تأتى لتجلس الى جانبى على الفراش قائلة فى احتجاج ــ « ماذا تعنين ــ بأن الامـــر لا يعنينى ؟ » ثم أضافت قائلة وهى تحيط خصرى بذراعها ــ « انه يضيرنى كثيرا أن أراك منقادة من أنفك على هذه الصورة » •

فقلت فى صوت خفيض ــ « ولكننى لست كذلك ! »

ثم أردفت قائلة ــ « كما أحب أن أراك سعيدة » • وما كادت تمر لحظة من الصمت حتى قالت بلهجة عارضة ــ « وبهذه المناسبة فان آستاريتا لا يفتأ يضايقنى لانه يود أن يراك مرة أخرى ــ فهو يقول انه لا يمكنه الحياة بدونك ــ فهو غارق فى حبك حتى أذنيه ! أتريديننى أن أضرب لك موعدا معه ؟ »

فقلت ــ « لا تذكرى لى اسم آستاريتا »

فأردفت قائلة ــ « انه يدرك انه أساء التصرف معك فى تلك الرحلة التى قمنا بها الى فيتريو • ولكن حقيقة الامر انه لم يفعل ذلك الا لانه يحبك ــ وهو يبغى مصافاتك » •

فقلت ــ « لا سبيل الى مصافاتى الا بابتعـــاده عنى فلا أراه مرة أخرى » •

ــ « والان كفى عنادا ! فهو شخص جاد ومغرم بك حقا ــ كما أنه مصر على مقابلتك والتحدث اليك • لم لا تلتقيان فى أحد المقاهى مثلا ويكون ذلك فى حضورى أنا أيضا ؟ »

فأجبتها قائلة فى لهجة حاسمة ــ « كلا • فأنا لا أريد ان أراه • »

ــ « انك ستأسفين لذلك » •

ــ « فلتخرجى أنت معه ! »

ــ « كالقذيفة يا عزيزتى • فهو شديد السخاء كما انه لا يعبأ بما ينفق ــ ولكنه يريدك أنت • فهو متعلق بك »

ــ « نعم • أعلم ذلك ولكننى لا أريده » •

واستمرت تجادلنى محبذة لقاءه ولكننى أبيت الاقتناع برأيها • فقد كانت رغبتى اليائسة فى الزواج وتكوين أسرة قد بلغت ذروتها وقد وطنت النفس على مقاومة الحجج المنطقية واغراء المال • بل لقد نسيت رعشة اللذة التى استطاع آستاريتا أن يثيرها فى نفسى عندما أرغمنى على قبول نقوده أثناء رحلة العودة من فيتريو • وتشبثت بفكرة الزواج يحدونى أمل أقوى وأشد تمسكا خشية أن تكون أمى وجيزيلا على حق فينتهى زواجى لسبب أو لآخر بالفشل •

الفصل السادس

وفى تلك الاثناء كنت قد سددت أقساط الاثاث جميعها وأخذت أكد أكثر من أى وقت مضى لأزيد مكاسبى وأدفع ثمن جهازى . ففى الصباح أقف فى المراسم وفى المساء أحتبس مع أمى فى غرفة الجلوس حيث أعكف على حياكة القمصان حتى هبوط الليل . وكانت هى تعمل على ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة بينما أجلس انا الى المائدة غير بعيد منها حيث أعمل بيدى . وقد علمتنى أمى فنون الحياكة فكان عملى فيها يمتاز دائما بالسرعة والمهارة . وكان على دائما أن أشق عددا من العرى والثقوب وأقوى حفافها . كما لم يكن بد من أن يوضع على كل قميص الحرفان الاولان من اسم صاحبه ولشد ما كنت أجيد ذلك العمل فأجعل الحروف مرتفعة ثابتة على صورة تبدو معها بارزة فوق القماش . وقد تخصصنا فى ملابس الرجال ولكننا كنا أحيانا نصنع قمصان النوم للسيدات أو سراويل داخلية من قطعتين أو قطعة واحدة ولكنها من قماش غث لان أمى لم تكن لها دراية بالتطريز كما لم تكن تربطها صلات بسيدات المجتمع لتقوم بحياكة ثيابهن . وكنت أثناء عكوفى على الحياكة أفكر فى جينو والزواج ورحلة فيتريو وأمى وحياتى الخاصة فى الواقع . وسرعان ما كان الوقت يمضى . اما خواطر أمى فلم أكن أعرفها قط . ولكنها كانت بلا ريب تفكر فى شيء ما لانها لم تفتأ تبدو غاضبة وهى تدير ماكينتها كما كانت عادة تجيبنى بلهجة غاضبة كلما تحدثت اليها . وما ان يقترب المساء ويزحف الظلام حتى أنهض من مكانى وانفض عن ثوبى بقايا الخيط ثم أرتدى أفخر ثيابى وأخرج لمقابلة جيزيلا أو جينو اذا كان فى اجازة من عمله . وانى لأتساءل اليوم عن حقيقة شعورى وقتذاك وهل كنت حقا سعيدة . كنت كذلك من وجهة نظر معينة لاشتياقى الى شيء خلته قريب المنال . ولقد اكتشفت منذ ذلك الوقت أن المرء لا يشعر بالتعاسة حقا الا اذا فقد الامل تماما . وعندئذ لا يجديه يسر أو غنى عن الحاجة

وقد لاحظت أكثر من مرة حينذاك أن آستاريتا كان يقتفى أثرى فى الشوارع . وغالبا ما كان ذلك فى الساعات الاولى من الصباح وأنا فى

طريقي الى المراسم • فكان ينتظر خروجي من المنزل عادة وهو منزو فى أحد منحنيات سور المدينة على الجانب المقابل من الطريق ــ ولكنه لم يكن يعبره قط بل يكتفي باقتفاء أثرى بخطا وئيدة متســتـرا بالجدران أثناء سيرى بمحاذاة المنازل مهرولة تجاه الميدان ــ وانى أعتقد أنه كان قانعا بمراقبتي ــ ذلك السلوك الذى يتميز به من كان غارقا فى الحب • وعندما ابلغ الميدان كان يذهب ليقف فى مواجهتي تماما على محطة الترام بحيث لا يفتأ يراقبنى . وما كان على الا أن أنظر اليه حتى يتولاه الارتباك ويتظاهر بالتطلع الىالطريق ليرىما اذا كان الترام قادما . ان حبا كهذا لا يمكن أن تواجهه امرأة دون أن تكترث له • بل حتى أنا كنت أحس نحوه أحيانا رغم تصميمى على مقاطعته نهائيا بنوع من الشفقة المزهوة . وبعد ذلك يأتي جينو أو يقبل الترام فاما أن أركب السيارة واما أن أســتقل الترام تاركة آستاريتا واقفا على المحطة يراقبنى وأنا أختفى مبتعدة عن بصره

وذات مساء عندما بلغت المنزل وجدت آستاريتا واقفا فى غرفة الجلوس وبيده قبعته وهو يتبادل الحديث مع أمى متكئا على المائدة• وعندما فكرت فيما كان يقوله لأمى ليستميلها الى صفه فتتشفع له عندى زايلتني كل شفقة عليه وتولانى الغضب لرؤيته فى منزلى فقلت له : ــ « ماذا تفعل هنا ؟ »

فحملق فى وأخذ وجهه يختلج متشنجا كما كان يختلج فىالسيارة عندما صارحنى باعجابه بى ونحن فى طريقنا الى فيتربو • ولــكنه عندئذ لم يقو حتى على الكلام . فأسرت لى أمى قائلة ــ « هــذا السيد يقول انه يعرفك . وأراد أن يطمئن عليــك » . فأدركت من لهجتها أن آستاريتا قد تحدث اليها تماما كما توقعت بل وربمـا نفحها بالمال • فقلت لها ــ « أرجو أن تذهبى يا أماه • فتولاها الذعر لصوتى المخبول ثم دلفت الى المطبخ دون أن تجيب •ثم رددت قائلة ــ « ماذا تفعل هنا ؟ اذهب ! » فنظر الى وبدأ يحرك شفتيه ولكنه لم ينبس بكلمة . ثم سقط جفناه على عينيه وكدت أرى بياضهما . كما بدا لى أنه لن يلبث أن يسقط على الارض فى نوبة عصبية . فرددت قائلة بصوت عال وأنا أضرب الارض بقدمى ــ « اذهب والا استغثت ــ فسأنادى صديقا لنا يسكن الطابق السفلى »

وقد ساءلت نفسى مرارا عن السبب فى أن آستاريتا لم يحـاول ابتزازى مرة أخرى أن لم أرضخ له عن طريق تهديدى باطلاع جينو على ما حدث فى فيتربو . وكان فى امكانه ذلك مع ترجيح نجاحه

حينذاك لانه شجعني فعلا وكان هناك شهود على ذلك ولا يمكنني انكار تلك الواقعة . وانتهيت الى أنه فى المرة الأولى لم يكن يحس نحوى الا بالرغبة إما فى الثانية فكان يحبنى . والحب يتوق الى المبادلة . أما وقـــد أحبنى آســـتاريتا الآن فلاريب أنه أحس بأن أمتلاكه اياى فى فيتريو عندما رقدت له خرســـاء بلا حراك كالجثة الهامدة لم يكن مقنعا أو مرضيا على الاطلاق . ولكننى عندئذ كنت مصممة على اظهار الحقيقة مهما كان الثمن . فان جينو ينبغى أن يفهمنى قبل كل شىء ويصفح عنى ان كان يحبنى . وكان تصميمى خليقـــا باقناع آستاريتا ان أية محاولة أخرى لابتزازى لن تتمخض عن شىء .

وعندما هددته بالاستقالة لم يفه بكلمة بل اتجه نحو الباب ساحبا قبعته على المائدة . وما ان بلغ طرف المائدة حتى توقف عن المسير مطأطئا رأسه فبدا وكأنه يستجمع شجاعته ليخاطبنى . ولكنه ماكاد يرفع رأسه مرة أخرى ويحرك شفتيه حتى بدا وكأن شجاعته تخونه وظل صامتا يحملق فى . وبدت لى تلك النظرة الثانية لا نهائية . ثم تركنى بايماءة من رأسه مغلقا الباب خلفه

وفى التو ذهبت الى أمى فى المطبخ . وسألتها قائلة فى غضب :

ــ « ماذا قلت لهذا الرجل ؟ »

فأجابت قائلة فى خوف ــ « لا شىء ! لقد ســـألنى عن عملنـــا وأخبرنى أنه يريدنى أن أحيك له بعض القمصان »

فصحت قائلة ــ « سأقتلك ان ذهبت اليه ! »

فنظرت الى فى رعب قائلة ــ « ومن قال اننى ذاهبة اليه ؟ يمكنه أن يكلف شخصا آخر ليحيك له قمصانه ! »

ــ « ألم يتحدث عنى ؟ »

« لقد سألنى متى تتزوجين ؟ »

ــ « وماذا قلت له ؟ »

ــ « قلت انك ستتزوجين فى أكتوبر »

ــ « ألم يعطك نقودا ؟ »

فنظرت الى متظاهرة بالدهشة قائلة ــ « كلا . لماذا ؟ أكان يجب أن يفعل ؟ »

فتأكدت من لهجة صوتها أن آستاريتا قد أعطاها نقودا . فركضت نحوها وقبضت على ذراعها فى عنف قائلة :

ــ « أصدقينى القول ! هل أعطاك نقودا ؟ »

ــ « كلا . انه لم يعطنى مليما »

وكانت يدها مدسوسة فى جيب وزرتها . فقبضت على معصمها فى عنف فسقطت من يدها المبسوطة ورقة مالية مطوية . ومع أننى كنت لا أزال ممسكة بها فقد أحسست والتقطتها وهى أشد ما تكون جشعا وغيرة فانطفأت نار غضبى فى الحال . اذ تذكرت ما أثارته فى نفسى نقود آستاريتا من اضطراب وفرحة يوم رحلة فيتربو واحسست أنه ليس من حقى إدانة أمى لاحساسها بنفس المشاعر واستسلامها لنفس الاغراء . والان أتمنى لو لم أسألها ولم أر الورقة المالية . فاكتفيت بأن قلت لها بلهجة طبيعية — « أترين أنه فعلا أعطاك شيئا ؟ » ثم غادرت المطبخ دون انتظار لتفسيرها . ولقد أدركت من بعض تلميحات فاهت بها أثناء تناول العشاء أنها تبغى أن تحدثنى مرة أخرى عن آستاريتا والنقود ولكننى غيرت الموضوع ولم تصر هى عليه .

وفى اليوم التالى جاءت جيزيلا وحدها دون أن يصحبها ريكاردو الى مشرب الشاى حيث تعودنا أن نلتقى .

وما كادت تجلس حتى قالت دون مقدمات — « يجب أن أقول لك اليوم شيئا على جانب خطير من الاهمية » .

فانتابنى احساس داخلى شحب له وجهى . وقلت فى ضعف — « ان كان نبأ سيئا فأرجو ألا تخبرينى به » .

فقالت فى حماس — « انه ليس سارا ولا سيئا . ولكنه نبأ فحسب . هذا هو كل ما فى الامر . لقد قلت لك من قبل من هو آستاريتا — »

— « لا أريد أن اسمع شيئا من آستاريتا ... »

— « أنصتى الى الآن ! ولا تكونى طفلة هكذا ! ان آستاريتا كما قلت لك من قبل شخصية هامة للغاية . فهو من ذوى الشأن . كما أنه يشغل منصبا خطيرا فى المباحث العامة » .

فأحسست بشىء من الطمأنينة لانه لا صلة لى بالسياسة قبل كل شىء . ثم قلت — « لا يهمنى مطلقا عمل آستاريتا حتى ولو كان وزيرا . »

فهتفت جيزيلا قائلة — « يا لك من ... ! عليك أن تنصتى فقط بدلا من مقاطعتى طوال الوقت . لقد أخبرنى انك يجب أن تذهبى لمقابلته فى الوزارة . اذ يجب أن يتحدث اليك — » ثم أردفت قائلة بسرعة عندما رأتنى أهم بالاحتجاج . « لا عن الحب . بل لديه نبأ خطير يريد أن يخبرك به — أمر يخصك » .

— « أمر يخصنى ؟ » .

ـ « نعم . أمر فيه مصلحتك . هذا هو ما قاله لى على الاقل » .

ولست أدرى أنا نفسى ما الذى جعلنى أقرر عندئذ قبول دعوة آستاريتا بعد رفضها مرارا .

فقلت وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة ـ « حسنا . انى ذاهبة » .

وقد ارتبكت جيزيلا قليلا عندما رأت موقفى السلبى . ثم لاحظت لاول مرة كم كنت شاحبة خائفة . فسألتنى قائلة :

ـ « ماذا دهاك ؟ الانه فى المباحث ؟ انه لا يتعقبك ! فما الذى يخيفك منه ؟ فهو لا يبغى القاء القبض عليك ! »

فنهضت واقفة رغم احساسى بالدوار وقلت ـ « حسنا . انى ذاهبة . أية وزارة هى ؟ » .

ـ « الداخلية . فى مواجهة السوبر سينما تماما . ولكن أنصتى »

ـ « متى ؟ »

ـ « فى أى وقت من الصباح . ولكن أنصتى ـ »

وفى تلك الليلة لم أنم الا قليلا . فقد أعيانى أن أفهم ماذا يريد منى آستاريتا خارج نطاق وجده وهيامه . ولكنى أدركت ببصيرتى التى بدت لى معصومة من الخطأ أن الامر لا يمكن أن يكون خيرا . فالمكان الذى استدعانى اليه جعلنى أعتقد أنه لابد أن يكون أمرا متصلا بالشرطة . وكنت أعلم من الناحية الاخرى كما يعلم جميع الفقراء أن الشرطة عندما تتحرك فلن يكون ذلك للخير . وبعد أن تفحصت مسلكى الخاص فى كل تفاصيله خلصت الى أن آستاريتا كان يبغى ابتزازى مرة أخرى باستخدام معلومات خاصة بجينو استطاع أن يحصل عليها . كنت لا أعلم شيئا عن حياة جينو ولعله كان مشبوها سياسيا . وكنت لاأزعج نفسى قط بأمور السياسة . ولكن لم يبلغ بى جهلى الا أعلم أن هناك عددا من الناس لا يميلون الى الحكم الفاشى وأن فئة أخرى من أمثال آستاريتا كان من واجبهم تعقب هؤلاء المعادين للنظام والقبض عليهم . وصور لى خيالى بألوان زاهية تلك الورطة التى سيضعنى فيها آستاريتا . فاما أن أسلمه نفسى وأنا راغمة مرة أخرى أو يذهب جينو الى السجن . وكان مبعث خوفى انى لم استطع أن أرضى آستاريتا كما لم اشأ أن يذهب جينو الى السجن . ولم اعد اشعر بالشفقة على آستاريتا وأنا أفكر فى تلك الامور بل لم يبق فى نفسى سوى الكراهية . فقد بدا لى مخلوقا فاسدا دنيئا غير جدير بالحياة ولا يستحق سوى العقاب بلا رحمة

أو هوادة • وحدث أن كان التفكير فى قتل آستاريتا من بين الحلول الأخرى المقترحة لمشكلتى . ولكن ذلك لم يكن حلا بقدر ما كان وهما مريضا تراءى لى وأنا بين النوم واليقظة • وفى الواقع فان ذلك الوهم لازمنى حتى الصباح شأن أى وهم يأبى أن يتطور بالطريقة السليمة الى عزم موضوعى ثابت • فقد تراءى لى أننى أضع فى حقيبة يدى مدية كانت تستخدمها أمى فى قشر البطاطس ثم أذهب بها الى آستاريتا حيث أسمع الدعوة التى أخشاها فأغمد مديتى فى عنقه بين أذنه وياقته البيضاء المنشاة تماما بكل ما أوتيت ذراعى المفتولة من قوة . ثم تراءى لى أننى أغادر الغرفة متظاهرة بالهدوء التام ثم أهرع لاختبىء عند جيزيلا أو عند صديق آخر . ولكننى على الرغم من استعراض كل هذه المشاهد الدموية فى خيالى كنت أعلم طوال الوقت أننى لن أستطيع مطلقا ان افعل شيئا من هذا القبيل . فلشد ما أرهب الدم وأخشى ايذاء الناس كما أوثر أن أتعرض للاضطهاد على أن اضطهد أحدا .

وغفوت قرب الفجر فأخذتنى سنة من النوم . وما أن طلع النهار حتى نهضت وذهبت لمقابلة جينو فى الموعد المعهود .

وما كدنا نلتقى فى الطريق الريفى ونتبادل التحيات المعهـــودة حتى قلت محاولة أن أجعل لهجتى تبدو عرضية بقـــدر الامكان ـ « أكان لك قط شأن بالسياسة ؟ »

ـ « السياسة ؟ ماذا تعنين ؟ »

ـ « أعنى العمل فى أية صورة ضد الحكومة » .

فرمانى بنظرة مدركة ثم قال ـ « انتظرى لحظة . أتحسبيننى معتوها ؟ »

ـ « كلا . ولكن ـ »

ـ « لا . لا . فلنستوضح هذا الامر ! أتحسبيننى معتوها ؟ »

فقلت ـ « كلا . فانك لا تبدو كذلك ولكن ـ »

فقال ـ « حسنا اذن . فما الذى جعلك بحق الشيطان تظنين ان لى شأنا بالسياسة ؟ »

ـ « لست أدرى ولكن أحيانا ـ »

ـ « لا جدوى من ذلك ! بل يمكنك أن تقولى لمن صدرت عنه هذه التلميحات كائنا من كان أن جينو موليناري ليس معتوها • »

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة بعد ان ظللت أتجول حول مبنى الوزارة مدة تزيد على الساعة دون أن اقوى على حزم أمرى على

الدخول اقتربت من البواب وسألته عن آستاريتا وكان علي أولا أن أصعد درجا رخاميا واسعا ثم دربا آخر أضيق منه ولكنه مع ذلك عريض للغاية . ثم اصطحبت خلال عدد من الدهاليز الى غرفة أنتظار تؤدى اليها أبواب ثلاثة ــ وكانت الشرطة ترتبط فى ذهنى عادة بالمكاتب القذرة الحقيرة فى الاقسام المحلية . ولذلك فقد أدهشنى أن أرى فخامة المكان الذى كان يعمل فيه آستاريتا . وكانت غرفة الانتظار فسيحة ذات أرضية من الموزايكو علقت بها صور قديمة كتلك التى نراها فى الكنائس . كما وضعت هنا وهناك بالقرب من جدرانها مقاعد جلدية وملأت فراغ الغرفة فى الوسط منضدة كبيرة . وعندما احسست بالقلق ازاء هذه الفخامة كلها لم يسعنى الا الاعتراف بصحة ما تقوله جيزيلا ــ فلا ريب أن آستاريتا شخصية هامة حقا . وثمة حدث غير متوقع أوحى الى بأهميته . فاننى ما كدت اجلس حتى فتح أحد الابواب وخرجت منه سيدة طويلة القامة جميلة ولو أنها تخطت سن الشباب . كانت متشحة بالسواد فى أناقة شديدة من أعلى رأسها الى أخمص قدميها يغطى وجهها حجاب صغير ــ وفى أعقابها خرج آستاريتا فنهضت واقفة ظنا منى أنه دورى . ولكن آستاريتا واصل حديثه مع السيدة عند مدخل الغرفة بعد أن أشار الى بيده اشارة يفهمنى بها أنه رآنى ولكن دورى لم يأت بعد . ثم اصطحب السيدة الى وسط الغرفة حيث انحنى لها وقبل يدها ثم تركها مشيرا الى شخص آخر كان يجلس معى فى غرفة الانتظار وهو رجل مسن يرتدى حلة سوداء ويلتحى بلحية بيضاء صغيرة ويضع على عينيه منظارا فبدا كأحد الاساتذة . وما ان أشار اليه آستاريتا حتى نهض فى الحال وهرول خلفه فى ذلة وحماس . ثم اختفى كلاهما داخل الغرفة فمكثت وحيدة .

ولشد ما لفت نظرى فى شخصية آستاريتا أثناء ظهوره العابر اختلاف أسلوبه عما كان عليه فى رحلة فيتربو . فقد شاهدته حينذاك أبكم مرتبكا متشنجا شبه مخبول . أما الآن فكان يبدو رابط الجأش تماما هادىء الاسلوب ولكن فى دقة ينبعث منه احساس غامض يعلو الشأن والسلطة والنفوذ ولكن فى حصافة . فقد تغير كل شىء فيه حتى صوته . اذ أنه فى أثناء الرحلة كان يتحدث بصوت خفيض دافىء مخنوق النبرات . أما فى أثناء حديثه مع السيدة المحجبة فكان صوته يبدو واضحا باردا هادئا موقعا . وكان كعادته يرتدى حلة رمادية قاتمة تحيط بعنقه ياقة بيضاء مرتفعة أضفت على رأسه مظهر

الصلابة . ولكن حلته وياقته اللتين سبق أن رأيتهما أثناء الرحلة ولم أعلق عليهما أهمية خاصة بدتا لى فى تلك المناسبة زيا يتفق تماما مع الغرفة الضخمة بأثاثها الثقيل العارى من الزينة كما يتفق مع ذلك السكون والنظام اللذين يسودان المكان . وحدثت نفسى قائلة ان جيزيلا كانت على حق فلاريب أنه فى الحقيقة ذو شأن كبير . ولا سبيل الى تفسير أسلوبه المرتبك ازائى واحساسه بالنقص تجاهى الا أنه غارق فى حبى .

وقد شتتت ذهنى تلك الخواطر فهدأت فى نفسى مشاعر الاضطراب الاولى حتى أننى عندما فتح الباب بعد بضع دقائق وخرج منه الرجل المسن كنت أحس بالسيطرة التامة على نفسى . ولكن آستاريتا عندئذ لم يأت ليشير الى من مدخل الغرفة . بل دق أحد الاجراس ودخل خادم ليرى ماذا يبغى آستاريتا مغلقا الباب خلفه ثم عاد يبلغنى أنه يمكننى الدخول بعد أن سألنى عن أسمى فى صوت خفيض . فنهضت واتجهت نحو الغرفة فى غير اكتراث .

وكانت غرفة مكتب آستاريتا لا تقل حجما بكثير عن غرفة الانتظار . وقد خلت الا من أريكة ومتكأين جلديين فى احدى الزوايا ومنضدة كبيرة يجلس اليها آستاريتا فى زاوية أخرى . وثمة نافذتان أسدلت عليهما ستائر بيضاء كانتا تدخلان ضوءا باردا خاليا من أشعة الشمس ولشد ما كان ذلك الضوء ساكنا حزينا حتى أنه ذكرنى بصوت آستاريتا أثناء حديثه مع السيدة المحجبة . وقد اكتست أرضية الغرفة بسجادتين كبيرتين ناعمتين وعلقت على الجدران صورتان أو ثلاث . ويمكننى أن أتذكر احداهما وكانت تمثل حقولا خضراء ممتدة تحدها عند الافق سلسلة من الجبال الصخرية .

كان آستاريتا كما قلت جالسا خلف منضدة كبيرة . ولم يرفع بصره عن الاوراق التى كان يقرؤها أو يتظاهر بقراءتها عندما دخلت . أقول « يتظاهر » لاننى تأكدت أن ذلك كله لم يكن سوى مظهر قصد به تخويفى حتى تمتلىء نفسى احساسا بسلطته وأهميته . وفى الواقع فانى ما ان اقتربت من المنضدة حتى رأيت أن الورقة التى كان يدرسها بكل ذلك الاهتمام لم تكن تحتوى الا على ثلاثة أو أربعة أسطر ممهورة بتوقيع قبيح . وفضلا عن ذلك فان يده التى كان يتكىء بجبهته عليها وقد أمسك بدخينته بين اصبعين منها كشفت عن اضطرابه فقد كانت ترتعش على صورة ملحوظة مما تسبب عنه سقوط بعض الرماد على الورقة التى كان يفحصها بتركيز شديد واهتمام متكلف .

وضعت يدى على حافة المنضدة وقلت ــ « ها أنذى » .
عندئذ بدا وكأنه قد تلقى الاشارة اذ توقف عن القراءة ووثب على قدميه ثم أقبل يحيينى ممسكا بكلتا يدىَّ . وقد تم كل ذلك فى صمت تام مما كان يتنافى على صورة غريبة مع ذلك الموقف المتسلط غير المكترث الذى كان يحاول أن يحتفظ به . وفى الواقع فانى لم البث أن أدركت أن صوتى وحده كان خليقا بأن ينسيه الدور الذى أعد نفسه للقيام به . ثم غشيه بعد ذلك اضطرابه المعهود على صورة لا سبيل الى مقاومتها . فقبل يدى احداهما بعد الاخرى وهو يحملق فى مديرا حدقتيه الحزينتين وقد أمضهما الحنين الى الحب . وما ان هم بالكلام حتى ارتعشت شفتاه فلزم الصمت راغما .

وأخيرا قال بذلك الصوت الخفيض المخنوق الذى تعرفت عليه ــ « لقد جئت » .

ولعلنى الآن عن طـريق التناقض مع موقف آستاريتا أحسست بنفسى وقد امتلأت ثقة . فقلت ــ « نعم جئت . وما كان ينبغى أن أفعل فى الحقيقة ــ ماالذى تريد أن تقوله لى ؟ »

فتمتم قائلا ــ « تعالى واجلسى هنا . » ولكنه لم يترك يدى قط بل قادنى الى الاريكة وهو لا يزال يضغط عليها بقوة . فجلست واذا به فى الحال يجثو أمامى واضعا ذراعيه حول ساقى وضاغطا بجبهته على ركبتى . فعل ذلك كله دون أن ينبس ببنت شفة وهو يرتجف من أعلى رأسه الى أخمص قدميه . ولشد ما ضغط بجبهته فى قوة على ركبتى حتى آلمنى . وبعد أن مكث فترة طويلة على هذه الحال رفع رأسه الاصلع الى أعلى وكأنه يريد أن يوسـده حجـرى . فهممت بالنهوض قائلة :

ــ « كان لديك نبأ هام تريد أن تبلغنى اياه ــ فاما أن تخبرنى به واما أن أمضى لشأنى » .

فنهض واقفا فى صعوبة ثم جلس بجانبى ممسكا بيدى .

وتمتم قائلا ــ « لا شىء . ولكننى أردت أن أراك مرة أخرى . » فهممت بالنهوض من جديد ولـــكنه أمســـك بى ثم أردف قائلا ــ « نعم . ولكننى أردت أن أقول لك أيضا أننا يجب أن نصـــل الى تفاهم » .

ــ « فى اية صورة ؟ » .

فأسرع قائلا ــ « انى أحبك ــ بل متيم بك ــ فتعالى لتقيمى معى فى منزلى حيث يمكنك أن تكون ربة الدار وكأنك زوجتى ــ وسأشترى

لك الملابس والمجوهرات وكل ما تشتهين – »
بدا كالمعتوه . وكانت الكلمات تتدفق مختلطة من فمه بينما التوت شفتاه وهما لا تكادان تتحركان . فسألته قائلة في فتور – « أمن أجل هذا استدعيتني الى هنا ؟ » .
– « الا تبغين ذلك ؟ » .
– « بل ارفض مناقشته » .
ومن الغريب انه لم ينبس بكلمة بعد هذه الاجابة . بل رفع يده . وهو يوشك بنظرته الشاخصة المخبولة أن يفرض على نوما منغاطيسيا ثم راح يربت على وجهي وكأنه يريد أن يتذكر قسماته . وكانت أصابعه خفيفة حتى أمكنني أن احس بها وهي ترتعش بينما ظلت أنامله تتزسم وجهي رائحة غادية بين جبهتي ووجنتي . كانت حركة رجل عاشق . ولشد ما يقوى الحب على الاستمالة – حتى ولو افتقد التبادل – الى حد أنني كدت أتأثر لحظة بالعطف فأخفف من لهجتي الجافة الحاسمة . ولكنه لم يتح لي الفرصة لانه ما كاد ينتهي من تحسس وجهي حتى نهض واقفا وتكلم بنبرات دقيقة متعثرة فجاء كلامه خليطا غريبا من الرغبة المكبوتة والاحساس بالواجب ذلك الاحساس الذي كان جديدا مجهولا .
قال – « انتظري لحظة . فلدي حقا أمر هام أريد أن أطلعك عليه » وفي أثناء ذلك عاد الى المنضدة حيث التقط ملفا أحمر اللون .
فعراني الاضطراب بدوري عندما رأيته قادما نحوي وفي يده ذلك الملف الاحمر . وسألته قائلة في ضعف – « وما هو ؟ » .
– « انه – انه » وكان غريبا ذلك الامتزاج الذي حدث بين نبرة صوته الرسمية التي تنبيء بالسلطة والنفوذ وبين انفعاله العاطفي – « انها بعض المعلومات عن خطيبك » .
فقلت وأنا أغمض عيني لحظة من شدة الخوف – « آه ! » ولكن آستاريتا لم يلحظ ذلك بل ظل يقلب الصفحات التي كانت تتقلص بين يديه من شدة الاضطراب .
قال – « أليس هو جينو موليناري ؟ »
– « نعم » .
– « انك تعتزمين الزواج به في اكتوبر . أليس كذلك ؟ »
– « نعم » .
ثم أردف قائلا – « ولكن يبدو أن جينو موليناري متزوج بالفعل وتحريا للدقة فانه متزوج بأنتونيتا بارتيني ابنة المرحوم اميليو وحرمه

ديوميرا لافانيا ... وأنهما منذ أربعة أعوام ... أنجبا طفلة تدعى ماريا . وزوجته في الوقت الحاضر تقيم مع أمها في أورفيتو . »

فلم أنبس بكلمة . بل نهضت من فوق الاريكه واتجهت صـوب الباب . وظل آستاريتا واقفا فى وسط الغرفة والاوراق فى يده . ففتحت الباب وخرجت .

ويمكننى أن أتذكر أننى عندما وجدت نفسى فى الطـــريق وسط الزحام في يـــوم جميل كثير السحب من أيام ذلك الشتاء اللطيف خالجنى يقين مرير أن حياتى كانت أشبه بالنهر الذى تحول صناعيا عن مجـراه الطبيعى حينا من الزمان ثم عاد يتدفق من جـديد فى اتجاهه المعهود دون تغيير أو تجديد بعد انقطاع تسببت فيه آمالى واستعداداتى للزواج . ولعل ذلك الاحساس كان راجعا الى أننى وأنا فىحيرتى وذهولى أخذت أنظر حولى بانتباه مجرد من بهجته الاولى وقد بدت لى زحمة الناس والمحال والشوارع لاول مرة منذ عدة شهور فى ضوء طبيعى لا رحمة فيه اذ أنها لم تكن جميلة ولا قبيحة كما لم تكن مسلية ولا مملة بل تماما كما هى وكما لابد أن تبدو لعينى المخمور عندما يفيق من سكرته . ولكننى أرجح أن ذلك الاحساس كان مستمدا من ادراكى أن الاشياء الطبيعية فى الحياة لم تكن خططى للسعادة كما كنت أتصور بل نقيض ذلك تماما ــ اعنى أن جميــع تلك الاشياء المعادية لكل تخطيط وبرامج ما هى الا أسباب عارضه مخطئة وغير متوقعة للخيبة والاسى . فلو صح هذا كما خيل لى انه يجب أن يكون كذلك فلا شك أننى قد بدأت أحيا من جديد فى ذلك الصباح بعد نشوة استمرت عدة شهور .

كان ذلك هو الخاطر الوحيد الذى بعث فى ذهنى على أثر اكتشافى خداع جينو مولينارى . فلم يدر بخلدى أن ألومه ولم يخالجنى نحوه حقا أى احساس بالتأذى . فعندما انحرفت عن الطريق السوى كان ذلك بمشاركتى اياه . فقد كانت ذكرى اللذة التى وجدتها بين ذراعيه أقرب الى مخيلتى من أن أتقـاعس عن التماس المعـاذير ان لم يكن التبرير لكذبه وخداعه . وخيل لى أنه لم يكن خبيثا بقدر ما كان ضعيفا استبدت به رغبته وأن الخطأ ــ ان كان هناك خطأ ــ مرجعه جمالى الذى كان يفقد الرجال صوابهم وينسيهم التزاماتهم وكل وازع من ضمائرهم . وفى النهاية فان جينو لم يكن يستحق اللوم اكثر من آستاريتا ولا فارق بينهما سوى أن جينو استخدم الغش والخداع فى حين أن آستاريتا لجأ الى الابتزاز . ولشد ما أغرم كلاهما بى وما

من شك في أنهما لو استطاعا لآثرا يقينا أن يستحوذا على بالطريقه المشروعة وليحققا لى تلك السعادة المتواضعة التى تعلق بها قلبى .
ولكن القدر على العكس من ذلك قادنى بكل ما اوتيت من جمال الى لقاء أولئك الذين لا يمكنهم أن يحققوا لى تلك السعادة . ولسوء الحظ فانه حتى اذا لم يكن ثمة من يستحق اللوم فلا مجال للشك في أن هناك ضحية ــ تلك هى أنا .

لعل هذه الطريقة في التفكير والجدل تبدو ضعيفة فى نظر البعض على أثر خيانة كخيانة جينو . ولكننى كنت كلما لحقنى أذى ما ــ وكثيرا ما حدث لى ذلك بسبب فقرى وبراءتى ووحدتى ــ لا أفتأ أحاول التماس المعاذير لمن أساء الى ونسيان ما لحقنى من أذى في أقرب وقت ممكن . واذا ما أحدث ذلك الاذى تغيرا فى نفسى على الاطلاق فانى لا اكشف عنه فى سلوكى أو فى مظهرى الخارجى بل أطويه في أعماق روحى التى تلتئم وتنقبض على ذاتها كالبدن السليم الذى يحاول فى أقرب وقت أن يلأم جراحه . ولكن الندوب تظل باقية وهذه الجراح شبه اللاواعية التى تصيب الروح لا تندمل أبدا .

وهذا هو ما حدث مع جينو . فانى لم أحمل له ضغينة فى نفسى لحظة واحدة ولكننى أحسست فى أعماق نفسى بتقوض أشياء كثيره الى الابد ــ احترامى له وآمالى فى تكوين أسرة ورفضى الاعتراف بصدق نظرة امى وجيزيلا وايمانى الدينى أو على الاقل ذلك الاعتقاد الذى كنت اتمسك به حتى ذلك الوقت . وشبهت نفسى بدمية كنت املكها وانا طفلة صغيرة ــ فبعد أن ظللت أضربها وأجرها هنا وهناك طوال النهار أحسست بورم فى داخلها وصرير مشئوم رغم أنها كانت لا تزال كعهدها دائما مبتسمة متوردة الوجه . فنزعت رأسها وتساقطت من فتحة عنقها قطع صغيرة من الخزف والخيط واللوالب وجميع الادوات التى تجعلها تنطق وتحرك عينيها هنا وهناك كما تساقطت قطع غريبة من الخشب والقماش التى ظلت وظيفتها سرا مستغلقا على ادراكى .

عدت الى المنزل وأنا مشدوهة ذاهلة ولكننى هادئة . وفى ذلك المساء قمت بعملى كالمعتاد دون أن اطلع امى على ما حدث أو ما وصلت اليه من نتائج . ولكننى ادركت انه لا يمكننى التظاهر الى حد القيام بحياكة ملابس الجهاز كما كنت افعل فى الايام الاخرى . بل التقطت الثياب التى انجزت حياكتها فعلا وتلك التى كان على أن أحيكها وأودعتها جميعا خزانة الملابس فى غرفتى . ولم يسع أمى الا أن تلاحظ

تعاستي [illegible] في [illegible] الوقت لانني كنت في معظم الاحيان مرحة خلية . ولكنني [illegible] انني متعبة وهكذا كنت في الواقع . وحوالى المساء بينما كانت أمي تعمل على الماكينة تركت عملي ودلفت الى غرفتي حيث تمددت على الفراش . وادركت أنني كنت أتأمل الاثاث الذي انتهيت من دفع ثمنه واصبح الآن ملكا لي بالفعل بفضل نقود آستاريتا ولكن لشد ما اختلفت نظرتي اليه عن ذي قبل فقد خلت من السرور والامل . لم اشعر بالتعاسة بل بالتعب وعدم المبالاة فحسب كما يشعر المرء على اثر جهد كبير بذله ولكنه لم يتمخض عن شيء . وعلى أية حال فقد احسست بالتعب الجسماني وبالالم في جميع أطرافي وباشتياق عميق الى الراحة . وبينما كنت أفكر بطريقة مضطربة فيما أفعله بالاثاث وكيف انه صار من المستحيل الآن استخدامه كما كنت آمل استغرقت في النوم على الفراش وأنا في كامل هندامي ونمت في هدوء لمدة اربع ساعات تقريبا نوما عميقا حزينا ثم استيقظت في ساعة متأخرة من الليل حيث ناديت أمي من خلال الظلام الذي كان يحتويني . فخفت الى في الحال واخبرتني أنها لم تشأ أن توقظني عندما رأتني مستغرقة في نوم هادىء راض للغاية . ثم اردفت قائلة وهي واقفة هناك تنظر الى — « لقد أعد العشاء منذ ساعة . ماذا تفعلين ؟ الا تأتين لتأكلي شيئا ؟ »

فأجبتها قائلة وأنا أغطي عيني المبهورتين بالضوء باحدى ذراعي — « لا أريد أن أنهض لم لا تحضرينه الى ؟ »

فغادرت الغرفة ثم ما لبثت أن عادت حاملة صينية عليها عشائي المعتاد . وما ان وضعت الصينية على حافة الفراش حتى نهضت متكئة على أحد مرفقي واخذت أتناول طعامي بلا شهية . ولكنني ما لبثت أن توقفت عن الاكل بعد اللقم القليلة الاولى ثم استلقيت الى الخلف على الوسائد مرة اخرى . فسألتني امي قائلة — « ماذا دهاك ؟ ألا تأكلين شيئا ؟ »

— « لست جوعى ! » .

— « ألست على ما يرام ؟ » .

— « بل في تمام الصحة . »

فدمدمت قائلة — « اذن فساحمل الصينية . » ورفعت الصينية من فوق الفراش وذهبت لتضعها على المائدة بالقرب من النافذة . ثم ما لبثت أن أردفت قائلة — « لا توقظيني غدا صباحا » .

— « لماذا ؟ » .

ـ « لانى قررت الا أعمل نموذجا بعد الآن ـ فلشد ما تكدحين ولا تكسبين سوى النذر اليسير » .

فسألتنى قائلة فى قلق ـ « ولماذا تفعلين ؟ » ثم بدأت تعول وتئن قائلة ـ « فليس فى امكانى ان أكفـلك ـ أنت لست طفـلة ومطالبك كثيرة . كما أني أحمل على عاتقي عبئا ثقيلا ـ فهناك جهاز العرس »

فقلت فى بطء واعياء دون أن أرفع ذراعى عن وجهى ـ « لاتضايقينى الآن • ولا تقلقى فسوف يكون هناك دائما ما يكفى من المال • »

وأعقب ذلك صمت طويل . وأخيرا سألتنى قائلة بلهجة قلقة ذليلة كخادمة تحاول أن تنال الصفح بعد توبيخها لتجاوزها حدود الالفة ـ « الا تبغين شيئا ؟ » .

ـ « نعم • أرجو أن تعاونينى على خلع ملابسى • فانى متعبة للغاية وما زال النعاس فى عينى . »

فاســـتجابت لرغبتى وجلست على الفراش لتخلع لى حــذائى وجواربى التى وضعتها بعناية على المقعد عند طرف الفراش • وبعد ذلك خلعت لى ثوبى وعاونتنى على ارتداء قميص النوم • ولم أفتح عينى طوال الوقت . بل ما كدت أرقد تحت الاغطية حتى انكمشت وأخفيت رأسى فى الملاءة . وعندما أطفأت أمى الضوء تمنت لى ليلة طيبة من مكانها عند مدخل الغرفة ولكننى لم أحر جوابا بل عدت الى النوم فى الحال ونمت الليل بطوله وردحا من الصباح .

وفى الصباح التالى كان ينبغى أن أذهب فى موعدى المعتاد للقاء جينو ولكننى عندما استيقظت أدركت أننى لاأبغى رؤيته الا بعد أن يزول الالم فأتمكن من التفكير فى خيانته عن بعد وبطريقة موضوعية كما لو كانت لم تقع لى بل لشخص آخر • فعندئذ وذلك هو اعتقادى دائما كنت لا أثق بما يقال أو يتم من أعمال تحت تأثير العـــاطفة وخاصة اذا لم تكن عاطفة اعجاب أو حب كما هى الحال معى • فلا شك أننى لم أعد أحب جينو ولكننى لم أشأ أن أكرهه على وجه التحديد لانه خيل لى أننى بذلك لن أزيد على أن أحمل روحى عبء عاطفة مؤلمــة لست خليقة بها وذلك فضلا عما الحقه بى فعلا من أذى بخيانته اياى •

وعلى أية حال فلشد ما أحسست بالاعياء فى ذلك الصباح فقد عرانى كسل حسى ولكن شــعورى بالتعاســة قل عنه فى الليلة السابقة • فقد غادرت أمى المنزل فى ســاعة مبكرة للغــاية وكنت أعلم انها لن تعود قبل الظهر . فظللت راقدة فى الفراش وكانت تلك هى متعتى الاولى فى بداية مرحلة جديدة من حياتى التى قدر لها أن

تكون منذ ذلك الوقت فصاعدا حياة متعة فحسب . فمنذ يوم مولدي لم أفتأ أستيقظ كل يوم في الساعات الاولى من الصباح . ولهذا كان رقادي في الفراش بلا عمل ترفا حقيقيا في نظري . ولم أستسلم له قط . ولكنني قررت الآن أن أرقد في الفراش كلما شعرت بالرغبة في ذلك . وخطر لي أنني سأحذو هذا الحذو ازاء جميع الاشياء التي نبذتها حتى الان من جراء فقري وأحلامي حول حياة عائلية طبيعية . وتذكرت كم كنت استمتع بممارسة الحب واستمتع بالمال وما يمكن إن يجلبه المال فحدثت نفسي قائلة انني منذ ذلك الوقت فصاعدا لن أرفض الحب أو المال أو ما يمكن أن يجلبه المال اذا ما أتيحت لي الفرصة . ولا تتخيلوا أنني فكرت في تلك الامور تحت تأثير الغضب أو الاستياء أو روح الانتقام . بل كنت غاية في الهدوء وأنا مضطجعة في فراشي أداعب الفكرة وأستمتع بها مقدما . فان كل موقف مهما كان بغيضا له جانبه المعكوس . لقد فقدت الزواج مؤقتا وجميع المزايا المتواضعة التي كنت أتأملها ولكنني في مقابل ذلك قد استعدت حريتي . فلاشك أن أعمق آمالي ظلت كما هي دون تغيير ولكن الحياة الناعمة مع ذلك كانت تجذبني بقوة . كما كان بريق الامل يحجب عن عيني كل ما يكمن خلف قراري الجديد من حزن واستسلام . وبدأت مواعظ أمي وجيزيلا تؤتي ثمارها . فقد كنت أعلم طوال الوقت على الرغم من حياتي الفاضلة التي كنت أحياها أن جمالي خليق بأن يجلب لي كل ما تشتهيه النفس لو أنني فقط حزمت أمري . ووجدتني في ذلك الصباح أنظر الى جسدي لاول مرة كوسيلة مريحة للغاية لتحقيق تلك الاهداف التي لم أتمكن من الوصول اليها عن طريق أمانتي وعملي الشاق .

وكان من جراء أستغراقي في تلك الخواطر أو بالاحرى احلام اليقظة أن مضى الصباح كلمح البرق وانتابتني الدهشة عندما سمعت أجراس الكنيسة المجاورة تدق معلنة انتصاف النهار ورأيت شعاعا طويلا من الشمس المشرقة ينفذ من خلال النافذة ويرتسم عبر الفراش وبدت لي أجراس الكنيسة وشعاع الشمس المشرقة توأما شمسيا غير مألوف كالتي في ذلك الصباح . فلابد أن الموسرات من السيدات اللائي يسكن الفيلات مثل مخدومة جينو يرقدن في مضاجعهن في تلك اللحظة بالذات بينما تتراءى لهن الاحلام بنفس الطريقة ويسمعن طنين الاجراس ويرقبن شعاع الشمس المشرقة بعينين مدهوشتين . وعندما نهضت أخيرا من

النزاتن وخلعت قميص النوم أمام مرآة الصوان خالجني شعور بأنني لم اعد آدريانا فتاة الامس المشغولة المعوزة بل فتاة اخرى تختلف تمام الاختـــــلاف . ونظرت الى صورتي عارية في المرآة فأدركت لاول مرة مبعث الزهو في حديث امي عندما قالت للفنان ـ « انظر الى صدرها الى ساقيها ـ وفخذيها ـ » كما تذكرت آستاريتا الذي تغيرت شخصيته كلها حتى اسلوبه وصوته تجاه تأثير اشتهائه صدري وساقي وفخذي وحدثت نفسي قائلة انني سوف اعثر بلا شك على رجال آخرين يعطونني من المال قدر ما نفحني به آستاريتا او حتى اكثر مما نفحني به لو انهم تمكنوا من الاستمتاع بي .

وارتديت في كسل شخصيتي الجديدة ثم احتسيت بعض القهوة وغادرت المنزل . اتجهت الى حانة قريبة حيث اتصلت تليفونيا بالفيللا التي يعمل فيها جينو . فقد أعطاني رقم التليفون ورجاني في ذلة تميز بها الا استخدمه الا لماما لان مخدوميه يكرهون ان يســـــتعمل الخدم التليفون فخاطبت اول الامر امرأة كانت بلا ريب خادمة المائدة ثم ما لبث ان جاء جينو في الحال تقريبا . وسألني على الفور ان كنت مريضة فلم أتمالك نفسي من الابتسام . اذ تعرفت من خلال قلقه على كمال أسلوبه القديم الذي ربما لم يكن كله مصطنعا . ولشد ما أسهم في خداعي . فأجبته قائلة ـ « انني في تمام الصحة . بل انه صحتي لم تكن قط خيرا منها اليوم » .

ـ « ومتى أراك ؟ »

فقلت ـ « وقتما تشاء . ولكنني أحب أن اراك كما فعلت في أول مرة ـ في الفيللا عندما يرحل عنها مخدوموك » .

فادرك ما كنت اعنيه في الحال . واجابني قائلا في حماس ـ « انهم راحلون بعد حوالي عشرة أيام لقضاء عيد الميلاد ولكن ليس قبل ذلك » .

فأجبته قائلة في عدم اكتراث ـ « حسـنا . اذن فليكن لقاؤنا بعد عشرة أيام » .

فسألني قائلا في دهشة ـ « لماذا ؟ »

ـ « لانني مشغولة » .

فسألني قائلا في ارتياب ـ « ماذا دهاك ؟ اغاضبة مني ؟ » .

فأجبت قائلة ـ « كلا . فلو كنت غاضـبة منك لما شئت ان اراك في الفيللا . أليس كذلك ؟ » وخطر لي أنه ربما أزعجني لو انتـابته الغيرة . فاضفت قائلة ـ « لا تخف ـ فاني احبك كما احببتك دائما .

ولكن على أن أعاون أمى فى انجاز بعض الاعمال الاضافية بسبب أيام العطلة — ولما كنت لا أستطيع مغادرة المنزل قبل ساعة متأخرة من الليل — حين لا تفرغ أنت مطلقا من عملك فأني أوثر الانتظار الى أن يرحل مخدوموك » .

— « ولكن ماذا عن الصباح ؟ »

فأجبت قائلة — « ساكون نائمة فى الصباح . وبهذه المناسبة — اتعلم اننى لن أعمل نموذجا بعد ذلك ؟ »

— « لماذا ؟ »

— « لقد سئمت هذا العمل — ألست مسرورا لذلك ؟ اذن فسأراك بعد عشرة أيام — هل اتصل بك نيفونيا ؟ »

— « حسنا . »

ولكنه فاه بكلمة « حسنا » دون كبير اقتناع — ولكن معرفتى الجيدة به أكدت لى انه على الرغم من وساوسه فلن يظهر قبل مضى عشرة أيام . بل الاحرى انه لن يظهر بسبب وساوسه . فان تفكيره فى احتمال اكتشاف خيانته كان خليقا بأن يملأه رعبا وفزعا . وما ان وضعت سماعة التليفون حتى أدركت اننى تحدثت الى جينو بصوت هادىء رقيق بل محب أيضا . فهنأت نفسي . كما أن مشاعرى نحوه لن تلبث شيئا فشيئا أن تصير رقيقة هادئة محبة فأستطيع مقابلته بلا خوف من ايجاد جو كاذب مزعج من الكراهية يغمره ويغمرنى ويغمر علاقتنا .

الفصل السابع

وفى مساء ذلك اليوم نفسه بادرت بالذهاب لمقابلة جيزيلا فى غرفتها المؤثثة . وكانت كمألوف عادتها فى تلك الساعة قد نهضت لتوها من الفراش وأخذت ترتدى ملابسها لموافاة ريكاردو فى موعده . فجلست على الفراش الاشعث . وبينما كانت تتجول هنا وهناك فى الغرفة المعتمة غير المنظمة التى امتلأت بالملابس والادوات التافهة رحت أقص عليها بلهجة واقعية للغاية كيف ذهبت لزيارة آستاريتا وكيف أخبرنى أن جينو له زوجة وطفلة . وما أن سمعت جيزيلا ذلك النبأ حتى أطلقت صيحة عالية ولا أدرى أكانت صيحة فرح أم دهشة ثم جاءت لتجلس على الفراش فى مواجهتى واضعة يديها على كتفى ومحملقة فى عينى قائلة :

ـ « لا . لا .. لايمكننى أن اصدق هذا .. زوجة وطفلة ! أحقا تقولين ؟ »

ـ « والطفلة تدعى ماريا . »

من الواضح انها أرادت أن تعرف القصة بحذافيرها وأن تناقشها تفصيليا بقدر الامكان وقد خاب رجاؤها لهدوء موقفى .

ـ « زوجة وطفلة .. والطفلة تدعى ماريا .. أيمكنك أن تتحدثى عن هذا الموضوع بهذه الطريقة ؟ »

ـ « وكيف ينبغى أن أتحدث عنه ؟ »

ـ « ألست غاضبة ؟ »

ـ « بالطبع . »

ـ « ولكنه كيف أدلى اليك بالخبر ؟ أقال لك ان جينو مولينارى له زوجة وطفلة هكذا ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « وماذا قلت ؟ »

ـ « لاشىء . فماذا يمكننى أن أقول ؟ »

ـ « ولكن كيف كان شعورك ؟ ألم تنفجرى باكية ؟ فهذه كارثة بالنسبة لك قبل كل شىء . »

ـ « كلا . لم يخطر لى أن أبكى . »

فهتفت قائلة فى مرح بعد لحظة من التفكير ــ « حسنا . لايمكنك الآن أن تتزوجى جينو . ومع ذلك فيالها من قصة ! ان هذا الرجل معدوم الضمير ــ فتاة مسكينة مثلك كانت تحيا من أجله وحده ان صحت هذه العبارة . ان الرجال جميعا أوغاد . »

فقلت ــ « ولكن جينو لم يعرف بعد أننى أعلم كل شىء . »

فقالت بحماس ــ « لو كنت فى مكانك يا عزيزتى لصارحته برأيى فيه .. ولما تخلص من براثنى دون لوم أو تقريع . »

فأجبتها قائلة ــ « انى على موعد معه بعد عشرة أيام ، وأعتقد أننا سنواصل المضاجعة . » فانسحبت الى الخلف وهى تحملق فى مباشرة قائلة ــ « ياالله ! .. اما زلت تحبينه .. بعد مافعل ؟ »

فأجبت قائلة دون أن أتمالك نفسى من خفض صوتى ــ « كلا . فانى لم أعد أحبه بنفس القدر ولكن ــ » وهنـــــا ترددت ثم تعمدت الكذب قائلة ــ « ان اثارة شجار وتوجيه اللوم ليســـا دائما خـير طريقة للانتقام . »

فتأملتنى لحظة بعينين مغمضتين حتى نصفهما وقد انسحبت الى الخلف كما يفعل الرسامون عندما يتفحصون صورهم .

ثم صاحت قائلة ــ « انك محقة تماما .. ولكنى لم أفكر فى ذلك . أتعلمين ماذا أفعل لو كنت فى مكانك ؟ أتركه يقع فى شره وهو هادىء وواثق من نفسه تماما ــ وذات يوم غير بعيد أتخلى عنه . »

فلم أحر جوابا . ثم مالبثت ان أردفت قائلة بصوت أقل انفعالا ولكنه ليس أقل حيوية أو قدرة على التعبير ــ « ومع ذلك فانى لاأكاد أصدق هذه القصة .. زوجة وطفلة .. وكان معك غاية فى التزمت والتدقيق . ثم جعلك تشترين كل هذا الاثاث والجهاز . ياله من عمل دنىء ! دنىء ! »

فلزمت الصمت . وصاحت قائلة فى انتصار ــ « ولكننى كنت أعلم ذلك طوال الوقت ! فقد عرفت حقيقته . ويجب ان تعترفى بذلك . فماذا قلت لك ؟ انه لا يعنى ما يقول . مسكينة يا آدريانا ! » ثم ألقت بذراعيها حول عنقى وقبلتنى . فتركتها تفعل .

ثم قلت .

ــ « نعم . ولكن أسوأ مافى الامر هو انه استنفد نقود أمى . »

ــ « وهل أمك تعلم ؟ »

ــ « لم تعلم بعد . »

فصاحت قائلة ــ « لا تقلقى بشأن النقود . فان آســتاريتا متيم

بك ــ وما عليك الا ان تحزمى أمرك ولسوف يعطيك كل ماتطلبين . »

فأجبتها قائلة ــ « لا أبغى أن أرى آستاريتا مرة اخرى . أقابل أى رجل عدا آستاريتا . »

ولا يفوتنى أن أقول ان جيزيلا لم تكن حمقاء . فقد ادركت فى الحال انه يحسن بها مؤقتا الا تذكر آستاريتا . كما فهمت ما أعنيه بعبارة « أى رجل عدا آستاريتا . » وتظاهرت لحظة بالتفكير .

ثم أردفت تقول ــ « انك على حق . فانى أفهم ماذا تعنين . فانا نفسى أشعر بالتفاهة الى حد ما لو أننى خادمت آستاريتا بعد كل ماحدث ــ فهو يريد أن ينال مآربه بأى ثمن ــ كما انه كاشفك بحقيقة جينو بغية الانتقام . » ثم عادت الى الصمت وبعد ذلك اردفت قائلة بلهجة حازمة :

ــ « دعى الامر لى . اتبغين مقابلة شخص على استعداد لمعاونتك ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « دعى الامر لى . »

فأضفت قائلة ــ « ولكننى لا أبغى الارتباط بأحد . بل أوثر الحرية .

فرددت قائلة لثالث مرة ــ « دعى الامر لى . »

فأردفت قائلة ــ « فانى اريد الآن ان اعود لامى نقودها وابتاع بعض حوائجى . » ثم أضفت قائلة ــ « ولا اريد أن تضطر أمى الى العمل بعد ذلك . »

وفى أثناء ذلك كانت جيزيلا قد نهضت من مكانها وجلست الى خوان الزينة /.

قالت وهى تضع بعض مسحوق الزينة على وجهها فى لمسات سريعة ــ « لقد كنت دائما أطيب نفسا مما ينبغى يا عزيزتى . والآن أترين ماذا يحدث لمن هم اطيب مما ينبغى . »

فقلت ــ « اتعلمين اننى لم اذهب [illegible] لمدام الرسامين ؟ لقد قررت الا اعمل نموذجا بعد ذلك . »

فاجابتنى قائلة ــ « انك محقة تماما . فانا نفسى لا اقف سوى ــ » ثم ذكرت اسم فنان معين واردفت تقول ــ « وذلك لاؤدى له صنيعا فحسب . ولكننى سأعتزل العمل حالما ينتهى من رسمه . »

ولشد ما أحسست حينئذ بالحب نحو جيزيلا وبالعرفان التام . فكان وقع عبارتها « دعى الامر لى » مطمئنا كوعد قلبى من أم بالتفرغ لاحتياجاتى فى أقرب وقت ممكن . ولكنى ادركت بالطبع أن جيزيلا لم

تكن مدفوعة الى مساعدتى بأية عاطفة نحوى بل الاحرى انها كانت مدفوعة برغبتها شبه اللاواعية فى ان تراني [illegible] حالتها فى أقرب وقت ممكن كما سبق ان حدث فى موضوع استاريتا . ولكن ليس ثمة من يفعل شيئا بلا مقابل . ولما كان حسد جيزيلا فى تلك الحالة قد صادف هوى فى نفسى فانى لم اجد مبررا لرفض مساعدتها لمجرد علمي أنها انما تبذلها بدوافع مغرضة .

كانت فى عجلة شديدة من امرها لانها كانت قد تأخرت فعلا من موعدها مع خطيبها . فغادرنا الغرفة واخذنا نهبط الدرج الضيق فى المنزل القديم وقد كاد يكون عموديا .

قالت ونحن نهبط الدرج مدفوعة الى ذلك بحالتها [illegible] وربما برغبتها فى التخفيف من مرارة الخيبة التى كنت [illegible] انني لم اكن وحدي عاثرة الحظ :

— « أتعلمين انني بدات اشك فى ان ريكاردو يريد ان [illegible] بنفس الطريقة التى خدعك بها جينو ؟ »

فسألتها فى برادة قائلة — « اهو متزوج ايضا ؟ »

— « كلا . ولكنه ينسج لى قصصا خيالية كثيرة — اظنه يريد ان يسخر مني . ولكنني قلت له بصراحة : « أنصت الى يابنى العزيز . انا لست فى حاجة اليك . فان شئت بقيت معى والا فلتغرب عنى ! »

فلم انبس بكلمة . ولكننى كنت اعلم يقينا ان هنالك فارقا كبيرا بيني وبينها وبين علاقتي بجينو وعلاقتها بريكاردو . فلم تكن لديها قط فى قرارة قلبها اية أوهام حول نوايا ريكاردو . وكما كنت اعلم جيدا فانها لم تتوقف قط لتفكر فى خداعه . اما انا [illegible] ذلك قد علقت كل آمال قلبى الغرير على ان اصير زوجة [illegible] دائما مخلصة له [illegible] المنة التى ارغمتني استاريتا على [illegible] اياى فى فيتربو لا يمكن ان تسمى خيانة فى الحقيقة [illegible] انها ربما [illegible] لو صارحتها بذلك [illegible] الصمت [illegible] الباب الخارجى [illegible] معى على [illegible] مساء اليوم [illegible] المحل العلوى [illegible] اياى من التأخر من الموعد لانها [illegible] صحبة شخص آخر . ثم انصرفت مهرولة .

ادركت [illegible] ان [illegible] ولكنني لم [illegible] ذلك . فقد كانت أمى تحبنى حقا . ولما كانت على النقيض من جيزيلا التى لم تر فى خيانة جينو سوى انتصار لآرائها ولم تحاول حتى ان تخفى عنى فرحتها القاسية فانها لن تفرح لادراكها مدى صحة رايها

فى النهاية بقدر أساها لما وقع لى . فقد كانت فى قرارة قلبها لا ترغب الا فى سعادتى دون أن تعبأ كيف أحققها . ولكنها كانت واثقة أن جينو لن يستطيع أن يهيئها لى . فقررت بعد كثير تردد الا أخبرها بشىء . فقد كنت أعلم أن فعالى لا ألفاظى فى مساء اليوم التالى خليقة بأن تفتح لها عينيها . ومع أننى أدركت أنها طريقة وحشية لاظهارها على التغير الكبير الذى طرأ على حياتى فقد سرنى أننى بذلك سوف أتجنب كثيرا من التفسير والتفكير والتعليق أو على الاقل ذلك التفسير والتفكير والتعليق الذى تدفق من فم جيزيلا فى سخاء شديد عندما رويت لها قصة خداع جينو . ولا أكتمكم أننى أحسست عندئذ بنوع من النفور نحو موضوع الزواج بأسره ولم أشأ أن أتحدث عنه الا فى أضيق الحدود كما وددت لو يتجنبه الآخرون .

وفى اليوم التالى ادعيت أننى على موعد مع جينو فقضيت المساء كله فى خارج الدار حتى لا أتعرض طوال الوقت لمضايقة أمى التى كانت قد ساورتها الشكوك بالفعل . وكان لدى ثوب جديد معد للزفاف وهو زى رمادى كنت أنوى ارتداءه على أثر الاحتفال مباشرة . وكان أجمل ثيابى جميعا فترددت طويلا قبل ارتدائه . ولكننى تذكرت عندئذ أننى سأضطر الى ارتدائه فى يوم من الايام ولن يكون ذلك اليوم أطهر ولا أسعد من يومى هذا . كما أن الرجال من الناحية الاخرى يحكمون بالمظاهر . وانه لما يبرز جمالى أن أظهر امام الناس فى أبهى حللى حتى أحصل على مزيد من النقود . فحزمت أمرى . وهكذا ارتديت أجمل ثيابى دون أن تخلو نفسى تماما من بعض الشكوك – ذلك الثوب الذى يبدو لى اليوم كلما تذكرته غاية فى البساطة وخلوا من كل جمال شأن جميع ملابسى حينذاك . وعنيت بتصفيف شعرى كما وضعت على وجهى شيئا من المساحيق لا يزيد عما أضعه عادة . ولا يفوتنى أن أقول بهذه المناسبة اننى لم افهم قط لماذا يفرط كثير من النسوة ممن يحترفن مهنتى فى طلاء وجوههن بالمساحيق على صورة كثيفة للغاية ثم يجبن الشوارع فيبدن وكأنهن يرتدين أقنعة الكرنفال . ولعل السبب فى ذلك أنهن يخشين أن لم يفعلن أن يبدو عليهن الشحوب الشديد نظرا لنوع الحياة التى يحيينها . أو لعلهن يخشين ان لم يطلين وجوههن بهذه الطريقة البدائية الا يجذبن انتباه الرجال والا يستطعن اظهار مدى استعدادهن للتفاهم . أما أنا فلا أفقد مطلقا مظهرى الصحى ولون بشرتى البرونزى مهما كنت متعبة ومهما أفرطت فى المضاجعة ويمكننى أن أقول دون خجل ان جمال وجهى دائما كان

خليقا بأن يدير رءوس الرجال ليحملقوا فى كلما مررت فى الطريق دون حاجة الى الافراط فى الزينة . فأنا لا أجذب الرجال باستخدام أحمر الشفاه أو أقلام الكحل أو بتغيير لون شعرى بمحلول الاوكسيجين بل بجـــلال مظهرى او على الاقل ذلك هو ما قاله لى الكثيرون منهم ــ وبما يمتاز به تعبير وجهى من صفاء عذب وبثغرى النضيد الرائع عندما اضحك وبكتلة شعرى الفتى الاسود المموج . ولعل النساء اللائى يصبغن شعورهن ويطلين وجوههن لا يدركن أن الرجال يشـــعرون نحوهن بنوع من الخيبة مقدما لادراكهم حقيقتهن منذ البداية . أما أنا فلأنى فى مسلكى طبيعية متحفظة للغاية كنت لا أفتأ أتركهم فى شك من حقيقة شخصيتى وبهذه الطريقة لا أفتأ أوهمهم بالدخول فى مغامرة وهذا هو ما يبغونه قبل كل شىء أكثر من مجرد ارضاء حواسهم .

وعندما ارتديت ملابسى ووضعت زينتى ذهبت الى الســـينما حيث شاهدت الفيلم مرتين . وما ان خيم الليل حتى غادرت الســـينما واتجهت مباشرة الى محل الحلوى حيث ضربت لى جيزيلا موعدا للقاء . ولم يكن ذلك المحل من الاماكن الرخيصة المألوفة حيث تعودنا أن نلتقى بريكاردو فى مناسبات أخرى . بل كان محلا أنيقا لم أقصده قط من قبل . وأدركت أن اختيار ذلك المكان كان راجعا أولا وأخيرا الى رغبة جيزيلا فى توفير الخلفية الجديرة بى وفى رفع ثمن حظوتى . حقا ان مثل هذا الاهتمام بالتفاصيل وأمور أخرى سأذكرها فيما بعد يمكن أن يوفر لامرأة من صنفى اذا كانت تتمتع بالصبا والجمـــال وتعرف كيف تستغل هذه الهبات بذكاء عملا ثابتا مريحا وهو مانصبو اليه جميعا من قلوبنا . ولكن ذلك لا تفعله سوى القليلات ولم أكن قط واحدة منهن . فان نشأتى المتواضعة كانت تجعلنى دائما أنظر بارتياب الى الاماكن الفاخرة . فكنت لا أفتأ أحس بالضيق فى المطاعم ومحال الشاى والمقاهى الراقية حيث أخجل من أن ابتسم للـــرجال أو أرميهم بنظرات الغرام بل أحس وكأنى أسام العذاب وسط كل تلك الاضواء المتلألئة . وكنت لا أبرح أحس بجاذبية عميقة دافئـــة نحو شوارع المدينة بقصورها وكنائسها وآثارها ومحالها ومداخـــل دورها التى تجعلها أكثر جمالا وجاذبية من أية غرفة فى مطعم أو محل للشاى . وكان من عادتى الأثيرة الى نفسى دائما أن أخرج الى الطريق قرب الغروب حيث أراقب الشفق وهو ينشر الظلام فى السماء رويدا رويدا فوق سطوح المنازل . وكان يروقنى دائما أن أتجـول وسط الزحام وأن أنصت دون أن أتلفت حولى الى عبارات الغزل التى يخاطر

يلهمس بها عفو الخاطر أشخاص من المارة لا ينظر منهم ذلك مطلقا متطلعين اليه باستثارة حواسهم فجأة • وكان يستهوينى دائما أن أذرع الطريق نفسه مرارا برائحة غادية حتى يكاد في النهاية ينتابنى الاعياء الشديد ولكن قلبي يظل متحمسا متوجسا كما لو كنت فى معرض لا ينضب معينه من المفاجآت . فكان الطريق دائما هو مطعمى وغرفة استقبالى ومقهـــاى ويرجع ذلك الى اننى ولدت فقيرة والمعروف عن الفقراء أنهم يرفهون عن إنفسهم بأقل التكاليف وذلك بالحملقـــة فى واجهات المحال حيث لايمكنهم أن يبتاعوا شيئا وفى واجهات القصور حيث لا يمكنهم أن يقيموا •

ولنفس هذا السبب كنت دائما أحب الكنائس وما أكثرها فى روما وهو ترف فى متناول أيدى الجميع لانها لاتغلق أبوابها ابدا وتشيـــع فيها رائحة الفقر العطنة القديمة المتواضعة متغلبة فى معظم الاحيان على رائحة البخور بين الزينات النفيسة من الرخام والذهب . ولكن الاغنياء بالطبع لا يتجولون فى الشوارع ولا يترددون على الكنائس بل ان أقصى مايمكن أن يفعله الرجل الغنى هو أن يعبر المدينة فى سيارته وهو متكىء الى الخلف على الوسائد متصفحا الجريدة بين الحـــين والحين . وبايثاري الطريق على أى مكان آخر عزلت نفسى فى الحال من جميع أولئك الرجال الذين كان ينبغى على ــ طبقا لرأى جيزيلا ــ أن أسعى الى التعرف اليهم مضحية بميولى التى لشد ماكانت عميقة الجذور فى نفسى . ولكننى لم اشأ قط أن أقوم بتلك التضحية فكانت ميولى دائما موضوع نقاش حاد بينى وبين جيزيلا طوال مشاركتى اياها فى العمل . فكانت جيزيلا تكره الطريق ولا تعنى الكنائس شيئا فى نظرها . اما زحام الناس فكانت تترفع بنفسها بالاحتقار له ولاتشعر نحوه الا بالنفور . فلم تكن تستهدف سوى المطاعم الغالية حيث يرقب الخدم فى انتباه وقلق أقل اشارة تصدر من الرواد ، وكذلك المراقص العصرية حيث يرتدى افراد الفرقة الموسيقية زيا موحـــدا ويرتدى الراقصون ثياب السهرة كما كانت تقصد اكثر المقاهى ونوادى القمار اناقة وفخامة . وكانت فى مثل هذه الاماكن تتحول الى شخص آخر تماما فيتغير سلوكها وحركاتها بل حتى لهجة صوتها . فــكانت فى الواقع تكتشف السلوك [illegible] الذى كانت تهدف اليه وقد حققته الى حد ما كما سنرى فيما بعد . ولكن أغرب مظهر من مظاهر نجاحها فى النهاية آنها لم تلتق بالشخص الذى قدر له أن يحقق مطامحها فى أحد المحال الانيقة بل عن طريقى وفى احـــد

الشوارع التي تشد ما كانت تمقتها من أعماق قلبها .

وقد وجدت جيزيلا في محل الحلوى ومعها رجل متوسط العمر يعمل سمسارا متجولا فقدمته الى باسم جياكنتي . وكان عريض المنكبين الى حد ما مما جعله أثناء جلوسه . يبدو ذا قامة عادية ، ولكنه ما ان نهض واقفا حتى تبين لى أنه يكاد يكون قزما كما زاده عرض منكبيه قصرا على قصره . وكان شعره الابيض الكث الـذي يلمـع كالفضة مرفوعا الى أعلى بالفرشاة فوق جبهته ربما ليبدو أطول مما هو . وكان أحمر وجهه وبدت عليه الصحة وانتظمت قسمـاته واتسمت بالنبل كوجه التمثال . فكانت جبهته جميلة ملساء وعيناه نجلاوين سوداوين وأنفه مستقيما وفمه جميل التكوين . ولـكن ثمة تعبيرا بغيضا ينبىء بالخيلاء والغرور والاريحية الكاذبة جعل وجهه منفرا للغاية بعد أن كان يبدو لاول وهلة مهيبا جذابا .

أحسست بالحياء الى حد ما فما ان انتهى التعارف حتى جلست دون أن أنبس بكلمة . وواصل جياكنتي حديثه الذى كان يدلى به الى جيزيلا وكأن وصولى لم يكن سوى حدث تافه على حين انه لم يكن فى الحقيقة ثمة غرض من السهرة سواه . قال وهو يضع يده على ركبة جيزيلا حيث أبقاها طوال حديثه ــ « لا يمكنك الشكوى منى ياجيزيلا . فكم طال ــ ولنقل تحالفنا ؟ ستة شهور ؟ حسنا . هل يسعك أن تقولى ــ ويدك على قلبك ــ اننى رفضت لك طلبا فى هذه الشهور الستة جميعا ؟ » كان حديثه واضحا بطيئا مشددا مؤكدا . ولكنه من الواضح انه كان يتكلم بهذه الطريقة لا ليجعل نفسه مفهوما بل لينصت الى صوته ويستمتع بكل كلمة ينطق بها .

فقالت جيزيلا بلهجة ملول خانية رأسها ــ « كلا . كلا . »

ثم أردف جياكنتي قائلا بصوته الواضح المؤكد ــ « دعى جيزيلا تخبرك يا آدريانا . فاننى لم امتنع فقط عن خفض ــ ولنقل مكاسبها المهنية ــ بل كنت لا افتأ أحمل اليها الهدايا كلما عدت من ميلان . أتذكرين زجاجة العطر الفرنسى التى احضرتها اليك ذات مرة ؟ ومرة أخرى عندما أعطيتك بعض الملابس الداخلية المصنوعة من الحرير والدانتلا ؟ ان النساء يروقهن اتهام الرجال بالجهل المطبق فيما يخص ثيابهن الداخلية . ولكننى استثناء من القاعدة ! » ثم ضحك فى رقة كاشفا عن أسنان جميلة رائعة ولكنها لشدة بياضها بدت زائفة .

وبعد قليل قالت له جيزيلا ــ « أعطنى سيجارة »

فأجابها قائلا فى مجاملة تهكمية ــ « على الفور ! » كما قدم الى

سيجارة وأخذ لنفسه واحدة أشعلها ثم أردف يقول ــ « أتذكرين حقيبة اليد التي أحضرتها اليك مرة أخرى ؟ حقيبة كبيرة من الجلد ــ كانت جديرة بأن تكتبي عنها لاسرتك ! ألم تعودي تستخدمينها ؟ »

فقالت جيزيلا ــ « انها حقيبة صباحية »

ثم أردف قائلا وهو يلتفت نحوي ــ « أنا لا أحب تقديم الهـدايا لاسباب عاطفية ــ أتفهمين ؟ » ثم هز رأسه وهو ينفث الدخان من منخريه قائلا ــ « بل لاسباب ثلاثة واضحه . اولها ــ أنني أحب ان يشكرني الناس . وثانيها ــ أنه لامثيل للهدية للحصول على حسن المعاملة . وفي الواقع فان كل من تصله هدية منك لايفتأ يأمـل في الحصول على أخرى . وثالثها ــ أن النساء يملن الى الوهم والهدية تبعث على الشعور بشيء من العاطفة حتى ولو كانت معدومة . »

فقالت جيزيلا في غير اكتراث دون ان تنظر اليه ــ « لا شك أنك رجل عميق . »

فهز رأسه كاشفا عن أسنانه جميعها في ابتسامة عذبة ــ « كلا . فأنا لست عميقا ــ بل أنا ببساطة رجل له بعض الخبرة بالحياة وقـد أمكنني أن أتعلم من خبرتي . فأنا أعلم أن ثمة أمورا لابد من اتباعها مع النساء وأخرى مع العملاء وأخرى مع الخدم وهكذا . فعقلي أشبه بدليل منظم للغاية . فاذا مارأيت امرأة مثلا عن بعد ! ــ اخـرج مذكرتي وأتصفحها حيث أجد أن مقاييس معينة أحدثت التـــأثير المطلوب وأن مقاييس أخرى لم تفعل ذلك ثم أعيد المذكرة الى مكانها وأتصرف تبعا لذلك ، هذا هو كل ما هنالك . »

كانت جيزيلا تدخن سيجارتها وقد بدا عليها الملل . أما أنا فلم أفه بشيء .

فواصل حديثه قائلا ــ « واني أجد أن النساء يشعرن نحـوي بالامتنان لانهن يدركن في الحال انني لن أخيب رجاءهن . فأنا أعلم ماذا يتوقعن كما أعرف نزواتهن ونواحي الضعف فيهن تماما كمـا أشعر أنا بالامتنان نحو العميل الذي يفهمني من نظرة واحدة ولايضيع وقتي في الثرثرة وهو يعلم مايريد وما أريد ــ ان لدي في ميلان منفضة للسجائر أضعها على مكتبي كتب عليها : بل ــ « بارك الله في أولئك الذين لا يضيعون الوقت . » ثم ألقى بالسيجارة ونظر الى سـاعته قائلا ــ « لقد حان الوقت للذهاب الى حيث نتناول الطعام . »

ــ « كم الساعة ؟ »

ــ « الثامنة . استأذنكما في الانصراف لحظة ــ وسأعود فورا . »

ثم نهض من مقعده وغادر الغرفة عند منتهاها . وفى الواقع فانه كان قصير القامة للغاية بمنكبيه العريضين وشعره الابيض الكث المنتصب فوق قمة رأسه . وسحقت جيزيلا سيجارتها فى المنفضة قائلة — « انه ممل للغاية ولا يتحدث الا عن نفسه . »

— « لقد لاحظت ذلك . »

فأردفت قائلة — « ما عليك الا أن تتركيه يتحدث وتظلى تقولين له « نعم » طوال الوقت . فسوف ترين أنه لن يبرح يقول لك أشياء لا حصر لها — فلا يعلم الأالله ماذا يحسب نفسه — ولكنه يبذل المال بسخاء ويقدم الهدايا فعلا . »

— « نعم . ولكنه لا يفتأ يذكرك »

فلم تحر جوابا بل هزت رأسها كمن يريد أن يقول — « ماذا يسعك أن تفعلى فى ذلك ؟ » ثم صمتنا لحظة الى أن عاد جياكنتى ودفع الحساب ثم غادرنا محل الحلوى .

وعندما خرجنا الى الطريق قال جياكنتى — « هذه الليلة ياجيزيلا من نصيب آدريانا — ولكن أترغبين فى تناول العشاء معنا ؟ »

فأسرعت جيزيلا بالاجابة قائلة — « لا . لا . شكرا . فانى على موعد . » ثم ودعت جياكنتى وانصرفت .

وما ان ذهبت حتى قلت لجياكنتى — « يالها من فتاة رقيقة ! »

فأتى حركة بوجهه قائلا — « لا بأس بها . فهى رشيقة القد . »

— « ألا تحبها ؟ »

فقال وهو يسير بجانبى قابضا بقوة على عضدى اسفل الابط تقريبا — « أنا لا أطالب أحدا أن يكون ذا شخصية محبوبة — بل أن يحسن اداء عمله ايا كان — فأنا لا أطالب ناسخة مثلا أن تكون محبوبة بل قادرة على سرعة النسخ بلا أخطاء — ولا أطالب فتاة كجيزيلا أن تكون محببة بل أن تعرف كيف تؤدى عملها أى أن تمتعنى بوقت طيب طوال الساعة أو الساعتين اللتين أقضيهما معها . وجيزيلا لا تعرف كيف تؤدى عملها . »

— « لماذا ؟ »

— « لانها لاتفتأ تفكر فى النقود — فهى تخشى دائما الا تأخذ أجرها أو أن يبخس حقها — أنا لا أتوقع منها أن تحبنى ولكن مهنتها تفرض عليها أن تتصرف كما لو كانت تحبنى حقا وان توهمنى بذلك — هذا هو المقابل الذى أدفع ثمنه — ولكن جيزيلا تظهر فى وضوح شديد أنها انما تفعل ذلك لمصلحتها الخاصة — فهى تبدأ فى المساومة قبل أن

[illegible] الغرفة حتى التقاط انفاسك . وهو أمر محمود ولكننا تسرف [illegible]
[illegible] بنى [illegible]

[illegible] المطعم قائلا به مكان صاخب مزدحم بمن هم على [illegible] — السماسرة المتجولون وسماسرة البورصه واصحاب [illegible] ورجال الاعمال الذين يمرون فى طريقهم بالمدينة . وتقدمنى [illegible] الدخول من الباب .

[illegible] وهو يناوله قبعته ومعطفه قائلا — « هل مائدتى [illegible] .

— « نعم ياسستر جياكنتى . »

وكانت المائدة تجاور النافذة — فجلس جياكنتى وهو يفرك يديه . ثم سألنى قائلا — « الديك شهية طيبة ؟ »

فقلت فى ارتباك — « أظن ذلك . »

— « حسنا . أنا مسرور لذلك . فانى أحب أن أرى الناس يأكلون عندما يجلسون الى المائدة . فجيزيلا مثلا لا تحب ان تأكل شيئا قط بحجة أنها تخشى البدانة . هذا هراء ! فلكل شىء وقته وزمانه . فلابد أن تأكلى اذا ماجلست الى المائدة . » كان يبدو مترعا بالكراهية نحو جيزيلا .

فقلت فى وجل — « ولكن مامن شك فى أنك تسمن حقا لو افرطت فى تناول الطعام . وبعض النساء يابين أن تزيد أوزانهن . »

— « وهل أنت من بين هؤلاء ؟ »

— « كلا . لست من بينهن . ولكنهن فى الواقع يقلن لى اننى اميل الى البدانة . »

— « لا تصغى اليهن — فهذا كله حسد . فانت بهذه الصورة على ما يرام . أقول لك ذلك وأنا أعلم عما اتحدث . » ثم ربت على يدى بطريقة أبوية وكأنه يطمئننى .

وجاء النادل . فقال جياكنتى — « عليك أولا أن تحمل هذه الزهور بعيدا عنى فهى تضايقنى . ثم أحضر الطعام المألوف كما تعلم — أسرع ! »

ثم استدار نحوى قائلا — « انه يعرفنى ويعرف ماذا أحب . فلتدعى الامر له . ولسوف ترين أنك لن تجدى محلا للشكوى . »

وفى الواقع فانى لم أجد ما أشكو منه . فكانت جميع الالوان التى قدمت وفيرة لذيذة ولو أنها لم تكن ممتازة . وكان جياكنتى ذا شهية هائلة فراح يأكل فى تركيز وهو مطأطأ الرأس قابض بقوة على سكينه

وشوكته لا يتطلع الى أو يتحدث معى وكأنه لا يجالس أحدا . وفى الواقع فانه كان مستغرقا تماما فى عملية الاكل بل لقد أفقده نهمه ذلك الهدوء الذى لشد ما أزدهى به . كما ارتبكت حركاته وكأنه يخشى ألا ينتهى من تناول الطعام فى الوقت المحدد فيضطر الى تركه وهو جائع — كان يدفع بقطعة اللحم فى فمه وسرعان ما يكسر بيده اليسرى قطعة من الخبز يطبق عليها بأسنانه وبيده الاخرى يصب لنفسه قدحا من النبيذ يجرعه قبل انتهائه من مضغ الطعام . وكان لا يفتأ يتلمظ بشفتيه ويدير عينيه ويهز رأسه من وقت لآخر كما يفعل القط عندما يستولى على لقمة أكبر من فمه . أما انا فلم أكن جوعى مطلقا على خلاف عادتى . فلأول مرة فى حياتى كنت مقدمة على مضاجعة رجل لا احبه بل حتى لا اعرفه فأخذت اتفحصه بعناية مع ملاحظة مشاعرى الخاصة محاولة أن أصور لنفسى كيف سأنجز المهمة . وبعد هذه المرة الاولى لم أعد أعير اهتماما لمظهر الرجال الذين ارافقهم . ولعلى بحكم الضرورة التى كانت تدفعنى سرعان ما تعلمت أن أتبين فى كل رجل من أول نظرة سمته الطيبة المستحبة التى تجعل الاتصال الجنسى به مقبولا ومحتملا . ولكننى فى تلك الليلة لم أكن قد تعلمت بعد سر مهنتى الذى يتركز فى الالمام بالطريقة التى اكتشف بها فى الحال جاذبية خفية تقلل من بغض العملية الجنسية الى نفسى . وكنت أنشد تلك الجاذبية بطريقة غريزية ان صح هذا التعبير دون أن أدرك ماذا انا فاعلة — لقد سبق أن قلت ان جياكنتى لم يكن قبيحا . وفى الواقع فانه يمكن أن يوصف بالوسامة ما دام مطبقا فاه منطويا على ما تكنه روحه من عاطفة مدمرة . وهذا اسراف فى القول لان الحب لا يعدو ان يكون اتصالا جسديا قبل كل شىء . ولكن ذلك لم يكن يكفينى لانى لم أستطع قط أن أحتمل رجلا — لا أن أحبه — لمجرد صفاته الجسدية .

والآن عندما انتهى العشاء وعاد جياكنتى الى الحديث من جديد بعد أن اشبع نهمه الذى يعوزه التهذيب مطلقا جشاءة أو اثنتين ادركت أنه لا شىء فيه أو على الاقل لم اتمكن من اكتشاف شىء فيه يجعله محتملا . فهو لم يكتف بالحديث عن نفسه طوال الوقت كما قالت جيزيلا بل كان يفعل ذلك بطريقة كريهة للغاية . فكان شخصا مملا مغرورا لم يفتأ يروى لى أشياء لا تشرفه مطلقا بل لم تزد على أن دعمت احساسى الغريزى الاول نحوه بالنفور والاشمئزاز . فلم اجد فيه شيئا على الاطلاق يمكننى أن أحبه . أما الاشياء التى لم يفتأ

يفاخر بها ويطنب فى الحديث عنها كصفات مميزة له فقد بدت جميعها فى نظرى عيوبا رهيبة . وقد التقيت بعد ذلك برجال آخرين كانوا على قلتهم يصارعونه فى تفاهته . كما لم أجد فيهم على الاطلاق ما أتشبث به حتى يمكن أن يستميلنى اليهم . ولم أفتأ أتعجب لوجودهم فى الحياة بل رحت اتساءل ان كنت انا الملومة لعدم امكانى لاول وهلة اكتشاف الصفات التى لا ريب أنهم يتحلون بها . ومع ذلك فقد ألفت بمضى الزمن صحبة هؤلاء الرفاق الثقلاء وكنت أتظاهر بالضحك والمزاح وأتشكل طبقا لما يرونه فى ويريدون مني أن أكونه .

ولكن اكتشافى الاول فى ذلك المساء ملأ ذهنى بالخواطر الحزينة . فبينما كان جياكنتى يواصل حديثه ويتخلل أسنانه رحت أحدث نفسى قائلة اننى احترفت مهنة شاقة للغاية تقتضينى ان أتظاهر بالحب العارم نحو رجال يثيرون فى نفسى فعلا نقيض ذلك الشعور تماما كما هى الحال مع جياكنتى . وقلت لنفسى ان مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تقدر بالمال مهما بلغت قيمته — وان المرء لا يسعه مطلقا فى مثل هذه الحالات الا أن يحذو حذو جيزيلا التى لم تكن تفكر الا فى النقود وتكشف عن ذلك فى وضوح . كما خطر لى أننى فى ذلك المساء سأصحب جياكنتى — ذلك الشخص البغيض — الى غرفتى الصغيرة المسكينة التى كنت أنوى استخدامها لغرض يختلف كل الاختلاف . ففكرت كم كنت عاثرة الحظ وكيف شاء القدر أن تزول الغشاوة عن عينى منذ البداية فقادنى الى مقابلة جياكنتى ولم يقدنى الى شاب ساذج ينشد المغامرة أو شخص مهذب غير دعى كمئات الآخرين . كما خطر لى أن وجود جياكنتى بين قطع الاثاث فى غرفتى سوف يدمغ تنازلى عن جميع أحلامى القديمة حول حياة طبيعية محترمة .

أخذ يتحدث طوال الوقت ولكنه مع ذلك لم تبلغ به الغباوة حدا لا يمكنه من أن يلحظ اننى كنت لا أكاد أنصت اليه واننى حزينة لا يبدو على المرح فسألنى فجأة قائلا — « أمكتئبة أنت يا طفلتى ؟ »

فأسرعت بالاجابة قائلة وأنا استجمع شجاعتى — « كلا . كلا . »

ولكن نبرات صوته الحانية فى غير صدق اغرتنى قليلا بأن اثق به وأن أحدثه بشىء عن نفسي بعد أن سمحت له بالتحدث عن نفسه طوال ذلك الوقت .

ثم أردف قائلا — « والآن حسنا تصنعين ! فأنا لا أحب الاكتئاب . ولم أدعك الى هنا لتكتئبى — فلعل لديك مبرراتك الخاصة وهذا أمر لا شك فيه . ولكنك ما دمت معى فعليك أن تلقى بمشاعرك الكئيبة

خلف ظهرك ـ فأنا لا أبغي أن أعرف شيئا عن شئونك . فلا أريد أن أعرف من أنت وماذا حالتك ولا أية معلومات أخرى ـ فهذا لا يهمني في شيء . ولكن ثمة صفقة قد تعاقدنا عليها ـ أنت وأنا ـ حتى ولو لم تكن مكتوبة . فأنا أضمن أن أعطيك مبلغا معينا من المال وأنت تضمنين لى في مقابل ذلك أن أقضى سهرة ممتعة . ولا أهمية لغير هذا»
قال تلك الكلمات بلهجة جدية بل ربما أغضبه قليـــلا انني لم أبد منصتة اليه في انتباه كاف .

فأجبته قائلة دون أن اكشف عن شيء من المشاعر التى ثارت في نفسي ـ « ولكنني لست حزينة ! بل ان المكان هنا شديد الضوضاء ملىء بالدخان ـ ولذا فانى أحس ببعض الدوار » .

فسألنى قائلا في قلق ـ « هل ننصرف ؟ » فقلت نعم . ننادى النادل في الحال ودفع الحساب ثم انصرفنا .

وعندما خرجنا الى الطـريق ســألنى قائلا ـ « هل نذهب الى فندق ؟ » .

فأسرعت بالاجابة قائلة ـ « لا . لا . » فقد أفزعني اضطراري الى ابراز أوراقي . وعلى أية حال فانني كنت قد وطنت النفس على وجهة أخرى فقلت ـ « تعال الى شقتى » .

فركبنا احدى سيارات الاجرة وأدليت بعنواني . وما ان تحركت السيارة حتى ارتمى على غارزا مخالبه في بدني ومقبلا عنقي . ودلتني رائحة أنفاسه على أنه أفرط في الشراب وأنه لابد أن يكون مخمورا .
ولم يفتأ يدعونى « طفلة » ذلك اللفظ الذى كان يثيرنى وهـــو على شفتيه كما كان يبدو مثيرا للسخرية وفي غير محله . فتركته يفعل ما يشاء فترة وجيزة ثم أشرت الى ظهر السائق قائلة ـ ألا يحسن بنا أن ننتظر حتى نصل الى هناك ؟ » .

فلم يحر جوابا بل ارتمى بثقله الى الخلف على الوسائد وقد احمر وجهه محتقنا بالدم وكأنه قد أصيب فجـأة بنوبة قلبية . ثم دمدم قائلا ـ « انى أدفع له أجرا ليأخذنى الى حيث أريد لا لشغل نفسه بما يجرى في سيارته . » كان يسيطر على ذهنه ان النقود وعلى الأخص نقوده هو يمكن أن تسد أفواه الناس جميعا . فلم أحر جوابا .
وظللنا ما بقى من الرحلة كلها جالسين في تصلب كلانا بجانب الآخر دون أن نتلامس . ولم تفتأ أضواء المدينة تومض خلال نوافذ السيارة فتضىء وجهينا وأيدينـــا لحظة ثم لا تلبث أن تختفى مرة أخرى .
وقد بدا لى غريبا أن أكون بجوار ذلك الرجل الذى كنت قبل ذلك

بفترة وجيزة غافلة حتى عن وجوده وان أهرع معه الى شقتى حيث أهبه نفسى كما لو كان حبيبى . وكان من جراء استغراقى فى تلك التاملات ان قصرت مسافة الطريق . فاستجمعت نفسى لافيق من دهشتى عندما رأيت السيارة تقف فى الطريق المألوف أمام باب منزلى .

قلت لجياكنتى فى الظلام ونحن نصعد الدرج ـ « لا تحدث ضوضاء أثناء دخولك الشقة لانى أقيم مع أمى . »

فأجابنى قائلا ـ « لا تقلقى ياطفلتى » .

وعندما بلغنا بسطة الدرج فتحت الباب بالمفتاح . وتبعنى جياكنتى الى الداخل . فأمسكت بيده وقدته الى باب غرفتى عبر الدهليز دون أن اشعل الضوء وكان أول باب الى اليسار فتركته يتقدمنى وأضأت المصباح المجاور للفراش ثم وقفت فى مدخل الغرفة ملقية نظرة وداع على أثاثها الجديد . فتنهد جياكنتى فى رضا وقد سره أن يجد غرفة نظيفة جديدة فى حين أنه ربما كان يخشى ان يجد نفسه محاطا بأثاث قذر متداع . فألقى بمعطفه على أحد المقاعد . وطلبت اليه ان ينتظرنى حتى اعود ثم غادرت الغرفة . .

واتجهت مباشرة الى غرفة الجلوس حيث وجدت أمى عاكفة على على عملها عند وسط المائدة . وما ان رأتنى حتى تركت ما بيدها فى الحال وهمت بالنهوض ولعلها تخيلت أنها يجب أن تحضر الى العشاء كما كانت تفعل فى الاماسى الاخرى .

فقلت ـ « لا تنهضى . فقد تناولت عشائى فعلا . معى شخص فى الغرفة المجاورة . فلا تدخلى مهما كانت الظروف » .

فسألتنى قائلة فى دهشة ـ « أمعك شخص هناك ؟ » .

فأسرعت بالاجابة قائلة ـ « نعم . ولكنه ليس جينو ـ بل سيدا مهذبا .. » ثم غادرت غرفة الجلوس دون انتظار المزيد من أسئلتها .

عدت الى غرفتى الخاصة حيث أوصدت الباب . وجاء جياكنتى محمر الوجه نافد الصبر لملاقاتى فى وسط الغرفة حيث ضمنى بين ذراعيه . كان اقصر منى بكثير فحنى ظهرى الى الخلف على طرف الفراش لكى يبلغ وجهى وشفتى . وحاولت الا أدعه يلثم فاى . وقد نجحت فى ذلك تارة بالاشاحة بوجهى بعيدا عنه كأننى خجلة وتارة بالقاء رأسى الى الخلف وكأنى فى نشوة . وكان جياكنتى فى مضاجعته لا يختلف مطلقا عنه فى تناول طعامه . فكان نهما لا يميز شيئا ولا يكاد يبدأ فى بقعة من جسدى حتى ينتقل الى غيرها خشـــــية أن يفوته

شيء وقد أعماه جسدى كما أعماه الطعام فى المطعم . وبعد أن عانقنى بدا انه يريد ان يجردنى من ثيابى ونحن فى ذلك الوضع لانزال واقفين . فكشف الثوب عن احدى ذراعى وكتفى ثم اخذ يقبلنى من جديد كأن منظر بدنى العارى قد ادار راسه . وخشيت أن يمزق ثوبى بحركاته المرتبكة . فقلت اخيرا دون أن أدفعه بعيدا ـ « هيا اخلع ثيابك » .

فتركنى فى الحال وبدأ يخلع ثيابه وهو جالس على حافة الفراش . فحذوت حذوه على الجانب الآخر من الفراش .

وفجأة سألنى قائلا ـ « وهل أمك تعلم ؟ » .

ـ « نعم » .

ـ « وما رأيها فى ذلك ؟ » .

ـ « لا شيء » .

ـ « اتستنكره ؟ » .

من الواضح أن تلك التفاصيل لم تكن فى نظره سوى عامل اضافى من عوامل الاثارة فى مغامرته وهى سمة مشتركة بين جميع الرجال. فالقليلون منهم يمكنهم أن يقاوموا الاغراء بمزج المتعة الجسدية بنوع آخر من الاهتمام أو حتى الشفقة . فقلت بعد قليل وأنا واقفة أخلع ازارى الداخلي من فوق رأسى ـ « انها لا تستحسن ذلك ولا تستنكره فأنا سيدة نفسى ويمكننى أن أفعل ما أشاء . وعندما تجردت من ملابسى وضعتها بنظام على أحد المقاعد ثم تمددت على الفراش مستلقية على ظهرى وقد وسدت رأسى احدى ذراعى بينما غطيت صدرى بذراعى الاخرى . ولا أدرى لماذا فعلت ذلك ولكننى تذكرت أن شبيهتى الالهة الوثنية فى الصورة المطبوعة الملونة التى اعطاها الرسام البدين لامى كانت فى ذلك الوضع . وفجأة انتابنى الغضب الممزوج بالامتعاض عندما خطر لى ذلك التغير الكبير الذى طرأ على حياتى منذ ذلك اليوم . ولابد أن جياكنتى قد تولته الدهشة لمرأى جمال جسدى القوى المتين البديع التكوين الذى لم يكن واضحا عندما كنت فى كامل هندامى فقد توقف عن خلع ملابسه وأخذ يحملق فى مبهورا وقد فغر فاه الى حد ما وبرزت عيناه من رأسه .

قلت ـ « أسرع فانى أشعر بالبرد » .

فانتهى من خلع ملابسه وارتمى على . ولقد ذكرت من قبل طريقته فى المضاجعة . وهى صورة مطابقة للواقع تماما . وانى أعتقد اننى قد وفيته حقه من الوصف ـ ولا حاجة الا أن أضيف أنه كان من ذلك

الصنف الذى يحرص كل الحرص على اقتضاء حقه اذا ما تذكر النقود التى انفقها او سوف ينفقها وكأنه يخشى أن يخدع ان لم يأخذ كل ما يعتقد أنه من حقه . لقد وصفته من قبل بالنهم الشديد ولكنه لم يبلغ به النهم حدا ينسيه ماله . فكان يريد أن يحصل فى مقابله على كل ما يستطيع . فما لبثتُ أن أدركت أنه يهدف الى اطالة مدة لقائنا ما أمكنه ذلك وأن ينال منى كل المتعة التى يعتقد أنها من حقه .
بهذه الفكرة فى ذهنه أخذ يعبث بجسدى كما يعبث العازف بآلته التى تتطلب اعدادا طويلا قبل العزف عليها . وكان لا يفتأ يحثنى طوال الوقت على أن أحذو حذوه بجسده . ولكننى رغم اذعانى له لم البث ان أحسست بالملل وأخذت أراقبه فى برود وكأن تدابيره الواضحة قد أبعدتنى عنه فصرت أنظر اليه والى نفسى أيضا من مسافة بعيدة خلال مرآة من الكراهية والنفور • وكان ذلك مناقضا تماما للاحســـاس بالميل نحوه الذى حاولت بطريقة غريزية فى اول المساء أن اشجعه فى نفسى • وفجأة غشيتنى موجة من التبكيت المخجل فأغمضت عينى •

وأخيرا عراه الاعيـاء فاضطجعنـا على الفراش . كلانا بجـانب الآخر .

ثم قال فى لهجة تنبيء بالرضا عن نفسه ـ « يجب أن تعترفى بأننى عاشق بارع رغم تجاوزى سن الشباب الى حد ما • »

ثم أردف قائلا ـ « هذا هو رأى النساء جميعا ـ أتعلمين ماذا أعتقد ؟ أن القنانى الصغيرة تحوى النبيذ الجيد . فبعض الرجال ممن يبلغون ضعف حجمى لا يقدرون على شيء ! »

وبدأت أشعر بالبرد فاستويت جالسة فى الفراش وجذبت البطانية من طرفها لتغطى جسدينا • فحمل ذلك على أنه علامة حب »

فقال ـ « والآن يا فتاتى الرقيقة سأنام قليلا • » ثم انكمش ملتصقا بى واستغرق فى اغفاءة .

وظللت راقدة على ظهرى لا أحرك ساكنا وقد وضع على صدرى رأسه الاشيب . وكانت البطانية تغطى جسدينا حتى الخصر . وبينما كنت أتأمله وأتأمل صدره الاشعر وقد علته طيات الكهولة المترهلة عاودنى فى أول الامر الاحساس بأننى فى صحبة غريب لا تربطنى به صلة ما . ولكنه كان مستغرقا فى النوم ، وبنومه لم يعد يتحدث أو ينظر أو يتحرك . ولما كان ذا شخصية بغيضة فان النوم لم يكشف الا عن خير ما فيه وهو أنه رجل لا يبرح صدره يعلو ويهبط وهو يتنفس واذا بى أثناء تأملى اياه ومراقبته وهو نائم فى ثقة الى جوارى أكاد أحس نحوه

بالعطف — رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة . وكان مما يدل على صدق ذلك الاحساس حرصى على تجنب ايقاظه بحركة ما . وكان ذلك بدافع من العطف الذى ظللت أنشده عبثا حتى تلك اللحظة . وقد أثاره فى نفسى منظر رأسه الاشيب متكئا فى ثقل على صدرى الناهد . وقد خفف عنى ذلك الاحساس وكاد يشعرنى بشىء من الدفء . وفى الواقع فقد خالجنى فى لحظة ما نوع من السمو فى العشق فجر الدموع من مآقى . فلشد ما كان قلبى فى الحقيقة مترعا بالحب فى تلك اللحظة كعهده دائما — ذلك الحب الذى آثرت لانتقارى الى أهداف مشروعة الا يبقى عاطلا وأن ينصب على أشياء تافهة وأناس غير أهل له .

وبعد مضى عشرين دقيقة أو ما يقرب من ذلك استيقظ من نومه وسألنى قائلا — « هل طال نومى ؟ » .

— « كلا » .

فقال وهو ينهض من الفراش ويفرك يديه — « انى أشعر بالنشاط. بل ما أنشطنى ! فانى احس وكأنى عدت القهقرى عشرين عاما على الاقل . » وأخذ يرتدى ملابسه وهو لا يفتأ يصيح فى فرح وارتياح . أما أنا فقد ارتديت ملابسى فى صمت .

وما ان تهيأ للرحيل حتى قال — « أحب أن اراك مرة أخرى يا طفلتى . فكيف السبيل الى ذلك ؟ »

فأجبت قائلة — « ما عليك الا أن تتصل تليفونيا بجيزيلا . فانى أراها كل يوم » .

— « وهل تملكين وقتك دائما ؟ » .

— « دائما » .

— « تحيا الحرية » .

ثم أخرج حافظته وسألنى قائلا — « كم تطلبين ؟ » .

فأجبته قائلة — « ما تراه » . ثم أضفت قائلة فى اخلاص — « لو أجزلت لى العطاء فخيراً تفعل لانى فى حاجة الى المال » .

فرد قائلا — « لو أجزلت لك العطاء فانى لا أبغى من وراء ذلك فعل الخير بل لانك فتاة وسيمة امتعتنى بسهرة ترفيهية جميلة » .

فقلت هازة كتفى — « كما تشاء . »

ثم أردف قائلا وهو يخرج النقود من حافظته — لكل شىء ثمنه ويجب أن يقدر حسب قيمته . أما فعل الخير فلا وجود له . لقد زودتنى بأفضل مما كان يمكن أن تزودنى به جيزيلا مثلا . فمن

العدل أن تحصلى على أجر أعلى من أجرها . أما فعل الخير فلا شأن له بذلك . هاك نصيحة تعملين بها . فاياك أن تقولى ـ « اعطنى ما تراه » . دعى ذلك للباعة المتجولين. فاذا ما قال لى أحد « أعطنى ما تراه » أجدنى دائما ميالا الى اعطائه اقل مما يستحق . » ثم قدم الى النقود تعلو وجهه حركة معبرة .

وكان كريما كما قالت جيزيلا فقد فاق المبلغ ما كنت أتوقعه بكثير . ولقد عاودنى وأنا أتناول النقود ذلك الاحساس القوى الذى أثارته فى نفسى نقود آستاريتا أثناء رحلة فيتريو بالمشاركة الجنسية الآثمة . وخيل لى أن ذلك معناه بالضرورة ان القدر قد اختارنى لهذا العمل وانني فى الحقيقة قد ولدت لاحترف تلك المهنة حتى ولو كنت أتوق من أعماق قلبى الى شيء يختلف عن ذلك . فقلت « شكرا لك » . واذا بى قبل أن أدرك ماذا أنا فاعلة أقبله على وجنتيه بدافع مفاجيء من العرفان .

فأجابنى قائلا وهو يتهيأ للانصراف ـ « الشكر لك » . ثم امسكت بيده وقدته فى الظلام الى الباب الامامى خلال الدهليز وفى لحظة ما عندما اغلق باب غرفة النوم وكان الباب الامامى لا يزال موصدا احتوانا ظلام شامل . عندئذ ثمة غريزة تكاد تكون حسية أنبأتنى أن أمى لابد ان تكون مختبئة فى الظلام فى احدى زوايا الدهليز حيث كنت أتجول مع جياكنتى . فلابد أنها قابعة خلف الباب أو فى الزاوية الاخرى بين « البوفيه » والجدار منتظرة أن ينصرف جياكنتى . وتذكرت ما حدث فى المرة السابقة عندما أتيت نفس العمل فى الليلة التى عدت فيها متأخرة اثر لقائى بجينو فى فيللا مخدوميه . ولشد ما توترت اعصابى عندما خطر لى انها قد تنقض على حالما ينصرف جياكنتى وتمسك بى من شعرى ثم تجرنى الى الاريكة حيث تنهال على ضربا . وأمكننى أن أحس أنها هناك فى الظلام . بل شعرت وكأنى أكاد أراها . وراودنى من الخلف احساس بالانكماش وكأن يديها كانتا تحومان فوق راسى استعدادا للقبض على شعرى . وكنت أقود جياكنتى باحدى يدى وبالاخرى اقبض على النقود . ثم خطر لى ان أضع النقود فى يديها حالما تنقض على ، وبذلك أذكرها فى صمت أنها هى التى لم تفتأ تحفزنى طوال الوقت على كسب المال عن هذا الطريق . كما أنها محاولة أسد بها فاها بمناشدة حبها الشديد للمال ـ ذلك الحب الذى لم يفقه قط حب آخر فى أعماق روحها . وكنت فى أثناء ذلك قد فتحت الباب .

فقال جياكنتي ـ « وداعا اذن وسأتصل بجزيلا » .

ورأيته وهو يهبط الدرج بمنكبيه العريضين وشعره الاشيب المنتصب فوق رأسه وكان يلوح لى بيده مودعا دون أن يستدير نحوى . ثم أغلقت الباب . ولم تلبث أمى فى الحال أن انقضت على كما توقعت .. ولكنها لم تمسك بشعرى كما خشيت أن تفعل بل حاولت أن تعانقنى بطريقة مرتبكة لم أفهمها فى أول الامر . وعملا بخطتى تناولت يدها ودسست فيها النقود . ولكنها دفعتها بعيدا فسقطت على الارض حيث وجدتها فى صباح اليوم التالى عندما غادرت غرفتى . حدث كل ذلك وقد انبهرت أنفاسنا ولكن دون أن تنطق احدانا بكلمة .

ثم دلفنا الى غرفة الجلوس حيث جلست الى المائدة جلسة جانبية. وجلست أمى فى مواجهتى وهى تنظر الى . لقد بدا عليها الانزعاج وتولانى الارتباك .

ثم قالت على غير انتظار ـ « أتعلمين أننى اثناء وجودك هناك أحسست فجأة بالخوف لمدة لحظة ؟ »

ـ « الخوف مم ؟ » .

فأجابتنى قائلة فى مشقة وهى تنظر الى ـ « لست أدرى . فقد أحسست بالوحدة فى أول الامر ... ثم انتابنى البرد فى جميع أطرافى ... لم أكن فى حالتى الطبيعية مطلقا ... وكان كل شىء يدور من حولى كما يحدث للمرء عندما يفرط فى الشراب ... وقد بدا كل شىء غريبا فى عينى . ووجدتنى أحدث نفسي قائلة ـ « هذه هى المائدة ، وهذا هو المقعد وهذه هى ماكينة الخياطة » . ولكننى لم أستطع أن أصدق حقا أن تلك الاشياء هي المائدة والمقعد وماكينة الخياطة . وبدا لى أننى لم أكن أنا نفسي بل شخصا آخر فحدثت نفسى قائلة ـ « أنا خياطة عجوز ولى ابنة تدعى آدريانا » . ولكننى لم أكن واثقة .. فأخذت استعرض الماضى لاقنع نفسى وأتذكر ماذا كنت فى طفولتى وفى صباى وعندما تزوجت وعندما انجبتك ... وانتابنى الخوف لاننى رأيت كل ذلك فى لمح البصر وكأنه يوم واحد فانتقلت فجأة من الشباب الى الشيخوخة ولم الحظ ما طرأ على من تغير .. وعندما أموت سوف يبدو كل شىء وكأنى لم أولد قط » .

فقلت فى بطء ـ « وما الذى يجعلك تتخيلين ذلك . فأنت ما زلت صغيرة ثم ما شأن الموت بما نحن فيه ؟ » .

ولكن بدا أنها لم تسمعنى وواصلت حديثها قائلة بلهجتها التوكيدية

وكان حديثها مؤلما ومصطنعا ـ « أقول لك انني كنت خائفة . وحدثت نفسي قائلة ـ « لنفرض أن شخصا ما أبى أن يواصل الحياة فهل يفرض عليه ذلك على الرغم منه ؟ » .. أنا لا أقول ان المرء ينبغى أن يقتل نفسه فذلك يحتاج الى شجاعة • ولكن لنفرض أنه أبى أن يعيش بعد ذلك كما تأبين الطعام أو السير مثلا .. حسنا انى أقسم بأبيك الميت •• أننى أرفض مواصلة الحياة ـ »

كانت الدموع تترقرق فى عينيها بينما ترتعش شفتاها . فأحسست انا أيضا بالرغبة فى البكاء ونهضت من مكانى ثم أحطتها بذراعى وذهبت لاجلس معها على الاريكة فى الطرف القصى من الغرفة . ومكثنا هناك متعانقتين فى قوة بينما أجهشت كلتانا بالبكاء . كنت مذهولة لشدة اعيائى كما أن حديث أمى بمنطقه المتقطع كان يزيدنى ذهولا . ولكننى بادرت باستجماع شعث نفسى لاننى قبل كل شىء كنت أبكى تعاطفا معها . اذ اننى كنت قد اقلعت عن البكاء على نفسى منذ أمد بعيد . فقلت مربتة على كتفها ـ « هدئى من روعك » .

فرددت قائلة من خلال دموعها ـ « انى أعنى ذلك يا آدريانا ... فأنا أرفض أن أواصل الحياة •• فربت على كتفها وتركتها تبكى ما شاء لها البكاء دون أن تتكلم . ولكننى فى أثناء ذلك لم أتمالك نفسى من الاعتقاد أن دموعها كانت دليلا قاطعا على ماتشعر به من تبكيت الضمير . فانها لم تفتأ تعظنى قائلة اننى يجب أن أحذو حذو جيزيلا وأن أبيع عرضى لمن يعرض الثمن الاعلى • لا شك أنها فعلت • ولكن • شتان بين القول والفعل • فلا ريب أنها كانت لطمة قوية لها عندما رأتنى أصحب رجلا الى المنزل وعندما أحست بى وأنا أضع النقود فى يدها . فقد تمثلت الآن أمام عينيها ثمرة عظاتها فلم تتمالك نفسها من الرعب • ولكن لا ريب أنها كانت فى نفس الوقت عاجزة على صورة ما عن الاعتراف بخطئها ولعلها أحست الآن بالرضا المرير لان ذلك الاعتراف لم يعد يجدى شيئا • وهكذا فبدلا من أن تصارحنى مباشرة قائلة ـ « لقد ارتكبت خطأ ـ فاياك أن تعودى اليه . « آثرت أن تحدثنى لا فيما يخصنى بل عن حياتها ورغبتها فى الموت . وطالما لاحظت أن الكثيرين من الناس فى نفس اللحظة التى يرتكبون فيها عملا يعلمون أنه خطأ يحاولون تغطية أنفسهم ورد اعتبارهم بالتحدث عن مسائل عليا من شأنها أن تظهرهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين فى ضوء من النبل والنزاهة لا صلة له مطلقا بما يفعلون أو بما يسمحون به . وهكذا كان الحال مع أمى ـ الا أن معظم الناس ينحون هذا النحو وهم

على علم تام بما يفعلون . اما أمي العزيزة المسكينة فقد انتحت هذا السبيل عن غير وعي منها مطلقا وبوحي من قلبها وظروفها .

ولكن عبارتها عن رغبتها فى الموت بدا فيها رنين الصدق . واعتقد أننى أيضا لم أشعر بالرغبة فى الحياة بعد أن اكتشفت خداع جينو . غير أن جسدى كان يواصل حياته تلقائيا غير مبال بارادتى . فكان صدرى وساقاى وأردافى – تلك الاطراف التى لشد ما كانت تمتع الرجال – لا تزال تواصل الحياة . وكان جنسى الخفى بين فخذى لا يفتأ يواصل الحياة ويجعلنى أطلب الحب حتى عندما تأباه ارادتى . فكان من العبث أن أتمدد على الفراش عاقدة النية الا أعيش بعد ذلك وألا استيقظ فى الصباح – فان جسدى يواصل حياته اثناء نومى . فالدم لا يفتأ يتدفق فى عروقى . ومعدتى وأمعائى تواصلان هضم الطعام . وشعرى يعود الى النمو أسفل ذراعى حيث حففته . واظافرى تنمو . وأديمى يتصبب عرقا . وقواى تتجدد . وفى لحظة معينة من الصباح سوف يفتح جفناى دون ارادتى الواعية وسوف تقع عيناى مرة أخرى على الحقيقة التى أبغضها . وسوف أدرك اننى على الرغم من رغبتى فى الموت لا أزال على قيد الحياة ولا بد لى من أن اواصلها . فخرجت من ذلك بنتيجة معينة هى انه ما دام الامر كذلك فخير لى أن استمتع بحياتى قدر امكانى والا اعيرها اهتماما بعد ذلك .

ولكننى لم أذكر شيئا من ذلك لامى لانى أدركت ان تلك الخواطر كانت كئيبة كخواطرها تماما وما كانت لتبعث فى نفسها البهجة مطلقا . فاذا بى بدلا من ذلك عندما بدا لى أنها توقفت عن البكاء انهض من جوارها قائلة – « انى جوعى . » وكنت كذلك بالفعل لاننى لم أكد ألمس شيئا فى المطعم لشدة أضطراب أعصابى .

فقالت أمى فرحة باقتراحى شيئا نافعا يمكنها ان تؤديه وكانت لا تفتا تؤديه كل مساء – « هناك عشاؤك – وسأذهب لاعداده لك. ثم غادرت الفرفة وبقيت وحدى .

جلست الى المائدة فى مكانى المألوف وانتظرت عودتها وقد خلا ذهنى من الافكار ولم يبق شىء من كل ما حدث سوى تلك الرائحة العطرة السقيمة فى أصابعى وذلك الأثر الملح الذى تركته الدموع على وجنتى . ظللت ساكنة أراقب الظلال التى كان يلقيها المصباح المعلق على جدران غرفة الجلوس الطويلة العارية . ثم عادت أمى حاملة صحفة من اللحم والخضراوات .

قالت ــ « انى لم اسخن الحساء . فانه لن يكون الان سائغا ــ ولم تكن هناك كمية كبيرة منه . »

ــ « لا يهم . فهذا يكفى . »

ثم صبت لى قدحا من النبيذ ملأته حتى حافته ووقفت امامى كعادتها فى سكون وانتباه أثناء تناولى الطعام .

وبعد فترة وجيزة سألتنى قائلة فى قلق ــ « أتسيغين شريحة اللحم ؟ »

ــ « نعم . انها لذيذة . »

ــ « لقد أوصيت القصاب خصيصا أن يعطينى قطعة رقيقة . »

وبدا لى انها قد استعادت هدوءها وسار كل شىء كالمعتاد تماما فى الاماسى الاخرى . تناولت طعامى فى بطء وعندما انتهيت من ذلك تمطيت متثائبة . وفجأة أحسست أننى على خير ما يرام ووجدت فى تلك الحركة احساسا باللذة فقد امتلأ جسدى قوة وشبابا ورضا

قلت ــ « نشد ما يغالبنى النعاس . »

فقالت أمى فى حماس وهى تهم بالخروج ــ « انتظرى قليلا . سأذهب لاسوى لك الفراش . »

ولكننى أوقفتها قائلة ــ « سأسويه بنفسى . »

فنهضت من مكانى وتناولت أمى الصحفة الفارغة . وقلت لها ــ « دعينى أنم غدا صباحا وسوف استيقظ من تلقاء ذاتى . »

فاجابت بانها ستفعل كما أشاء . وما ان تمنيت لهـا ليلة طيبة وقبلتها حتى دلفت الى غرفتى . وكان الفراش لا يزال على حاله كما تركناه أنا وجياكنتى . فلم أزد على أن جذبت الوسائد والبطانية الى مكانهما ثم خلعت ملابسى وأويت الى الفراش حيث اضطجعت وقد فتحت عيناى على سعتهما فترة وجيزة وكان ذهنى صفحة بيضاء .

وأخيرا قلت بصوت عال لارى وقع الالفـاظ فى نفسى ــ « انى بغى . » ولكن لم يبد أن لها تأثيرا ما . فاغمضت عينى وما لبثت أن استغرقت فى النوم .

الفصل الثامن

وخلال الايام القليلة التالية لم أفتا اقابل جياكنتى كل مساء .
فقد اتصل بجيزيلا تليفونيا فى صباح اليوم التالى وما قابلتنى فى
المساء حتى أبلغتنى رسالتـــــه . وكان على جياكنتى ان يرحل
الى ميلان قبل اليوم المتفق عليه للقاء جينو بليلة واحدة . وهذا
هو السبب فى اننى وافقت على مقابلته كل مساء . والا لرفضت
ذلك فقد قطعت على نفسى عهدا الا انشد قط مرة أخـــرى علاقة
مستقرة برجل واحد ــ وخيل لى انه يحسن بى ان كنت قد اعتزمت
احتراف هذه المهنة أن امارسها فى جد مع عشاق مختلفين فى كل مرة
لا اخدع نفسى بايهامها اننى لا احترفها اذا ما سمحت لرجل واحد
أن يكفلنى كخليلته فضلا عن خطر تعلقى به أو تعلقه بى . وعندئذ
لا أفقد حريتى الجسدية فحسب بل حريتى العاطفية كذلك . وعلى
أية حال فقد بقيت ارائى فى الحياة الزوجية الطبيعية كما هى دون
تغيير . وخيل لى أننى اذا تزوجت فلن يكون ذلك بعشيق كفلنى ثم
قرر فى النهاية أن يضفى على علاقة العمل التى تربطنى به الصفة
الشرعية ان لم تكن الادبية . بل الاحرى أن أتزوج شابا يحبنى
وأبادله الحب ويكون منتميا الى مثل طبقتى فى الحيـــــاة وله نفس
ميولى وآرائى . ولما كنت قد لمست فى نفسى الموهبة الفائقة لان أكون
زوجة صالحة بقدر موهبتى لان أكون بغيا ناجحة مع عجزى التام
عن اتخاذ موقف حذر منافق فى منتصف الطريق بين الوظيفتين فقد
كان هدفى فى الواقع ان احتفظ بالمهنة التى اخترتها لنفسى بعيدة
كل البعد عن طامحى الاولى دون اية اتصالات أو تسويات . ومع
ذلك فلعل ما أكسبه من خبرة عديد من الرجال يزيد على ما يجـــود
به رجل واحد دون سواه .

وفى كل مساء كان جياكنتى يصحبنى لتناول العشاء فى نفس
المطعم ثم يرافقنى بعد ذلك الى المنزل حيث يبقى معى حتى ساعة
متأخرة من الليل . وقد اقلعت امى الان عن كل محاولة للتحدث
الى عن سهراتى بل كانت كلما احضرت الى القهوة على صينية فى
ساعة متأخره من صباح اليوم التالى تكتفى بسؤالى عما ان كنت

قد تمتعت بنوم هادىء عميق . وكنت من قبل اذهب الى المطبخ في الصباح الباكر لارتشف قهوتي امام الموقد دون أن أنعم حتى بالجلوس وأنا لا ازال أشعر على وجهي ويدي ببرودة الماء الذى اغتسلت به . أما الآن فكانت أمى تحملها الى لأحتسيها فى الفراش بينما تفتح هى مصاريع النوافذ وتأخذ فى تنظيم الغرفة . ولم احدثها قط فى شيء لم أذكره لها من قبل . ولكنها أدركت من تلقاء ذاتها ان كل شيء فى حياتنا قد تغير وكانت تكشف بسلوكها عن ادراكها التام كنه ذلك التغير . فلم تفتأ تتصرف وكأن هناك اتفاقا ضمنيا . وكان يبدو لى من اهتمامها ورعايتها أنها تتوسل الى فى ذلك أن أسمح لها بالاستمرار فى خدمتى وان تكون كما كانت فى الماضى ذات نفع فى طريقة حياتنا الجديدة . ولكن لا يفوتنى أن أقول ان تعودها احضار القهوة الى فى الفراش كان بلا ريب يطمئنها الى حد ما لان الكثيرين من الناس ومن بينهم أمى يعلقون على العادات قيمة ايجابية كما هى الحال الآن . حتى ولو لم تكن كذلك وبنفس الحماس أدخلت تغييرات أخرى كثيرة فى حياتنا اليومية . فكانت مثلا تعد لى اناء كبيرا من الماء المغلى لاغتسل به حالما انهض من فراشى كما اعتادت أن تضع فى غرفتى اناء به زهور وما الى ذلك .

ولم يفتأ جياكنتى يمنحنى نفس المبلغ فى كل مرة وكنت أودعه داخل احد الادراج فى ذلك الصندوق الذى كانت أمى حتى الان تضع فيه مدخراتها دون ان اخبرها بذلك . وكنت لا أحتفظ لنفسى الا ببعض العملات الصغيرة . واعتقد انها لاحظت بلا شك تلك الاضافات اليومية الى رأسمالنا ولكننا لم نشر قط الى ذلك فى أحاديثنا . وقد لاحظت أثناء حياتى أن الناس بصفة عامة حتى أولئك الذين يكسبون نقودهم بوسائل مشروعة يؤثرون الا يتحدثوا عن مكاسبهم لا أمام الغرباء فحسب بل امام الاصدقاء . ولعل المال مرتبط بالاحساس بالخجل او على الاقل بالتواضع مما يحول دون ادراجه ضمن قائمة موضوعات الحديث العادية ويجعله من بين تلك الاشياء السرية غير المسموح بها التى يحسن أن يمتنع عن ذكرها وكأنه لا يفتأ يكتسب عن طريق غير مشروع بغض النظر عن مصدره . ولكن لعله صحيح أيضا ما يقال من أن احدا لا يحب أن يكشف عما تثيره النقود فى نفسه من شعور لما فيه من قوة مفرطة ولارتباطه دائما بنوع من الاحساس بالاثم .

وذات مساء عبر لى جياكنتى عن رغبته فى أن يقضى الليل معى فى

غرفتي . ولكنني نجحت في ثنيه عن عزمه محتجة بان الجيران

سيلاحظونه عند خروجه في الصباح . وفي الواقع فان علاقتي به لم تتقدم خطوة واحدة عما كانت عليه في أول مساء ولا لوم على في ذلك . فان سلوكه في أول مساء ظل كما هو دون تغيير حتى يوم رحيله . كان رجلا تافها أو شبه ذلك على الاقل فيعلاقاته العاطفية.

وقد خالجني في اليوم الاول أثناء نومه كل ما استطعت أن استجمعه من شعور نحوه ــ وهو احساس غامض ربما لم يكن مرتبطا به . وكان مجرد التفكير في مضاجعة رجل كهذا خليقا بأن ينفرني . كما ساورني الخوف من المللانني كنت واثقة من أنه سيبقيني مستيقظة حتى منتصف الليل وهو لا يفتأ يحدثني عن نفسهحديثا خاصا . ومع ذلك فانه لم يلحظ مللي قط أو كراهيتي له وتركني وهو مقتنع أنه قد جعل من نفسه في خلال تلك الايام القلائل شخصا محببا للغاية في نظري .

وأخيرا جاء اليوم الذي تواعدنا على اللقاء فيه أنا وجينو . وما أكثر ما حدث في تلك الايام العشرة حتى أنني أحسست وكأن مائة عام قد انقضت منذ تعودت لقياه وأنا في طريقي الى المرسم ومنذ سعيي لادخار النقود التي أؤثث بها المنزل عندما كنت أعد نفسي فتاة مخطوبة لا تلبث أن تتزوج . وقد حضر في الموعد بالضبط دون تأخير ولشد ما بدا عليه الشحوب والاضطراب وانا أركب السيارة . فان أحدا لا يحب أن يواجه بخداعه حتى لو كان أجرأ المخادعين ولا ريب انه فكر كثيرا وساورته الشكوك خلال تلكالايام العشرة التي قطعت لقاءاتنا المعهودة . ولكنني لم اظهر شيئا من الاستياء ولم يكن ذلك تظاهرا مني في الواقع فلشد ما أحسست بالهدوء . وعندما مرت اللحظة الاولى بما فيها من مرارة الخيبة راودني نحوه نوع من الشغف المتسامح المرتاب . فاني كنت لا أزال احب جينو قبل كل شيء كما ادركت من اول نظرة وجهتها اليه وكانت محملة بالمعاني .

وما لبث إن سألني قائلا بعد فترة وجيزة بينما كانت السيارة تسرع بنا نحو الفيللا ــ « اذن فقد غير معرفك رأيه ؟ » وكانت لهجته متشككة رغم ما فيها من سخرية في نفس الوقت .

فأجبته قائلة في بساطة ــ « كلا . بل لقد غيرت أنا رايي . »

ــ « وهل فرغت من أعمالك كلها مع أمك ؟»

ــ « مؤقتا . »

ــ « انه لأمر غريب . »

لم يكن يدرى ماذا يقول ولكنه من الواضح انه كان يختبرني ليكتشف ما اذاكان هناك مبرر لشبهاته .

ــ « وما وجه الغرابة في ذلك ؟ »

ــ « قلت ذلك بغية أن أقول شيئا فحسب . »

ــ « الا تصدق أنني كنت مشغولة ؟ »

ــ « أنا لا أصدق شيئا . »

وكنت قد عقدت النية على كشف خداعه ولكن بطريقتي الخاصة وذلك بملاعبته قليلا كما يفعل القط مع الفأر دون اللجوء الى الشجار الوحشى الذى نصحت به جيزيلا والذى لا يتفق مع مزاجى .

سألته قائلة فى دلال ــ « أتغار ؟ »

ــ « أنا أغار ؟ يا الهى ! »

ــ « نعم ــ فهذا هو شعورك ــ ولو كنت صادقا لاعترفت به » .

فتناول الطعم الذى قدمته اليه قائلا ــ « ان أى شخص فى مكانى لابد أن يغار . »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « دعك من هذا ! فمن ذا الذى تحسبينه يصدقك ؟ أكان عملك من الاهمية الى حد أنك لا تستطيعين مقابلتى لمدة خمس دقائق ؟ »

فقلت فى هدوء ــ « ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . فلشد ما دأبت على العمل . »

وكان ذلك صحيحا . فبماذا يوصف ما كنت أفعله مع حياكتى كل مساء سوى أنه عمل وعمل شاق ؟ ثم أضفت قائلة وأنا أسخر من نفسى ــ « ولقد اكتسبت ما يكفى لسداد بقية الاقساط وشراء جهازى . وهكذا يمكننا على الاقل ان نتزوج دون ان يطالبنا أحد بديون . »

فلم ينبس بشىء . وكان من الواضح أنه يحاول اقناع نفسه بصحة ما كنت أقول وأخذ يتخلى رويدا عن وساوسه السابقة . وعندئذ أتيت حركة ألفتها فى الماضى . ــ فألقيت بذراعى حول عنقه وهو يقود السيارة وقبلته بقوة أسفل أذنه هامسة ــ « لماذا تغار ؟ ألا تعلم أنه ليس فى حياتى سواك . »

وبلغنا الفيلا حيث قاد جينو السيارة الى داخل الحديقة ثم أغلق البوابة وآتجه معى الى مدخل الباحة . وكانت ساعة الشفق . فقد بدأت الاضواء الاولى تلمع فى نوافذ المنازل المجاورة حمراء فى ضباب سماء الشتوى المائل الى الزرقة . وكاد الظلام يخيم فى دهليز

«البدروم» كما كان الجو خانقا انبعثت فيه رائحة الماء القذر، فتوقفت عن المسير قائلة :

— « لا أبغى الذهاب الى غرفتك هذا المساء » •

— « لم لا ؟ »

— « أريد مضاجعتك فى غرفة مخدومتك » •

فهتف قائلا فى رعب من هول الصدمة — « أجننت ! ؟ »

فطالما صعدنا الى الغرف العليا ولكننا كنا لا نفتأ نمارس الحب فى غرفته فى البدروم •

قلت — « انها نزوة فحسب • وماذا يهمك من ذلك ؟ »

— « يهمنى كثيرا — فقد ينكسر شىء ما — فأنى لك أن تعلمى — ولو لاحظوه فماذا أنا فاعل ؟ »

فهتفت قائلة فى استخفاف — « آه • يالها من مأساة ! ستفصل من عملك • هذا هو كل ما هناك » •

— « أيمكنك التحدث عن ذلك بهذه اللهجة ؟ »

— « كيف ينبغى أن أتحدث عنه ؟ لو كنت حقا تحبنى لما ترددت مطلقا » •

— « انى أحبك بلا شك ولكننى لا أستطيع سماع ذلك — بل لا تدعينا حتى نتحـــدث فيه • فأنا لا أريد أية متاعب • نعم لا أريد ذلك • »

— « سنتوخى الحرص والحذر • ولن يلحظوا شيئا • »

— « كلا • »

ولكننى كنت هادئة تماما • وهتفت مواصلة التظاهر بغير شعورى الحقيقى •

— « أنا خطيبتك أسألك هذا الصنيع الوحيد فترفض خشية أن أضطجع بجسدى حيث تضطجع مخدومتك وأن أوسد رأسى حيث توسد هى رأسها •••• ولكن ماذا تظن ؟ أتظنها خيرا منى ؟ »

— « كلا • ولكن »

فأردفت قائلة — « انى أساوى ألفا من صنفها • ولن ينالك من هذا سوى الخيبة والفشل •••• اذ يمكنك أن تضاجع وســـائد مخدومتك وملاءها ••• فانى ذاهبة • »

كان كما سبق أن قلت يدين لمخدوميه بالاحترام العميق والخضوع الذليل • وكان فخورا بهم على صورة تغثو لها النفس وكأن ثروتهم بأسرها كانت ملكا له أيضا • ولكنه ما ان رآنى أتكلم بهذه اللهجة

منصرفة عنه فى اندفاع غاضب يحدونى تصميم لم يعهده فىمن قبل حتى فقد صوابه وركض خلفى قائلا :

ـ « انتظرى لحظة ! أين أنت ؟ كان ذلك كلاما فحسب ! ولنصعد ـ ان شئت ـ الى الطابق العلوى ! »

فتركته يتوسل الى قليلا متظاهرة بالاستياء • ثم وافقت وصعدنا الى الطابق العلوى متخاصرين ولم نفتأ نقف عند كل درجة لنتبادل قبلة مثلما فعلنا فى المرة الاولى تماما ولكن بقلب متغير ـ على الاقل من ناحيتى • وعندما بلغنا غرفة مخدومته اتجهت رأسا الىالفراش حيث جذبت الاغطية •

فاحتج مرة أخرى قائلا وقد استبد به الخـــوف ـ « ولكنك لا تعنين أن ترقدى مباشرة فى الفراش ؟ »

فأجبته قائلة فى هدوء ـ «ولم لا ؟ فأنا لاأريد أن أشعر بالبرد•»

فلم ينبس بشىء وقد بدا عليه الاضطراب واضحا • ولكننى ما ان انتهيت من اعداد الفراش حتى دلفت الى غرفة الحمام حيثأشعلت السخان وفتحت صنبور الماء الساخن ليتســـاقط نضيضا فحسب حتى لايمتلىء الحوض بأسرع مما ينبغى وتبعنى جينو وقدانتابه القلق والسخط ثم احتج قائلا مرة أخرى :

ـ « أتستحمين أيضا ؟ »

ـ « انهم يستحمون اثر المضاجعة • أليس كذلك ؟ »

فأجابنى قائلا وهو يهز كتفيه ـ « أنى لى أن أعلم ماذا يفعلون ؟ » ولكن أمكننى أن أرى أنه فى الواقع لم يتكدر حقا لجرأتى بل تعذر عليه فحسب أن يستسيغ ذلك • كانت تعوزه الشجاعة فكان يؤثر ألا يخالف القانون • ولكنه لما كان لايكاد يسمح لنفسه بالزلل فان مخالفة القانون كانت تجذبه فى مزيد من القوة • فما لبث أن قال مبتسما بعد لحظة من الصمت وهو يتأرجح بين الاغراء والاحجـــام متحسسا الحشية بيده ـ « انك على حق قبل كل شىء • فهذا المكان مريح ـ وهو أفضل من غرفتى • »

ـ « ألم أقل لك ذلك ؟ »

جلسنا معا على حافة الفراش ثم قلت ملقية بذراعى حول عنقه ـ « تخيل يا جينو كم تحلو الحياة عندما يكون لدينا منزلنا الخاص ـ بنا فحسب •••• أنه لن يكـــون كهذا ••• ولكنه ســـيخصنا وحدنا • »

ولا أدرى لماذا قلت ذلك • ولعل السبب في هذا أنني كنت الان أعلم يقينا أن تلك الاشياء جميعا صارت ضربا من المحال • فأحببت أن أنكأ بنفس الفرحة التي كان لا يفتأ قلبي يتلقى فيها الطعنات •

فقال وهو يقبلني – « نعم • نعم • »

واسترسلت قائلة يراودني ذلك الشعور القاسي بأني أصف شيئا مفقودا ذهب بلا رجعة :

– « انى أعرف نوع الحياة التى أفضلها • فلا حاجة بى الى مكان جميل كهذا •••• بل تكفيني شقة تتألف من غرفتين ومطبخ • على أن أملك كل ما فيها •••• كما أنها ستكون آية في النظافة •••• وسنعيش في هدوء وسكينة فنخرج معا يوم الاحد ونأكل معا وننام معا • آه يا جينو تخيل فقط كم تكون الحياة جميلة ! »

فلم ينبس بشيء • غير أنني في الواقع لم أتأثر مطلقا بكل ماقلت • بل أحسست وكأني أؤدي دورا كما يفعل الممثل على خشبة المسرح • ولكن ذلك زاد من مرارة الموقف • .فمنذ عشرة أيام فقط كنت أحيا في الحقيقة ذلك الدور السطحي البارد الذى ألعبه الان دون أن يثير في نفسى أقل صدى • وفي تلك الاثناء بينما كنت أتكلم كان جينو يجردني من ملابسي في ضجر • ولاحظت مرة أخرى كما سبق أن فعلت عندما ركبت السيارة أنني ما زلت أحبه • ولعل جسدي الذى كان دائما على أهبة الاستعداد للاستمتاع معه – لا روحي التي كانت عندئذ قد أعرضت عنه – هو الذى بث في نفسى تلك السماحة ولم يفتأ يحثني على سرعة الصفح عنه. أخذ يداعبني ويقبلني. فاضطرب عقلي لقبله ومداعباته وقد تغلبت لذة حواسي على احجام قلبي • وأخيرا تمتمت قائلة في صدق وأنا أهوى الى الخلف فوق الفراش – « آه يا جينو – انك تشعرني وكأني أموت ! »

وفيما بعد دسست ساقى تحت الملاءة وكذلك فعل هو • ورقدنا معا وقد جذبنا الملاءة المطرزة حتى ذقنينا فوق ذلك الفراش الفاخر • وقد تعلقت فوق رأسينا مظلة بها سحابة من الستائر الرقيقة البيضاء التى تنسدل هفهافة على رأس الفراش • كانت الغرفة كلها بيضاء تغطى نوافذها ستائر رقيقة طويلة ويزين جدرانها أثاث جميل خفيض ومرايا مشطوفة وزينات من الزجاج المتلألىء اللامع والرخام والفضة • وكنت أحس بالملاءة الرقيقة الفاخرة على جسدي وكأنها لمسة لذيذة مداعبة • وكانت الحشية تلين فى رقة تحت ثقل أطرافي

كلما تعاطيت الحب في رفق شديد للغاية مما كان يستميلني في عمق الى النوم والراحة . ومن خلال الباب المفتوح أمكنني أن أسمع صوت الماء المتدفق في الحوض هادئا متذمراً . لشد ما أحسست بالرضا ولم يعد في نفسى اثر من الحقد على جينـو . وبدت هـذه أنسب اللحظات لمصارحته بأني أعلم كل شيء لاني كنت واثقة بأنني سأذكر له ذلك في رقة دون أن تشوبه أية شائبه من المرارة .

فقلت في نبرات رقيقة للغاية بعد فترة صمت طويلة ـ « اذن يا جينو فزوجتك تدعى انتونيتا بارتيني . »

ولعله كان ناعسا لانه وثب في عنف قائلا وكأن شخصا ما على حين غرة لطمه على كتفه :

ـ « ماذا قلت ؟ »

ـ « وابنتك الصغيرة تدعى ماريا .. أليس كذلك ؟ » .

كان يود لو احتج مرة أخرى ولكنه نظر في عيني وأدرك أن ذلك لا جدوى منه . كنا نوسد رأسينا نفس الوسادة وقد تجاور وجهانا وكنت أتكلم وفمي يوشك أن يعلو فمه . قلت ـ « قل لي أيها التعس لماذا رويت لي كل هذه الاكاذيب ؟ »

فأجابني قائلا في عنف ـ « لانني أحببتك » .

ـ « لو كنت أحببتني حقا لكان ينبغي أن تقدر مدى شقائي عندما أقف على الحقيقة . ولكنك لم تفكر في هذا ياجينو . أليس كذلك ؟ »

فقاطعني قائلا ـ « لقد أحببتك ففقدت صوابي ... و ... »

قلت ـ « يكفي هذا فقد مرت بي فترة من التعاسة الاليمة ... فلم يكن يجول بخاطري أنك خليق بذلك ... ولكن كل شيء قد انتهى الآن ... ولا تدعنا نذكره مرة أخـرى ... أما الآن فاني ذاهبة للاستحمام . » ثم أبعدت الملاءة وانسللت من الفراش متجهة الى غرفة الحمام . وبقي جينو في مكانه .

كان الحوض قد امتلأ بالماء السـاخن وقد مال لونه الى الزرقة فراقني منظره وسط كل هذا القرميد الابيض والصنابير اللامعة . ووقفت في الحوض حيث ظللت أغوص رويدا في الماء الساخن الذي كان يتصاعد منه البخار . وما أن اضطجعت فيه حتى أغمضت عيني ولم يبلغ سمعي صوت من الغرفة المجاورة . فلاريب أن جينو كان يفكر فيما قلت محاولا أن يرسم خطة ما يمكنه بها أن يتجنب فقداني . فابتسمت عندما تصورته جالسا في الفراش الواسع العريض وأخباري لم تزل كالصفعة على وجهه . ولكن ابتسامتي لم تكن حاقدة بل كان

مبعثها خاطر هزلى مضحك لا شأن له بنا لاننى كما سبق أن قلت لم أشعر نحوه بأى امتعاض بل كان احساسى وقد عرفته على حقيقته لا يعدو أن يكون نوعا من الشغف به . ثم سمعته وهو يتجول فى الغرفة ولعله كان يرتدى ملابسه . وبعد فترة وجيزة أخذ يختلس النظر عند باب غرفة الحمام وهو يتأملنى كالكلب الذليل الذى ضرب بالسوط وكأنه لا يجرؤ على الدخول .

ثم قال فى ذلة بعد فترة صمت طويلة — « اذن فلن نلتقى بعد ذلك » .

ادركت أنه كان يحبنى حقا على طريقته الخاصة ولو أن حبه اياى لم يكن بالدرجة التى تنفره من اللجوء الى الكذب والخديعة . وتذكرت آستاريتا وخطر لى أنه هو أيضا كان يحبنى على طريقته الخاصة .

ثم اجبته قائلة وأنا أغسل احدى ذراعى بالصابون — « ولم لا ؟ فلو اننى لا أرغب فى رؤيتك لما جئت اليوم — فاننا سنلتقى ولكن لماما» .

فبدا وكأن شجاعته قد عاودته عند سماعه هذه الكلمات . فدخل غرفة الحمام وهو يسألنى قائلا — « هل أغسل لك جسدك بالصابون ؟ » .

فلم أتمالك نفسى من التفكير فى أمى التى كانت لا تفتأ تحوطنى بمزيد من الرعاية والعناية كلما تخلت عن سلطتها الابوية .

ولم ألبث أن قلت — « ان شئت فلتغسل بالصابون ظهرى حيث لا يمكن أن تصل يدى » . فالتقط جينو قطعة الصابون والاسفنجة ثم أخذ يغسل لى ظهرى وأنا واقفة . ورحت أتأمل صورتى فى مرآة طويلة كانت تواجه الحوض وخيل لى أننى السيدة التى تمتلك كل هذه الاشياء الجميلة . فلاريب أنها هى أيضا تقف هكذا وتضطر احدى خادماتها — ولعلها فتاة مسكينة مثلى — الى الانحناء لغسل جسدها بالماء والصابون محاذرة أن تخدش أديمها . وتصورت كم تكون الحياة جميلة لو قام شخص آخر على خدمتى ولم أفعل شيئا بيدى : فأظل ساكنة مسترخية بينما تهرول الوصيفة من حولى فى اهتمام شديد ملىء بالاحترام . وتذكرت ذلك الخاطر الساذج الذى مر بذهنى عندما ذهبت الى الفيللا لاول مرة : اننى فى عريى مجردة من ملابسى الرثة أصير ندا لمخدومة جينو . ولكن أشد ما اختلف حظى عن حظها على صورة جائرة للغاية .

ثم قلت لجينو فى سخط — « يكفى هذا » .

فالتقط عباءة الحمام وخرجت من الحوض حيث كان يقدمها الى

خلف ظهرى فالتحفت بها . وأراد أن يعانقنى ولعله شاء أن يرى ان كنت سأصده ولكننى تركته يقبل عنقى بينما وقفت هناك بلا حراك متشحة بعباءة الحمام . ثم بدأ يجفف جسدى كله الى أصبحت مبتدئا بقدمى الى أن بلغ صدرى فى حماس ومهارة وكأنه لم يمارس فى حياته عملا سواه . وأغمضت عينى فخيل لى مرة أخرى أننى السيدة وهو الوصيفة . وحسب سلبيتى رضا اذ اكتشفت فجأة انه بدلا من تجفيفى أخذ يدغدغ جسدى . عندئذ دفعته بعيدا تاركة عباءة الحمام تسقط على الارض ودخلت الغرفة المجاورة على اطراف أصابعى وأنا عارية القدمين . أما جينو فقد مكث فى غرفة الحمام ليفرغ الماء من الحوض .

ارتديت ملابسى بسرعة ثم تجولت فى أرجاء الغرفة متأملة قطع الاثاث ووقفت أمام خوان الزينة المغطى بقطع الذهب وصدف السلحفاة . فلاحظت بين فرش الشعر وزجاجات العطر « بدارة » ذهبية . فالتقطتها وتفحصتها عن كثب فاذا بها ثقيلة . وكان من الواضح انها مصنوعة من الذهب الخالص . كانت مربعة الشكل مخططه بذهب ملتف وفى قفلها فص كبير من الياقوت . ولم أحس بالاغراء قدر احساسي بالاكتشاف . اذ أصبح فى امكانى الان أن افعل كل شىء حتى السرقة . ففتحت حقيبتى ووضعت « البدارة » . ولما كانت ثقيلة فقد انزلقت الى القاع حيث توجد المفاتيح وقطع النقود الصغيرة . وقد راودنى أيضا عند أخذها نوع من اللذة الجنسية التى لا تختلف عما يخالجنى من احساس كلما تلقيت النقود من عشاقى . وفى الواقع فانى لم أكن أدرى ماذا أفعل بمثل هذه « البدارة » الثمينة التى لم تكن تلائم ملابسى أو الحياة التى أحياها . وكنت واثقة من أننى لن أستخدمها . ولكننى بسرقتها بدا لى أننى أساير المنطق الذى بات يوجه الان مجرى حياتى . وخيل لى أننى أستطيع أن أسير فى طريق الرذيلة حتى نهاية الشوط .

وعاد جينو يحدوه اهتمام عبودى بكل صغيرة فبدأ يسوى الفراش ويرتب كل ما كان يعتقد أنه فى غير مكانه الصحيح . وعندما رأيته ينظر حوله فى قلق بعد انتهائه من عمله لكى يتأكد من أن كل شىء فى مكانه المعهود قلت له فى احتقار — « هيا بنا فان مخدومتك لن تلحظ شيئا — وسوف لا تفصل من عملك فى هذه المرة ! » وما ان قلت هذه العبارة حتى رأيت وميضا من الالم يلوح على وجه جينو فأسفت لذلك لان عبارتى كانت حاقدة فضلا عن تجردها من الاخلاص .

ولم نتبس بشيء ونحن فى طريقنا الى الطابق السفلى ولا عند بلوغنا الحديقة نركب السيارة . وكان الليل قد خيم منذ بعض الوقت .
وما ان بدأت السيارة تشق طريقها خلال الشوارع الملتوية فى ذلك الحى الراقى حتى بدأت أبكى فى رفق وكأنى لم أكن أنتظر سوى هـذه اللحظة . بل كنت لا أدرى انا نفسى لماذا أبكى . ومع ذلك فقد امتلأ قلبى بالمرارة . فليس من طبعى أن أمثل أدوار الخيبه والغضب . ومع اننى قد بذلت قصـارى جهدى للاحتفاظ بهدوئى طوال المساء فان كثيرا من أفعالى وأقوالى كان يسـتبطنها الغضب والخيبـة . والان لاول مرة وأنا مازلت أبكى أحسست حقا بالامتعاض من جينو الذى أثار فى نفسى بخيانتـه عواطف بغيضة كانت لا تتفق مع أخلاقى . وتذكرت كم كنت عذبة رقيقة دائما وكيف أننى من الآن فصـاعدا قد لا أكون كذلك فأحسست باليأس يملأ جوانحى وودت أن أسأل جينو بقلب كسير قائلة :

ـ « لماذا فعلت كل هذا ؟ فكيف يمكننى بعد ذلك أن أنساه وألا أعود الى التفكير فيه ؟ »

ولكننى بدلا من ذلك لم أنبس بشيء وابتلعت دموعى ثم هززت رأسى قليلا لاجعل الدموع تتحدر على خدى كما يهز المرء فرع الشجرة ليسقط عنه أنضج ثماره . ولم أكد الحظ ان السيارة كانت وقتذاك تسير بنا عبر المدينة مباشرة . وما ان وقفت حتى غادرتهـا وأنا أمد يدى الى جينو قائلة ـ « سوف أتصل بك » . فنظر الى وقد ارتسم على وجهه الامل ولكنه ما لبث أن تحول الى دهشة عندما رأى وجهى تغسله الدموع . ولكن لم يتسع له الوقت لكى يقول شيئا فقد وليت راكضة وأنا ألوح له بيدى وعلى وجهى ابتسامة مغتصبة .

الفصل التاسع

وهكذا ظلت الحياة تدور أمامي فى نفس الاتجاه دائما ومع نفس الاشـخاص كالاراجيح الدوارة فى مدينة الملاهى حيث كان وميض الاضواء يملأ قلبى بهجة كلما راقبتها وأنا طفلة من خـلال نوافـذ شقتنا .

والاراجيح الدوارة كذلك لا يوجد بها سوى عدد قليل جدا من النماذج التى لا تتغير أبدا . فالبجعـة والقط والسيارة والحصـان والعرش والتنين والبيضة لا تفتـأ تدور جميعها المرة تلو المرة على صوت الموسيقى النائحة فى صرير وصليل لتتبعها من جديد البجعة والقط والسيارة والحصان والعرش والتنين والبيضة وهكذا طوال الليل من أوله الى آخره . وقد بدأت وجوه عشاقى تدور أمامى بنفس الطريقة تماما . وسواء أكانوا رجالا سبق أن قابلتهم أوجـدداً لم أقابلهم فقد كانوا جميعا على غرار واحد . وعاد جياكنتى من ميلان يحمل زوجا من الجوارب الحريرية هدية لى . فظللت بعض الوقت أقابله كل مساء . ثم رحل مرة أخرى فعدت الى مصاحبة جينو الذى لم أفتأ ألتقى به مرة أو مرتين فى الاسبوع . أما فى الاماسى الاخرى فكنت أرافق رجالا ألتقطهم من الطريق أو تقدمهم جيزيلا الى . وكان من بينهم الشبان والكهول والشيوخ كمـا كان فيهم الظـرفاء الذين يعاملوننى برقة والثقلاء الذين يعدوننى سلعة لا تزيد على أن تشرى وتباع . ولكننى لما كنت قد وطنت النفس على عدم الارتباط مطلقا بأحدهم فقد كانت القصة لا تفتأ تتكرر فى النهاية . فكنا نلتقى فى الطريق او فى أحد المقاهى وأحيانا نتناول العشاء معا ثم نهرول عائدين الى شقتى حيث نحتبس فى غرفتى لنمارس الحب ونثرثر قليلا . وبعد ذلك ينقدنى الرجل أجرى وينصرف ثم أنضم الى أمى فى غرفة الجلوس حيث تكون فى انتظارى . فان كنت جوعى تناولت وجبة ثم أويت الى فراشى . وكثيرا ما كنت أتسلل الى الخارج مرة أخرى اذا كان الوقت مبكرا لأعود الى المدينة من جديد بحثا عن رجل آخر . ولكننى كنت أقضى أياما وأياما لا أرى فيها أحدا فأبقى فى المنزل بلا عمل . ولشد ما كان ينتابنى الكسل ــ كسل شهوانى حزين أشبع

به رغبتي فى الراحة والهدوء ـ تلك الرغبة التى كنت اشارك فيها امي وجميع الفقراء الكادحين من حولى . وأحيانا كان مرأى صندوق المدخرات فارغا فحسب خليقا بأن يدفعنى الى الخارج لأجوب الشوارع فى قلب المدينة بحثا عن رفيق ولكن كسلى غالبا ما كان ينتصر فأوثر ان اقترض النقود من جيزيلا او أن ارسل امى لابتياع حاجاتها بالنسيئة .

ومع ذلك فلا يمكننى فى الحقيقة أن أزعم أننى كنت ابغض ذلك الاسلوب فى الحياة . وما لبثت أن ادركت أن حبى لجينو لم يكن شيئا فريدا فى نوعه وأننى لسبب أو آخر كنت أحب الرجال جميعا فى قرارة قلبى . ولست أدرى ان كان ذلك هو ما يحدث لجميع النسوة اللائى يحترفن مهنتى أو أن ذلك معناه أننى ذات أهلية خاصة لها ، ولكننى أعلم فقط أننى كنت لا أفتأ أحس فى كل مـــرة بهزة من الفضول والترقب اللذين قلمــا يخــدعان . فكنت أحب اجسام الشبان الطويلة النحيلة المراهقة وحركاتهم المرتبكة وحياءهم ونظراتهم العاطفية وشعورهم وشفاههم التى تميل الى البرودة فكنت أميل الى الاذرع المفتولة والصدور العريضة والمناكب التى لا يعرف وزنها او قوتها وبطون الرجال وسيقانهم وهم فى مقتبل العمر مكتملو الرجولة. بل لقد أحببت المسنين من الرجال اذ أنهم يختلفون عن النساء من ناحية نشاطهم الذى لا يحد بالعمر فيظلون محتفظين بفتنتهم حتى فى سن الشيخوخة أو يكتسبون فتنة جديدة من نوع خاص . وقــد ساعدنى تغيير عشاقى فى كل مرة على اكتشاف المزايا والعيوب من أول نظرة عن طريق قوة ملاحظتى الحادة الدقيقة التى لا يمكن اكتسابها الا بالخبرة . وفضلا عن ذلك فقــد كان الجسم البشرى مصــدرا لا ينضب معينه من اللذة الغامضة التى لا تعرف الشبع . وكثيرا ما وجدتنى أحملق فى أطراف رفاقى فى الليلة الواحدة أو اتحسسها بأناملى وكأنى أتوق الى تجاوز العلاقة السطحية بيننا لاكتشف كنه جمال أجسادهم وأفسر لنفسى سر ما أحس به نحوهم من انجذاب عميق . ولكننى كنت أحاول قدر امكانى اخفاء ذلك الشعور خشية ان يحسبه هؤلاء الرجال ـ بغرورهم الدائم ـ حبا وتعلقا فيخالوننى مغرمة بهم فى حين أن الحب فى الواقع ـ على قدر ادراكهم على الاقل ـ لم تكن له صلة بمشاعرى التى كانت أقرب الى هزة الخشوع التى تخالجنى كلما أديت فى الكنيسة فرائض دينية معينة .

ومع ذلك فان النقود التى كنت أكسبها عن هذا الطريق لم تكن

طائلة كما قد يتبادر الى الذهن . فلم أستطع أولا أن أكون مثل جيزيلا في جشعها وحبها للمال . فبالرغم من أنني كنت أبغي الاجر بالطبع ولا أرافق الرجال بغية اللهو والتسلية فقد كنت منساقة بحكم طبيعتي

الخاصة لأن أهبهم نفسي بدافع من فيض حيويتي البدنية لا جريا وراء المصلحة المادية . وكنت لا افكر في النقود الا حين يدفع الاجر اى بعد فوات الفرصة . وكان لا يفتأ يراودني اعتقاد غامض بأني أزود الرجال بسلعة لا تكلفني شيئا ولا مقابل لها في العادة . فكنت احس بأن ما أتلقاه من نقود ليس حقا بقدر ما كان هدية . اذ ان الحب في نظرى لا ينبغي أن يكون له مقابل والا استحال تقويمه بالمال مهما كان الثمن. وكان يتنازعني التواضع والغرور فلم يمكنني أن أحدد ثمنا دون أن يبدو لي تعسفيا تماما في تقديره . ولذلك فاني كنت أشكرهم في امتنان عميق للغاية اذا ما أجزلوا لي العطاء وأن قتروا سكت ولم أحتج اذ لم يكن في مقدوري مطلقا أن أقنع نفسي بأني خلعت . ولم يصح عزمي على أن أحذو حذو جيزيلا التي الفت أن تتفق مقدما على الاجر الا بعد تجارب كثيرة مريرة . غير انني كنت في باديء الامر لا أفتأ احس بالخجل ولا أقوى مطلقا على ذكر اى مبلغ الا في صوت خفيض فكانوا في معظم الاحيان لا يفهمون ماذا أقول مما يضطرني الى ترديد ما قلت .

وثمة سبب آخر كان يقلل من مكاسبي هو انني لما كنت اقل حرصا فيما أنفق عني فيما مضى . ولما كان علي — حفاظا على المظهر ولفتا للأنظار — أن أشتري بضعة ثياب وبعض العطر وادوات الزينة واشياء أخرى كنت أحتاج اليها في مهنتي فان النقود التي كنت أتلقاها من عشاقي كانت لا تلبث أن تنفد شأن النقود التي كنت أكسبها من مهنتي كنموذج ومن مساعدة أمي في أعمال الحياكة . فبدا لي انني رغم تضحيتي بشرفي لم اكن أيسر حالا مما مضى . وكانت تمر بي أيام لا أجد فيها مليما واحدا في المنزل تماما كما كان يحدث لي من قبل بل اكثر من ذي قبل . ولشد ما كان يعذبني قلقي لعدم استقرار مستقبلي تماما كما كان يحدث لي من قبل بل على صورة اسوأ من ذي قبل . ولكنني بطبعي أميل الى الهدوء وعدم الاكتراث فلم يسيطر القلق على ذهني قط كما يحدث لغيري من الناس ممن لا يتمتعون

بمثل ما أتمتع به من اتزان وعدم مبالاة . ولكن الفكرة كانت دائما في عقلي الباطن كالدودة التي لا تفتأ تنخر في قطعة الاثاث القديم . وكانت لا تبرح تنذرني بانني لا املك شيئا وانه لا سبيل الى الراحة بنسيان

حالتي كما أنني لا أستطيع تحسينها على صورة حاسمة عن طريق مهنتي التي اخترتها لنفسي .

أما أمي فلم يعد يساورها القلق مطلقا أو على الاقل كانت لا تكشف عنه حتى لو ساورها بالفعل ـ لقد قلت لها في الحال انها لم تعد في حاجة الى اضعاف بصرها بعكوفها على الحياكة طوال النهار . فما لبثت أن تخلت في التو عن معظم أعمالها وكانها كانت طوال حياتها في انتظار تلك اللحظة ولم تحتفظ الا ببضعة أعمال كانت تؤديها كلما أحست بالرغبة في ذلك لا كوسيلة لكسب القوت بل للتسلية وقطع الوقت . فبدا الامر وكأن الجهد الذي بذلته سنين عديدة منذ أن كانت فتاة صغيرة تعمل كخادمة في منزل احد الكتبة قد خاب فجأة دون أن يترك اثرا أو احتمالا لاسترداد قوته مرة أخرى كالمنازل القديمة التي تنهار على عروشها ولا يبقى منها جدار خارجي واحد بل تصير كومة من الانقاض فحسب . وكانت النقود في نظر امرأة كأمي تعني أولا وقبل كل شيء الطعام والراحة ملء جوانحها . فقد توفر لها مزيد من الطعام كما أتاحت لنفسها كل ألوان الراحة التافهة التي كانت في نظرها تميز الاغنياء عن الفقراء كنوم الضحى والنهوض في ساعة متأخرة والقيلولة بعد الغداء والخروج للنزهة من وقت لاخر . ولا يفوتني أن أقول ان تلك التجديدات كانت تمثل في تأثيرها أبغض ظاهرة من مظاهر حياتي الجديدة . ولعل أولئك الذين تعودوا الكد طوال حياتهم لا ينبغي أن يتخلوا عنه مطلقا . ذلك لان البطالة والراحة توديان بهم حتى ولو كان مصدر رزقهم مشروعا يقره الناس كما لم تكن الحال معنا . فما كادت أحوالنا تتحسن حتى بدأت أمي تميل الى البدانة أو بعبارة أدق أن نحافتها القلقة اللاهثة سرعان ما تلاشت وأخذت تترهل بطريقة غير صحية على صورة لها دلالتها رغم أنني لم أستطع ادراك معناها . فاكتنزت أردافها الضامرة وامتلأت كتفاها الهزيلتان . أما وجنتاها اللتان لشد ما كان يبدو عليهما النحول دائما حتى ليخيل لمن يراها أنها لاهثة فقد انتفختا في احمرار . وكانت عيناها هما أكثر ما يحزنني في سمتها . فقد كانتا في الماضي كبيرتين واسعتين لا يفارقهما تعبير ذكي يتطلع على الدوام . أما الان فقد ضاقتا عن ذي قبل ولمعتا ببريق غامض مبهم . ولكنها على الرغم من بدانتها لم تكتسب جمالا أو شبابا . وكانت الاثار الواضحة لذلك التغيير الذي طرا على أسلوب حياتنا تبدو على قوامها ومحياها أكثر مما تبدو علي حتى أنني كنت لا أستطيع النظر اليها دون أن يخالجني شعور أليم بتأنيب

الضمير وبالرثاء وبالنفور . وكان مما يزيد فى حيرتي وارتباكي استسلامها لمظاهر الرضا الجشع المبتهج . والواقع أنها لم تكد تستطيع أن تصدق أنها لم تعد فى حاجة الى الكد وأن تلك المظاهر كانت تنبىء عن شخص لم ينل قط فى حياته كفايته من الطعام أو النوم .

ولكنني بالطبع أخفيت عنها مشاعرى تماما . فلم أشأ أن أزعجها . وعلى أية حال فقد أدركت أننى يجب أن ألوم نفسى قبل أن أوجه اليها اللوم . ولكن ثمة حركة تنبىء بالضيق كانت من وقت لآخر تصدر منى عفوا . وقد بدا لى أن حبى لها الان وقد صارت بدينة منتفخة لا تبرح تتمايل فى مشيتها قد قل عن ذى قبل حينما كانت نحيلة مخبولة لا تفتأ تصرخ فى وجهى وهى تندفع رائحة غادية دون أن ينقطع طوال النهار أنينها وتأوهاتها . وطالما تساءلت قائلة ـ « ترى هل كانت أمى تترهل على هذه الصورة نفسها لو أن ثمة زواجا سعيدا قد أتاح لى حياة ناعمة ميسورة ؟ » يخيل لى الان عندما أفكر فى الامر انها كانت تصير كذلك .. أما ذلك النفـور الذى كانت تثيره بدانتها فى نفسى فانى أرجعه الى النظرة التى لم يكن يسعنى الا أن أنظر بها اليها . فلشد ما امتلأت بتأنيب الضمير والمشاركة فى الاثم .

ولم أخف عن جينو طريقتى الجديدة فى الحياة زمنا طويلا . بل لقد اضطررت فى الواقع الى مصارحته بها فى الحال تقريبا فى أول مرة رأيته فيها بعد ممارستنا الحب فى الفيللا وكان قد مضى على ذلك ما يقرب من عشرة أيام . فقد جاءت أمى لتوقظنى ذات صباح قائلة فى صوت متآمر مكتوم ـ « أتعرفين من ذا الذى جاء يطلب مقابلتك ؟ جينو ! » .

فأجبت قائلة فى بساطة ـ « دعيه يدخل » .

وعندما خاب رجاؤها الى حد ما لاجابتى المقتضبة فتحت النافذة وغادرت الغرفة . ولم تمض لحظة حتى دخل جينو فرأيت فى الحال أنه كان غاضبا منزعجا . لم يحينى بكلمة بل أخذ يسير حول الفراش الى أن توقف أمامى حيث كنت مضطجعة أراقبه والنعاس ملء عينى .

سألنى قائلا ـ « ألم تأخذى شيئا عن طريق الخطأ من فوق خوان الزينة الخاص بسيدتى عند لقائنا بمنزلك ؟ »

فحدثت نفسى قائلة ـ « والان ها هى اللحظة قد حانت ! »

ولاحظت أننى لم أشعر مطلقا بالاثم ولكن خضوع جينو الذليل أحدث فى نفسى ذلك التأثير المؤلم المعهود .

وسألته قائلة ـ « لماذا ؟ » .
ـ لقد اختفت بدارة عظيمة القيمة من الذهب الخالص وبها فص من الياقوت . وقد قلبت مخدومتى الدار رأسا على عقب ولما كانت الفيللا قد وضعت فى حراستى فانى أعلم أنهم يرتابون فى أمرى مع انهم لم ينبسوا بشيء . ولكن من حسن الحظ انها لم تلحظ اختفاءها الا أمس أى بعد مضى أسبوع على عودتها . فمن المحتمل أن تكون احدى الخادمات هى التى سرقتها والا لفصلت فى التو أو وجهت الى التهمة ثم قبض على . اما هذا أو ذاك »
وخشيت أن أكون قد تسببت فى الحاق الاذى بشخص برىء . فسألته قائلة :
ـ « ولكنهم لم يؤذوا أحدا من الخدم ؟ »
فأجاب قائلا فى عصبية ـ « كلا . ولكن احد رجال الشرطة حضر الى الفيللا واستجوبنا جميعا . وقد ساد الاضطراب المنزل مدة يومين » .
فترددت لحظة ثم قلت ـ « انى أخذتها . »
فحملق فى وقد التوى وجهه فى تعبير بغيض قائلا ـ « أأخذتها ؟ أهكذا تقولين لى ذلك ؟ »
ـ « وكيف ينبغى أن أقوله لك ؟ »
ـ « ولكن هذا مايسمونه سرقة . »
ـ « نعم » .
فنظر الى ثم انتابه الغضب فجأة . ولعله خشى النتائج أو لعله تكهن بطريقة غامضة أننى أعده مسئولا عن السرقة قبل كل شيء .
فقال ـ « الى بها ! ماذا دهاك ؟ ألهذا السبب اردت أن تدخلى مخدع سيدتى ؟! انى أرى الآن كل شيء . ولكننى يافتاتى العزيزة لن أتورط فى شيء من هذا القبيل . فان شئت السرقة فلترتكبيها حيثما ترغبين . فذلك لايهمنى فى شيء فيما خلا المنزل الذى أعمل فيه . يالك من لصة ! لو أننى تزوجتك لوقعت فى فخ محكم ـ ولكنت قد تزوجت لصة »

راقبته فى دقة وهو ينفس عن غضبه . فأدهشنى الآن كيف أمكننى أن أظن به الكمال طوال تلك الفترة . اذ انه كان أبعد مايكون عن الكمال . وأخيرا عندما خيل لى أنه قد فرغ من كل مايمكنه أن يقوله فى لومى وتقريعى بدأت اتحدث قائلة ـ « لماذا تنفعل هكذا ياجينو ؟ فهم لايتهمونك بسرقتها ! بل سوف يتحدثون عنها يوما

او يومين ثم يهدأ الامر كله بعد ذلك . والله يعلم كم تملك سيدتك من البدارات » .

فسألنى قائلا — « ولكن ماذا بالله دعاك الى سرقتها ؟ » كان من الواضح انه يريد أن يرغمنى على الاعتراف بما تكهن به فى غموض كما سبق أن قلت .

فأجبت قائلة فى بساطة — « هكذا نغير ما سبب . »

— « هكذا ! هذه ليست اجابة . »

فأجبت قائلة فى هدوء — « أن شئت حقا أن تعرف السبب اذن فقد سرقتها لا لاننى أريدها أو احتاج اليها بل لاننى أستطيع الآن أن أسرق اذا ما عن لى ذلك . »

فابتدرنى قائلا — « ما الذى ترمين اليه ؟ »

ولكننى لم أدعه يسترسل فى حديثه بل قاطعته قائله — « انى أجوب الشوارع ليلا لاقتنص الرجال . ثم أصحبهم الى هنا لينقدونى أجرى . فان كنت أفعل ذلك ففى امكانى أن أسرق أيضا ان شئت . اليس كذلك ؟ »

ففهم ما أعنيه وكان رد الفعل مماثلا تماما لطريقة تفكيره اذ قال — « فى امكانك أن تسرقى ايضا — هذا صحيح . ولكننى لو كنت قد تزوجتك اذن لقبض على ! »

فقلت — « ما كنت عندئذ لافعـــل ذلك . وما أقدمت على هذا الا عندما اكتشفت أن لك زوجة وطفلة . »

وكان طوال الوقت فى انتظار تلك العبارة اذ أنه اجاب قائلا على الفور — « كلا ياعزيزتى — فهذا لن يجديك ! ولا تحاولى أن تنحى باللائمة على . فلا يضطر احد الى احتراف البغاء والسرقة اذا لم تتوفر لديه الرغبة . »

فأجبته قائلة — « من الواضح أننى عندئذ كنت لصة وبغيا دون أن ادرى — فاتحت لى الفرصة لأصير كذلك . »

وادرك من هدوئى انه لم يكن ثمة ما يقال فغير من تكتيكه قائلا — « حسنا — ليس من شانى ان أعرف من انت وماذا تفعلين . ولكننى يجب أن أسترد هذه « البدارة » والا فقدت عملى ان عاجلا او آجلا . فعليك أن تردها لى وسوف أزعم أننى عثرت عليها فى الحديقة أو فى اى مكان آخر . »

فأجبت قائلة فى الحال — « ولم لم تقل لى ذلك من قبل ؟ فلتأخذها ان كنت بذلك لاتفقد عملك . فهى فى الدرج الاول من خزانة الملابس »

فهرع الى خزانة الملابس في الحال وهو يشعر بالراحة حيث فتح الدرج وأخرج « البدارة » ثم وضعها في جيبه ، وبعد ذلك نظر الى وفى عينيه تعبير مختلف فيه لمحه من الخجل ورعبه فى الصلح . ولكننى فى الحقيقة لم أستطع أن أواجه ذلك الموقف المربك الذى اوحت به نظرته ..

فسألته قائلة ـ « أمعك السيارة فى الخارج ؟ »

ـ « نعم » .

ـ « حسنا . لقد تأخر الوقت ويحسن بك ان تنصرف . ولسوف نتحدث فى الامر كله عندما نلتقى فى المرة القادمة . »

ـ « اغاضبة منى ؟ »

ـ « كلا . لست غاضبة منك . »

ـ « بل . غاضبة » .

ـ « كلا . »

ثم تنهد منحنيا فوق الفراش فتركته يقبلنى .

وما ان بلغ الباب حتى سألنى قائلا ـ « هل ستتصلين بى تليفونيا ؟ »

ـ « لا تقلق » .

وهكذا علم جينو بطريقتى الجديدة فى الحياة . ولكننا فى يوم لقائنا لم نذكر « البدارة » أو مهنتى بشيء . فقد كانا أشبه بموضوعين عاديين لايثيران الاهتمام ولا أهمية لهما الا لجدتهما . وكان أسلوبه فى الواقع يحاكى اسلوب أمى تعريبا غير أنه لم يبد عليه لحظة واحدة أنه أحس بالصدمة التى أحست بها أمى عندما اصطحبت جياكنتى الى المنزل لاول مرة ـ تلك الصدمة التى كان لايسعنى الا أن أراها من وقت لآخر مستترة خلف رضاها أو متمثلة فى مظهرها المنتفخ العليل . وكان مما يميز شخصية جينو بصفة رئيسية نوع من المكر المعسول قصير النظر . وانه ليخيل لى أنه عندما علم بالتغيرات التى طرات على حياتى بسبب خيانته لم يزد على أن هز كتفيه قائلا لنفسه ـ « حسنا . ان ثمة طائرين ينقران كرزة واحدة ـ ففى ظل هذه الاوضاع لايمكنها أن تهمنى بشيء كما يمكننى على الرغم من ذلك أن أظل عشيقا لها . » فثمة رجال يحسبون أنفسهم سعداء الحظ اذا ما أمكنهم الاحتفاظ بما يملكون سواء أكان ذلك مالا أو نساء أو الحياة نفسها حتى ولو كان ذلك على حساب كرامتهم . وكان جينو من بين هؤلاء .

وظللت اقابله لانني كما سبق أن قلت لا ازال أحبه على الرغم من كل شيء ولم يكن ثمة من الحب أكثر منه ولأنني رغم ايماني بأن كل شيء قد انتهى بيننا لم أكن راغبة فى قطيعة فجائية بغيضة . وكنت لا أميل مطلقا الى القطيعة التامه أو الانقطاعات الفجائية . ففى رأيى أن كل شيء فى الحياة يموت كما يولد من تلقاء ذاته عن طريق السأم أو عدم الاكتراث أو حتى العادة التى هى فى حد ذاتها نوع من الملل المخلص المنتظم — كما أحب أن أشعر بهذه الاشياء وهى تموت على هذه الصورة بطريقة طبيعية دون أن تكون لى أو لأحد يد فى ذلك ثم تخلى مكانها فى بطء لتحل محلها أشياء أخرى . فاننا قبل كل شيء لانرى فى الحياة مطلقا تغيرات ايجابية واضحة . كما أن أولئك الذين يحدثون تغييرات عاجلة يستهدفون لخطر العودة من جديد الى عاداتهم القديمة التى مازالت حية عميقة الجذور كعهدها دائما .
فكنت أبغى أن اصل الى الدرجة التى لاأكترث عندها لمداعبات جينو كما لا اكترث لكلامه وكنت أخشى أننى اذا لم اترك الامور تأخذ مجراها الطبيعى فانه سوف يظل يظهر دائما فى حياتى على غير توقع ويرغمنى على تجديد علاقتنا القديمة .

وفى تلك الفترة عاد آستاريتا الى الظهور فى طريق حياتى . وكان الامر بشأنه أبسط بكثير مما كان بشأن جينو . فقد كانت جيزيلا تلتقى به سرا وأعتقد أنه كان يضاجعها لا لشيء الا ليتمكن من أن يحدثها عنى . وعلى أية حال فان جيزيلا كانت تتحين الفرصة لتذكره لى . وعندما رات أن فترة طويلة من الزمن قد مرت وأننى قد استعدت هدوئى واعتدال مزاجى انتحت بى جانبا ثم أخبرتنى فى النهاية بعد أن حامت حول الموضوع قليلا أنها قابلت آستاريتا وأنه سأل عن أخبارى . ثم استرسلت قائلة — « ولم يقل شيئا بالذات ولكن كان من الواضح أنه مازال مغرما بك . ولقد أسفت له فى الواقع — اذ انه يبدو تعيسا . وهو لم يقل لى شيئا بالطبع — ولكننى واثقة من انه يود لو يراك مرة أخرى — وقبل كل شيء — » .
فقاطعتها قائلة — « انصتى الى . لا جدوى من مواصلة الحديث بهذه الطريقة ؟ »
— « كيف ؟ »
— بتحويمك حول الموضوع على هذه الصورة ! لم لاتقولين لى على الفور انه أرسلك الى وانه يريد مقابلتى مرة أخرى وانك تعهدت بأن تحملى اليه الرد ؟ »

فقالت وهي مأخوذة الى حد ما — « ولنفرض انني فعلت — ماذا اذن ؟ »

فقلت في هدوء — « اذن فيمكنك أن تبلغيه أنه لامانع لدى مطلقا من مقابلته مرة أخرى — كما أقابل غيره من الرجال بالطبع من وقت لاخر دون ارتباط . »

ولشد ما انتابتها الدهشة لهدوئي . فقد كان يخيل لها أنني أكره آستاريتا وأنني لن أوافق على مقابلته مرة أخرى . اذ أنها لم تكن تدرك أن الحب والبغض لم يعد لهما الآن وجود في نظرى . وظنت كعادتها أن هناك دافعا خفيا .

فقالت بعد لحظة من التفكير يخالط لهجتها شيء من الدهاء — « انك على حق . ولو كنت في مكانك لحذوت حذوك . ففي بعض الحالات عليك أن تتجاهلي مشاعر البغض والكراهية — ان آستاريتا يحبك حقا بل ربما فسخ زواجه ليتزوجك . ومع ذلك — فأنت امرأة أريبة ! وكنت أظنك غاية في السذاجة ! » .

كانت جيزيلا تجهلني تماما . وقد تعلمت من خبرتي معها أنني لو حاولت أن أفسر لها الامور لكان ذلك مضيعة للجهد . ولذا فقد وافقت متظاهرة بعدم الاكتراث قائلة — « هذا هو الموقف بالضبط » ثم تركتها وفي نفسها خليط من الاعجاب والحسد .

فحملت ردى الى آستاريتا وقابلته في محل الحلوى حيث التقيت بجياكنتي لاول مرة . وكان لايزال يهيم بي حبا كما قالت جيزيلا . وفي الواقع فانه ماكاد يراني حتى ابيض لونه وفقد السيطرة على نفسه ولم ينبس بكلمة . فلابد أن عاطفته كانت أقوى منه . واني أعتقد أن بعض النساء الساذجات لايجانبن الصواب حين يقلن كما تقول أمي ان بعض الرجال تسحرهم عشيقاتهم . فقد فرضت عليه نوعا من السـحر دون أية رغبة أو قصد من جانبي . وعلى الرغم من ادراكه ذلك وبذله كل مافي وسعه للتخلص منه كان عاجزا تماما عن تحقيقه . فقد جعلته يحس تجاهي بالنقص على صـورة حاسمة والاعتماد على والخضوع لي . كما جردته نهائيا من كل سـلاح وفرضت عليه نوما مغناطيسيا ووضعته تحت رحمتي . وقد شرح لي فيما بعد انه كان أحيانا يتلو على نفسه الدور البارد المحتقر الذى ينوى أن يؤديه أمامي بل كان يحفظ عباراته عن ظهر قلب . ولكنه ما ان يراني حتى يشحب وجهه ويمتلىء صدره بالالم ويصير عقله صفحة بيضاء ويأبى لسانه أن ينطق . كما كان يبـدو عاجزا عن

مواجهتى ثم يفقد صوابه ويشعر أنه مدفوع بقوة لاتقاوم الى أن يرتمى جاثيا أمامى ومقبلا قدمى .
وفى الواقع فانه كان يختلف عن الآخرين جميعا . أعنى أننى كنت أسيطر على ذهنه تماما . وفى ذلك المساء الذى التقينا فيه ماكدنا نبلغ المنزل بعد تناولنا وجبة فى أحد المطاعم حيث احتوانا صمت عصبى متوتر حتى توسل الى أن أروى له ماوقع لى بالتفصيل منذ يوم ذهابنا الى فيتريو حتى يوم قطيعتى مع جينو . فسألته قائلة فى دهشة ــ « ولماذا تهتم بالامر الى هذا الحد ؟ »
فأجابنى قائلا ــ « ليس لذلك سبب حقيقى . ولكن ألا يستوى الامر فى نظرك ؟ استرسلى فى الحديث ولا تكترثى لى . »
فقلت وأنا أهز كتفى ــ « أما عن نفسى فمادام ذلك يسرك ــ »
ورويت له بالدقة كل ماحدث لى بعد الرحلة . كيف تحدثت الى جينو وكيف اتبعت نصيحة جيزيلا وقابلت جياكنتى ولم أغفل شيئا سوى قصة «البدارة» ولعل مرجع ذلك أن عمله فى الشرطة فلم أشأ أن أحرجه ــ ثم وجه الى عددا من الاسئلة وخاصة حول لقائى بجياكنتى .
وقد بدا لى أنه لم يمل قط سماع التفاصيل حتى خيل لى أنه لايود أن يسمع عن تلك الاشياء فحسب بل أن يراها ويلمسها ويشارك فيها . ولا يمكننى أن أصف لكم كم مرة قاطعنى قائلا ــ « وماذا فعل ؟ » أو « ماذا فعلت ؟ » وعندما انتهيت من سرد قصتى عانقنى وهو يتلعثم قائلا ــ « انه خطئى أولا وأخيرا » .
فقلت وقد سئمت المناقشة الى حد ما ــ « كلا . فان أحدا لم يتسبب فى ذلك . »
ــ « نعم . انه خطئى . فقد كنت أنا الذى حطم حياتك . فلو اننى لم أفعل مافعلته فى فيتريو لأختلف الامر تماما » .
فأسرعت قائلة ــ « انك مخطىء تماما . فلو أن أحدا يستحق اللوم فهو جينو ــ أما أنت فلا شأن لك بما حدث . فانك ياعزيزى قد أردت اغتصابى . وكل مايؤخذ عنوة لا وزن له ــ فلو أن جينو لم يخدعنى لتزوجته ولقصصت عليه كل ماحدث ولصار الامر بعد ذلك وكأنى لم أرك قط فى حياتى » .
ولكنه بدا متشبثا باعتقاده أنه المسئول عما أصابنى لا لانه كان آسفا بل لانه على العكس من ذلك كان يلذ له اقتناعه بأنه أفسدنى وتسبب فى انحرافى . بل ان القول بأن ذلك كان يلذ له تعبير ضعيف للغاية . فحرى بى أن أقول أن الفكرة كانت تثيره ولعل ذلك هو

السبب الرئيسي فى هيامه بى . وقد أدركت ذلك فيما بعد عندما لاحظت أنه كثيرا ما كان يصر كلما التقينا على أن أقص عليه كل ماجرى بينى وبين عشاق الطريق فى فترة فراقنا . وكان وهو ينصت الى قصتى لايفتأ يكسو وجهه تعبير مضطرب متوتر يصيبنى بالارتباك ويملؤنى بالخجل . وبعد ذلك مباشرة يرتمى فوقى ثم لايفتأ يردد فى شبق أثناء المضاجعة الفاظا نابية قاسية مسيئة لن أذكرها هنا ولكنها مهينة حتى لاشد النساء فحشا وعهارة . ولم أستطع قط أن أفهم كيف يمكنه أن يوفق بين هذا الموقف الغريب الشاذ وبين هيامه بى . فمن المحال فى رأيى أن يقع المرء فى حب امرأة ولا يشعر نحوها بالاحترام . ولكن الحب عند آستاريتا كان ممزوجا بالقسوة وكان كل منهما لايفتأ يضفى على الآخر لونه وقوته . وأحيانا كان يخيل لى أن انفعاله الغريب لاقتناعه بأنه السبب فى انحرافى كان من وحى مهنته كعضو فى المباحث العامة . فان عمله على قدر ادراكى كان ينحصر فى اكتشاف نقطة الضعف عند المتهم وفى اذلاله والحط من كرامته على صورة تجعله بعد ذلك لايؤذى أحدا قط . وقد اعترف لى هو نفسه ولو أننى لا أستطيع أن أذكر المناسبة انه كلما نجح فى اقناع متهم بالاعتراف أو دفعه الى الانهيار كان لايفتأ يحس بنوع من الاشباع الغريب كذلك الذى يشعر به عند المضاجعة . وكان يقول — « المتهم كالمرأة يمكنها أن ترفع رأسها عاليا مادامت تقاوم . ولكنها ما أن تستسلم حتى تصير خرقة بالية يمكنك أن تنالها من جديد كيفما تشاء ووقتما تشاء » . ولكن لعل قسوته ورضاه طبيعيان فيه . ولعله اختار مهنته لهذا السبب فحسب وليس العكس .

وكان آستاريتا شقيا فى حياته . بل اننى فى الواقع لم أعرف فى حياتى من هو أشقى منه وأعصى علاجا لان شقاءه لم يكن يرجع الى أى سبب خارجى بل كان ينبع من ضعف ما أو التواء فى نفسيته استغلق على ادراكى فلم أنجح قط فى الوصول الى جذوره . وكان كلما أعفانى من أن أقص عليه مغامرات مهنتى لايفتأ يجثو أمامى موسدا رأسه حجرى حيث يمكث على هذه الصورة بلا حراك ساعة كاملة . وما كان على الا أن أربت على رأسه برفق من وقت لآخر كما تربت الامهات على رءوس أطفالهن . وكان بين الحين والحين يطلق أنينا . ولعله أنين البكاء . ومع اننى لم اشعر مطلقا بالحب نحو آستاريتا فانه فى تلك اللحظات كان لايفتأ يثير فى نفسى شعورا عميقا بالشفقة لاننى كنت أرى أنه يعانى ولا أجد سبيلا الى تخفيف معاناته

وكان يتحدث فى مرارة شديدة عن أسرته : عن زوجته التى كان يكرهها وعن طفلتيه اللتين لم يكن يحبهما وعن أبويه اللذين ساماه خسفا فى طفولته وأرغماه على زيجة كانت سببا فى نكبته وهو لايزال شابا غرا . وكان لايكاد يذكر مهنته . ولكنه قال لى فى مناسبة واحدة فقط وقد ارتسم على وجهه تعبير ينطق بالبغض الغريب ــ « ان المنزل يحتوى على أشياء كثيرة نافعة حتى ولو لم تكن جميعها نظيفة . وأنا أحد هذه الاشياء ــ المزبلة حيث تجمع القمامة . » ومع ذلك فقد انطبع فى ذهنى أنه كان يعد مهنته بصفة عامة عملا شريفا . وبقدر ما أتاحته لى زيارتى له فى الوزارة وأسلوبه فى الحديث الذى تميز بالحماس والكتمان وحدة البصيرة والنزاهة والصلابة يمكننى أن أحكم عليه بأنه كان موظفا مثاليا شديد الاحساس بالواجب .. ومع أنه كان يشكل جزءا من قوة المباحث العامة فانه كان يصرح بأنه لايعرف شيئا عن السياسة . وقد قال لى فى مناسبة أخرى ــ « ما أنا الا ترس فى العجلة أنفذ ما يأمروننى به » .

وكان آستاريتا يود لو يلقانى كل مساء ولكننى فضلا عن رغبتى فى عدم الارتباط برجل واحد كما سبق أن قلت فانى لم أفتأ أشعر معه بالملل كما كنت أضيق بلهجته الجادة المتشنجة المهتزة وأساليبه الغريبة حتى أننى رغم رثائى له لم أفتأ أتنفس الصعداء كلما فارقته . ولهذا السبب حاولت الا أقابله سوى مرة واحدة فى الاسبوع . ولا شك أن لقاءنا اليسير يساعد على تأجج رغبته ويقظتهـــا المستمرة فى حين أننى من الناحية الاخرى لو كنت قد وافقت على الحياة معه كما كان لايفتأ يقترح على لتعود وجودى رويدا رويدا ولرآنى فى النهاية على حقيقتى ــ فتاة مسكينة كعشرات الاخريات .

وقد أعطانى رقم تليفون مكتبه فى الوزارة وكان رقما سريا لايعرفه سوى مدير الشرطة ورئيس الحكومة ونفر قليل من الشـــخصيات الهامة . وكان كلما اتصلت به تليفونيا يرد على فى الحال ولكنه لايكاد يتعرف على حتى يضطرب صوته الذى كان صافيا هادئا منذ لحظة واحدة ثم يأخذ فى اللعثمة . وفى الواقع فانى قد غزوت قلبه تماما وجعلته طوع بنانى كالعبد الذليل . واذكر اننى ذات مرة مررت بيدى على وجنته وانا شاردة ذاهلة دون ان يطلب الى ذلك . فقبض عليها فى انحال وقبلها فى حب وشبق . ثم طلب الى ان اعيد الكرة فى مناسبات أخرى فألمسه لمسة تلقائية ولكن مثل هذه المداعبات لايمكن أن تمنح تلبية لرغبة المشترى .

وغالبا ماكنت أفتقد الرغبة فى الخروج الى الشــوارع لاقتناص الرجال فأمكث فى المنزل . ولكننى كنت لا أحب البقاء مع أمى لان حديثنا على الرغم من اتفاقنا الضمنى على الامتنــاع عن ذكر مهنتى كان لايفتأ يدور حولها فى تلميحات مرتبكة حتى أننى كدت أفضل الحديث عنها صراحة ودون مواربة . ولذلك كنت أحتبس فى غرفتى حيث أتمدد على الفراش محذرة أمى من ازعاجى . ومع أن غرفتى كانت تطل على الفناء فان النافذة المغلقة كانت تحول دون وصول الضوضاء الى مسامعى . وكانت تأخذنى سنة من النوم فترة وجيزة ثم أنهض من الفراش لاتجول فى الغرفة وقد شغلت بعمل تافه كترتيب متاعى أو ازالة ماعلق بالاثاث من غبار . وكانت تلك الاعمال لاتعدو أن تكون حافزا لعقلى على العمل ومحاولة لايجــاد جو من الخلوة العنيفة المنعزلة . وكنت أستغرق رويدا رويدا فى خواطرى الى أن يتوقف عقلى تقريبا عن التفــكير فى النهاية وأقنع بالاحســاس بالحياة بعد كل ذلك الوقت الضائع والاساليب المرهقة .

وكان لايفتأ يغشانى فى لحظة معينة شعور عميق بالحيرة خلال الساعات التى كنت أقضيها فى تلك العزلة المنفردة . فيبدو لى فجأة أننى أرى حياتى بأسرها فى وضــوح بارد قاس وكذلك نفسى كلها من جميع الجوانب . وكانت الاعمال التى أمارسها لاتفتأ تتكرر أمامى وتفقد جوهر معناها وتتحول الى مجرد حركات ظاهرية سـخيفة مستغلقة . فكنت أحدث نفسى قائلة ــ « كثيرا ما أعود الى المنزل وفى رفقتى رجل كان ينتظرنى فى جنح الليل دون أن يعرفنى . فنتصارع على هذا الفراش متعانقين فى قوة وحماس وقد تشبث كل منا بالاخر كعدوين لدودين استحكم بينهما العداء . ثم يعطينى قصاصة من الورق مطبوعة ملونة . وفى اليوم التالى اسـتبدل بهذه القصاصة الطعام والملابس وغيرهما من السلع . » ولكن هذه العبارات لم تكن الا خطــوة أولى فى سلسلة الخطــوات التى تؤدى الى حيرة أعمق وأشد . فكانت تلك العبارات تمحو من ذهنى حكمه على مهنتى ذلك الحكم الذى كان لا يفتــأ يوجد جاثما هنــاك . فتصــور لى مهنتى فى صــورة سلســلة من الحــركات التى لا معنى لهــا والتى تشــبه من جميــع الوجــوه حركات المهــن الاخــرى .

وبعد ذلك مباشرة ثمة صوت بعيد فى المدينة أو صرير قطعة أثاث فى الغرفة كان يبعث فى نفسى ادراكا سخيفا مضحكا لوجودى يكاد يكون مثيرا عنيفا عارما . فأحدث نفسى قائلة ــ « ها أنذى وربما كنت فى مكان آخر ــ ربما وجدت منذ الف عام أو بعد الف عام ــ وربما كنت

www.library4arab.com/vb

زنجية أو عجوزا شقراء أو قصيرة ــ » وكان يجول بخاطرى كيف
أننى خرجت من ليل لانهائى ولن ألبث أن ألج ليلا لا نهائيا آخر وكيف

أن مرورى العابر الفصيح كان لايتميز الا بأعمال سخيفة عارضة .
وعندئذ ادرك أن ماكنت أفعله لم يكن هو السبب فى غمتى بل كان
على صورة أعمق مجرد وجودى على قيد الحياة ولم يكن ذلك خيرا
ولا شرا بل شيئا أليما خاويا من المعنى .

وما أن تنهار شجاعتى حتى ينتابنى الخوف بضع لحظات . فكنت
لا أفتأ أرتعد على صورة لا سبيل الى كبح جماحها ويقف شعرى .
وفجأة تبدو لى جدران شقتى بل المدينة كلها بل العالم بأسره وقد
تلاشى وأظل أنا معلقة فى فضاء خاو مظلم لانهائى ــ بل اكثر من ذلك
أن ملابسى تظل كما هى وذكرياتى لاتتغير وكذلك اسمى ومهنتى .
ثمة فتاة تدعى آدريانا معلقة فى وجه العدم . وكان العدم يبدو لى
شيئا جهما رهيبا مستغلقا . وكان أشد مايحزننى فى الامر كله اننى
كنت ألقى العدم بنفس الطريقة التى ألقى بها جيزيلا فى المساء فى
محل الحلوى حيث تعودت ان تنتظرنى دون أن يتغير أسلوبى أو مظهرى
الخارجى . ولم يكن يعزينى أن غيرى من الناس أيضا كانوا يتصرفون
ويتحركون بنفس الطريقة العقيمة القاصرة التى لم أفتأ أتبعها كلما
ووجهت بهذا العدم ووجدت فيه وأحطت به . وكنت لا أزيد على
أن أدهش لغفلتهم عنه وعدم ابدائهم ملاحظاتهم عليه وعدم اشارتهم
اليه مرارا وتكرارا كما يحدث عادة عندما يكتشف عدد كبير من الناس
فى نفس اللحظة حقيقة واحدة .

حينذاك كنت أرتمى جاثية على ركبتى لأصلى الى الله . ولعل
ذلك لم يكن بارادتى الواعية بقدر ماكان عادة اكتسبتها فى طفولتى .
ولكننى كنت لا أردد الفاظ الصلوات العادية التى تبدو لى بالنظر
الى حالتى النفسية الفجائية أطول مما ينبغى . فكنت أرتمى جاثية
على ركبتى فى عنف شديد لاتفتأ تتألم منه ساقاى بضعة أيام بعــد
ذلك . ثم أصلى بصوت عال يملؤه اليأس مرددة هذه الكلمات القليلة
فقط ــ « ارحمنى يايسوع المسيح » . ولم تكن فى الحقيقة صــلاة
بل معادلة سحرية كنت أحسبها تبدد الملل وتردنى الى الواقع مرة

أخرى . وبعد أن أطلق صيحتى التلقائية على هذه الصورة بكل قواى
أظل بعض الوقت محتفنة وجهى بيدى فى استغراق تام . وأخيرا
أحس بعقلى وقد صار صفحة بيضاء وبالملل يراودنى وبأننى مازلت
آدريانا كما كنت دائما وبأننى فى غرفتى الخاصــة . ثم أتحسس

جسدى وأنا فى شبه دهشة لسلامته . وما ان أنهض من ركمتى حتى آوى الى فراشى . ولشد ما كنت أحس بالتعب والالم فى جميع اجزاء جسدى وكأننى قد سقطت فوق منحدر صخرى . ثم لا البث ان استغرق فى النوم .

ومع ذلك فان تلك الحالات النفسية لم يكن لها تأثير على حياتى اليومية . بل كنت أظل كما انا بنفس الشخصية وبنفس الخلق — آدريانا التى تصحب الرجال الى المنزل لقاء النقود والتى تجوب الشوارع مع جيزيلا والتى تتحدث فى أمور تافهة مع أمها ومع الناس جميعا . وكان يدهشنى ذلك الاختلاف الشديد بينى فى وحدتى وفى صحبة آخرين وبين علاقتى بنفسى وعلاقتى بغيرى . ولكننى لم أخدع نفسى بتوهمى أننى الوحيدة التى تخالجها مثل هذه المشاعر العنيفة اليائسة . بل كان يخيل لى أن كل شخص يشعر بلاريب ولو مرة واحدة فى اليوم على الاقل أن حياته تقلصت حتى صارت نقطة واحدة من الالم السخيف الذى يفوق الوصف ، غير أنه من الواضح أن شعوره ذاك كان لايحدث أثرا ملموسا فى حياته . فكان كل منهم يترك منزله كما افعل ليهيم على وجهه مؤديا فى أمانة واخلاص دوره الذى لا أمانة فيه . وقد دعم ذلك الخاطر اعتقادى أن البشر جميعا دون استثناء يستحقون الرثاء ولو كان ذلك لبقائهم على قيد الحياة فحسب .

القسم الثاني

الفصل الأول

وعندئذ كنا قد صرنا انا وجيزيلا شريكتين اكثر منا صديقتين . حقا اننا لم نتفق على الاماكن التى نتردد عليهـا لان جيزيلا كانت تفضل المطاعم والمحال الانيقة فى حين اوثر انا المقاهى البسيطـة بل الطرقات . ولكننا نجحنا فى الوصول الى اتفاق حتى فى ذلك الشان الذى تختلف حوله الميول . فكنا نقصد الاماكن المختلفة على التوالى . وذات مساء بعد تناولنا العشـاء من غير طائل فى احد المطاعم كنا فى طريقنا الى المنزل عندما احسست بسيارة تتعقبنا . واسررت الى جيزيلا منذرة اياها اننا ربما تلقينا عرضا . وكانت غاضبة فى ذلك المساء لانها اضطرت الى دفع ثمن عشائها دون أن يتمخض ذلك عن شىء فى حين انها كانت منذ فترة وجيزة تعانى ضائقة مالية شديدة . فأجابتنى قائلة فى وقاحة : « يمكنك ان تمضى معهم ان شئت . اما انا فذاهبة الى المنزل لانام » . وفى تلك الاثناء كانت السـيارة قد اقتربت من حافة الافريز واخذت تسـير ببطء فى محاذاتنا . وكانت جيزيلا تمشى بالقرب من جدران المنـازل بينما اسير انا من ناحية الطريق . وعندما القيت نظرة جانبيـة رايت رجلين فى السيارة . فهمست قائلة لجيزيلا : « ما العمل ؟ ما لم تاتى معى فلن اذهب انا ايضا »

فاختلست بدورها نظرة الى السيارة وبدا عليهـا التردد لحظة وهى لا تزال فى حال من السخط ثم قالت بلهجة حـازمة : « لن اذهب . ولتمضى انت . اتخافين ؟ » .

ـ « كلا . ولكننى لن اذهب ما لم تاتى انت ايضا . »

فهزت راسها والقت نظرة اخرى على السيـارة التى ما زالت تسير بمحاذاتنا ثم قالت وكأنها قد حزمت رايها فجأة : « حسنا . ولـكن عليك ان تتظـاهرى بالرفض حتى نستدرجهما الى ممر الحديقة فانا لا اصل الى اقناعهما هنا فى الطريق العام » .

فسرنا مسافة تقرب من خمسين ياردة والسيارة لا تفتأ تسير بمحاذاتنا طوال الوقت الى ان بلغنا ناصية انحرفت عندها جيزيلا فاذا بنا فى شارع جانبى مظلم ضيق ذى افريز صغير يمتد بمحاذاة

جدار قديم تغطيه الاعلانات ـ فسمعنا السيارة وهى تنحرف أيضا فى الطريق الجانبى ثم سقطت علينا أشعة الكشافات الامامية وكانت بيضاء باهرة . فأحسسنا وكأن الضوء قد جردنا من ثيابنا

وسمرنا الى الحائط الرطب الذى يكسوه الاعلانات الباهتة الممزقة . فوقفنا فى سكون . ثم قالت لى جيزيلا بصوت خفيض : « أى صنف من الناس هذان المخلوقان ؟ ألم ينعما النظر الينا فى الطريق العام ؟ ان الرغبة تراودنى فى العودة الى المنزل » .

فأسرعت قائلة فى توسل : « لا ، لا ، لا تفعلى ! ماذا يهم ؟ فجميعهم ينحون هذا النحو » . ولشد ما أحسست بالرغبة فى لقاء هذين الرجلين فى السيارة ولا أدرى أنا نفسى سببا لذلك .

فهزت كتفيها وارتعشت الاضواء الكاشفة فى نفس الوقت ثم انطفأت . ووقفت السيارة أمامنا بالقرب من الافريز . ثم أطل السائق برأسه الاشقر الى خارج النافذة قائلا بصوت مدو :

ـ « طاب مساؤكما » .

فأجابته جيزيلا قائلة فى ترفع : « ومساؤكما » .

فأردف قائلا : « الى أين تذهبان وحيدتين ؟ الا يمكننا أن نكون فى صحبتكما ؟ » .

وكانت تلك العبارات مبتذلة سبق أن سمعتها مئات المرات رغم مافيها من لهجة متهكمة تنم عن شخص يظن بنفسه الذكاءالمفرط .

فأجابت جيزيلا قائلة دون أن تفارقها لهجتها المترفعة : « هذا كله يتوقف . . . » وكانت هى أيضا لا تفتأ تعطى نفس الردود .

فالح الرجل الذى يقود السيارة قائلا «أوه هلم بنا الان ! علام يتوقف ؟ » .

فقالت جيزيلا متجهة نحو السيارة وواضعة يدها على الباب : « كم تنقدانا ؟ » .

ـ « كم تطلبان ؟ »

فحددت جيزيلا مبلغا من المال . فصاح قائلا فى صوت حاد : « ولكنكما تغاليان . فهذا ثمن باهظ ! » ومع ذلك فقد بدا ميالا لقبول العرض . واذا بصديقه الذى اختفى وجهه يتكىء الى الامام هامسا بشىء فى أذنه . ولكن الشاب الاشقر هز كتفيه ثم التفت الينا قائلا :

ـ « حسنا ، فلتدخلا السيارة » .

وفتح صديقه الباب ثم هبط من السيارة ومضى ليجلس فى

المقعد الخلفى . ودعانى الى الجلوس بجانبه بعد أن فتح الباب المجاور لى . كما جلست جيزيلا بجانب الشاب الاشقر الذى التفت نحوها قائلا : « الى أين نذهب ؟ » .

فأجابته قائلة : « الى شقة آدريانا » . ثم أدلت اليه بالعنوان . فقال الشاب الاشقر : « هذا جميل . فلنذهب الى شقة آدريانا » .

وكان من عادتى كلما وجدت فى سيارة أو أى مكان آخر مع أحد هؤلاء الرجال الذين لا أعرفهم ان ألوذ بالصمت والسكون فى انتظار أن تبدر منهم كلمة أو حركة . وكنت أعلم من خبرتى أنهم يتشوقون الى المبادرة ولا يحتاجون الى تشجيع . وفى ذلك المساء أيضا لزمت الصمت والسكون بينما أخذت السيارة تشق طريقها خلال المدينة . ولم أستطع أن أتبين من الشخص الجالس الى جوارى الذى تعين بحكم ترتيب الاماكن ان يكون عشيقى فى تلك الليلة سوى يديه الطويلتين النحيلتين البيضاوين الموضوعتين على ركبته . لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه حركة وقد اختفى رأسه فى الظلام . وخيل لى انه ربما كان حييا فاحسست فجأة بأنى مشدودة اليه . فقد كنت أنا أيضا حيية وكان الحياء لايفتأ يؤثر فى لأنه يذكرنى بما كنت عليه قبل لقائى بجينو . ومع ذلك فان جيزيلا كانت تتحدث وكانت تميل الى الحديث عن أمور تافهة فى أدب وأطناب قدر امكانها وكأنها سيدة فى صحبة رجال يحترمونها .

وسمعتها فى لحظة معينة تسأل رفيقها قائلة : « أهذه سيارتك؟ »
فأجابها قائلا : « نعم . فانى لم أرهنها بعد . أتعجبك ؟ » .
فقالت جيزيلا فى هدوء : « انها مريحة للغاية . ولكننى أفضل سيارات « لانسيا » فهى أسرع من هذه كما انها ذات لوالب أقوى . ان خطيبى يملك سيارة « لانسيا » » .

وكانت صادقة فيما قالت . فقد كان ريكاردو يملك سيارة « لانسيا » . ولكنه لم يكن قط خطيب جيزيلا . وحينذاك كانت جيزيلا قد انقطعت عن لقائه بعض الوقت . فبدأ الشاب يضحك قائلا : « ان خطيبك يملك سيارة « لانسيا » تسير على عجلتين ! »

وكانت جيزيلا سريعة الغضب . بل كانت أتفه الملاحظات خليقة بأن تغضبها . فقالت فى استياء : « قل لى ماذا تحسبنا ؟ » .

فقال الشاب الاشقر : « لست أدرى . أخبرينى من أنتما حتى لا أسىء التصرف » .

وثمة لازمة أخرى من لوازم جيزيلا التى كانت لا تفتأ تتبعها مع عشاق الطريق هي انتحال صفة ليست لها ، فتزعم أنها راقصة أو ناسخة أو سيدة محترمة . ولم تكن تدرك ان ادعاءها ذلك يتنافى تماما مع سهولةالتفاهم معها كما يتنافىمع تمسكهادائما بضرورةالاتفاق فورا على الناحية المالية . فقالت فى كبرياء : « اننا راقصتان فى فرقة كاتشينى . وليس من عادتنا الخروج مع أول رجل نلقاه فى الطريق. ولـكن لمـا كانت الفرقة لم تستعد بعد كما يجب فقد كنا نقوم بنزهة قصيرة هذا المساء . كما اننى فى الواقع لم أشأ قبول عرضكما ولـكن صديقتى قالت انكما تبدوان مهذبين . ولو علم خطيبى بذلك لقتلنى ... »

فضحك الرجل الاشقر مرة أخرى قائلا : « لاشك اننا شخصان مهذبان ! ولـكنكما بغيان ! لم لا ؟ » .

فتكلم صـديقى لاول مرة قائلا فى صـوت هادىء : « اصمت يا جيانكاريو » .

ولم أنبس بكلمة . وكنت أكره أن أنعت بهذا الاسم لمـا وراءه من قصد حقود ولكنه يمثل الحقيقة رغم كل شىء .

فقالت جيزيلا : « أولا هذا افتراء . وفضلا عن ذلك فأنت وغد »

فلم يفه الشاب الاشقر بشىء . ولـكنه قلل من سرعة السيارة فى الحال ثم أوقفها بجانب حافة الافريز . وكنا فى شارع جانبى مهجور ذى اضاءة خافتة تحف به المنازل من الجانبين . والتفت نحو جيزيلا قائلا : « ولنفرض اننى ألقيت بك الى خارج السيارة ؟»

فقالت جيزيلا منسحبة الى الخلف : « اذن فلتحاول ! » ولشد ما كانت شجاعة لا تهاب أحدا .

وعندئذ اتكأ جارى الى الامام تجاه المقعد الامامى فرأيت وجهه . كان أسمر اللون تجلل جبهته العالية خصـلة من الشعر وكان ذا عينين نجلاوين سوداوين بارزتين وأنف مستقيم وأضـح المعـالم وشفتين مقوستين وذقن قبيح مرتد الى الداخل . ولشد ما كان نحيفا حتى أن حرقوته ظهرت فوق ياقته . قال مخاطبا الرجـل الاشقر متشددا على ألفاظه ولـكن فى أناة . فبدا لى وكأنه يتداخل فى أمر لا يخصه مطلقا فى الحقيقة : « هل ستصمت أم لا ؟ » ولم يتميز صوته بالعمق أو الرجولة المفرطة بل بدا وكأنه قابل لان يصير نشازا صارخا فى سهولة .

فقال صديقه ملتفتا نحوه : « وما شأنك بهذا ؟ » ومع ذلك فقد كان صوته غريبا وكأنه خجل فعلا من فظاظته وغير آسف لتدخل صديقه . ثم استرسل جارى قائلا : « ما هذا السلوك ؟ لقد دعوناهما .. فوثقتا بنا .. وها نحن الآن نهينهما ! » والتفت الى جيزيلا قائلا فى رقة : « لا تهتمى بما يقول . فلعله أفرط فى الشراب! وانى واثق انه لا يقصد اساءتك » . فأتى الرجل الاشقر حركة احتجاج ولكن رفيقه اسكته بوضع يده على ذراعه قائلا بلهجة قاطعة : « أؤكد لك انك افرطت فى الشراب وانك لم تقصد اهانتها. والآن فلنواصل طريقنا » .

وقالت جيزيلا فى صوت مرتعش : « انى لم أحضر الى هنا لكى أهان » . وبدت هى أيضا شاكرة للرجل الاسمر تدخله .

فقال : « بالطبع فليس ثمة من يحب أن يهان .. لاشك فى ذلك ! » وأخذ الرجل الاشقر يحملق فيهما وقد علت وجهه الاحمر الذى بدا متورما تكسوه بقع من الكدمات نظرة غبية حمقاء . كانت عيناه مستديرتين ذاتى زرقة رمادية كما بدا فمه الاحمر الكبير نهما لا يكبح جماحه . أخذ يحملق فى صديقه الذى لم يفتأ يربت على كتف جيزيلا مهدئا وأخيرا انفجر ضاحكا وهو يهتف قائلا : «أقسم بشرفى اننى لادرى ماذا حدث وأين نحن الان ؟ ولماذا نتشاجر؟ بل انى لا أستطيع أن أذكر كيف بدأ كل هذا . فها نحن نتشاجر بدلا من ان نكون جميعا أصدقاء . انه لامر خليق يدفع المرء الى الجنون » . كان يضج بالضحك ثم التفت الى جيزيلا قائلا وهو مازال يضحك : « دعك من هذا ياحسنائى ولا تغضبى ، فان كلينا فى الحقيقة قد خلق للآخر .. »

فقالت مغتصبة ابتسامة : « ذلك بالضبط هو ما كان يدور بخلدى فى الحقيقة » .

ثم استرسل قائلا فى صوت حاد وهو يضحك بكل قوته : « ألست أظرف مخلوق فى الوجود ياجياكومو ؟ فانك تجدين فى كل ما تتمنين. ولكن عليك أن تعرفى كيف تكسبين رضاى . هذا هو كل ماهنالك . هيا .. اعطنى الآن قبلة . ثم اتكأ الى الامام واضعا ذراعه حول خصر جيزيلا فأخرجت من حقيبتها منديلا أزالت به عن فمها أحمر الشفاه ثم قبلته على شفتيه معتذرة . وبينما كانت تقبله أخذ يلوى أصابعه بحركة تشنجية متظاهرا بالاختناق ومحيلا الموقف كله الى مشهد هزلى . ثم ما لبثا أن انفصلا فى الحال تقريبا. وعاد

يحرك السيارة من جديد بحركات بطيئة قائلا : « ها نحن ننطلق من جديد ! وأقسم انني لن أكون سببا فى شكواك منى بعد ذلك فسأكون غاية فى الحزم وآية فى حسن السلوك شأن الجنتلمان الاصيل . ويمكنكم أن تضربونى ان ساء سلوكى » . ثم انطلقت السيارة من جديد .

وظل طوال الطريق يتحدث ويضحك ضحكا مدويا بل ويرفع يديه عن عجلة القيادة ليشير بهما مما كان يعرضنا لخطر وشيك . أما جارى فانه على العكس من ذلك قد عاد بعد تدخله المقتضب الى التزام الصمت فى ركنه المظلم . وعندئذ لشد ما احسست بنفسى منجذبة اليه وقد توترت أعصابى على صورة غريبة .. وانى أرى الآن وأنا أعود بذاكرتى الى تلك اللحظة اننى حينئذ وقعت أسيرة هواه أو على الاقل أخذت أربط بينه وبين جميع الاشياء التى كنت أحبها ولم انلها قط حتى ذلك الوقت . فلابد أن يكون الحب كاملا قبل كل شىء وليس مقصورا على الاشباع الجسدى . وكنت لاازال أنشد الكمال الذى خيل لى من قبل اننى وجدته فى جينو . ولعلها كانت المرة الاولى .. لا منذ احترافى تلك المهنة فحسب ، بل فى حياتى بأسرها .. التى صادفت فيها رجلا لهمثل صوته وآدابه . فلا شك ان الرسام البدين الذى وقفت له فى البداية كان يشبهه الى حد ما ولكنه كان أهدأ منه وأقوى سيطرة على نفسه . وعلى أية حال فلو شئت لوقعت فى غرامه أيضا . لقد أثار فى نفسى صوت ذلك الشاب وأسلوبه تلك الاحساسات التى خالجتنى عندما ذهبت لاول مرة الى فيللا مخدومة جينو ولكن على صورة مختلفة . فمثلما احسست بافتتان خارج عن المألوف ازاء ما يسود الفيللا من نظام وراحة ونظافة وخيل لى ان المرء ما لم يستطع أن يقيم فى منزل كهذا فان الحياة تبدو غير جديرة بأن يحياها .. كذلك الآن فلشد ما جذبنى اليه فى شغف صوته وحركاته الرقيقة وكل ماكانت تنبىء به سمات شخصيته . ولقد تحركت فى نفس الوقت رغبتى الجسدية فتمنيت أن تلمسنى يداه وأن تقبلنى شفتاه . وأدركت ان ذلك المزيج العنيف الذى يفوق الوصف من الامانى القديمة والرغبة الحالية التى هى جوهر الحب ورفيقه الذى لا مناص منه كان يعتمل فى نفسى بالفعل . ولكننى لشد ما خشيت أن يلاحظ شعورى فيهرب منى . ودفعنى الخوف الى أن أمد يدى نحوه لعله يمسك بها ويضغط عليها . ولكن يديه لم تكترثا للمسة

أصابعي المرتبكة التي كانت تحاول أن تتشابك مع أصابعه . ولشد ما انتابني الارتباك لانني لم أشأ أن أسحب يدي بعيدا و لكنني أحسست في نفس الوقت أنني مضطرة الى ذلك ما دمت لم أجد فيه بادرة تدل على الحياة . وعندما انحرفت السيارة بعنف فى أحد المنحنيات ارتمى كلانا على الآخر وتظاهرت بأننى فقدت توازنى فارتميت برأسى على ركبتيه . فارتعش ولكنه لم يتحرك . ولشد ما أمتعتنى حركة السيارة فقد أغمضت عينى ودفعت بوجهى بين يديه لاغرق بينهما كما يفعل الكلب ثم قبلتهما وحاولت أن اجعلهما تربتان على وجهى بلمسة عاطفية تمنيت أن تكون تلقائية . فأدركت اننى قد فقدت صوابى وأدهشنى على صورة غامضة أن تؤدى بضع كلمات رقيقة الى مثل هذه الحالة من الاضطراب . ولكنه لم يمنحنى تلك اللمسه التى لشد ما استجديتها فى ذلة ثم ما لبث أن سحب يديه . وفى الحال توقفت السيارة .

فوثب الرجل الاشقر الى الخارج وعاون جيزيلا على الهبوط من السيارة فى مجاملة كاذبة . وهبطنا نحن أيضا . ثم فتحت الباب الامامى ودخلنا الفناء . وقاد الرجل الاشقر الطريق صاعدا الدرج هو وجيزيلا . وكان قصير القامة ممتلىء الجسم فبدا وكأن ملابسه توشك أن تتفزر عن جسده رغم انه لم يكن بدينا وكانت جيزيلا أطول منه قامة . وعند منتصف الطريق تراجع خطوة الى الخلف حيث أمسك بثوب جيزيلا من حاشيته ورفعه الى أعلى كاشفا عن فخذيها البيضاوين وقد أحاط بهما رباطا الجوربين وعن ردفيها الصغيرين النحيلين . وهتف قائلا وهو ينفجر ضاحكا : « ارتفع الستار ! » ولكن جيزيلا لم تزد على أنزلت ثوبها مرة أخرى باحدى يديها . وخيل لى أن رفيقى لا يمكن أن يستسيغ مثل هذا السلوك الفظ كما أردته أن يعلم اننى أيضا لا أستسيغه .

فقلت : « ان صديقك شديد المرح » .

فأجابنى فى اقتضاب قائلا : « نعم » .

ــ « من الواضح أن كل شىء يدور أمام عينيه » .

ودخلنا الشقة على أطراف أصابعنا حيث قدتهم رأسا الى غرفتى . وعندما أغلق الباب وقف أربعتنا لحظة هناك . ولما كانت الغرفة صغيرة الحجم فقد بدونا أكثر عددا مما كنا . وكان الرجل الاشقر أسبقنا الى استعادة هدوئه ورباطة جأشه اذ جلس على الفراش واخذ يخلع ملابسه فى الحال وكأنه لا شأن له بأحد . وكان يتحدث

عن غرف الفنادق والغرف الخاصة وهو يقص علينا احدى مغامراته الاخيرة قائلا : « فخاطبتني قائلة : انا سيدة اصيلة ولا ابغى الذهاب الى فندق » فقلت لها : « ان الفنادق مملوءة بالسيدات الاصيلات » فقالت : « ولكني أرفض الادلاء باسمى » فقلت : « سأدخل في روعهم انك زوجتي . فلا يهمني ان زادت زوجاتي واحدة أو نقصن واحدة » . فذهبنا الى الفندق حيث أوهمتهم انها زوجتي ثم صعدنا الى غرفتنا .. ولكني ما ان شرعت في مضاجعتها حتى أخذت تقص على قصة طويلة .. انها نادمة الآن على ذلك ، وانها تأبى المضاجعة ، وانها سيدة محترمة في الحقيقة . فنفد صبري وحاولت اغتصابها . وليتني ما فعلت ! اذ انها فتحت النافذة وهددت بالقاء نفسها . فقلت : « حسنا . فقد اخطأت باصطحابك الى هنا » . ثم جلست على الفراش وأخذت تنشج بالبكاء وتروى لى قصة مؤثرة خليقة بأن تنفطر لها قلوبكم . ولكنكم ان شئتم أن تعرفوا موضوع تلك القصة فذلك ليس في امكاني اذ انني نسيتها . كل ما أذكره انني أحسست بفيض من النبل والخير حتى كدت أجثو على ركبتي طالبا الصفح لتصورها على غير حقيقتها فقلت : « اننا الآن متفقان في الرأى تماما ولن نفعل شيئا ، بل سنضطجع على الفراش فحسب وننام كل على حدة » . وهكذا

حسم الامر وما لبثت أن استغرقت في النوم . ولكن الليل ما كاد ينتصف حتى استيقظت وتطلعت الى ناحيتها . فلم أجدها ثم التفت الى ملابسى فاذا بها مشعثة . ففتشت جيوبى ووجدت ان محفظتي قد اختفت أيضا . لقد كانت سيدة بحق ! ولشد ما كان ضحكه معديا حتى أضطررت أنا وجيزيلا الى الضحك أيضا ازاء بهجته اللانهائية . وكان قد خلع حلته وقميصه وجوربه وحذاءه ووقف مرتديا سراويله الرمادية القاتمة التي أحكمت على جسده من رسغى قدميه حتى عنقه مما جعله يبدو كالبهلوان أو راقص الباليه . وقد زاد من مظهره الهزلى ذلك الرداء الذى يرتديه عادة كبار السن . وما ان وقع بصرى على منظره حتى نسيت قسوته وكدت اشعر بالميل نحوه اذ انني كنت لا أفتأ أميل الى المرحين من الناس كما كنت بطبعى أكثر ميلا الى المرح مني الى الكآبة . وبدا يختال في أرجاء الغرفة بقامته القصيرة وبنيته القوية مزهوا بسراويله وكأنها زى عسكرى . وفجأة وثب من الزاوية التي بها خزانة الملابس الى الفراش فهوى فوق رأس جيزيلا التي صرخت في دهشة ثم القى

بها الى الخلف وكانه سيضاجعها . ولـكنه بينما كان لا يزال يحوم فوقها على اربع اذا به يرفع وجهه الاحمر المنفعل بحركة مرئية وكانه قد لاح له خاطر ما ثم يدير بصره الى الخلف نحونا كما يفعل القط قبل أن يشرع فى تناول طعامه ثم يسـألنا قائلا : « ماذا تنتظران ؟ » .

فنظرت الى رفيقى قائلة : « هل أخلع ثيابى ؟ » .

وكان لا يزال مرتديا معطفه وقد رفعت ياقتـه حول عنقـه . فأجابنى قائلا فى رجفة : « لا ، لا ، بل بعد انتهائهما » .

ـ « هل نذهب الى الغرفة المجاورة ؟ »

ـ « نعم » .

فصـاح الرجل الاشقر قائلا وهو ما زال يحوم فوق جيزيلا : « اذهبا فى نزهة بالسيارة . ولسوف تجدان المفاتيح هناك ». ولكن صديقه تظاهر بأنه لم يسمعه وغادرنا الغرفة .

ودلفنا الى الغرفة الخارجية حيث أشرت له بالانتظار ثم دخلت غرفة الجلوس حيث كانت أمى جالسة الى المائدة فى الوسط تمارس بمفردها لعبة بالورق تدعى « بيشـانس » . وما أن رأتنى حتى نهضت وغادرت الغرفة متجهة الى المطبخ دون ان تنتظر منى كلاما. فاختلست النظر خلال الباب وأخبرت الشاب انه يمكنه الدخول .

ثم اغلقت البـاب وذهبت لأجلس على الاريكة فى ركن الغـرفة بالقرب من النافذة . كنت اريده أن يجلس بجانبى ويضمنى اليه فى رفق فهكذا كان يفعل الآخرون دائما . ولـكنه لم ينظر حتى تجاه الاريكة . بل اخذ يذرع الغرفة من حول المائدة جيئة وذهابا وقد دس يديه فى جيبيه . وخيل لى انه ربما سئم الانتظار، فقلت : « يؤسفنى انه ليس لدى سوى غرفة نوم واحدة يمكننى استخدامها»

فوقف ساكنا . ثم سألنى قائلا فى استيـاء ولـكن فى رقة : « وهل قلت اننى اريد غرفة ؟ » .

ـ « كلا .. ولـكننى حسبت ـ » .

ثم دار حول الغرفة بضع دورات . ولم يعد فى مقدورى ان اكبح جماح نفسى فسألته قائلة وانا اسير الى الاريكة : « لم لا تأتى وتجلس هنا بجانبى ؟ »

فنظر الى وقد بدا عليه انه يحزم امره ثم جاء ليجلس بجانبى . وسألنى قائلا :

ـ « ما اسمك ؟ .. »

« آدريانا » .

قال وهو يمسك بيدي « أنا جيانومو » .

وكان ذلك امرا غير مألوف . فخطر لى مرة اخرى انه كان حييا. وتركته يمسك بيدي وابتسمت له مشجعة .

قال : اذن فعلينا أن نمارس الهوى بعد قليل .

ــ « نعم » .

ــ « ولنفرض اننى لا أريد ذلك ؟ »

فأجبته قائلة باستخفاف ظنا منى انه يمزح فحسب : « اذن فلن نفعل » .

فأجابني مؤكدا : « حســـــنا . ابغى الا نفعل . فليست لدى اقل رغبة فيه » .

فقلت : « كما تشاء » . ولــكن اباءه كان شيئا جديدا على فلم افهم ماذا يقصد .

قال : « أيسيئك ذلك ؟ فالنساء يكرهن أن يرفض طلبهن » .

وأخيرا فهمت ما يعنيه وهززت رأسى عاجزة عن النطق . اذن فهو لا يريدني . وفجأة احسست باليأس وكدت انفجر باكيـــة . فتلعثمت قائلة : « لا يســـيئنى ذلك مطلقـــا . ان لم تكن لديك الرغبة ، فلننتظر حتى ينتهى صديقك وعندئذ يمكنك أن تذهب » .

فاحتج قائلا : « لست ادرى . فانى أضيع وقتك ، بينما كان فى امكانك أن تنالى شيئا من رجل آخر » .

وخيل لى انه ربما كان عاجزا عن المضـــاجعة لا راغبا عنهـــا . فقلت : « ان لم تكن معك النقود فلا يهم ذلك . اذ يمكنك أن تنقدنى أجرى فى مناسبة أخرى » .

فقال : « انك فتاة طيبة . ولــكننى أملك النقود . وفى الواقع ــ انظرى ــ فانى مع ذلك سأنقدك أجرك حتى لا ابدو وكأنى قد أضعت المساء . ثم دس يده فى جيب سترته واخرج رزمة من الاوراق المالية التى بدت وكأنها معدة من قبل ثم ذهب ليضعها على المائدة بعيدا عنى بحركة مرتبكة ولكنها كانت مع ذلك رشيقة مزدرية .

فاحتججت قائلة : « لا ، لا ! لماذا تنقدنى أجرى ؟ بل دعنا ننسى هذا الامر » . ولــكننى قلت ذلك بلهجة هزيلة لانى فى قرارة نفسى لم أشعر قط بالاسف لقبولى نقوده .. فهى حلقة اتصال دائمة بينى وبينه . اذ اننى لما كنت الآن مدينة له فلن يفتأ يراودنى الامل فى أن ارد له دينه . وحمــل رفضى المتخاذل على محمــل القبول

وكذلك كان فى الواقع . فلم يلتقط النقود بل تركها على المائدة وجاء المعاود جلسته على الاريكة فمددت يدى لامسك بيده رغم احساسى بأنه عمل محرج سخيف فتبادلنا النظر لحظة . واذا به فجأة يلوى خنصرى بأصابعه الطويلة النحيلة لوية قـــوية فقلت فى غضب : « آه . ماذا دهاك الآن ؟ » .

فأجابنى قائلا : « انى آسف » . ولشـــدما بدا عليه الارتباك حتى انني أسفت لتعنيفه بهذه القسوة .

قلت : « أتعلم انك آلمتنى ؟ » .

فرد قائلا : « انى آســف » . ثم انتـــابه اضطراب مفاجىء فنهض واقفـــا مرة أخرى وأخذ يذرع الغرفة جيئة رذهابا . ثم توقف أمامى وسألنى قائلا : « هل نخرج ؟ فان هـــذا الانتظار فى الحقيقة يثير أعصابى » .

ـ « الى أين تذهب ؟ »

ـ « لست أدرى .. هل نذهب فى نزهة بالسيارة ؟ »

وتذكرت نزهى فى السيارة مع جينو فأسرعت بالاجابة قائلة : « كلا .. لا بالسيارة » .

ـ « فلنذهب الى مقهى . أليس هناك بعض المقاهى بالقرب من هنا ؟ .. »

ـ « انها ليست بالقرب من هنا على وجه التحديد . ولـــكننى أعتقد ان هناك محلا خارج البوابات تماما .. »

ـ « اذن فلنذهب اليه » .

فنهضت واقفة وغادرنا غرفة الجلوس . وبينما كنا فى طريقنا الى الخارج حاولت أن أمزح معه قائلة : « فلتعلم ان تلك النقود التى أعطيتنى اياها تخولك الحق فى المجىء لرؤيتى وقتما تشاء . هل اتفقنا ؟ » .

ـ « اتفقنا » .

وكانت ليـــلة معتدلة رطبة مظلمة من ليالى الشتاء . وقد ظـــل المطر ينهمر طوال النهار فغطت الطريق المعهد برك كبيرة ســـوداء من الماء انعكست عليهـــا أضـــواء ثابتة من المصابيح القليلة فى الطريق . وكانت السماء صـــافية فوق الاسوار ولـــكنها لم تكن مقمرة بل كانت تلمع فيها بضعة نجوم من خلال الضباب على صورة غامضـــــة . ومن وقت لآخر كانت عـــربات الترام غير المرئيـــة تمر خلف الاسوار بينما لا يفتأ يتناثر من أسلاكها الـــكهربية وميض

حتى يلقي ضوءا خاطفا على السماء والابراج المهدمة ودعائم المباني المكسوة بالخضرة . وعندما خرجت الى الطريق تذكرت أننى لم اذهب فى اتجاه حديقـة المـلاهى شهورا عديدة . بل كنت عادة انحرف يمينا صوب الميدان حيث أقابل جينو . كما تذكرت اننى لم أذهب فى اتجاه مدينة الملاهى منذ صباى . وكنت حينذاك أخرج للنزهة مع أمى حيث نصعد الطريق الواسـع أسـفل الاسـوار ونذهب للاستمتاع بالاضواء والموسيقى دون أن نجرؤ على الدخول لافتقـارنا الى النقود . وكانت تقع فى ذلك الجانب من الطريق الرئيسى تلك الفيللا ذات البرج الصغير التى لمحت فيها من خـلال نوافذها المفتوحة أسرة كان أفرادها يجلسون حول المائدة ـ تلك الفيللا التى جعلتنى احلم بالزواج لاول مرة ـ البيت والحيـــاة الطبيعية الخاصة . واحسست انى منساقة الى التحدث مع رفيقى عن ذلك العهد وعن شبابى وعن آمالى لا بدافع عاطفى فحسب كما يجب أن أعترف بل بدوافع أخرى مفرضة . فلم أشأ أن يتخذ من المظاهر أساسا للحكم على بل أردت أن يرانى فى ضوء أفضل حسبته أقرب الى الحقيقة . فبعض الناس يرتدون أبهى ملابسهم ويستقبلون زوارهم المكرمين فى أفخر غرف المنزل . وكان عهـــد صباى بما فيه من أحلام ومطامح يمثل عندى أبهى الثياب وغرف الاستقبال . واعتمدت على ذكرياتى رغم جدبها الشديد وافتقارها الى التشويق فى تغيير رأيه فى وتقريبه منى .

فقلت اثناء سيرنا : « ان هذا الجانب من الطريق لا يؤمه أحد . اما فى الصيف فان أهل الحى جميعا يخرجون للنزهة فيه . وقد ألفت ذلك منذ زمن بعيد . فـكان لابد من وجودك لاعود اليـه من جديد » .

وكان ممسكا بذراعى ليعاوننى على اجتياز الطريق الممتلىء بالماء .

فسألنى قائلا : « ومن كنت تصحبين ؟ » .

ـ « أمى » .

فأخذ يضحك بطريقة بغيضة دهشت لها .

وراح يردد مشددا على حرف « الميم » قائلا : « امى . فهناك دائما أمى . أمى . أمى ؟ وماذا تقول أمى . ماذا تفعـل امى ؟ أمى . أمى »

وخيل لى أنه ربما كان هناك سبب خفى لشعوره بالاستياء نحو

امه . فسألته قائلة :

ــ « هل أساءت اليك أمك ؟ »

فأجاب قائلا : « كلا لم تفعل شيئا . فالامهات لا يفعلن شيئا مطلقا. هل يمكنك أن تذكرى لى شخصا لا أم له ؟ أتحبين أمك ؟ »

ــ « بالطبع .. لماذا ؟ »

فأسرع بالاجابة قائلا : « لا شيء . لا تكترثى لى . بل استرسلى فى حديثك اذن .. فقد تعودت الخروج مع أمك .. »

ولم تكن نغمة صوته مطمئنة او مشجعة . ومع هذا فقد احسست بنفسى منساقة الى الاسترسال فى سرد ذكرياتى يدفعنى الى ذلك عاملان : ميلى اليه وحبى لنفسى .

ــ « نعم . فقد تعودنا الخروج معا وخاصة فى الصيف عندما يصير الجو خانقا فى شقتى . انظر .. أترى تلك الفيللا الصغيرة هناك ؟ .. »

فوقف ساكنا وهو يتطلع ببصره . ولكن نوافذ الفيللا كانت مغلقة حتى بدت وكأنها مهجورة. وظهرت لعيني أصغر مما تصورتها بل قبيحة ومخيفة الى حد ما وهى محصورة بين المنازل الممتدة الخفيضة التى يسكنها عمال السكك الحديدية . فقال :« ماقصتها ؟ »

والآن كاد يعرونى الخجل مما كنت موشكة على ذكره .

فأردفت قائلة فى مشقة : « لقد تعودت أن أمر بها كل مساء . ولما كان الوقت صيفا كما قلت فقد كانت النوافذ مفتوحة .. وكنت أرى من خلالها أسرة جلس أفرادها لتناول الطعام ، ثم .. »

ثم توقفت عن الكلام وقد انتابنى الارتباك فجأة .

ــ « ثم ماذا ؟ »

فقلت وقد خالجنى فى خجلى مزيج من الاخلاص والمكر : « ان كل ذلك لا يثير اهتمامك » .

ــ « لماذا ؟ فانى أهتم بكل ما تقولين . »

فأردفت قائلة على عجل : « حسنا . اذن فقد اختمر فى ذهنى انى فى يوم من الايام سأملك بيتا صغيرا كهذا أو سأحذو حذو تلك الاسرة فى حياتها تماما كما تعودت أن أراها » .

فهتف قائلا : « آه . لقد فهمت ! بيت صغير كهذا . ولذلك كنت متواضعة فى مطمحك » .

فقلت : « انه ليس قبيحا اذا ما قورن بمنزلنا الذى نقيم فيه الآن . كما أن المرء فى تلك السن تختمر فى ذهنه أفكار كثيرة » .

فجذبني من ذراعي نحو الفيللا قائـــلا : « فلنذهب لنر ان كانت تلك الاسرة لم تزل تقيم فيها » .

فقلت : « بالله ماذا تقصد ؟ فهم هناك بالطبع » .

ـ « حسنا .. فلنر . »

ووصلنا الى خارج الفيللا تماما . وكان الظلام يسود الحـــديقة الـــكثيفة الضيقة كما يغمر النوافذ والبرج الصغير . فاتجه الى البوابة قائلا : « بل ان هناك صندوقا للبريد . فلندق الجرس ولنر ان كان هناك أحد في الداخل . ومع ذلك .. فان منزلك الصغير هذا يبدو مهجورا . »

فقلت ضاحكة ـ « كلا . لاتفعل شيئا . فماذا دهاك ؟ »

ـ « فلنحاول . » ثم رفـــع يده وضغط على جرس البـــاب . فأحسست بالرغبة في الركض بعيدا خشية أن يأتي أحد. وتوسلت اليه قائلة : « فلنمض من هنا ! فلنمض من هنا ! فانهم سيطلون علينا الآن . وماذا سيقولون عنا ؟ »

فردد قائلا وكأنه قرار موسيقى منقادا لي وأنا اجذبه بعيدا في قوة : « ماذا تقول أمي هه ؟ ماذا تفعل أمي ؟ »

فقلت مهرولة بالمسير : « ان أمك تسيطر على ذهنك ! »

وبلغنا حديقة الملاهي . وتذكرت آخر مرة ذهبت اليها . وكان هناك زحام كبير من الناس الذين يتدافعون بالمنـــاكب وقـــد تدلت المصابيح الملونة من الحبال في دوائر ومنحنيات وأضيئت الاكشاك بالآسيتيلين وازدانت السرادقات وصدحت الموســيقى . ولقد خاب أملي الى حد ما عندما لم أجد شيئا من ذلك . فقد بدا لي ان السور لم يكن يحيط بحديقة الملاهي بل بأرض مظلمـــة مهجورة جعلت مستودعا لمواد البناء . كما بدت من فوق السور اقواس الخطوط الحديدية الملتوية المتعرجة وقد علاها مقعد هنا ومقعـــد هناك مما كان لايزال معلقا فوقها وكأنها حشرات انتفخت بطونها وأصابها شلل مفاجيء فتوقفت عن الطيران . كما كانت السطوح الخفيضة المدببة للسرادقات المطفأة التي تشربت مياه الامطـــار توحي بالنوم والخمول . فقد بدا كل شيء ميتا . وقد يصدق عليه هـــذا الوصف اذ ان الوقت كان شتاء . كما كان الفضاء المــكشوف أمام حديقة الملاهي مهجورا تغطيه برك من المـــاء . وثمة مصباح واحد من مصابيح الطريق كان يرسل ضوءا خافتا .

قلت : « هذه مدينة الملاهي التي تعمل صــيفا ولا يفتأ يؤمها

الناس فى جموع كبيرة . ولـكنها لا تعمل شتاء . فالى أين نذهب؟»

— « ما رأيك فى ذلك المقهى هناك ؟ »

— « انها حانة فى الحقيقة »

— « أذن فلنذهب اليها .. »

ومررنا أسفل بوابة المدينة حيث رأينا فى مواجهتنا بابا زجاجيا مضاءا فى الطابق الارضى وسط صف من المنازل الصغيرة . ولم ادرك الا عندما دخلت المحل انه ذلك المقهى الذى تناولت فيه وجبة مع أمى وجينو وأنذر فيه جينو ذلك الشاب المخمور المزعج بأن يلزم حدوده . ولم يكن هناك سوى اثنين او ثلاثة من الرواد الذين جلسوا الى الموائد المـكسوة بالرخام وراحوا يتناولون طعامهم من لفائف الصحف ويجرعون نبيذ المحل . وكان الجو فى الداخل أبرد منه فى الخارج وقد حمل الهواء رائحة المطر والنبيـذ ونشـارة الخشب . كما بدا لى ان المواقد كانت مطفأة . جلسنا فى أحدى زوايا المطعم حيث أمر رفيقى بزجاجة من النبيذ .

فسألته قائلة : « ومن ذا الذى سيشرب زجاجة ؟ »

— « لماذا ؟ ألا تشربين ؟ »

— « انى لا أشرب الا قليلا .. »

فصب لنفسه قدحا ملأه حتى حافته ثم جرعه دفعة واحدة ، ولـكن فى مشقة وبغير لذة . وقد أكدت لى تلك الحركة ما كنت قد لاحظته فيه من قبلَ .. انه يفعل كل شىء بقوة ارادته وبطريقة ظاهرية دون أن يسهم فيه بروحه وكأنه يؤدى دورا تمثيليـا . ثم خيم علينا الصمت لحظة وهو لا يفتـأ يخملق فى بنظرته الحادة اللامعة وأنا أدور ببصرى فى أرجاء المـكان . وقد عاودتنى ذكرى ذلك المساء البعيد الذى قضيته فى الحانة مع أمى وجينو ولم أتأكد مما اذا كان شعورى أسفا أم سخطا . فلا شك اننى كنت وقتذاك أتسنم قمة السعادة ولـكننى كم كنت مخدوعة ! واخيرا وصلت الى نتيجة بينى وبين نفسى بأن الامر كان أشبه بالضبط بفتح درج لم يمس أعواما طويلة ولـكنك بدلاً من أن تعثر فيه على كل الاشياء الجميلة التى كنت تتمناها اذا به لا يحوى سوى خلق بالية وعثة وغبار . فقد انتهى كل شىء ، لا حبى لجينو فحسب بل شبابى وأحلامى الخائبة جميعا . وقد تبين صدق ذلك من قدرتى على استخدام ذكرياتى عن علم وتدبير فى التأثير على رفيقى .

قلت بلا مناسبة : « اننى لم أعجب بصديقك هذا الذى كان

معنا ولـكننى الآن أكاد أشعر بالميل نحوه .. فهو شديد المرح » .
فأجابني قائلا في اقتضاب : « أولا هو ليس صديقي . وثانيا لا ظرف فيه مطلقا . »

فانتابتنى الدهشة لما تخلل صوته من عنف . وسألته قائلة فى رقة : « أتظن ذلك ؟ »

فصب لنفسه قدحا ثم أردف قائلا : « عليك أن تتجنبى ذوى الفطنة المازحة من الناس كما تتجنبى الطـــاعون . فان مزاحهم عادة لا ينطوى على شيء .. اذ ينبغى أن تريه فى مكتبه ! فهو لا يعرف المزاح هناك » .

— « أى نوع من المكاتب ؟ »

— « لست أدرى .. لعله مكتب تسجيل .. »

— « وهل يربح كثيرا ؟ »

— « أموالا طائلة .. »

— ما أسعد حظه !

ثم صب لى قليلا من النبيد . وسألته قائلة : « ولماذا تصاحبه ما دمت تبغضه الى هذا الحد ؟ »

فقال عابسا : « انه صديق الطفولة . فقد كنا نذهب معا الى المدرسة . وأصدقاء الطفولة جميعا على هذا النحو » .

ثم أضاف قائلا بعد أن تناول جرعة أخرى من النبيذ : « ومع ذلك فهو يفضلنى فى بعض النواحى » .

— « لمـــاذا ؟ »

— « لانه عندما يقدم على عمل يؤديه فى جد . أما أنا فانى أبغى القيام به أولا ثم . وفجأة تحول صوته الى نشاز فجفلت مدهوشة ثم أردف يقول : « ثم ما ان أواجه به حتى أعدل عنه . ففى هذا المساء مثلا — اتصل بى تليفونيا وسألنى ان كنت أرغب فى الخروج « لصيد » النساء كما يقولون — فوافقت . وعندما التقينا بكما احسست برغبـــة حقيقية فى مضاجعتك . ولكننا ما ان عدنا الى شقتك حتى تلاشت رغبتى تماما » .

فرددت قائلة وأنا أنظر اليه : « تلاشت » .

— « نعم . انك لم تعودى امرأة فى عينى . بل جســـما مرئيا أو شيئا ما .. أتذكرين عندما لويت خنصرك وآلمتك ؟ »

— « نعم » .

— « حســـنا . لقد فعلت ذلك لارى ان كنت حقـــا على قيـــد

الحياة ـ كما أنت الآن ـ حتى ولو كان ذلك عن طريق ايلامك • »
فقلت مبتسمة : « نعم . لاشك اننى كنت على قيد الحياة .
فلنشد ما أتمنى .. »

والآن بدأت أفهم . فأحسست بالارتياح عندما أدركت انه لم ينصرف عنى لنفوره منى • ولكن أطوار النـــاس وطبائعهم على أية حال ليس فيها ما يستغرب • فما ان يحاول المرء أن يتفهمهم حتى يجد أن سلوكهم مهما كان غريبا فان الباعث عليه لا يفتأ يبدو مقبولا تماما • وأردفت قائلة : « اذن فأنا لم اعجبك ؟ » •

فهز رأسه قائلا : « كلا • حقيقة • فسواء أكنت أنت أم أية فتاة أخرى فلا فرق هناك مطلقا » .

ثم سألته بعد لحظة من التردد قائلة : « ولـكنك لست عنينا على أية حال » .

ـ « ياالهى • كلا ! »

والآن أحسست برغبة ملحة فى مضاجعته وازالة الغربة بينـنـــا وتبادل الهوى معه • لقد أنكرت ان اباءه أساءنى ولكنه فى الواقع ان لم يسئنى فلا شك انه آلمنى وجرح كبريائى • اذ كنت أعلـــم اننى جميلة وجذابة ولم اصدق أن لديه سببا قويا يحول دون رغبته فى .

فقلت فى بساطة : « أنصت الى . فلنشرب النبيـــذ ثم نذهب الى المنزل لنمارس الهوى » .

ـ « كلا • فهذا محال • »

ـ « اذن فأنت تعنى اننى لم أجذبك حتى عندما رأيتنى فى الطريق لاول مرة ؟ »

ـ « ليس الامر كذلك •• ولكن فلتحاولى جهدك أن تفهمى • »

كنت أعلم ان ثمة حججا لا قبل للرجل بها . فرددت قائلة فى هـــدوء متظـــاهرة بالالم بينما مددت يدى فى نفس الوقت لاربت براحتى على وجهه : « من الواضح اننى لا أجـــــذبك » • وكانت يداى تتميزان بالطول والضخامة والدفء • ولو صح ما يقال من أن شخصية المرء يمكن ان تتضح فى كفهفان كفى خلو من كل أثر للغلظة والجفاء على عكس يدى ســـلا التى احمرت [illegible] وخشن ملمســـهما وقبح شكلهما . ثم بدأت أتحسس وجنته وصدغيه وجبهته أسفل شعره دون أن تفارقه نظرتى لحظة فى الحاح رقيق وحنين عذب .
وتذكرت ان ذلك كان مسلك آستاريتا نحوى فى الوزارة فأدركت

مرة اخرى اننى كنت حقا أسيرة هواه اذ انه لا شبيهة فى حب أستاريناالى وكانت تلك هى حركة الحب ذاته . وظل ساكنا فى اول الأمر لا تحركه لمساتى ثم أجد ذقنه يرتعش علامة على انفعاله كما لاحظت ذلك فيما بعد وارتسم على وجهه تعبير حزين صبيانى للغاية . فامتلأت نفسى شفقة عليه وسررت لذلك الاحساس لانه يعنى اننى كنت أدنو منه وأتصل به . ثم تمتم قائلا : « ماذا تفعلين ؟ اننا هنا فى مكان عام » .

فأجبته قائلة فى هدوء : « وماذا يهمنى ؟ » .

وكانت وجنتاى ملتهبتين رغم برودة الجو فى الحانة . ولم تفتأ الدهشة تنتابنى كلما رأيت سحابة بخار صغيرة تنبعث من بين شفاهنا مع كل زفير . قلت : « أعطنى يدك » . فتركني على مضض أمسك بها فرفعتها الى وجهى قائلة : « أترى كيف تلتهب وجنتاى ؟ »

ولكنه لم يحر جوابا . بل نظر الى فحسب بينما راح ذقنه يرتجف . ودخل المحل شخص ما فدوى صليل الابواب الزجاجية وسحبت يدى . فتنهد فى ارتياح ثم صب لنفسه قليلا من النبيذ ولكننى لم ألبث أن مددت يدى مرة أخرى حالما تجاوزنا ذلك الدخيل ودسستها بين حافتى سترته حيث فككت أزرار قميصه ولمست صدره العارى بالقرب من قلبه قائلة : « أريد أن أدفىء يدى كما أريد أن أشعر بضربات قلبك » . ثم أدرت يدى ولمسته تارة بظهرها وتارة براحتها . فقال وهو ينظر الى : « يدك باردة »

فابتسمت قائلة : « ولكنها لن تلبث الآن أن تدفأ » ومددت ذراعى ثم مررت بيدى فى بطء على صدره وضلوعه الرقيقة فأحسست بسعادة غامرة لانى كنت أعلم انه قريب منى . وامتلأت نفسى بالحب له حبا فياضا أغنانى عن حبه اياى . فأنذرته قائلة فى مزاح وانا أحملق فيه : « لن ألبث أن أقبلك » .

فعارضنى قائلا وهو يحاول أن يضحك أيضا رغم ذعره الحقيقى :

« لا . لا ! حاولى أن تتحكمى فى نفسك ! » .

ـ « اذن فلننصرف » .

ـ « حسنا .. فلننصرف ان شئت » .

ودفع ثمن زجاجة النبيذ التى لم تزل فيها بقية ثم غادر الحانة فى صحبتى . والآن كان يبدو عليه الانفعال على طريقته الخاصة

لا بسبب الحب كما كان الحال معى بل بسبب اضطراب غريب أثارته فى ذهنه أحداث المساء . ولقد اكتشفت فيما بعد عندما توطدت معرفتى به أن ذلك الاضطراب كان لا يفتأ ينتابه كلما صادف لسبب أو لآخر ظاهرة فى شخصيته كان لا يزال يجهلها أو ازداد المامه بها لانه كان انانيا الى أقصى الحدود ولكن بطريقة جذابة ــ أو الاحرى انه كان مستغرقا فى ذاته . بدأ حديثه قائلا وكأنه يحدث نفسه بينما كنت أصحبه الى المنزل بخطى مهرولة تكاد تكون راكضة ــ « هكذا الحال معى دائما . فلشد ما أتوق الى اتيان عمل ما ويملؤنى الحماس له . كما يبدو كل شىء خاليا من العيوب ولا يراودنى شك فى اننى سأنفذ ما اعتزمت . وما ان تحين اللحظة التى يتعين على أن أعمل فيها حقا حتى ينهار كل شىء فأبــدو وكأنى لا وجود لى ــ أو الاحرى ان وجودى يقتصر على الجوانب السيئة منى ــ فأصير باردا خاملا قاسيا ــ كما حدث لى عندما لويت خنصرك » .

كان يتحدث بلهجة شاردة على صورة منــاجاة ولعله كان يحس بنوع من الرضا المرير . ولــكننى لم أكن أنصت اليه فلشد ما استخفنى الفرح حتى رحت أسرع الخطى عبر برك المـاء بقدمين مجنحتين . فقلت فى بهجة : « لقد قلت لى كل ذلك من قبــل . أما أنا فلم أكاشفك بشعورى . فانى أريد أن اضمك الى بقوة وادفئك بجسدى وأحس بوجودك بجانبى واحملك على أن تفعل ما لا تبغى .. ولن أشعر بالسعادة حتى تفعل ذلك » .

فلم ينبس بشىء بل بدا وكأنه لم يسمع ما كنت أقول فلشد ما كان مستغرقا فى تأمل ما كان يقوله هو نفسه . وفجأة دسست ذراعى حول خصره قائلة : « هلا وضعت ذراعك حول خصرى؟ »

فبدا وكأنه لم يسمعنى . فتناولت ذراعه ووضعتها حول خصرى بقدر امكانى بنفس الطريقة التى أرتدى بها سترتى . وواصلنـا سيرنا فى ارتباك لان كلا منا كان يرتدى معطفا شتويا ثقيلا ولا تكاد ذراعانا تحيطان بخصرينا .

وعندما صرنا اسفل البرج المقام فوق الفيللا الصــغيرة توقفت عن المسير قائلة له : « أعطنى قبلة » .

فأجابنى قائلا :

ــ « فيما بعد .. »

ــ « أعطنى قبلة .. »

فاستدار نحوي وقبلته بعنف واضعة كلتا ذراعي حول عنقه ، وكانت شفتانا ملتصقتين فدفعت بينهما لساني ثم دفعته بين أسنانه التي لم تلبث أن انفرجت • لم أكن واثقة من انه سيبادلني التقبيل ولكنني لم أكن أبالي كما سبق أن قلت . ثم افترقنا فرأيت حول فمه بقعة من أحمر الشفاه حمراء كبيرة متعرجة جعلت وجهه الجاد يبدو غريبا مضحكا . فانفجرت ضاحكة في سعادة .

فتمتم قائلا : « لماذا تضحكين ؟ »

فترددت ثم قررت الا أصارحه بالحقيقة لانني كنت أتمتع بمشاهدته وهو يهرول بجانبي في جد شديد غافلا تماما عن تلك البقعة المرتسمة على وجهه .

فقلت : « لا شيء . بل اني سعيدة ـ لا تكترث لي » . ثم منحته قبلة أخرى سريعة على فمه يخالجني شعور بأني أتسنم ذرا العالمين .

ولكننا ما أن بلغنا الباب الامامي حتى اكتشفنا أن السيارة قد اختفت .

فقال في شيء من الضيق ـ « الآن وقد رحل جيانكارلو فسأضطر الى السير أميالا لابلغ المنزل • »

ولكنني لم أدع لهجته القاسية تزعجني • اذ كان لا يمكن لشيء أن يسيئني الآن • فان أخطاءه صارت تبدو لي في ضوء خاص يجعلها محببة تماما كما يحدث عندما يقع المرء أسير الهوى .

فقلت هازة كتفي : « هناك الخدمة الليلية للترام • كما يمكنك البقاء والنوم معي ان شئت » .

فأسرع يجيبني قائلا : « لا . لا . ليس هذا » .

ثم دخلنا المنزل وصعدنا الدرج . وما ان بلغنا الردهة حتى دفعته الى داخل غرفتي • وأخذت أختلس النظر بسرعة الى داخل غرفة الجلوس . فاذا بها مظلمة فيما عدا النافذة حيث تسلل شعاع من أحد مصابيح الطريق فأضاء المقعد وماكينة الخياطة • فلا ريب أن أمي قد أوت الى فراشها وتساءلت ان كانت قد رأت جيزيلا وجيانكارلو وتحدثت اليهما . ثم اغلقت الباب مرة أخرى ودخلت غرفتي • فاذا به يذرع الغرفة في قلق ما بين الفراش وخزانة الملابس .

قال : « انصتي . يحسن بي أن انصرف » .

فتظاهرت بأنى لم أسمعه وخلعت سترتى ثم علقتها . ولشد ما أحسست بالسرور حتى اننى لم أتمالك نفسى من أن أقول بكل خيلاء ربة الدار : « ما رأيك فى هذه الغرفة . أليست مريحة ؟ »

وأخيرا أجال بصره فى الغرفة ثم صعر وجهه بطريقة لم أفهمها. فأمسكت يده وأجلسته على الفراش قائلة : « الآن دع لى كل شىء » . فنظر الى وهو جالس هناك وقد رفعت ياقة معطفه ودست يداه فى جيبه . فخلعت عنه معطفه منحية اياه فى عناية وحرص ثم خلعت سترته وعلقتهما على حمالة الملابس ، وحللت رباط عنقه فى تؤدة ثم نزعت عنه قميصه وبه رباط العنق وعلقته على أحد المقاعد . وبعد ذلك جثوت على ركبتى واضعة قدمه فى حجرى كما يفعل الاسكاف ونزعت حذاءه وجوربه ثم قبلت قدميه. وكنت قد بدأت ذلك العمل فى بطء وترتيب ولكن نوعا من جنون الذلة والخشوع أخذ ينتابنى رويدا رويدا وأنا أخلع له ملابسه . ولعله نفس الشعور الذى خالجنى عندما ركعت فى الكنيسة . ولكنه راودنى لاول مرة ازاء رجل فأحسست بالسعادة لاننى تأكدت من ان ذلك هو الحب الطاهر البعيد كل البعد عن الشهوانية والرذيلة . وعندما تجرد من ثيابه ركعت بين فخذيه وأحطته بذراعى متحسسة جسده وكأنى ممسكة بين يدى بزهرة غامضة ثم ضغطت لحظة بوجنتى وشعرى على بدنه فى قوة وقد أغمضت عينى .

وتركنى أفعل ما أشاء . ولشد ما أمتعنى تعبير وجهه الحائر المذهول . ثم نهضت واقفة وذهبت الى خلف الفراش حيث خلعت ملابسى بسرعة وتركتها تسقط جميعا على الارض ثم وطئتها بقدمى. وكان لايزال جالسا على حافة الفراش وهو يرتجف منكسا عينيه . فجئت من خلفه وقد تملكتنى نوبة مرحة من العنف فأمسكت به ودفعته فسقط على الفراش ملقيا رأسه على الوسائد وكان جسده طويلا نحيلا أبيض البشرة . والاجساد كالوجوه لها تعبيرها الخاص وكان تعبيره غضا عفيفا . ثم تمددت بجانبه وقد حاذى جسدى قامته بطولها وشعرت كم كان جسدى متأجج الحواس قوى البنية أسمر البشرة ملفوف القوام بالقياس الى نحوله وهزاله وبروده وبياضه . تشبثت به فى عنف وضغطت بجسدى على حقويه ثم ألقيت بذراعى على صدره وقد التصق وجهى بوجهه ولامست شفتاى أذنه . أحسست وكأنى لا أريد مضاجعته بل أن ألفه

بجسدى كالدثار الدافىء ولن أنعتق فيه من ثنائى . كان مضطجعا الى الخلف وقد ارتفع رأسه قليلا وفتحت عينـــاه وكأنه يريد أن يراقب كل ما كنت أفعله . وسرت نظرته الحادة فى عمودى الفقرى فتولانى شعور غريب بالضيق والقلق . ومع ذلك فانى لم أعرها بالا مدة لحظة لاننى كنت منقادة بدفعتى التلقائية الاولى .

وفجأة تمتمت قائلة : « ألا تشعر الآن بتحسن ؟ » .

فأجابني قائلا بلهجة بعيدة محايدة : « نعم » .

فقلت : « انتظر » .

ولــكننى فى نفس اللحظة التى أوشكت فيها على معانقته فىحماس متجدد اذا بىأحس مرة اخرى بنظرته الثابتة الباردة تمتد مشدودة على ظهرى وكأنها قطعة من السلك البارد المبتل فاعترانى الخجل فجأة وانتابتنى الحيرة . فخمد سعار النشوة فى بدنى وتراخىعناقى رويــدا ثم تهاويت على ظهــرى منفصـــلة عنه . لقــد بذلت جهدا كبيرا فى مضاجعته وأودعتها كل ما فى القنوط الفطرى الساذج من قوة دافعة . فاغرورقت عيناى بالدموع عندما أدركت فجأة ان جهودى قد باءت بالفشــل ووضعت ذراعى على وجهى لاخفى عنــه بكائى . وكان واضحا اننى أخطأت فقد عجزنا عن ممارسة الهوى كما خيــل لى ان حـــكمه على حقيقتى لا ريب خـــال من كل أثر للوهم . فعرفت الآن اننى كنت أعيش فى نوع من السحاب الذى صنعته من حولى حتى لا أرى صورتى منعكســـة على ذهنى . وأما هو فعلى العكس من ذلك قد بدد بنظراته ذلك السحاب ووضــع المرآة مرة أخرى أمام عيني . ورأيت نفسى كما كنت على حقيقتى أو بعبارة أدق كما بدوت فى نظره بلا شك لاننى لم أكن أعلم شيئا ولا يدور بخلدى شيء عن نفسى . فاننى كما سبق أن قلت لم أكد أومن بوجودى .

واخيرا قلت : « اذهب » .

فنهض متكئا على احد مرفقيه ونظر الى فى ارتباك قائلا : « لماذا ؟ ماذا دهاك ؟ » .

فقلت فى هدوء دون أن أرفع ذراعى عن وجهى : « يحسن بك أن تذهب . ولا تعتقد أننى غاضبة منك ـ ولــكننى أرى أنك لا تشعر بشيء نحوى ولذا ـ .. » ولم أتم عبارتى بل هززت راسى .

فلم يحر جوابا ولــكننى أحسست به وهو يتحرك تاركا مكانه بجانبى ليرتدى ملابسه . ثم شـــعرت بألم مبرح وكأن بى جرحا

عميقا وان شخصا ما أخذ يسبر جوفه بنصل حاد رفيع . فكنت أتألم وأنا أنصت اليه أثناء ارتدائه ملابسه وكنت أتألم عندما يدور بخلدى انه ذاهب الى الابد بعد بضع لحظات وانني لن أعود الى رؤيته وكنت أتألم لألمي ومعاناتي .

اخذ يرتدى ملابسه فى بطء ولعله كان يتوقع ان ادعوه مرة اخرى . واذكر ان الامل راودنى لحظة فى استبقائه عن طريق استثارة رغبته فى . فقد كنت مضطجعة بجانبه والدثار يغطى جسدى . فاذا بى الآن أحرك ساقى فى دلال يائس وحزين لينزلق الدثار عن جسدى . ولم يحدث لى قط من قبل أن عرضت نفسى على تلك الصورة . واذا بى وافا أرقد هناك عارية فارجة ما بين ساقى واضعة ذراعى على عينى يكاد يراودنى وهم محسوس بأن يديه على كتفى وان فمه على فمى . ولكننى ما لبثت عندئذ ان سمعت الباب يغلق .

ظللت فى مكانى راقدة على ظهرى بلا حراك . واعتقد اننى انتقلت من الاسى الى نوع من الخمول ثم استغرقت فى النوم على غير وعى منى . ولكن ما ان تقدم الليل حتى استيقظت وادركت لاول مرة اننى وحدى . ففى خلال فترة نومى الاولى لم يفارقنى احساس بوجوده معى رغم ما عانيته من مرارة لرحيله . ثم عاودنى النوم على صورة ما .

الفصل الثانى

وفى اليوم التالى أدهشنى أن أجد نفسى فى حال من الهزال والكآبة واللامبالاة وكأنى أتماثل للشفاء من علة لازمتنى شهرا كاملا. وكنت أتميز بطبيعة مرحة . ولم يفتــأ مرحى الذى يرجع الى حيويتى وصحتى الجسمانية يتغلب على كل ما حل بى من كوارث الى حد ان احساسى بالمرح على الرغم منى حتى ولو كانت الظروف لا تبرر ذلك حقا كان يضايقنى أحيانا . فكنت فى كل يوم مثلا حالما أستيقظ من نومى أحس عادة بالرغبة فى الغناء أو فى سرد حديث أسلى به أمى . ولكننى فى ذلك الصباح كنت افتقر تمـــاما الى تلك البهجة اللا ارادية بل احسست بالالم والتبلد والافتقار التام الى ما كنت أجده من لذة جياشة مندفعة ازاء الساعات الاثنتى عشرة التالية من الحياة التى لابد ان يمنحها النهار . وزعمت لامى التى لاحظت على الفور سوء حالتى النفسية اننى لم أنعم بنوم هادىء .

ولقد صدقت فيما قلت الا اننى أرجعت السبب فى ذلك الى أحد الآثار المتعددة للامتهان العميق الذى فرضه جياكومو على روحى بنبذه اياى . وكما قلت من قبل فاننى لم أعد أبالى بما كنت عليه ولم أستطع ان أرى سببا يمنعنى فى نظرى من أن أكون كذلك . ولــكن الامل كان لا يفتأ يراودنى فى أن أجد من أحبه ويحبنى . وخيل لى ان اباء جياكومو رغم ما أبداه من أسباب معقدة كان يرجع كله الى مهنتى التى ما لبثت لهــذا السبب أن صارت فى نظرى بغيضة لا تحتمل .

ان حب الذات وحش غريب الاطوار قد يرقد نائما تحت اقسى الضربات ثم يستيقظ وقد أصيب لاتفه الخدوش بجــراح قاتلة . فثمة ذكرى واحدة قبل غيرها من الذكريات قد أصابتنى فى الصميم وملأتنى بالمرارة والخجل . تلك هى ذكرى عبارة فهت بها فى الليلة السابقة وأنا أعلق سترتى حين قلت : « ما رايك فى هذه الغرفة ؟ الا ترى انها مريحة ؟ » .

وتذكرت انه لم يجبنى بل أجال بصره فى أنحاء الغرفة مصعرا وجهه على صورة لم أفهمها حينــــذاك . ولــكننى أدركت الآن انها

كانت تعبيرا عن النفور . فلا شك انه كان يحدث نفسه قائلا :
« انها غرفة بغي » . وعندما تذكرت عبارتي أخذت التوي من الالم
لما راودني أثناء نطقي بها من كبرياء شد ما كانت ساذجة صريحة .
وكان ينبغي أن أدرك ان غرفتي في نظر أي شخص متحضر حساس
مثله لابد أن تبدو حظيرة قذرة بل ومما يزيد في قبحها ذلك الاثاث
الذي كان غاية في التواضع وما استخدم فيه من أغراض .

وتمنيت لو لم أفه قط بتلك العبارة المشئومة . ولـكنها كانت
قد خرجت من بين شفتي ولم يعد في وســعي الآن أن أفعل شيئا
قبلها . لقد بدت لي تلك العبارة أشبه بسجن لا سبيل مطلقا الى
الهرب منه بأية وسيلة ممكنة. اذ انه كان من الممكن اثبات شخصيتي
بتلك العبارة على صورة لا تقبل النقض او التعديل فقد جعلت من
نفسي ما كنت عليه بحر ارادتي . وكان نسيان تلك العبـارة أو
التظاهر أمام نفسي بأني لم أفه بها قط أشــبه بنسيان نفسي أو
التظاهر أمام نفسي بأني في حكم العدم .

وكان تأثير تلك الخواطر في نفسي كتأثير السم البطيء الذي يسري
في عروقي نافثا الاذى في أغلى دمائي . ومع أنني في الصباح كنت
أحاول عادة أن أطيل فترة خمولي فان لحظة نفوري من ملاء الفراش
حين يلقى بها جسدي بعيــدا كانت لا تفتــأ تحين فيثب منـــه
وكأنه يتحرك بارادة من لدنه . ولــكن ما حدث يومئذ كان على
النقيض من ذلك فقد مر الصباح كله وحان وقت الغداء غير أنني مع ذلك
لم استطع حراكا رغم محـاولتي أن أحث نفسي على النهـــوض .

اذ احسست اني حبيسة الفراش خاملة الذهن عاجزة عن كل شيء
كسول بليدة . وفي نفس الوقت كنت أحس بالالم في جميع أجزاء
جسدي وكأني قد بذلت جهدا كبيرا يائسا لابلغ ما كنت فيه من
جمود عن الحركة . احسست وكأني قارب من تلك القوارب القديمة
المتداعية التي تسحب أحيانا الى المرسى في خليج رخو زلق وقد
امتلأ جوفها بمياه عفنة سوداء . ولو اعتلى أحـد متنها تداعت في
الحال ألواحها المتآكلة واذا بالقارب الذي ربما مكث هناك ســنين
عديدة يغوص في المستنقع البغيض . ولست أدري كم طال رقادي على
تلك الصورة ملتحفة في ضيق بالبطاطين ومحملقة في فراغ وقد غطتني
الملاء حتى أنفي . وسمعت الاجراس تعلن انتصاف النهار ثم سمعتها
تدق الواحدة والثانية والثالثة والرابعة . وكنت قد أوصدت باب
غرفتي فكانت أمي لاتبرح تأتي من وقت لآخر لتطرق الباب في قلق .

وكنت أقول لها في كل مرة انني لم ألبث أن أنهض من الفراش وأن عليها أن تدعني وشأني .

وعندما أخذ الضوء يخبو استجمعت شجاعتي ثم أبعدت البطاطين عني ونهضت من الفراش باذلة فى ذلك سجهودا كان من الواضح انه يفوق طاقة البشر .

وكانت أطرافى مثقلة بالخمول والنفور . فكنت أثناء اغتسالى وارتداء ثيابى لا أسير على قدمى بل أجر نفسي جرا هنا وهناك . وكان ذهنى صفحة بيضاء . فكنت لا أدرى الا اننى فى ذلك اليوم على الاقل افتقد الرغبة تماما فى الخروج لاقتناص عشيق : ذلك الخاطر الذى لم يكن وليد عقلى فحسب بل جسدى بأكمله . وحالما ارتديت ثيابى ذهبت إلى أمى وأخبرتها اننا سنقضى المساء معا واننا سنخرج للنزهة فى المدينة وبعد ذلك نحتسى الفيرموت فى أحد المقاهى. وقد ضايقتنى فرحة أمى بتلك الدعوة التى لم تألفها ولم أدر لذلك سببا . ولاحظت مرة أخرى فى غير رفق كم ترهلت وجنتاها المنتفختان وكم ضاقت عيناها اللتان التمعتا بوميض مرتعش مهتز . ولكننى كبت رغبتى فى أن أوجه اليها ملاحظة جافة ربما أودت بسعادتها . ثم جلست الى المائدة فى الفرفة ذات الاضاءة الخافتة فى انتظارها حتى ترتدى ثيابها . وكان الضوء الابيض المنبعث من مصباح الطريق يتسلل خلال النوافذ العارية من الستائر فيلمع منعكسا على ماكينة الخياطة كما يضىء أحد الجدران . وخفضت عينى الى المائدة حيث لمحت فى الضوء الخافت صفوفا من أوراق البيشانس ذوات الصور البهيجة التى اعتادت أمى أن تخفف بها من سأمها أثناء الاماسى الطويلة التى تقضيها وحدها . وعندئذ خالجنى فجأة احساس غريب . فقد خيل لى اننى أمى — أمى نفسها بلحمها ودمها تنتظر أن تفرغ ابنتها آدريانا من مضاجعة أحد عشاق الطريق فى الفرفة المجاورة . ولعل مبعث ذلك الاحساس أننى كنت جالسة فى مقعدها والى مائدتها وأمام أوراقها . فلا شك ان الاماكن أحيانا تستحضر المشاعر على هذه الصورة . فالكثيرون من الناس عندما يزورون سجنا مثلا يخيل لهم أنهم يشعرون بما يشعر به السجين الذى رزح هناك فترة من الزمان من برودة ويأس واحساس بالعزلة . ولكن غرفة الجلوس لم تكن سجنا كما لم تكن آلام أمى ثقيلة أو من اليسير تخيلها الى هذا الحد . بل اعتقد أنها كانت تعيش كما عاشت دائما . ومع ذلك فان الاحساس البديهى

بحياتها كان خليقا بأن يورثني نوعا من التغير الجسماني ولعل ذلك يرجع الى ذلك الشعور العدائي الذى راودني قبلها منذ لحظة واحدة . فعندما يريد ذوو النفوس الطيبة من الناس أن يلتمسوا العذر لعمل يستحق اللوم فهم يقولون أحيانا : «ضعي نفسك مكانها» . حسنا لقد وضعت نفسي مكان أمي فى تلك اللحظة حتى صرت مقتنعة بأنني هي .

هكذا كنت ولكنني فى نفس الوقت كنت أدرك ذلك كما لم تفعل هي بالطبع والا لتمردت بطريقة ما . وفجأة أحسست بالذبول والتغضن والعجز وأدركت معنى الشيخوخة وكيف انها لا تغير الجسد فحسب بل تصيبه بالضعف والعجز . كيف كان منظر أمي ؟ لقد رأيتها أحيانا وهي تخلع ثيابها فلاحظت دون تفكير تقلص ثدييها المترهلين بلونهما الضارب الى الشهبة كما لاحظت شحوب بطنها المسترخي . والآن أحسست فى نفسي بهذين الثديين اللذين أرضعاني وذلك البطن الذى أنجبني فلم أستطع أن ألمسهما . وبدا لى انني احس بنفس الاسى والالم العاجز اللذين خالجا أمي بلا ريب لمنظر جسدها المتغير . فان الشباب والجمال يضفيان على الحياة جمالا وبهجة . ولكنهما عندما يذهبان ؟ واقشعر بدني رعبا . وما ان نفضت عن نفسي لحظة ذلك الكابوس حتى هنأت نفسي بأني فى الحقيقة آدريانا التى اجتمع لها الشباب والجمال وبأني لا أشترك فى شيء مع أمي التى فقدت الشباب والجمال ولن تستعيدهما مرة أخرى .

وفى نفس الوقت بدا ذهني وكأنه جهاز توقف عن العمل ثم أخذ يستعيد سرعته تدريجيا فأنشأ يصور لى افكارا لا ريب انها خطرت لها أثناء انتظارها عودتي وحيدة فى الغرفة . وليس من العسير مطلقا ان يتخيل المرء خواطر شخص كأمي فى مثل هذه الظروف . غير ان تلك الخواطر عند معظم الناس هي بالضرورة وليدة التعنيف والاحتقار . وهم فى الواقع لا يتخيلون بقدر ما يصيغون لانفسهم نوعا من الدمى يصبون عليه جام عداوتهم . ولكنني لما كنت أحب أمي ولما كنت اضع نفسي مكانها عن حب فقد كنت أعلم انخواطرها فى مثل هذه اللحظات لم تكن انانية أو مخيفة أو مخجلة بل لم تكن تمت الى الواقع بأية صلة لما كنت أفعله أو ما كنت عليه . والأحرى انني كنت أعلم ان خواطرها كانت عارضة تافهة كتلك التى تخطر على ذهن عجوز جاهلة فقيرة وذلك لانها لم تستطع قط ان تؤمن بشيء واحد يومين متتاليين دون أن تتناقض فى حدة بالضرورة .

اما الافكار العظيمة والعواطف العميقة حتى ولو كانت سلبية حزينة فانها تحتاج الى مأوى وفترة للنمو فهى نباتات رقيقة تتطلب زمنا لتنمو وترسخ جذورها . ولكن أمى لم تستطع قط أن تزرع فى ذهنها أو قلبها سوى أعشاب سرعان ما تذوى وتموت وكان قوامها خواطر يومها واحنه ومشاغله . وهكذا أمكننى أن أبيع نفسى فى مقابل النقود بل ذلك هو ما كنت افعله فى الواقع فى غرفتى الخاصة. ولكن أمى كانت وهى جالسة فى غرفة الجلوس أمام أوراق البيشانس لا تفتأ تقلب فى ذهنها ذلك الهراء المعهود لو أمكننا أن نطلق هذا الوصف المنصف على الاشياء التى عاشت من أجلها منذ طفولتها حتى اليوم مثل ثمن الطعام والقيل والقال بين أهل الحى وتصرفات أهل الدار التافهة والخوف من الحوادث والاعمال المنوطة بها وتفاهات أخرى من هذا القبيل . ولعلها كانت على الاكثر تنصت كل يوم الى دقات الساعة الكامنة فى برج مجاور ثم تلوح لها بعض الخواطر دون أن تعلق عليها أهمية كبرى مثل : « لقد تأخرت آدريانا عن مألوف عادتها فى هذه المرة » . أو تحدث نفسها قائلة عندما تسمعنى أفتح الباب وأردد كلمة أو اثنتين فى الردهة :

لقد فرغت آدريانا » . ثم ماذا ؟ ها أنذى فى تخيلاتى قد صرت أمى نفسها جسدا وروحا وأحسست انى أحبها من جديد بل أكثر من ذى قبل لا لسبب الا لاننى استطعت أن أضع نفسى مكانها بكل صدق واخلاص وعلى صورة عارية من كل زيف .

واذا بضوضاء الباب وهو يفتح توقظنى من ذلك الحلم الذى كان يتراءى لى . فقد كانت أمى توقد المصباح قائلة : « ماذا تفعلين فى الظلام ؟ » فقفزت واقفة أنظر اليها وقد انتابتنى الدهشة فقد لاحظت من أول نظرة انها كانت ترتدى ثيابا جديدة . ولكنها لم تضع قبعة على رأسها لانها لم تلبسها قط من قبل . بل كانت ترتدى ثوبا أسود متقن الصنع وتحمل على ذراعها حقيبة كبيرة سوداء من الجلد ذات قفل معدنى أصفر اللون الى حد ما وتضع حول عنقها فراء هريا قصيرا . أما شعرها الاشيب فقد بللته وسرحته بعناية وقد جذبته بقوة فوق رأسها حيث عقصته فى عقدة صغيرة تخللتها المشابك . بل لقد دهنت بعض المسحوق الاحمر على وجنتيها العجفاوين الذابلتين اللتين بدتا الآن شديدتى الحمرة . ولم أكد أتمالك نفسى من الابتسام عندما رأيتها متأنقة فى ملبسها جادة فى مظهرها على هذه الصورة . فنهضت قائلة بلهجتى العاطفية

المعهودة : « يحسن بنا أن نذهب » .

وكنت أعلم ان أمي تجد متعة في السير على مهل خلال الشوارع الرئيسية حيث توجد أفخم محال المدينة ، وذلك عندما تكون حركة المرور على أشدها ، فركبنا الترام ونزلنا منه عند نهاية شـــارع فياناسيونالى • وكانت أمي تصحبنى للنزهة فى ذلك الطريق عندما كنت طفلة صغيرة • فكانت تبدأ نزهتها من ميدان دلزدرا على الافريز الايمن ثم تتقدم فى بطء وهي تمعن النظر فى كل واجهة من واجهات المحال حتى نبلغ ميدان فينيسيا ثم نعبر الطريق ونعود الى ميدان دلزدرا وهي لا تزال تنظر فى امعان الى كل ما يعرض فى واجهات المحال ســاحبة اياى من يدى . وبعد ذلك تصحبنى الى المنزل متعبــة يغالبنى النعاس دون أن نشترى شيئا أو نجرؤ على دخول أحــد المقاهى العديدة التى نمر بها • وأذكر اننى لم أكن أتمتع بتلك النزه لاننى على عكس أمي التى بدت قانعة بمشاهدة واجهات المحال فى دقة وتلذذ متخذة منها قوتا تشبع به شـهوتها كنت أبغى دخول المحال وابتياع بعض الاشياء العديدة الجميلة الجديدة المعروضــة للبيع فى الواجهات خلف بللورها اللامع وفى ضوئها الساطع ثم احملها معى بعد ذلك الى المنزل . ولـكننى أدركت منذ طفولتى الباكرة أننا فقراء فلم أعبر عن مشاعرى بأية صورة من الصور . ولم يحدث سوى مرة واحدة ـ ولا يحضرنى السبب فى ذلك ـ أن انتقيت شيئا أعجبنى . فاذا بنا نسير فى الطريق المزدحم بسرعة مضاعفة بينما تسحبنى أمي من ذراع واحدة وأنا أقاومها بكل ما أوتيت من قوة صارخة باكية الى أن عيل صبرها فى النهـــاية فلطمتنى على أذنى بدلا من اعطائى ما كنت أتوق اليه . وكانت كل لطمة من لطماتها المتتالية تنسينى الم الحرمان مما كنت أبغى وأشتهى .

وها أنذى الآن اقف مرة أخــرى فى الطرف القصى من الافريز المواجه لميدان دلزدرا متعلقة بذراع أمي وكأن شيئا لم يتغير بعــد كل تلك السنين . فهنا كانت الافاريز تعج بالاقدام التى انتعلت الاحذية القصيرة والاحذية المتوسطة والاحذية الطويلة والاحذية ذات النعال المرتفعة والاحذية ذات النعال المستوية والبعض يرتدى خفافا. وكان مجرد النظر اليها جميعا خليقا بأن يصيب المرء بالدوار. وراح الناس يذرعون الطريق مثنى أو فى جماعات من الرجال والنســاء والاطفال أو فرادى بعضهم يسير على مهــل والبعض على عجــل وجميعهم متماثلون • ولعل ذلك راجع الى رغبتهم فى التباين فحسب

فقد تشابهت ملابسهم وشعورهم ووجوههم وعيونهم وأفواههم . فهنا كان الفراشون والاساكفة وباعة الادوات الكتابية وتجار المجوهرات وصناع الساعات والكتبيون وباعة الزهور وتجار الاقمشة ومحال اللعب وتجار الادوات المعدنية وباعة القبعات والجوارب ومحال القفافيز والمقاهي ودور السينما والبنوك . هنا كانت النوافذ المضاءة فى المبانى الكبيرة حيث يتحرك الناس فى أرجاء الغرف أو يعملون الي مكاتبهم . أما اللافتات الكهربية فلم تكن تتغير مطلقا . وعلى نواصى الطريق كانت تقوم أكشاك الصحف ويقف باعة القسطل والعاطلون من باعة ورق البخور وحلقات المطاط للمظلات . وهنا كان يقف الشحاذون . فثمة رجل أعمى على عينيه منظار أسود يقف على ناصية الطريق وقبعته فى يده وقد ارتمى رأسه الى الخلف مستندا الى الحائط . وعلى مسافة منه تجلس امرأة نصف وهى ترضع طفلها من ثديها المتقلص . وعلى مسافة أخرى يقف رجل أبله تبدو فى مكان يده جذمة صفراء لامعة كمفصل الركبة . وما ان وجدت نفسى مرة أخرى فى ذلك الطريق وبين تلك الاشياء المألوفة حتى خيل لى اننى لا أستطيع حراكا مما أصابنى بقشعريرة عميقة وأشعرنى بالعرى الوقت وكأن نسمة الخوف المثلجة كانت تمر بين بدنى وثيابى . وثمة صوت صاخب منفعل لامرأة تغنى أخذ ينبعث من الراديو فى أحد المقاهى القريبة منشدا اغنية « بابى الصغير ذو الوجه الاسود » . فقد كان ذلك خلال حرب الحبشة .

ولم تدر أمى بالطبع ماذا كان شعورى . فلا شك اننى لم أكشف لها عنه . وكما قلت من قبل فانى أبدو رقيقة الطبع سهلة الانقياد معتدلة المزاج حتى انه ليتعذر على الآخرين من الناس أن يتكهنوا بما يدور فى خلدى . ولكن مشاعرى غلبتنى فى لحظة من اللحظات « والآن أخذ صوت المراة يشدو بأغنية عاطفية » . فارتعشت شفتاى . وخاطبت أمى قائلة : « أتذكرين حينما كنت تصحبيننى لنذرع هذا الطريق حيث نتأمل واجهات المحال ؟ » .

فأجابت قائلة : « نعم . ولكن كل شيء حينذاك كان أرخص منه الآن — فهذه الحقيبة مثلا — كان فى امكانك عندئذ أن تحصلى عليها لقاء ثلاثين ليرة » .

ثم انتقلنا من محل السلع الجلدية الى محل المجوهرات حيث توقفت أمى عن المسير لتتأمل الحلى . وهتفت قائلة فى نشوة : « انظرى ! تأملى فقط هذا الخاتم ! يعلم الله كم يبلغ ثمنه — وهذا

السوار الذهبى الثقيل ! ولـكننى لا أحس بشغف شـديد نحو الخواتيم والاسورة ـ بل تعجبنى القلائد الجميلة . فقد كنت أملك فى يوم من الايام قلادة من المرجان ـ ولـكننى اضطررت عندئذ الى بيعها » .

ـ متى ؟ ..

ـ منذ سنوات الآن .

ولقد تذكرت ـ ولست أدرى لذلك سببا ـ أننى حتى الآن وعلى الرغم من كل مكاسبى المهنية لم أستطع قط أن أبتاع لنفسى حتى أبسط الخواتيم . وقلت لأمى : « أتعلمين اننى قررت الا أصحب رجالا الى المنزل بعد ذلك . لقد فرغت من كل هذا » .

ولم يسبق لى أن ذكرت مهنتى لأمى بمثل هذه الصيغة التفصيلية وقد ارتسم على وجهها تعبير عجزت عن فهمه حينذاك . ثم قالت : « لقد قلت لك مرارا ان تفعلى ما تشائين . فأنا سعيدة ما دمت أنت سعيدة » .

ولـكنها لم تبـد سـعيدة ، وأردفت قائلة : « فسنضطر الى مواصلة الحياة التى كنا نحياها من قبل . وستضطرين الى قص القمصان وحياكتها من جديد .. »

فقالت : « لقد زاولت هذا العمل سنين عديدة » .

وألححت قائلة فى شيء من القسوة : « ولن تتوفر لدينـا نقود كثيرة كما هى الحال الآن . فقد تدللنا أخيرا الى حد ما . ولست أدرى أنا نفسى ماذا أفعل ؟ » .

فسألتنى أمى قائلة فى أمل : « وماذا تفعلين ؟ » .

فأجبت قائلة : « لست أدرى . ربما عدت الى عملى كنموذج أو عاونتك فى عملك » .

فقالت بلهجة مثبطة للعزم : « وفيم يمكنك معاونتى ؟ » .

فأردفت قائلة : « أو يمكننى الالتحاق بخدمة المنـازل . فماذا هناك من أعمال ؟ » .

والآن بدا لى وجه أمى حزينا تعسا وكأنها فقدت فى لمح البصر كل ما كانت تتمتع به أخيرا من وسائل الراحة البدنية كما تفقـد الاشجار أوراقها الذابلة حالما تشيع فى الجو برودة الخريف . فرددت قائلة فى اقتناع : « يجب أن تفعلى ما تشائين ما دمت سـعيدة . ليس لدى ما أقوله أكثر من هذا » .

وأدركت أنها كانت تتنازعها عاطفتان متعارضتان : حبها لى ،

وتعلقها ببسمة الحياة . ولقد أسفت لها وكنت أفضل ان يكون لديها من الشجاعة ما يجعلها تتنازل الى الابد عن احدى هاتين العاطفتين . اما الحب واما المال . ولكن ذلك قلما يحدث فاننا نقضى العمر فى نسخ آثار فضائلنا بآثار رذائلنا . وقلت لها : « لم أكن سعيدة من قبل ولن أكون سعيدة الآن ـ ولكننى لم أعد أستطيع مواصلة الحياة على هذه الصورة » .

ثم لزمنا الصمت بعد ذلك . ولشد ما كان وجه أمى شاحبا متقلصا حتى بدا لى وكأنه قد عاوده نحوله وامتقاعه خلف مظهره المتورد . راحت تتأمل واجهات المحال بحماس وتركيز كسابق عهدها . ولكنها كانت تفعل ذلك الآن على صورة آلية دون لذة أو فضول وكأن ذهنها مشغول بأمر آخر . فربما كانت عيناها حتى وهى تحملق لا تريان شيئا أو بالاحرى انها لم تكن ترى السلع المعروضة فى الواجهات بل ماكينة الخياطة بدواستها التى لا تعرف الكلل أو الملل وابرتها التى لا تفتأ ترتفع وتنخفض فى جنون وأكداس القمصان التى لم ينته العمل فيها وقد وضعت على المائدة والمفرش الاسود الذى تعودت أن تحزم فيه ما أنجز من عملها لتحمله عبر المدينة الى عملائها . أما أنا فلم تكن امام عينى مثل هذه الرؤى لتحجب عن بصرى واجهات المحال . بل كنت أراها فى وضوح تام وكانت خواطرى فى صفاء البللور . وكنت أتبين كل شىء خلف الواجهات الزجاجية وكذلك بطاقات الاسعار واحدة فواحدة . ثم حدثت نفسى قائلة اننى ربما كنت عازفة عن الاستمرار فى عملى بل هكذا كنت فى الواقع ولكن لم يكن هناك بالفعل عمل آخر يمكننى أن أؤديه . فقد كان فى وسعى فى حدود معينة أن أبتاع معظم الاشياء التى كنت أشاهدها ولكننى لا أكاد أعود الى عملى كنموذج أو أى عمل آخر من هذا القبيل حتى أضطر الى التنازل الى الابد عن تلك الاشياء وأبدأ أنا وأمى من جديد حياة التقشف والكد المملوءة بالرغبات المكبوتة والتضحية من غير طائل والادخار الذى لا يغنى شيئا ـ كما اننى قد أمنى النفس باقتناء قطعة من الحلى اذا ما عثرت على من يهبنى اياها . فى حين ان تلك الاشياء تصبح بعيدة المنال بعد الكواكب فى السماء لو اننى عاودت حياتى الاولى ـ وغشيتنى موجة من النفور نحو حياتى الاولى التى لشد ما كانت قاسية بائسة على صورة سخيفة . وراودنى فى نفس الوقت احساس حاد بسخف الاسباب التى من أجلها رغبت فى تغيير مهنتى . وذلك ان طالبا

فتنت به أبى أن تكون له صــلة بى ! ولاننى اقنعت نفسى بانه احتقرنى ! ولاننى وددت لو كنت شيئا مختلفا عما كنت عليه فى الواقع ! وقلت لنفسى أنها كبرياء فحسب وانه لا يمكننى بدافع من الكبرياء فحسب أن أخوض أنا وأمى بصفة خاصة غمار تعاستنا الاولى . وفجأة تراءت لى حياة جياكومو منطلقة فى اتجاه آخر بعد أن التقت بحياتى واختلطت بها لحظة قصــيرة ثم ظلت حيـــاتى تواصل طريقها الذى اتخذته من قبل . وحدثت نفسى قائلة : « انى اغير حياتى لو وجدت من يحبنى ويبغى الزواج بى حتى ولو كان فقيرا . أما من أجل نزوة عابرة فان الامر لا يستحق العناء » . وما ان لاح لى ذلك الخاطر حتى امتلأ قلبى بما ينطوى عليه التحرر من هدوء جميل . وطالما خالجنى ذلك الشعور نفسه منذ تلك اللحظة لا كلما رفضت ما بدا لى أنه قسمتى فى الحياة بل كلما خرجت للقاء مصيرى . لقد كنت ما كنت وكان على أن أكون ولا شىء غير ذلك . فربما كنت زوجة صالحة رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة ، أو امرأة تبيع نفسها لقاء النقود . ولــكننى لا أستطيــع أن أكون مخلوقة صغيرة تعسة تكد وتكدح طوال حياتها ولا هدف لها من وراء ذلك سوى ارضاء كبريائها . وما ان صــافيت نفسى حتى ابتسمت .

وحينئذ كنا نقف أمام محـــل لازياء النســـاء وقد عرضت فى واجهته أنواع من الملابس الحريرية والصــوفية . وقالت أمى : « انظرى . يا لها من قلنسوة جميلة ! ها هى ذى بغيتى بالضبط » .

فرفعت عينى وتأملت القلنسوة التى تعنيها وقد عاودنى هدوئى وصفاء نفسى . فاذا بها جميلة حقا يختلط فيها اللونان الاســود والابيض وعليها زخرف من الطيور وأوراق الشجر . وكان باب المحل مفتوحا على مصراعيه ومنضدة العرض واضحة للعيان تعلوها صينية ذات أقسام صغيرة ملئت جميعها بالقلانس التى تكدست معا فى غير نظام . فسألت أمى قائلة : « أتعجبك ؟ » .

— « نعم .. لماذا ؟ »

— « إذن فستحصلين عليهـــا . ولــكن فلتعطينى أولا حقيبتك ولتأخذى حقيبتى » .

فلم تفهم مرادى وأخذت تحملق فى فاغرة فاها . ولــكننى لم انبس بكلمة بل تناولت حقيبتها الجلدية الــكبيرة السوداء ووضعت

بين يديها حقيبتي الصغيرة . ثم فتحت قفل الحقيبة فانفتحت وأبقيتها مفتوحة بين أصابعي ثم دفنت الحمل في بطنى كمن تعقد النية على شراء شيء ما . وتبعتني أمي التي لم تفهم شيئا ولكنها لم تجرؤ على سؤالي .

قلت للبائعة وانا أتجه نحو الصينية : « نريد ان نرى بعض القلانس ؟ » .

فقالت ملقية بالقلانس أمامي : « هذه من الحرير .. وهذه من الكشمير .. وهذه من الصوف .. وهذه من القطن » .

فاتجهت مباشرة الى المنضدة حيث وضعت الحقيبة فى مستوى بطنى ثم أخذت أفحص القلانس بيد واحدة وأبسطها وأرفعها في الضوء لأتبين زخرفها وألوانها . وكانت هناك على الاقل اثنتا عشرة قلنسوة اختلط فيها اللونان الابيض والاسود وجميعها متشابهة تماما . فجعلت احداها تنزلق على حافة الصينية فتدلى طرفها فوق المنضدة .

ثم قلت للبائعة : « انى أريد فى الواقع شيئا أبهى من ذلك » .

فقالت البائعة : « هناك نوع أفضل ولكنه أغلى ثمنا » .

ـ « فلأره » .

ثم استدارت لتنزل صينية أخرى من فوق الرفوف . وكنت على استعداد لذلك فابتعدت قليلا عن المنضدة وفتحت الحقيبة . ثم جذبت القلنسوة من طرفها وضغطت بجسدى مرة أخرى على المنضدة ولم يستغرق منى ذلك أكثر من لحظة .

وفى تلك الاثناء كانت البائعة قد أنزلت الصينية من فوق الرف ووضعتها على المنضدة حيث أرتني بعض القلانس التي كانت أكبر حجما وأجمل شكلا . ففحصتها فى هدوء وتؤدة معلقة على الوانها وزخارفها بل وعارضة اياها على أمي مصحوبة بكلمات الاستحسان التى كانت تجيب عنها بايماءات من رأسها وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة لانها كانت قد شاهدت ما فعلت .

وأخيرا سألتها قائلة : « وكم يبلغ ثمنها ؟ » .

وما ان ذكرت لى ثمنها حتى قلت فى أسف : « انك على حق . فهى أغلى ثمنا مما نطيق على أية حال .. ومع ذلك فلك الشكر » .

ثم غادرنا المحل واتجهت بسرعة الى كنيسة قريبة خشية ان تلاحظ البائعة السرقة ثم تركض خلفنا خلال الزحام . وأخذت أمى

وهي متعلقة بذراعي تنظر حولها في حــيرة وريبة كمخمور يراوده الشك فيما اذا كان هو المخمور أو ما يراه من أشياء تهتز وتتحرك أمام عينيه . ولم اتمالك نفسي من الضحك لما بدا عليها من حيرة وذهول . ولم أدر لماذا سرقت القلنسوة . ولم يكن ذلك مهما فى حد ذاته فقد سبق لى أن سرقت « البدارة » من منزل مخدومة جينو . ولا أهمية فى تلك الامور الا للخطوة الاولى . ولكن اذا بى احس من جديد بتلك اللذة الجنسية التى راودتنى فى أول مرة . وخيل لى اننى ادركت الآن السبب فى اقدام الكثيرين على السرقة . وبعد بضع خطـــوات وصلنا الى الكنيسة التى كانت تقع فى شارع جانبى . فسألت أمى قائلة : « هل ندخل هنا لحظة ؟ » .

فأجابتنى قائلة فى اذعان : « اذا شئت » .

فدخلنا الكنيسة البيضاء الصــغيرة ذات الشــــكل الدائرى التى بدت بحلقتها المزدوجة من الاعمدة المحيطة بأرضيتها المبلطة بالاحجار أشبه بصالة الرقص . وانصب ضوء باهت من خلال نوافذ القبــة على صفى المقاعد التى صقلها الاستعمال . فرفعت عينى ورأيت ان القبة كلها كانت تغطيها رسوم الملائكة وقد بسطت أجنحتها فوثقت من ان تلك الملائكة الجميلة الرائعة سوف تحمينى وان عاملة المحل لن تلحظ السرقة قبل المساء . ومما ساعد على بث الطمأنينــة فى نفسى ذلك الصمت المخيم فى داخل الـكنيسة وما شــاع فيها من رائحة البخور والظلمة الخفيفة والاحساس بالعزلة على أثر فوضى الطريق وضوئه الذى لشد ما كان قويا ساطعا . ودخلت الكنيسة مهـرولة حتى كدت أصطـدم بأمى ولـكننى سرعان ما اسـتعدت هدوئى . وسكنت مخاوفى . وتظاهرت أمى بالعبث فى حقيبتى التى ما زالت تمسك بها . فقدمت اليها حقيبتها هامســـة : « ارتدى قلنسوتك » .

ففتحت الحقيبة ووضعت القلنسوة المسروقة على راسها . ثم غمسنا أصابعنا فى حوض المـــاء المقدس وذهبنا لنجلس فى الصــف الاول من المقاعد المواجهة للمذبح الرئيسى حيث جثوت على ركبتى بينما ظلت أمى جالسة فى مكانها وقــد وضعت يديهــا فى حجرها واحتجب وجهها تحت القلنسوة التى كانت اوســع مما ينبغى . وأدركت انها كانت حزينة مغتمة فلم أتمالك نفسى من المقارنة بين هدوئى وغمتها . فأحسست انى فى حال من الصفاء والرضا . وعلى

الرغم من علمى بأنى قد ارتكبت إثما يحرمه الدين فاننى لم أشعر بشىء من تأنيب الضمير وكنت أقرب الى التقى والورع منى وأنا لم أرتكب اثما سوى الكد والعناء من أجل لقمة العيش. وتذكرت قشعريرة الذهول والحيرة التى سرت فى بدنى قبل ذلك بلحظة واحدة وانا انظر الى الطريق المزدحم . واستراحت نفسى الى فكرة وجود أله يمكنه أن يرى بوضوح من خلالى حيث لا يجد أثرا للشر. كما استراحت الى ان مجرد وجودى على قيد الحياة خليق بتبرئتى كما هى الحال فى الواقع مع البشر جميعا . فقد كنت أعلم ان هذا الاله لم يوجد للحكم على وادانتى بل لتبرير وجودى الذى لا يمكن الا أن يكون خيرا ما دام يتوقف عليه مباشرة . وبينما كنت أردد كلمات الصلاة على صورة آلية لم أفتأ أنظر الى المذبح حيث بدت لى صورة العذراء الغامضة خلف لهيب الشموع فى اطار غير واضح المعالم . وأدركت ان الامر بينى وبين العذراء لم يكن سلوكى هذا الطريق أو ذاك بل ما هو أهم من ذلك بكثير وهو ما اذا كنت أجد الشجاعة لاواصل الحياة أم لا .. واذا بالشجاعة التى كنت أنشدها تبدو لى فجأة وكأنها تتدفق نحوى من الصورة الغامضة خلف شموع المذبح فى شكل احساس مفاجىء بالحرارة يفيض به كيانى بأسره . نعم لقد تشجعت على مواصلة الحياة رغم جهلى بها وبالسبب فى وجودى على قيدها .

وكانت أمى جالسة هناك حزينة حائرة بينما برزت القلنسوة الجديدة فوق أنفها كالمنقار وعندما استدرت لانظر اليها لم اتمالك نفسى من الابتسام لها فى عطف هامسة : « قولى صلاة قصيرة ، فانها تنفعك » . فارتعشت وترددت ثم جثت على مضض وقد ضمت يديها . كنت أعلم انها لم تعد ترغب فى الايمان بالدين اذ بدا لها أنه نوع من العزاء الكاذب الذى يهدف الى صلاحها ونسيانها قسوة الحياة . ولكننى مع ذلك رأيت شفتيها تتحركان فى آلية وقد دفعنى تعبير السخط الفريب على وجهها الى الابتسام مرة أخرى . وكنت اريد ان اطمئنها فأخبرها بأننى قد غيرت رأيى وانه ليس ثمة ما يزعجها وانها لن تضطر الى العمل كسابق عهدها . وكان هناك شىء من الصبيانية فى عبوس أمى . فكانت أشبه بالطفل الذى حرم من قطعة الحلوى التى سبق أن وعد بها . وقد بدا لى ذلك أهم مظهر من مظاهر سلوكها . والا لتطرق الى ذهنى انها تعتمد على مهنتى فى التمتع برفاهتها التافهة . ولكننى كنت أعلم فى قرارة

قلبى ان ذلك لم يكن صحيحا .

وما ان تلت صلاتها حتى رسمت علامة الصليب على صدرها فى سرعة وعصبية وكأنها تريد ان تظهر لى فى وضوح انها ما فعلت ذلك الا لترضينى . فنهضت واشرت لها بالخروج . وما ان بلغت عتبة الباب حتى خلعت القلنسوة وطوتها بعناية ثم أعادتها الى حقيبتها . وعدنا الى شارع « فياناسيونالى » حيث اتجهت الى أحد محال الحلوي قائلة : « والآن سنشرب قدحا من الفيرموت » . فاحتجت أمى قائلة بصوت بدا فيه الرضا والخوف : « كلا ! ولماذا ؟ فانا لسنا فى حاجة اليه » . وهكذا كانت دائما منذ عهد بعيد تخشى الاسراف . فقلت : « وماذا يكلف قدح من الفيرموت ؟ ! » فصمتت وتبعتنى الى داخل المحل .

كان محلا قديم الطراز ذا منضـدة كبيرة وحاشيـة من خشب الـكابلى المصقول وعدد من الصناديق الزجاجية المملوءة بعلب الحلوى الانيقة . فجلسنا فى أحد الاركان وطلبنا قدحين من الفيرموت وارتبكت أمى لمنظر الساقى فجلست سـاكنة مرتبكة وقد نكست عينيها أثناء املائى الطلب . وعنـدما أحضر لنـا المشروب التقطت القدح الصغير ولم تأخذ منه سوى رشفة واحدة ثم أعادته مرة أخرى قائلة فى لهجة جادة وهى تنظر الى : « انه جيد » .

فأجبتها قائلة : « حسنا . انه فيرموت » . وكان النادل قد احضر حاملا من الزجاج والمعدن به بعض الفطـائر . ففتحته قائلة لأمى : « خذى واحدة » .

– « كلا . كلا . بحق السماء ! »

– « هيا . خذى واحدة ! »

– « انها ستفسد شهيتى . »

– « قطعة واحدة ! » ثم نظرت الى الفطائر واخترت لها قطعه من « الميل فوى » وأعطيتها اياها قائلة : « خذى هذه فهى خفيفة » .

فتناولتها وأخذت تقضمها قضمات صغيرة بغير عناية أو اهتمام وهى تعاود النظر اليها بعد كل قضمة . واخيرا قالت : « لا بأس انها لذيذة » .

فقلت : « خذى قطعة أخرى » . وعندئذ قبلت القطعة الاخرى دون حاجة الى ضـغط أو حث . وعنـدما احتست الفيرموت واصلنا جلستنا فى صـمت ونحن نراقب الرواد أثنـاء دخولهم

وخروجهم من المحل . وقد امكننى أن ارى فرحة امى بجلوسها فى ذلك الركن بعد التهامها قطعتى الفطير وقدح الفيرموت كما كانت تلهيها حركة الناس التى لا تنقطع . وقد لاحظت انه لم يكن لديها ما تقوله لى . ولعلها كانت لاول مرة فى حياتها تزور محلا كهذا فوقفت تلك التجربة الجديدة حائلا دون تفكيرها فى أمور أخرى .

ودخلت المحل سيدة شابة تقود بيـــدها فتـــاة صـــغيرة كانت ترتدى ياقة فرائية بيضاء كثيرة الوبر وثوبا صفيرا قصيرا كما كانت ترتدى قفازين أبيضين قطنيين وجوربين من نفس اللون والقماش . وانتقت الام فطيرة من الحامل الموضوع على المنضدة ثم أعطتها اياها .

فقلت لامى : « انك لم تصحبينى قط الى محال الفطائر وأنا طفلة صغيرة » .

فسألتنى أمى قائلة : « وكيف كان يمكننى تحمل ذلك ؟ » .

فاختتمت الحديث بلهجة هادئة قائلة : « والآن اذا بى انا التى تصحبك الى هنا بدلا من ذلك » .

فصـــمتت لحظـــة ثم قالت فى حزن : « اراك الآن تعيريننى باصطحابى الى هنا . وما كنت أريد المجىء » .

فوضعت يدى على يدها قائلة : « انا لا أعيرك . بل انى فرحة بذلك . وهل كانت جدتى تصحبك الى محال الفطائر ؟ » .

فهزت رأسها قائلة : « انى لم اغادر حينا قط حتى بلغت الثامنة عشرة من عمرى » .

فقلت : « أترين ؟ انكم تحتاجون فى الاسرة الى من يقدم فى يوم من الايام على أشياء معينة لاول مرة . فأنت لم تقدمى عليها ولا أمك بل ربما ام أمك لم تقدم عليها . فها أنذى أفعل هذه الاشياء اذ انه لايمكنكم أن تستمروا على هـــذه الحال الى الابد والى أبد الآبدين ! » .

فلم تحر جوابا ومكثنا هناك مدة ربع ساعة اخرى نراقب الناس. ثم فتحت حقيبتى واخرجت علبة سجائرى التى اشـــعلت منهـــا واحدة . فان النسوة اللاتى على شاكلتى كثيرا ما يدخن فى الاماكن العامة ليجذبن انتباه الرجال . ولـــكننى عنـــدئذ لم أكن أفكر فى اقتناص أحد الرجال . بل كنت فى الواقع قد قررت ألا أفعل شيئا من ذلك فى تلك الليلة على الاقل . كل ما حدث اننى شعرت بالرغبة فى التدخين . فوضعت السيجارة بين شفتى واستنشقت الدخان

ثم نفثته من فمي ومنخري ممسكة بالسيجارة بين اصبعي وأنا اراقب الناس .

ولكن لا ريب أن حركتي كانت تتسم بشيء من الإثارة . فقد لاحظت في الحال ان رجلا واقفا بالقرب من المنضدة كان يهم بارتشاف قدح القهوة الذى يمسك به في يده ثم أحجم عن ذلك محملقا في بنظرة شاخصة وقد ظل القدح في منتصف الطريق الى شفتيه . كان رجلا في الحلقة الخامسة من عمره قصير القامة ذا شعر كثيف مجعد وعينين جاحظتين ووجه طويل . ولشد ما امتلأ جسمه القصير حتى بدا وكأنه بلا عنق . وقف هناك والقدح في منتصف الطريق الى شفتيه يحملق في كالثور الذى رأى خرقة حمراء فجمد في مكانه قبل أن يخفض رأسه مهاجما . وكان حسن الهندام على الرغم من عدم أناقته . فكان يرتدى معطفا محكما على جسده أبرز عرض كتفيه . فخفضت بصرى وبدأت لحظة أزن ما له وما عليه . لقد أدركت انه من ذلك الصنف الذى تكفي نظرة واحدة مني لان تبرز الشرايين في عنقه وان تحيل وجهه أحمر قانيا . ولكنني لم أكن واثقة مطلقا من ميلى اليه . ثم أدركت أن رغبتي في اجتذابه قد شدت جسدي بأكمله كما تنبثق العصارة الخفية من اللحاء الخشن في عدد من براعم الزهور الرقيقة فاضطررت الى التخلي عن أسلوبي المتحفظ . وكان ذلك بعد ساعة واحدة من اتخاذى قرار تغيير مهنتي . فقلت لنفسي لا حيلة لي في ذلك وانها أقوى من ارادتي . ولكن خواطرى كانت مبتهجة للغاية . فمنذ مغادرتي الكنيسة ساد الصفاء بيني وبين مصيرى مهما كان واحسست أن قبولي اياه يفوق في قيمته كل انكار للذات بالغا ما بلغ سموه . وبعد لحظة من التفكير رفعت عيني ونظرت اليه . كان لايزال هناك كالوحش المفترس والقدح في يده الغليظة الشعراء وقد تركزت على عيناه البقريتان . وعندئذ بادرته بالتحرش فرميته بنظرة طويلة مداعبة متغزلة أودعتها كل ما في طاقتي من ايعاز وايحاء . والتقت عيناه بعيني فاحمر وجهه كما توقعت . واحتسى قهوته ثم وضع القدح على المنضدة وسار مختالا في معطفه المحكم بخطا قصيرة متصلة متجها الى الخزينة حيث دفع ثمن مشروبه . وما ان بلغ المدخل حتى استدار نحوى مشيرا الى اشارة واضحة آمرة تنبىء بفهمه . فأجبته بنظرة قبول .

وقلت لأمي : « والآن سأتركك . ولكنك ستبقين هنا . فلا

يمكنني على أية حال مغادرة هذا المكان في صحبتك » .

كانت تستمتع بكل ما تشاهده في المحل فجفلت منزعجة وهي تقول : « الى اين تذهبين ؟ ماذا ؟ » فقلت وأنا أنهض واقفة :

« هناك رجل ينتظرني فى الخارج . هاك النقود .. فلتدفعى ثمن كل شيء ولتذهبى الى المنزل .. وانى اتوقع ان اكون هناك قبل قدومك .. ولـكنني لن أكون وحدى » .

فنظرت الى فى ذعر وفى نوع من تأنيب الضمير كما بدا لى . ولـكنها لم تنبس بشيء . فأومأت لها مودعة ثم غادرت المحل . وكان الرجل ينتظرنى فى الطريق . وما كدت أغادر المحل حتى انقض على قابضا على ذراعى فى قوة وهو يقول : « الى أين نذهب ؟ » .

— الى شقتى ..

وهكذا بعد بضع ساعات من الالم النفسى المبرح تخليت عن ذلك الصراع غير المتكافىء مع ما بدا لى انه مضيرى . بل انى فى الواقع رحبت به فى مزيد من الحب كما يعانق المرء عدوا ليس فى وسعه أن يهزمه . فشعرت بالتحرر . وقد يظن البعض ان قبول مصير حقير ولـكنه مجز أيسر بكثير من التخلى عنه . غير اننى طالما تساءلت عن السر فيما تنطوى عليه قلوب أولئك الذين يحاولون أن يعيشوا طبقا لمبادىء معينة وأن يتوخوا مثلا عليا معينة من سخط وتعاسة فى حين ان البهجة وخلو البال كثيرا ما يتسم بهما أولئك الذين يرتضون مصيرهم رغم خوائه وظلامه وضعفه فى معظم الاحيان . وفى مثل هذه الاحوال لا يتوخى المرء مبدءا معينا بل مزاجه الخاص الذى يبدو له فى زى مصير حقيقى أصيل . وكان مزاجى كما سبق أن قلت هو أن أكون مرحة لطيفة هادئة مهما كلفنى الامر . وقد ارتضيت ذلك .

الفصل الثالث

ولقد انصرفت عن جياكومو تماما وذلك بتصميمي على عدم العودة الى التفكير فيه وكنت أحس انى أحبه وانني سأسعد بقربه لو عاد الى بل سأحبه أكثر من أى وقت مضى . ولكنني كنت أعلم أيضا انني لن أدعه يذلني مرة أخرى . ولو عاد لوقفت أمامه محتمية فى كنف حياتى الخاصة وكأنها حصن منيع حقا ولا سبيل الى زعزعته حتى أغادره من تلقاء ذاتي – وسوف أقول له : « اني بغى لا اكثر .. فان أردتني فعليك أن تقبلني كما أنا » . فقد أدركت ان قوتى لم تكن تكمن فى رغبتي أن أكون غير ما كنت بل فى قبولى ما كنت عليه . كانت تلك القوة تكمن فى فقرى وفى مهنتى وفى أمى وفى منزلى القبيح وفى ملبسى البسيط وفى منبتى المتواضع وفى كوارثي وأهم من ذلك كله فى احساسى الذى جعلنى أقبل كل هذه الاشياء – ذلك الاحساس الذى استكن فى أعماق روحى كما يستكن الحجر الكريم فى بطن الارض . ولكنني كنت على ثقة تامة من انني لن أراه مرة أخرى . وكان من جراء ذلك اليقين أن أحببته حبا حزينا عاجزا لم أعهده من قبل وقد تميز بعذوبة خاصة كحبنا للموتى الذين ذهبوا بلا عودة .

وحينذاك انقطعت علاقتى نهائيا بجينو . وكما سبق أن قلت فانى أكره القطيعة الفجائية وأوثر أن تعيش الاشياء وتموت من تلقاء ذاتها . وكانت علاقتى بجينو خير مثل لرغبتى فى هذا الصدد . فقد انقطعت تلك العلاقة لانقطاع الحياة فيها وليس لخطأ من جانبى أو حتى من جانبه الى حد معين . وقد انقطعت على صورة لم تترك معها أثرا للأسى أو تأنيب الضمير .

وقد استمرت لقاءاتنا من آن لآخر مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . فقد كنت أميل اليه كما سبق أن قلت ولو انى لم أعد أحترمه . وذات يوم اتصل بى تليفونيا وطلب الى مقابلته فى أحد محال اللبن فوعدته بذلك .

وكان محل اللبن يقع فى حينا . وهناك وجدت جينو ينتظرنى فى الغرفة الداخلية التى كانت صغيرة خالية من النوافذ وقد

اكتست جدرانها بالقرميد الايطـالى المزخرف .. ولـكنني عندما دخلت الغرفة وجدت انه لم يكن وحيدا . بل كان يجلس الى جانبه شخص ما يولينى ظهره . فلم أستطع أن أرى سوى معطفه الاخضر الواقى من المطر وشعره الاشقر القصير فوق رأســه . وما ان اتجهت نحوهما حتى نهض جينو واقفا بينما ظل رفيقه جالسا . فقال جينو : « دعينى اقدم أليك صديقى سونزونيو » . فنهض هو أيضا ومددت اليه يدى . واذا بى أحس عندما أمسك بها وكأنه قد قبض عليها بمنجلة فأطلقت على الرغم منى صرخة قصــيرة من الالم . فأطلق سراحها فى الحال وجلست مبتسمة ثم قلت : « أتعلم انك آلمتنى . أهكذا تفعل دائما ؟ » .

فلم يحر جوابا بل ولم يبتسم . كان أبيض الوجه فى لون الورق ذا جبهة قوية بارزة وعينين دقيقتين زرقاوين كلون السماء وأنف افطس وفم كالشق . وكان شعره قصيرا خشنا شائكا لا لون له وقد ضغط صدغاه الى الداخل ولـكن الجزء الاسفل من وجهه كان عريضا كما كان ذا فك ضخم قبيح . وكان يبدو دائما وكأنه يطحن اسنانه كمن يمضغ شيئا . كما بدا لى وكأن عصبا ما تحت أديم وجهه كان لا يفتأ ينبض ويختلج . وكان موقف جينو منه يدل على صداقة جمعت بين الاعجاب والاحترام .

قال : « هذا لا شيء ! ليتك تعلمين مدى قوته ! فان له قبضـــة سفاح . »

وخيل لى ان سونزونيو كان ينظر اليه نظرة عدائية .

فقال بصوته الرتيب : « هذه فرية . فليست لى قبضة سفاح. ولكن ربما كانت — » .

فسألت قائلة : « وما هى قبضة السفاح ؟ » .

— « عندما يمكنك أن تقتلى رجلا بضربة واحدة .. فعندئذ يحظر عليك استخدام قبضتيك .. فقبضتك تصير مميتة كالطلق النارى » .

وألح جينو قائلا فى انفعال وكأنه متحمس للتودد الى سونزونيو : « تحسسى مدى قوته . تحسسى فقط . دعها تجس ذراعك » .

فترددت ولـكن جينو كان متحمسا كما بدا لى أن صديقه كان يتوقع ذلك . فمددت يدى فى استرخاء لامسك بذراعه . فثنى ساعده ليقلص عضلاته فى جد بل فيما يشبه الجهامة . فأحسست تحت اناملى من خلال كمه بشيء أشبه بصرة من الاوتار الحديدية . ولما كان نحيلا للغاية فقـد صدمتنى الدهشـــة . فسحبت يدى

صائحة فى مزيج من النفور والعجب . ونظر الى سونزونيو فى رضا عن نفسه بينما تلاعبت على شفتيه ابتسامة صغيرة .

وقال جينو : « انه صديق قديم لى . فقد تعارفنا منذ زمن بعيد . أليس كذلك يا بريمو ؟ حتى انه يمكنك أن تقولى اننا شبه أخوين » . ثم ربت على كتف سونزونيو قائلا :

— « أيها الصديق العزيز بريمو ! »

فهز سونزونيو كتفه وكأنه يريد أن يبعد عنه يد جينو قائلا : « نحن لسنا صديقين ولا أخوين . بل كنا نعمل معا فى نفس الجراج . هذا هو كل ما هنالك » .

ولكن جينو لم يبد عليه الارتباك مطلقا بل قال : « انى أعلم انك لا تريد أن تبدو صديقا لأحد .. فأنت دائما وحدك لا تعتمد على أحد . لا نساء ولا رجال » .

فنظر اليه سونزونيو . وكانت له نظرة شاخصة لا تطرف وملحة على صورة غير معقولة . فاضطر جينو الى أن يدير عينيه بعيدا . وسأل سونزونيو قائلا : « من قال لك هذا الهراء ؟ فانى أرافق من أحب — رجالا أو نساء » .

فقال جينو وقد زايله تماما مظهره الواثق : « كان هذا كلاما فحسب — وكل ما أستطيع أن أقوله اننى لم أرك قط فى صحبة أحد » .

— « انك لم تعرف شيئا قط عن شئونى . »

— « حسنا . كنت أراك كل يوم صباح مساء . »

— « وماذا لو رأيتنى كل يوم ؟ .. »

فقال جينو مرتبكا : « كنت أراك دائما وحدك فخيل لى أنك لا تقابل أحدا — فلو أن أحدا له صديقة أو صديق فان الجميع يعرفون ذلك دائما » .

فقال سونزونيو فى وحشية : « لا تكن أحمق » .

فقال جينو متظاهرا بسخطه المعهود وقد احمر وجهه : « والآن تنعتنى بالحماقة » ولكنه كان مذعورا على صورة واضحة .

فردد سونزونيو حديثه قائلا : « نعم . اياك والحماقة والا شججت رأسك » .

وفجأة أدركت أنه ليس خليقا بأن يفعل ذلك فحسب بل ينوى فعلا أن ينفذه . فوضعت يدى على ذراعه وتدخلت قائلة : « اذا شئتما عراكا لتصفية ما بينكما من خلاف فأرجو الا يكون ذلك فى

حضورى لاننى لا أتحمل العنف » .
فقال جينو عابسا : « ها أنذا أعرفك بصديقة صغيرة مهذبة وأنت تخيفها بأساليبك الى حد الجنون ! انها ستظن أننا عدوان!»

فالتفت سونزونيو الى وابتسم لاول مرة . عندئذ زر عينيه الى أعلى وقطب جبينه ولم يكشف فقط عن أسنانه الفاسدة بل عن لثاته أيضا . وسألني قائلاً : « ولـكن سيدتى الصغيرة ليست خائفة . أليس كذلك ؟ »

فأجبته قائلة فى اقتضاب : « مطلقا ــ ولـكنى أكره العنف كما قلت لك » .

ثم أعقب ذلك صمت طويل . فظل سونزونيو جالسا فى سكون واضعا يديه فى جيبى معطفه الواقى من المطر بينما لم تفتأ أعصاب فكه تختلج وهو يحملق فى لا شيء . وكان جينو لايزال يدخن حانيا رأسه بينما يزحف الدخان على وجهه وأذنيه اللتين لم تزايلهما حمرتهما القرمزية . ثم نهض سونزونيو قائلا : « حسنا . انى ذاهب » .

فقفز جينو واقفا فى حماس قائلا وهو يمد يده : « حسنا اذن فنحن كما كنا يا بريمو . هه ؟ » .

فردد سونزونيو قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « كما كنا » . ثم صافحنى دون أن يؤلمنى فى هذه المرة وغادر المـكان . كان نحيلا قصير القامة مما استحال معه حقا ان يتبين المرء مصدر كل تلك القوة . وما ان رحل حتى قلت لجينو مازحة : « لعلـكما صديقان أو حتى أخوان ــ ولـكن ما أغرب لهجته معك ! » .

وكان جينو الآن قد استرد هدوءه . فقال وهو يهز رأســـه . « هكذا خلق . ولـكنه ليس سوءا . فانه لمما يلائم مصلحتى أن أكون على وفاق معه . فهو ينفعنى أحيانا » .

ــ « وكيف ؟ .. »

فقد لاحظت ان جينو كان مضطربا تحدوه رغبة ملحة فى ابلاغى شيئا ما . واذا بوجهه يرتسم عليه فجأة الاضــطراب والحماس الشديدان .

قال : « أتذكرين « بدارة » سيدتى ؟ » .

ــ « نعم .. ماذا عنها ؟ .. »

ولمعت عينا جينو بالفرح . ثم قال خافضا صوته : « حسنا . لقد فكرت فى الامر ولم أردها » .

ـ « ألم تردها ؟ .. »

ـ « كلا . فقد فكرت انها ثرية قبل كل شيء . وسواء عثر على « البدارة » أم لم يعثر عليها فالامر في نظرها سيان » . ثم أضاف قائلا بطريقة تميز شخصيته : « لا سيما ان الجرم قد تم بالفعل ولم أكن أنا السارق قبل كل شيء » .

فقلت بصوت هادىء : « بل أنا السارقة » .

فتظاهر بأنه لم يسمعني واسترسل قائلا : « ومع ذلك فقد كانت هناك فيما بعد مشكلة بيعها . اذ انها كانت لافتة للانظار ومن السهل التعرف عليها . كما انني لم أجرؤ على ذلك . فاحتفظت بها في جيبي فترة طويلة ... الى أن قابلت سونزونيو أخيرا ، فرويت له القصة كاملة .. »

فقاطعته قائلة : « وهل حدثته عني ؟ » .

ـ « كلا ، لم أحدثه عنك .. بل قلت له ان صديقة اعطتني اياها دون ذكر اسماء .. فتصوري انه باعها في مدى ثلاثة أيام وأحضر الى النقود . ولكن بالطبع أخذ نصيبه كما اتفقنا » . كان يرتجف من الفرحة ثم تلفت حوله وسحب من جيبه صرة من الاوراق المالية .

وعندئذ أحسست نحوه بكراهية عميقة ولا أدرى لذلك سببا . ولم يكن ما أحس به استنكارا لما فعل فليس هذا من حقي مطلقا ولكن فرحته الشامتة أغاظتني . وفضلا عن ذلك فقد تكهنت بأنه كان يخفي عني شيئا وان ما يخفيه كان بلا شك أسوأ بكثير . فقلت في ايجاز :

ـ « لقد أصبت .. »

فقال وهو يحل رزمة الاوراق المالية : « هاك . فهذا نصيبك . لقد أحصيته » .

فأجبت قائلة في الحال : « كلا ، فأنا لا أريد شيئا . لا أريد شيئا على الاطلاق » .

ـ « لم لا ؟ .. »

ـ « لا أريده .. »

فقال : « انك تحاولين اهانتي » . وعبرت وجهه سحابة من الشك والحزن فخشيت أن أكون قد أسأت اليه حقا . فوضعت يدي على يده وقلت في صعوبة : « لو أنك لم تعرض على النقود فربما كان ذلك مدعاة لدهشتي ، ولا أقول اساءتي . ولكن الامر قد انتهى الآن ولا غبار عليه بهذه الصورة . فأنا لا أريد حصتي

لان الامر قد انتهى بالنسبة لي ونفضت يدي منه . هذا هو كل ما هنالك — ومع ذلك فانه ليسرني أن تأخذ أنت حصتي » .
فنظر الي في شك دون أن يفهم ماذا أقول محملقا في وكأنه يريد أن يستشف الدافع الخفي وراء كلماتي . ولقد أدركت منذ ذلك الحين — كما يدور بخلدي دائما كلما فكرت فيه — انه لما كان يعيش في عالم يختلف عن ذلك الذي أعيش فيه وتختلف أفكاره وعواطفه فانه كان عاجزا عن فهمي . ولا أدري ان كان ذلك العالم أسوأ من عالمي أو أفضل منه بل كل ما أدريه أن بعض الالفاظ في نظره كان يختلف معناها عنها في نظري وان معظم التصرفات التي كنت أنتقدها فيه كانت لا تفتأ تبدو له مشروعة وصحيحة . فقد بدا أنه يعزو أهمية كبرى الى الذكاء الذي كان يعني في نظره المكر والدهاء . وكان عند تقسيمه الجنس البشري الى فريقين — أحدهما يمتاز بالدهاء والآخر مجرد منه — لا يفتأ يحاول أن يدرج اسمه في القائمة الاولى . أما أنا فلست من الدهاء في شيء بل ولعلي مجردة حتى من الذكاء . فانني لم أستطع قط أن أفهم كيف يمكن تبرير العمل الشرير فضلا عن قبوله لا لسبب الا لانه ارتكب بدهاء .

واذا بالشك الذي كان يعذبه يبدو وقد تلاشى فجأة عندما هتف قائلا : « اني أعرف السر في ذلك ! فأنت ترفضين النقود لانك خائفة — خائفة من اكتشاف السرقة . ولكن لا حاجة بك الى القلق فقد استبان كل شيء » .

ومع انني لم أكن خائفة فانني لم أعبأ بانكار التهمة لاني لم أفهم الجزء الثاني من عبارته .

فسألته قائلة : « ماذا تعني بقولك ان كل شيء قد استبان ؟ »

فأجاب قائلا : « نعم .. لقد استبان كل شيء — أتذكرين ؟ ! ألم أخبرك ان احدى الخادمات كانت تحوم حولها الشبهات ؟ » .

— « نعم .. »

— « حسنا . لقد انتقمت من تلك الخادمة لانها كانت تغتابني . فما ان مرت بضعة أيام على السرقة حتى رأيت ان الموقف بالنسبة لي كان ينذر بالشر — فقد جاء ضابط الشرطة مرتين . وخيل لي ان الشك يحوم حولي . ولكن تذكرت انهم لم يقوموا بعد بتفتيش المنزل . فخطر لي أن أجعلهم يفتشون المنزل بسبب سرقة أخرى ثم أدبر ثبوت التهمة عليها في السرقتين معا . »

فلزمت الصمت .. واسترسل قائلا بعد أن رمقني بعينيه

المتألقتين وقد فتحتا على سعتهما وكأنه يريد أن يرى ما اذا كنت معجبة بدهائه : « كانت السيدة تحتفظ ببعض الدولارات فى أحد الادراج . فأخذتها وأخفتها فى غرفة الخادمة مودعا اياها حقيبة قديمة . وعندئذ قاموا بتفتيش المنزل . وبالطبع عثروا على الدولارات وقبض عليها . وهى تقسم أنها بريئة . ولكن من ذا الذى يصدقها ؟ فقد عثروا على الدولارات فى غرفتها الخاصة » .

— « وأين هى تلك المرأة الآن ؟ »

— « فى السجن . وهى ترفض الاعتراف . ولكن أتعلمين ماذا قال ضابط الشرطة لسيدتى ؟ .. قال : « لا تقلقى ياسيدتى . فانها ستعترف فى النهاية ساءت الوسيلة أو حسنت » . أترين ماذا يعنون ؟ ساءت الوسيلة أو حسنت ؟ فانهم سيضربونها » .

وعندما نظرت اليه ووجدته منفعلا وقد اشتد زهوه بنفسه احسست انى باردة كالثلج تنتابنى حيرة شديدة . ثم سألته بطريقة عارضة قائلة : « وما اسمها ؟ » .

قال : « لويزا فلينى — وهى ليست صغيرة السن ولكنها متكبرةللغاية فهى تزعم ان الحظ العاثر هو الذى جعلها خادمة وانه لا مثيل لها فى الامانة ! » ثم ابتسم مسرورا للغاية بذلك التوافق بين زعمها وما حدث لها .

فبذلت جهدا وكأنى أطلق تنهدة عميقة قائلة : « أتعلم انك وغد ؟ » .

فسألنى فى دهشة : « ماذا ؟ ولماذا ؟ » .

ووجدتنى الآن وقد صارحته برأيى فيه أحس بمزيد من الحرية ومزيد من التصميم . فقد ارتعش منخراى من الغضب وأردفت قائلة : « وكنت تريدنى أن أقبل النقود ! ولكننى أحسست انها نقود لا ينبغى أن آخذها » .

فقال محاولا أن يسترد هدوءه : « ما هذه الضجة كلها ؟ فهى لن تعترف — وعندئذ سوف يفرج عنها » .

— « ولكنك قلت الآن انها لن تخرج من السجن وانهم سيضربونها ! »

— « كان ذلك كلاما فحسب . »

« لا يهم ذلك . ولكنك أرسلت امرأة بريئة الى السجن . ثم أوتيت من الصفاقة ما يسمح لك بأن تأتى الى وتبلغنى كل شىء ! يا لك من وغد . »

فانتابه الغضب فجأة وهرب الدم من وجهه . ثم قبض على يدى

قائلا : « كفى عن نعتى بهذه الصفة ! ! »

ـ « لماذا ؟ فانى أعتقد أنك وغد ولسوف أقول ذلك . »

ففقد صوابه وأتى حركة عنيفة على صورة غريبة . اذ لوى يدى بيده وكأنه يريد أن يسحقها ثم حنى رأسه فجأة وعض يدى بقوة . فتخلصت منه بحركة فجائية ونهضت واقفة . ثم هتفت قائلة : « أجننت ؟ ماذا دهاك الآن ؟ أتعضنى ؟ ولـكن ذلك لن يجديك .. فأنت وغد ولسوف تظل وغدا على الدوام » . فلم يحر جوابا بل أسقط رأسه على يديه وكأنه يريد أن ينتزع شعره .

فناديت الساقى ونقدته ثمن المشروبات جميعا : ما شربته أنا وهو وسونزونيو . ثم قلت : « انى ذاهبة ، وأؤكد لك .. أن كل شيء بيننا قد انتهى . فلا ترنى وجهك مرة أخرى ولا تبحث عنى ولا تأت الى .. فأنا لم أعد أعرفك » .

فلم ينبس بكلمة بل ظل حانى الرأس . ثم غادرت المحل .

وكان محل اللبن يقع على ناصية الطريق الرئيسى غير بعيد من منزلى . فبدأت أسير ببطء على الجانب المواجه لاسوار المدينة . وكان الليل مخيما والسماء ملبدة بالغيوم بينما أخذ المطر يتساقط رذاذا كالغبار المائى خلال الهواء الساكن العليل . وكانت الاسوار تكتنفها الظلمة كالمعتاد فيما خلا الاماكن التى تضيئها من وقت لآخر مصابيح الطريق وكانت قليلة . ولـكننى عندما غادرت محل اللبن لاحظت فى الحال رجلا ينسل بعيدا عن أحد مصابيح الطريق ثم يسير محاذيا الاسوار بنفس سرعتى وفى نفس الاتجاه الذى أسير فيه . فعرفت انه سونزونيو بمعطفه الواقى من المطر الذى يضيق عند الخصر ورأسه الاشقر الحليق . وكان يبدو قصير القامة هناك أسفل الاسوار وهو لا يفتأ يختفى فى الظلام من آن لآخر ثم يعود الى الظهور على ضوء أحد مصابيح الطريق . ولاول مرة انتابنى السأم من الرجال ـ كل الرجال ـ الذين لا يفتأون يركضون خلف ازارى وكأنهم جمع من الـكلاب يطاردوننى . وكنت لا أزال أرتجف من شدة الغضب . فلم يسعنى الا أن أشعر بتأنيب الضمير كلما فكرت فى تلك المرأة التى أرسلها جينو الى السجن فقد كنت أنا سارقة « البدارة » قبل كل شيء . ولـكن لعل شعورى لم يكن تبكيتا من ضميرى بل نفورا وسخطا . فعلى الرغم من تمردى على الظلم وكراهيتى لجينو فقد كرهت أن أكرهه كما كرهت أن أعلم بوقوع الظلم . فانى فى الواقع لم أخلق لمثل هذه الامور فلشد ما

غشيني الحزن وتغيرت نفسـيتي • وأسرعت الخطا بغية أن أبلغ المنزل قبل دنو سونزونيو مني وكان من الواضح أن في نيته ذلك. ثم سمعت صوت جينو يناديني من الخلف في يأس قائلا :

– « آدريانا ! آدريانا ! »

فتظاهرت بأنني لم أسمعه وأسرعت الخطـا • فأمسك بذراعي قائلا : « آدريانا ! لقد كنا دائما معا ، ولا يمكننا أن نفترق على هذه الصورة » .

فتخلصت منه بهزة من ذراعي وواصلت طريقي • ثم انبثق من الظلام شبح سونزونيو الضئيل بمعالمه الواضحة وظهر في دائرة الضوء المرسل من أحد مصابيح الطريق على الجانب الآخر من الشارع أسفل الاسوار • واسترسل جينو قائلا وهو يسرع الخطا بجانبي : « اني أحبك يا آدريانا » .

فأحسست نحوه بمزيج من الشفقة والـكراهية . ولشد ما كان ذلك المزيج من العواطف كريها في نظري على صورة لا يمكن وصفها. ومع ذلك فقد حاولت ان أفكر في شيء آخر . وفجأة ومض في ذهني خاطر نير لا أعرف له سببا . فقد تذكرت آستاريتا وكيف كان لا يبرح يعرض على مساعدته • فخيل لي انه قادر فيمـا يشـبه اليقين على اطلاق سراح تلك المرأة المسكينة . وما لبثت الفكرة أن أنعشت روحي في الحال . وتخلص قلبي من ذلك العبء ، بل أحسست وكأني لم أعد أكره جينو بل شعرت نحوه بالاسف فحسب . فتوقفت عن المسير وخاطبته في هدوء قائلة :

– « لم لا تذهب يا جينو ؟ •• »

– « اني أحبك •• »

– « لقد أحببتك أنا ايضا •• ولكن كل شيء قد انتهى •• ولتذهب الآن الى حال سبيلك • فذلك خير لكلينا • »

كنا واقفين في بقعة ظلماء من الطريق أقفرت من المحـال والمصابيح • فأمسك بي من حول خصري محاولا تقبيلي • وكان في امكاني أن اتخلص منه بسهولة لانني قوية للغاية ولا يستطيع احد أن يقبل امرأة ما لم ترغب في ذلك . ولـكن نزوة خبيثة اوحت الي بأن أنادي سونزونيو وكان واقفا يراقبنا على الجانب الآخر من الطريق تحت الاسوار داسا يديه في جيبي معطفه . واعتقد انني ناديته لانني الآن وقد اكتشفت طريقـة لمحو الاذى الذي تسبب فيه جينو أحسست وقد عاودني فضولي ودلالي . فصحت منادية

مرتين : « سونزونيو ! سونزونيو ! » واذا به يعبر الطريق فى الحال . فانتاب جينو الارتباك واطلق سراحى .

وما ان أقبل علينا سونزونيو حتى قلت له : « قل له أن يدعنى وشأنى . فأنا لم أعد اريده . ولكنه يأبى أن يصدقنى . فلعله يصدقك أنت ما دمت صديقه » .

فسأله سونزونيو قائلا: «أسمعت ماذا قالت السيدة الصغيرة ؟»

فبدأ جينو يتكلم قائلا : « ولكننى . . . »

واعتقدت أنهما سيتجادلان بعض الوقت كما يحدث عادة وان جينو سوف يستسلم فى النهاية ويمضي الى حال سبيله . ولكننى بدلا من ذلك رأيت سونزونيو يأتى حركة فجائية لم أفهمها ثم يحملق فيه جينو لحظة وهو مدهوش ويتهاوى بعد ذلك على الارض دون أن ينبس بكلمة واحدة ثم يتدحرج من فوق الافريز الى داخل البالوعة . أو لعلنى لم أر سوى سقوط جينو على الارض فتكهنت من ذلك بما كانت عليه حركة سونزونيو . فلشد ما تميزت تلك الحركة بالسرعة والصمت حتى تبادر الى ذهنى اننى تخيلتها . فهززت راسى والقيت نظرة اخرى فرأيت سونزونيو واقفا أمامى مباعدا ما بين ساقيه يتأمل يده المقبوضة . وكان جينو الذى رقد على الارض موليا ايانا ظهره قد ثاب الى رشده ورفع راسه فى بطء وهو متكىء على احد مرفقيه فى البالوعة . ولكنه لم يبد عليه انه يريد النهوض بل بدا وكأنه يفضل أن يظل محملقا فى قصاصة صغيرة من الورق الابيض كانت ترى بوضوح وهى تلمع فوق الوحل فى البالوعة .

واخيرا قال سونزونيو : « هيا بنا » فسرت معه تجاه المنزل وكأننى فى حلم .

كان يسير فى صمت ممسكا بذراعى . ومع أنه كان أقصر منى قامة ، فان يده القابضة على ذراعى كانت أشبه بمشد من الحديد تماما .

ثم قلت بعد فترة وجيزة : « ما كان ينبغى أن تضرب جينو على هذه الصورة ، فانه على اى حال كان ذاهبا الى حال سبيله دون أن يضرب » .

فأجابنى قائلا : « بهذه الطريقة لن يعود الى ازعاجك » .

وسألته قائلة : « ولكن كيف فعلت ذلك ؟ فانى لم أر حتى ماذا فعلت ، كل ما رأيته هو سقوط جينو على الارض » .

فقال : « انها مسألة عادة » .

كان يتكلم وكأنه يمضغ الالفاظ قبل النطق بها أو الاحرى انه بدا وكأنه يستشعر قوامها بين أسنانه المطبقة التي خيل لي انها متداخلة كأسنان الحيوانات النهرية . وتاقت نفسي الآن الى هصر ذراعه وتحسس عضلاته الصلبة المشدودة مرة أخرى تحت أصابعي . لم يكن سونزونيو يجذبني بقدر ما كان يثير فضولي وخوفي قبل كل شيء . ولكن الخوف يمكن ان يكون شعورا مثيرا مستحبا على صورة ما الى أن يعرف سببه .

فسألته قائلة : « ماذا يوجد هنا في داخل ذراعك ؟ اني لا استطيع أن أصدق ذلك ! »

فقال يحدوه زهو بدا لشدة جديته منذرا بالشؤم : « ولكنني تركتك تلمسينني مرة » .

ـ « ليس كما ينبغي .. فقد كان هناك جينو .. دعني أجسه مرة أخرى . »

فتوقف عن المسير وثنى ذراعه وهو يرميني بنظرة جانبية وقد بدا على وجهه الجد والبساطة ولكن بساطته لم يكن فيها أثر للصبيانية . فمددت يدي في بطء لألمس عضلاته ومررت بها على ذراعه بأكملها ابتداء من الكتف . فكان احساسي بها وهي نابضة بالحياة صلبة كالحديد احساسا خارجا عن المألوف . فقلت له في صوت واهن ضعيف : « انك عظيم القوة » .

فوافق على كلامي قائلا في جهامة : « نعم .. أنا قوى » ثم عاودنا السير مرة أخرى .

والآن أحسست بالاسف لاستدعائه . فاني لم أشعر بالميل نحوه وفضلا عن ذلك فانه كان يخيفني بجديته وسلوكه . وبلغنا المنزل دون أن نعاود الحديث ثم أخرجت مفتاحي قائلة وأنا أمد اليه يدي : « شكرا لاصطحابك اياي حتى المنزل » .

فقال وهو يقترب مني : « اني قادم معك » .

وأردت أن أرفض . ولكنه ربكني وضايقني بنظرته المحملقة في عيني بتركيز لايمكن تصديقه . فقلت : « ان شئت » . ولم أدرك الا بعد أن خاطبته انني استخدمت الصيغة الودية في خطابه . وقال مفسرا حزني على طريقته الخاصة : « لا تخافي . فلدى بعض النقود . وسأعطيك ضعف ما ينفحك به غيري » .

فقلت : « وما شأن هذا بما قصدت ؟ فليس ذلك بسبب النقود » ولكنني رأيت وميضا غريبا يمرق عبر وجهه وكأن شكا

منذرا قد لاح له . وفي تلك الاثناء كنت قد فتحت البـاب ثم أردفت قائلة : « ولكننى أشعر بشيء من الاجهاد فحسب » .

وما أن دخل غرفتى حتى بدأ يخلع ملابسه بحركات دقيقة تنم عن شخص منظم • فكان يضع لفاعا حول عنقه نزعه فى عنـاية ثم طواه ودسه فى جيب معطفه • ثم علق سـترته على ظهر أحد المقاعد وسوى سراويله على صورة لا تفسد معها ثناياها . وبعـد ذلك وضع حذاءه تحت المقعد داسا فيه جوربيه . وقد لاحظت ان جميع ملابسه كانت جديدة . ومع انها لم تكن من صنف ممتاز فقد كانت جيدة قوية الاحتمال . وقد فعل ذلك كله فى صمت دون عجلة أو ابطاء بل فى انتظام مرتب أحسن تخطيطه ولـكنه لم يعرني انتباها . وكنت فى تلك الاثناء قد تجردت من ثيابى ورقدت عارية على الفراش . ولا شك انه لم يكشف عن رغبته فى ، اللهم الا اذا كان اختلاج عضلات فكه فى أسفل الجلد مباشرة دليلا على انفعاله • ولكن تلك الحركة لا يمكن ان تعنى ذلك لانه كان يأتيها من قبل دون أن يبدو عليه أنه يفكر فى • وقد قلت من قبل اننى لشد ما يعجبنى النظام والنظافة لانهما ينبئان عن صفات عقلية مطابقة • ولكن نظام سونزونيو ونظافته كانا فى ذلك المساء يثيران فى نفسى أحاسيس مختلفة تماما تتراوح بين الرعب والخوف • فلم يسعنى الا أن أرى فى أسلوبه تلك الطريقة التى يستعد بها الجراحون فى المستشفى عندما يضطرون الى اجراء جراحة دامية بل أسوأ من ذلك اذ ذكرتنى طريقته بالقصابين وهم يتأهبون للذبح على مرأى من الحمل الـذى يوشكون على ذبحه • ولكنى أحسست وأنا راقدة هناك على الفراش أننى مسلوبة القوة والارادة كالجسد الميت الذى يوشك أن تجرى عليه التجارب • وكنت من جراء صمته وعدم مبالاته فى شك مما ينتوى أن يفعله بى حالما ينتهى من خلع ملابسه • فعندما جاء الى رأس الفراش عاريا تماما من ملابسه ووضع كلتا يديه على كتفى وكأنه يريد أن يوقف حركتى سرت فى بدنى على الرغم منى قشعريرة خوف فلاحظ ذلك وسألنى قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « ماذا دهاك ؟ »

فأجبت قائلة : « لا شيء . ولـكن يديك باردتان كالثلج » .

فقال وهو مازال قابضا على كتفى أثناء وقوفه عند رأس الفراش : « أنت لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ وتفضلين من ينقدونك . أليس كذلك ؟ » كان وهو يتكلم يحملق فى بنظرة لا تحتمل .

فقلت : « لماذا ؟ فأنت رجل كالباقين جميعا . وفضلا عن ذلك فقد قلت أنت نفسك انك ستنقذني ضعف أجري» .

فقال : « انني أعرف عما أتكلم . فأنت ومن على شاكلتك تضاجعن الاثرياء والسادة . أما أنا فلست سوى رجل عادي مثلك . وأنتن جميعا يا معشر البغايا لا تضاجعن سوى الاثرياء » .

ولمست في صوته رغبته العنيدة المشئومة في اثارة شجار ، تلك الرغبة التي دفعته منذ فترة وجيزة الى اهانة جينو لأتفه الاسباب . ولقد خيل لي حينئذ أن لديه أسبابا خاصة للحقد على جينو . ولكنني أدركت الآن ان حساسيته الشديدة المخيفة التي لا يمكن التنبؤ بها كانت دائما يقظة مرهفة وما ان يتملكه شيطان الغضب حتى يرى محدثه مخطئا مهما كانت الطريقة آلتي يعامله بها .

فسألته قائلة في شيء من الحماس : « لماذا تبغي اهانتي ؟ فقد قلت لك من قبل ان الرجال جميعا متساوون في نظري » .

ـ « لو كنت تقولين الصدق لما تجهم وجهك على هذه الصورة . انك لا تحبينني . أليس كذلك ؟ »

ـ « ولكنني سبق أن قلت لك .. ! »

فاسترسل قائلا : « انك لا تحبينني . ولكن يؤسفني انك ستكرهين على ذلك » .

فقلت وقد انتابني سخط مفاجيء : « أف .. لا تضايقني ! »

فأردف قائلا : « كنت تريدينني ما دمت تنتفعين بي في تخليصك من براثن عشيقك . ثم آثرت أن تطرديني . ولكنني بدلا من ذلك جئت معك . فأنت لا تحبينني . أليس كذلك ؟ » .

والآن انتابني الخوف حقا . فقد بدا لي كل شيء : كلماته المسرعة وصوته الهاديء الجامد ونظرته الشاخصة في عينيه وقد بدتا حمراوين رغم زرقتهما ، بدا كل شيء وكأنه يحمله الى هدف رهيب مخيف . ولم أدرك الا بعد فوات الوقت ان أية محاولة للوقوف في وجهه لن تجدي فتيلا كالوقوف في طريق صخر يتدحرج من عل فوق منحدر هاو سحيق . فلم أزد على أن هززت كتفي بعنف .

وأردف قائلا : « انك لا تحبينني . هه ؟ ويبدو عليك النفور عندما ألمسك . ولكنني سأغير لك نظرتك ياحبيبتي ! » ثم رفع يده وكأنه يهم بصفعي . وكنت أتوقع شيئا من ذلك القبيل ، فحاولت أن أحمي نفسي بذراعي . ومع ذلك فقد أمكنه أن يضربني بقوة مروعة على احدى وجنتي أولا ثم على وجنتي الاخرى عندما

حاولت ان أشيح بوجهى بعيدا . ولم يسبق أن حدث لى شىء من هذا القبيل فى حياتى . فكان وقع الدهشة على فى أول الامر رغم لسع الضربات أقوى من احساسى بالالم . فكشفت عن وجهى قائلة له : « أتعرف ما أنت ؟ انك مخلوق تعس » .

وبدا انه تأثر بتلك العبارة . فجلس على حافة الفراش وهو يتأرجح قابضا على الحشية بكلتا يديه . ثم قال دون أن ينظر الى : « اننا جميعا مخلوقات تعسة » .

قلت : « انك تحتاج الى شجاعة حقيقية لتضرب امرأة ! » ولكننى عجزت فجأة عن مواصلة الحديث فقد اغرورقت عيناى بالدموع لا من أثر ما تلقيته من ضربات بقدر ما أصابنى من توتر عصبى لم يفارقنى طوال ذلك المساء الحافل بأحداث كثيرة بغيضة مكدرة . وتذكرت جينو مطروحا على الارض فى الاوحال كما تذكرت عدم مبالاتى به وانطلاقى مرحة فى صحبة سونزونيو ولا هم لى سوى اختبار قوة عضلاته الخارجة عن المألوف . فغلبنى تأنيب ضميرى ورثائى لجينو ونفورى من نفسى . وأدركت اننى نلت جزائى لغباوتى وبلادة حسى بنفس اليد التى طرحت جينو أرضا . فلشد ما راقنى العنف . واذا بذلك العنف الآن يتحول ضدى . ونظرت الى سونزونيو من خلال دموعى وكان جالسا على حافة الفراش عاريا من ملابسه تماما أبيض البشرة أملسها محنى الكتفين وقد استرخت ذراعاه اللتان لم يبد عليهما مطلقا ما يوحى بقوتهما . وأحسست برغبة فجائية فى تقريب المسافة بيننا .

فقلت بصعوبة : « ولكن الا تخبرنى على الاقل لماذا ضربتنى؟ »

فقال مفكرا بينما لم يفتأ يختلج ذلك العصب فى فكه : « كان هناك تعبير على وجهك » .

وأدركت اننى لو شئت الاقتراب منه فعلى أن أصارحه بخواطرى جميعها ولا أخفى عنه شيئا . فأجبت قائلة : « لقد خيل لك أننى لا أحبك . ولكنك كنت مخطئا » .

ـ « ربما .. »

ـ « كنت مخطئا . فحقيقة الامر أنك تخيفنى . ولا أدرى لذلك سببا . وهذا هو السر فى ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى » .

فاستدار نحوى عند سماعه تلك الكلمات ونظر الى فى ارتياب . ولكنه هدأ فى الحال وسألنى قائلا فى شىء من الخيلاء : « اذن فقد أخفتك ؟ » .

— « نعم .. »

— « أترين أني لا أزال أخيفك ؟ »

— « كلا . بل يمكنك الآن أن تقتلني ان شئت ، فانى لم أعد أبالى » . وكانت تلك هى الحقيقة . فانى فى الواقع كنت أريده أن يقتلني حينذاك لانني فقدت فجأة كل رغبة فى مواصلة الحياة . ولكنه غضب قائلا :

— « من ذا الذى تحدث عن قتلك ؟ لماذا كنت تخافينني ؟ »

— « من يعلم ؟ لقد أخفتنى . ولا يمكنك تفسير هذه الامور . »

— « وهل كان جينو يخيفك ؟ »

— « لماذا يخيفنى ؟ »

— « ولماذا أخيفك ؟ » عندئذ كانت كل خيلائه قد تلاشت وعاود صوته شيء من الغضب .

فقلت لكى أخفف عنه : « لقد أخفتنى لانه من الواضح لكل من يراك انك خليق بأن تفعل كل شيء . »

فلم ينبس بكلمة بل جلس هناك لحظة متأملا ثم استدار نحوى وسألنى قائلا بلهجة منذرة : « هذا معناه أنك تريديننى أن أرتدى ملابسى وأغادر الدار ؟ » .

فنظرت اليه وأدركت أن نوبة الغضب قد تولته مرة أخرى . فلو أننى رفضته لعرضت نفسى لمزيد من العنف ، بل ربما تعرضت لما هو أسوأ من ذلك . فعلى أن أقبله . ولكننى تذكرت عينيه الشاحبتين . وامتلأت نفسى نفورا عندما خطر لى انهما ستتركزان على عينى أثناء المضاجعة .

فقلت فى ضعف : « كلا . بل يمكنك البقاء ان شئت . ولكن عليك أولا أن تطفىء الضوء » .

فنهض واقفا بحجمه الضئيل وبشرته البيضاء . ولكن أطرافه كانت غاية فى التناسق فيما خلا عنقه القصير . ثم سار على أطراف أصابعه ليدير مفتاح النور بالقرب من الباب . غير اننى أدركت فى الحال ان تكليفه باطفاء الضوء لم يكن اقتراحا موفقا . فما ان ساد الظلام فى الغرفة حتى عاودنى على صورة لا سبيل الى كبح جماحها ذلك الخوف الذى خيل لى أنه فارقنى . فقد بدا لى ان من كان معى فى الغرفة ليس رجلا ، بل فهدا أو وحشا آخر مفترسا وربما ربض لى متحفزا فى أحد أركان الغرفة أو انقض على فمزقنى اربا اربا . ولعله تأخر ليجد طريقه فى الظلام بين المقاعد وقطع

الاثاث الاخرى أو لعل الخوف صور لى أن غيبته طالت . فلا شك اننى أحسست وكأن دهورا قد مرت قبل بلوغه الفراش . وعندما شعرت بيديه تلمسان جسدى عاودتنى على الرغم منى قشعريرة متشنجة . وتمنيت ألا يكون قد لاحظها ولـكن غرائزه كانت مرهفة كغرائز الحيوان ٠ وفى الواقع فاني سمعت صوته في الحال بجانبى قريبا منى وهو يسألنى قائلا : « أما زلت خائفة ؟ »

لا ريب أن ملانى الحارس كان ماثلا هناك فى الظلام . فثمة تغير طفيف فى نبرة صوته أنبأنى انه قد رفع ذراعه فى انتظار جوابى نفيا أو ايجابيا ليتصرف طبقا لذلك ٠ أدركت أنه رغم احساسه بما يبثه في النفـوس من رعب كان يبغى أن يكـون غير ذلك وان ينعـم بالحب كغيره من الرجـال ولكنه لم يعرف وسـيلة لبلوغ تلك الغاية سوى اثارة مزيد من الرعب . فرفعت يدى بحجة ان أمر بها على ذقنه وكتفه اليمنى فاكتشفت ان ذراعه كانت مرفوعة حقا كما خيل لى وعلى اهبة الاستعداد ليهوى بها على وجهى. فتكلمت فى صعوبة محاولة أن أضفى على صـوتي هـدوءه المعهود ونغمته الرقيقة قائلة : « كلا . ولـكنه البرد حقا فى هذه المرة. فلنلتحف بأغطية الفراش » .

فقال : « هكذا احسنت ! » ولم يزد ذلك الرد بصداه المنذر على أن جسم مخاوفى . وعنـدما عانقنى ولامسنى مداعبا تحت الاغطية وسط الظلام الذى يكتنفنا مرت بى لحظة من اسوأ لحظات حياتى عانيت فيها ألما حادا مبرحا . فما ان لامست جسده الاملس القوى المتلوى على صورة غريبة حتى تصلبت أطرافى من الخوف ، وانكمشت فى قشعريرة لا سبيل الى كبح جماحها . ولـكننى فى نفس الوقت قلت محدثة نفسى ان خوفى منه فى تلك اللحظة أمر مثير للسخرية . وحاولت بكل قواى العقلية أن أتغلب على خوفى وان أهبه نفسى فى شجاعة كعشيق أعزه وأحبه ٠ ولكن خوفي لم يكن يكمن فى أطرافى التى ما زالت تطيعنى بغض النظر عن مدى احجامها بقـدر ما كان يكمن على صـورة أعمق فى اغوار رحمى الذي بدا منقبضا يلفظ عنـاقه فى رعب . وأخيرا وطئنى فأحسست بلذة جعلها الخوف وحشية محمومة فلم أستطع أن أحبس صرخة طويلة مولولة فى الظلام وكأن ضمته الاخيرة هى ضمة الموت لا ضمة الحب وصرختى زهوق الروح تاركة وراءها جسـدا هامدا معذبا ٠

ثم رقد هناك فى الظـلام يخيم علينـا الصمت ٠ ولمـا كنت

متعبة فقد استغرقت فى النوم فى الحال تقريبا . ثم ما لبثت أن راودنى احساس بأن عبئا هائلا أطبق على صدرى وكأن سونزونيو قد ألقى فوقى منكمشا فى عريه ويداه تقبضان على ركبتيه اللتين اتكأ بوجهه عليهما . كان قابعا على صدرى وهو يضغط باليتيه القويتين العاريتين على عنقى واضعا قدميه على بطنى . وكان لا يفتأ يزيد ثقله كلما واصلت النوم . وكنت على الرغم من نومى لا أبرح أتقلب فى قلق هنا وهناك محاولة التخلص منه أو ابعاده عنى على الاقل . وأخيرا أحسست وكأنى أختنق . فحاولت أن أصرخ . ولكن صوتى أحتبس فى حلقى وظللت أصيح بلا صوت فترة من الزمان بدت لا نهائية . وأخيرا أمكننى أن أخرجه عنوة فاستيقظت مرددة أنينى بصوت مرتفع .

كان المصباح مضاء على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش . وقد اتكأ سونزونيو برأسه على احدى ذراعيه وهو يتأملنى . فسألته قائلة : « هل طال نومى ؟ » .

فقال مطبقا أسنانه : « نصف الساعة » .

فرميته بنظرة لم تزل ممتلئة برعب الكابوس الذى تراءى لى لانه سألنى وفى صوته نبرة غريبة كمن يريد أن يدخل فى جدال قائلا : « أما زلت خائفة ؟ » .

ــ « لست أدرى . »

فقال : « لو عرفت من أنا لزاد خوفك منى عنه فى أى وقت مضى »

ان الرجال جميعا يميلون الى التحدث عن انفسهم عقب المضاجعة والى وضع ثقتهم فى المرأة التى يمارسون الهوى معها . ومن الواضح ان سونزونيو لم يكن استثناء من هذه القاعدة . وقد تميزت لهجته بعدم المبالاة والكسل بل والعطف كما خالجتها مسحة من الخيلاء والرضا عن النفس . ولكننى لشد ما انتابنى الخوف مرة اخرى حتى ان قلبى اخذ يثب فى صدرى وكأنه يوشك أن ينفجر .

فسألته قائلة : « لماذا ؟ من أنت ؟ » .

فنظر الى لا مترددا ، بل متذوقا تأثير كلماته على ، وأخيرا قال فى بطء : « أنا بطل فيابالسترو . ذلك هو انا »

لم ير ضرورة لشرح ما حدث فى فيابالسترو . وكان عندئذ مستغرقا فى خيلائه . فثمة جريمة رهيبة قد أرتكبت حديثا فى أحد منازل ذلك الشارع ، وقد امتلأت بأنبائها الصحف ، كما ظل يناقشها كل من تستهويه مثل هذه الاخبار ، وفى الواقع فان أمى التى

كانت تقضى معظم النهار فى تهجى أنباء الجريمة فى الصحف كانت أول من حدثنى عنها . وموضوعها أن صائغا شابا قتل فى شقته حيث يقيم وحده . ومن الواضح ان السـلاح الذى اسـتخدمه سونزونيو ــ اذ اننى تأكدت الآن من أنه القاتل ــ كان مثقلة للورق برونزية ثقيلة . لم يجد رجال الشرطة خيطا يعينهم فى مهمتهم . ومن الواضح أيضا ان الصائغ كان يتقبل السـلع المسروقة فظن رجال الشرطة ــ وهم على حق فى ذلك كما سنرى ــ انه قتل أثناء عقد احدى الصفقات التى حرمها القانون .

وطالما لاحظت اننا كلما سمعنا نبأ يملؤنا بالدهشـة أو الرعب تصير أذهاننا صفحة بيضاء ثم نوجه انتباهنا الى أول شىء تقع عليه أبصارنا بطريقة غريبة وكأننا نريد أن نخترق سطحه لنصـل الى سر مجهول يختفى فى داخله . ذلك هو ما حدث لى بعد أن كشف سونزونيو عن شخصيته . فقد فتحت عيناى على سعتهما وصار ذهنى خاويا كوعاء كان يحتوى على سائل معين أو مسحوق دقيق ثم أخـذ يرشح فجأة ، غير ان عقـلى رغم فراغه كان على استعداد لتلقى مادة جديدة بل ينتظر مترقبـا ذلك . وقـد آلمنى ذلك الاحسـاس لاننى كنت اتوق الى ملء فراغه ولا اقوى عليه . وفى تلك الاثناء لم أفتأ أحملق فى معصـم سـونزونيو الذى تمدد بجانبى متكئا على احد مرفقيه . وكانت ذراعه بيضاء ملساء ناعمة ولـكنها رغم امتلائها لم تنبىء قط بقوته الخارجة عن المـألوف . كما كان معصمه ناعما أبيض اللون محاطا بسوار من الجلد كسوار الساعة ولكنه بلا ساعة . وكان ذلك هو الشىء الوحيد الذى ظـل محتفظا به من ملابسه على جسده العارى . وقد بدا لى أن لون ذلك السوار القاتم الشحيم كان يضفى بعض المعنى لا على ذراعه فحسب ، بل على جسده الابيض العارى بأكمله . وأخذت أطوف بعقلى حول ذلك المعنى دون أن أتمكن من اكتشافه . كان معنى مشئوما يذكرنى بحلقة فى قيد سجين . ولـكن ثمة شيئا آخر حول سواره الجلدى جمع بين الفتنة والقسوة ذلك انه كان أشـبه بحلية تبـرز فى سونزونيو طابع وحشيته الغادرة الثابتة . ولم يستمر فراغ ذهنى سوى لحظة واحدة لم يلبث بعدها ان امتـلأ راسى فجأة بحشد من الخواطر الصـاخبة المضطربة التى لم تفتـأ تخفق هنا وهناك كالطيور الحبيسة فى قفص مزدحم . وتذكرت اننى احسست بالخوف نحو سونزونيو منـذ اللحظة الاولى . كما تذكرت اننى

ضاجعته فأدركت عن طريق جسـدى المـروع حين استسلمت لاحضانه فى الظلام كل ما كان يخفيه عنى حتى قبل أن يدركه عقلى الجاهل وذلك هو السر فى صرختى المدوية .

فسألته قائلة : «ولماذا فعلت ذلك؟» كان هذا هو أول ماخطر لى ولم تكد شفتاه تتحركان وهو يجيبنى قائـلا : « كان معى شىء قيم أريد أن أبيعه ، وكنت أعلم انه خنزير قذر ولـكننى لم أكن أعرف تاجرا سواه . فعرض على سعرا مضحكا . وكنت أكرهه من قبل لانه سبق أن غمطنى حقى . فطلبت اليه أن يرد لى سلعتى ونعته بالغش ، فقال لى شيئا أفقدنى صبرى » .

فسألته قائلة : « ماذا قال ؟ » وقد لاحظت الآن لدهشتى ان خوفى أخذ يفارقنى رويدا عندما بدأ سـونزونيو يروى لى قصته · وأثارنى على الرغم منى احساس بالاثم المشترك · وعندما سألته عما قاله الصائغ لاحظت أننى كنت أتمنى أن يكون شيئا شنيعا مسيئا للغاية يجعل الجريمة مغتفرة ان لم تكن مبررة تماما ·

فأجابنى قائلا باختصار : « قال انه سيسلمنى للشرطة ان لم اذهب ، فحدثت نفسى قائلا : « حسبى هذا » · وعنـدما استدار بعيدا ·· » ولم يتم عبارته بل أخذ يحملق فى بنظرة ثابتة .
ثم سألته قائلة وقد بدا فضولى عندئذ بلا هـدف أو غاية : « وكيف كان يبدو ؟ » .

فأجابنى قائلا فى دقة : « أصلع الرأس ، قصير القامة الى حد ما ، ذا وجه ماكر كوجه الارنب البرى » . ولـكنه كان يتكلم وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالـكراهية الهادئة غير المنفعلة مما جعلنى أتمثل الرجل أمامى وأكرهه أنا أيضـا ، ذلك اللعين ذو الوجه الارنبى الذى كان مخادعا مريبا فى تقديره لقيمة السلعة التى حملها اليه سونزونيو · وزايلنى الخـوف تماما · فقد بدا لى ان سونزونيو قد نقل الى كراهيته لضحيته مما جعلنى أشك حتى فى ادانته · وقد بدا لى بالفعل أننى فهمت ما حدث فهما جيـدا حتى أحسست أننى أيضا ربما كنت جديرة بارتكاب نفس الجريمة · فلشد ما فهمت عبارته التى قال فيها : «قال لى شيئا أفقدنى صبرى!» كما حدث أن فقد صبره مرة مع جينو ثم معى · وان كنا أنا وجينو لم نزل على قيد الحياة فذلك مرجعه الصدفة السعيدة فحسب · لشد ما فهمته ولشد ما استطلعت خبيئة نفسه حتى أننى لم يزايلنى الخوف

منه فحسب ، بل أحسست نحوه بنوع من الجاذبية المفزعة ، تلك الجاذبية التى لم أستطع أن أحس بها عندما كنت أجهل كل شىء عن الجريمة ولم يعد أن يكون فى نظرى عندئذ أحد عشاقى الكثيرين .

فسألته قائلة : « ألست آسفا ؟ الا تشعر بالندم لارتكابها ؟ »

فأجابنى قائلا : « لقد انتهى الامر الآن » .

فنظرت اليه بامعان وتولتنى الدهشة عندما وجدتنى أومىء برأسى مستحسنة اجابته . ثم تذكرت ان جينو أيضا كان بلفة سونزونيو خنزيرا قذرا ومع ذلك فقد كان رجلا هو أيضا وأحبنى وأحببته . وخيل لى اننى بهذه الطريقة ربما وجدتنى موافقة على قتل جينو فى المستقبل القريب . فقد اعتقدت ان الصائغ قبل كل شىء لم يكن أفضل من جينو أو أسوأ منه فى شىء . ولا فارق بينهما سوى اننى لم أكن أعرفه . وقد وجدت ان قتله كان له ما يبرره لا لسبب الا لاننى سمعت شخصا يقول عنه بلهجة معينة ان له وجها كوجه الارنب . فامتلأت نفسى رعبا وتبكيتا ـ لا من أجل سونزونيو الذى خلق على هذه الصورة وكان لابد أن تفهم نفسيته قبل الحكم عليه · بل من أجل نفسى لان عدوى الكراهية والدم قد انتقلت الى رغم اننى لم أخلق على هذه الصورة مثل سونزونيو واستويت على الفراش وانا فى حالة من الاضطراب هاتفة : « يا الهى ! يا الهى : لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا أخبرتنى به ؟ » .

فأجابنى قائلا فى بساطة : « لشد ما كنت خائفة منى مع أنك لم تعرفى شيئا عنى . وخيل لى ان هذا أمر غريب فأخبرتك بما حدث » . ثم أردف قائلا وهو مسرور بفكرته : « ومن حسن الحظ ان الباقين ليسوا جميعا على شاكلتك والا لكنت الآن مقبوضا على » .

فقلت : « يحسن بك أن تذهب وتتركنى لشأنى . هيا .. »

فسألنى قائلا : « والآن ماذا دهاك ؟ » .

وأمكننى أن أتبين من لهجته أنه قد بدأ ينتابه الغضب . ولكن خيل لى أيضا اننى لاحظت عليه نوعا من الحزن لاحساسه بالوحدة وبأنه مدان فى نظر الجميع حتى أنا مع اننى كنت قد وهبته نفسى قبل ذلك بلحظة واحدة .

فأسرعت مردفة : « لا تحسبنى خائفة منك . فلا أثر للخوف فى نفسى . ولكننى يجب أن أروض نفسى على الفكرة وأن أتدبر

الامر . وبعد ذلك يمكنك أن تأتي الى وسوف تجدنى متغيرة » .
فقال : « وفيم تفكرين ؟ أليس فى نيتك أن تسلمينى الى الشرطة .
اليس كذلك ؟ » .

وقــد خالجنى ازاء هــذه الـكلمات ذلك الاحســاس الذى راودنى عندما روى لى جينــو قصة غدره بالخــادمة وكأن عالمى الذى أعيش فيه يختلف عن عالم ســونزونيو . فتكلفت مشــقة فى السيطرة على نفسى قائلة : « ولــكننى أقول لك انه يمكنك المجيء ! أتعرف ماذا تقول لك أية امرأة أخرى ؟ تقول انها تريد أن تقطع كل صلة بك والا تراك مرة أخرى » .

— « ولكنك فى نفس الوقت تأمريننى بالذهاب ؟ »

— « خلتك راغبا فى ذلك . فالامر لايهم أن طال بقاؤك دقيقــة أو قل دقيقة . ولــكنك ان شئت البقاء فلتبق ! أتريد أن تنــام هنا ؟ يمكنك ان شئت أن تنام معى ثم تنصرف غدا صــباحا . أهذا هو ما تبغى ؟ » وقد اقترحت ذلك فى الواقع بصــوت كئيب حائر حزين . ولاريب انه قد بدت فى عينى نظرة حائرة ومع ذلك فقــد كان ذلك هو اقتراحى وكنت أعلم أننى مسرورة به . ولعلى كنت مخطئة ولكن نظرته الى بدا لى فيها بصيص من العرفان .

فقال وهو يهز رأسه : « كلا . فذلك كلام فحسب . اذ ينبغى أن أذهب » . ثم نهض واقفا واتجه الى المقعد حيث ترك ملابسه .

فأجبته قائلة : « كما تشاء . ولــكنك ان أردت البقاء فأنت تعلم ان ذلك فى امكانك » . ثم أضفت قائلة فى صعوبة : « وان احتجت الى مأوى فى احدى الليالى فيمكنك أن تأتى الى هنا ».

فلم ينبس بكلمة ، بل راح يرتدى ملابسه . فنهضت انا أيضا وتدثرت بعباءة . ثم أحسست بالجنون وانا أتجول فى الغرفة التى بدت وكأنها قد امتلأت بأصوات لم تفتأ تهمس فى أذنى بــكلمات منفعلة مخبولة . ولعل ذلك الاحساس بالجنون هو الذى جعلنى أقدم على شيء دون أن افهم حينئذ السر فى اقدامى عليه . فبينما كنت أتجول فى الغرفة متحركة فى بطء رغم احساسى بالجنون ، رأيته ينحنى ليعقد رباط حذائه . فركعت أمامه فى الحال قائلة : « دعنى أعقده لك». فانتابته الدهشة ولــكنه لم يحتج. فأمسكت بقدمه اليمنى ووضعتها فى حجرى ثم عقدت الرباط عقدة مزدوجة. وهكذا فعلت فى القدم اليسرى . فلم يشكرنى ولم ينبس بكلمة .

ولعل كلينا لم يفهم السر فيما فعلت . ثم ارتدى سترته واخرج حافظة كمن يهم باعطائى نقودا . فقلت فى حدة : « كلا . كلا . لا تعطنى شيئا .. فهذا لا يهم » .

فسألنى قائلا فى غضب : « لماذا ؟ أليست نقودى كنقود غيرى؟ » وخيل لى انه من الغريب الا يفهم نفورى الغريزى من النقود التى ربما كانت مسلوبة لتوها من جيب القتيل . ولكن لعله كان يدرك ذلك فعلا غير انه يبغى ان يعرضنى للشبهة بجعلى شريكة فى الجريمة على صورة ما . كما أراد فى نفس الوقت أن يقف على حقيقة شعورى نحوه .

فقلت : « كلا . لم أقصد ذلك . ولكننى عندما استغثت بك لم اكن أفكر فى النقود . فهذا لا يهم » .

فهدأ روعه قائلا : « حسنا . ولكنى أحب أن أترك لك تذكارا » . ثم أخرج شيئا من جيبه وضعه على رخامة المنضدة الصغيرة .

فتأملته دون أن التقطه فاذا به تلك « البدارة » التى سرقتها من مخدومة جينو قبل ذلك ببضعة شهور .

فتلعثمت قائلة : « ما هذه ؟ »

— « لقد أعطانيها جينو . وهى تلك السلعة التى كان على أن أبيعها وأراد الصائغ أن يحصل عليها دون مقابل . ولكنها فى اعتقادى ثمينة للغاية حقا ، فهى من الذهب .. »

فقلت متحكمة فى نفسى : « شكرا » .

فأجاب قائلا : « لا موجب للشكر مطلقا » . ثم ارتدى معطفه الواقى من المطر وشد حزامه وخاطبنى قائلا من مدخل الغرفة : « اذن فالى اللقاء » . ثم ما لبثت أن سمعت الباب الخارجى يغلق .

وما ان خلوت الى نفسى حتى اتجهت الى المنضدة الصغيرة لالتقط « البدارة » فأحسست بالحيرة والذهول وانتابتنى فى نفس الوقت دهشة كئيبة . كانت « البدارة » تتلألأ فى يدى وفجأة بدت الياقوتة المثبتة فى القفل وكأنها تكبر فى الحجم حتى صارت قطرة حمراء مستديرة لم تفتأ تتسع حتى غطت الذهب . فكانت راحة يدى تحتوى على بقعة لامعة مستديرة من الدم تعادل فى وزنها « البدارة » نفسها . وما ان هززت رأسى حتى اختفت البقعة الحمراء ومرة أخرى لم أعد أرى سوى « البدارة » الذهبية ذات

القفل المرصع بالياقوت . ثم أعدت « البدارة » الى مكانها على المنضدة الصغيرة واضطجعت على الفراش متدثرة بعباءتى حيث أطفأت النور وبدأت أفكر .

وخيل لى انه لو رويت لى قصة « البدارة » لوجدتها مسلية للغاية . وكأن ما يروى لى هو سلسلة من الظروف التى لا يكاد يمكن تصديقها . فهى من تلك القصص التى تستفزنا هاتفين : « يا لها من صدفة ! » كما ان النساء ممن على شاكلة أمى يحسبن على أساسها أرقام اليانصيب ، فهذا الرقم يمثل الرجل الميت وذاك يمثل الذهب وذاك يمثل اللص . ولكنها عندئذ وقعت لى وأدركت لدهشتى الفارق بين وجودى فى داخل الواقعة وبين وجودى كشخص غريب فحسب . وكانت طريقة حدوثها أشبه بشخص وضع بذرة فى الارض ثم نسيها . وعندما عاد اليها ألفاها نباتا زاهر تكسوه الاوراق والبراعم التى توشك على التفتح . ولكن ــ يا لها من بذرة ويا له من نبات ويا لها من براعم ! وأطلقت العنان لذاكرتى فأخذت تنقلنى من شيء الى آخر ولكننى لم أستطع أن أعثر على نقطة البداية . لقد أسلمت نفسى لجينو آملة أن يتزوجنى ولكنه غدر بى فسرقت « البدارة » لأكيد له . ثم صارحته بالسرقة فانتابه الخوف . ولكى أحول دون طرده من عمله أعدت اليه « البدارة » حتى يتمكن من ردها الى صاحبتها . ولكنه بدلا من ردها احتفظ بها . وخشية أن يتهم بالسرقة ألصق التهمة بالخادمة التى أرسلت الى السجن . وكانت الخادمة بريئة وكانوا يضربونها فى السجن . وفى تلك الاثناء كان جينو قد أعطى سونزونيو « البدارة » ليبيعها له فذهب سونزونيو الى الصائغ . فأساء الصائغ الى سونزونيو . فقتله وهو فى سورة غضبه . فمات الصائغ وأصبح سونزونيو قاتلا . وأدركت اننى بمتابعتى للأحداث لا يمكننى أن أنحى باللائمة على نفسى والا لاضطررت أن أقول أن رغبتى فى الزواج وتكوين أسرة كانت هى السبب الاول فى تلك الكوارث المتلاحقة . ولكننى مع ذلك لم أستطع أن أتخلص من الاحساس بالرعب وتأنيب الضمير . وأخيرا وبعد تفكير طويل لم يسعنى الا أن أعترف بأن الخطأ كله راجع الى ــ الى ساقى وردفى ونهدى ــ الى كل ذلك الجمال الذى لشد ما زهت به أمى وهو فى حد ذاته صفة بريئة كل البراءة شأنه فى ذلك شأن كل ما تهبه ايانا الطبيعة . ولكن تلك الخواطر كان مبعثها

سخطى ويأسى . اذ اننا نسمح لخاطر واحد سخيف بأن يطرد ما عداه من الخواطر التى تفوقه سخفا مائة مرة . وكنت أعلم فى قرارة قلبى ان اللوم لا يقع على أحد فى الحقيقة وان كل شيء حدث كما كان مقدرا له أن يحدث ولو ان الامر كله كان يفــوق الاحتمال . وان كان لابد حقا من وجود مذنب وبرىء فان كلا منا كان مذنبا بقدر ما كان بريئا .

وفى تلك الاثناء أخذ الظلام يكتنفنى رويدا رويدا كمياه الفيضان التى تصعد من الطابق الارضى الى الطوابق العليا فى المنزل. وكانت قدرتى على الحكم هى أول ما غمرته الظلمة . ولـكن خيـالى من الناحية الاخرى لم يفتأ يداعبه سحر جريمة سونزونيو حتى آخر لحظة . ومع ذلك فان الجريمة كانت بعيدة كل البعد عن أى ارتباط باللوم أو الرعب كواقعة تتميز بفتنتها الغريبة الخاصة ولا سـبيل الى تفسيرها. تخيلت سونزونيو وهو يسير فىشارع فيابالسترو داسا يديه فى جيبى معطفه الواقى من المطر ثم تخيلته عند دخوله المنزل ووقوفه فى ردهة الشقة فى انتظار قدوم الصائغ الذى تمثلته وهو يدخل الغرفة مصافحا سونزونيو متخذا بعد ذلك مكانه على المقعد خلف منضدته بينما يقدم اليه سونزونيو « البـدارة » فيفحصها وهو يهز رأسه متظاهرا باحتقارها . وعندئذ يرفع وجهه الارنبى مقدما عرضه المضحك فينظر اليه سونزونيو نظرة شاخصة وقد امتلأت عيناه بالغضب ثم يخطف « البدارة » من يده فى عنف متهما اياه بالرغبة فى خداعه . فيرد عليه الصائغ مهددا اياه بابلاغ الشرطة وينذره بمغادرة الدار . وعندئذ يشيح بوجهه بعيدا أو يحنى رأسه كمن يريد أن ينهى المناقشة . فيلتقط سـونزونيو مثقلة الورق البرونزية ويضربه بها مرة على رأسه . فيحاول الصائغ أن يهرب. ولـكن سونزونيو ينقض عليه ويظل يضربه حتى يتأكد تماما من أنه فارق الحياة . ثم يدفعه سونزونيو الى الارض ليفتش الادراج فيأخذ منها كل ما أمكنه العثور عليه من نقود ثم يولى هاربا . ولكنه قبل انصرافه يرفس القتيل فى وجهه وهو فى سورة غضبه كمـا سبق أن قرأت فى الصحف .

واخـذت أتأنى مفتونة بتفاصيـل الجريمة جميعها . وتابعت سونزونيو متقمصة حركاته فيما يشبه الحب . فكنت أنا اليد التى قدمت « البدارة » والتى التقطت مثقلة الورق وضربت الصائغ . وكنت أنا القدم التى سحقت وجه القتيـل فى غضب عنـدما

انتهى كل شيء . ولكن تلك الرؤى كانت خالية من كل أثر للرعب أو اللوم كما خلت أيضا من الموافقة والاستحسان . كل ما حدث انني احسست بنفس المتعة الغريبة التي لا تفتأ تراودنا ونحن أطفال كلما انصتنا الى قصص امهاتنا حيث نجد الدفء فى انكماشنا بالقرب منهن متابعين فى انتباه مفتون مغامرات أولئك الابطال الاسطوريين. غير ان قصتي كانت بشعة دامية مخيفة بطلها سونزونيو فخالطت متعتى بها كآبة لا معدى عنها . وبينما كنت أحاول اكتشاف المعنى الخفى للقصة اذا بى ابدا فى استعراضها من جديد وتلخيص مراحل الجريمة جميعا . فعاودنى ذلك الاحساس بالمتعة الغامضة ووجدتنى أقف وجها لوجه أمام السر الغامض من جديد . واستغرقت فى النوم بين حدثين فى تخيلاتى كمن يهوى برأسه فى الفراغ الفاصل بين هوتين لاساءته تقدير المسافة بينهما .

ونمت زهاء ساعتين ثم استيقظت . أو الاحري انني بدأت أستيقظ جسمانيا بينما ظل عقلي فى حال من الخدر والركود ـ وكانت يداى هما أول ما استيقظ فى جسدى فمددتهما أمامى فى الظلام كما يفعل الاعمى دون أن أدرى أين كنت . ورغم أننى عندما أستغرقت فى النوم كنت ممددة بطولى على الفراش فقد وجدتنى أقف الآن منتصبة القامة فى فراغ ضيق ينحصر بين جدارين أملسين عموديين ليست بهما شقوق او كسور مما أوحى الى فى الحال بزنزانة السجن . وتذكرت فى نفس الوقت تلك الخادمة التى تسبب جينو فى القبض عليها . كنت انا نفسى تلك الخادمة فقد احسست فى قلبى بكل ما كانت تعانيه من الم مبرح لما لحقها من ظلم . ثم تحول ذلك الالم الى الاحساس الجسمانى بأنى الخادمة نفسها . وقد بدلنى أساها وحبسنى فى جسدها واعارنى وجهها وفرض على حركاتها . فاحتفنت وجهى بيدى وبكيت متخيلة نفسى وقد أودعت ظلما زنزانة السجن حيث لا سبيل مطلقا الى الهرب . ولكنني كنت أعلم فى نفس الوقت اننى آدريانا التى لم تقاس ظلما والتى لم تودع السجن قط . وكنت أعلم انني بحركة واحدة خليقة باطلاق سراحي فلا أحس بعد ذلك بأنى الخادمة . غير أننى لم أستطع أن استحضر كيف يمكن أن تكون تلك الحركة ـ رغم معاناتى على صورة لاتوصف بسبب رغبتى فى الهرب من سجن الشفقة والالم . وفجأة ومض فى خاطرى اسم آستاريتا وقد ابرق به ضوء متقطع مرتعش كذلك الذى يبدو لعينى المرء عندما يتلقى ضربة عنيفة . فحدثت نفسى

قائلة : « سأذهب لمقابلة آستاريتا حتى يفرج عنها » . ومددت يدى مرة أخرى فاكتشفت شقا ضيقا فى الجدران العمودية لزنزانتى يمكننى أن أهرب منها . فتقدمت بضع خطوات فى الظلام وهناك أحسست بمفتاح النور تحت أصابعى فأدرته بسرعة هستيرية . فافترش الضوء الغرفة . واذا بى واقفة بالقرب من الباب عارية لاهثة يتصبب العرق البارد على وجهى وجسدى . ولم تكن الزنزانة التى احتبست فيها سوى الزاوية القائمة بين صوان الملابس وركن الغرفة وخزانة الثياب وكانت تشكل فراغا ضيقا يكاد ينحصر تماما بين الجدران وقطع الاثاث. فلا ريب اننى نهضت أثناء نومى وتجولت هنا وهناك حيث أقحمت نفسى فى تلك الزاوية .

اطفأت الضوء مرة أخرى وعدت فى بطء الى الفراش . ولكننى ادركت قبل استغراقى فى النوم انه لا يمكننى بالطبع أن أبعث الصائغ الى الحياة . ولكننى أستطيع ان أنقذ الخادمة أو أحاول انقاذها وهذا هو كل ما يهم . ومما زادنى الآن احساسا بذلك الواجب اكتشافى اننى لم أكن خيرة كما كان اعتقادى دائما فى نفسى . أو على الاقل ان الخير فى نفسى لم يخل من الميل الى سفك الدماء والاعجاب بالعنف والاستمتاع بالجريمة .

الفصل الرابع

وفى اليوم التالي ارتديت ملابسى بعناية وألقيت « البدارة » فى حقيبتى ثم غادرت الدار لأتصل بآستاريتا تليفونيا . وكنت منشرحة الصدر على صورة غريبة . فقد تلاشى تماما ذلك الالم المبرح الذى سببه لى سونزونيو فى الليلة البارحة بما أظهرنى عليه من أسرار . وطالما لاحظت فى حياتى منذ ذلك الحين ان الزهو هو الد أعداء الاحسان والتبكيت الادبى . فكان شعورى الآن نوعا من الزهو بدلا من الخوف والرعب وذلك لاعتقادى انه لم يكن فى المدينة من يعلم طريقة ارتكاب جريمة فيابالسترو أوشخصية مرتكبها سواى. فحدثت نفسى قائلة : « انى أعرف من الذى قتل الصائغ » وأخذت أنظر الى الناس والاشياء نظرة تختلف عن نظرتى اليها البارحة . بل خيل لى أن وجهى لابد أن يكون قد طرأ عليه شيء من التغير. وخشيت أن يرى الناس فى تعبير وجهى سر سونزونيو . وراودنى فى نفس الوقت حنين هادىء لذيذ غلاب الى الكشف عن خبيئة نفسى . فقد فاض قلبى بالسر كما يفيض الاناء الصغير بالماء واستمالنى اغراء ان استودعه غيرى . وأعتقد ان هذا هو السبب الرئيسى فى ان الكثيرين من المجرمين يظهرون خليلاتهم وزوجاتهم على الجرائم التى يرتكبونها فيبوح بها النساء الى اخلص الاصدقاء ليفضوا بها بدورهم الى غيرهم وهكذا حتى تبلغ مسامع الشرطة فيكون فى ذلك هلاكهم جميعا. ولكننى أعتقد أيضا ان المجرمين يحاولون بحديثهم عن جرائمهم أن يتخففوا من عبء لا يطاق باشراك غيرهم فيه وكأن الجرم طرد كبير يمكن تقسيمه الى طرود صغيرة يحملها عدد كبير من الناس فتخف وطأته وتقل خطورته ولا يكون كما هو فى الواقع عبئا يتعذر نقله ولا يقل وزنه مطلقا بمشاركة الآخرين بل على العكس يزيد وزنه فى الحقيقة كلما زاد عدد حامليه .

وبينما كنت أجوب الشوارع بحثا عن تليفون عمومى ابتعت جريدتين لاستطلع مزيدا من التفاصيل فى جريمة فيابالسترو . ولكن الجريمة كانت قد مضت عليها بضعة أيام فلم أجد سوى سطور قليلة مخيبة للآمال تحت عنوان : « لا أدلة فى مصرع

الصائغ » . فأدركت ان سونزونيو لن يكتشف أمره ما لم يرتكب خطأ أخرق . وربما جعل تحريات الشرطة متعذرة للغاية ان القتيل كان يمارس عملا غير مشروع . فان الصائغ كما قالت الصحف كانت له اتصالات خفية لا يقرها القانون بأناس من جميع الطبقات والبيئات . وربما كان القاتل شخصا لم يره قط من قبل وقد قتله من فوره . وكان ذلك التفسير أقرب ما يكون الى الحقيقة . ولكنه لما كان غاية فى الصحة لذلك السبب بعينه فمن الواضح ان رجال الشرطة كانوا قد فقدوا كل أمل فى الوصول الى القاتل .

وعثرت على تليفون عمومى فى مطعم صغير فاتصلت بآستاريتا . ولم أكن قد اتصلت به لمدة ستة أسابيع على الاقل فلاريب انه فوجىء بى لانه لم يتعرف على صوتى فى بادىء الامر وخاطبنى بتلك اللهجة العملية التى يستخدمها فى مكتبه الى حد أنه تبادر الى ذهنى لحظة انه لا ينبغى ان تكون لى به صلة بعد ذلك . وتوقف قلبى عن الخفقان عندما تذكرت تلك الخادمة السجينة التى شاء سوء حظها ان ينبذنى آستاريتا فى اللحظة التى كان لابد فيها من تدخله لانقاذ تلك المرأة التعسة . ومع ذلك فان يأسي قد خالطه بعض السرور لانه عندما عاودنى ادراك الخير فى نفسى صرت أرى ان الافراج عن تلك المرأة أمر يهمنى حقا . واننى كنت رغم اتصالى الوثيق بالقاتل سونزونيو لا أزال كما كنت دائما آدريانا الرقيقة العطوف .

فأدليت باسمى لآستاريتا فى خوف ورجفة ولكننى شعرت بالارتياح عندما سمعت لهجة صوته تتغير فى الحال فينتابه التردد والتسرع ويتعثر فى ألفاظه . ولا يفوتنى ان اعترف بأننى أحسست نحوه عندئذ باندفاع عاطفى لان حبا من ذلك النوع الذى لا يفتأ يدغدغ كبرياء المرأة كان خليقا ان يبث الطمأنينة فى نفسى ويشعرنى عندئذ بفيض من العرفان . فضربت له موعدا بلهجة عذبة رقيقة فوعدنى بضرورة حضوره ثم غادرت المطعم .

كان المطر لا يفتأ يهطل بغزارة أثناء ذلك الكابوس الذى تراءى لى . وطالما سمعت فى نومى هسيس المطر مختلطا بصفير الريح فكانا يشيدان حول منزلى جدارا من الطقس الردىء مما لم يفتأ يزيد من وحشة ذلك الظلام الذى اكتنفنى أثناء صراعى مع الكابوس ولكن المطر كان قد انقطع قرب الصباح واستطاعت نفثات الريح الاخيرة ان تبدد الغيوم فصفت السماء وصار الهواء نظيفا عليلا .

وبعد ان تم اتصالى بآستاريتا اتخذت طريقى فى شارع تحف به أشجار الدلب بينما أشرقت شمس الصباح الباكر . وكنت أشعر بدوار طفيف هو كل ما خلفته تلك الليلة المؤرقة ولكنه ما لبث أن تبدد مع الهواء البارد . ولشد ما أبهجنى ذلك اليوم الجميل . فكان كل ما يقع عليه بصرى يتميز بلون من الفتنة التى تجذبنى وتسرنى . فأعجبت برقاع البلل التى ما زالت تحوف بأحجار الافاريز الجافة. وأعجبت بالمنازل التى ما برحت تحمل على واجهاتها آثار المطر الغزير الذى انهمر أثناء الليل فى رقاع كبيرة من البلل . كما أعجبت بالمارة من رجال يهرعون الى أعمالهم وخادمات يحملن حقائب السوق وفتية وفتيات يتأبطون كتبهم وحقائبهم المدرسية ممسكين بأيدى أولياء أمورهم واخوتهم الكبار . وتوقفت عن المسير لأتصدق على سائل مسن . وبينما كنت أبحث فى حقيبتى عن بعض النقود وجدتنى أحملق بشغف فى عباءته العسكرية البالية مسرورة بتلك الرقاع التى توسطت الكمين عند المرفق وأحاطت بالياقة . فكانت هناك رقاع رمادية وبنية وصفراء وخضراء باهتة وأدركت مدى شغفى بملاحظة ألوانها ومشاهدة حياكتها المتقنة

بخيط قطنى اسود فى غرز كبيرة . وفوجئت بنفسى وأنا أتخيل كيف كان يعمل ذات صباح وهو يقص الاجزاء البالية بالمقص مدبرا الرقاع من خلق قديم ليضعها على الثقوب ويحيكها فى عشق . وقد بعثت تلك الرقاع فى نفسى سرورا كذلك الذى يبعثه منظر الخبز الطازج فى نفس الجائع . وعندما فارقته لم أتمالك نفسى من النظر الى الخلف لأتأملها مرارا وتكرارا . وخطر لى فجأة كم تكون الحياة رائعة جميلة لو كانت فى شفافية ذلك الصباح وصفائه وجماله ولو زايلها كل ما علق بها من مظاهر قذرة حتى يمكن النظر فى شغف

الى احقر ما فيها من اشياء . وقد أحيى ذلك الخاطر رغبتى فى حياة عائلية طبيعية فى كنف زوج وفى منزل جديد نظيف مرتب مضىء . تلك الرغبة التى طال نومها وكبتها . وأدركت اننى لم أكن أحب مهنتى رغم استعدادى الطبيعى لها على ما فى ذلك من تناقض غريب . فانها لم تكن تبدو لى مهنة نظيفة . اذ كان يخيل لى ان جسدى وأصابعى وفراشى كانت جميعها لا تفتأ تفوح منها رائحة العرق العفنة والدفء النجس والروائح اللزجة التى لا سبيل الى زوالها مهما اغتسلت ومهما نظفت غرفتى ونظمتها . كما كان ارتداء ملابسى وتجردى منها كل يوم تقريبا على مرأى من رجال مختلفين

يحرمانني من متعة النظر الى جسدي مع احســــاس باللذة والخلوة ذلك الاحساس الذى أذكر أنه كان لا يفتأ يراودني وأنا فتاة صـــغيرة كلما تأملت صورتي فى المرآة أو ذهبت الى الحمـــــام • فـــانه لمن المتع أن يتمكن الانسان من تأمل جسده وكأنه يتأمل شيئا جديدا مجهولا وهو لا يفتأ ينمو ويقوى ويزيد جمالا من تلقاء ذاته . ولكننى حرمت نفسى من تلك المتعة الى الابد لــكى أوحى الى عشــاقى بالجدة فى كل مرة .

وعلى ضوء تلك الخواطر بدت لى جريمة سونزونيو وخبث جينو وكوارث الخادمة وجميع الدسائس الاخرى التى أشركت فيها نتائج تمخضت عنها حياتي المضطربة . ولــكن تلك النتائج لم تكن تنطوى على معنى خاص ولم تكن تبعث فى نفسى احساسا بالاثم بل كان فى وسعى تنحيتها جانبا حالما استطيع اشباع رغبتى الفضة اليافعة فى حياة طبيعية . وأحسست برغبة غامرة ملحة فى تنظيم حيــاتى من جميع الوجوه والتراضى مع القيم الاخلاقية التى تدين مهنتى والاتفاق مع الطبيعة التى تبغى من امرأة فى مثل سنى أن تحمل أطفالا ومصافاة الذوق السليم الذى أعد الحياة ليحياها المرء بين أشياء جميلة رافلا فى ثياب جديدة خلابة ومقيما فى منازل مضيئة نظيفة مريحة . ولــكن كلا من هذه العناصر الثلاثة كان يستبعد غيره . فلو شئت أن أكون على وفاق مع الاخلاق لما استطعت فى نفس الوقت أن أتفق مع الطبيعة . أما الذوق السليم فان الاخلاق والطبيعة تقلبانه رأســا على عقب . وما ان عرفت اننى مدينــة لضرورات الحياة ولا يمكننى سد مطالبها الا بالتضحية بأسمىغاياتى حتى ملأنى ذلك السخط المعهود الذى يلازم المرء حياته بأسرها . ولــكننى أدركت من جديد اننى لم أذعن بعد لمصيرى اذعانا تاما مما بعث فى نفسى بصيصا من الامل لاننى استطعت أن أقول لنفسى انه ما ان تسنح لى فرصة لتغيير حياتى حتى أكون متيقظة لها فأنتهزها عن وعى وتصميم .

وكنت قد ضربت موعدا لآستاريتا عند الظهر حالما يغادر مكتبه . فكان على ان انتظر ساعة او اثنتين . ولما لم يكن لدى ما أفعله فقد صممت على الذهاب لمقابلة جيزيلا . وكنت قد انقطعت عن مقابلتها بعض الوقت فخيل لى ان الفراغ الذى كان يشغله ريكاردو من قبل فى حياتها لابد ان شخصا ما قد ملأه ــ شخصا لا هو بالخطيب ولا بالعشيق ، بل بين بين . وكانت جيزيلا تأمل أيضا أن تنظم

حياتها يوما ما . فاني أعتقد ان هذا الامل مشترك بين جميع النساء اللائي على شاكلتي . ولكنني كنت مبالغة بطبعي الي ذلك في حين ان جيزيلا التي تعلق اهمية قصوى على الاعتبارات الدنيوية كانت ترى انه أقرب لأن يكون موضوع لياقة اجتماعية . فقد كانت تخجل من أن يراها الناس على حقيقتها رغم ان استعدادها لمهنتها كان يفوق استعدادي بكثير . أما أنا فلم أكن اشعر بالخجل منها مطلقا ، بل كان يراودني فحسب من وقت لآخر احساس بالعبودية وبالخيانة ازاء طبيعتي .

وما ان بلغت منزل جيزيلا حتى هممت بالصعود ولكن البوابة نادتني قائلة : « هل أنت صاعدة لمقابلة السنيوريتا جيزيلا ؟ انها لا تقيم هنا الآن » .

– « الى أين ذهبت ؟ »

– « الى شارع فياكازابلانكا رقم ٧٠ » وكان شارعا جديدا يقع فى أحد الاحياء الحديثة . ثم اردفت قائلة : « لقد جاءها شاب أشقر يملك سيارة فنقل متاعها ورحلت معه » .

فأدركت على الفور ان ذلك هو بالضبط ما كنت أتوقع سماعه ، انها رحلت مع رجل . ولا أدرى لماذا انتابنى الهزال فجأة وارتعشت ساقاى مما اضطرني الى أن اتكيء على عمود الباب خشية السقوط على الارض . ولكنني استعدت هدوئى وقررت بعد لحظة من التفكير أن أذهب لزيارة جيزيلا فى عنوانها الجديد . فناديت احدى سيارات الاجرة وأمرت السائق بأن يصحبنى الى فياكازابلانكا .

وبينما كانت السيارة تسرع بى لاحظت اننا تركنا وسط المدينة بما فيه من صفوف المنازل القديمة المتقاربة التى ازدحمت بها الشوارع الضيقة . كما لاحظت ان الشوارع أخذت تتسع وتتشعب لتلتقى فى ميادين مفتوحة ثم لا تفتأ تتسع وتتسع حيث تقوم المنازل الجديدة . وكنت من وقت لآخر ألمح بينها الريف الاخضر . وادركت ان رحلتى كانت لها دلالة خفية مؤلمة للغاية حتى اننى مع كل لحظة تمر كنت أزداد حزنا وكآبة . واذا بى أتذكر فجأة تلك الجهود التى بذلتها جيزيلا لتجردني من براءتي وتجعلني احذو حذوها. فأخذت أبكي على صورة تلقائية كما تنزف الجراح .

وعندما غادرت السيارة فى نهاية الرحلة كانت عيناى تلمعان بينما ابتلت وجنتاى . فقال السائق : « لاينبغى أن تبكى يا آنستى » . فلم أزد على أن هززت رأسي واتجهت نحو الدار حيث تقيم جيزيلا ،

كان مبنى صغيرا أبيض اللون حديث الطراز . وكان من الواضح انه شيد حديثا كما دل على ذلك وجود البراميل والادوات والالواح الخشبية مكدسة فى الحديقة الصغيرة الجرداء ورذاذ الملاط الابيض على قضبان البوابة . فدخلت ردهة بيضاء عارية حيث رايت درجا أبيض اللون ذا نوافذ لبنية يدخل منها الضوء الهادىء وقادنى البواب الى داخل المصعد وكان شابا أحمر الشعر يرتدى بزة العمال ومختلفا كل الاختلاف عن أولئك البوابين المسنين القذرين الذين تعودنا رؤيتهم . وما ان ضغطت على زر المصعد حتى أخذ يرتفع . وقد شاعت فيه رائحة الكحول والخشب الجديد المصقول وهى رائحة لذيذة . وبدا لى ان هناك شيئا جديدا فى طنين الآلات أشبه بصوت جهاز لم يعمل سوى فترة وجيزة . وارتفع المصعد الى الطابق الاعلى وكان الضوء لا يفتأ يزداد انتشارا كلما ارتفع المصعد فبدا المنزل وكأنه بلا سقف وبدا المصعد وكأنه يرتفع مباشرة الى السماء . ثم توقف عن الصعود وما ان غادرته حتى وجدت نفسى واقفة على بسطة بيضاء ناصعة تخطف الابصار وقد انتشر فيها الضوء الساطع . وأمامى باب جميل ذو مقابض نحاسية مصقولة . ثم دققت الجرس ففتحت لى الباب خادمة صغيرة نحيلة سمراء تضع على راسها قلنسوة بيضاء من الدانتللا وتتشح بوزرة مطرزة . فسألتها قائلة : « هل توجد هنا السنيورينا دى سانتس؟ ارجو أن تبلغيها انى آدريانا » .

فتركتنى وسارت فى دهليز يفضى الى باب ذى ألواح زجاجية لبنية اللون كتلك التى رأيتها على نوافذ الدرج ، وكان الدهليز بأسره أبيض اللون عاريا أيضا شأن بقية الارضية واعتقدت انها لابد أن تكون شقة صغيرة تتألف من أربع غرف فقط . وقد شاع فيها الدفء المنبعث من الاجهزة المشعة مما اظهر تلك الرائحة النفاذة التى يتميز بها الجير والطلاء الجديدان . ثم فتح الباب ذو الواجهة الزجاجية الذى يقع فى نهاية الدهليز وعادت الخادمة لتبلغنى انه يمكننى الدخول .

ولم أر شيئا عند دخولى فى أول الامر بسبب شمس الشتاء المعشية التى كانت تغمر الغرفة من خلال نافذة واسعة شغلت الحائط المواجه للباب بأكمله . وكانت الشقة فى الطابق الاعلى فلم يكن يرى من خلال تلك النوافذ سوى رقعة من السماء الزرقاء التى تتألق فى ضوء الشمس . وعندما أغمضت عينى فى ضوء الشمس

إلذهبي الدافيء كالخمر المعتق نسيت زيارتي لحظة وخالجني شعور بالراحة والرفاهية . ولكنني جفلت عند سماعي صوت جيزيلا التي كانت جالسة أمام النافذة وقد جلست في مواجهتها عبر منضدة خفيضة مغطاة بالقناني مدرمة الاظافر وهي امرأة شمطاء ضئيلة .

فقالت في فتور متكلف : « آه آدريانا ! أرجو أن تجلسي. فلن ألبث أن أخلو اليك » .

فجلست بالقرب من الباب وتلفت حولي . فاذا بها غرفة طويلة ضيقة . ولم يكن بها في الواقع أثاث كثير ، بل كانت تحتوي على منضدة وبوفيه وبضعة مقاعد صنعت من خشب زاهي اللون ولكن كل ما فيهاكان يتميز بالجدة وكانت الشمس مشرقة. حقا انالشمس كانت وافرة غامرة . فلم يسعني الا ان أتصور ان مثل هذه الشمس لا تغمر سوى منازل الاغنياء . فأغمضت عيني في عمد لاستمتع بذلك الاحساس اللذيذ ولم أفكر في شيء . فاذا بشيء ناعم ثقيل يقفز الى حجري . ففتحت عيني ورأيت قطا كبير الحجم من نوع لم أره قط من قبل . كان ذا شعر طويل ناعم كالحرير تميل زرقته الى الشهبة ويتسم تعبيره الذي لم يرقني بالعبوس والكبرياء . وأخذ القط يحتك بي وهو يموء بصوت أجش رافعا طرف ذنبه . ثم تقوس في حجري وبدأ يهر ، فقلت : « ما أجمل هذا القط ! من أي نوع هو ؟ » .

فقالت جيزيلا في فخر : « انه فارسي . وهو ثمين حقا . فان قطا كهذا يبلغ ثمنه ألف ليرة » .

فقلت مربتة عليه : « لم أر مثيلا له قط من قبل » .

فقالت المدرمة : « أتعرفين من يملك مثيلا له تماما ؟ السنيورا رادلي . ينبغي أن ترى كيف تعنى به ! أكثر من عنايتها بمخلوق بشري . بل لقد ضمخته كله بالعطر منذ أيام . هل أسوى لك أظافر قدميك يا آنستي ؟ » .

فقالت جيزيلا : «لا يهم ذلك يا مارتا . اذ يكفي ما فعلت اليوم» فوضعت المدرمة أدواتها وقنانيها الصغيرة في حقيبتها ثم ودعتنا وانصرفت .

وما أن خلت احدانا الى الاخرى حتى تبادلنا النظر . فبدت جيزيلا جديدة كمنزلها من أعلى رأسها الى اخمص قدمها . كانت ترتدي سترة جميلة حمراء من « الانجورا » وازارا بنيا لم أره عليها من قبل . وقد مال جسمها الى البدانة فامتلأ صدرها وضاق

ازارها بردفيها . كما لاحظت تورم جنبيها مما ينم عمـــا تتمتع به من غذاء طيب ونوم عميق وراحة بال . وقد أضفى عليها جفناها ذلك التعبير العابس الى حد ما .

فسألتنى قائلة وهى تفحص أظافرها : « حسنا ، ما رأيك فى شقتى ؟ » .

اني لا أعرف الحسد بطبعى . ولـكننى أحسست عندئذ لاول مرة فى حياتى بوخز الحسد فوجدته بغيضا مؤلما للغاية حتى أننى عجبت لاولئك الذين يغذون هذا الشعور وينمونه فى قلوبهم طوال حياتهم . فقد توتر وجهي وعراه الشحوب وكأنى قد انتابنى الهزال فجأة مما تعذر معه ان أبتسم لجيزيلا أو أقول لها قولا حسنـــا كما كنت أتمنى . وخالجنى نحو جيزيلا نفسها احســـاس حاد بالنفور . فراودتنى رغبة فى ايذائها والتعبير عن حقـــدى عليهـــا واهانتها وتحقيرها بل وتنغيص سعادتها فى الواقع . فحدثت نفسى قائلة فى حيرة وأنا لا ازال اربت على القط : « ماذا دهانى ؟ هل تغيرت ؟ » ولـكن ذلك الشعور لم يلبث لحسن الحظ أن زايلنى . اذ تحرك فى نفسى كل ما كنت أنطوى عليه من عوامل الخير والاريحية متغلبا على شعورى بالحسد . فتذكرت أن جيزيلا كانت صـــديقتى وان كل ما يصيبها من خير انما هو عائد علي واننى يجب أن افرح من أجلها . وتخيلت جيزيلا عند دخولها شقتها الجديدة لاول مرة وهى تصفق بيديها من شدة الفرح . وعندئذ زال عن وجهي شلل الحسد الثلجى . وعاودنى من جديد ذلك الاحساس بدفء الشمس ولـكن على صورة أعمق وكأن الشمس قد اخترقت قلبى .

فقلت : « كيف يمكنك أن تسألى ؟ فمّا أبهج هـــذا المكان وما أجمله ! كيف حدث كل هذا ؟ » .

وخيل لى وأنا أقول هذه الـكلمات ان نبرات صوتى كانت تنبىء بالاخلاص . فابتسمت ولم تكن ابتسامتى موجهة لجيزيلا بقـــدر ما كانت مكافأة لى على صدقى واخلاصى .

فأجابتنى فى ثقـــة قائلة بلهجة من يأتمن آخر عـــلى سر ما : « أتذكرين جيانكارلو ؟ ذلك الشاب الأشقر الذى تشاجرت معـــه حالما التقيت به فى ذلك المساء الاول ؟ لقد جاء لزيارتى مرة أخرى ولـكنه لم يكن فظا كما بدا لاول وهلة . ثم التقينا بعد ذلك عدة مرات . وقال لى منذ بضعة أيام : « هيا . فلدى مفاجأة لك » . وخيل لى أنه يريد اهدائى حقيبة أو زجاجة عطر أو ما شـــابه ذلك

كما تعلمين . فاذا به بدلا من ذلك يصحبنى الى هنا فى سيارته ويقودني الى هذه الشقة وكانت خالية . فحسبتها شقته . ثم سألنى ان كانت تعجبنى ؟ فأجبته بالايجاب ولكن دون ان احلم بما يعنيه بالطبع ! ثم قال : « لقد استأجرت لك هذه الشقة» ويمكنك أن تتخيلى شعورى ! »

ثم ابتسمت وهى تتلفت حولها فى رضا موقر جليل . فنهضت واقفة من فورى واتجهت نحوها قائلة وأنا أقبلها : « انى سعيدة . سعيدة للغاية . سعيدة حقا » .

فبددت تلك الحركة جميع المشاعر العدائيــة من قلبى . ثم اتجهت الى النافذة لأطل منها . فاذا بالمنزل يقوم على مرتفع يمتد فى أسفله منظر طبيعى واسع فسيح . كان سهلا ذا زرع يتخلله نهر ملتو وقد تناثرت فى ربوعه الاحراش والمزارع وكتل الصخور. اما المدينة فقد اختفت معالمها فيما عدا بعض المبانى البيضاء التى تقوم فى احدى زوايا المنظر وهى آخر ما شيد من عمارات فى احدى ضواحي المدينة ، كما كانت هناك سلسلة من الجبال الزرقاء التى برزت فى وضوح عند الافق منعكسة على خلفية من السماء المضيئة فقلت ملتفتة نحو جيزيلا : « انه منظر رائع » .

فأجابت قائلة : « أليس كذلك ؟ » ثم اتجهت الى « البوفيه » حيث أخرجت قدحين صغيرين وقارورة قصيرة ووضعتهما جميعا على المائدة . وسألتنى قائلة فى غير اكتراث : « هل تأخذين قدحا من الليكير ؟ » وكان من الواضح ان جميــع حركاتها كربة منزل يخصها وحدها تملؤها بالرضا .

ثم جلسنا الى المائدة وأخذنا نرشف قدحينا فى صمت. ولاحظت ان جيزيلا كانت مرتبكة فأردت أن أفعل شيئا لأخفف عنها فقلت فى رقة : « ومع ذلك فان تصرفك لم يكن يخلو من الجفاء . فكان ينبغى عليك أن تخبرينى .. »

فأسرعت باجابتى قائلة : « لم يتســع لى الوقت . فأنت تعلمين ماذا يعنى الانتقال من منزل الى آخر ثم لشد ما انهمكت بعد ذلك فى ابتياع الاشياء التى كنت فى حاجة ماسة اليها ، كالاثاث والمفارش والاوانى الخزفية . فلم أجد فسحة من الوقت لاتنفس . ان تأثيث منزل مهمة شاقة » . ثم ضمت شــفتيها كما تفعل الســيدة المحترمة عندما تتحدث .

فقلت وقد خلت نفسى من كل أثر للحقد او المرارة وكأن الامر

برمته لا يخصني في شيء : « اني أفهم ماذا تقصدين • فقد أصبحت الآن تملكين شقة خاصة بك كما تحسنت حالتك المالية . فانت لا تريدين أن تكون لك علاقة بي . اذ أنك خجلة مني » .

فأجابت قائلة في شيء من الضيق . وكان من الواضح ان سخطها لم تبعث عليه كلماتي بقدر ما بعثت عليه لهجة صوتي الهادئة المتزنة : « لست خجلة مطلقا . وانه لمن الحماقة أن تتصوري ذلك غير اننا لن نستطيع الآن أن نلتقي كما كنا نفعل من قبل . أعني أن نخرج معا الى آخر ذلك • فلو أنه اكتشف أمرى لوقعت في حيص بيص » .

فأجبت قائلة في رقة : « لا حاجة بك الى القلق • فلن يقع بصرك على مرة أخرى . وما جئت اليوم الا لأقف على ما حدث » .

فتظاهرت بأنها لم تسمعني مما عزز ايماني بصحة رأيي . ثم أعقبت ذلك فترة صمت سألتني بعدها في حماس متكلف قائلة : « وماذا عنك ؟ »

فاذا بي في التو أتذكر جياكومو على صورة تلقائية أخافتني . ورددت قائلة في صوت مخنوق :

— « أنا ؟ لا شيء • فلا جديد في حياتي • »

— « وماذا عن آستاريتا ؟ »

— « أراه من وقت لآخر • »

— « وجينو ؟ »

— « انتهت علاقتي به • »

وقد اعتصرت قلبي ذكرى جياكومو • ولكن جيزيلا ما ان رأت ذلك الالم العميق مرتسما على وجهي حتى فسرته على طريقتها الخاصة • فلعلها حسبتني ممرورة ازاء حظها السعيد وأسلوبها المترفع .

فقالت بعد لحظة من التفكير متظاهرة بالاهتمام : « ومع ذلك فاني ما زلت أعتقد اعتقادا راسخا بأن آستاريتا على استعداد لتوفير الحياة اللائقة بك في منزل يخصك حالما توافقين»

فقلت في هدوء : « ولكنني لا اريده أن يفعل . لا هو ولا غيره»

فبدا لي انها ارتبكت لاجابتي ثم قالت : « لم لا ؟ الا تحبين ان يكون لك بيت كهذا ؟ »

فقلت : « ان المنزل يعجبني . ولكن رغبتي في التمتع بحريتي تفوق عندي كل رغبة أخرى » .

فأجابت قائلة فى استياء : « ولـكنى أتمتع بحريتى ! بل انى أكثر منك تمتعا بالحرية ، فنهارى كله ملك لى » .
ـ « ليست هذه هى الحرية التى أعنيها » .
ـ « اذن فماذا تعنين ؟ »
وأدركت اننى أسـأت اليها بعدم اظهـار ما يكفى من الاعجاب بشقتها التى لشد ما كانت فخورا بها . غير اننى لو أوضحت لهـا اننى لم أكن أحتقرها واننى فى الواقع لم أشأ أن أرتبط برجـل لا أحبه لـكان احساسـها بالاساءة أشد وأعمق . فآثرت أن أغير الموضوع .
وأسرعت قائلة : « هلا أريتنى الشقة ؟ كم غرفة فيها ؟ »
فقالت تحدوها خيبة أمل صبيانية : « وماذا يهمك منهـا ؟ فلقد قلت أنت نفسك انك لا تريدين شقة مثلها » .
فأجبت قائلة فى هدوء : « ولـكننى لم أقل ذلك . فهى شقة جميلة ، أتمنى لو امتلكت مثلها » .
فلم تنبس ببنت شفة . بل أخذت تحملق منكسة بصرها وقد علا وجهها تعبير عابس . وما لبثت أن أردفت قائلة فى ضـعف : « اذن فأنت ترفضين السماح لى برؤية الشقة ؟ » .
فرفعت عينيها ورأيت لدهشتى ان الدموع تترقرق فيهما . ثم هتفت قائلة : « انك لست الصديقة التى كنت أحسبها ! فنفسك تفيض بالحسد . ولذلك فانك تحاولين أن تبخسى الشقة لا لشىء الا لتكدرينى » . كانت تتكلم جزافا بينما تنهمر على وجهها دموع الغضب . فعندئذ كانت هى التى تحسدنى حسدا لا معنى له . وكان يشدد من تأثير حسدها على غير وعى منى حبى اليائس لجياكومو وما يبثـه فى نفسى من احسـاس مرير بالفـراق . ولـكننى أحسست بالاسف لها رغم معرفتى التامة بها بل كانت تلك المعرفة فى الواقع هى مبعث احساسى بالاسف . فنهضت من مكانى واتجهت نحوها حيث وضعت يدى على كتفها .
قلت : « لم تقولين ذلك ؟ فانى لا أحسدك مطلقاً . بل انى أحسد أشياء أخرى ، هـذا هو كل ما هنالك . ولـكننى فرحة بسعادتك » . ثم أردفت قائلة وأنا أعانقها : « هيا أرينى باقى الغرف » .
فتمخطت ثم قالت مذعنة لحثى اياها : « هناك أربع غرف فى المجموع ، وهى تكاد تكون خاوية » .

ـ هيا أرنيها ٠

فنهضت من مكانها وقادتني في الدهليز حيث أخذت تفتح لي أبواب الغرف واحدا بعد الآخر فأرتني غرفة نوم بها فراش واحد ومتكأ عند طرفه الاسفل ، كما أرتني غرفة أخرى خاوية كانت تنوى أن تضع فيها فراشا آخر « للضيوف » وغرفة صغيرة للخادمة لا تكاد تتسع لشيء . وكان يراودها في أثناء ذلك نوع من الحقد . فأخذت تفتح أبواب الغرف شارحة وجوه استخدامها دون أن تجد في ذلك لذة ما . ولكنها عندما أرتني غرفة الحمام والمطبخ وكلاهما قد اكتست جدرانهما بالقرميد كما زودتا بالآلات الكهربائية الحديثة والصنابير اللامعة اذا بسخطها يتحول الى زهو وخيلاء . وأخذت تشرح لي طريقة تشغيل تلك الآلات وكيف كانت تفوق بكثير تلك التي تدار بالغاز ، كما شرحت لي مدى نظافتها واستهلاكها الاقتصادى . ومع انني في الحقيقة لم أجد في ذلك ما يثير اهتمامي مطلقا فقد تظاهرت عندئذ بالحماس وهتفت معبرة عن اعجابي ودهشتي . ولشد ما ابتهجت لموقفي حتى انها قالت لي عندما انتهينا من رؤية الشقة : « فلنعد الى غرفة الجلوس لنتناول قدحا آخر من الليكير » .

فأسرعت قائلة : « لا . لا . فاني مضطرة للذهاب » .

ـ « وفيم العجلة ؟ انتظرى قليلا ٠ »

ـ « لا يمكنني ذلك ٠ »

وكنا في الدهليز ، فترددت لحظة ثم قالت : « ولكنك يجب أن تأتى لزيارتي . أتعرفين ماذا يمكن أن نفعل ؟ انه كثيرا ما يغادر روما ، فسأخبرك بذلك لتأتى وفي صحبتك اثنان من أصدقائك لنلهو قليلا ٠ »

ـ « وماذا لو اكتشف ذلك ؟ »

ـ « لماذا ؟ »

فقلت : « حسنا اذن » . ثم ترددت لحظة ولكنني ما لبثت أن استجمعت شجاعتي قائلة :

ـ « وبهذه المناسبة هل حدث أن ذكر لك ذلك الصديق الذى كان معه في تلك الليلة ؟ »

ـ « الطالب ؟ لماذا ؟ هل أعجبت به ؟ »

ـ « كلا ٠ بل انى أتساءل فحسب ٠ »

ـ « لقد رأيناه مساء أمس ٠ »

فلم أستطع أن أخفى اضطرابى ، وقلت بلهجة مترددة :
« أنصتى ، أبلغيه ان قابلته ان يأتى لزيارتى . ولكن بطريقةعارضة كما تعلمين ، دون الحاح » .

فأجابت قائلة : « حسنا . سأبلغه ذلك » . ولكنها كانت تنظر الى فى ارتياب . فارتبكت لنظرتها اذ ان حبى لجياكومو كان يبدو مكتوبا على وجهى بحروف كبيرة . ولقد فهمت من لهجة صوتها انها لن تبلغ الرسالة . ففتحت الباب فى يأس وودعتها . ثم هرولت هابطة الدرج دون أن التفت الى الخلف . ولكننى توقفت عند البسطة الثانية حيث اتكأت على الحائط متطلعة الى أعلى . وحدثت نفسى قائلة : « لماذا قلت لها ؟ ماذا دهانى ؟ » ثم واصلت هبوط الدرج برأس منكس .

وكنت قد ضربت لآستاريتا موعدا للقاء فى شقتى التى ما ان بلغتها حتى كان الاعياء قد نال منى كل منال . اذ اننى لما كنت قد أقلعت عن الخروج فى الصباح فقد أحسست بالاجهاد من تأثير الشمس والحركة . بل انى لم أشعر حتى بالتعاسة لاننى كنت قد دفعت ثمن زيارتى لجيزيلا عندما بكيت فى السيارة وأنا فى طريقى الى شقتها الجديدة . وأخبرتنى أمى التى جاءت تفتح لى الباب ان شخصا ما كان ينتظرنى فى غرفتى منذ ساعة . فدخلت الغرفة رأسا حيث جلست على الفراش دون أن الحظ آستاريتا الذى وقف أمام النافذة وكان من الواضح انه يحملق فى الفناء . ولما كنت قد صعدت الدرج بسرعة كبيرة فقد ظللت لحظة فى سكون ضاغطة بيدى على قلبى وأنا ألهث . وجلست مولية ظهرى لآستاريتا ومحملقة فى الباب بنظرة ذاهلة حتى اننى لم أرد التحية التى قرأها على . فجاء وجلس بجانبى محيطا خصرى بذراعه وهو ينظر الى فى جد وحزم .

وقد أنستنى مشاغلى الكثيرة رغبته المسعورة التى لا تهدأ أبدا ولا يخمد أوارها . فقلت وأنا انسحب الى الخلف بلهجة بطيئة بغيضة وقد نفد صبرى تماما : « ألا تهدأ رغبتك أبدا ؟ »

فلم ينبس بكلمة بل تناول يدى ورفعها الى شفتيه متطلعا الى . فخيل الى انى ساجن وسحبت يدى بعيدا . ثم أردفت قائلة : « انك دائما على استعداد . أليس كذلك ؟ حتى فى الصباح ؟ بعد ساعات عملك المتصل ؟ وقبل تناولك طعام الغداء ؟ ومعدتك خاوية؟ أتعلم انك حقا لا تحتمل ؟ » .

فرايت شفتيه ترتعشان وعينيه تدوران فى محجريهما ثم قال :

« ولـكننى أحبك ! »

— « هناك وقت للحب ووقت للأمور الاخرى . ولقد ضربت لك موعدا فى الساعة الواحدة لا لسبب الا لأبين لك اننى لا أقصد الحب وأنت — حقا انك نسيج وحدك ! ألست خجلا من نفسك ؟ »

فحملق فى وهو صامت . وأحسست فجأة اننى أفهمه فهما تاما. فقد كان أسير هواى وقد ظل أياما ينتظر ذلك الموعد . فبينما كنت أنا أصارع الشدائد الـكثيرة كان هو لا يفكر فى شىء سوى ساقى وصدرى وردفى وفمى . فقلت له بلهجة أقل غضبا : « اذن فلو اننى تجردت الآن من ثيابى .. »

وما ان أومأ موافقا حتى انفجرت ضاحكة لا فى قسوة بل فى مرارة وحزن قائلة :

« — ألا يخطر ببالك اننى ربما كنت أشعر بالتعاسة أو لا أحس بالرغبة فى ذلك — أو جوعى أو متعبة — أو لدى بعض المشاغل ، ألا يخطر ذلك ببالك مطلقا ؟ »

فنظر الى ثم اذا به فجأة يلقى بجسده علي وهو يضمنى اليه فى قوة دافنا وجهه فى التجويف الـكائن بين عنقى وكتفى . لم يقبلنى بل أخذ يضغط على بدنى بوجهه وكأنه يريد أن يستشعر دفئه . وكان يتنفس بصعوبة متنهدا بين الفينة والفينة . فزايلنى سخطى عليه اذ ان حركته قد أثارت شفقتى القلقة المعهودة ولم أشعر الا بالتعاسة . ولـكننى عندما خيل لى انه نال حظه من التنهدات دفعته بعيدا عنى قائلة :

— « لقد طلبت اليك الحضور الى هنا لاتحدث أليك فى أمر خطير .

فتطلع الى ثم تناول يدى وأخذ يربت عليها . كان ذا هـدف واحد لا يحيد عنه وكانت رغبته هى كل شىء فى نظره ولا وجود لما عداها .

قلت : « انك تعمل فى الشرطة . أليس كذلك ؟ »

— « نعم .. »

— « حسنا اذن ، فلتقبض علي وترسلنى الى السجن .» قلت ذلك فى ثبات تام . فعندئذ وددت حقا لو فعل ذلك .

— « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ »

فقلت بصوت عال : « انى لصة . لقد ارتكبت سرقة . فقبض على امرأة بريئة بدلا منى . ولذا فلتقبض على . انى راغبة حقا

فى الذهاب الى السجن . هذا هو ما اريده » .

ولـكنه لم يبد مدهوشا بل منزعجا فحسب .

فقال وقد بدا على وجهه تعبير الالم : « والآن هدئى من روعك . ماذا حدث ؟ أخبريني بكل شىء » .

— « لقد قلت لك أننى لصة . » ثم حدثته باختصار عن السرقة وكيف تم القبض على الخادمة بدلا منى . كما قصصت عليــه حيلة جينو ولـكننى لم اذكر اسمه . بل تحدثت عنه كخادم فحسب . وراودتنى رغبة عنيفة فى أن أحكى له عن سونزونيو وجريمته حتى اننى وجدت صعوبة فى كتمان الامر . واخيرا انتهيت من قصتى قائلة : « والآن عليك أن تختار ، فاما أخرجت هــذه المراة من السجن أو ذهبت لاسلم نفسى . »

فقال رافعا يده : « لا تتعجلى الامور على هذه الصورة ، فلا حاجة بك الى ذلك ، انها الآن رهينة السجن ، ولـكنها لم يحكم عليها بعد . فلننتظر .. »

— كلا ، لا أستطيع الانتظار ! فهى رهينة السجن حيث تضرب كما يقولون ، وأنا لا أستطيع الانتظار ، فعليك أن تقرر الآن . »

فأدرك من لهجة صوتى اننى جادة فيما أقول ، فنهض واقفا وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالســخط واخــذ يتجول فى الغرفة ، ثم واصل حديثه قائلا وكأنه يحدث نفســه : « هنــاك موضوع الدولارات » .

— « ولكنها ظلت تحتج طوال الوقت ! فقــد تم العثــور على الدولارات ، وفى امكاننا أن نقول انه انتقام شخصى من عدو يكرهها »

— « وهل لديك « البدارة » ؟ »

فقلت وأنا أخرجها من الحقيبة وأناوله اياها : « ها هى ذى »

ولـكنه أبى أن يلمسها قائلا : « لا ، لا ، يجب الا تعطينى اياها » ثم ما لبث أن قال بعد لحظة من التردد : « يمكننى الافراج عن هذه المرأة ولـكن الشرطة فى نفس الوقت يجب أن يتوفر لديها الدليل على براءتها ، هذه « البدارة » مثلا » .

— « خذها اذن وأعدها الى صاحبتها . »

فابتسم ابتسامة بغيضة قائلا : « من الواضح انك لا تعلمين شيئا عن هذه الامور ! فاننى مضطر أدبيا الى القبض عليك اذا قبلت منك هذه « البدارة » ، والا قالوا « كيف وضع آستاريتا يده على السلعة المسروقة ؟ ومن الذى أعطاه اياها ؟ وكيف حصل

عليها ؟ » الى آخر ذلك ، كلا .. يجب أن تعثرى على طريقة لتسليم « البدارة » الى الشرطة ولكن دون أن تكشفى عن شخصيتك بالطبع » .

— « يمكننى ارسالها بالبريد • »

— « كلا ، فهذا لن يجدى • »

أخذ يذرع الغرفة ثم جاء ليجلس بجانبى قائلا : « هذا هو ما يجب أن تفعليه ، أتعرفين قسا ؟ » .

فتذكرت ذلك الراهب الفرنسى الذى اعترفت له عندما عدت من فيتريو فقلت :

— « نعم •• معرفى • »

— « وهل ما زلت تذهبين للاعتراف ؟ »

— « تعودت ذلك فيما مضى • »

— « حسنا ، اذهبى الى معرفك واحكى له القصة كاملة ، تماما كما رويتها لى ، وتوسلى اليه أن يأخذ « البدارة » ويسلمها الى الشرطة بالنيابة عنك ، فلا يستطيع معرف أن يرفض ذلك . وهو بحكم التزامه بسر الاعتراف ليس مضطرا للادلاء بأية معلومات للشرطة • وسأتصل بهم تليفونيا بعد يوم أو اثنين •• وهكذا سوف يفرج عن الخادمة التى تشغل بالك الى هذا الحد • »

ولشد ما استخفنى الفرح حتى انه لم يسعنى الا أن ألقي بذراعي حول عنقه وأقبله . ثم أردف قائلا بصوت يرتعش بالرغبة فعلا : « ولكنك كما تعلمين يجب ألا تفعلى هذه الاشياء ، وعندما تحتاجين الى النقود فما عليك الا أن تطلبى الى .. »

— « هل يمكننى أن أذهب اليوم لمقابلة المعرف ؟ »

— « بالطبع • »

فوقفت هناك بعض الوقت بلا حراك شاخصة ببصرى أمامى وممسكة « بالبدارة » فى احدى يدى ، فقد راودنى احساس بالارتياح العميق وكأنى أنا نفسى الخادمة ، وفى الواقع فانى قد أحسست وكأنى فى مكانها عندما تخيلت راحتها للافراج عنها وكانت تفوق راحتي بكثير ، ولم أعد أحس بالتعاسة أو التعب أو النفور . وفى أثناء ذلك كان آستاريتا يربت بأصابعه على معصمى محاولا أن يدسها داخل كمى ليلمس ذراعى ، فاستدرت نحوه وحدثته بلهجة مدغدغة وأنا أحملق فيه بشغف .

ثم سألته قائلة : « أتشعر حقا بالرغبة الشديدة فى ذلك ؟ »

فأومأ برأسه عاجزا عن النطق .

فأردفت قائلة فى رقة وقوة : « الا تعتقد ان الوقت قد تأخر، وانه يحسن تأجيل الأمر الى يوم آخر ؟ »

فهز رأسه .

وسألته قائلة : « أتحبنى كثيرا ؟ »

فقال بصوت خفيض : « أنت تعلمين انى أحبك » ثم هم بعناقى ولكننى تجنبته قائلة :

- « انتظر .. »

فلم يلبث أن هدأ فى الحال لادراكه اننى وافقت ، ونهضت واقفة ثم اتجهت فى بطء نحو الباب لأوصده ، ثم سرت الى النافذة حيث فتحتها وجذبت مصراعيها الخشبيين وأغلقتهما مرة أخرى ، ولم أفتأ احس بعينيه على بدنى وأنا أتجول مختالة فى الغرفة بحركات بطيئة رشيقة ، وقد أمكننى أن أتخيل فى وضوح كم كان يبدو رضاى غير المتوقع رائعا فى نظره ، فما ان جذبت مصراعى النافذة حتى أخذت أهمهم فى هدوء بصوت مرح نابع من الاعماق ثم فتحت خزانة الملابس حيث علقت معطفى الذى خلعته ، وبعد ذلك نظرت الى صورتى فى المرآة وأنا ما زلت أغنى . فخيل لى اننى لم أكن قط بمثل هذا الجمال ، اذ كانت عيناى تتألقان ومنخراى يرتعشان وفمى منفرجا الى حد ما كاشفا عن ثغرى الابيض النضيد ، وأدركت ان جمالى كان مرجعه رضاى عن نفسى فقد أحسست اننى فتاة خيرة ورفعت صوتى قليلا وأنا أغنى بينما أخذت فى نفس الوقت أفك أزرار سترتى مبتدئة بطرفها الاسفل ، وكنت أهمهم بأغنية سخيفة كانت شائعة وقتذاك ، هذا نصها : « انى أشدو بالاغنية التى لشد ما أهواها والتى تقول دو - دو دو - دو دو - دو » وكان قرارها السخيف كالحياة نفسها واضحة السخف ولكنها فاتنة خلابة فى بعض اللحظات ، وفجأة اذا بالباب يطرق فى نفس اللحظة التى أكشف فيها عن صدرى ، فقلت فى هدوء : « لايمكننى المجىء الآن ، فيما بعد .. »

فانبعث صوت أمى قائلا : « انه أمر عاجل » .

فساورنى الشك واتجهت الى الباب لافتحه وأنعمت النظر الى الخارج .

فاذا بأمى تشير الى بأن أخرج وأغلق الباب .

ثم همست لى قائلة فى الفرفة الخارجية المظلمة : « هناك رجل

يريد أن يحدثك فى الحال » .

— « من هو ؟ »

— « لست أدرى ، انه شاب أسمر » .

ففتحت باب غرفة الجلوس فى هدوء شديد واختلست النظر الى الداخل ، فرأيت رجلا متكئا الى المائدة وقد أولانى ظهره ، فعرفت فى الحال انه جياكومو ثم أغلقت الباب بسرعة .

وقلت لامى : « اخبريه انى قادمة حالا ، ولا تدعيه يترك الغرفة »

فأخبرتنى انها ستفعل ما أريد وعدت الى غرفتى حيث كان آستاريتا لا يزال كما تركته جالسا على الفراش .

قلت : « هيا أسرع ، فمما يؤسفنى انك ستضطر الى الانصراف »

فتولاه الحزن وتلعثم لسانه ببعض الاحتجاج ، ولكننى قاطعته بسرعة قائلة : « ان عمتى قد انتابها المرض فى الطريق ولابد أن أذهب مع أمى الى المستشفى فى أقرب وقت ممكن » كانت أكذوبة مكشوفة الى حد ما ولكن تفكيرى حينذاك لم يسعفنى بشىء سواها ، فنظر الى فى غباوة وكأنه لا يستطيع أن يصدق حظه العاثر ، ورأيت انه كان قد خلع حذاءه واستقرت قدماه على الارض فى جوربيهما المخططين .

فقلت فى سخط : « هيا ! لماذا تحملق فى ؟ فعليك أن تذهب ! »

فأجابنى قائلا وهو ينحنى ليرتدى حذاءه مرة أخرى : « حسنا انى ذاهب » . فوقفت أمامه لاناوله سترته ، ولكننى أدركت اننى يجب أن أعده بشىء اذا كنت أريده أن يتدخل لانقاذ الخادمة. فقلت وأنا أعاونه على ارتداء سترته : « اصغ الى ، اننى آسفة كل الاسف لما حدث ، ولكن فلتعد الى غدا مساء بعد العشاء ، وعندئذ لن يقاطعنا أحد ، أما اليوم فقد كنت مضطرة — على أية حال — الى اخراجك من المنزل حال انتهائنا من المضاجعة تقريبا ، ولذا فان ذلك خير لنا فى النهاية » .

فلم ينبس بكلمة . ثم اصطحبته الى الباب وأنا أقوده من يده وكأنه يزورنى فى المنزل لاول مرة ، فلشد ما خشيت أن يدخل غرفة الجلوس حيث يرى جياكومو .

وقلت له عند الباب : « تذكر ، فانى ذاهبة اليوم لمقابلة المعرف »

فأجابنى بايماءة من رأسه وكأنه ينوه بأن ذلك أمر مفهوم بيننا . وقد بدا عليه النفور والجمود ، ولشد ما انتابنى الضجر حتى اننى لم أنتظر أن أودعه وكدت أصفق الباب فى وجهه .

الفصل الخامس

وما ان لمست اصـــابعي مقبض باب غرفـــة الجلوس حتى بوغت بخاطر قوى ينبئنى ان العلاقة التى ستنشأ بينى وبين جياكومو ما لم تحدث معجزة ما فقد كتب عليها ان تكون تعسة كعلاقتى بآستاريتا ، فقد تبين لى الآن ان احساسى نحو جياكومو كان مزيجا من الخضوع والخوف والرغبة العمياء تماما كاحساس آستاريتا نحوى ، ومع علمى بأننى يجب أن أغير من مسلـكى اذا كنت أطمع فى حبه فقد وجدتنى منساقة بقوة لا تقاوم الى أن أضع نفسى ازاءه فى مستوى تبعى أدنى من الشك والقلق ، وما كان يمكننى ان أفسر أسباب احساسى بالنقص تجاهه .

ولو كان ذلك فى امكانى لتلاشى ذلك الاحساس ، بل كنت أعلم بالغريزة فحسب ان كلا منا ذو معدن مختلف ، فقد وجدتنى أهش معدنا من جياكومو غير أننى كنت أصلب عودا من آستاريتا ، وكما كان هناك ما يمنعنى من حب آستاريتا كذلك كان هناك ما يمنع جياكومو من حبى . ولقد بدأ حبى لجياكومو بداية سيئة ولسوف ينتهى نهاية أسوأ وكذلك كان الحال مع آستاريتا . أخذ قلبى يثب فى صدرى وأخذت انفاسى تتتابع حتى قبل أن أراه أو أحدثه ، فلشد ما خشيت أن أقع فى خطأ ما كأن أظهر له حماسى ورغبتى فى ارضائه فأفقده مرة أخرى وبلا رجعة ، فمن الواضح ان هـــذا هو أسوأ علاج للحب ، انه لا يقابل أبدا بالمثل . فعندما تحب لا تحب وعندما تحب لا تحب ، اذ لايمكن أن يلتقى عاشقان على نفس المستوى من العاطفة والرغبة مع ان هذا هو المثل الاعلى الذى يسعى اليه البشر جميعا . فانى أعلم على وجه اليقين ان حبى لجياكومو كان وحده السبب فى عدم تعلقه بى ، كما أدركت أننى مهما بذلت من جهد فلن أنجح فى ارغامه على حبى وهو ما لم أشـــأ أن أعترف به أمام نفسى . لاحظت كل ذلك فى وميض خاطف أثنـــاء وقوفى مترددة خارج الباب فى حال من الاضطراب الرهيب ، وقد انتابنى دوار وأحسست انى موشكة على ارتكاب أعمـال أشـــد ما تكون استثارة للسخرية فأغضبنى ذلك الاحســـــاس . وأخيرا استجمعت

شجاعتي ودخلت الفرفة .

كان لايزال واقفا كما رأيته عندما اختلست النظر اليه من خلال فتحة الباب أي انه كان مستندا الى المائدة وقد اولانى ظهره ، ولكنه ما ان سمعنى ادخل الفرفة حتى استدار نحوى قائلا وهو يرمقنى بانتباه ناقد مدقق : « كنت مارا بدارك ففكرت فى زيارتك ولعله ما كان يجدر بى أن أفعل ذلك » . ولاحظت انه كان يتكلم فى بطء كمن يريد أن ينعم النظر الى قبل أن يتجاذب معى أطراف الحديث ، فلم أتمالك نفسى من الشعور بالقلق متسائلة عن صورتى فى نظره وكيف كنت أبدو له ، ولعل صورتى اختلفت عما انطبع فى ذاكرته وقلت جاذبيتها عن تلك الصورة التى دفعته الى زيارتى بعد مضى تلك الفترة الطويلة من الزمن ، ولكننى أحسست بالطمأنينة عندما تذكرت مدى ما شاهدته من جمالى وأنا أحملق فى صورتى فى المرآة قبل ذلك بفترة وجيزة .

فقلت لاهثة بعض الشيء : «كلا مطلقا — بل لقد أصبت بمجيئك — فقد كنت على وشك الخروج لتناول الفداء ، ويمكننا أن نذهب معا » .

فسألنى قائلا فى تهكم : « أتقصدين أن تقولى انك تعرفينني ؟ أتعرفين من أنا ؟ »

فقلت فى غباوة : « بالطبع أعرفك ! » وقبل أن تتمكن ارادتى من التحكم فى حركاتى اذا بى أتناول يده وأرفعها الى شفتى وفى عينى نظرة ملؤها الحب ، فارتبك لذلك وابتهجت .

ثم قلت له فى شغف وقلق : « لم لم تزرنى من قبل أيها الفتى المشاكس ؟ »

فهز رأسه قائلا : « كنت مشغولا للغاية » .

وقد طاش عقلى تماما ، فاذا بى بعد تقبيل يده أضعها على قلبى أسفل نهدى قائلة : « أحس قلبى ! » ولكننى فى نفس الوقت اتهمت نفسى بالحمق لاننى كنت أعلم انه ما كان ينبغى على أن أحذو هذا الحذو قولا أو عملا ، وما ان بدا عليه الحرج حتى أسرعت قائلة فى انزعاج « انى ذاهبة لأرتدى معطفى وسأعود اليك مباشرة ، انتظرنى .. »

كنت فريسة للحيرة ، ولشد ما خشيت أن أفقده حتى اننى عندما بلغت الفرفة الخارجية أدرت المفتاح بعنف فى القفل ثم اخرجته من ثقبه . وهكذا فانه حتى لو حاول الخروج أثناء ارتدائى

ملابسى فلن يمكنه ذلك ، ثم دخلت غرفتى حيث اتجهت الى مرآة الصوان وازلت بطرف منديلى كل ما كان يعلو عينى وفمى من طلاء ، والتقطت اصبع أحمر الشفاه ورحت ألمس به شفتى مرة أخرى لمسات خفيفة ، ثم اتجهت الى علاقة المعاطف حيث بحثت عن معطفى فلم أجده فتولتنى الحيرة ولكننى تذكرت اننى كنت قد علقته داخل صوان الملابس فأخرجته وارتديته ، ونظرت الى صورتى فى المرآة من جديد فخيل لى ان طريقة تصفيف شعرى كانت تلفت الانظار أكثر مما ينبغى ، فأسرعت بتمشيطه ثم صففته كما تعودت أن أفعل عندما كنت خطيبة لجينو . وفى تلك الاثناء بينما كنت أصفف شعرى عاهدت نفسى فى صدق وخشوع شديدين على أن أكبت منذ تلك اللحظة كل بادرة رعناء من بوادر حبى العنيف وأن أفرض على ألفاظى وحركاتى سيطرة قوية . وأخيرا ما ان صرت على أهبة الاستعداد حتى دلفت الى الفرفة الخارجية وألقيت نظرة عند باب غرفة الجلوس لادعو جياكومو .

ولكننا عندما تأهبنا للرحيل فضحنى باب الشقة الذى أوصدته وفاتنى لارتباكى أن أفتحه .

فتمتم جياكومو قائلا وأنا أبحث عن المفتاح فى حقيبتى : « انت تخشين أن أهرب ؟ » ثم تناول المفتاح من يدى وفتح الباب بنفسه وهو يرمقنى بعينيه ويهز رأسه فى نوع من القسوة الحانية ، فامتلأ قلبى فرحا ورحت أركض خلفه هابطة الدرج .

ثم سألته قائلة وأنا أمسك بذراعه وقد انبهرت انفاسى : « ولكن ذلك لم يضايقك ، أليس كذلك ؟ » فلم يحر جوابا .

ثم سرنا معا فى ضوء الشمس وقد تشابكت ذراعانا فمررنا بأبواب الدور والمحال أثناء سيرنا فى الطريق ، ولشد ما أحسست بالسعادة وأنا أمشى بجانبه حتى اننى نسيت تماما ما اتخذته من قرارات تفيدنى ، فأحسست عند مرورنا بالفيللا الصغيرة ذات البرج وكأن شخصا ما قد أمسك بيدى وألهمنى أن اضغط بها على يده ، وفى الوقت نفسه أدركت اننى كنت أميل الى الامام لأنعم النظر الى وجهه .

قلت : « أتعلم اننى فرحة للغاية برؤيتك مرة أخرى ؟ » .

فارتسم على وجهه ارتباكه المعهود ثم قال : « وأنا كذلك » . ولكن لهجته لم تبد لى فرحة تماما ، فعضضت على شفتى حتى آلمتنى وسحبت يدى من يده ، غير انه لم يبد عليه انه لاحظ ذلك ،

بل أخذ ينظر حوله فى شرود الى أن بلغ بوابة الاسوار حيث تردد ثم توقف عن المسير قائلا فى تحفظ :

— « اصغى الى ، فهنالك ما ينبغى أن أصارحك به • »

— « اذن فالى به • »

— « لقد جئت لزيارتك عن طريق الصدفة ، وعن طريق الصدفة ذاتها أجدنى لا أملك مليما ، لذا فالاجدر بنـــا أن نفترق • » وكان أثناء حديثه يمد يده الى •

فانزعجت لاول وهلة وحدثت نفسى قائلة : « انه ســـيفارقنى » ولم أجد لذلك الموقف من علاج وأنا فى غمتى سوى أن أتشبث به متوسلة أليه بدموعى ألا يذهب ، ولكننى عندما فكرت فى الامـــر بدا لى نفس العذر الذى تعلل به لفراقى مخرجا حسنا من ذلك المأزق فتبدلت مشاعرى ، اذ خطر لى انه يمكننى أن أدفع عنه ثمن غدائه ، وقد أبهجنى أن أتولى الانفاق عليه وعلى نفسى تماما كما كان يفعل معى الكثيرون • وقد تحدثت من قبل عن تلك اللذة الجنسية التى كنت أحس بها كلما تلقيت نقودا من أحد ، فاذا بى أكتشف الآن ان فى بذل المال لذة لا تقل اثارة عن لذة أخذه وأن مزج الحب بالمال سواء أعطى او أخذ ليس كله مصلحة ذاتيـــة ، فهتفت قائلة فى اندفاع : « لا تعر الامر اهتماما بعد الآن ! فسأتولى الانفاق . انظر ، فانى أملك بعض النقود » . ثم فتحت كيس نقودى لأريه بعض الاوراق المالية التى كنت قد دسستها فيه فى الليـــلة السابقة .

فاحتج قائلا تشوب صوته رنة خيبة : « ولـــكن ذلك لا يحسم الامر » .

— « وماذا يهم ؟ لقد عدت الى وجدير بى أن أحتفى بعودتك • »

فقـــال : « كلا ، يحسن بك الا تفعلى » ثم هم مرة اخرى بمصافحتى ليفترق عنى . وعندئذ امسكت بذراعه قائلة : « لا تدعنا نتحدث فى ذلك بعد الآن » ثم اتخذت طريقى نحو المطعم .

وهناك جلسنا الى نفس المائدة التى جلسنا اليها من قبل، وكان كل شىء على حاله تماما لم يتغير فيما خلا شعاع من ضوء الشمس كان ينفذ من الباب ذى الواجهة الزجاجية مضيئا الموائد والجدار، وجاءنا صاحب المحل بقائمة الطعام فأصدرت اليه أوامرى بلهجة ثابتة تنبىء عن حمايتى لرفيقى تماما كما كان يفعل عشاقى ، ولم ينبس بكلمة أثناء القائى أوامرى بل جلس منكسا عينيه . ولمـــا

كنت لا أشرب الخمر فقد فاتنى أن أطلب نبيذا . ثم تذكرت انه شرب قليلا من النبيذ عندما كنا معا فى المرة السابقة فأمرت بزجاجة

وما ان ذهب صاحب المطعم حتى فتحت حقيبتى واخرجت ورقة من ذات المائة ليرة ثم طويتها وقدمتها الى جياكومو من تحت المائدة بعد أن ألقيت من حولى نظرة سريعة .

فنظر الى متسائلا :

فقلت له : « ها هى ذى النقود لكى تدفع ثمن الطعام فيما بعد »

فقال فى بطء : « النقود » ثم تناول الورقة وبسطها على المائدة وهو ينظر اليها ، وبعد ذلك طواها مرة أخرى ثم فتح حقيبتى وأعادها اليها • كل ذلك فى جد ساخر متهكم •

وسألته قائلة فى شيء من الارتباك : « أريد أن أتولى أنا دفع النقود ؟ »

فقال فى هدوء : « كلا ، بل أنا الذى يدفعها » •

— « اذن فلماذا ادعيت الافلاس ؟ »

فتردد لحظة . ثم واصل حديثه قائلا فى مرارة ولكن فى صدق : « لم تكن زيارتى لك عن طريق الصدفة . فالحقيقة اننى ظللت شهرا أفكر فى المجيء اليك . ولكننى كلما وجدت نفسى أمام منزلك أحسست بقوة تدفعنى بعيدا مرة أخرى . فخطر لى أن أدعى الافلاس آملا أن تطردينى » . ثم ابتسم قائلا وهو يمر بيده على ذقنه : « ومن الواضح اننى كنت مخطئا » .

اذن فقد حاول أن يختبرنى . اذ انه لم يشأ أن تكون له علاقة بى ، أو الاحرى ان قلبه كان مسرحا للصراع بين انجذابه نحوى وكراهيته لى التى لم تكن تقل قوة عن احساسه الآخر . ولقد اكتشفت فيما بعد ان قدرته على التظاهر بما لا يشعر به عن صدق كانت جزءا جوهريا من شخصيته • ولكننى حينذاك أحسست بالارتباك الشديد ولم أدر أكان ينبغى أن أفرح أو أكتئب لخداعه وهزيمته .

فسألته قائلة فى آلية : « ولكن لماذا أردت أن تفارقنى ؟ »

— « لأننى أدركت أننى لا أحس بشىء نحوك أو بالأحرى أننى لم أشعر نحوك الا بتلك الرغبة التى أحس بها صديقى قبل صديقتك فى ذلك المساء • »

فسألته قائلة : « هل علمت انهما أثثا شقة للاقامة معا ؟ »

فأجاب قائلا فى احتقار : « نعم • فقد خلق كلاهما للآخر » •

قلت : « انك لم تشعر بشيء نحوى ، ولم تشأ أن تأتى لزيارتى ومع ذلك فقد جئت ! » كان افتقاره الى المنطق يخفف الى حد ما من وقع الصدمة التى توقعت أن يسببها لى حبى .

فأجاب قائلا : « نعم . لاننى اعانى مما يسمى عادة بالشخصية الضعيفة » .

فقلت فى قسوة : « ومع ذلك فقد جئت . وهذا يكفينى » . ثم مددت يدى من تحت المائدة ووضعتها على ركبتيه ، وكنت اراقبه فى أثناء ذلك فلاحظت أنه اضطرب للمستى وبدأ ذقنه يرتجف . وقد سرنى أن أراه مضطربا على هذه الصورة . وادركت انه على الرغم من رغبته الشديدة فى مضاجعتى كما اعترف بذلك عندما قال انه ظل شهرا كاملا يفكر فى المجىء لزيارتى فان ثمة جزءا من نفسه لم يبرح يناصبنى العداء، وكان على أن أبذل كل ما فى وسعى لتحطيمه وتذكرت نظرته الحادة القاطعة على ظهرى العارى عندما تضاجعنا لاول مرة وخطأت نفسى لاستسلامى لتلك النظرة التى تجمد لها جسدى ، فلو اننى واصلت اغواءه فى الحاح واصرار بما كنت أبذله من جهود لذابت تلك النظرة كما ينوب الآن وقاره المتشنج على وجهه .

فاتكأت على المائدة وكأنى اريد أن أسر اليه بشىء ما ثم واصلت دغدغته بيدى ، ولشد ما استهوانى فى الوقت نفسه أن أرى تأثير تلك الدغدغة منعكسا على وجهه . كان يرمقنى بنظرة استياء وتساؤل من عينيه النجلاوين السوداوين اللامعتين اللتين طالت أهدابهما النسوية .

واخيرا قال لى : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » .

فاعتدلت فى جلستى فى الحال ، وعندئذ جاء صاحب المطعم ليضع السكاكين والشوك والصحاف على المائدة . ثم بدأنا نتناول الطعام فى صمت وبلا شهية .

قال : « لو كنت فى مكانك وانت فى مكانى لحاولت أن أسكرك » .

ـ « لماذا ؟ »

ـ « لاننى عندما أسكر أستجيب فى سهولة لما يطلبه الى الناس . »

وكانت عبارته التى قال فيها : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » قد أساءتنى بالفعل . أما ما قاله عن الخمر فكان خليقا باقناعى ان جهودى معه لن تجدى فتيلا .

فقلت في يأس : « كل ما ابغيه منك أن تفعل ما يحلو لك ، فان شئت الذهاب فلتذهب . فها هو ذا الباب » .
فقال مشاكسا : « ان كان على أن أذهب فلا بد أن أتأكد من أن ذلك هو ما أبغى » .
— « أتريدنى أن أذهب ؟ »
وتبادلنا النظرات ، وكنت فى تعاستى قد وطنت النفس على الرحيل ، وبدا لى انه اضطرب ازاء تصميمى كما اضطرب لدغدغتى قبل ذلك بلحظة واحدة . ثم قال في جهد : « كلا ، بل أبقى هنا »
ثم واصلنا تناول طعامنا فى صمت ، ورايته يصب لنفسه ملء قدح كبير من النبيذ ويفرغه فى جوفه دفعة واحدة قائلا : « أترين؟ انني أسكر ؟ »
— « يمكننى أن أرى ذلك . »
— « ولن تلبث الخمر أن تصعد الى رأسى . وعندئذ ربما كاشفتك بحبى . »
كانت كلماته تطعننى فى قلبى ، وفى الواقع فانى لم أستطع أن أتحمل مزيدا من العذاب على هذه الصورة فقلت فى ذلة : « اصغ الى . عليك أن تكف عن تعذيبى » .
— « وهل أعذبك ؟ »
— « نعم . فانك تسخر منى .. وأنا لاأطلب اليك الا أن تتجاهلنى فلشد ما تملكنى هـــواك .. ولكنه لن يلبث أن يزول .. أما الآن فلتدعنى وشأنى . »
ولم ينبس ببنت شفة بل جرع قدحا آخر من النبيذ ، فخشيت أن أكون قد أسأت اليه .
وسألته قائلة : « ماذا دهاك ؟ هل غضبت منى ؟ »
— « غضبت منك ؟ كلا مطلقا . »
— « ان شئت أن تسخر منى فلتفعل .. فانى لم أقصد شيئا .. »
— « انى لا أسخر منك . »
فألححت عليه قائلة دون ما روية او دهاء على الاطلاق بل مدفوعة برغبتى فى اذلال نفسى أمامه :
— « وان شئت أن تقول لى كلاما قاسيا فلتفعل ، فانى سأحبك على الرغم من ذلك ... بل سيزيد حبى لك ، حتى لو ضربتنى فانى سأقبل يدك التى ضربتنى . »
كان يتفحصنى بانتبــاه وقد بدا عليه الارتباك الشـــديد ، فمن

الواضح انه قد انتابته الحيرة إزاء حبي القوي .
ثم قال : « هلا ذهبنا ؟ »
— « الى أين ؟ »
— « الى شقتك ؟ »
ولشد ما تملكني اليأس حتى كدت انسى السبب فى يأسى ، فاذا بذلك الاقتراح الذى جاء على غير انتظار وكنا قد انتهينا لتونا من تناول أول أصناف الطعام فقط ، وكان دورق النبيذ لايزال ممتلئا حتى نصفه اذا به لا يلقى منى سرورا بقدر ما أثار من دهشتى فقد أدركت ان ارتباكه جعله يرغب فى أن يقطع علينا وجبتنا .
فقلت : « لشد ما تتوق الى التخلص منى . أليس كذلك ؟ »
فسألنى قائلا : « كيف تكهنت بذلك ؟ » ولكن لما كان رده أقسى من أن يصدق فقد بث فى نفسى الشجاعة لسبب لم يمكننى تفسيره .
فقلت منكسة عينى : « ان بعض الاشياء لا تحتاج الى مناقشة ومع ذلك فلننته من تناول وجبتنا أولا .. ثم نذهب » .
— « كما تشائين .. ولكننى عندئذ أكون قد سكرت . »
— « فلتسكر اذن .. فهذا لا يهمنى . »
— « ولكننى سأسكر حتى أمرض ، وعندئذ لا تجدين عشيقا تمارسين معه الحب بل مريضا تسهرين على تمريضه . »
فدفعتنى سذاجتى الى اظهار قلقى ومددت يدى نحو الدورق قائلة : « اذن فلتكف عن الشراب ! » فانفجر ضاحكا وهو يقول ، « لقد أوقعتك فى الفخ هذه المرة ! » .
— « لماذا ؟ »
— « لا تخافى ، فأنا لا أمرض بالسهولة التى تتصورينها . »
فقلت يخالجنى شعور بالمهانة : « ولكننى كنت أفكر فيك ».
— « فى .. حقا ! حقا ! »
ولم يفتأ يشاكسنى ، ولكن رقة قلبه التى فطر عليها كانت تستبطن مشاكساته جميعا فلم أعبأ كثيرا بما يقول .
ثم أضاف قائلا : « ولكن لم لا تشربين ؟ »
— « أنا لا أحب الخمر ، وفضلا عن ذلك فان قدحا واحدا كفيل بأن يسكرنى . »
— « وماذا يهم ؟ فسوف نسكر معا . »
— « ماأشنع النساء عندما يسكرن، وأنا لاأبغى أن ترانى مخمورة. »

— « لماذا ؟ وما وجه الشناعة فى ذلك ؟ »

— « لست أدرى ، ولـكنه منظر شـــنيع أن ترى أمرأة تترنح وتتعثر فى القول وتأتى حركات ثقيلة مبتذلة ، بل منظر محزن ، وانا اعلم اننى امرأة منكودة كما اعلم ان هذا هو رأيك فى ، ولكنك لو رأيتنى مخمورة لما نظرت فى وجهى مطلقا بعد ذلك »

— « ولنفرض أننى أمرتك بأن تشربى ؟ »

فقلت وانا افكر فى كآبة : « اتبغى حقا أن ترانى مهينة ؟ ان ميزتى الوحيدة هى اننى لست فظة . أتريدنى حقا أن أفقد هـــذه الميزة أيضا ؟ »

فقال مؤكدا : « نعم .. هذا هو ما أريده بالضبط » .

— « لست أدرى ماذا يثيرك فى ذلك ولـكن ما دام الامـر كذلك فلتصب لى بعض النبيذ » . ثم قدمت اليه قدحى .

فنظر الى القدح والى ثم انفجر ضاحكا مرة أخرى وهو يقول : « كان ذلك مزاحا فحسب » .

— « انك دائما تمزح . »

ثم ما لبث أن أردف قائلا بعد لحظة وهو يرمقنى فى انتباه :

— « اذن فأنت لست فظة ؟ »

— « هكذا يقولون على أى حال . »

— « أتظنيننى أوافقهم على ذلك ؟ »

— « وكيف لى أن أعلم ماذا تعتقد ؟ »

— « فلنر . ماذا تتوقعين أن يكون رأيى فيك وشعورى نحوك ؟ »

فقلت فى بطء وخوف : « لســـت أدرى ، ولـكنك بالطبــع لا تحبنى كما أحبك ، لعلك تعجب بى كما يعجب أى رجل بأية أمرأة بشرط ألا تكون شديدة البشاعة . »

— « أذن فأنت تعتقدين أنك لست شديدة البشاعة ! »

فقلت فى فخر : « نعم .. بل انى فى الواقع اعلم اننى جميلة ، ولكن ماذا أفادنى جمالى حتى الان ؟ »

— « ليس المقصود بالجمال أن يكون ذا فائدة . »

وكنا فى تلك الاثناء قد فرغنا من تناول وجبتنا واوشكنا ان نأتى على دورقين من النبيذ .

قال : « أترين ؟ اننى ظللت أشرب ولكننى لم أسكر ؟ » ولكن بدا لى ان عينيه اللامعتين ويديه المرتعشتين تكذب ما يقـــول ، فنظرت اليه تحدونى بارقة من الامل ، فاذا به يردف قائلا :

— « انك تريدين الذهاب الى المنزل ، هه ؟ »

(1) C'est Venus toute entière à sa proie attachée ...

— « ما هذا ؟ »

— « لا شيء .. انه بيت من الشعر اقتبسته ليناسب المقـام ، أيها الساقى ! »

كان لايزال يتكلم بلهجة توكيدية ولـكنها مازحة . ثم سـأل صاحب المطعم بلهجة مازحة عن قيمة الفاتورة والقى فى وجهـه بالنقود بعد أن اضاف اليها هبة سخية وهو يقـــول : « هـــذه لك » . ثم تجرع ما بقى من النبيذ ولحق بى فى خارج المطعم .

وما كدت أخرج الى الشارع حتى انتابنى جنون لابلـغ المنزل . كنت أعلم انه جاء لزيارتى على الرغم منه وكنت أعلم انه يمقت ذلك الشعور الذى دفعه الى البحث عنى ويحتقره ، ولـكننى لشد ما كنت مؤمنة بجمالى وبحبى له ووددت بفارغ الصبر ان أتذرع بهذين السلاحين لقهر عداوته ، واذا بارادة مرحة عدوانية تستفزنى ويتولانى يقين من انتصار حبى على كراهيته ونفوره ومن انصهار معدنه الخشن الصلب فى النهاية ازاء حرارة حمـاسى العـاطفى فيبادلنى الحب .

قلت وأنا أسير الى جانبه فى الطريق الذى أقفر من الناس فى تلك الساعة المبكرة من الاصيل .

— « ولكن عليك أن تعدنى بألا تحاول الهرب منى عندما نصـل الى المنزل . »

— « أعدك بذلك . »

— « كما عليك أن تعدنى بشيء آخر . »

— « ما هو ؟ »

فترددت قبل أن أجيب قائلة : « لولا انك فى المرة السـابقة رميتنى بنظرة معينة جعلتنى أشعر بالخجل لأمكن أن يسير كل شيء على ما يرام فعليك أن تعدنى بالا تنظر الى تلك النظرة مرة أخرى » .

— « وكيف كانت ؟ »

— « لست أدرى .. ولكنها نظرة كريهة . »

(١) جاء هذا البيت فى مسرحية « فيدر» لراسين على لسان فيدر وترجمته : « ان فينوس بكل قدرتها الالهية متشـبثة بفريستها .... » والمقصود ان « فيـدر » والمراد أسرتها جميعا نزلت بهم لعنة الحب

فما لبث أن اجاب قائلا : « لايمكنني التحكم فى نظراتى ، ولكننى ان شئت لن أنظر اليك مطلقا ، بل سأغض بصرى ، ا يرضيك هذا ؟ »
فاحتججت قائلة فى عناد : « كلا ، فهذا لايرضينى » .
- « اذن فكيف تريدين أن أنظر اليك ؟ »
فأجبت قائلة : « هكذا نظرة رقيقة حانية .. »
- « آه فهمت ، نظرة حانية .. »
وبينما كنا نصعد الدرج التعس القذر المؤدى الى شقتى لم يسعنى الا أن أذكر تلك العمارة التى تسكنها جيزيلا بما عليها من نظافة ولمعان . فقلت وكأنى أحدث نفسى : « لو اننى لا اسكن مكانا كهذا ، ولو اننى لم أكن تلك المخلوقة التعسة لارتفع قدرى كثيرا فى نظرك » .

فاذا به على غير انتظار يتوقف فجأة عن الصعود ويقبض على خصرى بكلتا يديه قائلا فى صدق واخلاص : « ان كان ذلك هو اعتقادك فيمكنك أن تثقى تماما انه اعتقاد خاطىء . » ثم التمعت عيناه بتعبير قريب جدا من الحب ، وفى نفس اللحظة انحنى فوقى ملتمسا شفتى ، وكانت انفاسه تفوح منها رائحة النبيذ القوية ، ومع اننى لم أكن أقوى مطلقا على احتمال رائحة النبيذ فقد بدت لى عندئذ وهى تنبعث من فيه بريئة خلابة تكاد تثير الشفقة وكأنها تنبعث من فم صبى غر ، كما أدركت أن كلماتى قد أصابت من نفسه أكثر المواطن حساسية حتى خيل لى اننى أشعلت فى صدره شررا من العاطفة ، ولكننى عرفت فيما بعد ان ما حدث لم يكن الا خفقة من حب الذات وانه لم يكن بعناقه اياى منساقا بدافع من الحب بقدر ما كان مستسلما لنوع من الابتزاز الادبى ، ومن ثم فقد دأبت كثيرا فيما بعد على ابتزازه بنفس الطريقة . فكنت أتهمه باحتقارى لفقرى ومهنتى ، ولم أفتأ أحقق النتائج التى كان يحن اليها قلبى مع شدة احساسى بالمهانة والفشل كلما زاد فهمى لشخصيته .

ولكن معرفتى به عندئذ لم تكن قوية كما آلت اليه فيما بعد. فملأتنى قبلته بالفرح وكأننى فزت بنصر حاسم . فلم أرد على ان لمست شفتيه بشفتى قانعة بالحركة وحدها ثم امسكت به من يده وجذبته الى أعلى صاعدة به آخر مراحل الدرج وأنا أقول :

- « هيا . فلنسرع ! » فانقاد لى مستسلما دون أن ينبس بكلمة ودخلت شقتى وأنا أكاد أركض بينما لم يفتأ هو يصطدم بجدران

المدخل وكأنه دمية . ثم اقتحمت غرفتي وألقيت به على الفراش. وعندئذ لاحظت لاول مرة أنه لم يكن مخمورا فحسب كما توقعت بل يكاد يقيء من شدة السكر . فلشدد ما امتقع وجهه ، ولم يفتأ يمر بيده على جبهته وقد ارتسم على وجهه تعبير مذهول وفى عينيه نظرة زائغة شاردة . لاحظت كل ذلك لاول وهلة ، فخشيت فى الحال ان يمرض حقا ويضيع لقاؤنا الثانى هباء . ولشدد ما انتابنى تأنيب الضمير أثناء تجوالى فى الغرفة وأنا أخلع ثيابى لاننى لم أمنعه من الشراب ـ حتى كاد ينتابنى اليأس، ولكنه جدير بالذكر أنه لم يخطر حتى ببالى أن أتخلى عن تصميمى على مضاجعته ـ تلك الامنية التى طالما تقت الى تحقيقها . وكنت أتمنى شيئا واحدا فقط ـ هو الا يعجزه المرض عن ممارسة الحب معى والا يظهر أثر لغثيانه ـ ان كان شديدا حقا ـ الا بعد اشباع رغبتى فقد كنت مغرمة به حقا ولكن حبى لم يستطع أن يتجاوز حدود ذاتى لخوفى الشديد من فقدانه .

فتجاهلت سكره ، وما ان خلعت ثيابى حتى جلست بجانبه على الفراش ، وكان لا يزال مرتديا معطفه تماما كما كان عند دخوله الغرفة ، فبدأت أعاونه على خلع ثيابه وكنت فى أثناء ذلك لا انقطع عن الكلام لكى أشتت انتباهه وأحول بينه وبين التفكير فى النهوض ومغادرة المنزل .

قلت : « انك للآن لم تذكر لى كم تبلغ من العمر ؟ » وكنت فى أثناء ذلك أنزع عنه معطفه وهو رافع ذراعيه فى استسلام تيسيرا لمهمتى .

ولم يلبث أن قال : « التاسعة عشرة » .

ـ « انك تصغرنى بعامين . »

ـ « وهل انت فى الحادية والعشرين ؟ »

ـ « نعم .. بل اناهز الثانية والعشرين فى الواقع . »

واخذت أصابعى تعبث فى ارتباك بعقدة رباط عنقه ، فدفعنى بعيدا فى بطء ومشقة وحل العقدة بنفسه . ثم سقطت ذراعاه فنزعت الرباط عن عنقه قائلة : « هذا الرباط قد بلى تماما وسأبتاع لك رباطا جديدا ، فأى الالوان تفضل ؟ »

فأخذ يضحك . وعندئذ أحسست نحوه بالحب . فلشد ماكانت ضحكته جذابة .

قال : « انك تنوين حقا أن تكفلينى ! فأنت تبغين أولا أن تدفعى

لى ثمن وجبتى والآن تريدين اهدائى رباط عنق » .
فقلت في شغف به : « يا للسخف ! وماذا يهم لو عن لى أن أهديك رباط عنق ؟ فإن ذلك لا يمكن ان يغضبك ! » وكنت في تلك الاثناء قد نزعت عنه سترته وصديره • ولم يبق عليه سوى قميصه وهو جالس على حافة الفراش .
وسألنى قائلا : « هل يمكنك أن تتكهنى بأننى فى التاسعة عشرة من عمرى ؟ » وكان مغرما دائما بالحديث عن نفسه ، فسرعان ما اكتشفت ذلك .

فقلت مترددة على صورة كنت أعلم انها ترضى كبرياءه : « عن طريق أشياء معينة » . ثم أضفت قائلة وانا اربت على راسه : « فلشد ما يشى بك شعرك ، اذ ان شعر الرجال ليس على هذه الصورة من الحيوية . أما وجهك فلا يمكننى أن أتعرف منه على سنك » .
— « كم تقدرين عمرى من وجهى ؟ »
— « الخامسة والعشرين » •
فسكت عن الكلام ثم رايته يغمض عينيه وكأنه قد غلبه سكره فعاودنى الخوف من مرضه وأسرعت بنزع قميصه قائلة : « زدنى حديثا عن نفسك . فهل أنت طالب ؟ »
— « نعم •• »
— « وماذا تدرس ؟ »
— « القانون •• »
— « أتقيم مع اهلك ؟ »
— « كلا •• فهم من سكان الريف ويقيمون ببلدة س •• »
— « أتقيم فى نزل ؟ »
فأجابنى قائلا بلهجة آلية وهو مغمض العينين : « كلا ، بل فى غرفة مؤثثة ، بالشقة رقم ٨ من المنزل رقم ٢٠ بشارع كولادى ونزو لدى السنيورا آماليا مدولاجى ، وهى أرمل »

وكان صدره الآن قد تعرى فلم أتمالك نفسى من أن أمر بيدى على صدره وعنقه فى عشق وسألته قائلة : « لم تجلس هناك ؟ الا تشعر بالبرد ؟ »
فرفع رأسه وتطلع الى قائلا : « أتظنيننى لم الحظ شيئا ؟ »
ثم ضحك وكان صوته حادا بعض الشيء •
— « وماذا لاحظت ؟ »

— « أنك تنزعين عنى ثيابى أثنـــاء حديثك ، فربما كنت مخمورا ولكن ليس الى هذا الحد » .

فقلت فى شيء من الارتباك : « حسنا ، ولنفرض أننى فعلت ، فماذا يضيرك فى ذلك ؟ كان ينبغي أن تخلع ثيابك بنفسك ، ولما لم تفعل فقد أخذت أعاونك علي خلعها » .

من الواضح انه لم يسمع ما كنت اقول . اذ انه اخذ يهز رأسه قائلا : « انني مخمور ولـكنني أعرف جيدا ماذا أفعل ولماذا انا هنا ؟ كلا ، فأنا لست فى حاجة الى مساعدتك ، شكرا لك » .

واذا به يفك حزامه ويلقي بعيدا بسراويله وبكل ما كان يرتـديه من ملابس بحركات فجائية عنيفـة بدت كحركات الدمى بسبب نحافة ذراعيه . ثم قال قابضا على خصرى بكلتا يديه : « كما اننى أعلم ماذا تتوقعين منى أن أفعل » . فأمسكت بى يداه القويتان العصبيتان ثم بدا لى ان النظرة المخمورة فى عينيه قد تلاشـت وحلت محلها نظرة تنم عن الشر وحب الايذاء القوى . وكان علي أن أواجه تلك النزعة الشريرة ذاتها فى نفس اللحظة التى لشد ما كان يبدو فيها مستسلما للذة . فقد كانت دليـلا واضـحا على صفاء وعيه الذى لم يفتـأ يتمتع به فى جميـع الاوقات مهما كان العمل الذى يؤديه . وكان ذلك كما اكتشفت للأسف فيما بعد يقف حائلا بينه وبين حب أى شخص حبا حقيقيـا ويمنعه من الاتصال به .

ثم أردف قائلا وهو يتشبث بى وينشب اظافره فى بدنى : « هذا هو ما تريدين . اليس كذلك ؟ هذا وهذا وهذا » . وكان كلما قال « هذا » يأتى حركة من حركات الحب كالتقبيل والعض والقرص على غير انتظار . وأخذت أضحك وأتلوى وأقاوم وقد تولتنى سعادة غامرة ليقظته الفجائية فلم الحظ كم كان سلوكه متكلفا ومفتقرا الى التلقائية . ولشد ما آلمنى بحركاته كما لو كان جسدى شيئا بغيضا فى نظره يكرهه ولا يحبه . والتمعت عيناه بالغضب أكثر مما لمعتا بالرغبة . وفجأة هدأت نوبة جنونه كما بدأت . واذا به يستلقى بطوله الى الخلف على الفراش مغمضا عينيه بطريقة غريبة غامضة وكأنه قد غلبه شعوره بالسكر فوجدتنى راقدة بجانبـه يراودنى احساس غريب بأنه لم يأت حركة قط ولم ينبس بكلمة وبأنـــه لم يلمسنى البتة أو يعانقنى كما لو كنا لم نفعل شيئا بعد .

رقدت هنـاك بعض الوقت بلا حراك راكعة أمامه على الفراش

وقد تهدل شعرى على عينى . أخـذت انظر اليه واتحسس على استحياء جسده الطويل النحيل الجميل البرىء بأنامل وجلة . كان ذا بشرة بيضاء برزت منها عظامه وقد عرض منكباه النحيلان وضمر ردفاه وطالت ساقاه وملس جسده الا من بعض شعرات على صدره واستوى بطنه وهو فى ذلك الوضع الذى كان يرقد فيه مما جعل أعضاءه التناسلية ترتفع الى أعلى وكأنها تعرض نفسها . ولما كنت أكره العنف فى الحب فقد راودنى احساس بأن شيئا لم يحدث بيننا وان كل شىء لم يبدأ بعد . فانتظرت حتى يعود الهدوء ويسـود السكون بعد تلك الضجة الهازئة المفتعلة التى لم تلبث الا لحظة . وما ان استرد قلبى صفاءه المعهود وحبه العارم حتى اضطجعت بجانبه . فأحسست وكأنى أنغمس رويدا فى بحر ساكن يزخر بالمياه الجميلة ذات يوم قائظ . ثم التفت ساقاى بساقيه وأحاطت بعنقه ذراعاى ، وتشبثت به . وعندئذ لم يتحرك أو يتكلم حتى آخر لحظة .. فأخذت ادعوه بأرق الاسماء وأعزها الى قلبى بينما انبعثت أنفاسى اللاهثة لتداعب وجهه . كما أخذت اعانقه عناقا حارا ملتهبا بالحب وهو مستلق على ظهره بلا حراك وكأنه جثة هامدة فقدت الحياة . وقد عرفت فيما بعد انه ليس فى وسعه أن يقدم دليلا على حبه أقوى من تلك السلبية المنعزلة .

وبعد قليل نهضت متكئة على مرفقى واخذت انعم النظر اليه على صورة ما زالت للآن بعد كل هذا الوقت الطويل تشكل ذكرى ثمينة مؤلمة ، فقد كان ينام وراسه فى وضع جانبى غائص فى الوسادة وقد زايله وقاره المهتز المتردد الذى كان لا يفتأ يحاول الاحتفاظ به فى جميع الاوقات مهما كان الثمن . ولم يبق شىء فى ملامحه التى كشف عنها النوم بكل ما فيها من صدق واخلاص سوى شبابه الذى لا سبيل الى وصف نضارته وبراءته الا بأنهما تعبير صـادق عن صفة خاصة من صفات روحه أو ميل معين فيها . ولـكننى تذكرت اننى رأيته وقد انتابته على التوالى حالات الحقـد والعـداءة وعدم الاكتراث والقسوة والرغبة . فامتلأت نفسى بالكآبة والتبرم القلق لأنى كنت أعلم ان حقده وعداوته وعدم اكتراثه ورغبته كانت كلها أشياء تميزه عنى وعن كل من عداه وأنها نابعة من مصدر عميق فى نفسه كان لا يزال سرا مستغلقا على . ولم أشأ أن أجعله يفسر لى حالاته بتناولها وفحصها ثم شرحها لى فى ألفاظ كما لو كانت أجزاء فى آلة يمكن تناولها وفحصها . بل كنت أفضل أن أتعرف عليها

فى أدق مظاهرها من خلال مضاجعتى اياه ولـكننى لســوء الحظ فشلت فى ذلك . فالقليل الذى فاتنى أدراكه منه هو ذاته بأكملها .
أما الـكثير الذى لم تفتنى ملاحظته فكان تافها لا يفيدنى فى شىء .
ولقد احسست ان جينو وآستاريتا بل حتى سونزونيو كانوا أقرب الى منه وكنت أعرفهم أكثر منه ، فنظرت اليه يخالجني ألم مبرح لان أعماق نفسينا لم تتمكن من التلاقى والتلاحم كما تلاقى جسدانا قبل ذلك بفترة وجيزة . فتفجعت أعماقي وبكت فى مرارة تلك الفرصة التى ضاعت هباء . فربما مرت لحظة أثناء ممارستنا الحب كشف فيها عن نفسه وتخلى عن ستره وكان فى وسعى بحركة أو كلمة أن أنفذ اليه فيصير ملـكا لى الى الابد . ولـكننى لم أتعرف على تلك اللحظة المناسبة . والآن قد فات الاوان فهو مستغرق فى النوم وقد ولى بعيدا عنى مرة أخرى .

وبينما كنت أتأمله فتح عينيه ولـكنه ظل ساكنا تماما وقد غاص رأسه فى الوسادة وهو لايزال فى وضعه الجانبى . ثم سألنى قائلا :
« هل نمت أنت أيضا ؟ »

وخيل لى ان صوته كانت تتخلله نبرة مختلفة اكثر ثقة وائتمانا . فملأ قلبى أمل مفاجىء بأن العلاقة بيننا ربما توثقت أثناء نومه على صورة غامضة . فقلت : « كلا ، بل كنت أراقبك » .

فسكت لحظة ثم اردف قائلا : « أريد أن أطلب اليك صنيعا . ولـكن أيمكننى الاعتماد عليك ؟ »

ـ « يا له من سؤال ! »

ـ « أتؤدين لى صنيعا بأن تحتفظى لى بطرد أعطيك اياه مدة ايام قلائل ؟ ثم أحضر اليك لاتسلمه وربما حملت اليك طردا آخر . »

لو طلب الى ذلك فى اى وقت آخر لأظهرت بعض الفضول ازاء موضوع الطرود ، ولـكننى عندئذ لم يكن يهمنى سوى جياكومو وعلاقتنا ، وخطر لى ان ذلك سيتيح لى الفرصة لرؤيته مرة أخرى وانني يجب أن أفعل كل ما فى وسعى لارضائه ، كما خطر لى اننى لو سألته عما يحويه ذلك الطرد فلعـله ينـدم على اقتراحه ويسحبه ، فقلت باستخفاف : « اذا كان ذلك هو كل ما تطلب ! »

ثم عاد فلزم الصمت فترة طويلة وكأنه يفكر فى الامر ، وبعـد ذلك سألنى قائلا : « اذن فأنت توافقين ؟ »

ـ « لقد قلت لك ذلك فعلا . »

ـ « ألا يهمك أن تعرفى ما تحويه تلك الطرود ؟ »

فاجبت قائلة وانا احاول جهد الطاقة أن اتظاهر بعدم الاكتراث : « اذا لم تشأ أن تخبرني فمعنى ذلك ان لديك مبرراتك ، لذا فانني لا أطلب اليك ذلك » .

— « ولكنه ربما كان شيئا خطيرا ، فكيف تعرفين ؟ » .

— « لابد من المخاطرة • »

فأردف قائلا وهو مستلق على ظهره بينما لمعت عيناه بالسرور الساذج : « فلعلها سلع مسروقة ، وربما كنت لصا » .

فتذكرت سونزونيو الذى لم يكن لصا فحسب بل سفاحا ثم تذكرت سرقاتى التى ارتكبتها : « البدارة » والقلنسوة ، وبعد ذلك تصورت كم كان غريبا منه أن يرغب فى ايهامى بأنه لص فى حين أننى كنت لصة بالفعل أعيش بين اللصوص ، فقلت فى رقة وأنا اربت عليه مدغدغة : « كلا ، فاننى واثقة انك لست لصا » .

فتجهم وجهه ، اذ انه لما كانت كبرياؤه يقظة دائما فانه كان يستشعر الاساءة فى اغرب الاشياء وابعدها احتمالا ، ثم سألنى قائلا : « ولم لا ؟ فلعلى كذلك » .

— « ولكنك لا تبدو لصا •• كل شىء ممكن بالطبع •• ولكنك لا توحى الى بشىء من هذا حقا • »

— « لماذا ؟ وكيف ابدو لك ؟ »

— « على حقيقتك ، فأنت تبدو شابا من أسرة كريمة ، طالب علم • »

— « لقد زعمت لك أننى طالب ، ولكننى ربما كنت شيئا آخر كما هى الحال فى الواقع • »

غير اننى لم اعد أنتبه اليه ، فقد خطر لى ان وجهى ايضا لم يكن ينبىء بأننى لصة ومع ذلك فهكذا كنت ، وتمنيت أن أقول له ذلك ، وكان موقفه الغريب يغرينى بذلك الى حد ما ، فقد كنت اعتقد دائما ان السرقة جرم يستحق اللوم ، فاذا بذلك الرجل لا يعفى فقط مثل هذا العمل من اللوم بل يبدو وكأنه يرى فيه ظاهرة ايجابية لم أستطع ادراكها •

فقلت بعد لحظة من التردد : « انت على حق ، فانا ارفض ان اصدق انك لص لشعورى بأنك لست كذلك ، اما عن سيماتك — فربما كنت لصا — اذ أن الناس لا تبدو عليهم الحقيقة دائما ، فهل أبدو أنا لصة مثلا ؟ »

فأجابنى قائلا دون أن ينظر الى : « كلا .. »

فقلت فى هدوء : « ومع هذا فاننى كذلك .. »

www.library4arab.com/vb

ـ « حقا ؟ »

ـ « نعم . »

ـ « وماذا سرقت ؟ »

كنت قد وضعت حقيبتي على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش فالتقطتها وأخرجت منها « البدارة » قائلة : « هذه . وقد سرقتها من منزل تصادف وجودى فيه منذ فترة وجيزة ، كما سرقت منذ أيام قلنسوة حريرية من أحد المحال ثم أعطيتها لأمى » .

ولا ينبغى أن تتصوروا اننى صارحته بكل ذلك بدافع من الزهو والخيلاء ، بل دفعتنى اليه فى الواقع رغبتى فى توطيد العلاقة بيننا والمشاركة العاطفية فى الاثم ، كما أن الاعتراف بالجرم ان لم يأت بنتيجة أفضل فانه يقرب بين الناس ويوقظ الحب ، ولقد رأيت وجهه يتخذ سيماء الجد وهو يتأملنى فى شىء من الحزن ، فخشيت فجأة أن يظن بى سوءا وأن يقرر مقاطعتى فأسرعت قائلة : « ولكن لا تظننى فرحة بما ارتكبته من سرقة ، فقد قررت اليوم فى الواقع أن أرد « البدارة » الى صاحبتها . أما القلنسوة فلا يمكننى ردها ، ولكننى نادمة على ما حدث وقد قررت الا أعود اليه » .

وبينما كنت أتكلم لمعت عيناه بحب الايذاء المعهود ، وأخذ يتأملنى ثم انفجر فجأة فى الضحك ، وأمسك بى من كتفى وراح يضمنى اليه بقوة ويقرصنى بطريقته الفجائية قائلا : « أيتها اللصة ! انك لصة ، لصة كبيرة ، لصة صغيرة عزيزة » راح يردد ذلك بلهجة جمعت بين الحب والتهكم تركتنى فى شك مما اذا كان ينبغى لى أن أغضب أم أسر ، ولكن اندفاعه أثارنى وأرضانى على صورة ما . فقد كان ذلك على أية حال أفضل من سلبيته المعهودة التى تشبه الموت ، فأخذت أضحك وأتلوى من أعلى رأسى الى اخمص قدمى لشدة تأثرى بالدغدغة وكان يصر على دغدغتى أسفل ذراعى ولكننى كنت ألاحظ طوال الوقت الذى لم افتأ أتلوى فيه وأضحك حتى تحدرت الدموع على وجنتى أن وجهه المنحنى فوقى فى غير ما شفقة على الاطلاق كان باردا متحفظا . ثم اذا به يتوقف فجأة كما بدأ ويستلقى الى الخلف على الفراش قائلا : « ولكننى لست لصا ـ ولا شىء من هذا القبيل ـ وأما هذه الطرود فلن تحوى سلعا مسروقة » .

وقد لاحظت انه كان يتحرق شوقا ليخبرنى بما كانت تحويه تلك الطرود كما لاحظت ان الامر كله لا يعدو أن يكون فى نظره

مثارا للزهو اكثر من اى شىء آخر ، ذلك الزهو الذى لا يختلف كثيرا عما كان يشعر به [illegible] عندما أطلعنى على جريمته . فالرجال يشتركون فى نواح متعددة رغم كل ما بينهم من اختلافات . فعندما يوجد الرجل مع امراة يحبها أو تربطه بها علاقة غرامية فانه لا يفتأ يميل الى استعراض رجولته عن طريق التفاخر بما قام به أو يعتزم القيام به من أعمال قوية وخطيرة .

فقلت فى رقة : « انك تتحرق شوقا لاظهارى على محتويات تلك الطرود » .

فغضب قائلا : « انك سخيفة حمقاء ، فان ذلك لايهمنى فى شىء ولكننى يجب أن أخبرك بمحتوياتها حتى تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ، ولذا فانى أصارحك بأنها تحتوى على دعاية » .

— « ماذا تعنى ؟ » .

فقال فى بطء : « اننى أنتمى الى جماعة من الناس لا يميلون الى نظام الحكم الحاضر بل يكرهونه فى الواقع ويريدون أن يتخلصوا منه فى أقرب وقت ممكن ، وتحتوى الطرود على كثير من المنشورات التى طبعت سرا والتى نشرح فيها أسباب فساد هذا النظام وكيفية التخلص منه » .

لم تكن لى صلة قط بالسياسة ، واعتقد ان مسألة نظام الحكم لم تكن تمسنى أنا أو غيرى من الكثيرين فى شىء ، ولكننى تذكرت آستاريتا واشاراته الى السياسة من وقت لآخر .

فهتفت قائلة فى انزعاج : «ولكن هذا شىء محرم ، انه خطير!»

فنظر الى فى رضا واضح ، اذ قلت أخيرا شيئا أعجبه وأرضى غروره ، فأمن على كلامى قائلا فى جد متناه ولهجة توكيدية الى حد ما : « نعم .. انه خطير ، والآن عليك أن تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ؟ »

فأجبته قائلة فى جد : « لم أكن أتكلم عن نفسى ، بل كنت أعنيك ، أما عن نفسى فانى سأقوم بالمهمة » .

فعاد يقول : « حذار ، فان الأمر جد خطير ، فلو أنهم عثروا على تلك الطرود لانتهى بك المطاف الى السجن » .

فنظرت اليه وغشينى فيض من العاطفة الجامحة ، ولا أدرى ان كانت هذه العاطفة من أجله أم من أجل شىء آخر لم أعرف كنهه ، فاغرورقت عيناى بالدموع وتلعثمت قائلة : « الا ترى ان

الامر لايهمني مطلقا ؟ فاني سأذهب الى السجن .. ثم ماذا ؟ »
وهززت رأسي فتحدرت الدموع على وجنتي .
فسألني قائلا فى دهشة : « والآن ماذا يبكيك ؟ »
فقلت : « انى آسفة ، فهذا سخف منى .. ولـكني لا ادرى أنا نفسي لماذا أبكي ؟ فلعلي أريدك أن تدرك كم أنا مغرمة بك وكم أنا على استعداد لعمل اى شيء من أجلك » .

ولم أكن بعد قد تعلمت انه لا ينبغي أن أذكر له حبى ، فما ان سمع كلماتى حتى امتلأ وجهه بتعبير ينم عن الارتبـاك الغامض الصلف ذلك التعبير الذى كان مقدرا لى أن أراه كثيرا فيما بعد . ثم أسرع قائلا : « حسنا ، سأحمل اليك الطرد بعد يومين ، اذن فقد اتفقنا ، والآن ينبغى أن أذهب فقد تأخر الوقت » . وبينما كان يتكلم وثب من الفراش وأخذ يرتدى ملابسه بسرعة ، وبقيت حيث كنت عارية من ثيابى تغمرنى عاطفتى ودموعى ويخالجنى شيء من الخجل اما لعريي واما لبكائى .
ثم التقط ملابسه التى كانت ملقاة على الارض وأخـذ يرتديها واتجه الى المشجب لتناول معطفه الذى اندس فيه ثم جاء نحوى قائلا بابتسـامته البريئة الخلابة التى لشـد ما كانت تجذبنى :
« جسى » .
فنظرت ورأيت أنه كان يشير الى أحد جيبى معطفه ، وكان قد اقترب من الفراش حتى يمكننى أن أمـد يدى فى غير جهـد ، فأحسست من خلال قماش جيبه بشيء صلب ، وسألته قائلة دون أن أفهم شيئا : « ما هذا ؟ »
فابتسم فى رضـا ودس يده فى جيبه ثم سحب فى بطء غدارة كبيرة سوداء أبرزها حتى نصفها وهو يحملق فى طوال الوقت بنظرة شاخصة . فهتفت قائلة : « غدارة ! وماذا تفعل بها ؟ »
فقال : « من يدرى ؟ فلعلها تنفعنى فى يوم من الايام » .

ولـكننى لم أثق بما قال ولم أدر ماذا أعتقد بل انه لم يتح لى الفرصة للتفكير ، فقد أعاد السلاح الى جيبه وانحنى نوقى مقبلا شفتى على عجل وهو يقول : « حسنا . اذن فبعد يومين سأحضر اليك » . ثم انصرف قبل أن أفيق من دهشتى .
ومنذ ذلك الحين طالمـا فكرت فى أول لقاء غرامى لنا ولم أفتـأ أؤنب نفسي فى مرارة لانني لم أتنبأ بالخطر الذى يعرضه له شغفه الشديد بالسياسـة ، وانى لأعلم انه لم يكن لى قط نفوذ عليه

ولـكننى على الاقل لو كان لى المام بالاشياء الـكثيرة التى تعلمتها منذ ذلك الحين لامكننى أن أنصحه واذا لم تجد معـه النصيحة لوقفت الى جانبـه يحدونى وعى تام وتصميم أكيد ، واللوم كله يقع على بسبب جهلى الذى لا ذنب لى فيه بل ان ظروفى التى نشأت فيها هى التى كانت مسئولة عنه ، فانى كما سبق أن قلت لم تكن لى صلة مطلقا بأمور السياسة التى لم أكن أفهمهـا واحس انها غريبة عنى تماما وكأنها لا تجرى من حولى بل فى كوكب آخر .

وكنت كلما قرأت جريدة لا أفتأ أترك الصفحة الاولى التى تحمل انباء السياسة لعدم اهتمامى بها ثم أتصفح تقارير القضايا الجنائية حيث كانت بعض الحوادث والجرائم تمد ذهنى بشىء يقتات به على الاقل ، وكانت حالى فى الواقع أشـبه بحال تلك المخلوقات الهلامية الصغيرة التي تعيش كما يقولون فى قاع البحر فيما يشبه الظلام ولا تدرى شيئا مما يدور على سطح الماء فى ضوء الشمس . فكانت السياسة شأنها شأن كثير من الامور الاخرى التى يبدو لى ان الناس يعلقون عليها اهمية كبرى لا تفتأ تبلغنى من عالم أعلى مجهول بل كانت أوهى فى نظرى وأكثر غموضا من ضوء النهـار بالنسبة لتلك المخلوقات الصغيرة البسيطة التى تعيش فى أعماق البحار .

ولـكن الذنب فيما حدث لم يكن يرجع الى والى جهلى فحسب بل اليه أيضـا بسبب غروره وطيشه ، فلو اننى أحسست فيه بشىء آخر سوى الغرور الذى كان يراوده فى الواقع فلعلى كنت أتصرف على صورة مختلفة ولأرغمت نفسى على الالمام بجميع الامور التى كنت أجهلها ولـكننى لا أستطيع أن أتكهن بما كان يمكن أن أحققه من نجاح . وعند هذه النقطـة أحب أن أوضـح امرا آخر ساعد بلا شك على عدم اكتراثى ـ الا وهو انه كان لا يفتأ يبدو وكأنه لا يؤدى عملا جادا بل يمثل دورا هزليا ، فقد بدا وكأنه قد أقام لنفسه شخصية مثلى شيدها قطعة قطعة ولـكنه لم يسعه الا أن يؤمن بها الى حد معين وكان لا يفتأ يجـاهد ليجعل أعماله تتفق مع تلك الشخصية المثلى ، فكانت تلك الهزلة المستمرة توحى بأنه يمثل دورا فى لعبة أتقنها للغاية ، ولـكنها كانت تجعل اعماله كذلك تبدو أقل جدية بكثير وكأن الامر لا يعدو أن يكون لعبة كما كانت توحى فى نفس الوقت بأن كل شىء فى نظره يمكن اصـلاحه وانه فى آخر لحظة حتى اذا ما خسر اللعبة فان خصمه سيرد له

خسائره ويصافحه . والآن لعله كان يلعب حقا شأن الصبية الذين تدفعهم غرائزهم التى لا سبيل الى كبتها الى العبث بكل شىء . ولكن خصمه كان جادا كما سنرى ، ولذا فقد وجد نفسه فى نهاية اللعبة عاجزا ومجردا من السلاح وقد وقع أسير قبضة عدوه القاتلة التى لا أثر فيها للمزاح أو العبث .

وعندما استعرضت فى ذهنى ما حدث تبين لى ان كل هذه الاشياء وغيرها مما هو أفجع من ذلك بكثير وليس أقل منطقا أو عقلا قد وقع لى فيما بعد ، ولكن لم يخطر ببالى عندئذ ـ كما أعتقد اننى سبق أن أوضحت ـ ان مسألة الطرود هذه قد يكون لها تأثير ما على علاقتنا . كنت فرحة بعودته الى ، فرحة بامكانى أن أؤدى له صنيعا وبأن تتاح لى فى نفس الوقت فرصة لرؤيته مرة أخرى ، ولكننى لم أتطلع الى ما وراء ذلك المنبع المزدوج للسعادة ، بل أذكر اننى كلما خطر لى عرضا وعلى صورة غامضة حالة ذلك الصنيع الغريب الذى سألنى أن أؤديه كنت أهز رأسى وكأنى أقول : « عبث صبية ! » ثم يتجه تفكيرى الى أمور أخرى وعلى أية حال فلشد ما أحسست بالسعادة حتى اننى لو شئت أن أفكر فى شىء مقلق لما أمكننى تركيز انتباهى عليه .

الفصل السادس

بدا لى أن كل شيء كان يتم في سهولة ونجاح ، فقد عاد الى جياكومو كما وفقت فى الوقت نفسه فى الافراج عن الخادمة التى اتهمت ظلما دون أن أضطر الى ان أحل محلها فى السجن ، ولقد قضيت يومئذ ساعتين على الاقل بعد انصراف جياكومو تخالجنى فرحة شديدة بسعادتى كما نفرح بجوهرة أو بشيء ثمين لايزال جديدا علينا وقد انتابتنا الحيرة والدهشة والخدر دون ان تخلو نفوسنا مع ذلك من المتعة العميقة • واذا بأجراس الصلاة توقظنى من ذلك التـأمل الحسى ، فتذكرت نصيحة آستاريتا فيما يخص حاجتى الملحة الى مساعدة تلك المراة التعسة رهينة السجن ، فارتديت ثيابى بسرعة وغادرت المنزل •

فى فصل الشتاء عندما يصير النهار قصيرا وعندما ننفق فى البيت الصباح كله والساعات الاولى من الاصيل ونحن فى خلوة معخواطرنا يصبح من الممتع ان نغادر الدار لنجوب الشوارع فى قلب المدينـة حيث تبلغ حركة المرور ذروتها ويبلغ الزحام اشده وتضاء المحـال بأبهى أنوارها ، اذ تثب قلوبنـا فى الهواء النقى البـارد وسـط ضوضاء الحياة فى المدينة وحركتها وبريقها وينقشع الضبـاب عن أذهاننا وتمتلىء نفوسنا بالاثارة الجذلة المبتهجة وبالنشـوة المرحة وكأن مشكلات الحياة جميعا قد حلت فجأة ولم يبق لنا الا أن نتجول وسط الزحام فى مرح وخلو بال قانعين بالانقيـاد لاى احساس عابر يوحى به الى أذهاننـا الخاملة مهرجان الطريق ، وعندئذ يبدو لنا فعلا وكأن جميع ذنوبنا قد غفرت كما تقول الصلاة المسيحية دون أى ثواب او استحقاق من جانبنا بل بفضل أريحيـة كريمة غامضة فحسب ، فلا شك اننا عندئذ نكون فى حالة نفسـبة سعيدة أو راضية على الاقل ، والا فان حياة المدينة قد لا تبث فى نفوسنا سوى احساس حاد بالحركة السخيفة التى لا تهدف الى شيء ، ولـكننى يومئذ كنت سعيدة ولشد ما ازداد ذلك الاحساس عندما اخذت أسير على الافاريز فى قلب المدينة وسط زحام الناس•

كنت أعلم اننى يجب أن أذهب الى الـكنيسة لأعترف ، ولكننى

لم أكن فى عجلة من أمرى بل لم أكن حتى لأفكر فيما سأفعل ربما لعلمي بأن تلك هى غايتى . ولفرحتى بأننى كنت صاحبة ذلك الاقتراح أخذت امشي الهوينى من شارع الى آخر متوقفة بين الحين والحين لألقى نظرة على السلع المعروضة فى واجهات المحال ، ولو أن أحدا رآنى حينذاك لتبادر الى ذهنه بلا ريب اننى اعتزم اقتناص عشيق من الطريق ، ولـكن ذلك فى الواقع كان أبعد ما يكون عن تفكيرى ، فلعلى كنت أتوقف عن المسير لو اعترض طريقى رجل استهوتنى سماته ولكننى ما كنت لافعل ذلك جريا وراء الكسب ، بل مدفوعة اليـه باحساس من السعادة وفيض من الروح المعنوية العالية ، غير اننى لم اجد ما يجذبنى فى ذلك النفر القليل من الرجال الذين ما ان رأونى واقفة فى سكون انظر فى واجهات المحال حتى جاءوا الى بعباراتهم المعهودة وعرضهم لاصطحابى ، فلم احر جوابا بل لم اتطلع حتى الى وجوههم وواصلت طريقى على الافريز مختالة فى خطـــاى البطيئة المعهودة وكأنهم ليس لهم وجود .

وبينما كنت فى تلك الحالة النفسية المرحة الشاردة اذا بمنظر الكنيسة التى ذهبت للاعتراف فيها آخر مرة عقب رحلـــة فيترير يهاجمنى بغتة وعلى غير وعى منى ، فبدت لى واجهة تلك الكنيسة بزخارفها الـكثيرة وهى مغمورة فى الظلام وقد بنيت كستار على طول أحد منحنيات الطريق بمقصـها المرتفع الذى يعلوه ملاكان ينفخان البوق وبما انعكس عليها فى خطوط بنفسجية من أشـعة كانت ترسلها لافتة كهربية مثبتة على أحد المنازل المجاورة. بدت لى تلك الواجهة كوجه أسود مغضن لامرأة عجوز لم يفتأ يشير الى خلسة من خلف وشاح قديم وقد أحاطت به وجوه أخرى لغيرها من المارة أشرقت بالضوء وهى واقفة فى مكانها تحف بها من ناحية لوحات الاعلان عن السينما ومن الناحية الاخرى واجهة محل لملابس الرجال الداخلية وكانت كلتاهما تتألق بالضياء ، وتذكرت معرفى الفرنسي الوسيم ـ الاب ايليا ـ وكيف انجذبت اليه ، وخيل لى انه خير من يقوم بمهمة رد « البدارة » الى صاحبتها لانه كان شابا ذكيا ورجلا دنيويا يختلف من جميع الوجوه عن غيره من الكهنة وفضلا عن ذلك فان الاب ايليا كان يعرفنى من قبل الى حد ما مما سيهون على مهمة اعترافى له بما ارتكبت من آثام كثيرة وهيبة مخجلة كانت روحى ترزح تحت عبئها الثقيل .

وصعدت الدرج ثم نحيت جانبا ذلك الستار الثقيل المسدل على

الباب ودخلت الـكنيسة بعد أن وضعت منديلا على رأسى ، وبينما كنت أغمس أصابعى فى جرن الماء المقدس لفت نظرى منظر محفور حول حافته ، كان يمثل امرأة عارية تطاير شعرها فى الهواء وارتفعت ذراعاها وهى تجرى هاربة من تنين خبيث شرير ذى منقار ببغائى كان يقف كالرجل منتصبا على خلفيتيه ، فبدا لى اننى أتعرف على نفسى فى تلك المرأة وخطر لى اننى أيضا كنت أركض هربا من تنين كهذا الا اننى فى أثناء ذلك السباق الدائرى كنت أحيانا أجدنى متعقبة فى مرح ذلك الوحش القبيح لا هاربة منه .

ثم تحولت عن جرن الماء المقدس الى الـكنيسة راشـمة الصليب على صدرى فبدت لى وكأنه لم يزايلها ما لاحظته فى أول مرة من ظلام وقذارة وفوضى ، كان كل شىء على حاله غارقا فى الظلام فيما عدا الهيكل الرئيسى بكل ما عليه من شموع مشتعلة عن قرب حول الصليب الذى يحمل المسيح وقد اختلط من حوله بريق الشمعدانات النحاسية والاوانى الفضية ، كما أضيئت الانوار فى كنيسة العذراء الصغيرة التى صليت فيها آخر مرة بحماس شديد وبغير طائل . وكان هناك شماسان يقفان على سلمين خشبيين وهما يثبتان على العارضة ستائر حمراء مذهبة الحواشى . وعندما وجـدت كرسى الاعتراف الخاص بالاب ايليـا مشغولا ذهبت لأجثو أمام الهيكل الرئيسى على أحد المقاعد الخيزرانية التى نقلت من مكانها ، ولم يخالجنى شعور ما سوى رغبتى الملحة فى الانتهـاء من موضـوع « البدارة » ، وقد تميزت تلك الرغبة الملحة بطـابع غريب هو احساسى فى قرارة قلبى بالبهجة والاندفاع وتهنئة النفس والزهـو الى حد ما ، ذلك الاحسـاس الذى يراودنا عندما نكون مقدمين على عمل خير ظللنا نتأمله زمنا طويلا . وطالما لاحظت آن مثل هذه الرغبة الملحة التى تنبع من القلب ولا تقبل النصح تنتهى عادة بتشـويه العمل الخير وتضر أكثر مما تنفع على عكس السلوك المخطط المدبر .

وما أن رأيت المعترف ينهض وينصرف حتى توجهت مباشرة الى كرسى الاعتراف حيث ركعت وبدأت أتكلم دون انتظار كلمة يخاطبنى بها معرفى ، قلت : « أبى ايليا ، ما جئت لأعترف بالطريقة المعتادة بل لاحدثك فى أمر خطير للغاية ولأطلب اليك صنيعا لا يساورنى شك فى قبولك القيام به » .

ولقد اغرانى بمواصلة حديثى صوت معرفى الخفيض فى الناحية الاخرى من السياج ، ولشد ما كنت واثقة من وجود الاب ايليا فى

الجانب الآخر حتى كان يخيل لي أنني أرى وجهه الهادىء الوسيم مرتسما على السياج المعتم ذى الثقوب الصغيرة . وعندئذ اذا بى احس لأول مرة منذ دخولى الـكنيسة باندفاع عاطفى من الخشوع والثقة . احسست وكأن روحى قد اندفعت لتتحرر من جسدى وتجثو عارية على الدرج أمام السياج كاشفة عن كل ما فيها من عيوب وأخطاء ، فخيل لى لحظة وكأنى روح بلا جسد - روح حرة طليقة قوامها الهواء والضوء كحالنا بعد الموت كما يقولون ، وكذلك خيل لى أن الاب ايليا بروحه التى لشد ما تفوق روحى نورانيـــه قد تحرر من سجن البدن فأزال السياج والجدران وبدد الظـلام المخيم على كرسى الاعتراف ثم مثل بشخصه أمامى باهرا بصرى ومخففا عنى ، ولعل تلك هى العاطفة التى ينبغي ان نشـــعر بها كلما جئونا للاعتراف ، ولـكننى لم أشعر بها قط بمثل هذه القوة .

وبدأت أتكلم مغمضة العينين وقد أسندت رأسى الى السياج ، ثم رويت له كل شيء ، فحدثته عن مهنتى وعن جينو وآستاريتا وسونزونيو وعن السرقة والقتل ، كما ذكرت له اسمى واسم جينو وآستاريتا وسونزونيو ثم أخبرته بالمكان الذى ارتكبت فيه السرقة ومكان جريمة القتل كما أخبرته بمكان اقامتى ، وكذلك اعطيتــه أوصاف الشخصـيات المختلفة ، ولا أدرى كنه القوة التى كانت تدفعنى أمامها ، ولعلها نفس القوة الدافعة التى تحس بها ربة الدار عندما يصح عزمها نهائيا على تنظيف المنزل بعد فترة طويلة من الاهمال ولا تجد سبيلا الى الراحة حتى تزيل آخـــر ذرة من الغبار وآخر قطعة من الخمل تحت الاثاث او فى زوايا الدار . وفى الواقع فانى كنت أحس وانا اسرد له قصتى بكل تفاصيلها وكأنى أزيح عن قلبى وروحى عبئا ثقيلا ، فراودنى شعور بالخفة والنظافة .

وظللت طوال الوقت أتكلم بنفس النبرات الهادئة المتزنة ، وظل المعرف يصـــــغى الى دون ان يقاطعنى حتى انتهيت من قصتى . وعندما توقفت عن الحديث أعقبت ذلك لحظة من الصـمت ، ثم سمعت صوتا رهيبا بطيئا لينا ومستأنيا يخاطبنى قائلا : « لقـــد حدثتنى يابنيتى عن أشياء فظيعة مخيفة لا يكاد يصدقها العقل ، ولـكنك أحسنت صنعا بمجيئك للاعتراف ، وسأبذل كل ما فى وسعى من أجلك » .

وكانت قد مضت فترة طويلة منذ اعترافى الاول الوحيد فى تلك الـكنيسة ، فكدت أنسى لشدة اضطرابى من جراء اريحيتى الراضية

أحب ميزات الاب ايليـــا الى نفسى ، وهى نطقـــه الفرنسى • فان الـكاهن الذى كان يخاطبنى ثم تميز صوته بلهجة معينة بل كان ايطاليا بلا شك وكان صوته لينا على صورة غريبة كصوت الكثيرين من الكهنة • وفجأة ادركت الخطأ الذى وقعت فيه فسرت فى بدنى قشعريرة باردة ، وكأنى قد مددت يدى لالتقاط زهرة جميلة فاذا بأناملى تلمس حراشف حية ثلجية مرتجفة • وكان مما شدد من وقع المفـاجأة البغيضـة على حين واجهت معرفا لا انتظـره ذلك الاحسـاس بالرعب الذى أثاره فى نفسى صوته العميق الموعز .

فتلعثمت قائلة فى مشقة : « هل انت حقا الاب آيليا ؟ »

فأجابنى الـكاهن المجهول قائلا : « هو نفسه شخصيا ، لماذا ؟ هل جئت هنا من قبل ؟ » فقلت : « مرة واحدة » .

فسكت الـكاهن لحظة ثم قال : « ان كل ما قلته لى يتطلب التأمل فيه نقطة نقطة . فأنت لم تروى لى شيئا واحدا ، بل أشياء كثيرة بعضها يخصك وبعضها يخص غيرك من الناس . أما فيما يخصك ، فهل تدركين ان ذنبك جسيم ؟ » .

فتمتمت قائلة : « نعم .. أدرك ذلك » .

– « وهل انت نادمة ؟ »

– « هذا هو اعتقادى • »

فبدأ يتكلم بصوت أبوى مؤتمن خفيض : « لو كنت مخلصة فى ندمك فهناك بلا شك أمل فى المغفرة ، ولـكن الامر لسوء الحظ لا يخصك وحدك ، بل هناك الآخرون جميعا بجرائمهم وخطاياهم • فقد اطلعت على تفاصيل جريمة شنيعة قتـل فيها رجل بطريقة مروعة ، أفلا تشعرين فى قرارة قلبك بدافع للـكشف عن اسم المجرم وحمله على الوقوف أمام العدالة ؟ » .

كان يقترح على بهذه الطريقة أن أشى بسونزونيو ، ولا أزعم انه أخطأ فى ذلك بوصفه كاهنا ، ولـكن اقتراحه على فى مثل ذلك الوقت بصوته الموعز لم يكن له من أثر سوى زيادة شكوكى ومخاوفى ، فتلعثمت قائلة : « لو اعترفت على القـاتل لأودعت السجن انا نفسى » •

فجاء جوابه على الفور قائلا : « ان الناس كالاله نفسه قادرون على فهم تضحيتك وندمك ، والقانون يكفل العقاب كما يكفل العفو. ولـكنك فى مقابل شىء من العذاب تساعدين على اقرار العدالة من جديد بعد اختلال ميزانها على صورة بغيضة • يا بنيتى الا تسمعين

بصوت الحنون عليه وهو يلتمس الرحمة من قاتله فى غير طائل » .

وهكذا ظل يعظنى فى رضا عن نفسه وهو ينتقى الفاظه بعناية من بين العبارات التقليدية الملائمة لوظيفته ككاهن ، ولـكننى لم اكن أحس الا بالرغبة فى الهرب حتى كاد ينتابنى الجنون .

فقلت : « سأفكر فى الابلاغ عنه وسأعود غدا لأخبرك بما قررت ، فهل أجدك هنا ؟ »

— « بالتأكيد فى أى وقت . »

فأجبته قائلة فى لهجة مذهولة : « حسنا ، كل ما أطلبه اليك مؤقتا هو تسليم هذه « البدارة » ثم توقفت عن الـكلام ، وما ان سألنى مرة أخرى بعد صلاة قصيرة عما اذا كنت نادمة حقا وعما اذا كنت قد وطنت النفس على تغيير طريقـة حيـاتى حتى منحنى الغفران ، ورشمت الصليب على صدرى ثم غادرت كرسى الاعتراف ففتح بابه فى نفس الوقت ووقف أمامى ، وما ان وقع بصرى عليه حتى تضاعفت جميع مخاوفى التى أثارها صوته فى نفسى . كان قصير القامة ذا راس ضخم يميل جانبا وكأنه يشكو من تصلب فى عنقه . ولم يتسع وقتى لافحصه بدقة فلشد ما كان يملؤنى رعبا ، ولشـد ما تعجلت الرحيل لأجرى بعيدا ، ولقد لمحت وجهه الاصفر المائل الى السمرة وجبهته العالية وعينيه الغائرتين فى محجريهما وانفه الافطس الذى اتسع منخراه وفمه الواسع الذى لا شكل له وشفتيه الحمراوين المتعرجتين . أما عن السن فلا يمكن أن يكون طاعنا فيه لانه كان سرمديا . عقد يديه على صدره وطأطأ رأسه ثم خـاطبنى قائلا بلهجة صادقة : « ولـكن لم لم تأتى الى قبل ذلك يابنيتى العزيزة ؟ لم ؟ فكم كان ذلك يجنبك كثيرا من الفظائع ؟ » .

وأردت أن أعبر له عن اعتقادى وهو ان هذه هى ارادة الله ولكننى كبحت جماح نفسى ثم اخرجت « البـــدارة » من حقيبتى وناولته اياها قائلة فى حزم : « ارجو ان تسرع قدر امكانك ، فلا يمكننى أن أصف لك مدى حزنى عندما يخطر لى ان تلك المرأة التعسـة رهينة السجن بسببى » .

فأجابنى قائلا وهو يضم « البدارة » الى صدره ويهز راسـه مسترحما مستغفرا : « انى ذاهب اليوم » .

فشكرته بصوت خفيض وما كدت أومىء له برأسى حتى غادرت الـكنيسة بأقصى سرعة ممكنة ، وظل واقفا فى مكانه بجانب كرسى الاعتراف شابكا يديه على صدره وهو لا يفتأ يهز رأسه .

وعندما عدت فى أمان الى الطريق حاولت أن أتأمل ما حدث فى هدوء فاذا بى أدرك الآن وقد زايلتنى مخاوفى الاولى المختلطة أن ما كانت أخشاه أكثر من أى شيء آخر هو أن يفشى الكاهن سر الاعتراف . وحاولت اكتشاف أسباب تلك الوساوس . فقد كنت أعلم كما يعلم الجميع ان الاعتراف سر مقدس ولذا فانه لا يجوز افشاؤه . كما كنت أعلم انه من المحال على أى كاهن مهما بلغ فساده أن يفشي هذا السر . ولكن نصحه اياى بابلاغ الشرطة عن سونزونيو جعلنى أخشى أن يأخذ على عاتقه مهمة الكشف عن اسم الجانى فى جريمة فيابالسترو . وكان صوته ومظهره يسببان لى أشد المخاوف كما اننى ممن تغلب عليهم العاطفة أكثر من العقل والمنطق وتنبئنى غريزتى بدنو الخطر كما هى الحال مع بعض الحيوانات. فكانت جميع الاسباب التى رتبها عقلى لادخال الطمأنينة على نفسى لا تقوى على الوقوف أمام احساسى الباطنى الذى لم يكن يستند الى عقل أو منطق . وحدثت نفسى قائلة : « لا شك ان سر الاعتراف لا يمكن نقضه . ولكن ذلك الكاهن لن يمنعه شيء من الوشاية بسونزونيو وبالآخرين جميعا » .

وثمة شيء آخر ساعد على احساسى بأن كارثة ما وشيكة الوقوع ذلك هو حلول المعرف الثانى محل الاول . فمن الواضح ان الكاهن الفرنسى لم يكن هو الاب ايليا مع انه أصغى الى فى كرسى الاعتراف الذى يحمل ذلك الاسم . اذن فمن هو ذلك الكاهن ؟ وشعرت بالاسف لاننى لم أسأل الاب ايليا الحقيقى عن أخباره . ولكننى خشيت أن يقول لى انه لا يدرى شيئا عنه مما يؤكد تلك الشخصية الوهمية التى تميز بها ذلك الكاهن الشاب فى نظرى . فلا شك انه كان يتميز بشيء وهمى ويرجع ذلك الى الفارق الكبير بينه وبين غيره من الكهنة والى الطريقة التى ظهر بها فى حياتى ثم اختفى . وفى الواقع فانى قد بدأت أشك فيما اذا كنت قد رأيته على الاطلاق أو الاحرى فيما اذا كنت قد رأيته قط بدمه ولحمه . وخيل لى اننى ربما كنت أهذى لاننى اكتشفت الآن انه كان بلا ريب يشبه المسيح نفسه كما يظهر فى الصور الزيتية المقدسة . ولكن ان صح ذلك وكان المسيح نفسه هو الذى ظهر لى فى ساعة محنتى وسمع اعترافى فان حلول ذلك القس القبيح المنفر الذى رأيته منذ قليل محله انما هو فأل سيىء بلا شك ومعناه ان لم تكن هناك معان أخرى ان الدين قد تخلى عنى وأنا أمر بأسوأ محنة روحية . وكان

www.library4arab.com/vb

ذلك أشبه بفتح خزانة تحوى قطعا من العملة الذهبية بغية الحصول

عليها لمواجهة حاجة ملحة فاذا بها خاوية الا من الغبار والعناكب وقذر الفئران .

وعدت الى المنزل يحدوني الانطباع بأن اعتراف لابد أن يتمخض عن كارثة ما فذهبت مباشرة الى فراشي دون أن اتناول عشائى وانا مقتنعة بأنها آخر ليلة اقضيها فى المنزل قبـل القاء القبض على . ولـكنني يجب أن أعترف بأنني الآن لم أعد خائفة مطلقا ولم تكن بى رغبة في تجنب مصيرى . فان لحظة الرعب الاولى التى ربما كانت ترجع الى ضعف الاعصاب وهو ما يشترك فيه جميع النساء تقريبا قد أعقبها تصميم على قبول مصيرى المحـــدق بى ـ لم يكن استسلاما فحسب بل شيئا اكثر من ذلك . فقد راودنى فى الواقع نوع من المتعة الشهوانية باستسلامى للسقوط الى اعمـــاق مرحلة خيل لى انها آخر مراحل اليأس . وقد اشعرنى عظم الـكارثة بنوع من الحصانة . فقد رآقنى الى حد ما اعتقادى ان ما حدث لى لا يمكن أن يفوقه مكروه سوى الموت الذى لم أعد أخشاه .

ولـكننى فى اليوم التالى ظللت انتظر عبثا ما كنت أتوقعه من زيارة الشرطة . فمضى اليوم بطوله واليوم التالى دون أن يحدث شىء يبرر مخاوفى . وكنت فى أثناء تلك الفترة كلها لا اغادر المنزل قط ولا حتى غرفتى . ولم البث أن مللت التفكير فيما قد يتمخض عنه تهورى من نتائج . وعاد بى تفكيرى الى جياكومو فأحسست بحنين الى رؤيته مرة أخرى على الاقل قبل أن ينالنى شىء من وشاية القس التى لا مناص منها . فنهضت من فراشى فى اليوم الثالث قرابة المســاء وارتديت ملابسى بعناية ثم غادرت المنزل .

كنت أعرف عنوان جياكومو فاســتغرق منى الذهاب الى منزله عشرين دقيقة . ولـكننى عندما أوشكت على الدخول من البـاب الرئيسى تذكرت اننى لم انذره بمجيئى فأحسست فجأة بالخجل . وخشيت ان يضيق بزيارتى فيطردنى . واذا بخطـاى المهرولة فى اشتياق يبطؤ سيرها ثم توقفت خارج أحد المحال وقد ملأ الحزن قلبى فأخذت أسأل نفسى ان كان من الاجـــــدر بى ان اعود الى

منزلى حيث انتظره الى ان ينضج عزمه على زيارتى وادركت انه ينبغى على وخاصة فى بدء علاقتنا أن أتذرع بالدهاء والحذر الشديدين وأن اخفى عنه تماما تعلقى به وعدم امكانى الحياة بدونه . ولـكن لشد ما بدا انصرافى اليما مريرا لما كنت اعانيه من قلق بسبب اعترافى وحاجتى الى رؤيته لأبعد عن ذهنى ما يؤرقه . ووقع بصرى على

واجهة المحل الذى كنت اقف أمامه فاذا بها مملوءة بالقمصان واربطة العنق فتذكرت فجأة انني كنت قد وعدته بشراء رباط عنق جديد ليحل محل ذلك الرباط البالى . ان الناس حين يأسرهم الهــوى تتوقف عقولهم عن التفكير بالطريقة الصحيحة . فقلت لنفسى اننى أستطيع أن اتخذ من الهدية ذريعة لزيارته دون أن أدرى ان الهدية نفسها تؤكد طبيعة شعورى نحوه بالنقص والشوق . فدخلت المحل وبعد أن ترددت قليلا فى اختيارى اشتريت رباطا رماديا ذا خطوط حمراء وكان أجمل الاربطة جميعا وأغلاها ثمنا . وسألنى الرجل من خلف منضدة البيع فى مجاملة خالية من الحذر الى حد ما على طريقة الباعة الذين يعتقدون انه يمكنهم التأثير في عملائهم ــ ســألنى ان كان الرباط لرجل أشقر أم أسمر فأجبته ببطء قائلة : « انه أسمر اللون » . وأدركت اننى نطقت كلمة « أسمر » بلهجة رقيقة مدغدغة فاحمر وجهى خجلا عندما خيل لى ان البائع ربما لاحظ ذلك .

وكانت الارملة مدولاجى تسكن الطابق الرابع فى قصر معتم قديم تطل نوافذه على جسر التيبر . فصعدت ثمانى مراحل من الدرج ثم دققت جرس باب مختف فى الظلام دون أن أنتظر حتى اســترد انفاسى . وفتح الباب فى الحال تقريبا ثم ظهر جياكومو نفسه على عتبة الباب . فهتف قائلا فى دهشة : « أوه أأنت الطارقة ؟ » كان من الواضح انه يتوقع شخصا ما .

« أيمكننى الدخول ؟ »

ــ « بالطبع .. تعالى من هذا الطريق . »

ثم قادنى الى غرفة الجلوس مجتازا الردهة المعتمة . وهناك كان الظلام سائدا أيضا لان النوافذ كانت بها الواح صــفيرة مستديرة حمراء من الرصاص كنوافذ الــكنيسة . ولمحت كمية من الاثاث الاسود المطعم بالصدف . فكانت تقوم فى وســط الغرفة منضــدة مستديرة تعلوها قنينة من البللور الازرق ذات الشكل القديم . كما كانت هناك سجاجيد كثيرة وبساط ابيض بال من جلد الدب . كان القدم يسود كل شيء ولكن فى نظافة ونظام وحسن صيانة ، وهو طي ذلك الصمت العميق الذى كان من الواضح انه يكتنف المنزل منــذ عهد لا تعيه الذاكرة فاتجهت الى اريكة فى الطرف الآخر من الغرفة حيث جلست وسألته قائلة : «أكنت تتوقع زيارة شخص ما ؟ »

ــ « كلا . ولكن لماذا جئت ؟ » ولا يفوتنى أن أقول أن الفاظه كانت

خلوا من الترحيب الحار . ولكنه لم يبد غاضبا بل مندهشا فحسب .

فابتسمت قائلة : « جئت فقط لاطمئن عليك فانى أعتقد ان هذه آخر مرة نلتقى فيها » .

— « لماذا ؟ »

— « لاننى واثقة انهم قادمون غداً على الاكثر ليقتادونى الى السجن »

— « الى السجن ؟ ماذا تعنين بحق الشيطان ؟ »

وتغير صوته وتعبير وجهه . فأدركت انه كان خائفا على نفسه . فلعله ظن أننى وشيت به أو عرضته للخطر على صورة ما باطلاع شخص ما على نشاطه السياسى . فابتسمت مرة أخرى قائلة :

— « لا تقلق ٠٠ فالامر لا يمسك على الاطلاق ٠ »

فأسرع بالاجابة قائلا : « كلا ، كلا ، ولكننى لا استطيع ان أفهم ماذا حدث ٠ هذا هو كل ما هناك ٠ لماذا يزج بك فى السجن ؟ »

فقلت مشيرة الى الاريكة المجاورة لى : « اغلق الباب وتعال لتجلس هنا » .

فذهب ليغلق الباب ثم جاء ليجلس بجانبى . وعندئذ رويت له فى هدوء تام القصة الحقيقية « للبدارة » بما فى ذلك اعترافى . فأصغى الى حانى الرأس دون أن ينظر الى وهو لا يفتأ يقضم أظافره وكانت تلك الحركة تدل دائما على اهتمامه ٠ ثم اختتمت حديثى قائلة :

— « وانى واثقة من أن ذلك الكاهن سيدبر لى حيلة قذرة ٠٠ ما رأيك ؟ »

فهز رأسه وتكلم دون ان ينظر الى بل الى الالواح الرصاصية فى النوافذ قائلا : « انه لا ينبغى أن يفعل ذلك . بل انى فى الواقع لا أحسبه يفعل ذلك ٠ فلا يمكنك أن تقولى هذا لمجرد انك لم تعجبى بطلعته » ٠

فقاطعته فى حماس قائلة : « ولكنك كان يجب أن تراه ! »

فأضاف قائلا وهو يضحك : « قد يكون قبيح الصورة ولكن هذا لا يبرر اتهامك اياه بأنه سيرتكب مثل هذه الفعلة ! ومع ذلك فكل شيء محتمل بالطبع » .

« اذن فأنت ترى أنه لا داعى للخوف ٠ »

« نعم ٠ ولما كنت لا تستطيعين شيئا فأولى بك ألا تخافى ٠ فالامر لا يتوقف عليك ٠ »

« ياله من منطق ظريف ! ان الناس يخافون لانهم يخافون ،

فهذا الشعور اقوى من ارادة الانسان • »

واذا به فجأة يأتى حركة من حركاته العاطفية • فقد وضع يديه على عنقى ثم أخذ يضحك وهو يهزنى هزة خفيفة قائلا : « ومع ذلك فانك لست خائفة . أليس كذلك ؟ »

« بل أؤكد لك أننى خائفة • »

« انك لست خائفة • فأنت امرأة شجاعة ! »

« أؤكد لك أن الرعب قد انتابنى ! فقد أويت الى فراشى ولم اتحرك منه لمدة يومين • »

« نعم • ولكنك جئت لزيارتى وابلاغى كل شىء فى هدوء تام انك لا تعرفين الخوف • »

فسألته قائلة وأنا أبتسم على الرغم منى : « ماذا كان ينبغى أن افعل ؟ انى لا أستطيع أن أصرخ من الرعب ! »

— « انك لست خائفة • »

ثم أعقبت ذلك لحظة من الصمت . وفجأة سألنى قائلا بلهجة غريبة أدهشتنى : « وماذا عن صديقك هذا — فلندعه صديقك ! — سونزونيو ؟ .. أى صنف من الرجال هو ؟ »

فأجبت قائلة فى غموض : « كغيره من الكثيرين » . وعندئذ لم يخطر ببالى شىء بالذات اذكره عن سونزونيو .

« ولكنه كيف يبدو ؟ صفيه لى • »

فسألته قائلة وأنا أضحك : « لماذا ؟ أتريد القبض عليه ؟ لو فعلت فتذكر أننى سأودع السجن أنا أيضا ! » وأضفت قائلة : « انه أشقر قصير القامة عريض المنكبين ذو وجه شاحب وعينين زرقاوين وفى الواقع ليس ثمة ما يميزه بصفة خاصة . ولكن الشىء الوحيد البارز فيه هو قوته الهائلة » .

— « قوته ؟ »

— « ان منظره لا ينبئك بشىء من ذلك • ولكن ذراعه كالحديد اذا ما لمستها • »

وعندما رأيت اهتمامه رويت له ما حدث بينه وبين جينو • فلم يعلق بشىء ولكنه قال فى النهاية : « اذن فانت تعتقدين ان جريمة سونزونيو كانت مدبرة . اعنى أنه فكر فى جميع تفاصيلها ثم ارتكبها فى هدوء وبغير انفعال » .

فاجبته قائلة : « كلا مطلقا ! فهو لا يخطط شيئا البتة. ولعله لم يكن يحلم بما فعله مع جينو قبل أن يطرحه أرضا بلحظة واحدة.

ولا ريب أن ذلك هو ما حدث مع الصائغ أيضا » .

— « اذن فلماذا فعل ذلك ؟! »

— « لانه ! لانه شيء أقوى من ارادته .. كالوحش المفترس تراه فى لحظة هادئا وفى اللحظة التالية يخمشك بمخلبه . ولا يعلم أحد السبب فى ذلك . » ثم رويت له قصة علاقتى بسونزونيو بأسرها وكيف انه ضربنى وهددنى بالقتل فى الظلام . واختتمت حديثى قائلة : « انه لا يفكر مطلقا . بل تراه فى لحظة معينة وقد استبدت به قوة أقوى من ارادته ، وعندئذ يكون الابتعاد عنه هو خير ما تفعل! وانى واثقة انه ذهب الى الصائغ ليبيعه « البدارة » . فلما أهانه قتله » .

— « اذن فهو وحش ضار . »

فأضفت قائلة وانا أحاول أن أعرف فى ذهنى ذلك الشعور الذى بثه فى نفسى جنون القتل عند سونزونيو : « سمه ما شئت . فلا ريب انها قوة كتلك التى تدفعنى الى حبك . فلماذا أحبك ؟ علم ذلك عند ربى . ولماذا يحس سونزونيو بالدافع للقتل ؟ ذلك أيضا لايعلمه الا الله . ولا أعتقد ان هناك تفسيرا لمثل هذه الامور » .

ففكر قليلا ثم رفع راسه قائلا : « اى دافع تحسبيننى أحس نحوك ؟ أتحسبيننى أحس بأى دافع لحبك ؟ » .

ولشد ما خشيت أن أسمعه يقول انه لا يحبنى . فكممت فمه بيدى وتوسلت اليه قائلة : « أرجو الا تخبرنى بشيء عن شعورك نحوى » .

— « ولم لا ؟ »

— « لانه لا يعنينى أن أعلم .. فأنا لا أعرف شعورك نحوى ولا أريد أن اعرفه .. بل حسبى حبى اياك . »

فهز راسه قائلا : « من سوء حظك أن تتعلقى بى ، فقد كان ينبغى ان تحبى رجلا كسونزونيو » .

فدهشت حقا لذلك وقلت له : « ماذا تعنى بحق السماء ؟ كيف أحب مجرما كهذا ؟ »

— « ولنفرض أنه مجرم ولكنه يملك الدوافع التى ذكرتها . فانى واثق ان سونزونيو كما يملك الدافع للقتل كذلك يملك الدافع للحب فى بساطة تامة ودون تعقيد . أما أنا — »

ولكننى منعته من الاستطراد فى حديثه قائلة فى احتجاج : « لا يمكنك أن تقارن بينك وبين سونزونيو . فأنت ما أنت . أما هو

فمجرم ووحش . وعلى أية حال فليس صحيحا انه يملك الدافع للحب .. فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يحب . اذ ان الامر فى نظره لا يعدو أن يكون اشباعا لحواسه . وسواء لديه لو كنت انا او أية امرأة أخرى » .

فلم يبد عليه الاقتناع ولكنه لزم الصمت . فانتهزت الفرصة ودسست أصابعى تحت ردن قميصه فوق معصمه محاولة ان ابلغ ذراعه وقلت : « مينو » .

فرأيته يجفل قائلا . « لماذا تدعينني مينو ؟ »

– « انه اختصار لجياكومو . ألا يمكنني ذلك ؟ » .

– كلا ، كلا ، فهذا لا يهم . بل يمكنك ذلك بالطبع . ولكنهم هكذا يدعونني فى أسرتى . هذا هو كل ما هنالك .

فسألته قائلة وأنا أطلق سراح معصمه وأدس يدى تحت رباط عنقه مارة بأناملى على صدره العارى بين حافتى قميصه : « أهكذا تدعوك أمك ؟ »

فقال فى ضجر : « نعم . هكذا تدعونى أمى » ثم اردف قائلا بلهجة جمعت بين السخرية والاحتقار : « كما انك لا تحاكين امى فى ذلك فحسب بل انك فى قرارة قلبك تشاركينها آراءها فى كل شيء »

فسألته قائلة : فيم ؟ أعطنى مثلا . ؟ » وعندئذ كنت فى حال من الاضطراب فلم أكد اسمع ماذا يقول . وكنت قد فككت عرى قميصه محاولة أن أبلغ بيدى كتفه الجميلة اليافعة .

فأجابني قائلا : « فى هذا مثلا . عندما قلت لك اننى اشتغل بالسياسة هتفت قائلة فى الحال بلهجة مذعورة : « ولكن هذا غير مشروع ! هذا خطير ! » ذلك هو بالضبط ما كانت تقوله أمى وبنفس اللهجة . »

ولقد أرضى كبريائى أن احاكى أمه أولا لانها أمه وثانيا لعلمى بأنها سيدة محترمة فقلت فى رقة : « يا لك من فتى سخيف ! وما الضرر فى ذلك ؟ فهو يعنى ان أمك تحبك كما أحبك . فلا شك مطلقا فى خطورة العمل بالسياسة . ان شابا أعرفه قبض عليه وأودع السجن حيث أمضى الآن سنتين . وما الجدوى من ذلك ؟ فهم الجانب الأقوى على أية حال . وما ان تفعل شيئا حتى يودعوك السجن .. ورأيى أنك تستطيع أن تشق طريقك بنجاح بعيدا عن السياسة » .

فهتف قائلا فى سخرية مرحة : « ما أشبهك بأمي ! فهكذا تتحدث بالضبط » .

فأجبته قائلة : « لست أدرى ما الذى تقوله أمك . ولكننى واثقة من ان كل ما تقوله فى مصلحتك . اذ يجب عليك أن تتخلى عن السياسة . فهى ليست مهنتك . انك طالب والطالب عمله الدراسة والتحصيل » .

فتمتم قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ادرس وفز بدرجتك ثم كون لنفسك مركزا » .

ولكننى لم أحر جوابا بل تطلعت اليه بوجهى مقدمة اليه شفتي. فتبادلنا قبلة ثم افترقنا . فبدا آسفا ونظر الى نظرة عدائية معذبة. فخشيت أن أكون قد ضايقته بقبلتى التى قطعت عليه انفجاره السياسى . فأردفت قائلة بسرعة : « ومع ذلك فلتفعل ما تشاء . فلا دخل لى فى شئونك . وفى الواقع فانى ما دمت هنا فيمكنك اعطائى ذلك الطرد لاخفيه لك كما اتفقنا » .

فأسرع قائلا : « كلا ، كلا ، كلا مطلقا — فلن يجدى ذلك مع صداقتك بآستاريتا — فلنفرض انه اكتشف الامر ؟ »

— « لماذا ؟ وهل آستاريتا على هذا القدر من الخطورة ؟ »

فأجابنى قائلا فى حزم : « انه من الد أعدائنا » .

فأحسست برغبة مشاكسة فى جرح كبريائه لا عن حقد بل عن شعور يقارب العطف والحب .. فقلت فى رقة : « فى الواقع انك لم تقصد حقا أن تعطينى ذلك الطرد » .

— « اذن فلماذا ذكرته لك ؟ »

— « لانك — ولكن اياك ان يغضبك ذلك الآن — فانى أعتقد أنك ذكرته لى اعلاء لشأنك فى نظرى ، حتى أرى أنك تأتى أعمالا خطرة محرمة فى حزم حقيقى . »

فاستشاط غضبا وادركت اننى أصبته فى الصميم . اذ قال : « يا له من هراء ! انك فتاة سخيفة حقا » ثم سألنى قائلا فى حرج وقد عاوده الهدوء فجأة : « ولكن ما الذى يجعلك تعتقدين ذلك ؟ »

فأجبته قائلة بابتسامة : « لست أدرى . انه اسلوبك فى مجموعه . ولعلك لا تلحظ ذلك أنت نفسك . ولكنك لا توحى مطلقا بأنك تعنى حقا ما تقول » .

فأتى حركة غريبة وكأنه ينتقد نفسه قائلا : « ومع ذلك فانه امر

خطير للغاية .. » ثم نهض واقفا وهو يمد ذراعيه النحيلتين مبتدئا فى تلاوة الشعر بصوت كاذب مصطنع ومشددا على مخارج الفاظه قائلا :

« سيفى .. الى بسيفى ! »
« فأنا وحدى المقاتل وأنا وحدى القتيل . »

ولشد ما كان مضحكا وهو يلوح بذراعيه هنا وهناك حتى كاد يبدو كالاراجوز .

وسألته قائلة : « ما معنى هذا ؟ »

فأجاب : « لا شيء . انه بيت مقتبس من قصيدة » . واذا بحماسه يهدأ فجأة ثم يستسلم لحالة غريبة من الكآبة والتفكير . فعاود جلسته وأردف قائلا فى حزم : « .. ومع ذلك ـ فانى جاد للغاية فى كل ما اضطلع به حتى أننى أتمنى حقا أن يقبض على . وعندئذ سيرى الجميع ان كنت جادا أم لا » .

فلم افه بكلمة بل ضممت وجهه بين راحتى واخذت اربت عليه قائلة : « ما أجمل عينيك ! » ولقد صدقت . فان جمال عينيه النجلاوين الرقيقتين بتعبيرهما البرىء كان خارجا عن المألوف حقا ، وعراه الاضطراب لقولى وأخـــذ ذقنه يرتعش . فتمتمت قائلة : « لم لا ندخل غرفتك ؟ »

ـ « هذا محال ـ فهى مجاورة لغرفة الارملة ـ وهى لا تغادرها طوال النهار وقد فتح بابها لتراقب من خلاله الدهليز . »

ـ « اذن فلنذهب الى شقتى . »

ـ « لقد تأخر الوقت . ومسكنك بعيد للغاية . كما أننى أتوقع أن يزورنى بعض الاصدقاء بعد قليل . »

ـ « هنا اذن . »

ـ « لقد جننت ! »

فأصررت قائلة : « انت تعنى انك خائف ! فأنت لا تخشى أن يكون لك نشاط سياسى ـ أو هكذا تزعم على الاقل ـ ولكنك تخشى أن تضبط فى غرفة الجلوس مع المرأة التى تحبك . وعلى اية حال فماذا يمكن أن يحدث ؟ ربما طرقت الارملة وعندئذ تضطر الى البحث عن غرفة أخرى » .

كنت أعلم اننى لو جعلت الامر مسألة كرامة أمكننى أن أنال منه كل ما أريد . وفى الواقع فقد بدا لى مقتنعا . فلا ريب أنـــه كان يشعر بنفس الرغبة القوية التى أشعر بها . اذ انه ردد كلامه قائلا:

« لقد جننت ! فلعل طردى من هنا يضايقنى أكثر من القبض علي . وفضلا عن ذلك فأين يمكننا ان نرقد ؟ » فقلت فى رقة ورغبة : « لنفترش الارض هيا . سأريك » . وكان يبدو الآن فى حالة لا تسمح له بالكلام . فنهضت من فوق الاريكة وتمددت فى بطء على الارض التى فرشت بالسجاجيد وقد توسطت الغرفة المائدة التى تحمل القنينة . تمددت على السجاجيد واضعة رأسى وصدرى أسفل المائدة ثم جذبت مينو من ذراعه وأرغمته على أن يرقد فوقى . وما ان ألقيت برأسى الى الخلف مغمضة العينين حتى بدت لى رائحة الغبار القديمة وخمل السجاد كالنشوة الخلابة فأحسست وكأننى أفترش حقلا فى الربيع يتضوع منه أريج الزهور والعشب لا رائحة الصوف القذر . رقد مينو فوقى فأشعرنى ثقله بصلابة الواح الخشب من تحتى . وكان شعورا ممتعا . فقد أسعدنى انه لم يكن يحس بها وان جسدى كان مضجعه ثم احسست به وهو يقبل عنقى ووجنتى فامتلأت نفسى فرحا لانه لم يفعل ذلك قط من قبل . فتحت عينى وكان رأسى فى وضع جانبى مما جعل احدى وجنتى تحتك بصوف السجادة الخشن وأمكننى أن أرى فيما وراء السجادة مساحة واسعة من الارضية الموزايكو المصقولة بالشمع وكذلك الجزء السفلى من الباب المزدوج ذى الزمبرك فيما وراء ذلك . فأطلقت تنهدة عميقة واغمضت عينى مرة اخرى .

وبادر مينو بالنهوض ولكننى مكثت بعض الوقت حيث تركنى مضطجعة على ظهرى وذراعى على وجهى بينما انفرجت ساقاى وشاعت الفوضى فى ثيابى . احسست بالسعادة وفراغ الذهن حتى خيل لى انه كان يمكننى أن أمكث هناك ساعات بطولها مستمتعة بصلابة الارضية تحت جسدى ورائحة الغبار والخمل فى منخرى . ولعلى استغرقت لحظة فى اغفاءة خفيفة سريعة حيث تراءى لى اننى كنت حقا فى مرعى مزهر من تحتى العشب ومن فوقى سماء مشمسة بدلا من المنضدة . ولا ريب ان مينو قد تبادر الى ذهنه اننى مريضة لانى احسست به فجأة وهو يهزنى قائلا فى صوت خافت : « ماذا دهاك ؟ ماذا تفعلين ؟ انهضى بسرعة ! »

وأبعدت ذراعى عن وجهى فى مشقة ثم خرجت فى بطء من تحت المائدة ونهضت واقفة . كنت أشعر بالسعادة وقد أشرق وجهى بابتسامة . وراح مينو ينظر الى فى صمت مستندا بظهره الى « البوفيه » وهو لايزال يلهث بينما ارتسم على وجهه تعبير ينبىء

بالعداء والحيرة واخيرا قال : « انا لا اريد مطلقا أن اراك مرة أخرى »
وفي نفس الوقت ارتجف جسده المحنى رجفة غريبة لا ارادية وكأنه دمية انفصم فيها فجأة احد لوالبها .

فابتسمت قائلة : « لماذا ؟ فكلانا يحب الآخر — ولسوف نلتقى مرة أخرى ». ثم اتجهت نحوه لادغدغه ولكنه أشاح بعيدا بوجهه الابيض الحزين مرددا : « انا لا اريد مطلقا أن اراك مرة أخرى »

وقد ادركت ان عداءه لى كان يرجع بصفة رئيسية الى تأنيب ضميره بسبب استسلامه لى . فانه لم يستسلم قط لممارسة الحب معى دون أن يراوده شعور بالكره والاسف العميق . وكان حاله أشبه بمن يقرر أن يفعل شيئا على غير رغبته ويعلم انه لاينبغى ان يفعله . ولكننى كنت واثقة ان سخطه لن يلبث أن يزول وان رغبته فى — مهما قاومها وكرهها — لن تفتأ ان تكون فى النهاية أقوى من حنينه الغريب الى العفة والطهارة . فلم أعبأ بما قال وما ان تذكرت رباط العنق الذى اشتريته له حتى اتجهت الى الرف حيث وضعت قفازى وحقيبتى .

ثم قلت : « والآن هدىء من روعك . فلا تغضب الى هذا الحد ! انى لن أحضر الى هنا مرة أخرى . ايكفيك ذلك ؟ »

فلم يحر جوابا . وعندئذ فتح الباب بعنف . واذا بزائرين يدخلان الحجرة تقودهما خادمة غرفة الاستقبال وهى امراة نصف . فقال الاول فى صوت عميق أجش : « مرحى يا جياكومو » .

فأدركت انهما لابد أن يكونا من زملائه السياسيين وتأملتهما فى فضول . وكان المتحدث عملاقا — ذا قامة اطول من قامة مينو ومنكبين عريضين يبدو كالملاكم المحترف . وكان أشقر الشعر اشعثه ذا عينين زرقاوين وانف أفطس وفم عديم الشكل . ولكن تعبير وجهه كان صريحا مستحيا فيه مزيج جذاب من الحياء والبساطة . وكان رغم الشتاء لايرتدى معطفا بل يلبس تحت سترته دراعة بيضاء تبرز مظهره الرياضى . وقد لفتت نظرى فى الحال يداه الحمراوان بمعصميهما الغليظين اللذين كانا يبرزان من ردنى دراعته وقد طويا الى أعلى . ولا ريب انه كان صغير السن للغاية . فربما كان فى مثل سن جياكومو تقريبا . اما الرجل الآخر فكان يناهز الاربعين من العمر . وكان ملبسه ومظهره يدلان على شخص ينتمى الى الطبقات المتوسطة على عكس رفيقه الذى كان من الواضح انه عامل او فلاح . وكان قصير القامة يبدو ضئيلا الى جانب صديقه . كما كان شديد السمرة

تحجب وجهه نظارة كبيرة صنع اطارها من الباغة . وكان يطل من تحت منظاره انف انطس واسع اشبه بشق يمتد من احدى اذنيه الى الاخرى . وكانت وجنتاه النحيلتان غير الحليقتين وياقته البالية وحلته المبرقشة ذات الثنايا التى أخذ هيكله الضئيل التعس يرفل فيها مسترخيا وكذلك كل شيء فيه يوحى بالاهمال الوقح المتعمد والفقر الراضى . ولقد ادهشنى فى الواقع مظهر هذين الرجلين ذلك لان مينو كان لا يفتأ يتميز بنوع من الاناقة المهملة وكانت هناك دلائل كثيرة تبين انه ينتمى الى طبقة اجتماعية تختلف عن طبقتهم . ولو اننى لو لم أرهما وهما يحييان مينو ولو لم أر مينو وهو يرد تحيتهما لما تصورت أن يكونا صديقيه . ولكننى بالغريزة احسست بميل نحو الشاب الطويل . اما الرجل القصير فقد كرهته .

وقال الشاب الطويل يسأل بابتسامة مرتبكة : « لعلنا جئنا قبل الموعد ؟ »

فقال مينو مستجمعا شجاعته : « كلا .. كلا »

كان ذاهلا وبدا انه يجد بعض المشقة فى استعادة هدوئه ثم قال : « بل وصلتما فى الموعد المحدد تماما » .

فقال الرجل القصير وهو يفرك يديه : « المواظبة من ادب الملوك» وفجأة انفجر ضاحكا على غير انتظار وكأنه قد وجد عبارته مضحكة للغاية . ثم اذا به يعود الى جديته مرة أخرى بنفس الطريقة الفجائية البغيضة التى ضحك بها . بل لشد ما بدا الجد على وجهه حتى ساورنى الشك فيما اذا كان قد ضحك على الاطلاق .

فقال مينو فى مشقة مشيرا الى الرجل القصير : « آدريانا . دعينى أقدم اليك اثنين من اصدقائى ـ توليو » . ثم أردف قائلا : « وتوماسو » .

ولاحظت انه لم يذكر لقبيهما . فخيل لى ان الاسمين ربما كانا زائفين . فمددت يدى بابتسامة وصافحنى الشاب الطويل بقوة آلمت اصابعى . اما الرجل الضئيل فقد بلل اصابعى بالعرق الذى أخذ يتصبب من راحة يده . وقال هذا الاخير فى ود مضحك : « أنا سعيد بمعرفتك » . بينما قال الشاب الطويل ببساطة وكأنه ـ كما خيل لى ـ قد قال : « يسرنى لقاؤك » ولاحظت ان بصوته نغمة طفيفة لاحدى اللهجات .

وتبادلنا النظر لحظة فى صمت . ثم قال الشاب الطويل : « يمكننا الانصراف يا جياكومو ان شئت . فبوسعنا ان نأتى غدا

اذا كان هناك ما يشغلك ؟ »

ورأيت مينو يجفل ناظرا اليه فادركت انه يوشك أن يطلب اليهما البقاء ويأمرنى بالانصراف . فقد توطدت عندئذ معرفتى به الى حد يجعلني أفهم انه لا يستطيع الا ان يفعل ذلك . وتذكرت أنه لم تمر سوى بضع دقائق على مضاجعتنى اياه ، واننى ما زلت اشعر بدفء شفتيه على عنقي وهما تقبلاننى وبآثار يديه على بدنى وهما تتشبثان بى . كان جسدى هو الذى تمرد ، لا روحى التى كانت دائما على استعداد للخضوع والاستسلام . وقد بدا تمرده وكأنه احتجاج على المعاملة المجحفة التى لا تليق بما قدمه من هبة وبما احتواه من جمال فتقدمت خطوة الى الامام قائلة فى عنف : « نعم . يحسن بكما أن تنصرفا . ففى وسعكما أن تلتقيا به غدا ، فما زلت أريد أن أقول لمينو الشيء الكثير » .

فقال مينو معترضا على وقد بدا عليه السخط والانزعاج :

— « ولكننى يجب أن اتحدث اليهما ! »

— « بوسعك ان تتحدث اليهما غدا . »

فقال توماسو فى دماثة : « حسنا . عليك أن تحزم أمرك ، فان كنت تريدنا أن نبقى فلتقل ذلك ، وان كنت تريدنا ان نذهب فسنذهب » .

وتدخل توليو قائلا بضحكته المعهودة : « نحن لا نطلب اليك خيرا من ذلك » .

ولكن مينو ظل مترددا . فأحس جسدى على الرغم منه بدفعة عدوانية أخرى . فقلت رافعة صوتى : « أنصتا الى . منذ بضع دقائق كان جياكومو يضاجعنى هنا على هذه السجادة فماذا تفعلان لو كنتما فى مكانه ؟ أتطردانني ؟ »

أعتقد ان مينو قد احمر وجهه خجلا . فلا شك انه قد عراه الارتباك اذ انه أدار ظهره فى تبرم واتجه صوب النافذة . ونظر الى توماسو نظرة جانبية ثم قال دون أن يبتسم : « لقد فهمت . نحن ذاهبان . وداعا ياجياكومو ، وسوف نراك غدا فى نفس الموعد » .

ولكن توليو الضئيل بدا وكأنه قد أزعجته كلماتى . فنظر الى فاغرا فاه وقد اتسعت عيناه خلف منظاره السميك . فلا شك انه لم يسمع قط امرأة تتكلم بمثل هذه الصراحة ولا ريب انه فى تلك اللحظة قد مر بذهنه ألف خاطر قذر . ولكن الشاب الطويل ناداه من مدخل الباب قائلا : « هيا ياتوليو » فانسحب الرجل القصير

الى الخلف متجها نحو الباب وقد تعلقت بى عيناه الشـــهوانيتـــان المدهوشتان .

وانتظرت حتى يغادرا المنزل ثم اتجهت الى مينـــو الذى كان لايزال واقعا عند النافذة مديرا ظهره الى الغرفة ثم احطت كتفيه بذراعى قائلة :

ـ « والآن لا يمكنك احتمالى • »

فاستدار فى بطء ونظر الى • فاذا بعينيه يملؤهما الغضب • ولـكنه ما ان رأى وجهى الذى كان تعبيره بلا ريب ينطق بالحب والبراءة حتى تغيرت نظرته وتكلم فى صوت هادىء تشوبه رنة من الحزن قائلا : « أسعيدة انت الآن ؟ لقد نلت ما تبغين » .

فقلت وانا أعانقه دون أن ألقى منه مقاومة : «نعم ، انى سعيدة» ثم سألنى قائلا : « ما هذا الذى كنت تبغين قوله لى ؟ »

فأجبته قائلة : « لا شىء ، بل اردت أن أقضى معك المساء ».

فقال : « ولـكننى لن ألبث ان أذهب لتناول طعامى . هنا ـ مع الارملة مدولاجى » ـ « حسنا . فلتدعنى أنا أيضا »

فنظر الى وابتسم قليلا لجراتى . ثم قال فى استسلام : «حسنا. انى ذاهب لابلاغهم ولكن كيف يجب أن أقدمك اليهم ؟ »

ـ « كما تشاء •• كاحدى قريباتك • »

ـ « كلا ، بل سأقدمك اليهم كخطيبتى ، ايرضيك ذلك ؟ »

ولم اجسر على اظهار مدى سعادتى باقتراحه . فقلت متظـــاهرة بعدم الاكتراث : « سواء كنت خطيبتـــك أو أى شىء آخر فالامر يستوى فى نظرى ما دمنا معا » .

ـ « انتظرى هنا ، فسأعود اليك فى الحال • »

وما ان غادر المـكان حتى اتجهت الى احدى زوايا غرفة الجلوس حيث جذبت ثوبى الى أعلى وأسرعت بتوثيق عرى سروالى الداخلى الذى تشعث أثناء مضاجعتنا واضطرابنا لوصول صديقيه على غير انتظار • وثمة مرآة كانت معلقة على الحائط فى مواجهتى كشفت لى عن ساقى الطويلة الرائعة وقد اكتست بالعرق فتركت فى نفسى انطباعا غريبا وسط كل ذلك الاثاث القديم الذى ســـاده جو من الصمت المنعزل • وتذكرت حين مارست الحب مع جينـــو فى فيللا مخدومته حيث سرقت « البدارة » ولم يسعنى الا أن أقارن بين تلك اللحظة البعيدة فى حياتى وبين هذه اللحظة . فقد كان يراودنى حينذاك احساس بالفراغ والمرارة والرغبة فى الانتقام لنفسى ان لم

يكن من جينو مباشرة فمن العالم أجمع على الاقل . ذلك العالم الذي لشد ما آذاني في قسوة متخذا من جينو وسيلة له . أما الآن فقد احسست بالسعادة والحرية والمرح . وادركت مرة أخرى انني متعلقة حقا بمينو . ولم يكن يعنيني كثيرا ان كان لايبادلني الحب .

سويت ثيابي ثم اتجهت الى المرآة حيث نسقت شعري ، واذا بالباب يفتح من خلفي ويدخل مينو عائدا .

فتمنيت أن يأتي ويقبلني من الخلف اثناء تأملي صورتي في المرآة ولكنه ذهب ليجلس على الاريكة في الطرف القصي من غرفة الجلوس ثم قال وهو يشعل سيجارة : « لقد تم كل شيء . فقد أعدوا لك مكانا آخر ، ولن نلبث أن ندخل لتناول العشاء » .

فتركت المرآة وذهبت لأجلس بجانبه حيث أدخلت ذراعي في ذراعه وضغطت عليه بجسدي ثم قلت جزافا : « أليس هذان الرجلان من أصدقائك السياسيين ؟ »

— « نعم . »

— « ولكن الثراء لا يبدو عليهما مطلقا . »

— « لماذا ؟ »

— « هذا واضح من ملبسهما على أية حال . »

فقال :

— « ان توماسو هو ابن شريف مقاطعتنا . أما الآخر فانه يعمل مدرسا . »

— « اني لا اميل اليه . »

— « أيهما ؟ »

— « المدرس . فهو قذر التفكير . فلشد ما أدهشتني نظرته الي عندما قلت انني كنت اضاجعك . »

— « من الواضح أنه اعجب بك بلا ريب . »

ثم ساد الصمت بعض الوقت .

ولكنني ما لبثت أن قلت : « انك خجل من تقديمي كخطيبتك . ولكنني سأنصرف آن شئت » .

كنت أعلم أنه لا سبيل الى اغتصاب حركة حانية من جانبه الا عن ذلك الطريق وهو أن ابتزه باتهامه انه كان خجلا مني . وفي الواقع فانه أحاط خصري بذراعه في الحال وهو يهتف قائلا : « لقد اقترحت أنا ذلك ! فلماذا أخجل منك ؟ » .

— « لست أدري ، ولكنني أرى أنك ساخط . »

فأجابني قائلا بلهجة تكاد تكون علمية : « لست ساخطا ولكنني ذاهل . وذلك بسبب ممارستنا الحب . دعيني اتخلص من هذا الذهول » .

ولاحظت ان وجهه ما زال شديد الشحوب وانه كان يدخن في نفور .

فقلت : « انك على حق ، فأنا آسفة. ولكنك دائما بارد الشعور مماطل على صورة تفقدني صوابي. لو كان شعورك مختلفا لما أصررت على البقاء منذ لحظة » .

فألقى سيجارته قائلا : « لست باردا ولا مماطلا » .

ـ « ومع ذلك .. »

ولكنه استرسل قائلا وهو ينظر الي بانتباه : « بل اني احبك كثيرا ، وفي الواقع فاني لم اقاومك منذ قليل كما اردت أن افعل» ولقد سرتني تلك العبارة فنكست عيني دون أن أتكلم بينما أردف هو قائلا : « ومع ذلك فاني أعتقد انك محقة في الواقع ، فهذا لايمكن أن يسمى حبا » .

فوجف قلبي ولم يسعني الا أن اتمتم قائلة : « اذن فما معنى الحب في نظرك ؟ »

فأجابني قائلا : « لو انني احببتك لما اردت أن اطردك منذ لحظة ولما غضبت عندما أردت البقاء » .

ـ « هل غضبت ؟ »

ـ « نعم . ولكنني الآن سأتحدث اليك وسأكون مرحا مبتهجا ذكيا مؤنسا ـ وسوف أضع خططا للمستقبل ـ هكذا يكون الحب. أليس كذلك ؟ »

فقلت في هدوء : « نعم . أو تلك هي مظاهر الحب على الاقل »

ولزم الصمت بعض الوقت ثم تكلم في ذلة كئيبة دون أي شعور بالرضا قائلا : « اني أمارس كل شيء بنفس الطريقة دون أن احب ما أفعل أو أحس به في قلبي ، ولكنني أعرف بعقلي كيف افعله بل أفعله من وقت لآخر غير انني لا افتأ احس بالفتور ولا احس بشيء في اعماقي. هكذا انا ومن الواضح انه لا يمكنني ان اكون غير ذلك » .

وبذلت جهدا أكبر للسيطرة على نفسي .

ثم قلت : « احبك كما أنت ، فلا تقلق » ثم عانقته في حب شديد ، وفي نفس اللحظة تقريبا فتح الباب وأطلت منه الخادم

العجوز لتخبرنا بأن العشاء قد أعد .

فغادرنا غرفة الجلوس ثم سرنا فى دهليز الى أن بلغنا غرفة الطعام . وانى أذكر جيدا كل ما فى تلك الغرفة ومن فيها لاننى كنت حينذاك حساسة للانطباعات كاللوحة الفوتوغرافية فقـــد أحسست اننى لم أكن أتصرف بقدر ما كنت أراقب نفسى وأنا اتصرف بعينين واسعتين حزينتين . ولعل هذه هى النتيجة المباشرة لاحساسـنا بالتمرد عندما نواجه بحقيقة تجعلنا نعانى بينما نتمنى فى نفس الوقت لو كانت غير ذلك .

كانت الارملة السنيورا مدولاجى تبدو لى لسبب لا ادريه شديدة الشبه بأثاث غرفة الجلوس المصنوع من خشب الابنوس الاســود المطعم بالصدف . كانت امرأة فى منتصف العمر طويلة القامة على صورة مهيبة ضخمة الصدر والردفين ترتدى ثيابا حريرية سوداء من أعلى رأسها الى اخمص قدميها . وكان وجهها الذى يشبه فى شحوبه لون المحارة عريضا مترهلا يحيط به اطار من الشعر الاسود وقد بدت صبغته واضحة للعيان . كما كانت هناك ظلال كبيرة سوداء فى أسفل عينيها . وقفت أمام « سلطانية » الحساء المزينة بالزهور حيث أخذت تقدم الينا الحساء فى شىء من الازدراء بينما أضـاء صدرها ذلك المصباح المثقل الذى جذب فوق المائدة فكان صدرها أشبه ما يكون بطرد كبير أسود لامع . أما وجهها الابيض الذى احاطت بعينيه حلقتان سوداوان فكان يذكرنى وهو فى الظلام بتلك الاقنعة الحريرية الصغيرة التى يرتديها الناس فى الـكرنفال . كانت المائدة صغيرة وقد أعدت عليها أربعة أماكن فى كل جانب منها مكان واحـد . وكانت ابنة صاحبة الدار قد اتخذت مكانها الى المائدة ولم تنهض عند دخولنا .

قالت الارملة مدولاجى : « ان السيدة الصغيرة يمكنها أن تجلس هنا . ما أسمك ؟ »

— « آدريانا . »

فقالت السيدة دون تفكير : « ماما كانت فلدينا الآن آدريانتان » وكانت تتكلم يراودها شعور بالذات دون ان تنظر الينا . ومن الواضح انها لم تكن ترحب مطلقا بوجودى هناك . وكما سبق أن قلت فانى لا أكاد أضع الاصباغ على وجهى ولا أضمخ شعرى قط بالاوكسيجين . فكان مظهرى فى الواقع لا ينبىء البتة بمهنتى . ولـكننى كنت ابدو فى نظر الجميع فتاة بسيطة جاهلة من الشعب وهى حقيقة لم أعبـأ

باخفائها . ولا ريب ان السيدة ربة المنزل كانت عندئذ تحدث نفسها قائلة : « ما أغرب هؤلاء القوم الذين تحضرهم يامينو الى الدار ! فتاة من الدهماء » .

جلست وتأملت الفتاة التي تحمل اسمي ، فاذا بها تبلغ نصفي تماما في كل شيء ، رأسها وصدرها وردفيها . كانت نحيلة القد قليلة الشعر ذات وجه بيضاوي رقيق وعينين كبيرتين بليدتين ينم تعبيرهما عن الذهول النصفي . نظرت اليها فلاحظت ان جمالي جعلها تنكس عينيها حتى خيل لي انها حيية . فقلت لكي استهل الحديث : « اتعلمين انه يبدو لي غريبا للغاية أن تحمل اسمي سيدة أخرى ويكون بيني وبينها كل ذلك الاختلاف ؟ »

لقد تكلمت جزافا لكي أستهل الحديث وكانت عبارة سخيفة. ولكنني لدهشتي لم أتلق جوابا ، بل نظرت الفتاة الى بعينيها اللتين فتحتا على سعتهما ثم حنت رأسها فوق صحفتها وبدات تأكل في صمت . وفجأة لاحت لي الحقيقة ، فانها لم تكن حيية ، بل خائفة مذعورة . وكنت أنا مبعث رعبها . فقد ذعرت لجمالي الذي اقتحم عليها جو مسكنها الذاوي المغبر كوردة أحاط بها نسيج العنكبوت . كما أفزعتها حيويتي المتدفقة التي ما كان يمكن أن يخطئها البصر حتى وأنا صامتة لا أبدي حراكا . ولكن لشد ما أرعبها أني فتاة من الدهماء . فلا شك أن الغنى لا يكن حبا للفقير ولكنه ايضا لا يخشاه وهو يعرف كيف يبعده عنه بكبريائه وغروره . أما الفقير الذي يتقمص روح الغنى عن طريق التعليم أو يوهبها بالطبيعة فلشد ما يفزعه أن يرى فقيرا أصيلا وكأنه يحس انه معرض للعدوى بمرض معين أصيب به شخص آخر . فلا شك ان الارملة مدولاجي وابنتها لم تكونا من ذوات الثراء وإلا لما أجرا غرفا . ولما كانتا تحسان بفقرهما وتأبيان الاعتراف به فان وجودي كفتاة فقيرة لا تضع قناعا على وجهها بدا فيه خطر عليهما واهانة لهما . من ذا الذي يمكنه ان يتكهن بما جال بخاطر الابنة وأنا اخاطبها ؟ فلعلها حدثت نفسها قائلة : « هذه الفتاة هنا تحدثني ، وهي تريد أن تتودد الى . فلن أستطيع التخلص منها » . أدركت كل ذلك في لمح البرق فقررت ألا انطق بكلمة أخرى حتى نهاية الوجبة .

ولكن أمها التي ربما كانت أكثر فضولا وسماحة لم تشأ أن تمتنع كلية عن بعض الحديث اذ قالت لمينو : « اني لم أعلم بخطبتك فمنذ متى تمت الخطبة ؟ »

كان صوتها متكلفا وهى تتكلم من خلف كتلة صدرها وكأنها تقف خلف خناق وآق .

فقال مينو : « منذ شهر تقريبا » . وقد صدق فيما قال فقد مضى على تعارفنا شهر واحد .

— « وهل السيدة الصغيرة من بنات روما ؟ »

— « بالطبع ، بل ان ذلك يرجع تاريخه الى سبعة أجيال . »

— « ومتى يتم الزفاف ؟ »

— « قريبا .. حالما يخلو المنزل الذى سنقيم فيه . »

— « أوه .. وهل استقر رأيكما على المنزل ؟ »

— « نعم .. انها فيللا صغيرة تحيط بها حديقة ، وبها برج صغير ، انها خلابة . »

بهذه الطريقة التهكمية وصف مينو تلك الفيللا الصغيرة التى لفت نظره اليها على الطريق الرئيسى بالقرب من شقتى .

فقلت فى صعوبة : « لو انتظرنا ذلك المنزل فانى أخشى اننا لن نتزوج » .

فقال مينو فى مرح : « هذا هراء » .

وقد بدا عليه انه قد استرد هدوءه تماما بل زادت حمرة وجنتيه ثم أردف قائلا : « انت تعلمين انه سيخلو فى اليوم الذى حددناه » ولما كنت لا اميل الى المزاح فاننى لم افه بشىء . وجاءت الخادم لتغيير الصحاف . ثم قالت السنيورا مدولاجى : « ان الفيللات يا مستر ديوداتى جميلة للغاية ولكنها ليست مريحة ، فهى تحتاج الى عدد كبير من الخدم » .

فقال مينو : « ولماذا ؟ فلا ضرورة لذلك . ان آدريانا ستكون هى الطاهية والخادمة ومديرة المنزل . أليس كذلك يا آدريانا ؟ »

فأضافت السنيورا مدولاجى قائلة وهى ترمينى بنظرة سريعة : « فى الواقع ان السيدة لديها ما تفعله الى جانب تفكيرها فى الطهو والكنس وترتيب الاسرة ، ولكن اذا كانت السيدة الصغيرة معتادة على ذلك ففى تلك الحال .. » ولم تتم عبارتها بل وجهت انتباهها الى الصحفة التى كانت الخادم تقدمها الى قائلة : « لم نكن نعلم بمجيئك والا لامكننا ان نضيف الى الطعام بيضة او اثنتين » .

وانتابنى الغضب على مينو وعلى السيدة حتى اوشكت ان اجيبها قائلة : « كلا ، بل انا معتادة على ان اذرع (١) الطرقات » . ولكن

(١) المقصود هنا العاهر التى تذرع الطرقات لتبيع الهوى .

مينو الذي كانت روحه تفيض ببهجة مخبولة صب لنفسه ملء قدح كبير من النبيذ كما صب لي القليل منه (بينما كانت عينا السنيورا مدولاجي تتابعان القنينة في قلق) ثم أردف قائلا : « آه . ولكن آدريانا ليست سيدة أو لن تكون كذلك في يوم من الايام ، فانها دائما تسوى الاسرة وتكنس الارض . ان آدريانا فتاة من الشعب » .

فنظرت الي السنيورا مدولاجي وكأنها تراني لأول مرة مرددة كلامها في ادب جارح بينما حنت الابنة رأسها فوق صحفتها : « بالضبط ، كما كنت أقول عما اذا كانت معتادة » .

فاسترسل مينو قائلا : « نعم ، معتادة على ذلك . ولا شك انني لن أجعلها تقلع عن مثل هذه العادات النافعة . ان آدريانا هي ابنة صانعة قمصان ، كما انها هي نفسها صانعة قمصان ، أليس كذلك يا آدريانا ؟ » ثم مد ذراعه عبر المائدة حيث أمسك بيدى وقلبها ظهرا لبطن قائلا : « انها تطلى أظافرها حقا ولكنها يد فتاة كادحة كبيرة قوية طبيعية ، تماما كشعرها فهو مجعد ولكنه ثائر ذو جذور خشنة » . وما ان ترك يدى تسقط حتى جذبني من شعرى بقوة وكأني حيوان قائلا : « أن آدريانا في الواقع تمثل بجدارة شعبنا الرقيق السليم القوى في كل شيء وكل مكان » .

وكان يتخلل صوته تحد ساخر ، ولكن أحدا لم ينتبه اليه . واخذت الفتاة تنظر من خلالى وكأنى جسم شفاف تخترقه بنظراتها لترى شيئا من خلفه . وأمرت الام الخادمة بتغيير الصحاف ، ثم استدارت نحو مينو وسألته قائلة بطريقة غير متوقعة تماما : « اذن فهل ذهبت يامستر ديوداتي لمشاهدة تلك المسرحية ؟ »

وكدت انفجر ضاحكة لتلك الطريقة الخرقاء في تغيير الموضوع ، ومع ذلك فان مينو لم يحس بالاهانة ، بل هتف قائلا : « لاتحدثيني عنها ! فهي غاية في السوء » .

ـ « اننا سنذهب غدا لمشاهدتها ، فهم يقولون انها فرقة ممتازة .

فأجاب مينو بأن الممثلين ليسوا بالبراعة التى وصفتها الصحف . فدهشت السيدة لكذب الصحف ولكن مينو اجاب قائلا في هدوء أن الصحف من اولها الى آخرها ما هي الا سلسلة واحدة من الاكاذيب . ومنذ تلك اللحظة اخذ الحديث يدور حول موضوعات مماثلة . وكانت السنيورا مدولاجي لا تكاد تفرغ من الحديث في احد هذه الموضوعات حتى تبدأ موضوعا جديدا في عجلة لا تحسن اخفاءها . أما مينو الذى لشد ما بدا مسرورا فقد كان مستجيبا

لها لا يفتأ يرد عليها فى ذكاء .

أخذا يتحدثان عن الممثلين وعن حياة الليل فى روما وعن المقاهى ودور السينما والمسارح والفنادق الى آخر ذلك . كانا أشبه بلاعبى البنج بونج وهما عاكفان على تبادل الـكرة دون ان يتيحا لها أن تسقط على الارض . ولـكن بينما كان مينو يفعل ذلك بدافع من شغفه المعهود باللهو ذلك الشغف الذى لشد ما تطور عنده كانت السنيورا مدولاجى تستجيب له لشعورها نحوى ونحو كل ما يتعلق بى بالخوف والنفور . فقد بدت انها تقصـــد أن تقول له بحديثها الرسمى التقليدى : « هذا هو أسلوبى لافهامك أن زواجك بفتاة من الدهماء أمر مفجع حقا وأن احضارك اياها الى منزل أرملة الموظف المدنى مدولاجى لهو أمر مفجع حقا على أية حال » . أما الابنة فلم تفه بشىء فقد كانت مذعورة ، كما بدت أنها تتمنى فى صراحة تامة لو انتهت الوجبة ومضيت الى حال سبيلى بأسرع ما يمكن . وأما أنا فقد راقنى بعض الشىء أن أتابع تلك المعركة الكلامية ولكننى ما لبثت أن مللت ذلك الجدل وغشيتنى تماما أحزان قلبى . فقد ادركت ان مينو لم يكن يحبنى وكان ذلك الادراك مريرا . وفضلا عن ذلك فقد لاحظت ان مينو قد استغل ثقتى به لينسج ملهـــاة خطبته . ولم يمكننى أن أفهم بالضبط ان كان يريد ان يسخر منى أم من المراتين أم من نفسه ولعله أراد أن يسخر منا جميعا ومن نفســه بصفة خاصة . لقد بدا وكأنه هو أيضا كان يغذى فى قلبه تلك الامانى التى كنت اكنها نحو حياة طبيعية مهذبة . كما بدا وكأنه قد فقد كل أمل فى تحقيقها لاسباب تختلف عن أسبابى ، ومن ناحية اخرى فقد أدركت أن امتداحه اياى بأننى فتاة من الشعب لم يكن فيه اطراء لى أو لعامة الشعب ، بل ان ذلك لم يعد ان يكون وسيلة لتنفير المراتين منه . وقد دلت تلك الملاحظات على صحة ما كان يقـــول قبل ذلك بفترة وجيزة ، وهو انه لا يقوى على أن يحب بقلبه . وعندئذ أدركت تماما كما لم أدرك قط من قبل ان الحب هو كل شىء وان كل شىء يعتمد على الحب ، وهذا الحب اما أن يوجد أو لا يوجد . فان وجد لم يحب المرء عشيقتـــه فحسب ، بل النـــاس اجمعين وكل ما فى الوجود من أشياء تماما كما كنت أفعل . وان لم يوجد فان المرء لا يحب احدا ولا يحب شيئا ، كما هى الحال معه ، والافتقار الى الحب يؤدى فى النهاية الى العجز والعنة .

عندئذ كانت المائدة قد أخليت مما عليها من أدوات الطعام وظهرت

فى دائرة الضوء المرسل من الثريا على مفرش المائدة وقد تناثر فوقه فتات الخبز أربعة فناجيل من القهوة ومنفضة للسجائر من الفخـــار على شكل زهرة الخزامى كما ظهرت يد كبيرة مرصعة تزينها عدد كبير من الخواتيم الرخيصة وقد أمسكت بسيجارة مشتعلة — تلك كانت يد السنيورا مدولاجي . وفجأة ضاق صدرى من شدة الضجر فنهضت واقفة على قدمى وقلت متعمدة المبالغة فى لهجتى الرومانية : « آسفة يا مينو لانى مشغولة .. فأنا مضطرة للذهاب » .

فسحق سيجارته فى المنفضة ثم نهض واقفا هو أيضا ، وفى صوت مدو تمنيت لهم مساء طيبا تماما كما تفعل أية فتاة من الشعب . ثم انحنيت انحناءة طفيفة ردت عليها السيورا مدولاجي فى تصلب. أما ابنتها فقد تجاهلتها ثم انصرفت • وعند مدخل الشقة حدثت مينو قائلة : « أخشى ان السنيورا مدولاجى بعد هذا المساء ستطلب اليك البحث عن غرفة أخرى » .

فهز كتفيه قائلا : « لا أظن ذلك ، فانى أدفع لها بسخاء وبانتظام دقيق » .

قلت : «انى ذاهبة. ولـكن هذه الوجبة قد تسببت فى شقائى».

— « لماذا ؟ »

— « لانى اقتنعت تماما فى النهاية بأنك لا يمكن أن تحب • »

قلت ذلك فى حزن دون أن أنظر اليه . ثم رفعت عينى وخيل لى أن تعبير وجهه كان ينبىء بالذلة والمهانة . ولـكن ذلك ربما كان راجعا الى ظلمة الردهة فى انعكاسها على وجهه الشاحب • وامتـــلأت نفسى فجأة بتأنيب الضمير . ثم سألته قائلة :

— « هل غضبت ؟ »

فقال فى صعوبة : « كلا ، فهى الحقيقة قبل كل شىء » .

وعندئذ فاض قلبى بحبه فعانقته بحركة تلقائية قائلة : « هــذا افتراء •• وما قلته الا عن حقد ، وعلى أية حال فلشـــد ما احبك رغم ذلك .. أنظر .. فقد أحضرت اليك هــذا الرباط » . ثم فتحت حقيبتى لأخرج الرباط وأقدمه اليه . فنظر اليه ثم سألنى قائلا :

— « هل سرقته ؟ »

لم تكن سوى دعابة ولـكنها كشفت لى عن مدى شغفه بى أكثر مما كان يمكن أن تفعله أصدق آيات الشكر ، وذلك هو ما أدركته فيما بعد . أما فى تلك اللحظة فقد طعنتنى فى الصميم ، واغرورقت

عيناى بالدموع . ثم تلعثمت قائلة : « كلا ، بل اشتريته من محل أسفل المنزل تماما » .

وما ان لاحظ ما لحقني من مهانة حتى عانقني قائلا : « ما أسخفك ! فما قصدت سوى المزاح ، ولكنني على أية حال معجب به حتى لو كنت سرقته ، بل ربما زاد اعجابى ؟ » .

فقلت وقد خفف عني قليلا بما قاله لي : « انتظر ، فاني سأضعه لك حول عنقك » . وما ان رفع ذقنه حتى حللت له رباطه القديم ثم قلبت ياقة قميصه حيث عقدت له الرباط الجديد قائلة :

« أما هذا الرباط البشع القديم البالى فسآخذه معى ، فلا يجب مطلقا أن ترتديه مرة أخرى » وكنت أقصد فى الحقيقة ان احمل معى قطعة من ثيابه تذكارا منه .

فقال : « اذن فسأراك قريبا » .

ـ « متى » ؟

ـ « غدا بعد العشاء » .

« حسنا » . ثم تناولت يده وهممت بتقبيلها ، ولكنه جذبها بعيدا بعد فوات الاوان ، اذ لم يحل ذلك دون لثمها سريعا بشفتى ثم ركضت بسرعة هابطة الدرج دون أن انظر خلفى .

www.library4arab.com/vb

الفصل السابع

وبعد ذلك اليوم واصلت حياتي المعتادة . فقد أحببت مينو حقا ورغبت أكثر من مرة في تغيير مهنتي التي كانت تتناقض تناقضا تاما مع الحب الحقيقي . ولكن ظروفي بقيت كما هي دون تغيير رغم وقوعي في الحب ، ولم أتجاوز تلك النقطة التي وقفت عندها ألا وهي افتقاري الى المال والى الوسيلة التي يمكنني ان احصل بها عليه ما لم أتبع ذلك الطريق . ولم اشا ان اقبل نقودا من مينو، ولكنه كان على أية حال محدود الدخل اذ أن أسرته كانت لا ترسل اليه الا ما يكفيه في عسر لدفع نفقات معيشته في المدينة . ولا يفوتني أن اعترف عند هذه النقطة بأنني لم افتأ احس برغبة غلابة لا تقاوم في أن أقوم بالانفاق عليه في جميع المحال والمقاهي والمطاعم التي كنا نغشاها . ولكنه كان دائما يرفض عروضي فكنت في كل مرة أشعر بخيبة الامل والمرارة . وكان كلما نفدت نقوده يصطحبني الى الحدائق العامة حيث نجلس معا على أحد المقاعد لنتجاذب أطراف الحديث ونراقب المارة كما يفعل الفقراء .

وذات يوم قلت له : « ولكن فلنذهب الى أحد المقاهي حتى ولو كنت معسرا ، فسأقوم انا بالانفاق .. وأي فرق هناك ؟ » .

— « هذا محال . »

— « لماذا ؟ فانا أريد الذهاب الى أحد المقاهي لاتناول مشروبا . »

— « اذن فلتذهبي وحدك .. »

وفي الواقع فاني لم أكن متحمسة للذهاب الي أحد المقاهي بقدر حماسي للانفاق عليه . فقد كانت تراودني رغبة عميقة ملحة مؤلمة في أن أفعل ذلك . كما كنت أوثر أن أعطيه مباشرة كل ما كنت أكتسبه من نقود على ان اقوم انا نفسي بجميع النفقات شيئا فشيئا بنفس الطريقة التي كنت أتلقاها بها من لقطاء الطريق الذين هم عشاقي . فقد خيل لي انني بذلك فحسب يمكنني ان أكشف له عن حبي . ولكنه خيل لي ايضا انني لو تكفلت به ماليا فسأربطه بي برباط أقوى من مجرد الحب . وقد قلت له في مناسبة أخرى :

لشد ما يسرني أن أعطيك بعض النقود ، كما انني واثقة بأنك

ستجد فى ذلك شيئا من المتعة » .

فأخذ يضحك قائلا : « ان علاقتنا من وجهة نظرى على الاقل لا تقوم على المتعة » .

— « علام اذن ؟ »

فتردد ثم أجاب قائلا : « على مشيئتك فى حبى ، وعلى ضعفى أمام تلك المشيئة ، ولكن هذا لا يعنى أن ضعفى بلا حدود » .

— « ماذا تعنى ؟ »

فقال فى هدوء : « ان الامر بسيط للغاية . وقد سبق أن شرحته لك مرارا وتكرارا ، فنحن معا لانك شئت ذلك فى حين اننى على العكس لم أشأ ، بل انى الآن من الناحية النظرية على الاقل أوثر الا أفعل » .

فقاطعته قائلة : « يكفى هذا ، فلا تدعنا نتحدث عن حبنا ، وما كان ينبغى أن أذكره » .

وكلما فكرت فى شخصيته منذ تلك اللحظة اذا بى فى معظم الاحيان أخرج بنتيجة مؤسفة وهى انه لم يكن يحبنى البتة واننى لم اكن سوى أداة لاحدى تجاربه . فقد كان اهتمامه فى الواقع مقصورا على نفسه . ولكن شخصيته كانت فى داخل تلك الحدود معقدة للغاية. كان فتى من أسرة ريفية ميسورة الحال — كما أعتقد اننى سبق أن ذكرت — وكان يمتاز برقته وذكائه وثقافته وتهذيبه وجديته . وكانت أسرته — بقدر ما أمكننى أن أتبين مما قاله لى رغم قلته وذلك لعدم شغفه بالتحدث عنها — من تلك الاسر التى كنت أتمنى فى أحلامى الفريرة حول حياة طبيعية لو ولدت فيها . كانت أسرة تقليدية ، فكان أبوه طبيبا من ملاك الاراضى ، وكانت أمه لا تزال صغيرة السن تمكث فى الدار معظم الوقت حيث لا هم لها سوى زوجها وأطفالها ، وكانت له ثلاث أخوات صغيرات وأخ أكبر ، ومن المعروف ان أباه كان من الشخصيات المتداخلة كما كان حجة فى الشئون المحلية . أما أمه فكانت شديدة التعصب واخواته طائشات مستهترات الى حد ما ، وأخوه الاكبر مثلا للشاب الفنى الذى يقضى معظم وقته فى المحال العامة الانيقة والمنتديات الراقية كما يفعل جيانكارلو .

ولكن كل هذه الاخطاء كانت محتملة على الرغم من كل شىء بل انها فى نظرى وقد ولدت بين قوم اختلفت طريقة معيشتهم كل الاختلاف من جميع الوجوه لم تكن تبدو اخطاء . كانت أسرة متحدة

تماما وكان جميع أفرادها من الابوين الى الاطفال يدينون بالاخلاص والولاء لميلو .

وكان اعتقادى انه سعيد الحظ للغاية لانتمائه الى تلك الاسرة . ولكنه بدا على العكس من ذلك كارها أسرته مبغضا اياها مشمئزا منها مما استغلق على فهمى تماما . كما بدا انه يحس بنفس البغض والكراهية والاشمئزاز ازاء نفسه طبيعة واعمالا . ولكن كراهته نفسه بدت انها لم تكن سوى انعكاس لكراهته أسرته جمعاء . وبعبارة أخرى فقد بدا انه يكره فى نفسه كل ما بقى مرتبطا بأسرته وكل ما خضع بأية صورة من الصور لنفوذ دائرة الاسرة . وقد قلت من قبل انه كان مهذبا مثقفا ذكيا رقيقا جادا ، ولكنه كان يحتقر ذكاءه وآدابه وثقافته ورقته وجديته لا لسبب الا لأنه كان يرجح انه مدين بها للوسط الذى عاش فيه وللأسرة التى ولد ونشأ فيها وقد قلت له ذات مرة : « ولكن قل لى حقا ، ماذا تبغى أن تكون؟ فهذه كلها صفات حميدة ، ينبغى أن تشكر حسن طالعك الــذى حباك بها » .

فقال وهــو لا يكاد يحرك شــفتيه : « على الــرغم من كل النفع الذى تحققه لى فقد كنت أفضل أن اكون على شاكلة سونزونيو مضبرا بذلك عن رأيى الشخصى ! » .

فقد تركت قصة سونزونيو تأثيرا عميقا فى نفسه ولا يمكننى أن أتخيل السبب فى ذلك . فهتفت قائلة : « يا للشناعة ! انه وحش وانت تريد أن تكون على شاكلته ! » .

فأوضح ما يعنيه فى هدوء قائلا : « من الواضح اننى لا أريد أن أحاكى سونزونيو من جميــع الوجوه . فانى ما ذكرت سونزونيو الا لأبين مرادى . فان سونزونيو مهيأ للحياة فى عالمنا هــذا ، أما أنا فلا » .

ثم سألته قائلة : « اتريد ان تعرف ماذا كنت أتمنى أن أكون؟ »

ــ « اخبرينى .. »

فنطقت فى بطء متذوقة فى لذة طعم العبارات التى بدا لى ان كلا منها كان يتجسد فيها أحد أحلامى التى لشد ما كانت عزيزة عندى حبيبة الى قلبى : « أتمنى لو كنت فى مثل ظروفك بالضبط ــ تلك الظروف التى لشد ما تشقى بها ــ كنت أتمنى لو ولدت فى اسرة ميسورة كأسرتك تتيح لى قسطا وافرا من التعليم ، كنت أتمنى أن أعيش فى منزل نظيف جميل كمنزلكم ، كنت أتمنى لو كان

لى مدرسون أكفاء ومربيات أجنبيات كما أتيح لك ، كنت أتمنى لو أقضى الصيف على شاطىء البحر أو فى الجبال ، واقتنى ثيابا جميلة وأتلقى الدعوات وأستقبل الضيوف ، كما كنت أتمنى لو أتزوج رجلا يحبنى ، رجلا مهذبا يؤدى عملا ويكون ميسور الحال كذلك ، كنت أتمنى أن أعيش معه وأحمل له اطفاله ! » .

كنا راقدين على الفراش ونحن نتحدث ، فاذا به ينقض على فجأة كعادته قابضا على بدنى بيديه وهو يهزنى مرددا : « هللى ، هللى ، هللى ! انك فى الواقع تتمنين لو كنت مثل السنيورا لوبيانكو » .

فسألته قائلة وأنا أشعر بالاساءة والارتبـاك فى نفس الوقت .
« ومن هى السنيورا لوبيانكو ؟ »

– « امرأة جشعة رهيبة كثيرا ما تدعونى الى حفلات استقبالها آملة أن أقع فى حب احدى بناتها البشعات فأتزوجها اذ اننى أمثل ما يسمى بالزوج الصالح . »

– « ولكننى لا أتمنى مطلقا أن اكون مثل السنيورا لوبيانكو ! »

– « ذلك هو مصيرك بلا شك اذا ما أتيح لك كل ما ذكرت من أشياء . فقد ولدت السنيورا لوبيانكو فى أسرة غنية أتاحت لها تعليما ممتازا على أيدى مدرسين أكفاء ومربيات أجنبيات ثم ارسلتها الى المدرسة بل والى الجامعة كما اعتقد – وقد نشأت هى أيضا فى منزل نظيف جميل – كما كانت فى كل صيف تذهب الى شاطىء البحر أو الجبال – وكذلك كانت تقتنى ثيابا جميـلة . كما كانت تتلقى الدعوات ، كثيرا من الدعوات وتقيم الحفلات ، كثيرا من الحفلات – وقد تزوجت أيضا رجلا مهذبا هو المهندس لوبيانكو الذى يعمل ويجلب الى منزله المال الوفير – وقد انجبت من زوجهـا الـذى اعتقـد انها ظلت مخلصة له عددا كبيرا من الاطفال – ثلاث بنـات وابنـا واحدا – ولكنها على الرغم من كل ذلك امرأة جشعة رهيبة كمـا سبق أن قلت . »

– « لابد انها امرأة جشعة دون أن تكون لبيئتها يد فى ذلك البتة !»

– « كلا ، بل هى على شاكلة صديقاتها وصديقات صديقاتها . »

فقلت محاولة أن أفلت من عناقه الساخر المتهكم : « ربما ، ولكن كل شخص له أخلاقه الخاصـة ، فربما كانت السنيورا لوبيانكو امرأة جشعة ولـكننى واثقة انه لو أتيحت لى مثل هـذه الظروف لصرت أفضل مما أنا عليه بكثير » .

– « بل لما كنت أقل بشاعة من لوبيانكو . »

ـ « لماذا ؟ »
ـ « لهذا .. »
ـ « ولكن انصت لى . هل تعتقد ان اسرتك بشعة ايضا ؟ »
ـ « بالطبع ، آنها كريهة بغيضة . »
ـ « وهل انت بشع ايضا ؟ »
ـ « نعم .. فى كل ما ورثته عن أسرتى . »
ـ « ولكن لماذا ؟ قل لى لماذا ؟ »
ـ « لهذا .. »
ـ « هذه ليست آجابة .. »

فأجابنى قائلا : « انها نفس الاجابة التى ترد بها عليك السنيورا لوبيانكو لو وجهت اليها أسئلة معينة » .

ـ « أية أسئلة ؟ »

فقال باستخفاف : « لا داعى لذكرها . أسئلة محيرة ـ فكلمة « لهذا » اذا ما قيلت باقتناع خليقة باسكات أكثر الناس فضولا ـ « لهذا » بلا سبب ـ « لهذا » .. »

ـ « انى لا أفهم ماذا تعنى ؟ »

فختم حديثه قائلا وهو يعانقنى على طريقته الساخرة التى خلت من الحب : « وماذا يهم لو لم نتفاهم ما دمنا نتبادل الحب ـ وهو حقيقة ؟ » وهكذا انتهت المناقشة ، فمثلما كان يأبى أن يستسلم كلية من الناحية العاطفية ولا يفتأ يبدو وكأنه يحتجز شيئا فى أعماقه ولعله جوهر نفسه مما يجعل انفجاراته العاطفية النادرة عديمة القيمة كذلك كان بنفس الطريقة تماما يأبى دائما أن يكشف عن أفكاره كلها ، وكلما اعتقدت اننى بلغت جوهر تفكيره لم يفتأ يصدنى بدعابة ما أو حيلة لطيفة يشتت بها انتباهى . فلشد ما كان مراوغا بكل ما فى الكلمة من معنى . وكان يعاملنى كشخص أقل منه كما لو كنت تقريبا أداة لاحدى تجاربه . ولكن لعل ذلك هو السبب فى حبى الشديد له على تلك الصورة العاجزة المستسلمة .

ومع ذلك فانه كان يبدو أحيانا وكأنه لا يكره أسرته والوسط الذى نشأ فيه فحسب بل البشرية جمعاء . فقد قال لى ذات يوم ـ ولا تحضرنى المناسبة : « ان الاغنياء مرعبون ولكن مما لاشك فيه ان الفقراء ليسوا أحسن حالا ولو اختلفت الاسباب » .

ـ « انك تصير أقرب قليلا الى الصحة لو اعترفت صراحة بكراهيتك للبشرية جمعاء دون استثناء . » فأخذ يضحك وهو يجيبنى قائلا :

« انى لا أكره الناس من الناحية النظرية وأنا بعيد عنهم ، أو على الاقل تتضاءل كراهيتى الى حد الايمـــان بتقدمهم . ولو كنت لا أومن بذلك لما شغلت نفسى بالسياسة . ولـكنهم لشد ما يرعبوننى عندما أوجد بينهم » . ثم أردف قائلا فى حزن : « والحقيقة ان الجنس البشرى تافه لا قيمة له » .

فقلت : « ولـكننا بشر أيضا . وهكذا فاننا تافهون كذلك. ومن ثم فلا يحق لنا أن نحكم عليهم » .

فعاد يضـحك وهو يجيبنى قائلا : « انى لا أحكم عليهم . بل أتشممهم ــ أو بالاحرى أنى اتنسم رائحتهم ــ كمـــا يتنسم الكلب رائحة الدراج أو الارنب البرى . ولكنه هل يحكم عليهـــا ؟ انى أتنسـمهم فأجدهم خبثـــاء أغبيـــاء أنانيين تافهين مبتذلين مخادعين مخجلين قذرين . انى أتنسـمهم . وذلك احســـاس والاحاســيس لايمكننا كبتها . أليس كذلك ؟ » .

فلم أدر كيف أجيبــه ولـكننى لم أزد على أن قلت : « هــذا الاحســاس لايراودنى » .

وفى مناسبة أخرى تحدث الى بالطريقة التالية : « قد يكون الناس أخيارا أو أشرارا لست أدرى . ولـكنهم بلا شــك عديمو الفــائدة فائضون عن الحاجة على أية حال » .

ــ « ماذا تعنى ؟ »

ــ « اتمنى لو أمكن محق الجنس البشرى بأجمعه لاسباب وجيهة فهو لا يعدو أن يكون زائدة قبيحة على وجه الارض ــ بثرة . فلو خلا العالم من البشر ومدنهم وشوارعهم وموانيهم وكل ما يتخذونه من ترتيبات صغيرة يصير العالم أكثر جمالا الى حد بعيد. فلتتخيلى كم يكون العالم جميلا لو انه خلا الا من السماء والبحر والاشجار والارض والحيوانات . »

ولم يسعنى الا أن أضحك هاتفة : « ما أغرب آراءك ! » .

فاسترسل قائـــلا : « ان الجنس البشرى ليست له بداية أو نهاية ــ ومن ثم فهو شيء سلبى حتما . وما تاريخ البشرية الا ثؤباء واحدة طويلة مبعثها السأم الخالص . فما الحاجة اليه ؟ وفى رأيى أنه كان فى وسعى تماما الاستغناء عنه » .

فاعترضت عليه قائلة : « ولـكنك انت نفسك جزء من الجنس البشرى . فهل كان يمكنك الاستغناء عن نفسك اذن ؟ » .

ــ « الاستغناء عن نفسى بصفة خاصة . »

وثمة فكرة أخرى من الافكار التي كانت لا تفتأ تلازم ذهنه هي فكرته عن العنف . ومما يزيد في غرابة تلك الفكرة انه لم يكن يحاول ممارستها فكان كل ما يجنيه منها هو افساد متعته . كان لا يفتأ يتغنى بمديحها وخاصة على اثر ممارستنا الحب مباشرة وكأنه يكيد نفسه . وكان يقول ان المضاجعة ليست سوى أسخف الطرق وأيسرها لتنحية جميع المشكلات بارغامها جميعا على الخروج من أسفل خلسة وبعيدا عن الانظار مثلما يساق الضيوف المزعجون للخروج من البـــاب الخلفى . وكان يقـــول : « وما ان تتم العملية حتى يخرج الرجل فى نزهة مع شريكته سواء أكانت زوجته أم عشيقته حسبما يكون الوضع وقد تهيأ على صورة عجيبة لقبول العالم كما هو حتى ولو كان شر العوالم جميعا » .

فقلت : « انى لا أفهمك » .

فقال : « ولـكنك يجب ان تفهمى ذلك على الاقل . أليس هو اختصاصك ؟ » .

فأحسست بالاساءة ، وقلت : « ان اختصاصى كما تسميه هو أن احبك . ولـكن ان شئت فاننا لن نمارس الحب مرة أخرى ـ وسوف احبك على الرغم من ذلك » .

فضحك وهو يسألنى قائلا : « هل انت متأكدة تماما مما تقولين؟» وفى ذلك اليوم توقفنا عن الجدال . ولـكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس الاشياء مرارا وتكرارا حتى اننى فى النهاية لم أعد التفت اليه بل تقبلت ذلك كما تقبلت سمات أخرى كثيرة فى شخصيته المتناقضة

كان لايتحدث الى مطلقا فى السياسة الا على صورة اشارة عابرة ، بل انى اليوم لا أدرى شيئا عن أهدافه وآرائه والحزب الذى كان ينتمي اليه . ويرجع جهلى تارة الى تكتمه ذلك الجانب من حياته وتارة الى عدم المامى بتاتا بالسياسة كما حال خجلى وعدم اكتراثى دون سؤاله عن كل التفسيرات التى كان يمكننى ان استنير بها . وكنت مخطئة فى ذلك والله يعلم انى ندمت فيما بعد . ولكننى خيل لى حينذاك انه مما يريحنى حقا الا أفكر الا فى الحب والا اتدخل فى أمور كانت كما تصورت لا تخصنى . وفى الواقع فانى كنت احذو حذو كثير من النساء زوجات كن أو خليلات ممن لا يدرين حتى ان رجالهن بعرق جبينهم يكسبون المال الذى يجلبـــونه الى البيت . وطالما التقيت برفيقيه اللذين اعتاد أن يراهما كل يوم تقريبا . ولكن ثلاثتهم كانوا فى حضورى يمتنعون عن الحديث فى السياسة . ب ' ما

يمزحون واما يتكلمون فى موضوعات تافهة .

ومع ذلك فانى لم استطع أن أنفض عن نفسى احساسا دائما بالخوف لانى كنت أدرك ان التآمر ضد الحكومة أمر خطير . ولشد ما كنت أخشى أن يساق مينو الى الاشتراك فى عمل من أعمال العنف . وكنت بجهلى لا أستطيع أن أفرق بين فكرة التآمر وبين الاسلحة والدم . ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أروى حادثا يظهر الى أى مدى بلغ احساسى رغم غموضه بما يفرضه على واجبى من التدخل لابعاد المخاطر التى تتهدد مينو ــ فقد كنت أعلم ان حمل السلاح أمر غير مشروع قانونا وان المرء قد يحكم عليه بالسجن لا لسبب الا لحمله سلاحا بدون ترخيص . ومن الناحية الاخرى فما أيسر أن يفقد المرء صوابه فى بعض الأحيان . وطالما كان استخدام الاسلحة سببا فى تعريضُ الناس للشبهات فى حين انهم لولا ذلك لأعفوا من العقاب . فلهذه الاسباب مجتمعة خطر لى أن المسدس الذى لشد ما كان مينو فخورا باقتنائه لم يكن فقط غير ضرورى على الاطلاق بل كان فى وجوده ، خطر محقق اذ انه قد ترغمه الظروف على استخدامه كما انه قد يضبط معه . ولكننى لم أجرؤ على مصارحته بمخاوفى لانى تحققت من ان ذلك لن يأتى بنتيجة. فاستقر رأيى فى النهاية على العمل فى الخفاء . وكان قد شرح لى فى احدى المناسبات كيفية استخدامه . وذات يوم بينما كان نائما اخرجت المسدس من جيب سرواله ثم جذبت المخزن وأبعدت منه الرصاص. وبعد ذلك أغلقته مرة أخرى ثم أعدته الى مكانه فى جيبه . واخفيت الرصاص فى أحد الادراج تحت ثيابى الداخلية . فعلت ذلك كله فى لحظة واحدة ثم عدت لأنام بجانبه . وبعد مضى يومين وضعت الرصاص فى حقيبتى وذهبت لألقى به فى نهر التيبر .

وذات يوم جاء آستاريتا لزيارتى . وكنت قد أوشكت على نسيانه . فقد اعتقدت اننى أديت واجبى فيما يخص موضوع الخادمة ولم اشأ ان افكر فيه بعد ذلك . اذ أبلغنى آستاريتا ان القس كان قد سلم « البدارة » الى الشرطة وان صاحبة «البدارة» بناء على نصيحة رجال الشرطة أنفسهم كانت قد سحبت اتهامها وأخلى سبيل الخادمة دون أن تشوبها شائبة. ولا يفوتنى ان أعترف بأنى سعدت بهذه الاخبار وخاصة لانها بددت احساسى بالشؤم الذى ظل يلازمنى منذ اعترافى الاخير . ولم أعد أفكر فى الخادمة التى أخلى سبيلها أخيرا بل انحصر تفكيرى فى مينو وقلت لنفسى انه لم يعد

الآن ما أخشاه بالنسبة لكلينا بعد زوال الخطر من الوشاية التي كنت أتوقعها . ولم أتمالك نفسي وقد استخفتني الفرحة من معانقة آستاريتا .
فسألني قائلا وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالشك : «أكنت متحمسة الى هذا الحد للافراج عن تلك المرأة اذن ؟ » .
فكذبته قائلة : « لعل ذلك يبدو غريبا فى نظرك . فأنت ترسل الكثيرين من الابرياء الى السجن كل يوم دون أن يخالجك شيء من تأنيب الضمير . أما أنا فلشد ما تعذبت لذلك » .
فتمتم قائلا : « انى لا أرسل أحدا الى السجن. بل أؤدى واجبى فحسب » .
وسألته قائلة : « هل رأيت القس شخصيا ؟ » .
— « كلا ، لم أره . بل اتصلت تليفونيا فأبلغونى ان « البدارة » كان قد سلمها اليهم فى الواقع أحد القساوسة مع التزامه بسر الاعتراف فقد أعطاه اياها أحد المعترفين . وعندئذ أوصيت بالافراج عن الخادمة . »
فظللت غارقة فى تأملاتى دون أن أدرى لذلك سببا .
ثم سألته قائلة : « أتحبنى حقا ؟ »
فعراه الاضطراب لهذا السؤال فى الحال ثم عانقنى وهو يتلعثم قائلا : « لماذا تسأليننى ؟ كان ينبغى الآن أن تعلمى » .
وأراد أن يقبلنى ولكننى تحاشيته قائلة : « أردت أن أعلم لأنى أتساءل عما اذا كنت ستقف الى جانبى دائما — كلما طلبت اليك ذلك — كما فعلت فى هذه المرة » .
فأجابنى قائلا وهو يرتجف من أعلى رأسه الى اخمص قدميه : « دائما » ثم قال رافعا وجهه نحوى : « ولكنك سترفقين بى ؟ »
وكنت الآن قد قررت بعد عودة مينو أن أقطع كل صلة تربطنى بآستاريتا . فقد كان يختلف عن عشاقى العابرين المألوفين . فمع اننى كنت لا أحبه بل أحس نحوه أحيانا بكراهية أكيدة بالفعل فقد شعرت ربما لهذا السبب نفسه بأن فى استسلامى له خيانة لمينو .
وراودتنى الرغبة فى مصارحته بالحقيقة وذلك بقولى : « كلا ، لن أترفق بك » . ولكننى عدلت عن ذلك فجأة وكبحت جماح نفسى .
فتذكرت ما كان يملكه من سلطة واسعة كما تذكرت ان جياكومو قد يقبض عليه فى أية لحظة وانه ليس من الحكمة أن أغضبه اذا كنت أريده أن يتدخل للافراج عنه. لذا فقد استسلمت قائلة فى همس :

« نعم سأترفق بك » .

فألح قائلا وقد واتته الجرأة : « أخبريني ، هل تحبينني قليلا؟»

فقلت في صراحة : « كلا ، اني لا أحبك . وانت تعلم ذلك ــ فقد سبق أن قلته لك مرارا » .

ــ « ألا تحبينني يوما ما ؟ »

ــ « لا أعتقد ذلك . »

ــ « ولكن لماذا ؟ »

ــ « لا سبب هناك . »

ــ « أتحبين شخصا آخر ؟ »

ــ « هذا لا يمكن أن يهمك في شيء . »

فقال في يأس وهو ينظر الى بعينيه الصفراوين : « ولـكنني في حاجة الى حبك . فلم لا تحبينني ولو قليلا ؟ »

ويومئذ سمحت له بالبقاء معي حتى ساعة متأخرة من الليل. فلم يكن ثمة سبيل الى عزائه بسبب عجزي عن حبه كما بدا لي انه لم يقتنع قط بصحة ما كنت أقول . فقد احتج قائلا : « ولـكنني لست أسوأ من غـيري . فلم لا تسـتطيعين أن تحبيني بدلا من شخص آخر ؟ » ولشد ما أسفت له في الحقيقة . ولما كان مصرا على سؤالي عن طبيعة مشاعري نحوه وعلى تلمس بعض الوقود لاماله في اجاباتي فقد كدت أستجيب للاغراء بكذبه حتى أبعث في نفسه فقط ذلك الوهم الذي كان يحن اليه . فقد لاحظت في ذلك المساء انه كان أكثر حزنا ونفورا من مألوف عادته وكأنه كان يريد بحركاته ومواقفه أن يوقظ عندي ظاهريا ذلك الحب الذي حـرمه منه قلبي . واني أذكر انه في لحظة معينة طلب الى أن أجلس عارية في أحد المتكآت . ثم جثا أمامي متوسدا حجري وضاغطا بوجهه في قوة على بطني حيث ظل بعض الوقت على تلك الصورة بلا حراك . وفي تلك الاثناء كان على أن أربت بيدي على رأسه مرارا وتكرارا بلمسـات خفيفة مستمرة . ولم تكن هذه أول مرة يرغمني فيها على اتيان حركات شبيهة بحركات الحب . ولـكنه كان يبدو يومئذ في حال أكثر يأسا من مألوف عادته . راح يضغط برأسه في عنف الى داخل حجري وكأنه يريد أن يلجني بكيانه كله لتحتويه أحشائي ولم يفتأ يتأوه من وقت لآخر . ولم يعد يبدو في تلك الاوقات عشيقا بل طفلا ينشد الدفء والظلام في حجر أمه . وخطر لي ان كثيرا من الرجال كانوا يؤثرون الا يولدوا قط وان حركته تلك كانت تعبر بطريقة لا

واعية عن ذلك الحنين الغامض للعودة من جديد الى حيث تحتويه تلك الاحشاء المظلمة التي لفظته في ألم الى الضوء .

وفى تلك الليلة ظل جاثيا مدة طويلة حتى انتابنى النعاس واستغرقت فى النوم وقد ارتمى رأسى الى الخلف على ظهر المقعد بينما بقيت يدى على رأسه . ولست أدرى كم طال النوم بى ولكننى فى لحظة معينة استيقظت من نومى ولمحت آستاريتا الذى لم يعد جاثيا عند قدمى بل جالسا فى مقعد أمامى وقد ارتدى ملابسه حيث ظل يحملق فى بعينيه الصفراوين الحزينتين . ولكن ربما كان ذلك حلما فحسب أو نوعا من الهذيان . والحقيقة اننى صحوت فجأة على صورة لا شبهة فيها فوجدت أن آستاريتا قد رحل تاركا فى حجرى حيث كان يوسد راسه ذلك المبلغ المعهود .

ومضى ما يقرب من اسبوعين كانا من أسعد أيام حياتى . فقد تعودت أن ارى مينو كل يوم تقريبا . ومع انه لم يطرأ تغير ما على علاقتنا فقد كنت قانعة بتلك العادة التى اكتسبناها والتى بدت فى النهاية أساسا مشتركا بيننا . وكان من المسلم به فى صمت بيننا انه لا يحبنى ولن يحبنى وانه على اية حال لم يفتأ يفضل العفة على الحب . كما كان من المسلم به بنفس القدر اننى احبه واننى سأظل دائما أحبه رغم عدم اكترائه بى واننى على أية حال كنت افضل حبا كهذا مع ما فيه من نقص وذبذبة على اى حب آخر . فقد كنت اختلف فى طبعى عن آستاريتا ـ ذلك لاننى وقد سلمت بحرمانى من حب من أهوى فان متعتى بحبى له كانت تبلغ مع ذلك حدا بعيدا . ولعل بصيصا من الامل كان يراودنى فى قرارة قلبى بأن احظى بحبه يوما ما نتيجة لاذعانى وحبى وصبرى . ولكننى كنت لا أفعل شيئا لتقوية ذلك الامل الذى كان يضفى على دغدغته الكارهة المترددة أكثر من اى شىء آخر مذاق التابل المر .

ولكننى بالطبع بذلت كل ما فى وسعى لأدخل حياته دون أن افرض نفسى عليها . ولما كنت لا أستطيع ذلك عن طريق الباب الرئيسى فقد استخدمت ذكائى فى محاولة الدخول عن طريق الباب الخلفى . فعلى الرغم من كراهيته الواضحة التى اومن بصدقها للجنس البشرى فان ثمة تناقضا غريبا كان يدفعه بقوة لا تقاوم الى الدعوة والعمل لنصرة ما كان يعتقد ان فيه خير البشرية . وكانت تلك القوة الدافعة رغم اخلاصها لا تفتأ تعوقها بلا شك فى أغلب الاحيان نوبات مفاجئة من الاسف والنفور الساخر المتهكم . فقد بدا حينذاك

متحمسا لتعليمى كما كان يشير اليه فى تهكم وسخرية . ولما كنت أحاول ربطه بى كما سبق أن قلت فقد جبذت فيه ذلك الاتجاه ، ولكن التجربة ما لبثت أن انتهت فى الحال تقريبا على صورة أعتقد انها جديرة بالذكر . فقد ظل يأتى لزيارتى عدة أمسيات متتالية حاملا معه بعض كتبه . وبعد أن شرح الموضوع لى باختصار أخذ يقرأ فقرة هنا وفقرة هناك . وكانت قراءته جيدة يتخلل صوته فيها عدد كبير متنوع من نغمات التعبير طبقا لما تتطلبه المادة التى يقرؤها. كما كان يحدوه حماس احمر له وجهه وأضفى على ملامحه حيوية غير مألوفة . ولكننى رغم ما بذلته من جهد جهيد لم أستطع أن أفهم ما كان يقرؤه . وما لبثت أن انصرفت عن الاصغاء اليه واكتفيت بمراقبة شتى التعبيرات التى كانت تمرق عبر وجهه أثناء قراءته وكنت أجد فى ذلك متعة لا يدركها الملل قط . ولشد ما كان يستسلم لمشاعره أثناء تلك القراءات بلا خوف أو سخرية كمن يعيش فى دنياه ولم يعد يساوره الخوف من اظهار صدقه واخلاصه . وقد لفتت نظرى تلك الحقيقة لاننى كنت لا أفتأ أعتقد حتى تلك اللحظة ان الحب لا الادب هو أكثر الظروف ملاءمة لازدهار الروح البشرية . ومن الواضح ان العكس كان صحيحا فى حالة مينو . فلا شك اننى لم أر على وجهه قط ولا حتى فى لحظات حبه النادرة مارأيته حينذاك من حماس وصدق وهو يقرأ لى فقرات لكتابه المحبوبين رافعا صوته فى نبرات جوفاء على صورة غريبة أو خافضا اياه الى مستوى الحوار . وفى مثل هذه الاوقات كان يزايله تماما مظهره المسرحى الهزلى المتكلف الذى لم يكن يفارقه قط حتى وهو فى أحرج المواقف مما يوحى الى من يراه بأنه لا يفتأ يمثل دورا سطحيا مقصودا . بل كنت فى كثير من الاحيان أرى عينيه وقد أغرورقتا بالدموع . ثم اذا به يغلق الكتاب ويسألنى فجأة قائلا : « هل اعجبك ؟ »

وكنت أجيبه عادة بالايجاب دون تحديد السبب وهو أمر ما كان فى استطاعتى أن أفعله لاننى كما قلت قد أقلعت منذ البداية عن كل محاولة لفهم معنى ذلك الكلام الغامض . ولكنه ذات يوم ألح على قائلا : « أخبرنى لماذا اعجبك . فسر لى ذلك » .

فأجبته قائلة بعد لحظة من التردد : « الحقيقة اننى لا استطيع تفسير ذلك لاننى لم أفهم كلمة واحدة » .

— « ولم لم تخبرينى بذلك ؟ »

— « انى لم أفهم شيئا — ما خلا النذر اليسير — مما كنت تقرأ »

ـ « وتتركينني أواصل القراءة دون أن تنذريني ! »

ـ « رأيتك مستمتعا بالقراءة فلم أشأ أن أفسد عليك متعتك ـ ولكنني على أية حال لم أمل قط ـ فلشد ما تسرني مراقبتك أثناء القراءة » .

فوثب واقفا على قدميه وقد استبد به الغضب قائلا : « يا للشيطان ! فأنت حمقاء بلهاء . وها أنذا أبدد أنفاسي ـ مع بلهاء مثلك ! » ثم بدا وكأنه يهم بأن يقذفني بالكتاب ولكنه كبح جماح نفسه في الوقت المناسب وظل يسبني على تلك الصورة فترة طويلة. فتركته ينفس عن غضبه بعض الوقت ثم تكلمت قائلة : « أنت تريد أن تعلمني ولكن الشرط الاول لتعليمي هو أن أتخلص من ضرورة كسب القوت بالطريقة التي أمارسها ـ فليس ثمة ما يدعوني مطلقا الى قراءة الشعر أو تأملات حول الاخلاق لكي أجتذب الرجال . بل ربما كنت أجهل القراءة والكتابة تماما ولكنني مع ذلك أتقاضى أجري » .

فقال متهكما : « أنت تبغين أن يكون لك بيت جميل وزوج وأطفال وثياب وسيارة . أليس كذلك ؟ ولكن المشكلة هي ان النساء جميعا لا يقرأن ولو كن من طبقة أسرة لوبيانكو ـ لاسباب مختلفة عما تبدين ولكنها لا تقل عنها وجاهة من وجهة نظرهن » .

فقلت في تبرم : « لست أدري ماذا أبغي . ولكن هذه الكتب لا تلائم ظروف حياتي . كمن يعطي سائلا قبعة باهظة الثمن ثم يتوقع منه أن يرتديها وهو في أسماله البالية المألوفة » .

فقال : « ربما . ولكنني لن أقرأ لك بعد ذلك سطرا واحدا ».

وما ذكرت ذلك النزاع التافه الا لأنه يمثل بالضبط أسلوبه في التفكير والسلوك . واني لأشك فيما لو كان سيواصل جهوده لتعليمي حتى لو لم أعترف له بعجزي عن فهمه . ولا يرجع اعتقادي هذا الى تقلبه فحسب بل الى عجزه عن المثابرة على أي عمل يتطلب حماسا مخلصا مستمرا . ولعل ذلك العجز يرجع في أصله الى ناحية جسمانية . كما ادركت ان ذلك الطابع الهزلي الذي كانت تتسم به الفاظه كثيرا ما كان يطابق في الواقع حالته النفسية رغم انه لم يتحدث عنها قط . فكنت تراه يتحمس لأي هدف ويظل ينظر اليه كشيء محسوس يمكن الوصول اليه ما دامت جذوة حماسه لم تنطفيء . أما اذا خمدت وهو ما يحدث فجأة فانه لا يشعر بشيء سوى الملل وينتابه قبل كل شيء احساس بالسخف

المطلق . وعندئذ اما أن يسلم نفسه لنوع كئيب متبلد من اللامبالاة واما أن يسلك سلوكا تقليديا سطحيا كما لو كانت جذوة حماسه لم تنطفىء قط ــ وباختصار فانه يتظاهر . ومن المتعذر على الى حد ما أن أفسر ما كان يحدث له فى مثل هذه الازمات ــ فلعله كان يحس بتوقف مباغت فى حيويته وكأن حرارة دمه قد بردت فجأة مخلفة فى ذهنه فراغا مجدبا . كان انقطاعا فوريا تاما لا سبيل الى التنبؤ به ولا يمكن مقارنته الا بانقطاع تيار الكهرباء مما يتسبب عنه انتشار الظلمة المفاجئة فى منزل كان قبل ذلك بلحظة واحدة مضاء على صورة بهيجة أو بالمحرك الذى تنقطع عنه فجأة قوة الكهرباء فتتوقف فيه كل عجلة صغيرة عن الحركة وتظل ساكنة . وكانت حالات الحماس والفتور التى كثيرا ما كانت تنتابه فى تعاقب هى التى كشفت لى لاول مرة عن حركة المد والجزر المستمرة فى أعمق قواه الحيوية . ولكن لشد ما انكشفت لى تلك الظاهرة فى النهاية عن طريق حادث غريب لم اعلق عليه حينذاك أهمية ما . غير انه بدا لى فيما بعد عظيم الاهمية .

فقد سألنى قائلا ذات يوم على غير انتظار مطلقا : « اتبغين أن تفعلى شيئا من أجلنا ؟ »

ــ « من أجل من ؟ »

ــ « من أجل جماعتنا ، كأن تساعديننا فى توزيع منشوراتنا مثلا ؟»

وكنت لا أفتأ أتحين الفرص لأقربه منى وأقوى علاقتى به .

فاجبت قائلة فى اخلاص : « بالطبع ، مرنى بما يجب أن أفعل وسأفعله » .

ــ « ألست خائفة ؟ »

ــ « ولماذا ؟ اذا كنت أنت تفعل ذلك . »

فقال : « نعم . ولكننى يجب أن أوضح لك أولا ما هو الفرض من كل هذا . فعليك أولا أن تتفهمى الافكار والمبادىء التى من أجلها تعرضين نفسك لمثل هذا الخطر » .

ــ « اذن فلتشرحها لى . »

ــ « ولكننى لا أجد منك اهتماما . »

ــ « لماذا ؟ فان اهتمامى أمر لا شك فيه ــ كما أن كل ما تفعله يهمنى ولو لم يكن لذلك من سبب سوى انك انت الذى تفعله . »

نظر الى فاذا بعينيه تلمعان فجأة واذا بوجنتيه تحمران على صورة غير متوقعة مطلقا . ثم قال فى عجلة : « حسنا . لقد تأخر

بنا الوقت اليوم ـ ولـكننى غدا سأشرح لك كل شيء بنفسي ما دمت تستأمين الكتب . ولـكن حذار فان الامر يطول شرحه وعليك أن تنصتي وتتابعيني حتى ولو خيل اليك أحيانا انك لا تفهمينني » .

فقلت : « سأحاول أن أفهم » .

وأجابني قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ينبغى عليك أن تفعلى » . ثم تركني وانصرف .

وفى اليوم التالى ظللت أنتظره ولـكنه لم يأت . ثم جاء بعد يومين وما ان دخل غرفتى حتى جلس على المتكأ عند أسفل الفراش دون أن ينبس بكلمة .

فقلت مبتهجة : « حسنا . انى على استعداد . فها أنذى أنصت اليك » .

وكنت قد لاحظت تعبيره المكتئب وعينيـــه الحزينتين ومظهره المتعب المتخاذل ولـكننى لم أشأ أن أعلق عليه بكلمة .

وأخيرا قال : « لا يجدى انصاتك لانك لن تسمعى شيئا » .

ـ « ولمـــاذا ؟ »

ـ « لهذا . »

فاحتججت قائلة : « والآن أصدقنى القول ـ انك تظن انني من الغباوة والجهالة بحيث لا أستطيع أن أفهم بعض الامور . أليس كذلك ؟ شكرا ! » .

فقال بلهجة جادة : « كلا ، بل أنت مخطئة » .

ـ « اذن فلماذا ؟ »

وظللنا بعض الوقت على تلك الصورة فلم أفتأ ألح فى معرفة السبب ولـكنه رفض أن يدلى بشيء . وأخيرا قال : « أتبغين حقـــا أن تعرفى الســـبب ؟ لانني الآن لا أعرف أنا نفسى كيف أعبر لكِ عن هذه الافكار » .

ـ « لم لا ؟ ـ ما دمت تفكر فيها طوال الوقت ! »

ـ « لا شك أننى أفكر فيها طوال الوقت . انى أعلم ذلك . ولكن هذه الافكار صارت منذ أمس مستغلقة على ادراكي . ولا يعلم الا الله متى يزايلنى هذا الاحساس . فأنى أصـــارحك بأنني لا أفهم شيئا . »

ـ « انك لا تعنى ما تقول ! »

فقال : « حاولى أن تفهمى . فمنذ يومين عندما اقترحت عليك أن تعملى من أجلنا كنت على ثقة تامة بأننى لو شرحت لك مبادئنا

لأنجزت تلك المهمة فى قوة ووضوح واقناع ولتفهمتها تماما . أما اليوم فربما جرى لساني وشفتاي بسلسلة من الالفاظ ولكن على صورة آلية للغاية دون أن أسهم فيها بشيء » . ثم ردد كلامه مشددا على كل مقطع ينطق به قائلا : « فأنا اليوم لا أفهم شيئا » .

— « لا تفهم شيئا ؟ »

— « نعم . لا أفهم شيئا . فقد تحولت الافكار والمبادىء والحقائق والذكريات والمعتقدات بل تحول كل شيء الى كتلة — كتلة تملأ رأسى ثم نقر على جبهته بأصابعه قائلا : « رأسى بأكمله — وهى تنفرنى كما لو كانت برازا » .

فنظرت اليه فى ترقب حائر . وبدا لى ان رجفة من السخط قد سرت فى بدنه ازاء تلك النظرة . ثم صاح قائلا : « حاولى أن تفهمى فان كل شيء يبدو اليوم مستغلقا على ادراكى . كل شيء يبدو سخيفا . ليس هذا مقصورا على الافكار فحسب بل كل ما يكتب أو يقال أو يعتقد . فهل تعرفين مثلا صلاة الرب ؟ » .

— « نعم .. »

— « اذن فلتتلها .. »

فبدأت أتلو الصلاة قائلة — « أبانا الذى فى السماوات . »

ولكنه قاطعنى قائلا — « يكفى هذا . والان فكرى فقط كم من الطرق تليت بها هذه الصلاة على مدى القرون . وكم صاحبتها من العواطف المختلفة ! انى لا أفهمها مطلقا بأية صورة من الصــور . اذ يمكنك تلاوتها من آخرها الى أولها ولن يغير ذلك من الأمر شيئا بالنسبة لى»

ولزم الصمت لحظة . ثم استرسل قائلا — « ولكن هذا التأثير لا تحدثه فى نفسى الالفاظ فحسب بل الاشياء كذلك — والناس . فها أنت ذى جالسة بجانبى على ذراع هذا المقعد ولعلك تعتقدين اننى أستطيع أن أراك ؟ ولكننى لا أراك لاننى لا أستطيع أن افهمك — بل ربما لمستك ولكننى مع ذلك لا أفهمك — بل انى سألمسك فى الواقع — » واذا به وهو يتكلم يجذب عباءتى المنزلية كاشفا عن ثديى وكأن مسا من الجنون قد أصابه فجأة . ثم عاد يقول فى غضب قابضا على ثديى بقوة على صورة لم استطع معها ان اكتم صرخة الم صغيرة — « وها أنذا ألمس ثديك . وأستشعر شكله ودفئه واستدارته وأرى لونه ورسمه . ولكننى لا افهم ما هو . فانى احدث نفسى قائلا — « ها هو ذا شيء مستدير دافىء لين أبيض منتفخ يتوسطه بروز صغير مستدير قاتم اللون — يدر اللبن وعند دغدغته يورث اللذة .

ولكننى لا أفهم شيئا . فانى أقول لنفسى انه جميل . وينبغى أن يملأنى بالرغبة غير أننى مع ذلك لا أفهم شيئا . والآن أترين ماذا أعنى ؟ » ثم أطلق سراحى فى الحال وما لبث أن قال فى تأمل بعد لحظة — « ولعل ذلك القصور عن الفهم هو الذى يضفى القسوة على الكثيرين من الناس . فهم يحاولون الاتصال بالحقيقة عن طريق ايلام الغير . »

وساد الصمت بعد ذلك . ثم قلت — « اذا كانت هذه هى الحقيقة فكيف تدبر أمرك عندما يفرض عليك أن تأتى أعمالا معينة . »

— « مثل ماذا ؟ »

— « لست أدرى — فها أنت تكلفنى بتوزيع منشوراتكم — وتزعم أنك تكتبها بنفسك . ولكنك ان كنت لا تؤمن بها فكيف يمكنك كتابتها وتوزيعها ؟ »

فانفجر فى نوبة من الضحك الساخر المتهكم قائلا — « أتصرف وكأنى أومن بها فعلا . »

— « ولكن هذا محال . »

— « لماذا ؟ فهكذا يفعل جميع الناس تقريبا الا فى حالات معينة هى الاكل والشرب والنوم والمضاجعة . فجميع الناس تقريبا يأتون أعمالا وكأنهم يؤمنون بها . ألم تلاحظى ذلك ؟ »

ثم ضحك فى عصبية .

وأجبته قائلة — «كلا . لم الاحظ ذلك . »

فرد قائلا بلهجة مسيئة تقريبا — « انك لم تلاحظى ذلك لانك تقنعين بالاكل والشرب والنوم والمضاجعة كلما احسست بالرغبة فى ذلك . وانى أعتقد أن هذه الأمور لا ضرورة للتظاهر فيها . » وفجاة ضحك ثم صفعنى بقوة على فخذى وضمنى كعادته بين ذراعيه قائلا وهو يهصرنى ويهزنى — « ألا تعلمين أنه عالم « كما لو » ؟ ألا تعلمين أن الجميع — ابتداء من الملك حتى أحقر شحاذ يتصرفون « كما لو » — انه عالم « كما لو — كما لو — كما لو »

وتركته يفعل ما يشاء لاننى كنت أعلم أنه يحسن بى فى مثل هذه الاوقات ألا أظهر استيائى او احتج على سلوكه بل أنتظر حتى يزايله سخطه وتبرمه . ولكننى أخيرا قلت له فى ثبات — « انى أحبك — هذا هو كل ما أعرفه . وحسبى ذلك . »

فقال ببساطة وقد عاوده الهدوء فجأة — « انك على حق . »وانتهى المساء بالطريقة المعتادة دون ان نعود الى الحديث فى السياسة او الى

عجزه عن مناقشة الموضوع ·

وعندما خلوت الى نفسى مرة أخرى انتهيت بعد تفكير طويل الى أن الامور ربما كانت كما صورها · ولكن الارجح كثيرا أنه أبى أن يتحدث الى فى السياسة لانه اعتقد أننى ربما عجزت عن فهم ما يقول أو لانه خشى أن أعرضه للشبهات بسبب ما قد أرتكبه من اهمال · ولم يخطر ببالى أنه يكذب · فقد علمتنى خبرتى أن كل فرد يمر فى حياته يوم يبدو له فيه العالم وقد انهار حطاما او كما قال يقصر فيه عن فهم كل شىء حتى صلاة الرب · كما أن ذلك الاحساس نفسه تقريبا بالملل والنفور والكآبة كان يخالجنى أنا أيضا عندما ينتابنى المرض أو السخط لاى سبب من الاسباب · فمن الواضح أن ثمة دافعا اخر بلا شك دعاه الى الامتناع عن دعوتى لمشاركته ذلك الجانب الخفى من حياته الذى لشد ما أحيط بالكتمان - ذلك الدافع كما سبق أن قلت هو عدم الثقة بذكائى أو بحسن تقديرى للامور · ولم أدرك خطئى الا بعد فوات الاوان فان مثل هذه الحالات النفسية المرضية كانت عنده ذات خطورة خاصة بسبب شبابه المفتقر الى الخبرة أو بسبب ضعف شخصيته ·

ولكننى اعتقدت حينذاك أن الحكمة تملى على أن أنسحب وألا أزعجه بفضولى · وذلك هو ما فعلته ·

الفصل الثامن

لست أدرى السبب فى ذلك ولكننى ما زلت أذكر جيدا كل ما حدث حتى حالة الطقس حينذاك · كان شهر فبراير قد مضى ببرده وأمطاره وظهرت مع حلول شهر مارس تباشير الجو المعتدل · فكانت السماء بأسرها تغطيها شبكة كثيفة من السحب البيضاء الرقيقة التى تشبه نسيج العنكبوت والتى ما ان يواجهها المرء فى الطريق بعد خروجه من ظلام المنزل حتى تبهر بصره · وكان الهواء لطيفا معتدلا ولكنه ما زال خدرا من أثر عنف الشتاء وقسوته · سرت فى ذلك الضوء الرقيق الناعس الذى لم تكتمل يقظته بعد تحدونى لذة مذهولة بينما أبطىء السير مغمضة عينى من وقت لاخر أو أقف ساكنة وقد عرتنى الدهشة لاحملق فى أتفه الاشياء : فى قط راح يلعق نفسه على احدى عتبات الدور وقد اختلط بياضه بسواده · أو فى غصن كان يتدلى من احدى أشجار الدفل وقد أذوته الريح ولكنه مع ذلك ربما صار مزهرا او فى ذؤابة من الكلأ الاخضر كانت تنبت بين بلاط الافريز · ولقد امتلأت نفسى باحساس عميق بالطمأنينة والثقة عندما رأيت الطحلب على أثر أمطار الشهور السابقة وقد تناثر فى الفجوات هنا وهناك عند أسفل الدور فقد خطر لى أنه اذا أمكن أن يترعرع مثل ذلك المخمل الزمردى الجميل فى تلك التربة الهزيلة المتناثرة بين حزازات الصخر والزلط فان حياتى التى لم تتعمق جذورها مثلما تعمقت جذور الطحلب والتى يكفى أقل غذاء لنموها وازدهارها والتى لم تكن فى الحقيقة سوى نوع من ذلك النبت الذى ينمو عند أسفل المبانى ، هذه الحياة كان من المحتمل الى حد ما استمرارها وازدهارها · فقد كنت مقتنعة بأن كل ما مررت به من تجارب بغيضة فى الماضى القريب قد انتهى الى الابد · فانى لن أرى سونزونيو ولن أسمع شيئا عن جريمته مرة أخرى · وأنه يمكننى من الان فصاعدا أن أستمتع بعلاقتى بمينو دون أن يزعجنى شىء · وبينما كانت تتراءى لى تلك الخواطر بدا لى أننى أذوق طعم الحياة الحقيقى لاول مرة تذوقا تاما فاذا بها خليط من السأم المخفف والفرصة والامل ·

بل بدأت أرى أمامى بوادر فرصة لتغيير أسلوب حياتى . فان حبى

لمينو كان يجعلني أشعر في قرارة قلبي بالفتور نحو غيره من الرجال . ولذا فانني لم أعد أحس في علاقاتي العارضة بذلك الدافع العنيف الشهواني . ولكنني كنت أعتقد أيضا أن سبل الحياة كلها تتساوى وانه ليس مما يستحق العناء أن يبذل المرء جهدا كبيرا لتغيير أسلوب حياته . وكنت قد قررت ألا أفعل ذلك الا اذا اكتسبت عادات وعواطف واهتمامات جديدة وأصبحت فتاة تختلف تماما عما كنت عليه حتى ذلك الوقت على أن يتم ذلك التحول دون صدمة أو انقطاع مفاجيء بل من تأثير ظروف لا دخل لارادتي فيها . وكنت لا أرى وسيلة أخرى لتغيير اسلوب حياتي . كما كنت حينذاك لا أطمح مطلقا في تحقيق أي نجاح أو تقدم مادي . وكنت لا اعتقد انني بتغيير أسلوب حياتي أستطيع تحسين ظروفي في أية صورة من الصور .

وذات يوم صارحت مينو بهذه الاراء . فأصغى الي بانتباه ثم قال — « أعتقد انك تناقضين نفسك . أليس كذلك ؟ الا تقولين دائما انك تودين لو صرت غنية ولو كان لك منزل جميل وزوج وأطفال ؟ ولا شك مطلقا في انه ينبغي أن يكون لك ما تبغين . وربما تحقق لك ذلك يوما ما — ولكنك لو ظللت تفكرين بهذه الطريقة فلن تحصلي على شيء من هذا . »

فأجبته قائلة — « انني لم أقل مطلقا أنني أبغي هذه الاشياء . بل كنت أتمنى لو كانت لي — أي أنه لو اتيحت لي حرية الاختيار قبل مولدي لما اخترت قطعا ان أكون كما أنا . ولكنني ولدت في هذا المنزل ومع هذه الام وفي هذه الظروف . فأنا ما أنا رغم كل شيء . »

— « ماذا تعنين بذلك ؟ »

— « أعني أن رغبتي في أن أكون شخصا آخر تبدو سخيفة في نظري . فأنا لا أحب أن أكون شخصا آخر الا اذا أمكنني في نفس الوقت أن أظل محافظة على ذاتي . أي اذا أمكنني حقا أن أبتهج لما يحدث من تغيير . أما أن أصير شخصا آخر لمجرد التغيير فحسب فذلك أمر لا يستحق العناء . »

فهمس قائلا — « بل انه يستحق العناء دائما ان لم يكن من اجلك فمن أجل الآخرين »

فاسترسلت في حديثي قائلة دون أن التفت الى مقاطعته — « كما أن الاهمية العظمى للحقائق . الا تعتقد انه كان في امكاني العثور على عشيق موسر مثلما فعلت جيزيلا ؟ أو ان اتزوج ؟ فان كنت لم أفعل فان ذلك معناه انني في قرارة قلبي لم اشأ ذلك على الرغم من كل ما أقول »

فهتف قائلا وهو يعانقنى صاخبا ـ « ولكنى سأتزوجك . فأنا غنى ـ وعندما تموت جدتى وهو أمر لن يطول انتظاره الآن فسوف أرث عنها أفدنة من الارض فضلا عن فيللا فى الريف وشقة فى المدينة وسوف نؤثث المنزل على صورة لائقة حيث تدعين سيدات الحى الى «لقاءاتك المنزلية » . كما ستكون لدينا طاهية وخادمة للمائدة وعربة يجـــرها حصان واحد أو سيارة . بل لعلنا نكتشف ذات يوم بمجهود بسيط أننا ننحدر من أصل نبيل فنحصل على لقب كونت أو ماركيز »

فقلت وأنا أدفعه بعيدا ـ « لا يمكننى بحال أن اتحدث أليك حديثا جادا . فانك تجعل من كل شىء مادة للمزاح »

وذات مساء ذهبت الى السينما فى صحبة مينو . وعند عودتنـــا ركبنا تراما مزدحما . فقد كان من المتفق عليه أن يعود مينو معى الى المنزل وان نتناول العشاء معا فى حانة بالقرب من أســوار المدينة . فتناول مينو البطاقتين وشق طريقه وسط الزحام الذى كان يســد مدخل الترام . وحاولت أن أكون على مقربة منه ولكنه اختفى عن بصرى عندما تمايل الزحام الى الامام . وبينما كنت أبحث عنه أثناء وقوفى مسحوقة بجانب أحد المقاعد اذا بشخص يلمس يدى . وما ان خفضت بصرى حتى رأيت ســونزونيو جالسا هناك أسفل عينى مباشرة .

فشهقت وأحسست بوجهى يمتقع لونه ويتغير تعبيره . كان يتطلع الى بنظرته المعهودة التى لا تحتمل . ثم نهض قليلا من مقعده وتحدث الى من بين أسنانه المطبقة قائلا :

ـ « أتريدين الجلوس ؟ »

فتلعثمت قائلة ـ « شكرا لك . ولكنى سأغادر الترام بعد قليل »

ـ « اجلسى » .

فرددت كلامى قائلة ـ « شكرا لك . » ثم جلست . ولو أننى لم أفعل ذلك لكان من المحتمل أن يغمى على .

ظل واقفا بجانبى وكأنه يحرسنى وقد أمسك بكلتا يديه ظهر مقعدى والمقعد الامامى . وكان كما هو تماما لم يطرأ عليـــه تغير ما . فكان لا يزال يرتدى نفس المعطف الواقى من المطر يحيط بخصره حـزام محكم وفــكه لا يزال يختلج بنفس الطريقة الآلية . فأغمضت عينى وحاولت مؤقتا أن أنسق أفكارى . حقا هكذا كان يبدو دائما . ولكن خيل لى عندئذ اننى أرى فى عينيه تعبيرا اشد قسوة وصرامة . وما ان تذكرت اعترافى حتى خطر لى انه لو كان القس قد أفشى السر كما

اعتقدت أنه لابد فاعل ونمى ذلك الى علم سونزونيو لما كانت لحياتي قيمة تذكر .

لم يخفني ذلك الخاطر . ولكنه لشد ما بث الرعب فى قلبى وهو واقف هناك فى تصلب بجانبى ـ أو الاحرى انه كان يسحرني ويسيطر على . وخيل لى أننى لا استطيع أن أرفض له طلبا وان ثمة رباطا اقوى بكثير مما يربطنى بمينو كان يشدنى اليه مع أنه لم يكن حبا . ولاريب أنه هو أيضا كان يشعر بذلك شعورا غريزيا . فقد كان موقفه منى دائما موقف السيطرة والسيادة . ثم ما لبث ان قال ـ « فلنذهب الى شقتك » .

فأجبته قائلة فى انقياد دون أقل تردد ـ « ان شئت » .

وأقبل مينو وهو يشق طريقه وسط الزحام فى شيء من الصعوبة ثم وقف بجانب سونزونيو تماما متشبثا بنفس المقعد الذى كان يمسك به بل كانت أصابعه الطويلة النحيلة تحتك فعلا بأصابع سونزونيو القصيرة الغليظة . واهتز الترام فارتمى كلاهما على الاخر ورجاه مينو فى أدب أن يعفو عنه لاصطدامه به . وبدأت أشعر بالضيق لرؤيتهما معا فى تقارب شديد ولكن دون أن يعرف كلاهما الاخر على الاطلاق . وفجأة استدرت نحو مينو فى تعمد على صورة لا يتخيل معها سونزونيو اننى أخاطبه قائلة ـ « انصت الى ـ لقد تذكرت الان فقط اننى على موعد مع شخص هذا المساء . فالاجدر بنا أن نفترق الان » .

ـ « سأصحبك الى المنزل ان شئت » .

ـ « كلا ـ فسألتقى بهذا الشخص عند موقف الترام » .

وكان ذلك أمرا مألوفا . فقد كنت لا أزال اصحب الرجال الى المنزل . وكان مينو على علم بذلك . فقال فى هدوء ـ « كما تشائين . اذن فسألقاك غدا » . فأومأت برأسي موافقة ثم مضى بعيدا خلال الزحام .

وبينما كنت أراقبه وهو يشق طريقه بين الناس اذا بى أتعرض لحظة لنوبة من اليأس العنيف . فقد خيل لى أننى أراه لاخر مرة ولكننى لم أدر لماذا راودنى ذلك الخاطر . فتسمرت محدقة نفسى وأنا أتابعه بعينى قائلة ـ «وداعا يا حبيبى» . وأردت أن أصيح لأستوقفه فيعود مرة أخرى ولكن صوتى احتبس فى حلقى . وتوقف الترام ثم خيل لى أننى أراه وهو يهبط منه . وعاد الترام فانطلق من جديد . أما سونزونيو وأنا فقد ظللنا صامتين طوال الرحلة . وقد هدأ

روعى الان قليلا وقلت لنفسى أن القس لا يمكن أن يكون قد افشى السر ، ومن ناحية أخرى فانى بعد أن فكرت فى الامر قليلا لم أشعر بالاسف حقا للفانى به . اذ أننى بهذه الطريقة سوف أتخلص الى الابد من وساوسى وشكوكي ازاء ما تمخض عنه اعترافى من نتائج .

نهضت واقفة عند محطة الترام ثم هبطت منه وسرت قليلا دون أن أنظر خلفى .. كان سونزونيو بجانبى وفى امكانى رؤيته لو أدرت رأسى قليلا . وأخيرا سألته قائلة ـ «ماذا تريد منى ؟ ولماذا عدت ؟»

فقال فى شيء من الدهشة ـ « لقد طلبت الى العودة أنت نفسك !»

وقد صدق فيما قال ولكننى كنت قد نسيت ذلك من شدة الرعب . ثم دنا منى وأمسك بذراعى قابضا عليه بقوة وهو يكاد يرفعنى عن الارض . فسرت الرجفة على الرغم منى فى جميع أطرافى .

ثم سألنى قائلا ـ « من هو ذلك الرجل ؟ »

ـ « أحد أصدقائى »

ـ « هل رأيت جينو مرة أخرى ؟ »

ـ « كلا . أبدا » .

فنظر حوله بسرعة ثم قال ـ « ان ثمة شعورا غريبا لا أدرى له سببا أخذ يراودنى أخيرا منذرا اياى بأن هناك من يتبعنى . ولا يوجد سوى شخصين يمكنهما أن يشيا بى أنت وجينو »

فسألته هامسة ـ « ولماذا يشى بك جينو ؟ » ولكننى أحسست بقلبى يخفق فى عنف .

ـ « كان يعلم اننى سأحمل تلك السلعة الى الصائغ . بل لقد أخبرته باسمه وهو لا يعلم بالضبط أننى قتلته . ولكنه كان فى امكانه بسهولة أن يتكهن بذلك » .

ـ « ان جينو لن يجنى شيئا من الوشاية بك ـ بل أنه لو فعل لوشى بنفسه أيضا »

فتمتم قائلا ـ « ذلك هو اعتقادى »

ثم أردفت قائلة بصوت هادىء للغاية ـ « أما عنى فيمكنك ان تتأكد أننى لم أنبس بشيء . فلست حمقاء ـ اذ أننى لو فعلت لقبض على أنا أيضا » .

فأجابنى منذرا ـ «آمل ذلك من أجلك » ثم أضاف قائلا ـ «ولقد قابلت جينو لحظة . فقال لى على سبيل المزاح أنه يعرف أشياء كثيرة . وذلك هو ما يقلقنى . فهو رجل سوء »

فقلت ـ « لشد ما أسأت معاملته فى ذلك المساء . ولاشك الان

انه يكرهك » . وبينما كنت اتكلم احسست انى اكاد اتمنى لو كان جينو قد وشى به حقا .

فقال فى زهو متجهم ــ « كانت لكمة رائعة ــ وقد ظلت يدى تؤلمنى بعد ذلك مدة يومين »

فاختتمت الحديث قائلة ــ « ان جينو لن يشى بك . فذلك لايتفق مع مصلحته . وفضلا عن هذا فهو لا يجرؤ على ذلك لخوفه الشديد منك » .

كنا نسير فى الطريق ونحن نتبادل الحديث بصوت خفيض دون ان ينظر احدنا الى الاخر . وقد تلونت السماء بضوء الشفق واكتنف الاسوار القاتمة واغصان الدلب البيضاء والمنازل الضاربة الى الصفرة والمنظر النائى فى الطريق الرئيسى ضباب يميل لونه الى الزرقة . وما أن بلغنا الباب الخارجى للمنزل حتى احسست لاول مرة اننى أخون مينو بالفعل . لقد شئت أن أخدع نفسى باعتقادى أن سونزونيــو لا يعدو أن يكون واحدا من بين كثيرين . ولكننى كنت أعلم ان ذلك الاعتقاد لا صحة له . فدخلت الفناء ثم جذبت الباب من خلفى . وهناك وقفت ساكنة فى الظلام ثم استدرت نحو سونزونيو قائلة :

ــ « أنصت الى ــ يحسن بك أن تنصرف » .

ــ « لماذا ؟ » .

أردت أن أصارحه بالحقيقة كلها رغم الخوف الذى انتابنى فقلت ــ « لانى أحب رجلا اخر ولا اريد أن أخونه » .

ــ « ومن هو ؟ أهو ذلك الرجل الذى كان معك فى الترام ؟ »

فأشفقت على مينو وأسرعت باجابته قائلة ــ « كلا . بل شخص آخر لا تعرفه . والان ارجو أن تتركنى ــ أنصرف ؟ »

ــ « ولنفرض اننى لا أبغى الانصراف ؟ »

فبدأت أتكلم قائلة ــ « ولكن الا تعلم أن هناك أشياء معينة لايمكنك اغتصابها » غير أننى لم استطع ان اتم حديثى . ولا ادرى كيف حدث ذلك . اذ أننى دون أن أراه فى الظلام أو أرى حركاته اذا به فجأة يلطمنى بظهر يده على خدى لطمة رهيبة قائلا ــ « امضى »

فهرولت صاعدة الدرج وقد خفضت رأسى . فأمسك بى من ذراعى مرة اخرى وراح يسندنى فى كل خطوة . حتى شعرت وكأنه يكاد يرفعنى عن الارض فأطير فى الهواء . كان خدى يؤلمنى بشدة ولكن ثمة احساسا بالشؤم المنذر كان يخيفنى اكثر من اى شىء اخر . وخيل لى ان هذه اللطمة قد قطعت ما كان من نغم سعيد فى الايام الاخيرة

وظهرت فى الافق من جديد مصاعب الماضى ومخاوفه . فملأنى يأس مطلق وقررت على الفور أن أهرب من المصير الذى حدثتنى به نفسى . قررت أن أهرب يومئذ من المنزل وأن أذهب الى مكان آخر أما الى شقة جيزيلا واما الى غرفة مؤثثة .

ولشد ما أمعنت التفكير فى كل هذه الاشياء حتى أننى لم اكد الحظ اننى فى داخل الشقة وأننى قد عبرت الغرفة الخارجية الى حيث توجد غرفتى • فوجدتنى — بل اكاد اقول اننى صحوت لاجد نفسى — جالسة على حافة الفراش بينما راح سونزونيو يخلع ملابسه قطعة قطعة وهو يضعها فى نظام على أحد المقاعد بحركات دقيقة راضية لا تصدر الا عن شخص منظم فى جوهره • وكانت نوبة الغضب قد زايلته تماما . فقال فى هدوء — « كنت اود لو جئت اليك قبل ذلك . ولكننى لم استطع . ومع هذا فاننى لم أفتأ أفكر فيك » .

فسألته قائلة فى آلية — « وماذا كان تفكيرك بشأنى ؟ »

— « لقد خلق كلانا للآخر . » ثم نهض واقفا وبيده صديره وأردف قائلا بلهجة غريبة — « لقد جئت فى الواقع لاطلب اليك الزواج »

— « ماذا؟ »

— « عندى بعض المال . فلنذهب معا الى ميلان حيث أعرف أصدقاء كثيرين . فانى أريد أن أفتتح جراجا للسيارات . وفى ميلان يمكننا أن نتزوج »

فأحسست وكأنى أذوب من الداخل . وغلبنى احساس بالضعف الشديد جعلنى أغمض عينى • فلأول مرة بعد جينو يعرض على الزواج ويكون المتقدم هو سونزونيو . لشد ما استبد بى حنينى الى الحياة الطبيعية مع زوج وأطفال وها هى ذى الان تعرض على — ولكن المظهر الطبيعى فيها ليس سوى عطاء خاو يحوى كل ما هو شاذ ومخيف . فقلت فى ضعف — «ولكن لماذا ؟ فلا يكاد كلانا يعرف الآخر . فانك لم ترنى سوى مرة واحدة »

فجلس بجانبى واضعا ذراعه حول خصرى ثم قال — « ليس ثمة من يعرفنى خيرا منك . فأنت تعرفين عنى كل شىء »

وخطر لى أن عواطفه ربما كانت مضطربة ثائرة فى أعماقه وأراد أن يظهر لى أنه يحبنى وأننى يجب أن أحبه . ولكن ذلك لم يكن سوى خيال من جانبى فقد خلا سلوكه من كل ما يؤكد ذلك الظن .

فقلت فى صوت خفيض — « أننى لا أعرف شيئا عنك • كل ما أعلمه هو انك قتلت ذلك الرجل » •

www.library4arab.com/vb

فقال وكأنه يحدث نفسه ـ « ثم انى قد سئمت الحياة وحدى . فعندما تعيشين وحدك ينتهى بك الامر الى ارتكاب عمل جنونى »

وبعد لحظة من الصمت تكلمت مرة أخرى قائلة ـ « لا يمكننى ان أقول « نعم » أو « لا » مباشرة على هذه الصورة • اعطنى الفرصة لأفكر فى الامر »

فقال لدهشتى ـ « فكرى فى الامر • فانى لست فى عجلة • » ثم افترق عنى واستمر فى خلع ملابسه .

ولشد ما لفتت نظرى عبارته التى قال فيها ـ « لقد خلق كلانا للاخر » • وأخذت الآن اتساءل عما ان كان مع ذلك محقا فيما يقول • فمن ذا الذى اتوقع أن يتزوجنى الان سوى رجل من صنفه ؟ ثم أليس حقا أن رباطا خفيا أدركته وخشيته كان يشدنى اليه ؟ ووجدتنى أردد فى اذعان محدثة نفسى « الهرب • الهرب » • بينما لم أفتأ أهز رأسى فى يأس .

ثم قلت فى صوت واضح وقد امتلأ فمى باللعاب ـ «هل اقترحت الذهاب الى ميلان ؟ الا تخشى أن يكونوا لك بالمرصاد ؟ »

ـ « قلت ذلك لانى أردت أن أقول شيئا فحسب • ولكن أحـــدا لا يعلم بوجودى فى الواقع »

وفجأة تلاشى ذلك الضعف الذى كان يجعل أطرافى ثقيلة كالرصاص وراودنى احساس بالقــوة والتصميم . فنهضت من مكانى وخلعت سترتى ثم ذهبت لاعلقها على مشجب المعاطف . وأدرت المفتاح فى القفل كالمعتاد ثم سرت فى بطء الى النافذة لاغلق مصراعيها . وما ان وقفت منتصبة القامة أمام المرآة حتى بدأت أفك أزرار سترتى مبتدئة من أسفل . ولكننى توقفت فى الحال تقريبا ثم استدرت نحو سونزونيو وكان جالسا على حافة الفراش وقد انحنى فوق حذائه ليحل رباطه . وقلت بلهجة عارضة متكلفة ـ « استأذنك دقيقة واحدة . فقد كان المفروض أن يزورنى شخص ما هذا المساء . ولذا يجب ان اذهب لانذر أمى بالتخلص منه » فلم يحر جوابا بل انه لم يجد الفرصـــة لذلك • وغادرت الغرفة ثم أغلقت الباب من خلفى • ودلفت الى غرفة الجلوس .

كانت امى عاكفة على ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة • اذ انها كانت قد عادت الى عملها منذ فترة وجيزة لكى تخفف من احساسها برتابة الحياة . فقلت لها بسرعة وبصـــوت هامس ـ « اتصلى بى تليفونيا فى منزل جيزيلا أو زيلندا غدا صباحا » ... وكانت زيلندا

امراة تؤجر الغرف في وسط المدينة حيث كنت اتردد احيانا مع عشاقي . وكانت أمي تعرفها .

ــ « لماذا ؟ » .

فقلت ــ « اني ذاهبة . وعندما يسأل عني ذلك الرجل بالداخل أخبريه أنك لا تعرفين مكاني . »

فجلست أمي هناك فاغرة فاها وهي تحملق في بينما راحت تخرج كبشة من سترة فرائية كنت ارتديها قبل ذلك بعدة أعوام .

ثم أضفت قائلة ــ المهم في الامر الا تخبريه اين ذهبت والا قتلني »

« ولكن ــ »

ــ « النقود مودعة في مكانها المألوف .. اذن فلتحذري .. لا تخبريه بشيء واتصلي بي غدا . » ثم خرجت مهرولة وعبرت الردهة على اطراف أصابعي ثم بدأت أهبط الدرج

وما ان بلغت الشارع حتى أخذت أركض . كنت أعلم أن مينو كان وقتئذ في المنزل فأردت اللحاق به قبل ان يخرج مع صديقيه بعد العشاء . ظللت أركض حتى بلغت الساحة حيث ركبت سيارة أجرة وأدليت بعنوان مينو . وبينما كانت السيارة تسرع بي أدركت فجأة انني لم أكن أهرب من سونزونيو بقدر هروبي من نفسي وذلك لاحساسي الغامض بالانجذاب نحو قوته وعنفه . وتذكرت تلك الصيحة النفاذة التي اختلط فيها الرعب باللذة والتي انتزعها مني عندما ضاجعني لاول وآخر مرة . وقلت لنفسي أنه قد غزاني يومئذ الى الابد كما لم يفعل رجل اخر منذ ذلك الحين ولا حتى مينو . فلم يسعني الا ان اخرج من ذلك بأن كلا منا قد خلق للآخر حقا ولكن كالجسد الذي قيل عنه انه خلق للهاوية التي تصيب رأسه بالدوار وتغيم لمرآها عيناه فتجذبه في النهاية أعماقها السحيقة .

وصعدت الدرج مثنى مثنى حتى اذا ما بلغت الشقة كنت مبهورة الانفاس وأدليت باسم مينو للخادمة النصف التي جاءت لتفتح لي الباب .

فبدت لي وكأن الذعر قد اخرجها عن وعيها . فتركتني على عتبة الباب ثم هرولت بعيدا دون أن تنبس بكلمة .

وخيل لي أنها ذهبت لتخبر مينو بمجيئي . فدخلت الردهة واغلقت الباب .

ثم سمعت همسا خلف الستارة التي تفصل الردهة عن الدهليز .

وارتفعت الستارة وظهرت الارملة مدولاجي . وكنت قد نسيتها تماما منذ لقائي بها أول مرة . فملأني الرعب عندما رأيتها تنتصب أمامي بقامتها الضخمة المتشحة بالسواد ووجهها الابيض الذي يحاكي وجوه الموتى وقد علاه قناع أسود من عينيها فأحسست وكأني أمثل أمام شبح مخيف . وقفت غير بعيد مني ثم خاطبتني قائلة :

ــ « هل أردت مقابلة السنيور ديوداتي ؟ »

ــ « نعم »

ــ « لقد قبض عليه » .

ولم أفهم ماذا قالت في أول الامر . فقد خيل لي لسبب لا أدريه ان هناك صلة ما بين القبض عليه وجريمة سونزونيو . فتلعثمت قائلة ــ « قبض عليه ! ولكنه لا صلة له بما حدث » .

فقالت ــ « اني لا أدري شيئا مما حدث ــ كل ما اعلمه أنهم جاءوا هنا وفتشوا المنزل ثم قبضوا عليه »

وفهمت من تعبير وجهها الذى ينبىء بالنفور أنها لن تخبرني بشيء

ولكنني لم أتمالك نفسي من أن أسألها قائلة ــ « ولكن لماذا ؟ »

ــ « لقد قلت لك ياسيدتي أنني لا أدري شيئا » .

ــ « الى أين اقتادوه ؟ »

ــ « أني لا أدري شيئا » .

ــ « ولكن أخبريني على الاقل ان كان قد ترك لي رسالة ما »

وعندئذ لم تحر جوابا بل ستدارت بعيدا في جلال متصلب مستاء ثم صاحت قائلة ــ « ديوميرا ! »

فعادت الخادمة النصف ذات النظرة المذعورة الى الظهور من جديد .

وأشارت سيدتها الى الباب قائلة وهي ترفع الستارة وتستدير لتذهب ــ « أخرجي الانسة الصغيرة » . ثم عادت الستارة الى مكانها المعهود .

ولم أدرك أن القبض على مينو وجريمة سونزونيو واقعتان منفصلتان لا صلة بينهما الا بعد أن هبطت الدرج وخرجت الى الطريق . وكان خوفي في الواقع هو الحلقة الوحيدة التي تربط بينهما . وبدا لي ذلك السيل غير المتوقع من الكوارث دليلا على سخاء القدر الذى أخذ يغدق على كل هباته الفاجعة في وقت واحد تماما كما تنضج معا في الموسم الجيد شتى أنواع الفاكهة . فلا شك ان المتاعب لا تأتي فرادى كما يقول المثل . لم أفكر في ذلك بقدر ما أحسست به وأنا أسير من

شارع الى شارع وقد انحنى رأسي وكتفاى وكأنى أسير تحت وابل من البرد الوهمي .

ومن الطبيعى أن آستاريتا كان أول شخص فكرت فى اللجوء اليه. وكنت احفظ رقم تليفون مكتبه عن ظهر قلب . فدخلت اول مقهى صادفنى فى الطريق حيث اتصلت به . لم يكن رقمه مشغولا ولكننى لم أتلق جوابا . وبعد أن أدرت الرقم عدة مرات اقتنعت فى النهاية بأن آستاريتا لم يكن فى مكتبه . فلاريب انه خرج لتناول العشاء وسوف يعود بعد قليل . كنت أعلم كل ذلك ولكن الامل داودنى فى العثور عليه فى مكتبه حينذاك كاستثناء من القاعدة .

تطلعت ببصرى الى احدى الساعات فوجدتها تشير الى الثامنة مساء . وكنت أعلم أن آستاريتا لن يعود الى مكتبه قبل العاشرة . فتوقفت عند ناصية فى الطريق وقد امتد أمامى سطح جسر مقوس يتدفق فوقه سيل لا ينقطع من المشاة الذين كانوا يسيرون أحادى أو فى جماعات وهم يندفعون نحوى فى غموض مهرولين كأنهم أوراق ذابلة تدفعها ريح لا تهدأ . أما صفوف المنازل فيما وراء الجسر فكانت توحى بالهدوء والطمأنينة بكل ما فيها من نوافذ مضاءة وأناس يروحون ويغدون بين الموائد وقطع الاثاث الاخرى . وخطر لى اننى لم اكن على مسافة بعيدة من مركز الشرطة الرئيسى حيث خيل لى أن مينو لابد أن يكون قد اقتيد اليه . ومع اننى كنت أعلم انها محاولة بائسة فقد قررت أن اذهب رأسا الى هناك لاسأل عن أخباره . وكنت أعلم مقدما أننى لن أصل الى شىء ولكن ذلك لم يكن يهمنى . فقد أردت أن أحس أننى أفعل شيئا من أجله .

فاتخذت طريقى فى الشوارع الجانبية وسرت بمحاذاة الجدران حتى بلغت مركز الشرطة فارتقيت الدرج ودخلت . فاذا بشرطى يجلس متكئا الى الخلف فى مقعده بغرفة البواب وهو يقرأ جريدة واضعا قدميه على مقعد آخر وقلنسوته على المنضدة يسألنى عن وجهتى . فأجبته قائلة ــ « مكتب الاجانب » وكان ذلك هو أحد الاقسام العديدة فى مركز الشرطة وقد سمعت آستاريتا يشير اليه فى احدى المناسبات ولا أذكر ماذا دعاه الى ذلك .

كنت لا أدرى الى أين أتوجه . ولكننى أخذت أصعد الدرج القذر ذا الاضاءة الخافتة بلا هدف معين . ولم أفتأ اصطدم بالكتبة أو برجال الشرطة فى زيهم الرسمى وهم يصعدون الدرج أو يهبطونه وقد امتلأت أيديهم بالاوراق ولكننى ظللت أصعد حانية الرأس فى محاذاة الجدران

حيث يتكاثف الظلام . وكنت ألمح عنـــد كل بسطة فى الدرج دهاليز خفيضة قذرة مظلمة يروح فيها الناس ويغدون بينما أضيئت الغرف جميعها اضاءة خافتة وفتحت أبوابها . وبدا مركز الشرطة وكأنه خاية نحل مزدحمه لا تنقطع فيها الحركة ولكن النحل الذى يسكنها كان بلا شك يتجنب الزهور اذ أن عسله الذى كنت أذوقه لاول مره فى حياتى كان أسود زنخا شديد المرارة . وعنـــدما بلغت الطابق الثالث كان يأسى قد بلغ منتهاه فوقع اختيارى جزافا على احـد الدهاليز حيث لم ينظر الى أحد أو يعبأ بى مخلوق . وكانت الابـواب التى فتـح معظمها تتتابع عـلى جانبى الدهليز بابا وراء باب . وفى مداخلها يجلس رجال الشرطة فى زيهم الرسمى على مقاعد خيزرانية وهم يدخنون ويثرثرون . اما منظر كل غرفة من الداخــل فلم يكن يتغير أبدا ـ فالارفف المحملة بالملفات يعلو بعضها البعض والمنضدة يجلس خلفها الشرطى وبيده القلم . ولم يكن الدهليز مستقيما بل منحنيا حتى اننى لم البث ان ضللت طريقى . فقد كان الدهليـز يفضى من آن لآخر الى دهليز ثان منخفض مما يضطرنى الى الهبوط ثلاث او اربع درجات ـ أو يتقاطع مع دهاليز اخرى تشبهه فى كـل معالمها . فى أضوائها وصفوف أبوابها المفتوحة وكذلك رجال الشرطة الجالسين فى المداخل . وأحسست بالحيرة . اذ خيل لى فى لحظة من اللحظات اننى اتعقب خطواتى وأننى أسير فى دهليز سبق أن عبرته قبل ذلك . ومر بى رسول ماكدت أسـأله عن رئيس الشرطة حتى أشار الى دهليز مظلم قريب يقع بين بابين دون أن يتكلم ، فاتجهت نحوه وهبطت أربع درجات ثم دخلت دهليزا صغيرا خفيضا ضيقـا للغاية . وفى نفس اللحظة فتح باب فى نهايته حيث كان ذلك الدهليز الشبيه بالامعاء يصنع زاوية قائمة ثم خرج منه رجلان أخذا يسيران بعيدا عنى تجاه الزاوية . وكان أحدهما يمسك بالاخرى من معصمه وخيل لى لحظة انه مينو . فصحت قائلة ـ « مينو ! » ثم اندفعت الى الامام نحوهما .

ولكننى لم أنجح فى اللحاق بهما لان شخصا ما امسك بذراعى . فاذا به شرطى صغير السن ذو وجه اسمر نحيل . وكانت كتلة شعره الاسود المجعد تعلوها قلنسوة أمالها جانبا .

وسألنى قائلا ـ « من تريدين ؟ وعمن تبحثين ؟ »

واستدار الرجـــلان لصيحتى فتبين لى أننى اخطأت . ولهثت قائلة ـ « لقد قبضوا على صديقى . فأردت أن أعلم ما اذا كانوا قد

اقتادوه الى هنا » .
فسألنى الشرطى قائلا دون أن يخلى سبيلى متخذا مظهر السلطة المطلقة ــ « ما اسمه ؟ »
ــ « جياكومو ديوداتى »
ــ « وما عمله ؟ »
ــ « أنه طالب » .
ــ « ومتى قبض عليه ؟ »
وفجأة أدركت أنه كان يسألنى بهذه الطريقة ليضفى على نفسه مظهر الاهمية فى حين أنه كان لا يعلم شيئا .
فأجبت قائلة فى غضب ــ « أخبرنى أين هو ولا تكثر من الاسئلة . »
كنا وحدنا فى الدهليز . فنظر حوله ثم دنا منى هامسا بلهجة حمقاء ــ « سننظر فى امر الطالب ــ ولكن فلتمنحينى الآن قبلة . »
فصحت قائلة فى غضب ــ « دعنى اذهب ! ولا تضيع وقتى ! » ثم دفعته بعيدا عنى وانطلقت أجرى حتى دخلت دهليزا آخر . وهناك رأيت بابا مفتوحا ووراء الباب غرفة أكبر من الاخريات . وكان فى نهايتها مكتب يجلس اليه رجل . فدخلت الغرفة قائلة دون أن أتوقف لالتقط أنفاسى ــ « أريد أن أعلم أين اقتيد الطالب ديوداتى ــ لقد قبض عليه هذا المساء . »
فرفع الرجل عينيه عن مكتبه حيث وضعت أمامه جريدة مفتوحة، ثم نظر الى فى دهشة قائلا ــ « تريدين ان تعلمى . »
ــ « نعم ــ أين اقتيد الطالب ديوداتى الذى قبض عليه هذا المساء. »
ــ « ولكن من أنت ؟ ومن الذى سمح لك بالدخول ؟ »
ــ « ليس هذا من شأنك ــ أخبرنى فقط أين هو . »
فصاح قائلا وهو يطرق المنضدة بقبضته ــ « من أنت ؟ وكيف تجسرين ؟ أتدرين أين تقفين ؟ »
وفجأة ادركت اننى لن أعرف شيئا واننى فى خطر من أن يقبض على أنا نفسى وعندئذ لا يمكننى أن أتحدث الى آستاريتا فيظل مينو مقبوضا عليه ولا يخلى سبيله .
فقلت منسحبة ــ « لا يهم . فقد أخطأت ــ وأرجو عفوك . »
ولكن اعتذاراتى أثارت غضبه أكثر من أسئلتى التى سبقتها .
وكنت الآن قريبة من الباب . فصاح قائلا وهو يشير الى لافتة علقت فوق رأسه . « عليك أن تؤدى التحية الفاشية عند دخولك هذه الغرفة أو خروجك منها . » فأومأت برأسى وكأنى أوافقه ــ حقا ان

التحية الفاشية ينبغي أن تؤدى عند دخول الغرفة والخروج منها . ثم غادرت الغرفة مسرعة الى الخلف . وعبرت الدهليز بطوله كالما شي سرت هنا وهناك بعض الوقت . وما ان عثرت على الدرج صدفة حتى أسرعت بالهبوط . فمررت بغرفة البواب ثم خرجت الى الطريق من جديد .

ولم تتمخض زيارتى الى مركز الشرطة عن شىء سوى أنها ساعدت على مضى الوقت . وقدرت اننى لو سرت فى بطء شـــديد تجـــاه وزارة آستاريتا فان ذلك يستغرق ثلاثة أرباع الساعة أو ربما ساعة بأكملها وعندما أصل الى هناك يمكننى أن أجلس فى أحد المقاهى القريبة من الوزارة حيث اتصل تليفونيا بآستاريتا بعد حوالى عشرين دقيقة آملة أن اجده هناك .

وفيما انا سائرة فى طريقى خطر لى ان القبض على مينو ربما كان نوعا من الانتقام من جانب آستاريتا . فقد كان يشغل منصبا هاما فى قوة الشرطة السياسية التى ألقت القبض على مينو . فمن الواضح انهم كانوا يراقبون مينو بلا ريب منذ بعض الوقت وكانوا على علم بعلاقتى به . ومن المرجح أن يكون آستاريتا قد اطلع على أوراقه وأصدر أمره بالقبض على مينو بدافع من الغيرة . وما ان خطر لى ذلك حتى اجتاحنى نوع من الغضب الشديد على آستاريتا . كنت أعلم انه مازال يحبنى وأحسست أنى قادرة تماما على أن أقتضى منه ثمنا باهظا مريرا جزاء فعلته القاسية اذا ما صحت ظنونى . ولكن خطر لى فى نفس الوقت أن الامر ربما لم يكن كذلك واننى كنت اتأهب بأسلحتى الضعيفة لمحاربة عدو خفى عديم الملامح وأن خواصه لا يتصف بها رجل حساس تسلطت عليه عواطفه بقدر ما يتصف بها جهاز بارع .

وعندما بلغت الوزارة عدلت عن فكرة الجلوس فى مقهى واتجهت رأسا الى التليفون . وعندئذ ما كاد الجرس يدق حتى رفع «السماعة» شخص ما واذا بصوت آستاريتا هو الذى يرد على .

فقلت فى اندفاع ـ « أنا آدريانا . أبغى مقابلتك . »

ـ « توا ؟ »

ـ « نعم . فى التو . فالامر عاجل . انا هنـــا خارج الوزارة . »

فسكت لحظة ليفكر ثم سمح لى بالذهاب لمقابلته . وكانت تلك هى المرة الثانية التى أصعد فيها درج وزارة آستاريتا . ولكن لشد ما اختلفت حالتى النفسية عنها فى أول مرة . فقد كنت أخشى فى اول مرة أن يبتزنى آستاريتا وأن يحبط زواجى بجينو . كنت أخشى ذلك

التهديد الغامض الذي يحس به جميع الفقراء مسلطا على رقابهم فى كل ما يتعلق بالشرطة . ولقد ذهبت الى هناك بقلب خافق وروح وجلة هيابة . أما الآن فقد وجدتنى على العكس من ذلك فى حالة نفسية عدوانية وفى نيتى أن أبتز آستاريتا بدورى عاقدة العزم على استخدام كل ما أملك من وسائل للافراج عن مينو ولكن تلك الحالة النفسية العدوانية لا يمكن أن يكون مرجعها حبى لمينو فحسب . بل كان احتقارى آستاريتا ووزارته وشئون السياسة ومينو نفسه من حيث اهتمامه بالسياسة بالذات من بين أسبابها أيضا الى حد ما . كنت لا أدرك شيئا من أمور السياسة . ولعل جهلى بالذات هو الذى جعل السياسة تبدو أمرا تافها مثيرا للسخرية اذا ما قورنت بحبى لمينو . وتذكرت كيف كان آستاريتا يرتج عليه ويتعثر لسانه كلما رآنى أو حتى سمع صوتى . وخالجنى الرضا عن نفسى لاقتناعى بأن لسانه لم يكن يتعثر عند ما يواجه رؤساءه أو حتى موسولينى نفسه . أخذت تلك الخواطر تدور بذهنى وأنا أهرول خلال الدهاليز الضخمة فى الوزارة . ولاحظت أننى كنت أنظر باحتقار الى كل من صادفنى فى طريقى من الكتبة . وتاقت نفسى الى أن أخطف تلك الملفات التى كانوا يحملونها وألقيها بعيدا وأن أبعثر جميع اوراقها المملوءة بالمظالم والمحظورات لتذروها الرياح . قلت فى غطرسة للحاجب الذى أقبل نحوى فى غرفة الانتظار ـ « يجب أن أتحدث فورا الى الدكتور آستاريتا ـ فانى على موعد معه ولا يمكننى الانتظار . » فنظر الى فى دهشة ولكنه لم يجرؤ على الاحتجاج بل ذهب ليعلن حضورى .

وما ان رآنى آستاريتا حتى هرول نحوى وقبل يدى ثم قادنى الى أريكة فى نهاية الغرفة . وكان قد حيانى بنفس الطريقة أيضا فى أول مرة . فخيل لى أن ذلك هو مسلكه نحو جميع النساء اللائى يزرنه فى مكتبه . وكبحت جماح الغضب الذى أحسست به يتأجج فى نفسى . ثم قلت ـ « أنصت الى ـ ان كنت قد أمرت بالقبض على مينو فمر باخلاء سبيله فى الحال . والا فلن ترى وجهى مرة أخرى . »

فارتسم على وجهه تعبير ينبئ بالدهشة العميقة وقد خالطها خاطر بغيض طارئ . فادركت أنه لم يكن يدرى شيئا عن الموضوع بأسره . اذ تلعثم قائلا ـ « مهلا . مهلا . من تقصدين بحق الشيطان ؟! من هو مينو هذا ؟ »

فقلت ـ « خلتك على علم بما حدث . » ثم رويت له فى ايجاز بقدر امكانى قصة حبى لمينو بأسرها وكيف ألقى عليه القبض ذلك المساء .

www.library4arab.com/vb

ولاحظت تغير لونه عندما كاشفته بحبي لمينو ولكنني آثرت أن أصارحه بالحقيقة لا لانني كنت أخشى أن أضر مينو بكذبي فحسب بل لانني كنت أتوق الى اعلان حبى لمينو على العالم أجمع • وما ان اكتشفت أن آستاريتا لم تكن له يد فى القبض على مينو حتى هدأ ذلك الغضب الذى ظل يدفعنى حتى تلك اللحظة وعاودنى احســـــاسى بالضعف الشديد والتجرد من كل سلاح • ولهذا السبب بدأت أروى قصتى بصوت ثابت منفعل وانتهيت منها وأنا على وشك البكاء • بل كانت عيناى فى الواقع تفيضان بالدموع • وقلت فى ألم شديد — « لست أدرى ماذا يفعلون له • فهو يقول انهم يضربونهم • »

فقاطعنى آستاريتا فى الحال قائلا — « لا تنزعجى • فهذا اذا كان عاملا — أما وهو طالب — »

فصحت قائلة فى لهجة باكية « ولكننى لا أريده أن يودع السجن !»

ثم خيم علينا الصمت • وحاولت أن أسيطر على عاطفتى بينما كان آستاريتا ينظر الى • وقد بدا لاول مرة محجما عن أداء صنيع أطلبه اليه . ولكن لاريب أن احجامه عن ارضائى كان مرجعه الى حد ماخيبة امله لاكتشافه أننى أهوى رجلا آخر • فقلت وأنا أضع يدى عليه — « انى أعدك لو أخليت سبيله أن أفعل كل ما تريد • »

وما أن نظر الى مترددا حتى انحنيت الى الأمام مقدمة له شفتى رغم كرهي لذلك قائلة — « حسنا • هل أديت لى هذا الصنيع ؟ »

فحملق في بينما يصطرع فى نفسه الاغراء بتقبيلي واحساسه بمهانة القبلة المقدمة اليه كرشوة فحسب من وجه تلوثه الدموع . ثم دفعنى بعيدا وقفز واقفا على قدميه طالبا الى الانتظار ثم اختفى من الغرفة •

وعندئذ تأكدت أن آستاريتا سوف يخلى سبيل مينو • فلشــدة جهلى بهذه الامور تخيلت آستاريتا وهو يخاطب بالتليفون احد الحراس الاذلاء بلهجة غاضبة آمرا اياه بالافراج فورا عن جياكومو ديوداتى • فأخذت أحصى الدقائق فى ضجر وما ان ظهر آستاريتا حتى نهضت واقفة على قدمى معتقدة أنى سأشكره ثم أهرع للقاء مينو •

ولكن اذا بوجه آستاريتا يحمل تعبيرا بغيضا فريدا فى نوعه كان خليطا من خيبة الأمل والغضب المحقود ثم قال فى ايجاز — « ماذا تعنين بقولك انه قبض عليه ؟ لقد أطلق النار على الشرطة ثم ولى هاربا — كما أن أحد رجال الشرطة قد نقل الى المستشفى وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة • ولو قبضوا عليه الان وهذا أمر مؤكد فلن يسعنى أن افعل شيئا ».

ووقفت هناك وأنا أشهق من الدهشـــة . وتذكرت أننى أفرغت المسدس من الرصاص . ولكنه بالطبع ربما حشاه مرة أخرى دون علمى . واذا بى بعد أن عاودت التفكير فى الامر أحس بالفرحة تملأ جوانحي . وقد أدركت فى الحال أن تلك الفــرحة مرجعها عواطف متباينة . فكانت هناك الفرحة لعلمى بأن مينو حر طليق . وكذلك الفرحة لعلمى بأنه قتل الشرطي وهو عمل ماكنت أحسبه قادرا عليه مما جعلنى أغير رأيي الذى كونته عنـــه حتى تلك اللحظـــة تغييرا عميقا . وعجبت لتلك القوة العدوانية الملحة التى صفق لهـــا قلبى اعجابا بسلوك مينو المتهور بينما عهدته يأبى جميع أشـــكال العنف ويستنكرها . كان شعورى فى الواقع لايختلف عما أحسست به من متعة لاتقاوم وأنا أتمثل فى ذهنى جريمة سونزونيو ولكن متعتى فى هذه المرة كان يصاحبها نوع من التبرير الادبى . ثم أخذت أتخيل كيف أننى لن ألبث أن أكتشف مخبأه وكيف أننا ســـنهرب معا ونختفى . بل ربما سافرنا الى الخارج حيث كان اللاجئون السياسيون يلقون ترحيبا كما كنت أعلم . وامتلأ قلبى بالامل . كما خيل لى أننى ربما كنت حقا على أبواب حياة جديدة . وقلت لنفسى أننى مدينة لمينو وشجاعته بذلك التجديد فى حياتى . فامتلأت نفسى بالعرفان والحب له . وفى تلك الاثناء كان آستاريتا يذرع الغرفة فى غضب شديد متوقفا من آن لآخر لا لسبب الا ليحرك شيئا على مكتبه .

قلت فى هدوء ــ « من الواضح أنه استجمع شجاعته بعد القبض عليه فأطلق النار ثم ولى هاربا » .

فوقف آستاريتا ساكنا وهو ينظر الى مصعرا وجهه على صورة قبيحة ثم قال ــ « أنت فرحة . أليس كذلك ؟ »

فقلت فى اخلاص ــ « لقد كان محقا فى قتل الشرطى . اذ أنه كان يحاول اقتياده الى السجن ــ ولو كنت فى مكانه لحذوت حذوه » .

فأجابنى قائلا بلهجة بغيضة ــ « لا صلة لى بالســـياسة . أما الشرطى فكان يؤدى واجبه فحسب . انه متزوج وله أطفال . »

فأجبت قائلة ــ « اذا كان مينو يشتغل بالسياسة فلاريب أن لديه أسبابا قوية . أما الشرطى فكان فى امكانه أن يعلم أن الانسان يقدم على ارتكاب اى عمل قبل أن يسلم نفسه للسجن مختارا . وبئس مايفعل ... »

واحسست بالطمأنينة فى قلبى عندما خيل لى أننى أرى مينو وهو يسير فى شوارع المدينة حرا طليقا . وأخذت أستمتع مقدما باللحظة

التى يستدعينى فيها من مخبئه فأراه مرة أخرى . وبدا لى أن آستاريتا عندما لاحظ هدوئى فقد كل سيطرة على نفسه وصاح قائلا — « ولكننا سنعثر عليه . أتحسبيننا لانستطيع ذلك ؟ »

— « لا أدرى شيئا عن هذا . ولكنى فرحة بهروبه . هذا هو كل ماهنالك . »

— « أننا سنعثر عليه وعندئذ يمكنه أن يتأكد انه لن يفلت من يد العدالة بمثل هذه السهولة » .

وبعد لحظة سألته قائلة — « أتعلم لماذا أنت غاضب الى هــذا الحد ؟ »

— « أنا لست غاضبا على الاطلاق » .

— « لانك كنت تتمنى لو قبض عليه حتى يمكنك أن تستعرض مروءتك نحوى ونحوه — ولكنه أفلت من أيديكم · هذا هو ما يغضبك »

ثم رأيته يهز كتفيــه فى غضب . ودق جرس التليفــون فرفع آستاريتا السماعة وقد بدا عليه الارتياح كمن وفق الى عذر يتخلص به من نقاش محرج . وما ان بلغت سمعه الكلمات الاولى من الحديث التليفونى حتى تغير تعبير وجهه فحل الصفاء محل الضيق المتجهم كما يضىء المنظر الطبيعى تدريجيا فى يوم عاصف شعاع مفاجىء من ضوء الشمس المشرقة · وفسرت ذلك على أنه نذير سيىء دون أن اعرف لذلك سببا .

وقد طال الحديث ولكن آستاريتا لم يزد قط على قوله « نعم » أو « لا » حتى لايمكننى أن اعرف موضوع الحديث . ثم قال وهو يعيد السماعة الى مكانها — « انى آسف من اجلك . فان البلاغ الاول الخاص بالقبض على الطالب كان خطأ . فقد ارسل المركز الرئيسى للشرطة رجاله الى منزله ومنزلك حتى يتأكدوا تماما من العثور عليه وقد قبضوا عليه فعلا فى منزل الارملة حيث يستأجر احدى الفرف . ولكنهم عثروا على شخص آخر فى شقتك وكان رجلا اشقر قصير القامة ذا لهجة شمالية ما ان طلبوا اليه اطلاعهم على أوراقه حتى اطلق النار عليهم ثم ولى هاربا . فمن الواضح انه شخص بينه وبين الشرطة حساب عليه ان يسويه » .

واحسست انى على وشك الاغماء . اذن فمينو رهين الســجن وسونزونيو مقتنع بأنى وشيت به · فذلك هو ما يتبادر الى الذهن ازاء اختفائى ثم وصول الشرطة فورا بعد ذلك . كان مينو فى السجن وسونزونيو يبحث عنى ليثأر منى . لشد ما انتابنى الذهول حتى

انه لم يسمعنى الا الآن أتمتم قائلة ــ « ياويلاه ! ياويلاه ! » وأنا أتجه نحو الباب .

لاريب أن وجهى قد عراه شحوب شديد اذ اختفت فى الحال نظرة الرضا الظافره الحزينة من وجه آستاريتا ثم أقبل نحوى قائلا فى قلق ــ « اجلسى . ولنتحدث فى الامر . فكل شىء يمكن علاجه » .

فهززت رأسى ومددت يدى نحو الباب . ولكن استاريتا وقفنى قائلا فى لعثمة ــ « أنصتى الى . اعدك بأن أبذل كل ما فى وسعى ــ فسأستجوبه أنا نفسى ــ فاذا لم يكن هناك شىء خطير أطلقت سراحه فى أقرب وقت ممكن . أهذا يرضيك ؟ »

فقلت فى ذهول ــ « نعم يرضينى . » ثم أضفت قائلة فى مشفقة ــ « أنت تعلم أن كل ماتفعله يقابل بالعرفان . »

وقد أدركت الآن أن آستاريتا فى الحقيقة لن يألو جهدا للافراج عن مينو كما قال . ولم تكن لى سوى رغبة واحدة ــ هى أن أذهب بعيدا وأن أترك هذه الوزارة الرهيبة فى أقرب وقت ممكن . ولكنه عاد يخاطبنى بلهجة مهنية تعبر عن قلقه ــ « وبهذه المناسبة ــ ان كان هناك مايدعوك الى الخوف من ذلك الرجل الذى عثروا عليه فى شقتك ــ فلتذكرى لى اسمه . فذلك يسهل علينا مهمة القبض عليه » .

فقلت وأنا أهم بالإنصراف ــ « ولكنى لا أعرف أسمه » .

فألح قائلا ــ « على أية حال يحسن بك أن تذهبى من تلقاء نفسك الى مأمور الشرطة لتخبريه بما تعلمين ــ وسوف يطلبون اليك أن تضعى نفسك تحت تصرفهم ثم يخلون سبيلك . أما اذا لم تذهبى فان ذلك يزيد الموقف سوءا . »

فأجبته بأنى سأذهب ثم ودعته وانصرفت . ولم يغلق الباب فى الحال بل وقف يراقبنى من المدخل وأنا أعبر غرفة الانتظار .

الفصل التاسع

وما كدت أغادر مبنى الوزارة حتى هرولت مسرعة الى أقرب ميدان وكأنى أولى هاربة . ولم أدرك اننى لا أعرف لنفسي وجهة الا بعد أن بلغت وسط الميدان حيث أخذت أتساءل عن المكان الذى يمكننى أن آوى اليه . فكرت أول الامر فى جيزيلا ولكن منزلها كان بعيدا ولم تعد ساقاى تقويان على حملى من شدة الارهاق . ومن ناحية أخرى فاننى لم أكن واثقة بترحيب جيزيلا بى ورغبتهـا فى ايوائى . فلم يبق أمامى حل آخر سوى زيلندا صاحبة المنزل التى سبق أن ذكرتها لامى عند خروجى من الدار وذلك لقرب منزلها منى فضلا عن صداقتها لى . فاستقر رأيى على الذهاب اليها .

كانت زيلندا تقيم فى مبنى ضارب الى الصفرة وهو أحد المبانى العديدة المتشابهة التى تقع فى ميدان المحطة . وكان مما يميز ذلك المنزل الى جانب أشياء أخرى كثيرة أن درجه كان لايفتأ يغمره ظلام حالك حتى فى الصباح . فلم يكن به مصـعد أو نوافذ مما يتعرض معه كل من يصعد الدرج فى ذلك الظلام الذى يوشك أن يكون تاما شاملا لان يصطدم بشبح شخص آخر يهبط الدرج وقـد أمسك كلاهما بنفس السياج . وثمة رائحة طبخ كريهة دائمة كانت لاتفتأ تسمم الهواء . ولعلها أصناف تم طبخها منذ سنوات مضت بينما ظلت روائحها المختلفة تتحلل فى الهواء البارد الرطب . وبينما كنت أصعد الدرج الذى طالما ارتقيته من قبل وفى أعقابى عاشق يتحرق شوقا أخذت ساقاى ترتعشان . فلشد ما أثقل الحزن قلبى . وقلت لزيلندا التى جاءت تفتح الباب ــ « أريد غرفة ... أقضى فيهـا الليل » .

كانت زيلندا امرأة بدينة تبدو أكبر من سنها بسبب بدانتها مع أنها ربما لم تكن تتجاوز منتصف العمر . اذ أنها على الرغم من بدانتها المفرطة ووجنتيها السقيمتين البقعاوين وعينيها الزرقاوين البليدتين الخابيتين وشعرها الاشقر النحيل الذى كان يرى دائمـا أشعث ثائرا وقد تساقط فى ضفائر صغيرة وكأنه مصنوع من نسالة الكتان فانها كانت لاتزال تحتفظ وخاصة فى ملامحها ببعض مظاهر

الفتنة الرقيقة تماما كبعض الاشعة الوانية التى تظل منعكسة على سطح المياه الساكنة فترة وجيزة بعد غروب الشمس قالت ـ « لدى غرفه . هل أنت وحدك ؟ »

ـ « نعم وحدى » .

وما ان دلفت الى الداخل حتى أغلقت الباب . ثم سارت متعثرة أمامى بهيكلها القصير الممتلىء العريض مرتدية عباءتها المنزلية القديمة وقد تدلت على كتفيها عقيصة شعرها التى أوشكت أن تنفرط على حين برزت منها مشابك الشعر جميعا .. كانت الشقة باردة مظلمة كالدرج . ولكن رائحتها تنبىء بطعام طبخ حديثا مما يوحى بوجبة جديدة نظيفة كانت تعد آنذاك . قالت موضحة وهى تستدير نحوى مبتسمة ـ « كنت على وشك تناول العشاء » . وكانت تلك المرأة التى تؤجر الغرف بالساعة شغوفا بى ولا أدرى لذلك سببا . فطالما كانت تستبقينى هناك بعد زياراتى المعهودة لتثرثر معى مقدمة الى الحلوى و « الليكير » . كانت عزبا ولعل أحدا لم يقع قط فى حبها لان بدانتها كانت منذ طفولتها سببا فى تشويه جمالها ـ وكان مما يدل على عذريتها ما يعتريها من حياء وارتباك وفضول عندما تسألنى عن علاقاتى بالرجال . ويخيل لى أنها مادامت لاتعرف الحسد أو الحقد فانها كانت تشعر بالحسرة فى قلبها لانها لم تمارس قط ماكانت تعلم أنه يدور فى غرفها . أما عملها كصاحبة نزل تؤجر غرفه بالساعة فلم يكن يرضى حاسة العمل التجارى عندها بقدر ارضائه رغبتها اللاواعية فى تجنب الشعور باستبعادها تماما من فردوس الحب المحرم .

وكان هناك فى نهاية الدهليز بابان أعرفهما جيدا . فتحت زيلندا الباب الايسر وتقدمتنى الى داخل الغرفة حيث أضاءت الثريا ذات الفروع الثلاثة بمصابيحها الزجاجية الشبيهة بزهر الخزامى ثم ذهبت لتغلق مصراعى النافذة . كانت غرفة واسعة نظيفة . ولكن بدا لى أن نظافتها كانت تلقى ضوءا قاسيا على أثاثها الرث من السجاجيد البالية بالقرب من الفراش والغطاء القطنى ذى الرتوق والمرايا البراقة والشظايا التى تعلو الابريق والطشت . أقبلت نحوى ثم سألتنى قائلة وهى تنظر الى ـ « أمريضة أنت ؟ »

ـ « بل فى غاية الصحة » .

ـ « اذن فلم لاتنامين فى شقتك ؟ »

ـ « لا رغبة لى فى ذلك » .

فقالت فى حب وكأنها تعلم عنى كل شيء .. فلنر ان كنت استطيع التكهن بما حدث . لقد خاب أملك ــ كنت تتوقعين شخصا ما فلم يحضر » .

ــ « ربما ــ » .

ــ « ولنر هل يصدق ظنى هذه المرة أيضا أم لا ــ انه ذلك الضابط الشاب الاسمر الذى كان يرافقك فى آخر مرة » .

ولم تكن تلك أول مرة تسألنى فيها زيلندا أسئلة كهذه . فأجبتها قائلة وانا أكاد أغص من شدة الالم ــ « انك محقة تماما ــ ثم ماذا ؟ »

ــ « لاشيء ــ ولكننى أفهمك فى الحال كما ترين ! فقد تكهنت بما حدث على الفور . ولكنك لايجب أن تنزعجى ــ فاذا كان قد تخلف عن الحضور فلابد أن هناك سببا منعه من ذلك ــ فان الجنود لايملكون وقتهم كما تعلمين ــ »

ولكننى لم أحر جوابا . فنظرت الى لحظة . ثم عادت تخاطبنى بصوتها المحب الحبى الملاطف قائلة ــ « أترغبين فى تناول العشاء معى ؟ فهناك طعام شهى » .

فأسرعت باجابتها قائلة ــ « كلا . شكرا . فقد تناولت عشائى »

فعادت تنظر الى وهى تربت على وجنتى مداعبة . ثم قالت وقد علا وجهها تعبير غامض يبعث الامل وكأنها عمة عجوز تخاطب فتى صغيرا أو أحد أبناء اخوتها او اخواتها . ثم سحبت من جيبها مجموعة من المفاتيح واتجهت الى خزانة الملابس حيث فتحت أحد الادراج مولية ظهرها نحوى .

وكنت قد فككت أزرار سترتى ثم اتكأت على المنضدة واضعة احدى يدى على ردفى بينما رحت أراقب زيلندا وهى تنبش قاع الدرج . وتذكرت أن جيزيلا كثيرا ماكانت تأتى الى تلك الغرفة مع أصدقائها من الرجال . كما تذكرت أن زيلندا لم تكن تحب جيزيلا . أما انا فكانت تحبنى لشخصى لا لانها تحب الناس جميعا . فأحسست بالعزاء عندما خطر لى أن هناك شيئا آخر فى الوجود وأن العالم ليس مقصورا على الشرطة والوزارات والسجون ومثل هذه الاشياء القاسية التى لاتعرف الرحمة . وفى تلك الاثناء كانت زيلندا قد فرغت من تفتيش الدرج فأغلقته بعناية وأقبلت نحوى مرددة :

ــ « هاك .. فانك بلاشك لن ترفضى ذلك . » ثم وضعت شيئا ما على مفرش المائدة . وعندما نظرت وجدت هناك خمس سجائر من صنف جيد مذهبة الرءوس وحفنة من الملبس الملفوف فى أوراق

ملونة وأربع ثمار صغيرة ملونة مصنوعة من عجينة اللوز ، ثم سألتني قائلة وهي تربت على خدى مرة أخرى ــ « أيكفيك هذا ؟ »
فتلعثمت قائلة فى ارتباك ــ « هذا جميل . شكرا .. »
ــ «عفوا . عفوا ــ اذا احتجت الى شيء فما عليك الا أن تناديني ولا تخافي»
وما ان خلوت الى نفسى مرة أخرى حتى احسست بوطأة البرودة وانتابتنى حالة من التردد الشديد . كنت لا أشعر بالنعاس ولم أشأ أن أذهب الى الفراش . ولكن لم يكن هناك بد من ذلك فى تلك الغرفة الباردة التى خيل لى أن برودة الشتاء ظلت محفوظة فيها سنوات عدة كما هى الحال فى الكنائس والاقبية . ولم يكن على أن أواجه تلك المشكلة فى المناسبات الاخرى التى كنت أقصد فيها ذلك المكان فلم يكن هناك ما نتوق اليه أنا ورفيقى سوى أن نتدثر بالملاء حيث يدفىء كلانا الاخر . ومع اننى لم أكن أشعر بالحب نحو عشاقى من لقطاء الطريق فقد كانت العملية الجنسية ذاتها تستغرق انتباهى ويغشانى سحرها . أما الان فقد بدا لى من غير المصدق أن أكون قد ضاجعت وضوجعت وسط ذلك الاثاث القذر وفى مثل ذلك الجو المقرور . فلاريب ان حرارة حواسنا أنا ورفاقى كانت فى كل مرة تخلق لنا جوا من الوهم يضفى على تلك الاشياء الغريبة المثيرة للسخرية الفة وجمالا . وخطر لى ان حياتى ستكون كهذه الغرفة تماما آذا ما قدر لى الا أرى مينو مرة أخرى . فلو أننى نظرت الى حياتى نظرة موضوعية بعيدة عن الاوهام لوجدتها فى الواقع خالية من كل جمال او الفة ولوجدت أن قوامها أشياء باردة قبيحة بالية كغرفة زيلندا .
فسرت الرجفة فى بدنى وبدأت أخلع ثيابى فى بطء .
كانت الملاء مثلجة كما بدت مبتلة من أثر الرطوبة . وخيل لى عندما تمددت فى الفراش أننى أطبع صورة جسدى على صلصال مبلل . وظللت مستغرقة فى التفكير فترة طويلة بينما أخذ الدفء يشيع فى الملاء رويدا . فقد انطلق ذهنى فى طريق جانبى يفكر فى سونزونيو ويحلل دوافع ذلك الموضوع الغامض بأسره وما ترتب عليه من نتائج . فلاشك أن سونزونيو يعتقد الان أننى وشيت به وكانت الشواهد كلها تدينني . ولكن هل هى الشواهد فحسب ؟ وتذكرت عبارته حين قال ــ « يراودنى شعور غريب بأن هناك من يتبعنى . »
وتساءلت عما اذا كان القس قد باح بالسر رغم كل شيء . فعلى الرغم من ان ذلك كان يبدو أمرا بعيد الاحتمال فانه لم يظهر حتى الآن ماينقضه .

وبينما كنت لا أزال أفكر فى سونزونيو بدات أتخيل ماحدث فى المنزل بعد خروجى . فتخيلت سونزونيو جالسا فى انتظار عودتى الى أن نفد صبره فارتدى ملابسه ثم تخيلت دخول الشرطيين عليه وشهره مسدسه ثم اطلاقه اياه دون انذار وفراره . وقد بعثت فى نفسى تلك الصور الخيالية لما حدث احساسا غامضا باللذة التى لاتعرف الشبع كذلك الاحساس الذى راودنى عندما استعدت فى ذهنى جريمة سونزونيو . لم أفتأ استعرض فى ذهنى مشهد اطلاق النار متريثة فى شغف لأتأمل جميع التفاصيل ولا شك اننى فى أثناء الصراع بين سونزونيو ورجال الشرطة كنت منحازة قلبا وقالبا الى جانب سونزونيو . فأخذت أرتجف من الفرح عندما رأيت الشرطى الجريح يسقط على الارض وتنفست الصعداء عندما هرب سونزونيو ثم تابعته فى قلق وهو يهبط الدرج . ولم أسترد هدوئى الا بعد أن رأيته يختفى فى ظلام الشارع الرئيسى البعيد – واخيرا سئمت ذلك النوع من السينما الذهنية فأطفأت الضوء .

وقد سبق أن لاحظت فى مناسبات أخرى أن الفراش كان يستند برأسه الى باب يفضى الى الغرفة المجاورة . فماكدت أطفىء الضوء حتى لاحظت أن مصراعى الباب لايلتئمان تماما وأن شعاعا من الضوء كان ينفذ من خلال الفرجة . فنهضت قليلا معتمدة على الوسائد بمرفقى واخرجت راسى من بين الزخارف الحديدية القائمة فى آخر الفراش حيث اختلست النظر من خلال الشق . لم أفعل ذلك بدافع من الفضول فقد كنت على علم بما سأراه وأسمعه من خلال الشق . ولكننى كنت اخشى خواطرى ووحدتى ودفعنى خوفى الى أن أنشد الصحبة فى الغرفة المجاورة حتى ولو كنت لا أستطيع ذلك الا باستراق السمع . غير أننى ظللت انظر بعض الوقت دون أن أرى أحدا – فقد كانت هناك منضدة مستديرة أمام شق الباب حيث كان الضوء ينصب من الثريا . كما لمحت فيما وراء المنضدة مرآة صوان للملابس كانت تلمع فى الظلام العميق . ولكننى سمعت أصواتا – ذلك الحديث المعهود الذى لشد ما كان مألوفا لدى عن مسقط الرأس والعمر والإسم . وكان صوت المراة هادئا متحفظا . أما صوت الرجل فكان عجلا مضطربا . وكانا يتبادلان الحديث فى احدى زوايا الغرفة ولعلهما كانا فى الفراش . وبدات احس بألم حاد فى عنقى من جراء حملقتى الطويلة دون أن أرى شيئا وكنت على وشك أن اشيح برأسى بعيدا عندما ظهرت المراة أمام المرآة المعتمة فيما وراء المنضدة

وقد أولتنى ظهرها . كانت تقف منتصبة القامة وهى عارية ولكننى لم أستطع أن أرى من جسدها سوى ذلك الجزء الذى يبدأ من الخصر حتى الراس وذلك لأن المنضدة كانت تعترض مجال بصرى . كانت بلا ريب صغيرة السن للغاية . وقد بدا ظهرها تحت كتلة شعرها المجعد نحيلا يابسا قبيحا ينم بياضه عن الضعف الشديد . ولعلها كانت دون العشرين من عمرها ولكن رخاوة صدرها وترهله كانا ينبئان بأنها ربما كانت أما بالفعل . وخطر لى أنها لابد أن تكون من بين أولئك الفتيات الصغيرات الجائعات اللائى يتسكعن حول الفياض على مقربة من المحطة وهن حاسرات الاذرع والرءوس فى معظم الاحيان وقد ساء طلاء وجوههن ورثت ثيابهن واندست أقدامهن فى احذية اسفينية ضخمة . وخطر لى انها لا ريب تكشف عن لثاتها عندما تضحك . مرت بذهنى كل هذه الاشياء فى تلقائية تامة وبلا تفكير لان منظر ذلك الظهر العارى التعس كان يخفف عنى فأحسست انى أحبها وادرك ادراكا تاما ماكان يخالجها فى تلك اللحظة من مشاعر وهى تتأمل صورتها فى المرآة . ولكن صوت الرجل انبعث قائلا فى خشونة ــ « ماذا تفعلين بحق السماء ؟ » فتركت المرآة . ورأيتها لحظة فى وضع جانبى وقد انحنى كتفاها وضمر صدرها تماما كما تخيلتها . ثم اختفت عن بصرى ولم يلبث الضوء أن انطفأ بعد ذلك بلحظة واحدة .

وانطفأ أيضا ذلك الحب الغامض الذى أحسست به نحوها أثناء مشاهدتها ووجدتنى مرة اخرى وحيدة فى ذلك الفراش الكبير البارد وقد غمرنى ظلام احتوى فى طياته تلك الاشياء الباردة البالية . ومرت بذهنى صورة هذين الشخصين الراقدين فى الناحية الاخرى من الحائط . فتخيلت انهما لن يلبثا أن يناما معا بعد فترة وجيزة . وأن الفتاة سترقد ملتصقة بظهر رفيقها وقد وضعت ذقنها على كتفه وتشابكت ساقاها بساقيه واحاطت ذراعها بخصره واستقرت يدها على حقوه بينما امتدت أصابعها عبر بطنه فى استرخاء ــ كالجذور التى تنشد الغذاء فى أعماق الارض ــ وفجأة راودنى شعور بأنى كنت كالنبات الذى اقتلع من تربته وألقى به على أحد أحجار الرصف الملساء ليذوى ويموت . وافتقدت ميلو . وكنت كلما مددت يدى احس بفراغ كبير خاو متجمد يحيط بى من جميع الجهات وانا أرقد منكمشة هناك فى وسط الفراش بلا صحبة أو حماية . ولشد ما كان حنينى الى عناقه حادا مؤلما . ولكنه لم يكن هناك . فراودنى

احساس الزوجة التى ارملت . وبدأت أبكي وذراعى ممتدة تحت الملاءة كأنى أضمه الى . واخيرا لا أدرى كيف استغرقت فى النوم .

كان نومى دائما هادئا وعميقا يشبه الشهية التى يسهل اشباعها دون جهد خاص . لذا كادت تنتابنى الدهشة عندما استيقظت فى الصباح التالى لاجد نفسى فى غرفة زيلندا متمددة فى ذلك الفراش وقد سقط على الوسادة والحائط شعاع من الشمس كان يتسلل من خلال مصراعى النافذة . ولم أكد أعى أين كنت حتى سمعت رنين التليفون فى الدهليز . فردت زيلندا وسمعتها تذكر اسمى ثم جاءت لتطرق باب غرفتى . فقفزت من الفراش وركضت نحو الباب عارية القدمين مرتدية قميص النوم .

كان الدهليز خاليا وقد وضعت سماعة التليفون على الرف . اما زيلندا فقد عادت الى المطبخ وسمعت صوت أمى فى الطرف الاخر من سلك التليفون يقول :

— « هل هذه أنت يا آدريانا ؟ »

— « نعم . »

— « ما الذى دعاك الى الرحيل ؟ ... ليتك تعلمين فقط ماذا حدث هنا ! ... كان فى امكانك ان تنذرينى ... فلشد ما انتابنى الذعر ! »

فقلت فى عجلة :

— « نعم . انى اعلم كل ما حدث . فلا جدوى من الحديث فيه » .

فأردفت قائلة :

— « لشد ما كنت قلقة عليك . ثم هناك السنيور ديوداتى . »

— « آلسنيور ديوداتى ؟ »

— « نعم . فقد جاء هذا الصباح فى ساعة مبكرة للغاية .. وهو يريد أن يراك فورا لامر عاجل للغاية .. ويقول انه باق هنا فى انتظارك . »

— « اخبريه أننى قادمة فى الحال . أخبريه اننى سأكون هناك بعد دقيقة او اثنتين . »

وضعت السماعة ثم ركضت الى داخل الغرفة حيث ارتديت ثيابى بأسرع ما أمكننى . لم اكن آمل ان يفرج عن مينو بهذه السرعة . ولو انه لم يفرج عنه الا بعد فترة انتظار طالت بضعة أيام او اسبوعا لزادت سعادتى عما خالجنى وقتذاك . فلم اكن مطمئنة الى مثل هذا الافراج السريع . وساورنى على الرغم منى شعور

بالخوف الغامض فكل حقيقة لها دلالتها ولكنني عجزت عن فهم ما تعنيه تلك العودة السريعة الى الحرية . غير انني احسست بالهدوء عندما خطر لى أن آستاريتا ربما استطاع ان يفرج عنه فورا كما وعد . وعلى أية حال فقد تاقت نفسي الى رؤيته مرة أخرى فكان ذلك الشوق رغم ايلامه الى حد ما يبعث فى نفسى احساسا لذيذا .

وما ان ارتديت ملابسي ووضعت فى حقيبتى السجائر والملبس وثمار اللوز لكيلا أجرح شعور زيلندا فأننى لم أذق منها شيئا فى الليلة السابقة حتى ذهبت الى المطبخ لتوديعها .

فسألتنى قائلة :

ـ « اتشعرين بمزيد من البهجة ؟. هل زالت عنك تلك الحالة النفسية السيئة ؟ »

ـ « كنت مرهقة . والان وداعا . »

ـ « مهلا . مهلا ! اتحسبيننى لم أسمع حديثك فى التليفون ؟ السنيور ديوداتى هه ؟ هاك . انتظرى دقيقة ـ فلتأخذى قدحا من القهوة ـ » كانت لا تزال تتكلم عندما كنت قد غادرت الشقة فعلا .

كنت وأنا جالسة على حافة المقعد فى السيارة الاجرة وحقيبتى بين يدى متحفزة للقفز الى الخارج حال وقوفها . وكنت أخشى أن أجد جمعا من الناس أمام المنزل بسبب الاعيرة النارية التى اطلقها سونزونيو . وتساءلت عما اذا كان من الحكمة أن اذهب الى المنزل ـ فربما جاء سونزونيو طلبا للانتقام منى ـ ولكننى أحسست اننى لا أعبأ بذلك . فلو شاء سونزونيو ان ينتقم منى فليفعل فقد كنت أتوق الى رؤية مينو كما استقر رأيى على الخروج من مخبئى ما دمت لم أرتكب ذنبا .

ولكننى لم أجد أحدا عند الباب أو على الدرج . فاندفعت الى داخل غرفة الجلوس حيث رأيت أمى جالسة الى ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة بينما كانت أشعة الشمس تجاهد لتدخل من خلال زجاج النافذة القذر ورأيت القط فوق المائدة يلعق مخالبه . فتوقفت أمى عن الخياطة فى الحال وهتفت قائلة :

ـ « اذن فها انت ذى ! كان فى امكانك ان تخبرينى على الاقل بأنك ذاهبة لاستدعاء الشرطة ! »

ـ « أية شرطة ؟ ماذا تعنين بحق السماء ؟ »

ـ «اذن لذهبت معك ـ ليتك تعلمين فقط مدى ماانتابنى من الذعر.

فاحتججت قائلة فى غضب :
ـ اننى لم اذهب لاستدعاء الشرطة . بل غادرت المنزل وهذا هو

كل ما حدث . اما رجال الشرطة فكانوا يبحثون عن شخص آخر .
ولا ريب ان هذا الرجل كان يؤرق ضميره شيء ما . »
فقـــالت وهى تنظر الى معاتبة ـ « اذن فأنت تأبين حتى ان
تخبرينى . »
ـ « بماذا أخبرك ؟ »
ـ لا تخشى من ثرثرتى . ولكنك لن تقنعينى بأنك خرجت لغير
ما غاية أو هدف . فان رجال الشرطة جاءوا بعد خروجك بدقائق . »
ـ « بيد ان هذا غير صحيح فاننى ـ »
ـ « ولكنك على أية حال محقة تماما فيما فعلت . فهناك بعض
العناصر الرهيبة . أتعرفين ماذا قال أحد رجـــال الشرطة ؟
قال ـ « لقد رأيت هذا الوجه من قبل . »
فوجدت انه ما من سبيل لاقناعها . اذ انه كان يخيل لها اننى
خرجت عمدا للوشاية بسونزونيو وأن ذلك أمر لا يقبل المناقشة ،
فقاطعتها فجأة فى جفاء قائلة ـ « حسنا .. حسنا . وماذا عن
الرجل المصاب ؟ كيف نقاوه ؟ »
ـ « أى مصاب ؟ »
ـ « لقد قيل لى ان هناك رجلا فى النزع الاخير ـ »
ـ « لا . لا . لقد أخطأوا فيما ادعوا . فان أحد رجال الشرطة قد
أصابته رصاصة بسجح فى ذراعه وضمدتها له بنفسى . ولكنه كان
على خير ما يرام عندما غادر المنزل . ومع ذلك فليتك ســمعت
الطلقات ! كانوا يطلقون النار على الدرج وقد ضج المنزل بأسره .
وعندما سئلت عما حدث قلت اننى لا ادرى شيئا . »
ـ « وأين السنيور ديوداتى ؟ »
ـ « فى غرفتك . »
كان السبب فى تباطئى قليلا مع أمى اننى الان كدت أشـــعر
بالاحجام عن لقاء مينو وكانى كنت أتوقع أن أسمع أنباء ســيئة
تركت غرفة الجلوس واتجهت نحو غرفتى التى وجدتها غارقة فى

الظلام . وقبل ان اهتدى لأشعل الضوء اذا بصوت مينو يقــول
ـ « ارجو الا تشعلى الضوء . »
فلفتت نظرى نغمة غريبة فى صوته لم تكن مرحة على الاطلاق .
فأغلقت الباب وتحسست طريقى الى الفراش حيث جلست على

حافته . فأحسست به مضطجعا على جنبه بالقرب مني . وسألته قائلة ــ « أمريض أنت ؟ »

ــ « بل فى تمام الصحة . »

ــ « ألست متعبا ؟ »

ــ « كلا . لست متعبا . »

كنت أتوقع لقاء يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولكن تلازم الفرحة مع الضوء حقيقة ثابتة . ففى ذلك الظلام بدت عيناى عاجزتين عن التألق واللمعان وبدا صوتى عاجزا عن صيحات البهجة والفرح وعجزت يداى عن التعرف على ملامحه المحبوبة . فانتظرت بعض الوقت . ثم سألته منحنية تجاهه قائلة ــ « ماذا تبغى ان تفعل ؟ أتريد ان تنام ؟ »

ــ « كلا . »

ــ « اتريدنى ان ابقى هنا بجانبك ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « اتريدنى أن أرقد على الفراش ؟ »

ــ « نعم . »

فقلت عرضا ــ « أتريد المضاجعة ؟ »

ــ « نعم . »

وقد أدهشنى ذلك الرد لانه كما سبق ان قلت لم يراوده قط ميل حقيقى الى المضاجعة . فأحسست فجأة بالفلمة تدب فى حواسى . وسألته قائلة فى حب ــ « اتريد ان تضاجعنى ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « وهل سترغب فى ذلك دائما من الان فصاعدا ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « وهل سنكون دائما معا ؟ »

ــ « نعم . »

ــ « الا تريدنى أن أشعل الضوء ؟ »

ــ « كلا . »

ــ « لا يهم . فسأخلع ثيابى فى الظلام . »

وبدأت أخلع ثيابى يخالجنى احساس بالنشوة كمن أحرز نصرا حاسما . فقد خيل لى ان الليلة التى قضاها فى السجن قد أظهرت له فجأة انه يحبنى وفى حاجة الى . ولكنه كان تقديرا خاطئا كما سأذكر . فمع اننى كنت محققة فى اعتقادى ان هناك علاقة بين

القبض عليه وبين استسلامه غير المتوقع فانني لم ادرك ان التغير الذي طرأ على موقفه لم يكن فيه ما يرضي غروري او حتى يشجعني. ولكنني من الناحية الاخرى كنت لا استطيع عندئذ ان اتبين الامور اكثر من ذلك . فقد كان جسدي يحفزني نحوه باندفاع كحصان كبح جماحه زمنا طويلاً وكنت أتوق الى الترحيب به في حماس وابتهاج بعد ان حال موقفه والظلام دون ذلك .

لكنني عندما اقتربت منه وانحنيت فوق الفراش لاتمدد بجانبه شعرت به فجأة يقبض على ركبتي بذراعيه ثم يعضني في ردفي الايسر بوحشية . فأحسست بألم حاد ولكنني في نفس الوقت ادركت تماما انه بعضته هذه انما يعبر عما يخالجه من يأس غامض لا تفسير له . فبدا لي وكأننا روحان لعينتان في أعماق جحيم جديد دفعتنا الكراهية والغضب والحزن الى ان يغرز كل منا اسنانه في بدن الاخر لا عاشقان يتأهبان لممارسة الحب . وبدت لي انها عضة لا نهـــائية كأنه يريد ان يمزق بأسنانه فلذة من بدني . والأخيرا لم أعد استطيع أن اتحمل الالم فدفعته بعيدا عني مع أنني كنت أشعر ببعض الرغبة في ذلك لما وجدته من اللذة في عضه بينما أحسست في نفس الوقت أنه عمل خال من الحب . فقلت له في صوت ذليل متقطع ـ « لا . لا . ماذا تفعل ؟ انك تؤلمني ... »

وهكذا تلاشى من ذهني وهم النصر الذي احرزته . وبعـــد ذلك لم ننبس بكلمة واحدة طوال الوقت الذي مارسنا فيه الحب . ولكنني مع هذا استطعت من خلال سلوكه ان اتكهن في غموض بالمعنى الحقيقي لاستسلامه للذة . وقـــد فسر ذلك بالتفصـــيل فيما بعد . فقد ادركت أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يرغب في تجاهلي بقدر رغبته في تجاهل جزء من نفسه كان يشتهيني . ولكنه اذا به الان على العكس من ذلك يطلق له العنان بعد ان ظل يقاومه حتى تلك اللحظة ـ هذا هو كل ما هنالك . اما أنا فلم يكن لي شأن بذلك ولم يزد حبه لي عما كان عليه من قبل . وسواء في نظره ان كنت انا التي يضاجع ام اية فتاة اخرى . فلم اعد ان اكون وسيلة يتخذها ليعاقب بها نفسه أو يثيبها . ولم تكن تلك الاشياء ثمرة تفكيري اثناء رقادنا معا في الظلام بقدر ما كانت وليدة احساسي بها في لحمي ودمي تماما كما احسست من قبل ان سونزونيو كان وحشا رهيبا مع أنني لم أكن ادري شيئا عن جريمته . ولكنني أحببته وكأن حبي أقـــوى من معرفتي .

ومع ذلك فقد أدهشني عنفه وجلد رغبته التى لشد ما كانت خزينة من قبل . وكنت اعتقد دائما ان ضعف بنيته يضطره الى كبح جماح نفسه حرصا على صحته . ولذا فانه عندما بدأ يعيد الكرة مرة أخرى بعد مضاجعته اياى لم يسعنى الا ان أهمس له قائلة ـ « اما فيما يخصنى فلتفعل ما شئت . ولكن حذار ان تؤذى نفسك . »

ويخيل لى انه ضحك ثم تمتم فى اذنى قائلا ـ « لا يمكن ابدا أن يؤذينى شيء الآن . »

فبعثت فى نفسى كلمة أبدا احساسا رهيبا كاد يقضي على تلك اللذة التى كنت أشعر بها فى عناقه ومضاجعته وظللت أنتظر فى ضجر تلك اللحظة التى يمكننى أن أحدثه فيها لأعرف ما حدث بالفعل . وما كدنا ننتهى من ممارسة الحب حتى بدأ لى أنه استغرق فى اغفاءة ولكنه ربما لم ينم حقا . فانتظرت فترة معقولة قبل أن احدثه قائلة في صوت خفيض وفي مشقة أوجفت قلبي :

ـ « والان أخبرنى بما حدث . »

ـ لم يحدث شيء . »

ـ « ولكن لا ريب ان شيئا ما قد حدث . »

فسكت لحظة ثم تكلم بعد ذلك قائلا وكأنه يحدث نفسه ـ «أعتقد انك أنت أيضا ينبغى أن تعلمى . حسنا . هذا هو ما حدث . ففى الساعة الحادية عشرة من مساء أمس صرت خائنا . »

فانتابتنى لهذه الكلمات رجفة باردة لا بسبب الالفاظ نفسها فحسب بل بسبب اللهجة التى قيلت بها .. فتلعثمت قائلة :

ـ « خائنا !! لماذا ! »

وكانت لهجة اجابته باردة مضحكة على صورة حزينة ـ « كان السنيور مينو معروفا بين رفاقه فى العقيدة السياسية بصلابته فى الرأى وعنفه فى رد الفعل . وكان يعتبر فى نظرهم خليقا بأن يكون زعيم المستقبل .. ولشد ما كان السنيور مينو واثقا بجدارته الخلقية فى اى ظرف من الظروف حتى انه كاد يتمنى أن يقبض عليه لكى يوضع موضع الاختبار . ذلك لان السنيور مينو كان يعتقد أن الاعتقال والسجن وغيرهما من وسائل التعذيب تشكل جزءا جوهريا من حياة رجل السياسة تماما كما تشكل الرحلات البحرية الطويلة والاعاصير وحوادث غرق السفن جزءا من حياة البحار . ولكن ذلك الملاح ما كاد يواجه الامواج العالية لاول مرة حتى انتابه

الفتيان كأتعس فتاة صغيرة . فما ان وجد السنيور مينو نفسه فى حضرة شرطي عادي صغير حتى باح بكل شيء دون انتظار للتهديد أو تعذيب .. وفى الواقع ـ فانه خائن .. وهكذا فمنذ أمس ودع السنيور مينو حياته السياسية واتخذ لنفسه وظيفة جديدة ـ تلك هى ـ ماذا أسميها ـ وظيفة المرشد ؟ »

فهتفت قائلة ـ « لقد انتابك الخوف ! »

فأجابني قائلا على الفور ـ « كلا فلعلى لم اكن حتى خائفا . ولكن ما حدث لى هو بذاته الذى عرانى فى ذلك المساء عندما كنت معك ـ حين طلبت الى ان أشرح لك آرائى . فاذا بها تبدو لى فجأة وقد فقدت أهميتها تماما . فقد استهوانى ذلك الذى قام باستجوابى . كان يريد ان يعرف أشياء معينة . وعندئذ لم أعبأ باخفائها عنه فذكرتها له فى بساطة تامة كما اتحدث اليك الآن . » ثم أردفه قائلا بعد لحظة من التفكير ـ « أو بالاحرى اننى لم أذكرها بنفس هذه البساطة ـ بل بدقة وسرعة وحماس أيضا الى حد ما . ولو زاد الامر قليلا عن هذا الحد لاضطر الرجل الى تهدئة حماسى ! »

فتخيلت آستاريتا وأدهشنى ان يعجب به مينو وسألته قائلة :

ـ « من الذى استجوبك ؟ »

ـ « لست أدرى . ولكنه كان شابا انيقا للغاية شاحب الوجه أصلع الراس أسود العينين . لاريب انه أحد الكبار . »

ولما تبينت من وصفه انه آستاريتا لم أتمالك نفسى من الهتاف قائلة ـ « وهل أعجبت به ؟! »

فأخذ مينو يضحك فى الظلام وفمه على أذنى قائلا ـ « مهلا . مهلا ! فانى لم أعجب بشخصه بل بوظيفته . فأنت تعلمين ـ انك عندما تتخلين عما تدركين انه من حقك ـ أو حتى لا تدركين انه من حقك ـ فان حقيقتك تطفو فوق السطح . الست ابن أحد كبار الملاك ؟ ألم يكن ذلك الرجل يحمى مصالحى على ضوء وظيفته ؟ لقد تبين لنا ان كلينا ينتمى الى نفس الطبقة . وان قضيته فى الحقيقة هى قضيتى . ماذا خيل لك ؟ اننى أعجبت به لشخصه ؟ لا . لا . بل أعجبت بوظيفته ـ فقد أدركت اننى انا الذى ينقده أجره ليفعل ما فعل . وآننى انا الذى يدافع عنه . واننى أنا الذى يظاهره كسيده رغم مواجهتى اياه فى موقف المتهم . »

ثم ضحك أو بالاحرى انه أطلق سعلة ضاحكة صرت فى اذنى على صورة شنيعة . وكان كل ما أدركته أن أمرا فاجعا قد وقع وأن

حياتي بأسرها صارت مهددة مرة أخرى . ثم ما لبث ان اردف قائلا
— « ولكن ربما كان فى ذلك ظلم لى . فلعلى لم أتحدث الا لانه لم يعد

يهمنى لو فعلت ذلك — ولان كل شيء بدأ لى فجأة سخيفا عديم الاهمية ولاننى لم أعد أدرك شيئا من تلك الاشياء التى كان ينبغى على أن أومن بها . »

فرددت قائلة على صورة آلية — « ألم تعد تدرك شيئا ؟ »

— « كلا . أو الاحرى — أننى لم أعد أدرك سوى الالفاظ نفسها لا الحقائق التى تنطوى عليها . والان كيف يمكنك أن تتعذبى من أجل ألفاظ فحسب ؟ والالفاظ ما هى الا أصوات . فأكون كمن ذهب الى السجن من أجل نهيق حمار أو صرير عجلة . فالالفاظ التى سمعتها لم تعد لها قيمة اذ بدت كلها تافهة متشابهة . وكان هو يطلب منى ألفاظا فأعطيته اياها بقدر ما أراد . »

فلم يسعنى الا ان أعترض قائلة — « حسنا اذن فماذا يهم مادامت ألفاظا فحسب . »

— « نعم . ولكنها لسوء الحظ ما كادت تخــرج من فمى حتى صارت حقائق ولم تعد ألفاظا فحسب . »

— « لمــــــــاذا ؟ »

— « لاننى بدأت أتعذب . فقد أسفت لقولها . ولاننى أدركت أننى بقولها صرت أنا نفسى تلك الحقيقة المعروفة بكلمة خائن . »

— « اذن فلماذا تكلمت ؟ . »

قال فى بطء — « لماذا يتكلم الناس أثناء نومهم ؟ فلعلى كنت نائما . أما الآن فقد صحوت . »

وهكذا أخذ يدور ويدور ولكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس النقطة. فأحسست بطعنة فى قلبى وقلت فى مشقة — « ولكن لعلك مخطىء . فأنت تظن أنك بحت بكل شيء — فى حين انك لم تقل شيئا بالفعل . »

فقال فى ايجاز — « كلا . لست مخطئا . »

ثم سكت لحظة فسألته قائلة — « وماذا عن صديقيك ؟ »

— « أى صديقين ؟ »

— « تولو وتوماسو . »

فقال متظاهرا عن عمد بعدم الاكتراث — « لست أدرى شيئا عنهما . ولكنهما سيقبض عليهما . »

فهتفت قائلة — « كلا . لن يقبض عليهما ! » فقد خيل لى ان آستاريتا لن يستغل ضعف مينو المؤقت . ولــكن عندما مرت بذهنى

فكرة القبض عليهما بدأت تلوح لى خطورة الامر كله .

فقال — « لم لا ؟ لقد أدليت باسميهما . وليس هناك ما يمنع من القبض عليهما . »

فلم يسعنى الا ان أصيح فى ألم قائلة — « آه يا مينو . لماذا فعلت ذلك ؟ »

— « هذا هو السؤال الذى لا أفتأ أوجهه الى نفسى . »

فاسترسلت قائلة بعد لحظة وأنا اتشبث بالامل الوحيد الذى لم يبق عندى سواه :

— « ولكنهما اذا لم يقبض عليهما فلن يكون الامر خطيرا الى هذا الحد . اذ انهما لن يعلما انك — »

فقاطعنى قائلا — « ولكننى أعلم ذلك ! وسوف أعلمه دائما . سأعلم دائما أننى لم أعد ذلك الشخص الذى كان بل شخصا آخر — شخصا تمخضت عنه على وجه اليقين كما تتمخض الام عن طفلها ولكننى لسوء الحظ لا أحبه . وهذه هى المشكلة . فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم لأنهم لا يطيقون الحياة معهن . والآن عليك ان تتخيلى فقط كيف تكون الحال لو تقمص شخصان جسدا واحـــدا وكان أحدهما يكره الآخر كرهه للموت . اما بخصوص صديقى فمن المؤكد على أية حال انهما سيقبض عليهما . »

ولم يعد فى وسعى أن أكبح جماح نفسى فقلت — « كان سيفرج عنك حتى لو لم تتكلم مطلقا . أما صديقاك فلا يتهددهما خطر ما . »

ثم رويت له بسرعة قصة علاقتى بآستاريتا وتدخلى للافراج عنـه ووعد آستاريتا . فأنصت الى فى صمت . وأخيرا قال — « هـــذا أفضل وأفضل ! اذن فان الافراج عنى لا يرجع الى حماسى كمرشد بل الى علاقتك الغرامية بأحد رجال الشرطة . »

— « لا تقل هذا يا مينو ! »

ثم أضاف قائلا بعد لحظة — « ولكنه مما يسرنى على أية حال ان يفلت صديقاى بسهولة من العقاب — فان ذلك ســـيعفينى من تأنيب ضميرى قبلهما على الاقل ! »

فقلت فى حماس — « أنصت الى . مالفرق بينك وبين صديقيك ؟ فهما مدينان بحريتهما لى أيضا وللحب الذى يربط آستاريتا بى . »

— « ولكن معذرة ! فهناك فارق ! فهما لم يبوحا بشىء . »

— « وكيف تعلم ؟ »

— « آمل الا يفعلا من اجلهما . وعلى أية حال فلا يجدينى مطلقا

لن أكون في نفسي من فقهما . »

فألححت مرة أخرى قائلة — « ولكن ما عليك الا ان تتجـــاهل ما حدث — اذهب لزيارتهما ولا تقل شيئا . فمـــاذا يهمك ؟ فكل انسان معرض لان تمر به لحظة ضعف . »

فأجابني قائلا — « نعم . ولكن لا يرغب كل انسان على مواصلة الحياة بعد ان يموت . أتدرين ماذا حدث لى فى تلك اللحظة عندما تكلمت ؟ لقد مت — مت الى الابد . »

ولم اعد أستطيع ان أتحمل الالم الذى كان يعصر قلبى فانفجرت باكية .

فسألنى قائلا — « لماذا تبكين ؟ »

فأجبته مجهشة بالبكاء أكثر من اى وقت قائلة — « لقولك انك ميت . لشد ما أنا خائفة » .

فسألنى مازحا — « الا تحبين صحبة المـــوتى ؟ ليس الامـــر مخيفا كما يبدو . بل انه فى الواقع ليس مخيفا على الاطلاق . فقد مت بطريقة خاصة للغاية . اذ أن جسدى ما زال حيا تماما . جسى لترى ان كان حيا أو ميتا » . ثم تناول يدى وجعلنى أجسه قائلا — « يمكنك أن تحسى أننى حى . وجذب يدى ضاغطا بها على جسده ثم سحبها الى حقوه حيث جعلنى أضغط بشدة على ذكره قائلا — « ها انذا حى فى جميع أجزاء جسدى . وأما فيما يخصك فاننى أكثر حياة مما كنت فى أى وقت مضى .. لا تخافى فان كنا لم نمارس الحب كثيرا أثناء حياتى فسنعوض ذلك تماما الان بعد مماتى » .

ثم ألقى يدى الباردة بعيدا عنه فى نوع من الاحتقار الغاضب . فوضعت كلتا يدى على وجهى واخذت ابكى تعاستى بصوت مسموع . أردت أن أبكى الى الابد بكاء لا ينتهى لاننى كنت أخشى اللحظة التى أتوقف فيها عن البكاء فأبقى خاوية ذاهلة فى مواجهة نفس الموقف الذى أثار بكائى . ومع ذلك فقد حانت تلك اللحظة وجففت بالملاءة وجهى المبلل بالدموع ثم اخذت أحملق فى الظـــلام بعينين مفتـــوحتين على سعتهما . وسمعته يخاطبنى بصوت حان رقيق وهو يسألنى قائلا :

— « فلنستمع الى رأيك فيما ينبغى أن أفعل » .

فاستدرت نحوه بعنف وتشبثت به بكل ما أوتيت من قوة ثم تكلمت وفمى على فمه قائلة :

— « فلتنس هذا الموضوع . ولا تنزعج بشأنه . فما فات مات . ذلك هو ما ينبغى أن تفعل » .

ـ « ثم ماذا ؟ »

ـ « ثم تعود الى دراستك من جديد . وتحصل على درجتك . وبعد ذلك تعود الى مسقط راسك . ولا يهمنى الا أراك مرة أخرى مادمت أعلم أنك سعيد . فابدأ العمل وعندما يحين الوقت تزوج فتاة من ذلك الجزء من العالم ـ فتـــاة تحبك وتنتمى الى طبقتـــك . ما شأنك بالسياسة ؟ انك لم تخلق لها . ولقد أخطأت باشتغالك بها . أخطأت ولكن الناس جميعا يخطئون . وســيأتى اليـــوم الذى ترى فيـــه أن اهتمامك بالسياسة كان أمرا خارجا عن المألوف . اننى أحبك حقا يا مينـــو فلو أن امرأة أخرى فى مكانى لما قبلت أن تفـــارقك . ولكن فلترحل غدا ان دعت الضرورة . ولنفترق الى الابد ان رأيت ذلك ضروريا . فمادمت سعيدا ـ » .

فقال فى صوت واضح عميق ـ « ولكننى لن أعرف السعادة مرة أخرى . فأنا مرشد » .

فأجبته قائلة فى سخط ـ « هذا كذب ! فانك لست كذلك على الاطلاق . وحتى لو كنت كذلك ففى امكانك رغم هذا أن تكون سعيدا ! فكم من الناس يبلغـــون ذروة السعادة مع انهم قد ارتكبوا جرائم . ولتتخذنى مثلا . فعندما يتكلم الناس عن بغى تجوب الشوارع فلا يعلم الا الله ماذا يجول بخاطرهم . ولكننى امرأة كغيرى من النساء وغالبا ما أنعم بالسعادة » . ثم اضفت قائلة فى مرارة :

ـ « ولشد ما تمتعت بالسعادة فى تلك الايام القليلة الماضية » .

ـ « أكنت سعيدة ؟ » .

ـ « نعم . للغاية . ولكننى كنت أعلم انها لايمكن أن تدوم وفى الواقع ـ »

وعندئذ أحسست بالرغبة فى البكاء من جديد ولكننى تمالكت نفسى ـ وأضفت قائلة ـ « كنت تتخيل نفسك فى صورة مختلفة تماما عن حقيقتك . ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك فعليك الان أن تقبل نفسك كما أنت فى الحقيقة ليعود كل شىء الى نصابه . ان احساسك بالخجل وخوفك مما يظنه الناس وأصدقاؤك بك ازاء ما حدث . هما اللذان يشقيانك الى هذا الحد . اذن فلتقلع عن مقابلتهم . ولتجتمع بقوم آخرين فالعالم فسيح ! واذا كان شغفهم بك لا يكفى لاقناعهم بأن ما حدث لم يكن سوى لحظة ضعف فلتبق معى . فانى احبك وأفهمك ولا اقف منك موقف القاضى ـ حقا ! » هكذا رحت أصيح عندئذ فى قوة واضفت قائلة ـ « حتى اذا ارتكبت ما هو أسوأ من ذلك ألف مرة فانك ستظل حبيبى مينو » .

فلزم الصمت . واسترسلت قائلة ـ « اننى أعلم أننى لست سوى فتاة فقيرة جاهلة . ولكننى أدرك بعض الامور خيرا مما يدركها احد . وتأكد بل خيرا مما تدركها انت . وقد راودنى نفس هذا الشعور الذى يراودك الان . فعندما التقينا لاول مرة ورفضت أن تلمسنى خيل لى أنك تحتقرنى . وفجأة فقدت كل رغبة فى مواصلة الحياة واشتد احساسي بالتعاسة والشقاء . فاردت أن أصير شخصا آخر ولكننى ادركت فى نفس الوقت أن ذلك ضرب من المحال وانه يتحتم على أن اظل كما كنت . وانتابنى احساس لزج محرق بالعار واليأس والحزن العميق فخيل لى انى تقلصت وتجمدت وشلت حركتى بل راودتنى الرغبة فى الموت أو هكذا خيل لى أحيانا . وذات يوم خرجت للنزهة مع أمى وحدث ان دخلنا احدى الكنائس حيث تبين لى عن طريق احساسي اثناء الصلاة أننى ان كنت كما كنت فليس فى ذلك ما يدعو الى الخجل فى قرارة قلبى بل معنى ذلك أن تلك هى ارادة الله . ولا ينبغى أن اتمرد على مصيرى بل يجب أن أقبله فى اذعان وثقة وان كنت تحتقرنى فلا لوم على بل عليك . وفى الواقع فقد مرت بذهنى أشياء كثيرة واخيرا زايلنى احساسى بالمهانة وعاودنى مرحى وابتهاجى»

وبدأ يضحك ضحكة تجمدت لها أطرافى . ثم أجابنى قائلا ـ « معنى ذلك اننى يجب أن أقبل ما فعلت والا أقاومه ـ يجب أن اقبل ما فعلت وما صرت اليه والا أحكم على نفسي . حسنا مثل هذه الاشياء يمكن أن تحدث فى داخل الكنيسة . اما فى خارجها » .

فاقترحت عليه متشبثة بأمل جديد ـ « اذن فلتذهب الى الكنيسة » .

ـ « كلا لن أذهب اليها . فانى لا اومن بها . ولا اشعر فيها الا بالملل . وفضلا عن ذلك ـ فيالها من طريقة غريبة فى الحديث ! » ثم أخذ يضحك من جديد ولكنه توقف فجأة وامسك بى من كتفى ثم راح يهزنى فى عنف وهو يصيح قائلا ـ « الا تدركين ماذا فعلت ؟ الا تدركين ؟ الا تدركين ؟ » أخذ يهزنى فى عنف حتى ذهبت انفاسى قبل أن يلقى بنفسه الى الخلف على الفراش فى انفجار نهائى . ثم سمعته وهو يثب من الفراش ويأخذ فى ارتداء ملابسه فى الظلام . وقال مهددا ـ « اياك أن تشعلى الضوء . فلا بد أن اتعود نظرة الناس الى . ولكن الوقت لم يحن بعد . فحذار أن تشعلى الضوء » .

ولم أجرؤ حتى على أن أتنفس . واخيرا سالته قائلة ـ « هل انت ذاهب ؟ » .

فقال ويخيل لى أنه ضحك مرة أخرى ـ « نعم ولكنى سأعود . لا تخشى شيئا فانى عائد . وفى الواقع فهاك خبرا سعيدا ـ فانى قادم للاقامة هنا معك » .

ـ « هنا معى ؟ » .

فاسترسل قائلا ـ « نعم . ولكنى لن أزعجك فى شىء . ففى امكانك أن تواصلى طريقتك المألوفة فى الحياة . وفى الامكان أن يعيش كلانا على ما ترسله الى أسرتى . كنت ادفع أجرا شاملا لاقامتى . ولكن هذا الاجر يكفينا نحن الاثنين اذا ما عشنا هنا فى المنزل » .

ولم يبعث البهجة فى نفسى اقتراحه الاقامة معى بقدر ما أثار الدهشة ولكنى لم أجرؤ على أن أعلق عليه بكلمة . وانتهى من ارتداء ملابسه فى ذلك الظلام الدامس وهو صامت لا يتكلم . ثم قال ـ « سأعود الليلة » . وسمعته يفتح الباب ليخرج ثم يغلقه . ورقدت هناك فى الظلام وعيناى تحملقان وقد فتحتا على سعتهما .

الفصل العاشر

وفى ذلك المســـاء نفسه توجهت الى مركز الشرطة المحلى عمـلا بنصيحة آستاريتا لادلى ببلاغ حول قضية سونزونيو . وكان يحدونى احجام شديد . اذ وجدتنى بعد ما حدث لمينو أحس برعب قاتل مميت . ازاء كل مايتصـــل بالشرطة ولو من بعيد . ولكننى الان كدت أستسلم للمقادير فقد أحســست أن الحيـــاة أوشكت أن تفقد طعمها لفترة من الزمان .

وما كدت أطلع مأمور الشرطة على السبب الذى دعانى للحضور حتى قال لى ـ « كنا نتوقع مجيئك هذا الصباح » . كان رجلا دمثا فقد سبق لى أن عرفته بعض الوقت . ومع انه كان رب أسرة وكانت سنه تزيد على الخمسين فقد أدركت قبل ذلك بزمن طويل أن مشاعره نحوى لم تكن ودية فحسب بل أكثر من ذلك . ومن بين ملامحه التى ما زالت بارزة فى ذاكرتى انفه الكبير الشبيه بالاسفنجة الذى لا يفتأ يضفى الكآبة على وجهه . وكان شعره لا يفتأ يقف فوق راسه بينما يغضى عينيه دائما وكأنه قد نهض لتوه من الفراش . وكانت عيناه الزرقاوان الحادتان تبدوان وكأنهما تختلســـان النظر من خلف قناع وجهه الاحمر المجعد الغليظ الذى يحاكي قشر البرتقال الضخم وهو نوع يظهر فى نهاية الموسم ولا يحتوى الا على ثمار يابسة متقلصة .

فقلت اننى لم استطع المجىء قبل ذلك . فرمقتنى عيناه الزرقاوان من خلف أديم وجهه الشبيه بقشر البرتقال مدة لحظة ثم خاطبنى قائلا بلهجة مؤتمنة .

ـ « حسنا . ما أسمه ؟ »

ـ «وكيف أعلم ذلك ؟ »

ـ « كفى عن هذا . فلا شك انك تعلمين : »

فقلت واضعة يدى على قلبى ـ « أقسم لك بشرف أننى لا أعلم . فقد وقفنى فى الطريق ـ واذكر أنه خيل لى أن هناك شيئا غريبا فى شخصيته . ولكننى لم أعره اهتماما » .

ـ « ولكن كيف حدث انك تركته وحيدا فى شقتك ؟ »

ـ « كنت على موعد عاجل فتركته » .

ــ « ولكنه ظن أنك ذهبت لاستدعاء الشرطة . اتعلمين ذلك ؟ وصاح قائلا انك وشيت به » .

ــ « نعم . اعلم ذلك » .

ــ « وأنه سينتقم منك » .

ــ « ثم ماذا » .

فأضاف قائلا وهو ينظر الى بامعـــــان ــ « ولكن الا تدركين أنه رجل خطير وانه ربما أطلق النار عليك غدا لانك وشيت به تماما كمـا أطلق النار على رجال الشرطة » .

ــ « اني أدرك ذلك بالطبع » .

ــ « اذن فلماذا ترفضين الادلاء باسمه ؟ سنلقى القبض عليه ولا حاجة بك الى القلق بعد ذلك » .

ــ « ولكننى قلت لك أننى لا أعرف اسمه ! وهل ينبغى على ان اعرف أسماء جميع الرجال الذين أصحبهم الى المنزل ؟ » .

فاذا به يعلن فجأة قائلا بلهجة مسرحية ونبرات عالية وهو يتكىء الى الامام .

ــ « ولكننا نعلم من هو ! » .

فأدركت أنه كان يتظاهر فحسب واجبته قائلة فى فتور ــ « اذا كنتم تعلمون من هو فلماذا تضايقوننى ؟ اقبضوا عليه ولتريحونا من الامر كله بعد ذلك » .

فأخذ يرمقنى لحظـــــة فى صـــمت . ولاحظت ان عينيه القلقتين المضطربتين كانتا لا تتفحصان وجهى بقدر ما تتفحصـــــان قوامى . وادركت ان احساسه بالواجب المهنى قد انهزم على الرغم منه أمام رغبته فى . ثم استرسل قائلا ــ « كما نعلم انه اذا كان قد أطلق النار ثم لاذ بالفرار فلاريب أن هناك سببا قويا دعاه الى ذلك » .

ــ « آه لاشك عندى فى هذا » .

ــ « ولكنك تعلمين الاسباب التى دعته الى ذلك » .

ــ « انى لا أعلم شيئا . فان كنت لا أعرف اسمه فكيف يمكننى ان أعرف البقية ؟ » .

فقال ــ « نحن نعلم الامر كله » . صار الان يتكلم بطريقة آلية تماما وكأنه يفكر فى شىء آخر . فتأكدت أنه لن يلبث أن ينهض من مكانه ويقبل نحوى . ثم اردف قائلا ــ « نحن نعلم كل ما حدث وسوف نقبض عليه . انها فقط مسألة أيام ــ ولعلها ساعات » .

ــ « انكم بذلك تحسنون صنعا » .

ثم نهض واقفا كما توقعت وسار حول المنضدة مقبلا نحوى . ثم قال لى وهو يحتضن ذقنى بيديه ـ « كفى عن هذا . فأنت تعلمين كل شىء . ولكنك ترفضين مصارحتنا . فماذا تخشين ؟ » .

فأجبته قائلة ـ « انى لا أخشى شيئا . ولا أدرى شيئا . والآن ابعد يديك عنى » .

فردد قائلا ـ « كفى عن هذا » . ولكنه عاود جلسته خلف المنضدة قبل أن يسترسل قائلا :

ـ « من حسن حظك اننى احبك واعرف انك فتاة طيبة . أتعلمين ماذا يفعل أى رجل آخر فى مكانى ليرغمك على الكلام ؟ انه يحتجزك فترة طويلة أو يرسلك الى سان جاليكانو » .

فنهضت قائلة ـ « انى مشغولة ـ فاذا لم يكن لديك شىء آخر تريد أن تقوله لى . . . »

ـ « اذهبى . ولكن كونى حذرة فى اختيار أصدقائك ـ من السياسيين وغيرهم » .

فتظاهرت بأننى لم أسمع تلك الكلمات الاخيرة التى قالها بقصد معين وهربت بأسرع ما أمكننى من تلك الغرف الصغيرة القذرة .

وبينما أنا سائرة فى طريقى عاودت التفكير فى سونزونيو . فقد رجح مأمور الشرطة ما سبق أن خامرنى من ظنون . اذ أن سونزونيو كان يريد أن ينتقم لنفسه منى لانه وثق بأننى وشيت به . وانتابنى الرعب لا خوفا على نفسى بل خوفا على مينو . فقد كان سونزونيو يهرف كالمجنون . ولو عثر على فى صحبة مينو لما تردد فى قتلنا نحن الاثنين . ولا يفوتنى أن اعترف بأن فكرة الموت مع مينو كانت تجذبنى على صورة غريبة . وتمثلت المشهد بأسره . فما أن يطلق سونزونيو النار حتى القى بنفسى أمامه لاحمى مينو فيصيبنى الرصاص بدلا منه . ومع ذلك فقد استهوانى أيضا ان يصاب مينو فى المعركة فنموت معا وتختلط دماؤنا . ولكن خيل لى أن مصرعنا معا بيد قاتل واحد وفى لحظة واحدة لن يبلغ فى روعته الانتحار معا . فقد بدا لى ان الاتفاق على الانتحار خاتمة خليقة بقصة غرام عنيف . كان أشبه باقتطاف الزهرة قبل ذبولها أو الانعزال فى مكان ساكن بعد سماع بعض الالحان السماوية . وطالما فكرت فى ذلك النوع من الانتحار الذى يوقف عجلة الزمن فيحول دون فساد الحب أو اتلافه . وهذا النوع من الانتحار لا يرجع السبب فيه الى العجز عن احتمال الالم بل يدبر عمدا نتيجة لفرط المتعة . فعندما كنت أحس ان حبى لمينو قد بلغ

من القوة حدا لن أستطيع ان أصل اليه فى المستقبل كانت فكرة الاتفاق على الانتحار تراودنى على صورة طبيعية للغاية بنفس التلقائية التى تفضى الى تتميله وخدعته . ولكننى لم أكاشفه قط بذلك الخاطر لاننى كنت أعلم أنه اذا اتفق عاشقان على الانتحار معا فلابد أن يكون حبهما متساويا . ولم يكن مينو يحبنى أو ان حبه لى لم يبلغ حد الرغبة فى أن يموت معى .

كانت كل هذه الخواطر تدور بذهنى وانا فى طريقى الى المنزل عندما فوجئت بدوار مصحوب بنوبة من الغثيان . ودب فى جميع أطرافى هزال مخيف . ولم يكد يتسع الوقت الا لدخول أحد محال اللبن وكان على مقربة منى . كنت على مسافة غير بعيدة من المنزل ولكننى أدركت أننى لم أعد أقوى على قطع تلك المسافة القصيرة دون أن أسقط على الارض .

جلست الى أحد الموائد الصغيرة خلف الباب ذى الواجهة الزجاجية حيث أغمضت عينى يخالجنى احساس بالانهيار . ولم يزايلنى الدوار أو الغثيان الشديد بل زاد شعورى بهما من أثر نفثات البخار المتصاعد من ماكينة القهوة . فلشد ما أزعجتنى تلك النفثات رغم بعدها الغريب عنى . كنت أحس فى يدى وفى وجهى بدفء الغرفة الساخنة المقفلة ومع ذلك فقد سرت فى جسدى برودة شديدة . وصاح الرجل قائلا من خلف المنضدة الطويلة ــ « أتبغين قدحا من القهوة يا مس آدريانا ؟ » كان يعرفنى جيدا فأومأت له برأسى موافقة دون أن أفتح عينى .

وأخيرا ثبت الى رشدى ورشفت القهوة التى وضعها الرجل أمامى على المائدة وفى الواقع لم تكن هذه أول مرة أشعر فيها بذلك الغثيان نفسه ولكنه كان لا يفتأ ينتابنى على صورة خفيفة للغاية حتى أننى لم أكد ألحظه . ولم أعره بالا لان الاحداث الغريبة المحزنة التى استغرقتنى حالت دون ذلك . أما الان فاننى بعد التفكير فيه والربط بين شعورى بالغثيان وبين انقطاع له دلالة كان قد طرأ فى الشهر السابق على حياتى الجسمانية صرت مقتنعة بأن ذلك الشك الغامض الذى أخذ يساورنى أخيرا وكنت لا أفتأ أبعده الى أظلم بقعة فى وعيى لابد أن يكون له أساس من الواقع . ووجدتنى فجأة أحدث نفسى قائلة ــ « لا سبيل الى الشك فى الامر . فلاريب أننى حامل » .

دفعت ثمن القهوة وغادرت المكان . وعندئذ لشد ماتعقد شعورى بل أجدنى الان وقد تعذر على التعبير عن ذلك الشعور رغم مضى

تلك الفترة الطويلة من الزمن • سبق أن قلت ان الكوارث لا تأتي فرادى . اذ ان تلك الحقيقة الجديدة التي لو طالعتني في أي وقت آخر وفي غير تلك المناسبة لاستقبلتها بالفرحة والسعادة بدت لي في ظل الظروف الراهنة مثلا حقيقيا لسوء الحظ . ولكنني أجد في طبعي من الناحية الاخرى غريزة غامضة لا تقاوم تقودني دائما الى اكتشاف ناحية جذابة حتى في أبغض الظروف . وحينذاك لم يتعذر على مطلقا ان اجد تلك الناحية الجذابة فيما حدث • انه نفس الشعور الذى يملأ قلوب النساء جميعا بالامل والرضا عندما يعلمن أنهن حبالى . لا شك أن طفلى سيولد فى ظروف لا يمكن أن يتخيل المرء شرا منها . ولكنه مع ذلك سيكون طفلى وسأكون أنا الام التي وضعته وسأعلمه وأسعد به . وحدثت نفسي قائلة ان الطفل طفل دائما ولا يسع اية امرأة مهما اشتد فقرها وساءت ظروفها وغمض مستقبلها وانعدم احساسها بالمسئولية وافتقرت الى من يعولها الا أن تشعر بالسعادة عندما تعلم أنها سوف تضع طفلا .

وعلى اثر تلك الخواطر عاودني هدوئى . فلم ألبث بعد لحظة من الخوف واليأس أن استعدت شعورى بالطمأنينة والثقة كطبعى دائما . وكانت عيادة ذلك الطبيب الشاب الذى سبق أن فحصنى منذ فترة وجيزة عندما سحبتنى أمى الى الصيدلية لتعرف ما اذا كنا أنا وجينو قد مارسنا الهوى لا تبعد كثيرا عن محل اللبن . فاستقر رأيى على الذهاب اليه ليفحصنى . وكان الوقت مبكرا فلم اجد أحدا فى غرفة الانتظار . وكان الطبيب يعرفنى جيدا فحيانى تحية قلبية .

ولم يكد يغلق الباب حتى أعلنت قائلة فى هدوء ــ « أكاد أكون على ثقة بأننى حامل يا دكتور » •

ولما كان على علم بمهنتى فقد أخذ يضحك ثم سألنى قائلا ــ « هل انت آسفة لذلك ؟ »

ــ « كلا مطلقا . بل انى فرحة فى الواقع » .

ــ « فلنر » .

وبعد ان وجه الى عدة أسئلة عن حالة الغثيان التى تنتابنى ارقدنى على الغطاء المشمع الذي يكسو الاريكة ثم فحصني . وقال لي بلهجة مرحة ــ « لقد أصبت كبد الحقيقة في هذه المرة » .

وسرنى ان تتأكد ظنونى دون أن يكون هناك مجال للشك . وكنت هادئة للغاية فقلت :

ــ « كنت أعلم ذلك وما جئت الى هنا فى الحقيقة الا لأقطع الشك باليقين »

ـ « يمكنك أن تثقى تماما بما أقول » .

وفرك يديه فى فرح وكأنه هو نفسه والد الطفل ثم اخذ يتمايل تجاهى فى مرح وهو مغتبط بى . ولكن شيئا واحدا كان يقلقني فاردت أن أتأكد منه . وسألته قائلة ـ « وما عمر هذا الجنين ؟ »

ـ « لعله قد مضى عليه شهران تقريبا . لماذا ؟ أتريدين ان تعلمى لمن هو ؟ »

ـ « انى أعلم ذلك بالفعل » .

واتجهت نحو الباب . فقال وهو يفتح لى الباب ـ « اذا أعوزك شيء فتعالى لزيارتى . وعندما يحين الوقت سنحرص على أن يولد الطفل فى أحسن الظروف الممكنة » . ولشد ما كان مغرما بى مثل مأمور الشرطة . ولكننى كنت أبادله ذلك الشغف فى حين أننى لم أكن أميل مطلقا نحو مأمور الشرطة . ولقد سبق أن وصفته مرة . فهو شاب وسيم شديد السمرة قوى نشيط ذو شارب أسود وعينين براقتين واسنان بيضاء يمتاز بشدة مرحه وحيويته . وطالما ذهبت اليه ليفحصنى على الاقل مرة كل أسبوعين وقد سمحت له بمضاجعتى مرة أو مرتين على نفس الاريكة ذات الغطاء المشمع حيث كان يفحصنى وذلك اعترافا منى بجميله فانه لم يكن يتقاضى منى أجرا ـ ولكنه كان يمتاز بلباقته الشديدة . فانه لم يحاول قط أن يفرض رغبته على باستثناء مداعبة عابرة تصدر عنه من وقت لآخر . وكان يسدى الى النصح . كما أعتقد أنه كان يحبنى قليلا على طريقته الخاصة .

لقد قلت له اننى أعلم لمن كان ذلك الطفل . وفى الواقع فقد أحسست حينئذ اننى اعلم ذلك بغريزتى لا عن طريق عد الايام على صورة آلية ـ كان خاطرا مر بذهنى . ولكننى عندما عدت الى الطريق وأخذت أحصى الايام وأعود بذاكرتى الى الماضى اذا بذلك الخاطر يصير حقيقة لا شك فيها . فما ان تذكرت صرخة الالم واللذة الطويلة الباكية التى انتزعت منى فى ظلام غرفتى بسبب ما خالجنى نحوه من رعب وافتتان حتى تأكدت أن والد الطفل لا يمكن أن يكون سوى سونزونيو . ولشد ما هالنى أن أعلم ان والد طفلى شقى متوحش سفاح مثل سونزونيو وخاصة لاننى ساكون دائما مهددة بأن يحذو الطفل حذو أبيه وأن يرث صفاته . ومن ناحية أخرى لم يسعنى الا ان أحس بأن هناك وجها غريبا من العدالة فى أبوة سونزونيو . فهو وحده دون غيره من الرجال الكثيرين الذين ضاجعونى قد امتلكنى حقا فى أخص أعماق كيانى واشدها ظلمة وغموضا . أما ما انتابنى نحوه من

رعب وخوف واستسلام راغم فلن ينير شيئا من امتلاكه اياى على صورة تافهة عميقة . بل بالأحرى انه يؤكد تلك الحقيقة . فان ذلك الاحساس بالامتلاك الشرعى رغم مقتى اياه لم يثره فى نفسي جينو أو آستاريتا أو حتى مينو الذى كنت أشعر نحوه بعاطفة مختلفة تماما . فبدا لى كل ذلك غريبا مخيفا . ولكن هكذا الامر فى الواقع . فالمشاعر هى الشيء الوحيد الذى لا يمكن أن ينبذه المرء أو ينكره أو حتى يحلله من وجهة نظر معينة . وخرجت من ذلك بأن بعض الرجال قد خلق للحب وبعضهم للانجاب . واذا كان قد حق على أن أنجب طفلا لسونزونيو فقد حق لى أيضا وبنفس القدر أن أمقته وأهرب منه وأن أحب مينو كما كنت أفعل فى الحقيقة .

أخذت أصعد الدرج فى بطء وانا أفكر فى ذلك العبء الحى الذى صرت الان أحمله فى أحشائى . وما كدت أدخل الردهة حتى سمعت أصواتا فى غرفة الجلوس فاتجهت نحو الباب وأدهشنى أن أرى مينو جالسا على رأس المائدة وهو يتحدث فى هدوء الى أمى التى جلست بالقرب منه عاكفة على الحياكة . وكان المصباح الاوسط وحده مضاء بينما غمر الظلام معظم الغرفة .

قلت فى كسل وأنا أتقدم نحوهما ـ « مساء الخير » .

فقال مينو فى صوت متردد أجش ـ « مساء الخير ـ مساء الخير »

وتطلعت الى وجهه فرأيت لمعانا شديدا فى عينيه فتأكدت أنه مخمور. وكان أحد طرفى المائدة قد بسطت عليه فوطة علتها شوك وسكاكين لشخصين . ولما كنت أعلم أن أمى تأكل دائما وحدها فى المطبخ فقد أدركت ان المكان الثانى قد اعد لمينو . ثم ردد قائلا ـ « لقد أحضرت حقائبى وهى فى الغرفة الاخرى . كما صادقت أمك . » ، ثم خاطبها قائلا ـ « فكلانا يفهم الآخر تماما . أليس كذلك ؟ »

وساورنى الخوف عندما سمعت لهجته المتهكمة وصوته العابث فى حزن وتجهم . فتهاويت على أحد المقاعد وقد أغمضت عينى لحظة . واذا بى أسمع أمى ترد عليه قائلة ـ « هذا هو ما تزعمه أنت . ولكننا لن نتفق اذا ما حاولت ان تنال من آدريانا » .

فهتف مينو قائلا وهو يتظاهر بالدهشة ـ « ولكن ماذا قلت ؟ ان آدريانا خلقت لهذه الحياة التى تحياها . وأن ادريانا ترى الحياة رائعة . اى خطأ فى ذلك ؟ »

فردت أمى قائلة ـ « هذا افتراء . فان آدريانا لم تخلق لهذه الحياة التى تحياها . بل كانت بكل ما أوتيت من جمال تستحق مصيرا

إفضل بكثير . الا تعلم انها من اجمل فتيـــات ألحى بـــل روما بأسرها ؟ فانى أرى فتيات أخريات كثيرات قد أسعدهن الحظ رغم أنهن لا يقاربنها جمالا . أما آدريانا ذات الجمال الرائع فانها دائما صفر اليدين . ولكننى أعرف السبب . »

ــ « وما هو ؟ »

ــ « لانها أطيب قلبا مما ينبغي . هذا هو السبب . لانها جميلة وطيبة ولو كانت جميلة وشريرة لرايت كيف يتغير معهـا مجرى الامور . »

فقلت يخالجنى شعور بالارتباك ازاء تلك المناقشة وخاصـة ازاء لهجةمينو لانه بدأ يسخر من أمى ــ « كفى . كفى . فانى جائعـة . ألم يعد ألعشاء بعد ؟ »

ــ « انه معد الآن . » ثم وضعت أمى ما بيدها على المائدة وهرولت الى خارج الغرفة . فتبعتها الى المطبخ .

وهناك دمدمت قائلة ــ « هل جعلنا من شقتنا نزلا ؟ لقـد دخل المنزل وكأنه سيده ثم وضع حقائبه فى غرفتك واعطانى نقودا لابتياع بعض الحاجيات . »

ــ « حسنا . السـت مسرورة بذلك ؟ »

ــ « اننى أفضل حياتنا السابقة . »

ــ « حسنا . تظاهرى بأننا خطيبان . وعلى أية حال فهو وضع مؤقت فحسب . اذ انه لن يبقى هنا سوى بضعة أيام ــ فمن المحال أن يقيم هنا الى الابد . » قلت لها شيئا أو شيئين من هذا القبيل لاطمئنها ثم ضممتها الى وعدت الى غرفة الجلوس .

ستظل تلك الوجبة الاولى التى تناولها مينو معى انا وامى فى منزلى باقية فى ذاكـــرتى زمنـــا طويلا . فانه لم يتـــوقف عن المـزاح وكانت شهيته رائعة . ولكن فكاهاته بدت أبرد من الثلج وامر من الليمون . فمن الواضح أنه لم تكن فى ذهنه سوى فكرة واحدةكانت أشبه بالشوكة المغروزة فى بدنه . ولم تزد فكاهاته على تحريـــكها فيعمق مغرزها ويتجدد ألمها . وكان قوام تلك الفكرة هو كل ماقاله لاستاريتا . وفى الواقع فانى لم أر فى حياتى ندما عميقا على تلك الصورة . وقد علمنى القساوسة فى طفولتى أن الندم يغسل الذنوب ولكنه فى حالة مينو بدا وكأنه لا نهاية له ولم يأت بنتيجة نافعة . فقد أدركت أنه لشد ما كان يعانى فكانت معاناتى من اجله بنفس القدر وربما زادت لعجزى عن مساعدته أو تخفيف العبء عنه .

وتناولنا أول أصناف الطعام فى صمت . ثم قالت امى شيئا عن سعر اللحم وكانت واقفة لتقوم على خدمتنا . فقال مينو رافعا رأسه ــ « لا تقلقى . فمن الان فصاعدا سأعمل على تزويدكما بكل ماتطلبان فانى سأحصل على وظيفة مجزية . »

وكاد الامل يراودنى عندما صرح بذلك . فسألته امى قائلة ــ « أية وظيفة ؟ »

فقال مينو فى جدية مبالغ فيها ــ « انها وظيفة فى الشرطة . وسوف يعيننى فيها صديق لادريانا ــ مستر آستاريتا . »

فوضعت السكين والشوكة على المائدة ورحت أحملق فيه . فاسترسل قائلا ــ « لقد اكتشفوا فى تلك الصفات التى ينشدونها فى رجل الشرطة » .

فقالت امى ــ « ربما . ولكننى لم أحب الشرطة قط . ان ابن الغسالة التى تقيم فى الطابق السفلى شرطى أيضا . أتعلم ماذا قال له الشبان الذين يعملون فى مصنع الاسمنت المجاور لنا ؟ ابتعد عنا . فاننا لا نريد ان تكون لنا بعد ذلك صلة بك . وعلى أية حال فان العمل فى الشرطة ليس مجزيا . » ثم قطبت وجهها وغيرت صحفته مقدمة اليه طبق اللحم .

فرد مينو قائلا وهو يأخذ نصيبا منه ــ « ليس هذا ما أعنيه . بل أقصد وظيفة هامة دقيقة للغاية سرية للغاية . يا للشيطان ! ان دراستى لم تذهب هباء ! فقد أوشكت أن أحصل على درجتى . كما أنى ملم باللغات الحديثة . ان الفقراء من الناس هم الــذين يصيرون رجال شرطة فحسب . أما امثالى فلا . »

فرددت أمى قائلة ــ « ربما . » ثم أضافت قائلة وهى تدفع الى صحفته بأكبر قطعة من اللحم ــ « خذ هذه . »

فقال مينو ــ « ليس ربما ، بل هو فى الحقيقة كما أقول . »

ولزم الصمت لحظة ثم قال ــ « ان الحكومة تعلم ان البلاد مملوءة بالمعارضين لها لا بين الفقراء فحسب بل بين الاغنياء كذلك . فهى فى حاجة الى قوم متعلمين ليتجسسوا على الاغنياء ـــ قـــوم يتحدثون مثلهم ويرتدون أزياءهم ويتحلون بآدابهم كما يوحون بالثقة . هذا هو ما سأفعله . فسوف أتقاضى اجرا مجزيا واقيم فى فنـــادق الدرجة الاولى وأسافر فى عربات النوم وأتناول طعامى فى أفخر المطاعم ويحيك لى ثيابى خياط عصرى وارتاد الشــواطىء الحــديثة الراقية والمصايف الشهيرة فى الجبال . بالله ماذا حسبتنى ؟ »

عندئذ كانت أمى تحملق فيه فاغرة فاها . فقد بهرها كل هذا الترف . وأخيرا قالت ــ « فى هذه الحالة ليس لدى ما أقوله » .
وكانت قد انتهيت من تناول وجبتى . فرفعتها وجدتنى لا اقوى مطلقا على الاستمرار فى مشاهدة تلك المهزلة التى تمزق نياط القلوب فقلت فى اقتضاب ــ « انى متعبة . وسأذهب الى الغرفة الاخرى . »
ثم نهضت وغادرت غرفة الجلوس .

وما أن دخلت غرفتى حتى جلست على الفراش وانطـــويت على نفسى ثم بدأت أبكى فى صمت من خلال أصابعى التى كانت تخفى وجهى . فكرت فى محنة مينو وفى الطفل الذى سأرزق به . فبدا لى أن المحنة والطفل كليهما كائن حى ينمو من تلقاء ذاته بعيدا عنى وعن نطاق سيطرتى وانه لم تعد لى حيلة فيهما . وما ان لحق بى مينو بعد فترة وجيزة حتى نهضت فى الحال مشيحة بوجهى بعيـــدا عنه خشية ان يرى عينى الممتلئتين بالدموع قبل ان يتسع الوقت لتجفيفهما . وكان قد أشـــعل سيجارة ثم اضطجع على الفراش . فجلست بجانبه قائلة :

ــ « أرجو يا مينو ــ الا تتحدث الى أمى على هذه الصـــورة مرة أخرى . »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لانها لا تفهم شيئا . ولكننى أفهم ما تقول . وكل كلمة تنطق بها تطعننى فى قلبى كالابرة » .

فلم ينبس بشىء بل أخذ يدخن فى صمت . فأخرجت من الدرج قميص نوم والتقطت ابرة وبكرة من خيوط الحرير ثم عكفت على حياكته دون ان أتكلم وأنا جالسة على حافة الفراش بالقرب من المصباح . لم اشـــأ ان اتكلم لاننى خشيت لو فعلت أن يأخذ فى مناقشة الموضوع المعهود . فلزمت الصمت عسى أن تهيم خواطـــره فيطرد من ذهنه تلك الفكرة . والحياكة عمل يتطلب كثيرا من الانتباه كما تعلم جميع النساء اللائى يحترفنه . ولكنه يطلق العنان للذهن فبينما كنت عاكفة على الخياكة اذا بخواطرى تدور برأسى او الاحرى انى احسست وانا ادفع بالابرة سريعا فى الثوب الذى كان بين يدى ثم انتزعها منه وكأنى أرتق فتقا أو ألفق حاشية فى ذهنى . كما انى شاركت مينو تلك الفكرة الثابتة فى ذهنه ولم أتمالك نفسى من التفكير فيما قاله لاستاريتا وما سوف يترتب عليه من نتائج . ولكننى لم أشأ أن افكر فى ذلك لانى خشيت لو فعلت ان ينطلق تفكيره فى نفس

الاتجاه أيضا بفعل قوة غامضة فأصبح على الرغم منى مسئولة على صورة ما عن تفاقم أساه وبث الحياة فيه. لذلك فقد حاولت ان افكر فى شىء آخر ــ شىء فيه صفاء ومرح واشراق . فركزت انتباهى بكل ما أوتيت من قوة ذهنية على الطفل الذى سأرزق به ــ ذلك الحادث الذى يمثل فى الواقع الظاهرة الوحيدة السعيدة فى حيـــاتى بعد ان ملأتها الآن الصور الاليمة المفجعة . فتخيلت شكله وهـــــو فى عامه الثانى او الثالث وتلك اجمل مراحل النمو اذ عندها يبلغ الطفل اوج فتنته وجماله . وفيما أنا أفكر فى افعاله واقواله جميعا وفى طريقة تربيته عاودنى مرحى كما تمنيت أن يحدث ونسيت مينو ومحنته لحظة من الزمان ــ وكنت قد انتهيت من رتق قميص النوم وبينما كنت أتناول قطعة اخرى من الثياب اخذت افكر فى طريقـــة اخفف بها من ساعات التوتر الطويلة التى سأقضيها مع مينو . ففكرت فى اعداد ملابس الطفل ولوازمه . غير اننى يجب الا أطلع مينو على ما أعمل أو ألتمس له عذرا . فخطر لى أن أخبره بأننى كنت أعدها لاحدى جاراتنا وكانت بالفعل تنتظر مولودا . ولمـا كنت قد حدثت مينو عنها من قبل وأشرت الى فقرها فقد خيل لى انه سيكون عذرا وجيها . ولشد ما استهوتنى تلك الخواطر حتى اننى دون أن الحظ ذلك تقريبا اخذت أدندن فى هدوء .

ومع أن صوتى ليس قويا فان أذنى حساسة للغاية وحلاوة نبراتى خارجة عن المألوف حتى فى حديثى . فأخذت انشـــــد اغنية « الفيللا الحزينة » وكانت معروفة وقتذاك . وعندما رفعت عينى لأقضم الخيط الذى كنت أحيك به اذا بمينو ينظر الى . فتوقفت عن الغناء . اذ خيل لى أنه ربما لامنى لغنائى فى فترة حرجة للغاية بالنسبة له .

فقال وهو ينظر الى ــ « استمرى فى الغناء . »

ــ « اتريدنى أن أغنى ؟. »

ــ « نعم . »

ــ « ولكننى لا أحسن الغناء . »

ــ « هذا لا يهم . »

فعدت الى الحياكة من جديد واخذت أغنى له . وكنت كمعظم الفتيات اعرف عددا كبيرا من الاغانى . وكانت عندى فى الواقع حصيلة ضخمة منها وذلك لقوة ذاكرتى حتى انه كان يمكننى أن أتذكر الاغانى التى حفظتها فى طفولتى . اخذت اغنى نبذة من كل اغنية ولا أكاد انتهى من احداها حتى ابدأ فى الاخرى . وكنت اغنى أول الامر بصـــــوت

هادىء ثم اذا بى أتحمس تدريجيا فأرفع عقيرتى بالغنـاء مستجمعة
كل ما في نفسي من مشاعر . وتوالت الاغاني احداها بعد الاخرى
وقد تباينت جميعها . وكنت أثناء غنائي في احداها افكر في الاغنية
التى تليها . وأخذ ينصت الى وقد ارتسم على وجهه تعبير جـاد
فسررت لامكانى تشتيت انتباهه وابعاده عما يخالجـه من تأنيب
الضمير . ولكننى تذكرت فى نفس الوقت اننى فى طفولتى ذات مرة
فقدت لعبة كنت شغوفا بها للغاية . فلمـا لم استطع التوقف عن
البكاء بسبب الخسارة التى حلت بى جلست أمى على حافة الفراش
وأخذت تنشدنى ما تعرف من اغان قليلة . فاذا بى على الرغم من
سوء غنائها ونشازها أنصت اليها فى اول الامر كما انصت الى مينو
ولكن ذكرى اللعبة التى فقدت منى ما لبثت ان قطرت مرارتهـا
تدريجيا فى قدح النسيان الذى قدمته الى أمى فتسمم كل شيء فى
النهاية وصارت الخسارة لشدة التباين امرا لايمكن احتمـاله مطلقا .
واذا بى فى النهاية انفجر فجأة فى البكاء من جديد واذا بأمى التى
عيل صبرها تطفىء الضوء وتغادر الفرفة منصرفة عنى لابكى فى الظلام
ما شاء لى البكاء . ولذا فقد كنت واثقة ان حلاوة غنائى الخداعة
لا يكاد يتلاشى تاثيرها حتى يعاوده لا محالة ذلك الالم المبرح الذى
سيكون لتناقضه مع تفاهة أغانى العاطفية اكثر حدة واشد قسوة .
ولم أكن مخطئة فى تقديرى . فقد ظللت اغنى قرابة الساعة . واذا
به يقاطعنى فجأة قائلا فى جفاء ــ « يكفى هذا . فلشد ما سئمت
أغانيك . » ثم انطوى على نفسه وكأنه يريد أن ينـام مـديرا ظهره
نحوى .

لم اتألم كثيرا لاننى كنت انتظر ان يكون سلوكه على تلك الصورة
الوقحة . وعلى اية حال فانى حينذاك لم أكن اتوقع شـيئا سوى
الشقاء . ولو حدث عكس ذلك لاثار دهشتى . فنهضت من الفراش
لابعد الثياب التى أصلحتها . ثم خلعت ملابسى وانا لا ازال صامتة
وانسللت الى داخل الفراش فى الجانب الذى تركه مينو خاليا .
واضطجعنا قليلا فى صمت على تلك الصورة ظهرا لظهر . كنت ادرك
انه ليس نائما وانه يفكر طوال الوقت فى امر واحد . وقد اثار فى
ذهنى ذلك الادراك فضلا عن احساسى الحاد بعجزى عن تقديم العون
اليه عاصفة من الخواطر المختلطة اليائسة . كنت راقدة على جنبى
وأنا مستغرقة فى التفكير احملق امامى فى احدى زوايا الغرفة .
فأمكننى ان ارى احدى الحقيبتين اللتين احضرهما مينو من منزل

السنيورا مدولاجي . وكانت حقيبة جلدية قديمة صفراء تكسوها بطاقات ملونة للفنادق المختلفة . وظهرت من بينها بطاقة وسمت عليها رقعة من البحر الازرق وصخرة حمراء ضخمة وكلمة : كابرى.
وكانت تلك البقعة الزرقاء تبدو مضيئة فى ذلك الضوء الخافت وبين قطع الاثاث الكئيبة المعتمة بل تبدو اكثر من مجرد بقعة . كانت ثغرة ألمح من خلالها تلك المساحة الطويلة الضيقة من البحر البعيد .
وانتابنى حنين مفاجىء الى البحر بكل ما فيه من تألق وحيوية .
اذ انه مهما فسدت الاشياء وانعدم شكلها فان البحر خليق بتطهيرها وتسويتها واستكمال شكلها وتحويلها الى أشياء نظيفة جميلة .
وكنت لا أفتأ أحب البحر حتى شاطىء « أوستيا » الاليف المزدحم .
فكان منظر البحر يبعث فى نفسى دائما احساسا بالحرية التى تنتشى لها أذناى أكثر مما تنتشى لها عيناى وكأنى أصغى الى ألحان موسيقى رائعة خالدة لا تبرح تطفو الى الأبد فوق أمواجه . وبدأت أفكر فى البحر وقد انتابنى حنين شديد الى أمواجه الشفافة التى بدت لى انها لا تغسل الجسد فحسب بل الروح ايضا . اذ انها بملمسها السائل تحررها من أثقالها وتملؤها بالفرحة . وحدثت نفسى قائلة انه لو أمكننى ان أصحب مينو الى البحر فلعله بضخامته وحركته الدائبة وضجيجه الذى لا ينقطع يبعث فى نفسه التأثير الذى لم يستطع حبى وحده ان يحدثه .

وفجأة سألته قائلة ــ « هل زرت كابرى قط ؟ »

فقال دون أن يستدير نحوى ــ « نعم . »

ــ « هل هى جميلة ؟ »

ــ « نعم ــ للغاية . »

فقلت مستديرة نحوه فى الفراش ومحيطة عنقه بذراعى ــ «انصت الى ــ لم لا نذهب الى كابرى ؟ أو الى أى مكان اخر على شاطىء البحر ؟ فانك مادمت باقيا هنا فى روما فلن يمكنك أن تفكر فى شىء سار وانى واثقة انك مع تغيير الجو سوف ترى كل شىء فى صورة مختلفة . سنرى أشياء كثيرة مما لا تراه الان . انى واثقة أن فى ذلك نفعا لك » .

فلم يجبنى فى الحال . وبدا لى أنه يفكر فيما قلت . ثم قال ــ « لا حاجة بى لان اذهب الى البحر . اذ يمكننى حتى هنا أن أرى الاشياء فى صورة مختلفة كما تقولين . وما على الا ان أقبل ما فعلت كما نصحتنى من قبل . وعندئذ أستمتع بالسماء والارض وبك وبكل

شىء فى الحال . أتظنيننى لا أدرى أن الوجود جميل ؟ »

فقالت فى شوق ـ « حسنا . اذن فلننتبه . فماذا يكلفك ذلك ؟ » ـ

فأخذ يضحك قائلا ـ « كان ينبغى أن أفكر فى ذلك أولا . كان ينبغى على أن أحذو حذوك ـ فأقبل ذلك مباشرة منذ البـــداية . فحتى الشحاذون الذين يجلسون على عتبات الكنائس طلبا للدفء فى ضوء الشمس قد قبلوا كل شىء منذ البداية . أما الان فقد فاتنى الوقت »

ـ « ولكن لمــاذا ؟ »

ـ « هناك من يقبل وهناك من لا يقبل . ومن الواضح أننى انتمى الى الطائفة الثانية » .

لم أدر ماذا أقول فلزمت الصمت . ثم أضاف قائلا بعد لحظــة

ـ « والان اطفئى الضوء . فسأخلع ثيابى فى الظلام . فلا ريب ان ساعة النوم قد حانت . »

فامتثلت لامره . وخلع ملابسه فى الظلام . ثم أوى الى الفراش بجانبى . واستدرت نحوه وكأنى أهم بمعانقته . ولكنه دفعنى بعيدا دون أن ينبس بكلمة ثم انــكمش على حافة الفراش مديرا ظهـــره نحوى . فملأتنى تلك الحركة بالمرارة وانكمشت أنا أيضا فى انتظار النوم بينما كانت روحى تنتحب باكية . ولكننى عاودت التفـكير فى البحر واستبد بى الحنين لاغرق نفسى فيه . فقد خيل لى ان ذلك لن يستغرق ســوى لحظة واحدة من الالم . ثم لا تفتــأ تنتقل جثتى الطافية من موجة الى موجة تحت الشــمس دهورا طويلة . فتفقأ النوارس بمناقيرها عينى وتحرق الشـــمس صدرى وبطنى ويقرض السمك ظهرى . وفى النهاية أغوص فى القـــاع حيث يسحبنى من رأسى تيار أزرق مثلج ليجرفنى أمامه عبر قاع البحر شهورا وأعواما بين صخور القاع وأسماكه وأعشابه البحرية فتغسل الامواه الملحــة الصافية جبينى وصـــدرى وبطنى وساقى ويتعرى بدنى من اللحم رويدا وتظل تلك المياه تسوى جسدى وتطهره الى ان تقذف بى اخيرا احدى الامواج يوما ما على شاطىء ما حيث لا اكون سوى حفنة من عظام هشة بيضاء . وراقتنى فكرة غوصى الى قاع البحر منسحوبة من شعرى . كما راقتنى فكرة تحولى يوما ما الى كومة صــغيرة من العظام على أحد الشواطىء بلا شــكل آدمى بين الاحجـــار الملساء . ولعل شخصا ما يطأ عظامى دون أن يلحظ ذلك فيسحقها ويحولهــا الى مسحوق أبيض .. ثم استغرقت فى النوم تراودنى تلك الخواطر الشهوانية الحزينة .

الفصل الحادى عشر

وفى اليوم التالى حاولت أن أقنع نفسى بالقوة أن النوم والراحة قد بدلا من مشاعر مينو ولكننى مع ذلك لاحظت فى الحال انه كان كما عهدته دائما . بل لقد بدا لى فى الواقع أسوأ حالا مماكان الىحدما. فقد ظلت تمر به فترات من الصمت الطويل الحزين العنيد تعقبها انفجارات من الثرثرة الهائمة المتهكمة فى موضوعات تافهة لم تفتأ تتجلى فيها مع ذلك نفس الفكرة المسيطرة كعلامة النسيج فى بعض أنواع الورق . وكان تدهور حالته بقدر ما أمكننى أن أرى يتمثل بصفة رئيسية فى نوع من الجمود الارادى والبلادة وعدم الاكتراث وكلها أشياء دخيلة عليه لانه كان دائما آية فى النشاط والحيوية . كان يمارس نوعا من الانعزال التدريجى عن كل ما كان يقوم به حتى الان . وقد فتحت حقائبه ووضعت حلله وملابسه الاخرى فى صوان ملابسى . ولكننى ما ان اقترحت عليه أن أصف له كتبه التى كان يحتاج اليها فى دراسته فوق خزانة الثياب أسفل المرآة حتى أجابنى قائلا « اتركيها فى الحقيبة . فهى لم تعد تفيدنى فى شىء على أية حال » .

فسألته قائلة ــ « ولم لا ؟ أليس عليك أن تحصل على درجتك ؟ »

ــ « بل لن أحصل عليها » .

ــ « ألا تريد أن تواصل دراستك ؟ »

ــ « كلا » .

ولم ألح عليه خشية أن يعاود الحديث فى ذلك الموضوع المعهود الذى كان يحزنه، وتركت الكتب فى الحقيبة . ولاحظت أنه لم يحلق ذقنه ولم يغتسل رغم ما عهدته فيه دائما من نظافة مفرطة وحرص على الاناقة . وفى اليوم التالى قضى سحابة النهار فى غرفتى تارة يضطجع على الفراش وهو يدخن وتارة يذرع الغرفة وهو مستغرق فى التفكير وقد دس يديه فى جيوبه . ولكنه عند الغداء لم يعد يتحدث الى امى كما وعدنى . وعندما أقبل المساء أخبرنى أنه سيتناول العشاء فى الخارج وغادر الدار وحده . ولم أجرؤ على أن أقترح عليه اصطحابى . ولا أدرى أين ذهب ولكننى كنت أتهيأ للنوم عندما دخل الغرفة ولاحظت فى الحال انه كان يشرب الخمر ، فعانقنى بطريقة

مضحكة فيها مغالاة، وأصر على مضاجعتي. فاضطررت الى الاستسلام له بغير ادراكي أن ممارسة الحب كانت في نظره عندئذ كمعاقرة الخمر ـ امرا بغيضا يكره نفسه عليه حتى ينال منه التعب ويتنابه الخدر. وقد صارحته بذلك قائلة ـ « يمكنك بالمثل أن تضاجع اية امرأة أخرى . » فأجابني قائلا : ـ « يمكنني ذلك . ولكن ها أنت ذى هنا سهلة المنال . » وقد ساءنى ذلك بل جرح كبريائى أكثر مما ساءنى لانه دل على نضوب عاطفته نحوى .

وفجأة لمع فى ذهنى وميض من الادراك . فقلت له ـ « انصت الى. انى أعلم أننى لست سوى فتاة تافهة مسكينة ... ولكن حاول أن تحبنى . فذلك خير لك . اذ انى واثقة انك لو أحببتنى أمكنك فى النهاية أن تحب نفسك » . فنظر الى ثم ردد قائلا بصوت ساخر مرتفع ـ « الحب . الحب . » ثم أطفأ الضوء . فرقدت هناك فى الظلام بعينين محملقتين يخالجنى شعور بالحيرة والمرارة . ولم أدر ماذا أفكر .

لم يطرأ تغير ما على حالته فى الايام التالية بل سار كل شىء على نفس الوتيرة . ولكن بدا لى فقط أنه اخذ يكتسب عادات جديدة لتحل محل عاداته القديمة . فقد كان قبل ذلك يتابع دراسته ويذهب الى الجامعة ويلتقى بأصدقائه فى أحد المقاهى ويقرأ ويطلع . أما الان فتارة يرقد على الفراش وهو يدخن وتارة يتجول فى الفرفة وهو لا يفتأ يردد تلميحاته الجنونية التى لا رابط بينها وتارة يشرب الخمر حتى يسكر وتارة يمارس الحب . وفى اليوم الرابع بدات أشعر حقا باليأس المطلق . فقد أمكننى أن أرى أن ألمه المبرح لم تقل مرارته . وخيل لى أن مواصلة الحياة على تلك الصورة ضرب من المحال . فقد بدت لى غرفتى التى لم يبرح يملؤها دخان السجائر وكأنها مصنع يعمل ليل نهار فى انتاج الالم دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة . حتى أن الهواء الذى صرت استنشقه الان كان كتلة هلامية سميكة من الخواطر الحزينة الملحة . وطالما لعنت جهلى وتفاهتى حينذاك ولعنت الظروف التى جعلت أمى أكثر منى جهلا وتفاهة . فان أول ما يخالج الانسان ساعة المحنة هو أن يتجه الى شخص يكبره سنا ويفوقه خبرة طلبا للنصيحة . ولكننى كنت لا أعرف أحدا له مثل هذه الصفات . أما أمى فكان طلب العون اليها كطلبه الى أحد الاطفال الكثيرين الذين ألفوا أن يلعبوا فى فناء الدار . ومن الناحية الاخرى فقد تعذر على أن أنفذ الى أعماق أساه . اذ أن أمورا كثيرة

كانت تفوتني ملاحظتها . ولكنني توصلت تدريجيا الى ان اعرف ان ما كان يعذبه أكثر من أي شيء آخر هو اعتقاده أن كل ما قاله لآستاريتا كان مدونا فى تقرير الشرطة ومحفوظا فى السجلات كشاهد أبدى على ضعفه . وقد عززت بعض أقواله ذلك الاعتقاد الذى توصلت اليه . وذات مساء تحدثت اليه فى الامر قائلة : ـ « ان كان من دواعى أسفك أنهم سجلوا كل ما قلته لآستاريتا ـ فان آستاريتا لا يرفض لى طلبا . وانى واثقة أنه سيعدم التقرير لو طلبت اليه ذلك » .

فقال وهو يرمينى بنظرة غريبة ـ « وما الذى يجعلك تعتقدين ذلك ؟ »

ـ « لقد اعترفت أنت نفسك بذلك أخيرا حين طالبتك بأن تحاول النسيان فقلت لى انك حتى لو نسيت ما حدث فان الشرطة لن تنسى»

ـ « ولكن كيف يمكنك أن تفاتحيه فى الامر ؟ »

ـ « ذلك أمر ميسور للغاية ! فانى أتصل به تليفونيا ثم أذهب لمقابلته فى الوزارة » .

ولكنه رفض أن يفصح عما يريد . فألححت قائلة ـ « حسنا ـ أتريدنى أن أطلب اليه ذلك ؟ »

ـ « أما فيما يخصنى فلتفعلى ما شئت » .

فخرجنا معا واتصلت به تليفونيا من أحد محال اللبن . فرد على آستاريتا فى الحال وأخبرته أننى يجب أن أتحدث اليه فى أمر ما .

ثم استأذنته فى الذهاب لمقابلته فى الوزارة . فأجابنى قائلا فى صوت غريب متلعثم ـ « أما أن نلتقى فى شقتك واما لا نلتقى مطلقا » .

فأدركت أنه يريد أن يتقاضى ثمن الصـــنيع الذى سأطلبه اليه .

وحاولت أن أتحاشى ذلك قائلة ـ « فليكن لقاؤنا فى أحد المقاهى » .

ـ « اما فى شقتك أولا نلتقى مطلقا » .

فقلت ـ « حسنا . اذن فليكن فى شقتى . » ثم أضفت قائلة اننى ساعود يومئذ الى المنزل فى ساعة متأخرة من المساء .

ثم قلت لمينو ونحن فى طريقنا الى المنزل عائدين ـ « انى اعرف ماذا يريد . فهو يبغى مضاجعتي ـ بيد أن احدا لم يستطع ان يغتصب امرأة . لقد ابتزني مرة واحدة من قبل عندما كانت تعوزني الخبرة . ولكنه لن يفلح فى ذلك مرة أخرى » .

فســألنى مينو قائلا فى غير اكتراث ـ « ولــكن لم لا تريدينه ان يضاجعك ؟ »

ـ « لانى أحبك » .

ـ « ولكنه ربما رفض أن يعدم التقارير لو أبيت أن تسمحى له بمضاجعتك . » ثم سألنى قائلا بلهجته التى مازالت عديمة الاكتراث

ـ « فكيف يكون الموقف اذن ؟ »

ـ « بل انه سيعدمها . لا تنزعج » .

ـ « ولكن لنفرض أنه أبى أن يفعل ذلك الا بشرط واحد » .

وكنا عندئذ نصعد الدرج . فوقفت ساكنة وقلت ـ « سأفعل ما تقرره أنت » .

فأحاط خصرى بذراعه قائلا فى بطء ـ « حسنا ـ هـذا هو ما أريده ـ أريدك أن تأتى بآستاريتا الى شقتك وان تصحبيه الى غرفتك بقصد المضاجعة . وسأكون أنا واقفا فى انتظاره خلف الباب فأرديه قتيلا بمسدسي لحظة دخوله . ثم ندفع بجثته تحت الفراش ونمارس الحب طوال الليل » .

كانت عيناه تلمعان . فقد انجابت عنهما لاول مرة منذ أيام تلك السحابة الثقيلة التى كانت تغشـــاهما فتخبى نورهما . وانتابنى الخوف اذ أمكننى أن ارى فى اقتراحه شيئا من المنطق . كما صرت الان أتوقع فى استسلام أن تنزل بى كارثة أقوى وأشد فخيل لى أنها الجريمة التى يمكن أن ترتكب بالضبط . فهتفت قائلة ـ « أستحلفك بالله يامينو الا تردد مثل هذه الاشياء ولا حتى على سبيل المزاح ! »

فردد كلامى قائلا ـ « ولا حتى على سبيل المزاح . لقد كنت أمزح فى الواقع » .

وخطر لى انه ربما لم يكن يمزح مطلقـــا . ولـكننى احسست بالطمأنينة عندما تذكرت أن المسدس الذى ربما فكر فى استخدامه كان فارغا لاننى كنت قد أخرجت منه الرصاص بنفسى . غير انه لم يكن يعلم ذلك كما سبق أن ذكرت . واسترسلت قائلة ـ « لا تنزعج . فان آستاريتا لن يرفض لى طلبا . ولكن اياك أن تتكلم على هـــذه الصورة مرة أخرى . فلشد ما أخفتنى » .

فقال باستخفاف وهو يدخل الشقة ـ « أواه ! فلم يعد يمكننى حتى أن أمزح » .

وما كدنا ندخل غرفة الجلوس حتى لاحظت أن نوبة فجائية من القلق قد انتابه فأخذ يذرع الغرفة وقد دس يديه فى جيبيه كمألوف عادته . ولكنه كان يسير بطريقة مختلفة فقد دب النشاط فى حركته واكتسى وجهه بتعبير ينم عن صفاء التفكير وعمقه وعن تخلصـــه من بلادته ونفوره المألوف . وعزوت ذلك التغيير الذى طرأ عليـــه الى

راحته النفسية عندما علم بقرب اعدام الاوراق التي تسيء الى سمعته . فقلت له وقد بعث الامل فى صدرى من جديد ـ « سوف ترى أن الامور جميعا لن تلبث أن تستقيم » .

فانتابته رجفة عنيفة ثم نظر الى وكأنه لا يعرفنى مرددا فى آلية « نعم ـ ان الامور جميعا سوف تستقيم » .

وكنت قد ارسلت أمي الى خارج الدار بحجة ابتياع بعض الحاجيات للعشاء . وراودنى فجأة شعور بالتفاؤل . فقد خيل لى حقا ان الامور جميعا سوف تستقيم بل لعلها صارت خيرا مما كنت أتوقع . فان آستاريتا سيستجيب لما أريد . هذا اذا لم يكن قد استجاب بالفعل فيتخلص مينو يوما بعد يوم من تأنيب ضميره . ويبدأ فى التمتع بالحياة من جديد ويتطلع الى المستقبل فى ثقة . ففي وقت الشدة يقنع الناس جميعا بالبقاء فحسب . ولكن ما ان يتغير اتجاه الريح حتى يشرعوا فى وضع الخطط الطامحة ذات المدى البعيد . فقد خيل لى قبل ذلك بيومين أننى قادرة علي التخلى عن مينو من اجل سعادته. ولكننى الان وقد وجدتنى مقتنعة بقدرتى على استعادة سعادته لم أتخل فقط عن كل تفكير فى الافتراق عنه بل حاولت أن أدبر وسيلة أستطيع بها ان اربطه بى برباط أقوى وأشد . لم يكن عقلى هو الذى يحثنى على وضع تلك الخطط بل ان قوة غامضة طى روحى هى التى كان يعوزها الامل ولا يمكنها أن تصبر على المهانة والاسى زمنا طويلا . فقد بدا لى ازاء ظروفنا أن هناك حلين ممكنين لا ثالث لهما . فاما أن نفترق او يرتبط كلانا بالآخر مدى الحياة . ولما كنت أرفض حتى أن افكر فى الحل الاول فقد أخذت اتساءل عما اذا كانت هناك وسيلة يمكننى بها أن أصل الى تحقيق الحل الثانى . انى أكره الكذب واعتقد أنه يمكننى أن أضع ضمن صفاتى الايجابية نوعامن الصدقالمغالىفيه . واذا كنت قد كذبت مينو حينذاك فان ذلك يرجع الى عدم احساسى بالكذب مطلقا . لقد بدا لى أننى أقول الصدق . فقد كان ما قلت حقيقة أصدق من الصدق ـ حقيقة روحية لا مادية . وفى الواقع فانى ما فكرت مطلقا فيما قلت بل كان نوعا من الالهام .

كان يذرع الغرفة كالمعتاد وكنت جالسة الى احد طرفى المائدة . فاذا بى أقول فجأة ـ « أنصت الى . توقف عن المسير . فهناك شىء يجب أن أخبرك به » .

ـ « وما هو ؟ »

ـ « كنت أشعر أخيرا بأنى على غير ما يرام . فذهبت لزيارة

الطبيب منذ بضعة أيام — وقد أخبرنى بأنى حامل » .
فوقف ساكنا ينظر الى ثم ردد كلامي قائلا — « هل أنت حامل ؟ »
— « نعم . وانى لعلى ثقة تامة من أنك أنت والد الطفل » .

كان مينو ذكيا . فقد ادرك فى الحال الغرض الحقيقي من ذلك التصريح رغم أنه لم يستطع أن يتكهن بكذبى . فتناول مقعدا وجاء ليجلس بجانبى حيث ربت على خدى فى شغف قائلا — « اعتقد ان ذلك ينبغى أن يكون سببا آخر بل السبب الرئيس فى الواقع الذى يجب أن ينسينى ما حدث ويجعلنى أواصل طريقى . أليس كذلك ؟ »

فسألته متظاهرة بأنى لم أفهم مقصده قائلة — « ماذا تعنى ؟ »

فاسترسل قائلا — « ما دمت سأصير رب أسرة فينبغى من أجل هذا المخلوق البرىء — كما تقلن أنتن أيتها النساء — أن أفعل ما لا ابغى أن أفعله من أجل حبك » .
فقلت هازة كتفى — « أفعل ما شئت . فما كاشفتك بذلك الا لانه الحقيقة » .
فأردف قائلا وكأنه يفكر بصوت عال — « ان الطفل قبل كل شىء يمكن أن يكون سببا للحياة . فكثير من الناس لا يطلبون أكثر من ذلك . فوجود الطفل مبرر للحياة . حتى أنه يمكنك أن تسرقى أو تقتلى من أجل الطفل » .
فقاطعته فى غضب قائلة — « ومن ذا الذى يريدك ان تسرق او تقتل ؟ ما قصدت الا اسعادك . فان كان ذلك لا يسعدك ... اذن فليس ثمة ما يقال أكثر من هذا » .
فنظر الى وربت على خدى مرة أخرى فى شغف قائلا — « ان كنت سعيدة بذلك فأنا سعيد . فهل أنت سعيدة ؟ »
فقلت فى فخر وثبات — « نعم . أولا لانى أحب الاطفال . وثانيا لانه طفلك » . فضحك قائلا — « أنت امرأة ذكية » .

— « لماذا ؟ وما وجه الذكاء فى أن أكون حاملا ؟ »
— « لا شىء . ولكنك يجب أن تعترفى أنها ضربة حاسمة فى هذه اللحظة بالذات . انى حامل وعلى ذلك — ؟ »
— « وعلى ذلك ؟ »
وعندئذ صاح فجأة بأعلى صوته وهو يثب واقفا على قدميه وملوحا بذراعيه فى جنون قائلا :
— « وعلى ذلك فيجب أن تقبل ما فعلت . وعلى ذلك فيجب أن تعيش . تعيش . تعيش ! »

وقد فاقت لهجته كل وصف . فأحسست بطعنة فى قلبى واغرورقت عيناى بالدموع . ثم تلعثمت قائلة ـ « افعل ما شئت . اذا شئت ان تتركنى اذن فلتتركنى . فانى . فانى سأرحل » .

وكان من الواضح انه أسف لانفجاره فقد جاء الى وربت على مرة أخرى قائلا : ـ « انى آسف . لا تكترثى لما أقول . فكرى فى طفلك ولا تنزعجى على » .

فتناولت يده وضغطتها على وجهى وغسلتها بدموعى وانا اتعلثم قائلة ـ « أواه يا مينو ... كيف يسعنى الا انزعج عليك ؟ »

وظللنا صامتين على تلك الصورة بعض الوقت . كان واقفا بجانبى وانا اضغط يده على خدى واقبلها باكية . ثم سمعنا فجأة رنين جرس الباب الامامى .

فابتعد عنى وقد امتقع وجهه بشدة ولكننى حينذاك لم استطع ان ادرك السبب فى ذلك . ولم أهتم بسؤاله. بل قفزت واقفة على قدمى وقلت ـ « اذهب . ها هو ذا استاريتا ! اسرع ! ابتعد . »

فغـادر الغرفة من باب المطبخ وتركه مواربا . فجففت عينى بسرعة واعدت المقاعد الى اماكنها ثم خرجت الى الردهة . وعاودنى هدوئى التام وثقتى بنفسى . وفى ظلام الردهة خطر لى ان اخبر آستاريتا بأنى حامل . فبهذه الطريقة أتقى مضايقاته واذا لم يرغب فى أداء الصنيع الذى سأطلبه اليه بدافع من حبه لى دفعته الشفقة الى أدائه .

وما كدت افتح الباب حتى خطوت الى الخلف بسرعة . فقد رايت سونزونيو على عتبة الباب بدلا من آستاريتا .

كان يدس يديه فى جيبيه وعندما حاولت أن أغلق الباب فى وجهه بطريقة تكاد تكون آلية دفعه فى خفـة بكتفه ففتحه على مصراعيه ودخل الشقة. فتبعته الى غرفة الجلوس حيث ذهب ليقف بجانب المائدة على مقربة من النافذة . كان حاسر الراس كعادته . وما ان دخلت الغرفة حتى احسست بعينيه الشاخصتين الملحتين مركزتين على . فأغلقت البـاب ثم حدثته متظاهرة بعدم الاكتراث الشـديد قائلة :

ـ « لماذا جئت ؟ »

ـ « انك ذهبت لتشى بى . أليس كذلك ؟ »

فهززت كتفى وجلست الى رأس المائدة قائلة ـ « انى لم اش بك . »

ـ « لقد تركتنى وذهبت لاستدعاء الشرطة . »

كنت أحس بالهدوء التام . ولو ان شعورا راودنى قط حينذاك فانه الغضب لا الخوف . اذ أنه لم يعد يخيفنى . واحسست بالغضب يغلى فى صدرى لينصب عليه وعلى كل من وقف حائلا دون سعادتى كما فعل هو . قلت ـ « لقد تركتك وذهبت لانى أحب رجلا اخر ولا اريد أن تكون لى صلة بك بعد ذلك . ولكننى لم أستدع الشرطة . فأنا لست مرشدة . بل ان رجال الشرطة جاءوا من تلقاء انفسهم للبحث عن شخص آخر . »

فأقبل على وأمسك بى من خدى ثم قرصهما بقسوة شديدة جعلتنى أفتح فاى وهو يرفع وجهى نحوه قائلا ـ «يمكنك انتحمدى الله على انك امرأة . »

وظل يقرص خدى مما جعلنى الوى وجهى فى الم على صورة مخيفة ومضحكة فى نفس الوقت . فاستولى على الغضب وقفزت واقفة على قدمى وأنا أصيح قائلة ـ « اخرج من هنا أيها الاحمق ! »

فأعاد يديه الى جيبيه واقترب منى وهو يحملق فى عينى كالمعتاد . فصحت قائلة مرة أخرى : ـ « انك لأحمق ! بعضلاتك وعينيك الزرقاوين الصغيرتين وراسك الاصلع ! اخرج من هنا ! اغرب ايها الأبله ! »

وخيل لى أنه أحمق بحق وهو واقف هناك فى صمت تعلو فمه الرقيق المعوج ابتسامة واهنة وقد دس يديه فى جيبيه وهو لا يفتأ يحملق فى مقتربا منى . فجريت نحو الطرف الاخر من المائدة حيث أمسكت بمكواة ثقيلة وصحت قائلة ـ « اخرج من هنا أيها الابله ! والا هشمت وجهك بهذه المكواة ! »

فتردد لحظة ثم وقف ساكنا . وفى نفس اللحظة فتح من خلفى باب غرفة الجلوس وظهر استاريتا فى مدخل الغرفة . وكان واضحا أنه وجد الباب مفتوحا فسار الى الداخل فاستدرت نحوه صائحة ـ « مر هذا الرجل بالخروج من هنا . فلست أدرى ماذا يريد . مره بالخروج من هنا . »

ولا أدرى لماذا كانت أناقة أستاريتا فى تلك المناسبة منبعا لسرورى الشديد . فقد كان يرتدى معطفا رماديا ذا صفين تبدو عليه الجدة وكان يلبس قميصا من الحرير ذا خطوط حمراء على خلفية بيضاء . وقد اندس بين ثنايا حلته الزرقاء الداكنة رباط عنق رمادى بلون الفضة من الحرير المتاون . فنظر الى واناواقفةهناك الوح بالكواة ثم نظر

الى سونزونيو قائلا فى هدوء ــ « لقد أمرتك السيدة الصغيرة بالانصراف . فماذا تنتظر ؟ »
فقال سونزونيو فى صوت عميق للغاية ــ « هناك أمور كثيرة يجب أن نتحدث فيها أنا والسيدة الصغيرة . فيحسن بك أن تنصرف . »

وكان آستاريتا قد خلع قبعته عند دخوله وهى قبعة سوداء من اللباد ذات حاشية حريرية . فوضعها فى هدوء على المائدة ثم اتجه صوب سونزونيو . وقد أدهشنى موقفه . فقد بدت عيناه تومضان فى تحفز للعراك وكانتا عادة شديدتى السواد والاكتئاب . كما التوى فمه الكبير الى أعلى مبتسما فى لذة وتحد كاشفا عن أسنانه . ثم قال مشددا على كل مقطع من مقاطع ألفاظه ــ « اذن فأنت تأبى الخروج . ولكننى أؤكد لك انك خارج من هنا وبسرعة . »

فهز سونزونيو رأسه رافضا ذلك ولكنه لدهشتى تقهقر خطوة الى الوراء . ثم تذكرت بالضبط من هو سونزونيو . وانتابنى الخوف لا على نفسى بل على آستاريتا الذى راح يستفزه بجرأة شديدة دون أن يدرى من هو . فراودنى نفس الشعور بالالم الذى كان يراودنى فى طفولتى عندما اذهب الى السيرك حيث أرى مروض الاسود الصغير ممسكا بسوط يشاكس به أسدا ضخما زأر فى وجهه . فهممت بأن أصيح قائلة ــ « حذار ! فهذا وحش سفاح ! » ولكننى لم أقو على ذلك . وعاد آستاريتا يقول له ــ « هل أنت ذاهب ــ أم لا ؟ »

فهز سونزونيو رأسه مرة أخرى وتقهقر خطوة ثانية الى الخلف. فتقدم آستاريتا خطوة واحدة حتى صارا يقفان وجها لوجه وقد تساوى ارتفاع قامتيهما . وكاد كلاهما يلمس الاخر . وسأله آستاريتا قائلا تعلو وجهه نفس التصعيرة الملتوية ــ « من أنت على أية حال ؟ قل لى ماأسمك ــ هيا ! »

ولكن سونزونيو لم يحر جوابا . فردد آستاريتا كلامه قائلا بلهجة تكاد تكون شهوانية وكأن صمت سونزونيو كان مبعثا للذته ــ « آذن فأنت تأبى ذلك ــ هه ؟ تأبى أن تقول لى من أنت وتأبى أن تخرج من هنا ــ هه ؟ أليس كذلك ؟ »

فانتظر لحظة ثم رفع يده وصفع سونزونيو بقوة على احدى وجنتيه ثم على الاخرى . فرفعت قبضتى الى فمى وغرزت فيها أسنانى . ثم حدثت نفسى قائلة وقد أغمضت عينى : ــ « والآن سيقتله . » ولكنى سمعت صوت آستاريتا وهو يقول ــ « والآن

عليك ان تغرب . تحرك بسرعة ! » ففتحت عيني مرة اخرى لأرى آستاريتا وهو يدفع سونزونيو نحو البـــاب . كان يجره من ياقة معطفه . وقد بدا سونزونيو طيعا رغم احمرار وجنتيـــه من أثر الصفعات التي تلقاها . اذ انقاد له وكأنه كان يفكر في شيء آخر . وقد دفعه آستاريتـــا الى خارج غرفة الجلوس ثم سمعت البـــاب الامامي يصفق بعنف . وعاد آستاريتا الى الظهور .

سألني وهو يبعد في آلية خيطا كان على صدر معطفه ــ « من هذا ؟ » ثم اخذ يتفحص هندامه وكأنه يخشى أن يكون قد أفسد أناقته بما بذله من مجهود عنيف .

فكذبت قائلة ــ « لم اعرف لقبه قط . كل ما اعرفه ان اسمه كارلو . »

فأجابني بضحكة هازئة وهو يهـــز راســـه قائلا ــ « كارلو . » ثم أقبل نحوى . كنت واقفة في اطار النافذة أتطلع الى الخارج من خلال الواح الزجاج . فأحاط خصرى بذراعه . ثم سألني قائلا وقد تغير صوته وتعبيره تغيرا تاما ــ « كيف حالك ؟ »

فقلت دون أن انظر اليه ــ « على خير ما يرام . » فحملق في ثم ضمني اليه بقوة دون ان يتكلم . فدفعته بعيدا في رفق ثم قلت ــ « لشد ما كنت رقيقا معي . لقد اتصلت بك تليفونيا لأســـألك صنيعا . »

فقال ــ « فلنر ماهو . » وكان لا يزال يحملـــق فيّ . ولم يبد عليه انه مصغ الي .

فبدأت أتكلم قائلة ــ « ذلك الشاب الذى استجوبته ــ »

فقاطعني في عبوس قائلا ــ « نعم . أنعود الى الحديث عن ذلك الشاب ؟ لقد تبين لي أنه ليس على جانب كبير من البطولة . »

فدفعني الفضول لأن اعرف حقيقة ما حدث اثناء لقائه بمينو . فسألته قائلة :

ــ « لماذا ؟ اكان خائفا ؟ »

فهز آستاريتا راسه قائلا ــ « لست ادرى ان كان قد انتـــابه الخوف ام لا . كل ما ادريه أنه ما ان وجه اليه أول سؤال حتى باح بكل شيء . ولو انه انكر لما امكنني ان افعل له شيئا . فلم تكن لدى الأدلة . »

وحدثت نفسي قائلة « اذن فقد صح ما قاله مينو . وكان اعترافه نوعا من الغفلة الفجائية . كان سقطة لم تطلب اليه ولم يدفع اليها

ولا مبرر لها » . فأردفت قائلة ــ « أعتقد انك سجلت ما قال . اريد منك أن تعدم كل أثر لما دونت . »

فابتسم قائلا ــ « لقد ارسلك الى . أليس كذلك ؟ »

فأجبته قائلة ــ « كلا . أنه اقتراحى . » ثم أضفت قائلة بلهجة مؤثرة ــ « ليتنى أصعق الآن ان كنت كاذبة . »

ــ « انهم جميعا يتمنون لو اختفت السجلات . فان أرشيف الشرطة يمثل ضمائرهم القلقة . واذا ما اختفى السجل زايلهم أيضا تأنيب الضمير . »

قلت متذكرة مينو ــ « اتمنى لو صح ذلك . ولكننى أخشى انك مخطىء فى هذه المرة . »

فضمنى اليه مرة أخرى وهو يضغط بجسده على جسدى . ثم تلعثم قائلا وهو يرتجف بالرغبة :

ــ « وماذا تعطينى فى مقابل ذلك ؟ »

فقلت فى بساطة ــ « لا شىء . لا شىء مطلقا فى هذه المرة . »

ــ « ولنفرض اننى رفضت ؟ »

ــ « عندئذ تتسبب فى تعاستى الشديدة لانى احبه . فكل ما يحدث له يبدو وكأنه يحدث لى . »

ــ « ولكنك وعدتنى بأن تترفقى بى . »

ــ « حقا . غير اننى عدلت عن ذلك . »

ــ « لماذا ؟ »

ــ « لهذا . فليس هناك سبب معين . »

فضمنى اليه مرة أخرى ثم وضع فمه على اذنى وأخذ يتلعثم متوسلا الى أن أخضع لرغبته اليائسة لاخر مرة . ولا أستطيع أن اردد كل ماقاله لانه خلط توسلاته بأقوال فاحشة لا يمكننى ان اكتبها . تلك الاقوال التى يرددها الرجال لمثيلاتى من النساء وترددها مثيلاتى من النساء لعشاقهن . أخذ يقول تلك الاشياء بتفصيل دقيق ولكن بغير تلك البهجة اللانهائية المألوفة التى تصاحب مثل هذه الانفجارات . بل فى لذة حزينة وكأنه مخبول . ولقد سمعت ذات مرة مريضا مصابا بجنون القتل يصف المرضة صنوف العذاب التى سينزلها به لو شاءت المقادير ان يقع تحت رحمته . وكان يتكلم بنفس اللهجة الدقيقة الجادة المتزنة التى اخذ يهمس بها آستاريتا فى أذنى معبرا عن فحشائه . وكان مايقصده فى الحقيقة بذلك الوصف هو حبه لى الذى جمع بين الشهوة والحزن الفاجع . ولو كان فى مكانى أى شخص

آخر لتبادر الى ذهنه أن مايقوله لايعدو أن يكون تعبيرا عن الشهوة . أما أنا فعلى العكس اذ أدركت أنه حب عميق مطلق خالص على طريقته كأى حب آخر . فأثار ذلك شفقتي عليه كما كان يحدث دائما لأننى استطعت أن أتكهن بما يستبطن فحشاءه من احساس بالوحدة وعجز تام عن التخلص منه . فتركته يفرغ جعبته قبل أن اتحدث اليـه قائلة ــ « انى لم أشأ أن أخبرك ولكنك ترغمنى على ذلك . افعل ماشئت . ولكننى لن أستطيع أن أكون كما كنت . فانى حامل . »

فلم يدهش . اذ أنه كان لايحيد لحظة واحدة عن غايته الثابتة المحددة . بل قال :

ــ « حسنا ــ وماذا اذن ؟ »

ــ « سأغير أسلوب حياتى . سأتزوج . »

كان السبب الرئيسى الذى دفعنى الى مصارحته بحالتى هو أن اعزيه عن رفضى طلبه . ولكننى بينما كنت اتكلم أدركت أنى أترجم عن رأيى الحقيقى وأن الفاظى كانت نابعة من قلبى . فأردفت قائلة وأنا أتنهد ــ « عندما عرفتنى لاول مرة كنت أبغى الزواج . واذا كنت لم افعل فذلك ليس خطئى » .

وكانت ذراعه لاتزال حول خصرى ولكنه خفف من احاطته بى . وعندئذ انسحب بعيدا عنى وهو يقول ــ « لعنة الله على اليوم الذى لقيتك فيه ! »

ــ « لماذا ؟ »

فبصق مشيحا برأسه جانبا ثم استرسل قائلا ــ « لعنة الله على اليوم الذى لقيتك فيه وعلى يوم مولدى . » كان يتكلم فى هدوء . ولم يبد أنه ينفس عن أية عاطفة عنيفة . بل كان يتحدث فى هدوء وثقة . ثم أضاف قائلا ــ « ليس هناك مايدعو صديقك الى الخوف . فان لقائى به لم يسجل ــ والمعلومات التى أدلى بها لم يعقبها اجراء ما . كل ماهنالك أن اسمه مدون فى سجلاتنا باعتبار أنه عنصر خطر من الناحية السياسية . وداعا يا آدريانا . »

مكثت بجانب النافذة حيث ودعته عند رحيله كما ودعنى . ثم التقط قبعته التى كانت على المائدة وغادر الدار دون أن يستدير نحوى .

وفى الحال فتح الباب المؤدى الى المطبخ ودخل مينو ممسـكا بمسدسه فى يده .. فحملقت فيه مدهوشة يخالجنى احسـاس بالفراغ والعجز عن الكلام .

ثم قال مبتسما — « كانت نيتى مبيتة على قتل آستاريتا . أخيل الك حقا انني ابالي ان اختفت أوراق ضحيتى أم لا ؟»

فسألته [illegible] فى صوت مذهول — « اذن فلم لم تقتله ؟ »

فقال وهو يهز رأسه — « لقد استنزل اللعنة من اعماقه على يوم مولده . فآثرت ان يواصل لعناته عاما أو عامين . »

وأحسست أن أمرا ما كان يزعجنى ولكننى عجزت عن اكتشافه رغم مابذلته من جهد مضن . فقلت — « على أية حال لقد حصلت على ما أريد . فليس ثمة شيء مدون . »

فقاطعنى قائلا — « لقد سمعته . سمعت كل شيء . فقد وقفت خلف الباب وكان مواربا . كما شاهدت ما فعل . » ثم أضاف قائلا فى غير اكتراث — « فهو شجاع . ان صديقك آستاريتا رجل شجاع . اذ نمت طريقته فى صفع سونزونيو عن السيطرة التامة ! فهناك طرق معينة تؤدى بها مثل هذه الاعمال حتى توجيهالصفعات . لقد ضربه وكأنه رجل عظيم يضرب مخلوقا حقيرا أو سيد يضرب خادمه . كما عجبت للطريقة التى تقبل بها سونزونيو صفعاته ! فانه لم ينطق بكلمة . » ثم ضحك وأعاد مسدسه الى جيبه .

وقد حيرني الى حد ما ثناؤه الغريب على آستاريتا . وسألته قائلة فى رجفة — « ماذا تتوقع ان يفعل سونزونيو ؟ »

— « من يعلم ؟ »

عندئذ كان الليل يوشك ان يخيم فقد شاع الظلام الحالك فى غرفة الجلوس . واتكأ مينو فوق المائدة ليشعل المصباح الاوسط . فبقى كل ماحولنا غارقا فى الظلام . وقد وضعت على المائدة نظارة أمى وأوراق اللعب الخاصة بها . فجلس مينو والتقط الورق ثم خلطه قائلا — « هل لك فى احدى العاب الورق أثناء انتظارنا العشاء ؟ »

فهتفت قائلة — « ياله من اقتراح ! نلعب الورق ! »

— « نعم . بيجار ماى نيبر Beggar My Neighbour هيا . »

فامتثلت له وجلست أمامه ثم تناولت فى آلية ماوزعه على من الورق . وكان براسى ذهول وبيدى رجفة لا ادري لها سببا . وبدات اللعب فبدت لى صور الاوراق وقد اتخذت طابعا غريبا مزعجا . فبدا الاعرج السباتى أسود شريرا بعينه السوداء ، وزهرته السوداء فى يده . وبدت البنت « الكوبة » شهوانية منفعلة معدومة الشكل . أما « الباش الديناري » فقد بدا مكترشا باردا عديم الحس غليظ

القلب . وأحسست أن الرهان بيننا فى اللعب ذو أهمية بالغة . ولكننى لم أدر ماهو . ولشد ما كنت حزينة حتى أننى أخذت أتنهد من وقت لآخر أثناء اللعب لأرى ما اذا كان ذلك العبء الثقيل لايزال جاثما على صدرى . فاذا بى احس انه ليس جاثما فحسب بل زاد ثقلا .

وعندما فاز فى الشوط الاول والثانى سألنى قائلا وهو يخلط الورق ـ « ماذا دهاك ؟ انك لاتجيدين اللعب مطلقا ! »

فألقيت الورق قائلة ـ « لاتعذبنى على هذه الصورة يامينو ! فانى فى الواقع لا أشعر مطلقا بالرغبة فى اللعب . »

ـ « لماذا ؟ »

ثم نهضت واقفة وأخذت اتجول فى أرجاء الغرفة وأنا أفرك يدى فى قوة دون أن يرانى . ثم اقترحت عليه قائلة ـ « هلا ذهبنا الى الغرفة الاخرى ؟ »

ـ « ان شئت ذلك . »

فخرجنا الى الردهة . وهناك فى الظلام أحاط خصرى بذراعه ولثم عنقى . ولاول مرة فى حياتى أحسست أن الحب كان ـ كما يعتقد هو ـ وسيلة للتخدير وطرد الافكار ولكنه ليس الذ ولا أهم من أية وسيلة أخرى . فأمسكت رأسه بيدى وقبلته فى عنف . ودخلنا الغرفة وقد تشبث كلانا بالاخر . وكانت غارقة فى الظلام ولكننى لم ألحظ ذلك . فقد ملأ عينى ضوء متألق أحمر كالدم . وكانت كل حركة من حركاتنا تتميز بروعة ألسنة اللهيب وهى تثب فى سرعة وبغتة من النار التى راحت تلتهمنا . فأحيانا تبدو اجسادنا وكأنها تملك حاسة سادسة فنألف الظلام كما نألف ضوء الشمس . ولكنها رؤيا لاتتجاوز حدود الاتصال البدنى فكان كل ما أمكننى رؤيته هو منظر جسدينا وقد انعكست صورتهما على صفحة الظلام وكأنهما جسدا غريقين القت بهما على الشاطىء دوامة سوداء .

وفجأة وجدتنى راقدة على الفراش وقد انعكس ضوء المصباح على بطنى العارى . فضممت فخذى بقوة ولا أدرى ان كان ذلك بسبب البرد أو الخجل . ثم سترت نفسى بيدى . فنظر الى مينو قائلا ـ « والان سيأخذ بطنك فى الانتفاخ رويدا رويدا كل شهر الى أن يأتى يوم يرغمك فيه الالم على ان تفتحى ساقيك اللتين تضمينهما الآن بقوة ثم يظهر رأس الطفل وقد كساه الشعر فتلفظينه الى ضوء النهار ليلتقطه المحيطون بك ويضعوه بين ذراعيك فتشعرين بالسعادة. وهكذا يضاف رجل آخر الى العالم. فلنأمل الا يردد ماقاله آستاريتا ـ »

— « وماذا قال ؟ »

— « لعنة الله على يوم مولدى . »

فقلت :

— « آستاريتا رجل تعس . ولكنى واثقة أن ابنى سيكون سعيدا مجدودا . »

ثم تدثرت بالبطانية وأعتقد أننى استغرقت فى النوم . ولكن اسم آستاريتا أيقظ فى قلبى من جديد ذلك الاحساس بالالم الذى راودنى بعد رحيله . وفجأة سمعت صوتا مجهولا يصيح فى أذنى بنبرات عالية قائلا — « بام . بام ! » وكأنه يقلد صوت طلقين ناريين . فنهضت من الفراش واتجهت صوب الباب لاتأكد من أنه مغلق باحكام . ولكننى اصطدمت بمينو الذى كان واقفا فى كامل هندامه يدخن بالقرب من الباب . فعدت الى الفراش حيث جلست على حافته وقد انتابنى الذهول والحيرة . وسألته قائلة — « ماراك ؟ ماذا سيفعل سونزونيو ؟ »

فأجابنى قائلا وهو ينظر الى — « وكيف أعلم ذلك ؟ »

فقلت وقد واتتنى الالفاظ أخيرا لاعبر بها عن ألمى — « انى أعرفه . فانقياده له دون احتجاج وهو يدفعه الى خارج الغرفة لايعنى شيئا . فهو قادر تماما على قتله . ما رأيك ؟ »

— « ربما . فذلك أمر محتمل جدا . »

— « اتعتقد أنه سيقتله ؟ »

— « لو أنه فعل ذلك لما دهشت » .

فصحت قائلة وأنا أنهض من مكانى لابدأ فى ارتداء ثيابى دون مزيد من اللفظ — « يجب أن نحذره فأنا واثقة أنه سيقتله . أواه ! لم لم أفكر فى ذلك من قبل ؟ »

ارتديت ثيابى بسرعة أثناء حديثى عن مخاوفى وأحاسيسى الداخلية . ولم ينبس مينو بكلمة بل ظل يدخن متجولا فى أرجاء الغرفة . وأخيرا قلت — « انى ذاهبة الى منزل آستاريتا . فهو الآن فى داره . انتظرنى هنا . »

— « انى قادم معك . »

فلم أصر على ما قلت . بل فرحت من أعماقى لصحبته اذ اننى كنت فى حالة من الاضطراب يخشى معها أن ينتابنى المرض . قلت وأنا أرتدى معطفى — « يجب أن نستقل سيارة فى الحال » ولبس مينو معطفه أيضا ثم غادرنا المنزل .

وأخذت أهرول فى الطريق أكاد أركض . فوسع مينو خطاه لكى يلحق بى وقد شبك ذراعه بذراعى . وما لبثنا أن وجدنا سيارة فأسرعت بركوبها وأنا أصيح مملية بعنوان آستاريتا . وكان يقطن فى أحد شوارع حى « براتى » الذى لم أره قط من قبل ولكننى كنت أعلم أنه يقع على مقربة من المحاكم .

وأخذت السيارة تستجمع سرعتها بينما لم أفتأ أتابع الطـريق وكأنى مخبولة وقد اتكأت الى الامام مراقبة الشوارع من فوق كتف السائق . وفى لحظة معينة سمعت مينو يقول فى هدوء ـ « وماذا لو فعل ؟ فبذلك تكون أفعى قد التهمت أفعى . هذا هو كل ماهنالك . » ولكننى لم ألتفت اليه . وما ان وصلت السيارة الى خارج مبنى وزارة العدل حتى أمرت السائق بالوقوف . فنقده مينو أجره ثم غادرنا السيارة . وركضنا عبر الحديقة الصغيرة ذات الشكل الهنـــدسى مجتازين ممراتها المغطاة بالحصباء فيما بين الاشجار والمقاعد . وفجأة اذا بالشارع الذى يسكنه آستاريتا يمتد امامى كالسيف طـــويلا مستقيما وقد اضاءه عن بعد صف من المصابيح الكبيرة البيضاء . كان شارعا ذا منازل ضخمة بنيت فى نظام وقد بدا مهجورا لخلوه من المحال التجارية . وقدرت من الرقم ان يكون منزل آستاريتا قرب نهاية الشارع الذى لشد ما ساده الهدوء حتى قلت ـ « لعلها كلها تخيلات .. ولكن لا يسعنى الا أن أفعل ذلك »

ومررنا بثلاثة مبان أو أربعة وبمثلها من مفارق الطرق ثم تكلم مينو قائلا فى هدوء : ـ « ومع ذلك فلا ريب أن شيئا قد وقع . انظرى هناك . » وما ان رفعت بصرى حتى رأيت زحاما أسود كان قد تجمع أمام أحد الابواب الامامية غير بعيد من مكاننا . فقد اصطف النـــاس على الافريز المواجه وهم يتطلعون بأبصارهم نحو السماء المظلمة . وتأكدت أن ذلك بلا ريب هو منزل آستاريتا فأخذت اجرى نحوه كما أعتقد أن مينو كان يجرى أيضا . ولهثت قائلة لاحـد الافـراد المتجمهرين حول مدخل الدار ـ « ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟ »

فقال الشخص الذى خاطبته وكان فتى صـــغيرا أشقر حاسر الرأس والذراعين يمسك بدراجة من قضبان مقودها ـ « لم ينجل الامر تماما . فقد ألقى شخص بنفسه فى بئر السلم أو ألقى به . وصعد رجال الشرطة الى سطح المنزل للبحث عن شخص آخر . »

فشققت طريقى خلال الزحام وأفسحت لنفسى مكانا بمرفقى فى ردهة المدخل التى كانت فسيحة باهرة الاضاءة مزدحمة بالناس .

وثمة درج أبيض ذو سياج حديدى كان يرتفع فى منحنى واسع فوق رءوس الناس . وبينما كنت أشق طريقى الى الامام وأنا أكاد ارتفع عن الارض بقوتى الدافعة أمكننى أن أرى من فوق كل هذه الرءوس والمناكب مكانا مكشوفا على الارض أسفل الدرج . وثمة عمود رخامى أبيض مستدير كان يحمل تمثالا عاريا مجنحا من البرونز المذهب وقد ارتفعت احدى ذراعيه ممسكة بمشعل زجاجى أغبش ركب فى داخله مصباح كهربائى ، وفى أسفل ذلك العمود مباشرة رقد جثمان آدمى مسجى بملاءة . وكان الجميع ينظرون فى نفس الاتجاه فنظرت أنا أيضا حيث لاحظت أنهم يحملقون فى قدم بارزة من تحت الملاءة وقد انتعلت حذاء أسود . عندئذ سمعت أناسا كثيرين يصيحون قائلين بلهجة آمرة ــ « ابتعدوا . ابتعدوا ! » فاندفعت مع الاخرين جميعا الى الوراء حيث وجدت نفسى فى الطريق .

فقلت فى ضعف لشخص كان يقف خلفى تماما ــ « فلنذهب الى المنزل يامينو ! » ثم استدرت نحوه فاذا بى أمام وجه مجهول أخذ ينظر الى فى دهشة . وأخذ الناس يتفرقون معلقين على ماحدث بعد أن ظلوا يحتجون عبثا وهم يطرقون الباب المغلق على حين لم يفتأ قوم آخرون يفدون على المكان راكضين من اتجاهات اخرى . فقد وقفت سيارتان وعدد من راكبى الدراجات لتحرى ماحدث . واخذت أتجول خلال الزحام وقد انتابتنى حالة من القلق المتزايد فرحت أتفحص الوجوه دون أن أجرؤ على مخاطبة أصحابها . فكانت بعض الرءوس والمناكب تبدو من الخلف وكأنها لمينو، فاشق طريقى باندفاع حتى أتوسط كل جماعة فاذا بعدد من الوجوه المجهولة تطالعنى فى دهشة . وكان الزحام حول مدخل الدار لايزال على أشده فقد كان الناس يعلمون بوجود جثة فى الداخل ومازالوا يأملون فى القاء نظرة عليها . وقد تزاحموا فى جد وجلد كأنهم يقفون فى صف خارج احد المسارح . وظللت أتجول هنا وهناك حتى أدركت فى لحظة معينة أننى كنت أتفحص كل وجه ولم أفتأ أطالع نفس الوجوه . وقد خيل لى أننى سمعت اسم آستاريتا يتردد فى احدى الجماعات فلاحظت أننى لم أكترث له قط بل تركز على مينو كل احساسى بالالم . وأخيرا اقتنعت بأنه لا يمكن ان يكون هناك . فلا ريب أنه انصرف عندما شققت طريقى الى داخل الردهة . وخيل لى ولا أدرى لذلك سببا انه كان ينبغى على أن أتوقع هروبه . وعجبت كيف أننى لم افكر فى ذلك من قبل . وما ان استجمعت شجاعتى حتى تحاملت على نفسى الى أن

بلغت الساحة حيث ركبت سيارة وأدليت بعنوان منزلى . وخطر لى أن مينو ربما افتقدنى فى الزحام فعاد الى المنزل وحده . ولكننى كنت على يقين تقريبا من أن ذلك الاحتمال غير صحيح .
لم يكن فى المنزل ولم يعد لا فى ذلك المساء ولا فى اليوم التالى فاحتبست فى غرفتى وقد استحوذ على شعور قوى بالقلق والاضطراب حتى أننى لم أستطع أن أتمالك نفسى من الرجفة فى جميع أطرافى . كانت حرارتى طبيعية ولكن بدا لى أننى أعيش خارج نفسى فى جو شاذ يتجاوز حدود طاقتى وكان كل مشهد فيه وكل صوت وكل احتكاك بالمجتمع يؤذينى ويضنينى . ولم يقو شىء على تشتيت ذهنى وصرفه عن التفكير فى مينو ولا حتى تلك الجريمة الجديدة التى ارتكبها سونزونيو وامتلأت بها جميع الصحف التى كانت تحملها الى أمى . وكانت تلك الجريمة تحمل طابع سونزونيو الذى لايمكن أن يخطئه أحد . فلعلهما اشتبكا فى صراع مدة لحظة خارج الباب الامامى لشقة آستاريتا ثم حنى سونزونيو ظهر آستاريتا الى الخلف على سياج الدرج ورفعه الى أعلى ثم ألقى به فى بئر السلم . مثل هذه الوحشية كانت معبرة للغاية : ولا يمكن أن يفكر أحد فى القتل على هذه الصورة سوى سونزونيو . ولكننى كما قلت لم يكن يشغل بالى سوى خاطر واحد ولم يقو شىء على أن يثير اهتمامى ولا حتى تلك المقالات التى وصفت للناس كيف قتل سونزونيو بعد ذلك بعيار نارى فى ساعة متأخرة من الليلة نفسها أثناء هروبه كالقط عبر سطوح المنازل . فقد كانت كل صورة من صور الانشغال أو تشتيت الذهن أو حتى التأمل فى غير مينو تعافها نفسى وتماؤنى بالغثيان . ولكن التفكيرفى مينوكان فى نفس الوقت يسبب لى ألما مبرحا لا يمكن احتماله . وحدث أن خطر آستاريتا على بالى مرتين أو ثلاثا وما ان تذكرت حبه لى وكآبته حتى خالجنى نحوه احساس قوى بالشفقة العاجزة وحدثت نفسى قائلة اننى لولا قلقى الشديد على مينو لبكيته وصليت على روحه التى لم تعرف السعادة قط والتى انتزعت من جسده بطريقة أشد ماتكون بغتة ووحشية .

هكذا أمضيت سحابة اليوم الاول بطوله وليله كاملا ثم نهار اليوم التالى وليله . فكنت تارة ارقد على الفراش وتارة اجلس فى المتكأ عند طرف سريرى ممسكة بين يدى باحدى سترات مينو وقد وجدتها معلقة على المشجب . وكنت بين الفينة والفينة أقبلها فى حرارة وحماس أو أعضها بأسنانى لاهدىء من قلقى . وكنت عندما ترغمنى امى على

تناول شيء من الطعام استخدم فى تناوله يدا واحدة فقط بينما اظل قابضة بيدي الاخرى فى تشنج على سترة مينو . وفى الليلة الثانية أرادت أمي أن تضعني فى الفراش لأخلد الى النوم فتركتها تخلع لى ثيابى . ولكنها ماان حاولت تأخذالسترة منى حتى أطلقت صرخة حادة ملأتها بالرعب . وكانت أمي لا تعرف شيئا معرفة مؤكدة بل قدرت على نحو ما ان غيبة مينو عن المنزل هى التى دفعتنى الى اليأس .

وفى اليوم الثالث أمكننى ان أصل الى فكرة ما تشبثت بها فى قوة طوال الصباح رغم احساسى الغامض بمدى عيها وعدم استنادها الى أساس قوى . فقد خيل لى أن مينو قد انتابه الذعر عندما علم بحملى وأراد أن يتهرب من الواجبات الملقاة على عاتقه فرحل الى منزل أسرته فى الريف . ومع أن ذلك الفرض كان بغيضا فقد آثرت أن أظن به هذه النذالة على أن اقبل الفروض الاخرى التى لم يسعنى الا أن أتخيلها لتفسير اختفائه والتى لشد ماكانت أليمة مفجعة . وقد أوحت بها الى الظروف الملابسة لهربه .

وفى ظهر ذلك اليوم دخلت أمي غرفتى وألقت بخطاب على الفراش . فتعرفت على خط مينو ووثب قلبى من الفرح وانتظرت ريثما تغادر أمي الغرفة ثم انتظرت حتى يهدأ روعى قليلا . وبعد ذلك فتحت الخطاب وهاهو ذا نصه :

آدريانا يا أغلى حبيبة .

فى اللحظة التى تتسلمين فيها هذا الخطاب أكون قد رحلت عن هذه الدنيا . عندما فتحت المسدس ووجدته فارغا أدركت فى الحال أنك الفاعلة . واتجه تفكيرى اليك فى حب شديد . لهفى عليك يا آدريانا فانت لا تعرفين شيئا عن هذه الاسلحة . فثمة رصاصة أخرى كانت باقية فى المخزن . وقد عز من تصميمى اغفالك اياها . وعلى أية حال فهناك طرق كثيرة للانتحار .

لقد وجدت نفسى كما قلت لك عاجزا عن قبول مافعلت . كما احسست بالحب نحوك خلال الايام القليلة الاخيرة . ولكننى لو كنت منطقيا مع نفسى لوجب على أن أكرهك . فانت تمثلين كل ما امقته فى نفسى اشد المقت ـ كل ما كشفت عنه فى نفسى تلك المقابلة . فان ماحدث عندئذ فى الواقع كان انهيارا لتلك الشخصية التى ينبغى عنى ان اكونها . فتعريت الا من ذلك الرجل الذى يمثلنى فى الحقيقة . فلم يكن ماحدث جبنا او خيانة بل انقطاعا غامضا فى الارادة فحسب .

ولعله ليس غامضا الى هذا الحد ـ ولكن ذلك قد يحملني بعيدا عن الموضوع . كل ما اريد ان اقوله هو انني بانتحاري أضع الامور في نصابها الذي ينبغي أن تكون عليه .

لا تجزعي فاني لا أكرهك . بل لشد ما أحبك في الواقع حتى أنني لا أرضى عن الحياة الا اذا فكرت فيك . ولو كان في امكاني لواصلت الحياة ولاتخذتك زوجة لي ولكانت السعادة من نصيبنا كما تعودت أن تقولي . ولكن ذلك في الواقع ليس في الامكان .

كما تذكرت الطفل الذي تحملينه . فكتبت بشأنه رسالتين احداهما الى أسرتي والاخرى الى صديق محام . وهم قوم مهذبون قبل كل شيء . فعلى الرغم من أن مشاعرهم نحوك لايمكن أن يحوطها الغموض فاني واثق من أنهم سيؤدون واجبهم . أما اذا رفضوا ـ وهذا أمر بعيد الاحتمال للغاية فلا تترددي في اللجوء الى القانون ـ وسوف يزورك صديقي المحامي ويمكنك أن تثقي به .

أذكريني أحيانا . واني أقبلك .

مينو

ملحوظة : صديقي المحامي يدعى فرانسسكو لاورو . ويقيم بالمنزل رقم ٣ بشارع فياكولا دي رنزو .

ما ان قرأت هذه الرسالة حتى دفنت نفسي بين أغطية الفراش حيث جذبت الملاءة فوق رأسي وأخذت أبكي في مرارة . ولايمكنني أن أذكر كم طال بكائي . فكلما خيل لي أنني توقفت عن البكاء اذا بتمزق اليم حاد في صدري يجعلني انفجر باكية من جديد . ولم أبك بصوت عال كما كنت اتمنى أن افعل خشية أن أجذب انتباه أمي . فرحت أبكي في صمت . وخيل لي أنني ابكي لاخر مرة في حياتي بأسرها . فبكيت مينو وبكيت نفسي وبكيت حياتي الماضية بأسرها وكذلك حياتي المستقبلة .

وأخيرا نهضت من الفراش وأنا لا أزال أبكي يخالجني احساس بالذهول وبلادة الذهن وبدأت أرتدي ثيابي بسرعة وقد عشيت عيناي بالدموع . ثم غسلت عيني بالماء البارد . وطليت وجهي الاحمر المتورم بقدر ما أمكنني ذلك . ثم غادرت المنزل في هدوء دون أن أخبر أمي .

وتوجهت الى مركز الشرطة المحلي حيث قابلت المأمور . فأنصت الى روايتي ثم قال يراوده الشك ـ « لم تصلنا في الواقع أية معلومات فستجدينه قد فكر في الامر مرتين . »

وتمنيت لو صح ماقال ، ولكنى ضقت به فى نفس الوقت دون ان ادرى لذلك سببا . فقلت فى حدة ــ « انت تتكلم بهذه اللهجة لانك لا تعرفه . أتحسبهم جميعا على شاكلتك ؟ »

فسألنى قائلا ــ « أنصتى الى ! أتريدينه حيا أم ميتا ؟ »

فصحت قائلة ــ « أريده أن يعيش ! اريده أن يعيش ! ولكننى لشد ما أخشى أن يكون قد مات . »

ففكر قائلا ــ « تشجعى . فربما كان ينوى الانتحار عندما كتب لك هذا الخطاب . ولكن لعله عدل عن ذلك فيما بعد . فهو كائن بشرى ومن المحتمل أن يحدث ذلك لاى شخص . »

فتلعثمت قائلة ــ « نعم . انه كائن بشرى . » ولم أعد أدرى ماذا انا قائلة .

ثم ختم حديثه قائلا ــ « وعلى أية حال فلتعودى الينا هذا المساء . وعندئذ يمكننى أن أزودك ببعض الاخبار »

فخرجت من مركز الشرطة واتجهت مباشرة الى الكنيسة . وكانت هى نفس الكنيسة التى عمدت فيها ثم نصرت وتمت فيها مناولتى الاولى . كانت كنيسة عريقة فى القدم مستطيلة عارية بها صفان من الاعمدة الحجرية ذات اللون البنى المخفف وأرضية مغبرة من أحجار الرصف الرمادية . ولكن كان هناك على جانبى الكنيسة حيث يكتنف الظلام صحنيها فيما وراء صفى الاعمدة عدد من الكنائس الصغيرة المذهبة فى بذخ اشبه بالكهوف العميقة المملوءة بالكنوز . وقد كرست احدى هذه الكنائس للسيدة العذراء . فجثوت على الارض فى الظلام امام الحاجز البرونزى الذى كان يحيط بها . وقد ظهرت العذراء فى صورة كبيرة معتمة خلف عدد من اصص الزهور ، وكانت تمسك بطفلها بين ذراعيها بينما سجد عند قدميها أحد القديسين شابكا يديه وهو يبتهل اليها . فانحنيت على الارض حيث اصطدم راسى بأحجار الرصف . وفيما انا اغطى الحجر بقبلاتى رشمت علامة الصليب على تراب الارض ثم استغثت بالعذراء ونذرت على نفسى الا ادع رجلا آخر يقربنى طوال حياتى ولا حتى مينو . وكان الحب هو الشىء الوحيد الذى اكترث له فى الوجود بأسره فلم تكن لى متعة سواه . وخيل لى انها أعظم تضحية يمكننى أن أقدمها لخلاص مينو . وبعد ذلك صليت من قلبى بلا الفاظ ولا خواطر وكنت لا أزال منحنية يلامس جبينى أرض الكنيسة . ولكننى ما ان نهضت واقفة حتى انبهرت . فقد بدت لى تلك الظلمة الحالكة التى تكتنف الكنيسة

وقد انشقت فجأة بنور ساطع حيث أبصرت العذراء بوضوح وهى تنظر الى فى رقة وحنان . ولكنها مع ذلك أخذت تهز رأسها وكأنها تقول لى انها لا تقبل صلاتى . ولم تمض على ذلك لحظة واحدة حتى وجدتنى واقفة مرة أخرى أمام الحاجز المواجه للهيكل . وخالجنى لذلك احساس بأنى اقرب الى الموت منى الى الحياة . فرشمت الصليب على صدرى ثم عدت الى المنزل .

وظللت اليوم بطوله أعد الدقائق والثوانى . وما أن اقترب المساء حتى ذهبت مرة أخرى لمقابلة مأمور الشرطة . فرمانى بنظرة غريبة مما جعلنى أحس وكأنه سيفشى على فقلت بصوت لا يكاد يخرج من حلقى – « اذن فالخبر صحيح . لقد قتل نفسه بالفعل . »

فالتقط مأمور الشرطة صورة فوتوغرافية كانت على المنضدة ثم قدمها الى قائلا : – « ثمة رجل لم تعرف شخصيته بعد قتل نفسه فى أحد الفنادق بالقرب من المحطة . انظرى لترى ان كان هو صديقك . »

فتناولت الصورة وتعرفت عليه فى الحال . لقد صوروا الجزء الاعلى من جسده ابتداء من الخصر . ومن الواضح انه كان ممددا فى الفراش . وقد سالت الدماء عبر وجهه فى خطوط سوداء صغيرة منبثقة من صدغه حيث أطلق النار على نفسه . ولكن وجهه تحت هذه الخطوط كان يرتسم عليه صفاء لم اره قط خلال حياته .

أثبت شخصيته بصوت ضعيف واهن ثم نهضت واقفة . وهم الضابط بأن يقول لى شيئا ولعله اراد أن يعزينى ولكننى لم أشأ أن أنصت اليه . بل غادرت الغرفة دون أن أستدير نحوه .

وذهبت الى المنزل . وعندئذ ارتميت بين ذراعى أمى ولكن دون أن أبكى . كنت أعلم أنها غبية وانها لاتفهم شيئا ولكن لم يكن فى وسعى أن أأتمن سواها . ورويت لها كل شىء عن انتحار مينو وعن حبنا وعن حملى . ولكننى لم أخبرها أن سونزونيو كان والد الطفل . وأخبرتها بالنذر الذى قدمته أيضا قائلة انه قد استقر رأيي على تغيير أسلوب حياتى ومساعدتها فى حياكة القمصان أو الانخراط فى سلك الخدمة . فقالت أمى بعد أن حاولت تعزيتى بعبارات سخيفة ولكنها صادقة أنه ينبغى على الا اتخذ قرارات متهورة – وان مايجب أن أفعله الآن هو أن أرى ما ستفعله الاسرة من أجلى .

فقلت – « هذا الموضوع يخص طفلى ولا يخصنى . »

وفى صباح اليوم التالى زارنى فجأة وعلى غير انتظار صديقا مينو توليو وتوماسو . فقد تسلما هما أيضا رسالة من مينو أبلغهما فيها

بخيانته وحذرهما من العواقب التى قد تترتب على ذلك بعد ان كاشفهما باعتزامه الانتحار .

قلت فى حدة ــ « لا تنزعجا . فلا حاجة بكما الى الذعر . فلن يصيبكما مكروه على الاطلاق . » ثم حدثتهما عن آستاريتا وكيف أنه وهو الشخص الوحيد الذى يعرف شيئا قد قضى نحبه وأن المقابلة التى تمت بينهما لم تسجل فى محاضر الشرطة وأنهما كانا فى أمان من الوشاية . وبدا لى أن توماسو قد أزعجه حقا مصرع مينو . أما توليو فلم يكن قد تخلص بعد من خوفه . اذ انه مالبث أن قال ــ « ومع ذلك فانه قدوضعنا فى مأزق حرج . فمن ذا الذى يمكنه أن يثق بالشرطة ؟ وما يدرينا . فما أشنعها من خيانة ! » ثم فرك يديه منفجرا فى الضحك على طريقته المعهودة المغالى فيها وكأن مايقوله شىء مسل حقا .

فنهضت واقفة فى غضب ثم قلت ــ « لم تكن شيئا من هذا القبيل ــ لقد قتل نفسه ــ فماذا تطلبان اليه أكثر من ذلك ؟ فان أحدا منكما ما كان ليجد الشجاعة التى تؤهله لان يحذو حذوه . كما يمكننى ان أقول لكما شيئا آخر ــ فأنتما وان لم تكونا خائنين لا تساويان شيئا ! أتعرفان لماذا ؟ لانكما منكودان بائسان تعسان مفلسان لن يصل الى حوزتكما مليم واحد . فاذا ما سارت معكما الامور سيرا حسنا نلتما مالم تحصلا عليه قط حتى الان فى حياتكما بأسرها ونعمتما وأسرتاكما برغد العيش . أما هو فكان غنيا اذ ولد فى أسرة ثرية . وكان سيدا مهذبا . وان كان قد انضم لحركتكم فذلك لايمانه بها لا أملا فى مأرب أو غاية . فكان الامر بالنسبة له خسارة على طول الخط أما بالنسبة لكما فالامر على العكس من ذلك كسب على طول الخط ! هذا هو مايمكننى أن أقوله لكما ــ وكان يجب أن تخجلا من مجيئكما الى هنا لتحدثانى عن الخيانة » .

ففغر توليو الضئيل فاه الضخم وكأنه يهم بالرد فمنعه توماسو بحركة من يده وقد فهم ماقلت . ثم قال لى ــ « انك على حق ــ ولكن لا تنزعجى ــ فلن أذكر مينو الا بالخير . » وبدا متأثرا فأحسست بالميل نحوه لانه من الواضح انه كان شغوفا حقا بمينو . ثم ودعانى وانصرفا .

وما ان خلوت الى نفسى من جديد حتى أحسست أن ماقلته لهذين الشخصين قد خفف الى حد مامن حزنى وأساى . فكرت فى مينو ثم فكرت فى الطفل وكيف أنه سيكون طفلا لابوين : سفاح

وبغي . ولكن كل رجل فى العالم عرضة لان يقتل شخصا ما وكل امرأة عرضة لان تبيع عرضها . ولكن أهم ما في الامر هو أن يولد في يسر وان ينمو قويا سليم البنية . واستقر رأيي ان كان ذكرا على تسميته جياكومو احياء لذكرى مينو . أما اذا كان المولود انثى فسأدعوها « لتيتا » لانني كنت اريدها ان تحظى بما لم أحظ أنا به وهو الحياة المرحة السعيدة . وكنت على ثقة بأن ذلك سيتاح لها بمساعدة أسرة مينو .

تمت

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

رقم الايداع : ٤٤٩٦ / ١٩٩٠
I.S.B.N
977-07-0006-7

www.library4arab.com/vb

الطباعة : مؤسسة دار الهلال ـ القاهرة

www.library4arab.com/vb



البرتومورافيا

● ولد فى مدينة روما فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٧ وتوفى فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠ .

● بدأ حياته الادبية فى عام ١٩٢٩ حين نشر روايته الأولى « اللامبالون » ثم تتابعت اعماله التى رفعته الى مصاف اكبر ادباء ايطاليا طوال ستين عاما .

● كتب ١٦ رواية .. والعديد من المجموعات القصصية والمسرحيات .

● تحولت رواية « امرأة من روما » الى فيلمين الأول عام ١٩٥٤ ، والثانى فى عام ١٩٨٧ والاثنان من بطولة جينا لولو برجيدا .

● نشرت له روايات الهلال .. « المستهترون » « ١٩٣٤ » و« امرأة من روما » .

● تزوج ثلاث مرات من كاتبات . منهن : السامورانته ، وكارمن ليرا .

● زار مصر والمنطقة

هذه الرواية

مسكينة اوريانا ..

لقد باعتها امها وهى فى السادسة عشر من عمرها الى اكثر من رجل .

اوريانا إبنة لخياطة فقيرة . بدأت امها تعرضها على الرجال .. كان اول رجل هو رسام اتخذها نموذجا وعشيقة . ثم دفعتها للعمل كفتاة ليل فى احد الكباريهات .. ثم اضطرت الفتاة المسكينة الى ان تجد الرجال فى فراشها بناء على رغبة امها .. كل ذلك من اجل ان تمتلىء بطن امها بالطعام وجذبها بالفلوس .

تقابل اوريانا تلميذا مناضلا متحمسا للقضايا الوطنية . تحبه وترتبط به . لكن الشاب ينتحر .

اوريانا نموذج انسانى يثير الشفقة . والرثاء .. كتبه البرتومورافيا فى عام ١٩٤٧ فى واحدة من أهم رواياته « امرأة من روما » . التى نشرتها روايات الهلال اول مرة فى عام ١٩٧١ فى ترجمة كاملة .

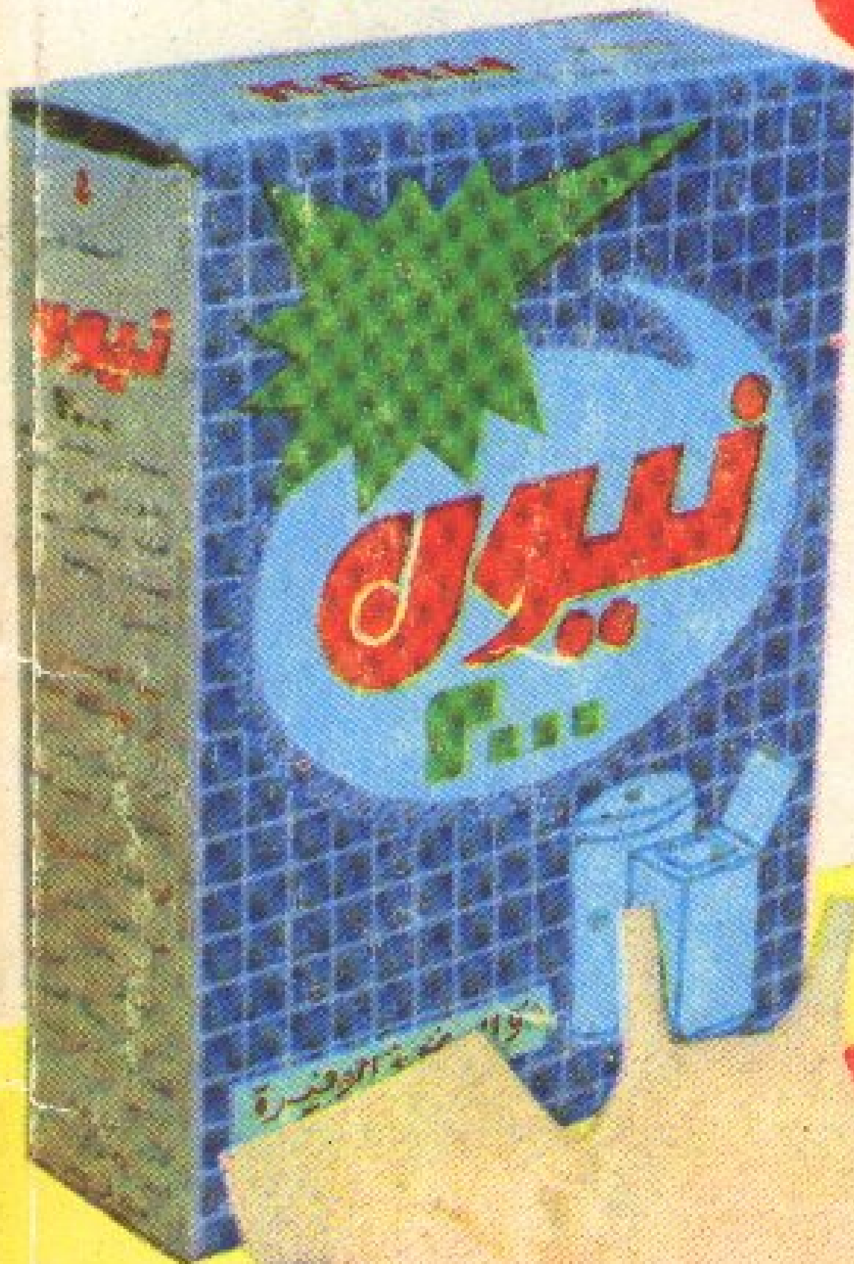
واليوم نعيد نشر هذه الرؤية الرائعة فى جزء واحد . وفى نفس الطبعة الكاملة بمناسبة رحيل البرتومورافيا . واحد من ابرز الكتاب الايطاليين فى القرن العشرين .

امرأة من روما ..

رواية الأمس .. واليوم .. والغد ..

المنظف الصناعي

نيول ٢٠٠٠



ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية

إنتاج
شركة الإسكندرية للزيوت والصابون